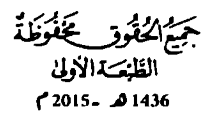
نهج البيان في تفسير القرآن

سماحة الشيخ محمد المختار السلامي
مفتي الجمهورية التونسية سابقا

الجزء الرابع





ISBN: 978-9938-14-191-7



مطبعة التسفير الفني
Imprimerie Reliure d'Art

الهاتف: 030 432 74 216+
الفاكس: 248 432 74 216+
البريد الالكتروني
reliure.dart@tunet.tn

• قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾

بيان المعنى الإجمالي

ومرة ثانية يذكره الخضر بأنه سبق منه أن نبهه إلى أنه لا يستطيع الصبر على ما يراه معه. لم يستطع موسى أن يعتذر بالنسيان، واعترف بخطئه وبقبوله لما يترتب عن ضعفه عن الوفاء بالشرط؛ لكن ليمهله مرة أخيرة، ولو عاد ثالثة فإنه يكون محجوجا، ولا يقبل منه أي عذر.

بيان المعنى العام

75-76، قال ألم أقل لك ...قد بلغت من لدني عذرا.

وبنفس المستوى من الهدوء يجيب الخضر على اعتراض موسى: ألم أقل لك من أول الأمر: إنك لن تستطيع الصبر على ما تشاهده مما ظاهره أنه مرفوض بداهة. وكان جواب الخضر أشد من المرة الأولى إذ قوى رده بزيادة (لك) ذلك أن أصل المعنى بدون" لك" لا يختلف عن التصريح بها .ولكنها أشد بيانا في لصوق القول بموسى.

لم يجد موسى ما يعتذر به، وقد خالف الشرط الذي لم يرض الخضر بمصاحبته إلا على أساس الالتزام به. فكان جوابه: الاعتراف بأنه قد تكرر منه عدم الوفاء بالشرط مرتين، وطلب منه إمهاله وعدم الإسراع بترك صحبته. ثم أضاف قوله: إن عدتُ فاقطع صلتك بي وامض في حال سبيلك، فقد وصلت إلى أن تكون معذورا في مفارقتي.

ويبدو لي أن الخضر كان ينفذ ما أذن له فيه مستندا إلى تعليم إلهي، وأنه قد أحيط بحماية إلهية تجعله لا ينكشف أمره، وأن إنكار موسى عليه قد يلفت الأنظار إليه، خاصة إذا كان بصوت مرتفع.

فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

استطعما أهلها: طلبا منهم استضافتهما بتقديم طعام لهما.

أن ينقض: مال بما يظن معه قرب سقوطه.

التأويل: التفسير لشيء غير واضح.

بيان المعنى الإجمالي:

واصلا السير على الشرط الذي شرطه موسى على نفسه. فمرا بقرية وكانا جائعين فطلبا من أهل القرية، مدهما بطعام، وقد غلب الشح عليهم، فامتنعوا من مواساتهما. وعرض لهما جدار مائل قريب أن ينهدم ويسقط على الأرض. تقدم الخضر وأقام ميلانه ليثبت ولا يسقط. لم ير موسى في هذا الاختيار مبررا لشح القوم وعدم تكريمهم من ناحية، ولأنهم لا يملكون حتى ما يسدون به داعية الجوع من ناحية أخرى، فلو اتفق معهم على أجر قبل إقدامه على إقامة الجدار لكان أولى.

ذكره الخضر بما اشترطه على نفسه قبل المرحلة الثالثة. وقال هذا موعد الفراق، وحسبما ذكرته لك في أول الأمر أني أفسر لك ما غمض عليك في إبانه، فهذا موعده. فسأفصل لك الأسباب والغايات لما لم تستطع أن تراها وتسكت عنها .

بيان المعنى العام :

77-فانطلقا حتى إذا أتيا ....لو شئت لاتخذت عليه أجرا

المشهد السابع: واصلا السير على الشرط الجديد الذي اقترحه موسى، أنه ينفصل عنه إذا لم يستطع الصبر على ما يراه من فعل الخضر.

دخلا قرية وكان قد أنهكهما السفر، وألم بهما الجوع، فسألا أهل القرية أن يقدما لهما طعام الضيافة. وبالسؤال تبين أنهما لا يملكان طعاما ولا نقودا. ولكن أهل القرية قد استولى عليهم الشح، فامتنعوا من استضافتهما. ومرا على حائط مائل ينذر بقرب سقوطه على الأرض. فعمل الخضر على إقامته بما يحفظه من السقوط.

موسى ﷺ: لائما الخضر على تبرعه بإصلاح الجدار بدون مقابل لقوم لئام أبوا أن يقوموا بحق الضيافة، وهما لا يملكان ما يطعمانه. على معنى أنه كان من حسن التدبير أن لا يسدي لهما خدمة إلا بعوض، يمكنهما من شراء ما يسد جوعهما.

<u>تنبيه:</u> تتخلل القصص حوادث لها أحكام في الوقت الذي وقعت فيه. والتي هي تشريع لأمم قبلنا، والقاعدة التي عليها معظم علماء الأصول: أن تشريع من قبلنا هو تشريع لنا ما لم يعقبه تنصيص برفعه عنا ونسخ حكمه علينا.

وحكم الاستضافة حكم باق ينظر فيه حسب الظروف. فإذا كان طالب الضيافة يمر في موضع لا يوجد فيه مكان لإيواء المسافرين فالضيافة واجبة، وإن كان في الحواضر المجهزة بمؤسسات الإيواء، فالضيافة من مكارم الأخلاق. ويرى الإمام أحمد أن الضيافة لمن طلبها واجبة على من طلبت منه يوما وليلة. وإذا كان الطالب للضيافة مسافرا لا يملك مالا، فإنه يستحق من مال الزكاة ما يقيم به في المكان الذي بلغه وما يكفيه لبلوغ بلده.

78- قال هذا فراق بيني ... ما لم تستطع عليه صبرا:

الخضر عليه السلام: لتستحضر ما اشترطه على نفسك يا موسى أخيرا. فها هو قد تحقق في الواقع، وبناء على ذلك فقد بلغت الصحبة بيننا أمدها. وحسبما التزمتُ به من أول الأمر، فإني سأوضح لك حقيقة الأمور وأسبابها التي لم تتبين لك في ذلك الوقت، ولم تستطع الصبر إلى الوقت الذي أراه مناسبا، وهذا وقت الفراق هو الوقت المناسب فاسمع مني.

ذكر المفسرون أن الخضر أقام الحائط بمعجزة إذ أشار إليه بيده فاستقام. وبنوا ذلك على بعض الآثار. ولا أستطيع أن أؤكده تأكيدا أقحمه في تفسير الآية، إذ لو كان كذلك لنص القرآن عليه، لأنه من عجائب ما قام به الخضر عليه السلام .

أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

المساكين: يقصد بهم هنا الذين يكدون لتحصيل عيش غير مرفه .

وراءهم :خلفهم.

يرهقهما: يكلفهما، بمعنى يلقيهما حبهما له في اتباعه.

الزكاة: شرف الخلُق والسكينة المنطوية على خير .

الرُّحم: الرحمة.

أشد : كمال الخلق والعقل .

بيان المعنى الإجمالي،

أخذ الخضر يبين لموسى ما خفي عليه، مما أفقده الصبر فلم ينتظر الوقت الذي يتقدم فيه بالتفسير لما وقع.

الأمر الأول السفينة التي خرقها: هي سفينة يكد في العمل عليها مساكين للتحصيل على مكاسب ضئيلة تكفيهم لعيش غير مرفه. فأردت يا موسى أن أحدث بها عيبا، لأنه كان يتبعهم ملك ظالم يغتصب كل سفينة صالحة ويسخرها لمصالحه. فبذلك العيب القابل للإصلاح سلمت لهم سفينتهم.

الأمر الثاني: ذلك الغلام منحدر من أسرة مؤمنة لها تأثيرها في المجتمع، وكان هذا الولد حسب مداركه وقوة شهواته، ورفضه لما وراء المحسوسات، وقدراته الكبيرة على التأثير في أبويه، سيتطور إلى الكفر ويؤثر في أبويه فيجرهما إلى الظلم والإلحاد. فأذن للخضر أن يقتله ، والله يعطيهما عوضه غلاما أفضل منه خلقا وفيما يصدر عنه من خير ورحمة.

الأمر الثالث: الجدار ، كان ملكا لصغيرين يتيمين، وقد أخفى والدهما الرجل الصالح قبل موته كنزا لهما تحت الجدار. ولو سقط قبل بلوغهما لانكشف الكنز وتعرض للاستيلاء عليه. وتعلقت إرادة الله لطفا بهما أن يحفظ الكنز إلى أمد بلوغهما، وقدرتهما على استخراجه. كل ذلك من رحمة ربك يا موسى. وما فعلت شيئا مما لم تصبر عليه بترجيح من ذاتي، ولكنه بإذن رباني.

بيان المعنى العام ،

79-82،-أما السفينة فكانت .....ما لم تسطع عليه صبرا.

المشهد الثامن: ها هو موسى أمام الخضر وقد انتهت الرحلة التعليمية، التي كان فيها المتعلم غير قادر على تلقي نوع العلم الذي اختص به الخضر. وبعد تعريض منه باللوم على عدم صبره، أخذ يشرح له ما خفي عليه، ولم يحتمل وقوعه أمام ناظره وهو ساكت.

كانت الوقائع الغريبة ثلاثا.

الواقعة الأولى: خرقه للسفينة التي نقلتهم بدون مقابل. قال الخضر لموسى مبادرا بتعريفه: إن السفينة كانت مورد رزق قليل يكدُّ أصحابها للتحصيل عليه، وهم إن ذهبت سفينتهم حل بهم البؤس والشقاء. وإن الملك المستبد لتلك الجهة كان يسير خلفهم يلاحقهم، ويستولي على كل سفينة سليمة صالحة، فيغتصبها من أصحابها

ليسخرها لمصالحه الخاصة. فقصدت أن أحدث بها عيبا يصرف الملك عنها. فنجت سفينتهم من يده، وبقيت لأصحابها تحمل عيبا سهلٌ إصلاحه.

الواقعة الثانية: قتله للغلام الذي ما ارتكب ذنبا ولا كان مكلفا مسؤولا. إن ذلك الغلام كان ينحدر من أبوين صالحين، وقد يكون، أنه لإيمانهما وصلاحهما هما محل اقتداء وثقة من الناس، وكانت مدارك الغلام وعراسة شهواته، تتطور به إلى الكفر والفساد، وقدراته على التأثير في أبويه قد تصل إلى إغوائهما، فيكون في بقائه حيا تعريض لأبويه ولمن كان يثق في أبويه ويتبعهما إلى الوقوع في ضلال الكفر. ولما كانت مفاسده لم تظهر، عبّر عن طريق التحوط أنه يخشى هو ومن كان مثله في زمنه الذين تحدثوا في أمر الغلام قبل أن يصحب موسى، فخشينا وأردنا، مقصود بالضمير – نا – الجماعة من المفتوح عليهم المنفذون لما يأمرهم به الله مما لا يطلع عليه بقية الناس. إذ علم الخضر أن هذا الغلام إن اشتد وكبر، أن يؤثر في أبويه فيزيغا، ويقلبهما من الوداعة والخير إلى الظلم والكفر. فتعلقت إرادة الخضر وإرادة الجماعة أن يُقضى على ذلك الغلام قبل أن يتحقق ما هو بصدد فعله لو كبر. وهو مأذون له في ذلك بناء على أن الحياة بيد الله. فلما أذن له كان القتل تنفيذا لإرادة إلهية، وما الخضر إلا سبب ظاهري. ومع ذلك فقد أطلعهم الله على أنه قدر أن يعوض لأبويه الصالحين ولدا أفضل وأكرم خُلُقا وأمكن رحمة وحبا في الخير. وكل ذلك من الألطاف التي لا يتيسر الوصول إليها إلا ببنائها على مقتضيات من النص أو من المصلحة، وهما مفقودان بالنسبة لموسى، إذ الشرائع مبنية على الظاهر، لا على ما هو مغيب مما انطوت عليه الصدور. وهو ما علمه الخضر وأذن له بالبناء عليه.

الواقعة الثالثة: الجدار الذي تبرع بإقامته وتسويته بما يحفظه من السقوط، مع أن أهل القرية لم يكرموهم ومنعوهم القرى. يقول الخضر في تفسير ذلك: إن الجدار ملك لصبيين يتيمين فقدا والدهما، وقد خبأ والدهما الرجل الصالح قبل موته تحت ذلك الجدار كنزا لولديه، ظانا أنهما سيعثران عليه عند كبرهما .وسقوطه سيعري الكنز، فيستحوذ عليه من يراه، والمال مال حلال لأن الأب وصف من الله بأنه رجل صالح صلاحا يفيد منه اليتيمان، فيحفظ مالهما إلى أن يبلغا السن الذي يستطيعان فيه الكشف عن الكنز والانتفاع به. وذلك يا موسى رحمة من ربك. واعلم أني فعلت ما فعلته بإذن الله وما هو عن اجتهاد مني. لقد بينت لك ما لم تستطع أن تصبر على معرفته وكشف أسراره بمجرد حدوثه. ولعل الخضر لم يؤذن له في الكشف عما فعله بمجرد ما قام به.

وهذا المشهد الثالث فيه إرشاد للناس: أن صلاح الأبـاء ينفـع الذريـة، إذ علـل الخضـر فعله بأن والد الصبيين كان رجلا صالحا. وذلـك صـورة مـن الواقـع كمـا حـدث ممـا تفيده الآية: (**وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا**)[1]

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۝٨٣ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ۝٨٤ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۝٨٥ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٦ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨٧ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ۝٨٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

التمكين: جعل الشيء متمكنا، أعطيناه القدرة على التصرف.

الأرض: في القطر الذي كان يحكمه .

السبب: ما يتوسل به إلى تحقيق المرغوب فيه من علم أو آلات.

اتبع سببا: اتبع طريقا.

مغرب الشمس: المكان الذي يتراءى فيه للناظر أن الشمس تغرب فيه.

أما من ظلم: أما من ثبت على الشرك.

نُكْرا: وقرئ نكُرا، وهو ما تتكره الأوهام لعظمه.

جزاء الحسنى: الحسنى بمعنى الجنة، أو بمعنى الأعمال الصالحة.

القول اليسر: الكلام الحسن، الذي يسُر سامعه.

بيان المعنى الإجمالي:

سألوا رسول الله عـن أمـر ذي القـرنين، سـؤال استفسـار وتطلـع إلـى المعرفـة، أو سؤال اختبار لصدق نبوته. فأجابهم أنه سيخبرهم عـن أمـره خبـرا حقـا وقرآنـا متلـوا معجزا يتلى على مر الأزمان.

تضمن الجواب: أن ذا القرنين رجل يسـر الله ملـك الأرض التـي افتتحهـا، وذلـك بمـا جمع له من الأسباب التـي تحقـق النصـر، فليسـت انتصـاراته صـدفة، وإنمـا كانـت

---

[1] سورة النساء آية 9

باتخاذه ما يمكنه من الفوز، وابتعاده عما يسبب الانكسار والهزيمة. وأنه اتبع طريقا في فتحه بلغ به الطرف الغربي من الأرض المعروف في زمانه الذي خيل له أن الشمس تغرب فيه. وفي ذلك المكان وجد أمة من الناس مشركين ليسوا على شريعة صالحة. فخيّره الله فيهم بين أن يقضي عليهم، وبين أن يتولى هدايتهم وإرشادهم، فبذل جهده لإصلاحهم. ثم إن من ثبت على العناد ولم ينقد إلى طريق الهدى أذن له بأن يسلط عليهم من العذاب في الدنيا ما هم أهل له، دون أن يكون عذاب الدنيا بمنج لهم من عذاب الآخرة. وأما من آمن وقرن بالإيمان صالح العمل، فإنه يستحق منه حسن المعاملة، والتكريم بالقول اللين السمح الحسن، وينال البشارة بحسن الجزاء عند الله على صالح أعماله.

بيان المعنى العام :

84- افتتحت الآية بأن مضمون ما أنزل فيها كان جوابا عن سؤال. يبدو أن هذا السؤال لم يتوجه به المؤمنون، ولكن عرضه المشركون على رسول الله مصاحبا لسؤالهم عن أصحاب الكهف، وتبعا لبعض الروايات، فإنه مما لقنه اليهود لأهل مكة، ظنا منهم أن ذلك مما لا يعرفه إلا علماء يهود، فيكون اختبارا لصدق نبوته.

كان السؤال عن ذي القرنين: ونصّ القرآن على أن الله عرف نبيه بما يجيب به عن السؤال إجابة تظهر العبرة، ولا تنقلب إلى قصص تعنى بالجزئيات التي لا مدخل لها في العبرة، كقومه والزمان الذي وجد فيه والأمة التي ينتسب إليها. واختلفت الروايات في سبب تلقيبه بذي القرنين.

ذكروا أنه ضفر شعره إلى ضفيرتين، وضفيرة الشعر يطلق عليها قرن. كما افترض أن تاجه كان يحمل صورة قرنين. وكلها احتمالات لا تستند إلى وثيقة تثبتها. ولذا فإني أرجح أن هذه التسمية كانت دالة على الرجل المعنيّ المسؤول عنه، والمذكورة قصته. فكيف صور القرآن ذا القرنين ومسيرته الجهادية في الحياة.

الأمر الأول: الذي رسمه القرآن لمن يتتبع قصته فيه: أنه رجل أيده الله بما ثبت ملكه، وأحاطه بالألطاف التي تمكّن بها من الانتصار في معاركه التي خاضها، فكان ملكه ثابتا غير متقلقل في الأراضي التي تغلب عليها؛ وأنه رجل مؤمن بالله، وبهذا التحقيق القرآني انتفى أن يكون ذو القرنين الاسكندر المقدوني الذي كان ملحدا .

الأمر الثاني: أن الله أذن لرسوله أن يعدهم بأنه سيتلو عليهم قرآنا، لا كلاما موحى به غير معجز . فعرْضُ قصته جامع بين كونه قرآنا ،وبين كون ما يتضمنه فيه ذكر

لهم وتنبيه، ووعظ لمن يتأمل. وأن ما يذكر لا يستوعب كل التفاصيل ولكنه مقتصر على البعض منها، كما يدل عليه قوله: منه .

الأمر الثالث: أن ما حققه من انتصارات وفتوح، ما كان يستند إلى الصدفة والحظ، ولكن. إلى ما وفر الله له من الأسباب الجارية على سنن الله في الكون والتي يتبعها النصر، الشاملة لحسن التدبير والعناية بالتنظيم، وأخذ الحيطة، والمشورة ، وعدم الاستبداد بالرأي، وتكريم المقاتلين إلى آخر ما يتوقف عليه النصر الدائم

85-فاتبع سببا .

الأمر الرابع: أن ذا القرنين خطط لغزوه، واتبع طريقا منطلقا من مكان تجمع جيشه، ولا شك أنه رتب ورود المدد عليه من منطلق خروجه، بدلالة قوله تعالى: فاتبع سببا.

86- حتى إذا بلغ مغرب ...لتتخذ فيه حسنا.

الأمر الخامس :أنه سار في طريقه مغربا إلى المكان الذي يتراءى للناظر كأن الشمس تغرب فيه، وهو الأفق الذي يخيل فيه للرائي حصول التماس بين طرف الأرض وطرف السماء. ويرجح الشيخ ابن عاشور قائلا: إن الأشبه أن يكون ذو القرنين بلغ بحر الخزر وهو بحيرة قزوين فإنها غرب بلاد الصين. ويحتمل أيضا عندي أن يكون بلغ ساحل المحيط الأطلسي، إذ هو حد اليابسة في تصور البشر قبل اكتشاف القارة الأميركية. ولا يقبل تحديد المكان تحديدا يقينيا، وإنما هي افتراضات لا تزيد العبرة تأثيرا ولا تنقص منها. ويصف القرآن المكان بأنه في عين حمئة، أي ذات طين أسود، وفي قراءة أخرى عين حامية، أي حارة. ويجوز أن تكون العين حمئة وحارة في آن واحد .ومحاولة تأويل العين على أنها عين تنبع بالنفط الذي لم تكن خصائصه معروفة في ذلك الزمان إسقاط لتصور على النص بغير دليل، فالله أعلم بالمكان وبالعين المقصودة التي تحمل أن يكون قد أتى عليها من التحولات الأرضية ما لا يعلمه إلا الله .

وقف ذو القرنين على أحوال سكان ذلك المكان في الطرف القصي المغربي من الأرض. وتبين له أنهم حرموا الهداية، وما كانت عقيدتهم تربطهم بالله، وما كانت لهم شريعة تقيم لهم العدالة.

تلقى ذو القرنين وحيا من الله يخيره فيهم بين استئصالهم أو الاهتمام بإصلاحهم، أو أن الله قذف في قلبه ما أوجب توقفه للتأمل في أي الطريقين هو خير وأفضل.

وعلى الاحتمالين تبرز الآية أنه وفق للحل الأقوم، الذي يدل على ترجيحه طريقة التعبير عنه باتخاذ الحسن فيهم، كأنه مسك بالحسن فسلطه على معاملتهم .

87 ← 88 -قال أما من ظلم...وسنقول له من أمرنا يسرا

الأمر السادس: حكم ذي القرنين في القوم الذين وجدهم ساكنين عند الغاية التي وصل إليها بجيشه. صرحت الآية أنه حكم فيهم الحكم الذي يعطي منهجا صالحا في الحكم:

أ-لم يعاجلهم بالعقوبة على كفرهم وفسادهم ولكنه دعاهم إلى الطريق الأقوم الذي يصلحهم في دنياهم وآخرتهم .

ب- أن من ثبت على إشراكه، وتمسك بما هو عليه من الضلال عنادا واستكبارا عن قبول الحق، فإنه سيسلط عليه العذاب الذي يستحقه في الدنيا جزاء لعناده. هذا العذاب الذي لا يعفيه من العذاب الأخروي عند الله يوم القيامة.

ج – أن من آمن بعد كفره، وترك ما كان يعبده من دون الله، وانضم إلى أمة الإيمان، فإن ذا القرنين سيعامله معاملة الصالحين من العباد، ويحسن له القول الذي يشمل مما يشمله البشارة برضوان الله.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا

بيان معاني الألفاظ:

ما لديه: ما عنده من الجند ومن الآلات.

خبرا: العلم المحيط .

الردم: السد المضاعف .

بيان المعنى الإجمالي:

بعد أن رتب الأمور في مغرب الأرض، حول وجهته إلى مشرقها، فبلغ أقصى غاية في ذلك، وبان له الأفق الذي تطلع منه الشمس الذي ليس وراءه شيء في نظره .

كان القوم الذين يسكنون ذلك الصقع همجا لا حضارة لهم، لم يوفقوا حتى لستر أنفسهم من أشعة الشمس لا بلباس ولا بمبان. وكانوا في فساد عقيدتهم كشأن أقصى المغرب. فسار فيهم على النحو الذي فعله مع أهل المغرب .

إن كل ما قام به ذو القرنين، وما دخل تحت سلطانه من الممالك، وما قاده ونظمه من جنود جرارة، وما أعده من سلاح وكراع، وما تصرف به في فتوحاته، كل ذلك قد أحاط الله به علما .

بيان المعنى العام :

89←91- ثم اتبع سببا....وقد أحطنا بما لديه خبرا.

الأمر السابع :بعد أن أقام ما فتحه على النحو الذي بيناه في الآية السابقة ،توجه بجيوشه، ومعداته، نحو الشرق مواصلا السير حتى بلغ أقصى نقطة من اليابسة ،فعندما وقف فيها وهو يرقب شروق الشمس لا يبدو له إلا الشمس وهي تطلع في الأفق البعيد. واستفدنا إقامته مدة رتب فيها أمور ما فتحه، بافتتاح هذه الآية بكلمة ثم الدالة على التراخي، أي إنه لم يعجل الانقلاب من المغرب إلى المشرق، بل مكث زمنا مع القوم الذين فتح بلادهم، وأصلح أحوالهم العقدية والمعاشية. وعرّفنا القرآن أن القوم الذين فتح بلادهم في أقصى الشرق كانوا بعيدين عن الحضارة، لم يوفقوا لا لبناء مساكن تقيهم أشعة الشمس، ولا لنسج ما يلبسون ويستترون به. وختم العرض بقوله كذلك، فيه تأويلات أقربها في نظري :أن أوضاعهم العقدية كانت منحرفة كأوضاع الذين ظفر بهم في أقصى المغرب. ويرجح هذا التأويل تعقيبه بأن الله أحاط علما بما لديه من القوة والسلاح والجنود، والتصرف في الأقوام الذين يفتح مواطنهم (وقد أحطنا بما لديه خبرا) مما يومئ إلى أن تصرفه فيهم كان تصرفا رشيدا ، إذ الأهم بالنسبة للمصلحين هو ما يتحقق على أيديهم من خير وإصلاح .

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

السد: تضم السين المشددة، وتفتح، والمثنى في الآية الجبل .والمفرد الحاجز.

يفقهون قولا: لا تفهم لغتهم .

خرجا: مجبى. أي أن يجمعوا له أموالا يقيم بها السد.

زبر: جمع زبرة القطعة الكبيرة من الحديد.
الصدفين: جانبي الجبلين أين سيقام السد .
القطر: النحاس المذاب .
الظهور: العلو .
النقب: كسر السد.
وعد ربي: الأجل الذي ينتهي إليه قيام هذا السد .
دكا: مدكوكا، مسوى بالأرض.

بيان المعنى الإجمالي:

بعد أن نظم أمور ما فتحه من أقصى المشرق، توجه بجيوشه في طريق وصل به إلى أرض قوم غريب أمرهم، لا يفهمون أي شيء من خطاب ذي القرنين، ولا يستطيعون أن يبلّغوا ما في أنفسهم. لغتهم غريبة حتّى على المترجمين الذين صحبوه في فتوحاته. وأخيرا فهم عنهم: أن جيرانهم يتسلطون على مزارعهم وممتلكاتهم فيعيثون فيها فسادا، وعرضوا عليه أن يقدموا له خراجا من المال ليتولى إقامة سد بين الجبلين يحميهم من غاراتهم وفسادهم. تبين لذي القرنين أن حمايتهم مصلحة عامة، فأجابهم لسؤالهم، وطلب منهم أن يشاركوا في بناء السد بالأيدي العاملة، أما المال فلا حاجة له به لأن الله أغناه عن أموالهم. وخطط لبناء سد محكم قوي، طلب منهم أن يأتوه بقطع كبيرة من الحديد، فرتبها في مواضعها، ثم طلب منهم أن يحموا النار وأن يواصلوا النفخ فتأجج لهيبها واضطرمت، ثم طلب منهم، أن يصبوا فوق ذلك نحاسا صهرته النار حتّى أذابته وتداخل في الحديد. وارتفع السد فساوى الجبلين وكان صلْبًا متينا قويا تبعا لهندسته وللمواد الداخلة في تكوينه. وعجز المفسدون من يأجوج ومأجوج عن بلوغ أعلاه ولا عن إحداث ثقب فيه ينفذون منه .

وقف ذو القرنين أمام السد وقال: هذا من رحمة الله بعباده، إذ أقدرني على إنجازه على هذا النحو من القوة والعلو. وله أجل معلوم عند الله سينهار فيه . وما ثبت في علم الله من أجل كل كائن، سيتحقق لا محالة.

بيان المعنى العام :

93/92-ثم اتبع سببا ....لا يكادون يفقهون قولا.

الأمر الثامن: بعد أن أقام ذو القرنين في المشرق ونظم أمورها كما رتب فتوحاته في المغرب، توجه في طريق غير الطريقين الأولين، يقول النص القرآني: إن هذا الطريق بلغ به مكانا بين جبلين ؛ عينه كثير من المفسرين على أنه بين أرمينيا

وأذربيجان، ورجح الشيخ ابن عاشور أن موقع السدين الشمال الغربي لصحراء(قوبي) الفاصلة بين الصين وبلاد المغول .وفي هذه القصة أضاف المفسرون إضافات كثيرة لتصور التحام أجزائها، وتَغطيها حسب تصور كل منهم صورة متكاملة اعتمادا على روايات لا تتقوى بسند صحيح ولا عينات من الآثار. وظن بعضهم أن السد الذي بناه ذو القرنين هو جدار الصين. ولا أستطيع أن أقبل كل ما قيل على أنه جزم بمراد الله من العرض في قصة ذي القرنين. والذي أرجحه: أن ذا القرنين كان ملكا عادلا، آتاه الله من الفطنة ومن حسن التدبير في قيادة الجيوش، والسداد في التخطيط الحربي، ما أخضع به كثيرا من الأمم في شرق الأرض وغربها. وأنه كان يوجه عنايته في البلاد التي يفتحها إلى نشر الإيمان فيها واقتلاع الكفر والإلحاد. وأنه كان حازما لا يتردد في تنفيذ ما يراه الخير، وقد وفقه الله في اختياراته فتوالت عليه الألطاف الإلهية، وضرب الله به المثل لما يمكن أن يبلغ إليه الإنسان من النجاح.

لا يوجد بين أيدينا دليل يبلغ درجة اليقين ولا الظن القوي يعين النواحي التي انتصرت فيها جيوش ذي القرنين فرتب أمورها، ولا الزمن الذي عاش فيه. وعدم العثور على آثار هذا الفاتح لا يشكك في وجوده، خاصة وأن عمر الكون وما هز الأرض من زلازل، وما مر عليها من تقلبات مناخية، طمست كثيرا من الآثار أو ابتلعتها الأرض في باطنها. إن القاعدة التي أريد أن أثبتها: هي أن ما يكتشف من الآثار قد يكون وسيلة إثبات، وأن عدم العثور على آثار لا يصلح أن يكون دليلا على النفي.

-نعود إلى تتبع قصة ذي القرنين ؛ فإنه في هذا الموقع الذي بلغه وجد قوما يتكلمون بلغة بعيدة عن كل اللغات التي يتكلم بها الناس في مختلف الأصقاع التي فتحها، وقد كان من حكمته أنه اصطحب من يتولى الترجمة بينه وبين أهل البلاد التي يفتحها. أما هذا المكان القصي فقد وجد لغتهم ليس فيها ما يقرب من أي لغة من اللغات الأخرى، وبالطبع هم لا يفهمون ما يقال لهم، كما يصعب فهم مرادهم. وتشير الآية إلى أن ذا القرنين تغلب على هذه الصعوبة. لأن القرآن سجل ما دار بينه وبينهم من حوار

94-قالوا يا ذا القرنين ...أن تجعل بيننا وبينهم سدا.

الأمر التاسع: عرضوا على ذي القرنين مشكلة عجزوا عن حلها وأفسدت عليهم حياتهم. كانت الأمة التي تجاور أرضهم ياجوج وماجوج، أمة يفسدون في الأرض، قد أضروهم

بالظلم وتخريب العمران وسوء السلوك. طلبوا منه أن يقيم بينهم وبين هذه الأمة الظالمة المفسدة، حاجزا قويا يمنعهم من الوصول إليهم، ويكف عنهم شرهم. وعرضوا في المقابل أن يفرض عليهم إتاوة (خرجا) يلتزمون بصرفها إليه.

95-قال ما مكني فيه ...وبينهم ردما.

كان ذو القرنين ملكا صالحا، وفرت له فتوحاته من المال ما هو به في غنى عن أن يكلفهم إتاوات تثقل كاهلهم. وتبين له أن حمايتهم من فساد جيرانهم من المصلحة العامة الضرورية التي يجب إنجازها. فكان جوابه :

إن ما تفضل به علي ربي من الرزق ومن التوفيق والقوة، هو فوق ما ستقدمونه لي من خراج يرهقكم. ولكني سأساعدكم على إقامة الحاجز الذي يحميكم، ولتكونوا مشاركين فيه ؛ وفي هذا الجواب توفيق سياسي، إذ حول موقفهم من المطالب العاجز إلى المشارك الفاعل، وأن ما سيبذلونه ليس مالا يشح به البعض، ويقدمه البعض عن طواعية، ولكنه إسهام في حمايتهم يندفعون جميعا للإسهام فيه .

96/97-آتوني زبر الحديد ...وما استطاعوا له نقبا

الأمر العاشر: تنفيذ ما وعدهم به. بعد أن أعد الخطة الهندسية لإقامة الردم الفاصل، طلب منهم أن يأتوه بقطع من الحديد. استجابوا، ورتبها ترتيبا محكما على مقادير معلومة مقدما، وارتفع الردم حتى ساوى الجبلين. وقام المهندسون بتفقد تنفيذ الأشغال فرضوها. وإذ تم ترصيف الطبقات على النحو الذي به يتم بناء السد بناء يحقق الغاية التي من أجلها قام ذو القرنين بالأشغال. طلب منهم أن يشعلوا النار وأن يواصلوا النفخ عليها، ويسلطوا حرها على قطع الحديد اللاحمة، فحميت حتى أصبحت هي نارا. فأمرهم عندها بأن يأتوه بالنحاس المذاب (قطرا) وأن يفرغوه على الحديد اللاهب فامتزج به.

وصفت الآية السد الذي ارتفع شامخا بأنه بناء محكم سيؤدي وظيفته، ويمنع المتسلطين المفسدين من دخول أراضي القوم. وحققت الآية أن يأجوج ومأجوج لم يستطيعوا أن يرتقوا فوق السد، وعجزوا عن كسره وثقب منفذ يصلون منه إلى ما كانوا يقومون به من الاستيلاء والتخريب.

98-قال هذا رحمة...وعد ربي حقا.

وقف ذو القرنين وهو ينظر إلى السد وقد أُحكم بناؤه، وحمى القوم من المفسدين فقال:

أولا: هذا السد رحمة من ربي. إنه سبحانه رحم هؤلاء القوم فيسر لي إقامته ليعيشوا في أرضهم آمنين. تطامن ولم ينفخ أوداجه بالإنجاز العظيم الذي قام أمام

ناظره شامخا، ونسب الأمر لله ربه الذي تولاه بتأييده وعونه، الرحيم بعباده. وهذا المنهج في التصور الذي ارتسم في ذهن ذي القرنين ينادي الحكام أن يقتفوا خطاه، فلا يعجبوا بإنجازاتهم إعجابا ينسيهم أن حظهم في كل خير يقدمونه لشعوبهم هو من فضل الله عليهم ولولا عون الله لعجزوا.

ثانيا: رغم ما دخل في بنائه من حديد ونحاس، وتجربته بالحيلولة بين المفسدين من ياجوج وماجوج، وبين الأرض التي حُميت به، إذ لم يقدروا على الرقي فوقه ولا أن يخرقوا منفذا يدخلون منه للإفساد كما كانوا يفعلون، رغم ذلك فإن ذا القرنين نظر إليه مستشعرا أن كل ما على الأرض له أجل ينتهي إليه، وأن الفناء يلحق كل إنجاز مهما علا وعظم. وأن ما شيده سيجري عليه القانون العام فلا بد من بلوغ السد الأجل الذي سينهار فيه، وينتهي دوره المُحصّن. إن هذا الأجل ثابتٌ في علم الله، يتحقق عندما تتجمع أسباب فنائه. والقاعدة العامة أن الآجال المكتوبة عند الله التي وسعها علمه، لا مدخل للباطل فيها ولا للنقض.

۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا

بيان معاني الألفاظ:

يموج: يضطرب اضطراب أمواج البحر.

الصور: القرن الذي ينفخ فيه.

الغطاء: ما يحجب البصر، والمقصود به عدم انتفاعهم بأبصارهم.

عرض جهنم: إبرازها.

عبادي: كل ما عبد من دون الله من مخلوقاته كالملائكة والجن وعيسى...

أعتدنا: أعددنا .

نزلا: ما يكرم به الضيف من الطعام .

بيان المعنى الإجمالي:

أبقى الله ياجوج وماجوج محصورين في أرضهم، يتسلط فسادهم وظلمهم على أنفسهم فهم متحيرون مضطربون.

ثم استحضر القرآن حالة البشر يوم القيامة يوم تتم فيه دعوة الموتى جميعا فيقومون مسرعين كما يستجيب الجيش للنفير عند سماعه أصداء البوق الداعي للاجتماع.

ويوم العرض العام يكشف الباري للكافرين عن جهنم، ويلقى في روعهم أنهم سيدخلونها، ويستولي الرعب والخوف عليهم، جزاء من نوع التفريط الذي رضوه لأنفسهم في الدنيا. فقد كانت مشاهد الكون تقوم أمام أبصارهم منادية بوحدة الخالق وتصرفه وقدرته، فكانوا، عنادا منهم، لا يعتبرون بها كأنها غير موجودة. وكذلك كانت أسماعهم لا تصغي لنداء المرسلين والدعاة إلى الإيمان، كأن آذانهم فقدت القدرة على الاستماع .

هل ظن الذين كفروا أنهم لما اعتمدوا على ما خلقه الله من عباده، اعتمادا صرفهم عن الله، وتعلقوا بهم تعلقا يغنيهم عن الخلاق العظيم، أن ذلك سيكفيهم وينفعهم ؟ إن الله المحيط بكل شيء، هو المتصرف بحكمته قد أعد للكافرين نزلا ، يستضيفهم في جهنم ، لتكون المهانة ثم العذاب الأليم قراهم .

بيان المعنى العام :

99- وتركنا بعضهم يومئذ يموج ... فجمعناهم جمعا.

تحتمل الآية وجهين :

أ- أن تكون مرتبطة بحال ياجوج وماجوج، بعد أن تم بناء السد الحائل بينهم وبين ما كانوا يقومون به من الغارات والإفساد. فيكون المعنى: إن ياجوج وماجوج الذين كانوا يتسلطون على أراضي وممتلكات ما وراء السد، تحول فسادهم إلى أنفسهم ، وأصبحوا كالنار التي يأكل بعضها بعضا. فتكون الآية كاشفة عن وضعهم بعد أن حيل بينهم وبين ما كانوا يقومون به من إفساد.

ب- أن تكون معبرة عن وضع البشر يوم القيامة، وأن الله سيحشرهم مضطربين حيارى. فيكون قوله: [يومئذ] مرادا به يوم القيامة ومرتبطا بقوله تعالى في الآية السابقة: [وكان وعد ربي حقا] على أن الوعد هو يوم البعث. والذي سوغ هذا الاحتمال تناسق الآية بأن تكون كلها تتحدث عن شؤون يوم القيامة.

والاحتمال الأول يجري على أن القصة صرحت بالنهاية التي آل إليها ياجوج وماجوج بعد بناء السد، وهذا الاحتمال هو الأقرب في نظري .

وعلى هذا الاحتمال وقع التخلص من نهاية ياجوج وماجوج في الدنيا إلى نهاية البشر ببعثهم يوم القيامة. فقد انتهى أمر ياجوج وماجوج إلى حبسهم وراء السد لا يستطيعون الخروج منه، وكذلك البشر سيحشرون يوم القيامة يوم ينفخ في الصور .

والصور البوق الذي ينفخ فيه فيحدث صوتا قويا يبلغ صداه أفراد الجيش المنتشرين، فيستجيبون مسرعين. والذي نؤكده أن التعبير بالبوق الذي ينفخ فيه

للبعث للنشور يوم القيامة، ليس بوقا من قرن ولا على هيئة الأبواق التي ينادى بها الجيوش، ولكن ذلك تمثيل بما يقرب الحقيقة لما اعتاده الناس في الحياة . وكل أمور الآخرة لا يعلم حقيقتها إلا الله .

100 -101- الذين كانت أعينهم ...وكانوا لا يستطيعون سمعا.

تتحدث الآيتان عن مشهد من مشاهد يوم القيامة: فتؤكد أن الله سيجمع البشر كلهم لا يغيب أي منادى عن الحضور للجمع العام، ولذلك أكد قوله: جمعناهم بقوله [جمعا] وفي هذا الجمع المضطرب المتحير يعرض الله جهنم للكافرين، فهم قبل أن يقضي عليهم بدخولها يلقي في قلوبهم القنوط والخوف لمّا يكشف لهم عنها. وهذا الكشف هو كشف حقيقي لا خيالي ولذا أكده بقوله: "عرضا" عرضا حقيقيا. وهو جزاء من نوع الغفلة التي كانوا عليها في الدنيا. قامت شواهد الإبداع والنظام في الخلق أمام أبصارهم المنادية للعقل بالتحرك ليتيقن أنه من المستحيل أن يصدر هذا النظام المرتب والمترابط بنفسه، وأنه لا محالة مستند إلى خلْق الله وتدبيره، ولكن أعينهم كانت محجوبة عن ربطه بالخالق، فلم تذكرهم المشاهد، ولم تحركهم. كان شأن أبصارهم كشأن أسماعهم، فقد دعتهم الرسل والمرشدون من العلماء، وبلغوهم ما أنزله الله من بيان يهدي للحق، لكنهم عنادا منهم ورفضا للتحول عما هم عليه من الشرك والفساد تابعوا منغمسين في الضلال، فقام عنادهم ورفضهم مانعا من وصول الوحي إلى أسماعهم .

102 - أفحسب الذين كفروا...للكافرين نزلا.

كان حسابهم خاطئا، وتقديرهم باطلا، لما اعتمدوا على ما هو مخلوق لله ليكون نصيرا من دون الله . عبد بعضهم الملائكة، وعبد بعضهم الجن، وعبد بعضهم عيسى، وعبدوا أنواعا من الحيوانات كالقتران والبقر. ما الذي سوغ لهم عبادتها، أيظنون أنها تملك الانتصار لهم ؟ إنه السخف الذي يقابله أن تكون جهنم التي كانوا يظنون أنهم حموا أنفسهم من عذابها بما اتخذوه من أولياء، ستكون جهنم هي ما أعده الله لهم، نزلا، تهكما بهم هي ما يعد للضيف القادم من الطعام بتخير ما يعد تكرمة له، إمعانا في إذلالهم بالتهكم عليهم. كقول عمرو بن معدي كرب:

وخيل قد دلفت لها بخيل *** تحية بينهم ضرب وجيع

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ

حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

الأخسرين أعمالا: الذين لا يجدون نتائج أعمالهم.

السعي: العمل

الذين ضل سعيهم: أخطأوا الطريق فتاهوا .

حبطت: بطلت بطلانا لا أثر صالحا له.

هزوا: استخفافا وسخرية واستهزاء.

بيان المعنى الإجمالي:

هل نُعلِمُكم بالذين تصحبهم الخسارة الدائمة رغم أنهم يكدون في الحياة ؟ الذين ضلوا الطريق فاختلطت عليهم السبل في حياتهم الدنيا وتاهوا، ومع ذلك فهم سادرون في ضلالهم، دون أن يتفطنوا، بل يحسبون أنهم على صواب.

هم الجماعة الذين رفضوا ما جاءهم من الآيات في كتاب ربهم، وأنكروا البعث يوم القيامة الذي يحاسبهم فيه على أعمالهم. إنه بفقدهم الإيمان يبطل كل ما عملوه مما ظاهره خير وحسن. فيقدمون يوم القيامة بصحائف فارغة من صالح الأعمال، فلا يقام الميزان لوزن أعمالهم، إذ الوزن لمقابلة الحسنات بالسيئات وهؤلاء ليست لهم حسنات. ذلك الوعيد من حبط الأعمال جزاؤهم، ثم بين الجزاء بأنه جهنم بسبب كفرهم، واستهزائهم بما أنزله الله من الآيات وسخريتهم من رسل الله.

بيان المعنى العام :

103 —104- قل هل أنبئكم بالأخسرين...يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

هل تريدون أن نعرفكم بأبلغ الناس خسارة في أعمالهم، الذين يكدون فتكون نتائج أعمالهم سالبة ؟ وفي افتتاح الآية بكلمة " قل"، وبالسؤال إيقاظ للسامعين إلى أنهم قد عمي عليهم الأمر وجهلوا. وأنهم كانوا أحرياء بأن لا يغيب عنهم من هم الأخسرون أعمالا، لأن همّ كل عامل أن ينجح في عمله نجاحا يحقق له أفضل النتائج. ويمكن أن يفهم من النص أن السائل: الله تعالى، أو الله ثم رسوله بما يوحى إليه، أو الرسول والمؤمنون .

يأتي الجواب كاشفا: هم الذين يكدون في الحياة ويعملون، فسلكوا طريقا لا ينتهي بهم إلى غاية، ولا يحقق لهم نفعا، هم المشركون الذين تقربوا إلى آلهتهم فعبدوها، وعملوا على استرضائها؛ هم يظنون أنهم وُفقوا في اختياراتهم، وأحسنوا فيما صنعوا. وهي لا تفيدهم، بل يكون شركهم وبالا عليهم.

105 -أولئك الذين كفروا...فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا .

تحصر الآية الأخسرين أعمالا، حصرا يشير إليهم وحدهم دون أن يلتبسوا بغيرهم، لتجري عليهم خصائصهم التي يتميزون بها، المتمثلة في أنهم رفضوا الأدلة التي جاءتهم من ربهم في كتابه وعلى لسان رسوله، وأنكروا البعث ووقوفهم بين يديه للحساب. وإذ قد بطلت أعمالهم وخسروا كل جهودهم الدنيوية، فبذلك يكونون تافهين لا قيمة لهم محقرين يوم القيامة.

106 - ذلك جزاؤهم ...ورسلي هزؤا.

إشارة إلى ما ذكر من تفاهتهم، ببطلان أثر كل ما عملوه مما ظاهره خير، ذلك جزاؤهم، جهنم – فجهنم بدل من "جزاؤهم" موضح للجزاء. بسبب ما تحقق من كفرهم وإنكارهم للحق الواصل لهم، بل زادوا عنادا وفسادا فاتخذوا الآيات المنزلة من عند الله في كتابه ، وكذلك رسله إما جميع الرسل، وإما محمدا ﷺ تعظيما لشأنه باعتبار أن رسالته جامعة لما جاء من الحق على لسان من سبقه من المرسلين، استخفوا بكل ذلك وسخروا منه. فكانت جهنم جزاء عدلا لفسادهم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

الفردوس: الجنان الجامع لكل ما يكون في البساتين.

حولا: تحولا إلى غيرها.

المداد: الحبر .

المدد: ما يكون تعويضا عن النقص

بيان المعنى الإجمالي:

بكل تأكيد إن الذين جمعوا بين الإيمان وبين العمل الصالح كتبت لهم منذ الأزل جنات الفردوس، التي جمعت كل أنواع الثمار والفواكه، يقدم لهم ذلك ضيافة من رب العالمين. ويزداد هذا النعيم كمالا بكونه بلغ درجة رضي بها المجزيّون أفضل رضى، فهم لا يطلبون أن يتحولوا عما هم فيه، لأنه ليس فوق ذلك مقام أفضل منه. قل لهم يا محمد إن ما ثبت في علم الله لا يتناهى، ولو فرض أن البحر انقلب حبرا

ليسجل علم الله لجف البحر قبل أن يأتي على معلومات الله، ولو خلق الله بحرا آخر ليمد البحر الجاف بمائه فإن علم الله أوسع.

بيان المعنى العام :

107-إن الذين آمنوا ....جنات الفردوس نزلا.

هذا شأن القرآن في جمعه بين البشارة والنذارة، فبعد أن تتبع مآل الكافرين وكشف عن مآلهم وخسرانهم، عطف القول ليقدم للمؤمنين ما سيكرمهم به. فقال تعالى مؤكدا: إن الذين قرنوا بين قطبين: الإيمان المصفى من الشرك، والقيام بالأعمال الصالحة التي ظاهرها وباطنها الخير، قدر الله لهم من الأزل أن سيثيبهم ويجزيهم جنات جمعت كل ما يمكن أن تنتجه الجنات من الثمار والفواكه "الفردوس" ينالون منها ما يشاؤون، هي ما أعده لهم من مكرمات كما يُعد القرى للضيف المبجل .

108- خالين فيها لا يبغون عنها حولا.

هي كرامة لا يلتصق بها ما يكدرها من الخوف من زوالها، كتب الله الخلود الأبدي لهم ولما بين أيديهم من أنواع النعيم. وفوق ذلك إن ما جمعه الله لهم من أنواع التكريم بلغ حدا أضحت نفوسهم معه لا يجول بها خاطر التحول عن منازلهم لأنه ليس فوق ذلك مطمح خير مما هم فيه.

109- قل لو كان البحر مدادا....ولو جئنا بمثله مددا.

هذا أمر مهم يتحتم أن تفتح له الأسماع وتعيه الألباب، وتعيد تعقّله ليقرب المفهوم المتعالي إلى الأذهان، افتتحت الآية بكلمة "قل" تحريضا على الانتباه. مضمون القول: لو فرض أن البحر انقلب مدادا ليخط ما حواه العلم الإلهي من حقائق يعبر عنها بالكلمات، وأخذ يخط ما حواه العلم الإلهي، لتواصل العلم الإلهي ونشف ماء البحر. إن معلومات الله لا تنتهي والبحر ينفد. ولو فرض أن الله يخلق بحرا آخر يعوض ما جف من البحر الأول، فإن علم الله أوسع من ذلك دائما. فما ذكر من قصص في السورة، وما أوعد الله به الكافرين من الخزي والعذاب، وما وعد به المؤمنين من أنواع التكريم، وما حواه عالم الدنيا وما جرى وما سيجري فيها، وما سيكون عليه أمر الآخرة، ونعيم الجنة الذي لا ينفد، وعذاب الكافرين الذي ليس له نهاية. وأسرار الكون وقوانينه، كل ذلك داخل في علم الله .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

يرجو لقاء ربه: تعلق باليوم الذي يتقبله ربه ويحقق له ما وعده.

بيان المعنى الإجمالي:

ناد بهذه الحقيقة التي بها يبلغ صفاء التوحيد حقيقته. قل للناس جميعا: إني إنسان أجتمع معكم في الخصائص الإنسانية. فإياكم أن تنحرفوا كما انحرف النصارى فألهوا عيسى الذي هو أقرب رسول في الزمان من محمد صلى الله عليه وسلم. ومع كوني بشرا فقد اختارني لقبول وحيه وإبلاغه الذي يقوم على أساس توحيد الباري سبحانه في ذاته وفي صفاته .

أدلكم على ما يحقق رجاء الصالحين الآملين أن يلقوا من ربهم ما وعدهم: إن ذلك ينحل إلى عنصرين أساسيين :1- العمل الصالح -2-توحيد الله توحيدا ينفي كل شائبة شرك.

بيان المعنى العام :

110- قل إنما أنا بشر...ولا يشرك بعبادة ربه أحدا.

افتتحت هذه الآية الخاتمة للسورة على النحو الذي افتتحت به الآية السابقة بقوله (قل) لما نبهنا إليه فيها. وهي تتضمن:

أولا: التأكيد على أنه صلى الله عليه وسلم بشر جمع الخصائص البشرية التي يشاركه فيها بقية الناس. ففي هذا الجانب هو لا يختلف عنهم. وفي ذلك مقدمة لتحصين المؤمنين برسالته من أن يزيغوا فيرفعوه فوق مقام البشرية والعبودية لله.

ثانيا: أن الله تخيره من بين البشر ليوحي إليه ما يريد أن يبلغه للناس، فالله سبحانه قد صفى روحه وسما بها سموا مكنه من قبول الوحي، دون أن يخرج عن كونه بشرا. وبهذا فهو مؤتمن على ما يوحيه إليه ربه ولا يتجاوزه، ولا يدعي أن علمه محيط بكل شيء، فهو لا يعلم إلا ما علمه ربه .فسؤالهم عن أهل الكهف، وعن لقيا موسى للخضر، وعن ذي القرنين، تشغيب ومحاولة منهم لإخراج الرسالة عن مقصودها الأعظم. إنه وإن كان الله أوحى لعبده محمد ما يجيب عن أسئلتهم فإن ذلك لا يخرج به عن كونه عبدا موحى إليه.

ثالثا: إن المقصود الأعظم من رسالته هو تثبيت الوحدانية في عقول البشر، ونفي كل ما خالطها من الشبهات، الوحدانية التي اختلط بها ما زيفها وأفسد حقيقتها. كاتخاذ شركاء وسائل لرضى الله، وعبادة عيسى ونسبته إلى الله بعلاقة الأبوة والبنوة. ونحو ذلك مما ظهر من الزيغ عن عقيدة التوحيد الخالصة كالتقرب للأضرحة ،ودعاء من يعتقد فيه الصلاح من الموتى للعون على الشدائد، قال تعالى: (**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**)[1] .

---

[1] سورة يوسف آية 106

رابعا: أنه بعث ليقيم أمة فاعلة للخير، تعمل وتتكل، لا تقعد وتتواكل، ولا تستند إلى ما استند إليه اليهود من أنهم شعب الله المختار مفضلون على الخلق، لا يعذبون إلا أياما معدودة، ولا تقول بما ذهبت إليه النصارى من أن إيمانهم بالمسيح كاف لنجاتهم يوم القيامة. المسلمون حقا يمثلون أمة فاعلة في الكون صلاحا لا فسادا ولا تخريبا. إنه بالإيمان النقي من كل لوثة شرك، وبالعمل الذي يرضى الله عنه الملتزم بما جاء على لسان رسوله، ينظر الإنسان إلى مصيره بين يدي ربه فتتفتح له أبواب الرجاء في الفضل الإلهي والرضوان.

وبهذا تكون خاتمة السورة منعطفة على فاتحتها. راجع الأركان الأربعة التي استفدناها من طالعة السورة.

اللهم ربي أرفع لعلي ذاتك وجميل فضلك آيات الحمد وجزيل الثناء على ما يسرت، وأسألك في ضراعة المخبتين الشاكرين أن تيسر لي إكمال ما شرعت فيه من خدمة كتابك، وأن تجعله حجة لي بحسن الاقتداء به .

أتممت تفسير سورة الكهف بعد صلاة العصر يوم الأحد 29 ربيع الآخر 1433- 2012/3/18.

ســــورة مريم

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به هذه السورة، وسـميت فـي صـحيح البخـاري بكهـيعص وهي السورة السادسة عشرة حسب ترتيب المصـحف. وحسـب ترتيـب النـزول تعـد الرابعة والأربعون نزلت بعد سورة فـاطر وقبـل سـورة طـــه. وهـي مـن السـور المكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ۝٦

بيان معاني الألفاظ :

رحمة ربك : استجابة ربك.

نادى : دعا.

وهن العظم : ضعف الهيكل العظمي.

اشتعل الرأس شيبا : عم البياض شعر الرأس.

لم أكن شقيا: لم أكن محروما من رعايتك وفضلك. فكنت سعيدا بذلك .

الموالي : العصبة.

من ورائي : بعد موتي.

عاقر : لا تلد.

آل يعقوب : أهل الشرف من ذرية إسرائيل.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتح سورة مريم بـالأحرف التـي تنطـق مفصـولة. كمـا افتتحـت سـورة البقـرة وآل عمران. سيرد عليكم ذكر رحمة ربك يا محمـد التـي شـملت عبـده زكريـاء. وذلـك في الظرف الذي توجه بدعائه خفية لا جهـرة. قـدم لدعائـه بمـا يسـتجلب بـه القبـول فعبر عن قوة حاجته بشدة ضعف بدنه ووهـن هيكلـه العظمـي. وعـن مشـيبه ببيـاض

شعر رأسه، وذكر ما عوّده به ربـه مـن إسـعاده بقبـول دعائـه. وأنـه غيـر مطمـئن وخائف أن يموت ولا يجد لماله وعلمه وارثا، وزيادة عصـا ذكـر فـإن امرأتـه عـاقر لا تلد. وإنه طامع واثق في فضل الله عليه، يدعوه أن يرزقه ولـدا يبلـغ سـن الرشـد الـذي يحمل فيه علم والده ويرث ماله بعد موته، كما يـرث علـم النبـوة التـي تسلسـلت إليـه من يعقوب والمصطفين من ذريته. واجعله يا رب مرضيا عنه.

بيان المعنى العام:

1-افتتحت السورة بحروف تقرأ بأسمائها غير مجتمعة: كـاف، هـا، يـا، عـين، صـاد. وما ذكر في فاتحة سورة البقرة يغني عن إعادته هنا.

2-←3: ذكر رحمت ربك عبده.....نداء خفيا.

هذا ذكر رحمة ربك عبده زكرياء. وهذا الذكر هو أول موقـع تحـدث فيـه القـرآن عـن زكرياء ، ثم أعيد ثانية في سورة آل عمـران الآيـات 40/38 حسـب ترتيـب النـزول، في سياق قصة مريم .

المعنى : اذكر رحمة الله التي من مظاهرها ما رحم بـه ربـك يـا محمـد، وفـي إدمـاج الصلة بين الله وبين محمد والتعبير عن ذلك بكلمة (ربك) مـا يعلـن عـن فـائق التكـريم لرسول الله ﷺ، رحم ربك عبده زكرياء باسـتجابة دعائـه .وهـو مـا يفـتح فـي قلـوب المؤمنين أبواب الرجاء، ويطرد من نفوسـهم اليـأس، ويُعلمهـم التوجـه إليـه، ورحمـة الله أوسع من مطالـب البشـر جميعـا. وشـرّف زكريـاء بالتصـريح بكونـه عبـدا لله مملوكا له، وتأكيد الصلة والارتباط بين زكرياء والله تعد أعظم مزية لزكرياء.

شملته الرحمة:(استجابة دعائه) في ذلك الظرف الـذي صـرح بـبعض خصائصـه فـي هذه السورة: وصفه بكونه كان نداء خفيا لم يرفـع بـه صـوته، علـى صـورة المناجـاة. وفي سورة آل عمران أنه كان في المقام الـذي تنزلـت المواهـب الإلهيـة علـى مـريم بقوله تعالى : **هنالك دعا زكرياء ربه.** فتتكامل صـور الـدعاء بمـا ورد فـي السـورتين. ثم سجل القرآن الدعاء الذي دعا به ربه فسمعه وأجابه.

4-←6: قال رب إني وهن العظم مني...واجعله رب رضيا.

انقسم الدعاء إلى قسمين: مقدمة الدعاء والتمهيد له، ونفس الدعاء

أما التمهيد فهو ما عرضه زكرياء بين يدي دعائه من:

1) إظهار ضعفه الذي جسّمهُ بأمرين :

2) بوهن العظم: ضعف الهيكل العظمـي الـذي بـه تقـوم صـورة الإنسـان، و بقيـة الأجهزة تضعف قبل ضـعف العظـام، أي إن ضـعف الهـرم قـد اشـتد. وهـو مـؤذن بالحاجة وبالقرب من نهاية العمر .

أ- بانتشار المشيب في رأسه كأنه نار أكلت لون الشباب والقوة فلم تبق منه شيئا.

2) ذِكْرُهُ لما سبق من فضل الله عليه، فهو يتوسل إلى الله بما سبق له من فضله عليه.(كما جاء في حزب التوسل للشيخ أبي الحسن الشاذلي: اللهم إني أتوسل بك إليك). تكرمت ربي علي فكنت سعيدا بألطافك وعونك واستجابة دعائي في الماضي، فقوله تعالى حكاية عن زكريا: ولم أكن بدعائك ربي شقيا، تساوي كنت بسبب استجابتك لدعائي سعيدا في الماضي.

3) تفصيل الوضع الذي هو عليه، والذي لا مطمع له في الخروج منه حسب القوانين المعروفة في الكون، والتي يعتقد أنها مسخرة لإرادة الله الذي يقول للشيء كن فيكون. يتمثل هذا الوضع في أنه قلق من المصير القريب وهو في آخر العمر، هو خائف من استئثار عصبته بميراثه. هذا الميراث الذي يشمل ما جمعه من مال، ولا غضاضة في ذلك فإن الإنسان يعمل ليوفر نصيبا من المال، وهو مفطور على حبه أن يرثه عنه أولاده من صلبه، كما يشمل ميراث النبوة التي كان لزكرياء حظ منه، انحدرت له من سلسلة آبائه الواصلة له من سيدنا يعقوب (إسرائيل). ومما زاد الأزمة استفحالا أن زوجته كانت عاقرا لا تلد. تحقق عُقْرُها بعدم إنجابها إلى أن بلغت سن اليأس. فاجتمع عاملان: عامل خاص بها، وعامل ثان هو تجاوزها وقت قبول الحمل.

وأما الدعاء: فهو قوله فهب لي منك وليا. يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا.

سأل الله أن يعطيه هبة من عنده غير جارية على ما عهد من الإنجاب عند البشر. طلب ولدا يهبه له الله هبة خاصة خارقة للأسباب العادية. رغم هرمه وعقر زوجته، وأن يبلغ هذا الولد سن الرشد الذي يمكنه من ميراث مخلف والده من العلم والمال، وأن يكون صاحب مؤهلات ترتفع به لحمل ميراث النبوة التي تسلسلت في المصطفين الأخيار من آل يعقوب. وأن يجعل هذا الولد رضيا مرضيا عنه، موفقا فينال رضاك.

يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝

بيان معاني الألفاظ:

التبشير : الوعد بالعطاء.

السمي : المثيل.

أنى : كلمة تدل على التعجب.

الهين : السهل حصوله.

الكبر : الشيخوخة.

عتيا: يبس المفاصل .

بيان المعنى الإجمالي :

نادت الملائكة زكرياء أن الله يزف له البشارة، بأنه سيولد له غلام سماه الله يحيى، ولا يوجد لهذا الولد نظير من أب هرم يبست مفاصله وتراجعت قواه، وأم عاقر، ويكون معرضا عن النساء لا تلهيه غريزته الجنسية عما كلف به، ونبيا، ومبشرا بعيسى.

كان فرح زكرياء كبيرا، فأعاد علــى ذاكرتــه مــا جمعــه الله مــن الفضــل فــي هــذه البشارة مستعظما لها. إذ أن ما بشره بــه خــارج عــن المــألوف. فــأوحى الله إليــه مــع هذه الظروف التي ذكرتها فعلت وأنــا القــادر. ومــن ذاتــك تعلــم عظــيم قــدرتي، فقــد خلقتك وقد كنت معدوما، فلا عجب أن أجمع فــي خلــق إنســان غيــر مــا ألفــه النــاس. عندها طلب زكرياء من الله وقد اشتد شوقه لمعرفة الــزمن الــذي تتحقــق فيــه البشــارة . فكما أعاده لنفسه لإذهاب عجبه، جعل الآيــة مــن نفســه أيضــا: أن يعجــز عــن النطــق ثلاثة أيام كاملة بتمامها تعود له قدراته بعدها.

بيان المعنى العام :

7- يا زكريا إنا نبشرك بغلام...من قبل سميا.

سمع زكرياء نداء من الملائكة يبشــره بقبــول دعائــه، وأن الله ســيهب لــه الولــد الــذي طلب أن يرزقه اياه. كما جــاء ذلــك فــي الآيــة 39 مــن ســورة آل عمــران: فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى .

تضمنت البشارة: أن الولد سماه الله يحيى. وأنه لم يوجد لــه مثيــل فــي الســابقين زيــادة في المنة. وذلك لأنه: 1- " أعطي النبــوة وهــو صــبي -2- كــان حصــورا -3- ولــد مع الشيخوخة المتقدمة لأبيه-4- من أم عــاقر -5 -بعــث مبشــرا بعيســى (عليه السلام) – فلــم تجتمع هذه الخصائص لأحد من قبله مما ينبئ عــن عظــيم عنايــة ربــه بــه .وهــذا مــا يؤكده ما جاء في الآية التالية: قال رب أنى يكــون لــي غــلام ... وقــد ضــل فــي فهــم الآية من جعل سميا بمعنى موافقا في الاسم. إذ اختصاصه باسم يحيى لا مزية فيه.

8- قال رب أنى يكون لي غلام...وقد بلغت من الكبر عتيا.

قال رب أنى يكون لي غلام. عبر زكرياء عن عظيم شــكره بمــا بشّــره لــه مــن فضــل خارج عن المعتاد، أن يرزقه الولــد مــن نفــس زوجتــه العــاقر وبعــد هرمــه ويــبس

مفاصله وضعف أجهزته. فكلمة أنّى وإن كان أصلها الاستبعاد إلا أنها في هذا المقام تنبئ عن الشعور بعظيم المنة الإلهية، وتطلق اللسان بالاعتراف بعظيم الفضل وكريم العناية .

9- قال كذلك قال ربك.... ولم تك شيئا.

ما عبر به زكرياء كان متضمنا شعورا بعظمة ما يسره الله له ، وأنه أمر بعيد تصور حصوله. فأعاده الله إلى الكشف عن حقيقة القدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء، كهذا الإنجاز نتصرف، قال الله: إن خلق غلام في الظروف التي عجبت منها هو أمر سهل، فارتفع بتصوراتك إلى تصور حقيقة القدرة الإلهية يذهب عنك العجب. ولا يختلف إجابتي لدعائك وحمل زوجتك منك عن خلقك أنت بعد أن كنت معدوما. أليس خلقك بعد العدم مظهرا عجيبا من مظاهر القدرة الإلهية ؟

10- قال رب اجعل لي آية...ثلاث ليال سويا .

كان الوحي الذي تلقاه من ربه إجابة عن تعجبه، كاشفا مُطمْئِنا مضيفا لإيمانه تصويرا قويا واضحا. وإذ قوي يقينه بأنه سيولد له، وكان تعلقه بتحقيق ذلك كبيرا بادر بسؤال الله أن يجعل له علامة يتبين بها أن امرأته قد حملت.

كانت الإجابة أن الآية ستكون من ذاته: أن يفقد قدرته على النطق، ويصبح عاجزا عن مخاطبة الناس. يستمر هذا العجز ثلاثة أيام كاملة بلياليها، لا يستطيع النطق لا في الليل ولا في النهار. ليس هو داء الخرس، ولكنها علة ظرفية لمدة ثلاثة أيام ، ترتفع العلة بعدها ويعود له بيانه بعدها، بما يفْهمُ منه أن امرأته أصبحت حاملا بيحيى، وتحققت البشارة بالفعل.

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

المحراب : المكان المخصص للعبادة.

أوحى : أشار إليهم إشارة مفهمة.

الكتاب : التوراة.

بقوة : بعزيمة ثابتة.

الحكم : الحكمة والنبوة.

الحنان : الشفقة.
زكاة : زكاة نفسه بتنقيتها من الإثم والخبائث.
برا بوالديه : مكرم لهما مطيع.
الجبار : المستخف بحقوق الناس .
عصي : بعيد كل البعد عن العصيان.
سلام : ثناء من الله عليه .

بيان المعنى الاجمالي :

بمجرد ما جاءته الآية بـأن زوجتـه حملـت خـرج علـى قومـه لا يسـتطيع النطـق. وخرسه الوقتي دليل ما تم. فأشار إلـى قومـه الـذين كـان يتـولى إرشـادهم وهـدايتهم إشارة فهموا منها: أن عليهم أن يسبحوا الله فـي الصـباح والمسـاء شـكرا لله علـى مـا أنعم به على نبيهم، النعمة التي يجدون بها بعد وفاته من يواصل تعليمهم.
كبر يحيى قليلا، فمكنه الله من النبوة والحكمة وهو مـا يـزال فـي سـن الصـبا. وجمـع فيه المؤهلات للقيام بمهمة النبوة فكـان رؤوفـا، طـاهر الـنفس، تركـزت التقـوى فـي روحه، في أسرته هـو بـار بوالديـه، وهـو فـي المجتمـع يرعـى حقـوق النـاس ولا يتعسف، تظهر آثار السعادة عليه. وحل عليه مـن الله السـلام والأمـن والطمأنينـة يـوم ولادته، ويوم موته، ويوم يبعث يوم القيامة.

بيان المعنى العام :

11 - فخرج على قومه من المحراب..بكرة وعشيا.

تحققت الآية وخرس لسانه، ولما كان نبي بني إسرائيل، وكـانوا علـى موعـد معـه فـي أوقات يخرج لهم فيها ليدعوهم للعبادة والـذكر، فخـرج لهـم وقـد احتـبس لسـانه مـن المكان الذي خصصه لعبادته، فأشـار إلـيهم إشـارة مفهمـة: أن علـيهم أن يسـبحوا الله صباحا ومساء. ومن المحتمل أن يكون قد نبـأهم بمـا جعلـه الله لـه آيـة علـى حمـل زوجته، فلما خرج عليهم وهو حبـيس اللسـان فهمـوا أن علـيهم أن يشـكروا الله علـى استجابة دعاء نبيهم .وفي العناية بنبيهم تكريم لهم .

12-->14 يايحيى خذ الكتاب بقوة ...ولم يكن جبارا عصيا.

جاوز يحيى مرحلـة الرضـاعة والفطـام، وبلـغ فـي صـباه القـدرة علـى الاتصـال بالتوراة قراءة وفهما. فأوحى الله إليه أن يتمسـك بـالتوراة، بـأن تكـون عزيمتـه قويـة على مواصلة تفهم ما جاء فيها، والعمل به وليكون وارثا لوالـده فـي القيـام علـى تعلـيم بني إسرائيل ما تضمنه كتابهم. ولا تعجبوا مـن ذلـك فقـد آتـاه الله النبـوة ومكنـه مـن الحكمة وهو ما يزال صبيا.

ثم أخذ القرآن في الثناء عليه بذكر ست صفات من صفاته العالية وأخلاقه الفاضلة هي مؤهلاته لتحمل عبء الوراثة؛ فذكر منها: أنه كان رؤوفا بعيدا عن القسوة يشفق على الناس ويحس بآلامهم، وهو بالغ الحنان، جاءه ذلك من عند الله صافيا كاملا. و أنه كان زكيُّ النفس، صاحبُ مروءة، سمتْ مواهبه فلا يقرب الخبائث ومنازل الهوان والضعة. وأنه كان مستحضرا لصلته بربه بصفة دائمة، هذا الحضور الذي غرس التقوى في ضميره ، بما يتبعها من سرعة الإقبال على الامتثال للأوامر والابتعاد عن النواهي. وأنه كان مطيعا لوالديه يسعى في مرضاتهما فهذه صفته في أسرته، وأنه كان لينا لا يقسو في لفظه وعمله وفي علاقاته بالناس وهذه صفته مع المجتمع، وختاما هو بعيد كل البعد عن العصيان.

15-وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا.

بلغ التنويه بيحيى مرتبة رفيعة . أنزل الله سلامه عليه في المواقف الكبرى الثلاثة التي يكون الإنسان أحوج ما يكون إلى رعاية خالقه: يوم ولادته، ويوم وفاته، ويوم البعث. وسلام الله عليه مؤذن بالأمن وبالرحمة والعناية والألطاف، وما يصحبها من الطمأنينة والفوز اللاحق بذلك .

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

بيان معاني الألفاظ :

انتبذت : اعتزلت وانفردت.

حجابا : حائلا يمنع من النظر إليها.

الروح : ملك من ملائكة الله.

تمثل : تشكل لها في صورة غير صورته الأصلية.

بشرا سويا : إنسانا تام الخلق.

أعوذ بالرحمن : التجئ وأحتمي بالله .

لم يمسسني بشر : ما وقعت بيني وبين أحد من البشر علاقة جنسية.
البغي : المرأة الزانية.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر في القرآن يا محمد قصة مريم ابتداء من الظرف الذي اعتزلت فيه قومها ، وانفردت في مكان من الجهة الشرقية لمقام أهلها. ثم حجبت نفسها بحجاب يحميها من الأنظار لتختلي فيه للعبادة. وأن الله أرسل إليها ملكا فتشكل في صورة إنسان وسيم. انزعجت من وجودها منفردة في معبدها وبجانبها رجل ما عرفته من قبل. فخاطبته بقولها: إني أحتمي بالله منك إن كان فيك تقوى تدرك معنى الاعتصام به. أجابها بأن الله أرسله إليها لتحمل بغلام زكي طاهر النفس والفعال. وتضاعفت حيرتها إذ لم تر منه خروجا عن حدود الآداب مما جعلها تثق به، ولما تتيقنه من أن الحمل لا يكون إلا نتيجة لقاء جنسي، وهي ما مسّها رجل يحل له الاستمتاع بها، وما كانت زانية. وعبرت له بلسانها عن ذلك. فأجابها الملك: ما ذكرتُه لك هو إذن إلهي، وتحقيقه أمر ميسور على الله الذي لا يعجزه شيء. وأنه يريد أن يكون ولادة عيسى من دون أب معجزة للناس تظهر القدرة الإلهية، وليكون رحمة لهم بما يهديهم من الوحي الذي ينزله الله عليه. وما أخبرتك به قد تم به القضاء فاستعدي لما يستقبل .

بيان المعنى العام :

16←17: واذكر في الكتاب مريم ....فتمثل لها بشرا سويا.

هذه قصة أخرى من قصص بني إسرائيل، عطفت على قصة زكرياء لما بينهما من وجوه جامعة. فكل قصة فيها خروج عن المألوف، وفيها أيضا تأكيد على أن الخروج عن السنن المعروفة هيّن بالنسبة للقدرة الإلهية، وكل واحدة منهما متصلة بالإنجاب. وقصة مريم كقصة يحيى كانتا متصلتين في سورة آل عمران . والظروف الزمنية متقاربة.

اذكر يا محمد في القرآن قصة مريم التي تبدأ من هذا الظرف:

المشهد الأول: مريم الفتاة التقية العفيفة.

كانت مريم فتاة تقية اعتزلت أهلها وابتعدت عنهم في مكان شرقي إقامتهم، اتخذت ذلك المكان تختلي فيه للعبادة. وأقامت حوله حاجزا يمنع عنها الأنظار، و يُبقي على هدوئها، ويبعدها عما يشغلها.

المشهد الثاني: مريم تواجه رجلا في خلوتها.

بينما كانت في خلوتها تلك، إذا بها تجد أمامها رجلا وسيما، سوي الخلق لا عيب فيه. أسرع القرآن ببيان أنه ملك من ملائكة الله، فكلمة روحنا تدل على نسبة الملك إليه سبحانه . كقوله عبدنا، ورزقنا.

18-قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا.

المشهد الثالث: جزع مريم .

تملكها الحذر منه، ولقوة إيمانها في هذا الظرف المكاني التي هي وحيدة فيه، التجأت معلنة عن اعتصامها بالله واحتمائها به، ثم وجهت إليه الخطاب : أن عليه أن يعي قوة من اعتصمت به وقدرته إن كان فيه أثر من تقوى الله الذي يتحتم على كل إنسان أن يخشاه.

19- قال إنما أنا رسول ....غلاما زكيا.

المشهد الرابع : نبأ الحمل .

عمل على طمأنتها، وأن يبعد ما تصورته مـن أنـه رجـل شـر يـروم الاعتـداء علـى شرفها في عزلتها وبعدها عن الناس وقال :إنـي رسـول ربـك الـذي أنـت واثقـة بـه وتعوذت به ولست إنسانا، جئت أحمل إليـك مـا أمرنـي بـه، أن أعطيـك هبـة منـه: غلاما ذكرا سامي الروح منزها عن الإثم والفسوق.

20- قالت أنى يكون لي غلام ...ولم أك بغيا.

المشهد الخامس : مريم تحاور الملك.

زاد كلامه في حيرتها، وراجعته وقد أصبحت يتنازعها أمران:

الأمر الأول :ما وجدت من مخايل صدقه، فقد ألقـى الله فـي روعهـا أنـه ملـك ولـيس رجلا فاسقا يريد أن ينال منها.

والأمر الثاني: أن الأنثى لا تحمل إلا بلقاء جنسـي مـع الـذكر. وهـي فـي حياتهـا لـم يمسها رجل بينها وبينه علاقة شرعية، ويوسف النجار هـو خطيـب ولـيس زوجـا. ولـم تكن في حياتها إلا الطاهرة العفيفة التي مازنـت ولا خالطـت الرجـال؛ وصـرحت بمـا جرى في نفسها قائلة: يبعـد أن أحمـل، إذ لـم يحصـل بينـي وبـين أي بشـر وصـال حلال، ولم أكن زانية. وهذا أمر يوقعني في حرج ليس وراءه حرج.

21- قال كذلك قال ربك هو علي هين...وكان أمرا مقضيا.

المشهد السادس: الملك يطمئنها .

أجابها الملك: إنه على النحو الذي أخبرتك صدر الإذن الإلهي. وحملك من دون لقاء جنسي ميسور على القادر الذي لا يعجزه شيء. ويكون من الحكمة في ذلك أن يجعل خلقه من أم دون أب معجزة تؤكد قدرة الله التي تخرق الأسباب العادية، ويكون ما ستحملينه رحمة من الله للناس، سيهديهم إلى طريق النجاة التي ينالون بها رضوان الله والفوز في دار الآخرة. وقُضي الأمر ونُفّذ ما أراده الله وليس لك اختيار في هذا يا مريم . فاستعدي للمستقبل .

سـؤال: لسائل أن يسأل: ما هي الحكمة في جعل جبريل واسطة عرّف مريم بما ستحمله؟ ولماذا فضل هذا الوجه على نفخ الروح في بطنها نفخا يتولد منه عيسى بدون توسط جبريل ؟

وجوابا عن ذلك نقول: إن عقولنا تقصر عن جمع أوجه الحكمة فيما قدره الله ونفذه. وقد يكون من حكمة ذلك: أن مريم لو انتفخ بطنها وأحست بالجنين يتحرك في أحشائها دون أن تمر بما مرت به، لكان يمكن أن تحدث في نفسها هواجس لا تجد لها حلا، مما يؤثر على أعصابها وعلى الجنين. ولولا ذلك اليقين الذي استقر في نفسها لكان لها مواقف مع الجنين قبل ولادته، وبعد ولادته، قد تكون سيئة جدا. وأن ذلك أعطاها قوة على مواجهة اليهود الذين رموها بالزنا بعد ولادته.

۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

أجاءها : جاءها وهي ملجأة.

المخاض: ما يصحب خروج الولد من بطن أمه من تفاعلات.

الجذع: ما يحمل جريدا النخلة.

النسي : التافه الذي شأنه أن ينسى .

سريا: يطلق السري بمعنى العظيم من الرجال، وبمعنى الجدول.

الرطب : التمر قبل أن يجف.

جنيا : قريب الانفصال عن أصله

تساقط : تتساقط.

قري عينا : اهنئي بعيشك.

الإنسي : الإنسان

بيان المعنى الاجمالي :

تحقق ما أراده الله وعلق الجنين، فاعتزلت أهلها واستقرت في مكان بعيد عنهم، والنهاية معلومة أن يتم نمو الجنين في بطنها ويأتي وقت فصاله. كانت وحيدة

مستندة إلى جذع نخلة. تألمت أشد ما يكـون التـألم، ألـم الـولادة، والوحـدة، والخـوف من قالة الناس بما يسيء إليها وإلى أسـرتها، والولـد الـذي وضـعته لا يعـرف لـه أب. فنطقت عما تشابك في باطنها من الأحاسيس، وقالت يـا ليـت المـوت أخـذني قبـل أن أصل إلى الذي أنا فيه ، فكنـت شـيئا تافهـا ينسـى ولا يلتفـت إليـه. وتسـمع صـوت وليدها وقد نزل إلـى الأرض صـوتا فصـيحا لا بكـاءً كمـا هـو شـأن الأجنـة عنـد الانفصال عن الأمهات. ارفعي عنك الحزن، فـإن الـذي ولدتـهِ شـخص عظـيم . إنـك تحت مظلة العناية الإلهية، هزي الجذع الذي أنـت مسـتندة إليـه، فسـينزل عليـك منـه رطب حديث العهد بجنيه، اطرحي الأسى والحـزن، وكلـي منـه مـا شـئت واشـربي، ولتملأ السعادة نفسك. ولا تفكري في قالة المتطفلين عليـك، عـودي إلـى أهلـك وأنـت واثقة في نفسك، وانذري صوما عن الكلام، فإن اعترضـك أي فـرد مـن البشـر يسـألك عن ولدك، فلا تجيبي وأومئي بأنك نذرت الصوم فلا أكلم أحدا من الناس .

بيان المعنى العام :

22-فحملته فانتبذت به مكانا قصيا.

المشهد السابع: مريم تضع حملها .تحقـق حملهـا وتمـا الجنـين فـي بطنهـا وخافـت الفضيحة، فاعتزلت قومها وذهبت إلـى مكـان بعيـد عـنهم. ولا يهمنـا تعيـين المكـان الذي اختارته مُقاما لها حتى تضع حملها.

23-فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة...نسيا منسيا.

بلغ الجنين الوقت الذي ينزل فيه إلى الأرض وينفصل عن أمه. وحصل لها من التفاعلات الجسمانية ما جرت عليه السنة في الأمهات عندما يضعن حملهن. تصورها الآية وهي تعاني انفصال حملها وحيدة مستندة إلى جذع نخلة. في هذا الجو من الوحدة، ومن الام الوضع، ومن توقع هتك عرضها برميها بالزنا، والمولود والده غير معلوم، وهي من أسرة شريفة نذرتها أمها أن تكون قيمة على خدمة المعبد، ومن عواطف الأمومة الحانية على ما أنست به في بطنها كل مدة الحمل حسب الفطرة التي فطرت عليها كل أنثى .تتفاعل تلكم الأحاسيس فتقول: أتمنى لو حل بي الموت. الموت المبغوض من الإنسان تشتهيه، إذ هو خير لها من الوضع الذي هي فيه. وتتمنى أن لو كانت شيئا تافها لا يعتني به ينسى دون أن يتفطن إليه

24-فناداها من تحتها ... قد جعل ربك تحتك سريا.

نزل المولود إلى الأرض، وسمعت صوته لـيس بكـاء كبكـاء المولـودين، كـان نـداء بصوت بين، وكلمـات واضـحة الدلالـة، إن الـذي ولدتـه هـو عظـيم مـن عظمـاء الإنسانية (سريا) وأرجح هذا المحمل، لأنه يرفع ما قالتـه: و كنـت نسـيا منسـيا تافهـة لا يلتفت إلى. يقول لها كيف تكـونين تافهـة وأنـت ولـدت عظيمـا سـيؤمن بـه مـا لا

يحصى من البشر ! فما ابتلاك به ربك هو سيزيد في مقـدارك. فيكـون هـذا أرشـق ممـا ذهب إليه أكثر المفسرين: أن سريا (جدولا) ليناسب قوله بعد (واشربي)

25←26، وهزي إليك بجذع النخلة تساقط...فلن أكلم اليوم إنسيا.

واصل عيسى بما يُمكن من الطمأنينة في قلبها، ويمسح مـا ساورها مـن الخـوف مـن الفضيحة، فأظهر لها أنها تحت رعاية الله وعنايته الذي أمّـن لهـا قوتهـا، وأرشـدها إلـى تحريك الجذع الذي تقوّتْ بـه للتغلـب علـى آلام الوضـع، لينـزل عليهـا رطبـا علـى أفضل وضع، وهو الوضع الذي يكـون قريـب الانفصـال عـن الشـماريخ التـي كانـت تحمله. وشأن الرطب أن لا ينـزل بتحريـك الجـذع بـل بتحريـك العرجـون. اطمئنـي واقبلي على الحياة فكلي واشربي بدون خوف ولا وجـل، وانشـري فـي نفسـك الشـعور بالرضا والسعادة، واهنئي بالعيش الذي يسره لـك ربـك، وبمـا حبـاك مـن ولـد سـري ماجد. ولا تفكري فيما يشغب به عليك الناس، كـوني قويـة متحديـة لفضـولهم. انـذري صوما لله عن الكلام، ثم عودي إلى أهلك فإن اعترضـك أحـد مـن النـاس وسـألك عـن هذا المولود الذي تحملينه، فلـيكن جوابـك بالإيمـاء، بمـا يفهـم منـه: إنـي نـذرت لله صوما فلن أتكلم اليوم مع أي واحد من الناس .

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

شيئا فريا : فعلت فعلا سيئا.

امرأ سوء : رجلا فاسد السلوك.

البغي : الزانية.

المهد : فراش الصبي .

الكتاب : الشريعة

المبارك : الذي تقارن البركة واليمن والخير أحواله، فهو نفاع ومعلم خير .

أوصاني : أمرني أمرا مؤكدا.

البر : السعي في الطاعة.

الجبار : المتكبر المتعظم.

الشقي :الخاسر الفاقد للسعادة.

بيان المعنى الاجمالي :

أخذت مريم وليدها، وقد اطمأنـت نفسـها بمـا سـمعته مـن ابنهـا إثـر وضـعه ثـم توجهت إلى قومها . قدمت عليهم وهي تحتضنه. تعـرض لهـا الفضـوليون قـائلين : يـا مريم لقد ارتكبت أمرا منكرا وفعلت فعلا سـيئا. رموهـا بالزنـا إذ الولـد فـي حضـنها وهي معروفة لديهم أنها غير ذات زوج. ثـم بـالغوا فـي الإنكـار عليهـا سُـقوطها فـي الزنا ،باعتبار أنها تنحدر من أسرة صالحة.

أشاروا أولا: أنها من نسل هارون من بنـي لاوي أخـي موسـى، وثانيـا أن أباهـا كـان رجلا بعيدا عن مواقع الفساد، وأن أمها كانت امرأة عفيفة لا زانية.

لم ترد عليهم إذ هي نذرت الصوم لله، أشارت إليـه إشـارة مفهمـة أن علـيهم أن يسـألوا الصبي فسيجيبهم. قالوا: كيف نطلب الجواب من ولد مـا يـزال فـي بـواكير صـباه لـم يفارق المهد. سألوا عيسى فأجابهم بلسان طلق: إنـي عبـد مـن عبـاد الله ولسـت ملكـا ولا ابنا لله. أعطاني الله الكتاب الجامع للشريعة، وفوق هـذا جعلنـي نبيـا أتلقـى الـوحي عنه. وجعلني مباركا ففي جميع حـالاتي يصـحبني الفضـل والخيـر. وألزمنـي الحفـاظ على الصلاة والزكاة حفاظا يصـحبني كامـل أيـام حيـاتي. وأن أكـون بـارا بوالـدتي أطيعها وأكرمها. وجعلني متواضعا رفيقـا بعيـدا عـن الغطرسـة والجبـروت. وجعلنـي سعيدا لا شقيا. والسلام من الله نازل علي في الأحـوال التـي لا يكـون لـي فيهـا حـول ولا قوة: يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم أبعث فيه للحشر يوم القيامة.

بيان المعنى العام :

27-فأتت به قومها تحمله ....شيئا فريا.

المشهد الثامن: مريم في مواجهة قومها .

قدمت مريم على قومها تحمل ولدها، وقد وثقـت بنفسـها وزال مـا كـان يسـاورها مـن مخاوف من اتهامات الفضوليين الظانين ظن السوء.

تصدى لها بعضهم مصرحا بتهمتها في عفافها مؤنبا لها، بقولـه: يـا مـريم لقـد فعلـت فعلة سيئة شنيعة و غير مقبولة .

28-يا أخت هارون ما كان أبوكـ...بغيا.

ثم أضافوا : يا أخت هارون لقد خرجت عن المنهج المعــروف مــن أســرتك، لقــد كــان أبوك رجلا صالحا ،وما كان ممن يرضى فعــل مــا هــو ســوء و منكــر ، وكانــت أمــك طاهرة نقية بعيدة عن السقوط في البغاء والزنا.

وفي دعوتها بأخت هارون بعد دعائهــا باســمها " مــريم " إشــارة إمــا إلــى أنهــا مــن اللاويين من سبط هارون، فتذكيرها بنسبها إلى النبــي هــارون إمعــان فــي نكــران مــا اتهمت به من الزنا. وإما أن يكون لها أخ صالح اســمه هــارون. وقــد أخــرج الترمــذي عن المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ بعثه إلى نجــران فقــالوا: ألســتم تقــرؤون "يــا أخــت هارون " وقد كان بين عيسى وموسى مــا كــان؟ قــال المغيــرة فلــم أدر مــا أجيــبهم . فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته. فقــال: ألا أخبــرتهم أنهــم كــانوا يســمون بأنبيــائهم والصالحين قبلهم[1].

29- فأشارت إليه ...من كان في المهد صبيا.

نظرت إليهم نظرة الواثقة في نفسها المترفعــة عــن محــاورتهم، وقــد كانــت نــذرت أن تصوم فلا تتكلم ، ولكي تبهــتهم اكتفــت بالإشــارة إلــى المولــود الــذي كانــت تحملــه إشارة فهموا منها أن يكفوا عن سؤالهم لها، وأن يتوجهــوا بأســئلتهم إلــى الصــبي الــذي تحمله. ولشدّ ما كان إنكارهم لما أرادته منهم فقالوا: كيــف نكلــم مــن هومــا يــزال فــي بواكير صباه لم يبرح المهد بعد ؟

30←33، قال إني عبد الله آتاني ....قول الحق الذي فيه يمترون.

المشهد التاسع: المعجزة تظهر للناس.

كلموا عيسى وسألوه عن شأنه. فأجابهم بعرض صفاته الذاتية التي ميزه الله بها.

الصفة الأولى التي بادر بها: إثبات عبوديته لله. ألقى الله علــى لســانه ذلــك فــي افتتــاح الكلام، نفيا لما سينحرف إليه النصارى من الغلو فيــه حتــى جعلــوه ابنــا لله. والعبوديــة لله شرف الإنسان، فليس هو شيئا مهملا، ولكنه متصــل بــالله اتصــال مــن يعــرف مقــام ربه ويعرف مقام نفسه، وينسجم بذلك مع المنظومة الكونية.

الصفة الثانية: الفقه في التشريع، ذلك أنه تلقــى علــم الكتــاب، إمــا التــوراة أو الإنجيــل، على معنى أنه وعى التشريع الثابت بما أنزله الله.

الصفة الثالثة: النبوة، أنه رزق فوق علم الكتــاب والتفقــه فــي التشــريع، أن الله فــتح لــه باب النبوة فسما إلى تلقي الوحي من الله.

---

[1] ح 3155 ج5 ص220

الصفة الرابعة: اقتران الخير بـــي، خيـــر الـــدنيا وخيـــر الآخـــرة. فهـــو النفّـــاع للنـــاس، يعلمهم الخير وينهاهم عن المنكر، ويسمو بأخلاقهم، وييسر عليهم ما شق عليهم.

الصفة الخامسة: عناية الله بي، فقد أكد علي أن أقـــوم بالصـــلاة وبالزكـــاة، قيامـــا يـــرتبط بهما فكري وعملي، كامل أيام حياتي لا أغفل عنهما، بل أجد الأنس في القيام بهما.

الصفة السادسة: الطاعة والإكرام لوالـــدتي. وفـــي التنصـــيص علـــى هـــذا الوصـــف مـــا يفصح عن مقام مريم عليها الســـلام ، فقـــد أخبـــر عيســـى أن الله أوصـــاه بثلاثـــة أمـــور اثنان منهما يعودان إلى صلته بربه في الصلاة والزكاة، والثالثة في البر بأمه .

الصفة السابعة: أني لـــين الجانـــب متواضـــع، فقـــد طهرنـــي مـــن التعـــاظم والكبريـــاء، والقسوة. فإن الجبارين لا يكونـــون إلا تعســـاء لـــبغض النـــاس لهـــم، وشـــماتتهم بهـــم إذا نُكبوا. وهم بمعرض النكبة لانقطاع الود بينهم وبين الناس.

وختم عرضه، بأن الله كتب له السلام والأمن والرضـــا فـــي الأحـــوال التـــي يكـــون فيهـــا الإنسان أحوج ما يكون إليها.

أولا يوم ولدت، وكذلك كان. فإن الله يسر لأمه عند ولادتـــه كـــل خيـــر، وكانـــت ولادتـــه تحولا في نفسها من الخوف إلى الأمن.

وثانيا يوم أفارق الحياة والإنسان على أشـــد مـــا يكـــون مـــن الضـــعف، لا نجـــاة لـــه ولا أمن إلا بفضل من الله وعناية، وثالثا يوم أبعث حيا يوم القيامة.

وفي تنصيصه ﷺ على الأحوال الثلاثة، رد وتكذيب لما أشـــاعه اليهـــود فيـــه: أنـــه ولـــد من زنى، وأنه مات مصلوبا، وأنه يحشر مع الكفـــرة. فقـــد صـــحبه الســـلام الإلهـــي فـــي الأحوال الثلاثة.

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

يمترون: يشكون.

الصراط المستقيم : الطريق الحق المفضي إلى المقصود الذي هو الهدى.

الأحزاب : أحزاب النصارى.

بيان المعنى الإجمالي :

ذلك الذي بينا حقيقته هو عيسى ابن مريم ، وليس ما يدعيه النصارى من كونه إلها ولا ما يدعيه اليهود من كونه ابن زنا هالكا لخروجه عن التوراة . وما نزلنا في القرآن هو القول الحق الذي اختلف فيه أهل الكتاب فضلوا. إنه لا يمكن أن يكون لله ولد تنزه عن ذلك، إذ كل الكائنات مخلوقة له. إذا تعلقت إرادته وقدرته بإيجاد شيء فإنه يوجد في الحال.

إن الله هو ربي وربكم ، تقتضي ربوبيته إفراده بالعبادة والتقرب بما شرعه. هذا هو التصور الصحيح المفضي إلى السلامة في الدنيا والآخرة. الموصل إلى السعادة كالطريق المستقيم الذي يضمن لسالكه ابتعاده عن الضياع والمتاهات. ثم إن النصارى تفرقوا إلى أحزاب واختلفوا، وساروا مع تصورات باطلة فالخزي لهم والحزن والعذاب عندما يحضرون راغمين ويشهدون اليوم العظيمْ عذابُه وفضائحه. ما أسمعهم وما أبصرهم اليوم لما أعد لهم من العذاب والمهانة! وقد كانوا في الدنيا غافلين أصموا آذانهم ، وأغمضوا عيونهم، في هذا اليوم الذي يقدمون علينا راغمين؛ ولكن الظالمين بالكفر والشرك ودعوى أن عيسى ابن الله ، هم في الدنيا سادرين في ضلالهم البين.

بيان المعنى العام :

34-ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون.

تهيأ للسامع وصف دقيق لحياة عيسى من الحمل إلى الكلام في المهد، فجمعته الآية لتشير إليه بتفاصيله، وليكون حاضرا في الذهن ليرتب عليه النتيجة المقصودة من هذه القصة. و أكدت مفاد ما يفهم منها بأنه القول الجامع للحق، المظهر للحقيقة، النافي كل التصورات الباطلة التي عششت في عقول الضالين من اليهود والنصارى. هذا القول الذي خفي على أهل الكتاب فأخذوا يختلفون في حقيقة عيسى بين مستنقص له، كذب على عيسى وكفر به وهو ابن زنا، وبين مغال فيه زاعم أنه لما ولد على خلاف ماجرت عليه سنة الإنجاب أنه لا بد أن يكون له والد فإذا لم يكن إنسانا فليكن ابنا لله .

35- ما كان لله أن يتخذ من ولد... يقول له كن فيكون.

والمقصود من القصة : أن الله لا ينبغي له أن يتخذ ولدا. فتصور أن الله له ولد منفي نفيا قاطعا بما يقتضيه النظر العقلي. تنزه عن ذلك "سبحانه" إذ اتخاذ الولد

يقتضي أن يكون الولد من جنس الوالد يحمل خصائصه ، وعيسى ﷺ بشرٌ حادث جرى عليه ما يجري على المخلوقات كلها. و إذا كان الله خلقه من غير أب، فغاية ما يفيده الحدث أنه مخلوق لله كسائر المخلوقات. والصورة التي يجب أن ترتسم في الذهن والتي هي من حقيقة الألوهية: أنه سبحانه إذا تعلقت إرادته ثم قدرته بأي أمر من الأمور، فإن الإخراج إلى الوجود يتبع بدون واسطة ما تعلقت به القدرة والإرادة. من الأمر التكويني .وليس المراد أن الله يقول كن، أن الشيء يوجد عندها. بل إن الممكنات تنشأ بمجرد ما تتعلق الإرادة بإيجادها.

36-وإن الله ربي وربكم فاعبدوه...صراط مستقيم.

ويتصل بكل ما سبق تقرير العقيدة : أن الله هو ربي وربكم، فاعبدوه، إذ هو الحقيق بأن يعبد ويتقرب إليه، يرجى فضله ويخشى سخطه وعذابه. إن إقراد الله بالعبادة ونفي كل ما عداه هو الاعتقاد الحق الموصل للسعادة في الدنيا والآخرة. شُبه الملتزم بالتوحيد في تصوره و أرجاءه، بالسالك طريقا مستقيما يصل به إلى غايته، وأن ما حول ذلك الطريق من فروع مضلل يرمي بسالكه في المتاهات والضياع. ويصح أن يكون هذا الكلام من كلام عيسى ﷺ عند مخاطبة الفضوليين المتهمين لأمه. كما يصح أن يكون المخاطب هو سيدنا محمد ﷺ .

36- فاختلف الأحزاب...من مشهد يوم عظيم .

إن الأحزاب ممن يدعون أنهم أتباع السيد المسيح ﷺ، قد انحرفوا عن الصراط المستقيم الذي هو الوحدانية الخالصة لله، وأن ما سواه مخلوق له وعبد له. وفرقٌ النصارى فرقٌ كثيرة ما تزال تنقسم وتتباعد مع الزمن، إذ أدخلوا التصورات البشرية في البحث عن مفهوم الألوهية وما يتبع ذلك. وهم منقسمون اليوم إلى الأقسام الكبرى: الأرثودوكس، والكاثوليك، والبروتستانت .وكل فرقة من هذه الثلاث منقسمة إلى شعب كثيرة.

إن جميع الفرق التي ألّهت عيسى قد استحقت مقرها في جهنم، هم قد تحقق منهم الكفر، لهم الهلاك والخسران. والخزي والحزن محقق عند حضورهم وشهودهم هول الحساب والجزاء في يوم القيامة .

38- أسمع بهم وأبصر...في ضلال مبين.

هذه صيغة تفيد التعجب نحو قوله ما أسمعهم وما أبصرهم. فيها إشراك السامع في استحضار المشهد المتعجب منه. والمعنى أن ما سينالهم من العذاب البالغ حدودا تتجاوز الوصف، العجب منهم كيف يطيقون السمع والبصر بما يكرهونه!

تعجبوا من وضع الكافرين من النصارى وعبدة الأصنام يوم يأتون قسرا للحساب لدى رب العالمين، لا يستطيعون فرارا ولا عصيانا للأمر الجامع للبشر جميعا. إنهم وإن كانوا اليوم ينعمون بما تجمّع لهم من حظوظ دنيوية، لكنهم في الحقيقة ظالمون بالشرك وتصوير الذات الإلهية على غير ما يجب لها من التنزيه سادرون في ضلال واضح لمن له عقل .

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحسرة : الندامة الشديدة.

قضي : تم تنفيذ ما قدر.

الغفلة: الذهول عما ينبغي أن يعلم.

نرث : سيفنى كل من له تصرف في الأرض وينفرد الله بالتصرف فيها.

بيان المعنى الاجمالي :

خوّف المشركين وأدخل الرهبة في قلوبهم من اليوم الذي تتواصل فيه الحسرات على ما فرطوا في الدنيا. هو اليوم الذي ينفذ فيه القضاء ولا مرد له. و العجب منهم أنهم في ذهول عن هذا اليوم، ماضون على الكفر وعدم الإيمان.

سيفنى الكون كله الأرض ومن عليها، وسينفرد الله وحده بالتصرف. وسيعودون إليه لينالوا جزاء ما قدموا.

بيان المعنى العام :

أخبرهم بالمصير الذي يخوفهم حتى يأخذوا حذرهم منه. هو يوم الحسرات على ما فرطوا في دنياهم، ومشاهدة المهانة والعذاب، وقد كان يمكنهم أن يقوا أنفسهم منه بالتوحيد وبالعمل الصالح في الدنيا. ذلك اليوم الذي لا مرد لما قضاه الله فيه . والعجب أنهم غافلون عن هذا اليوم مصرون على الكفر وعدم الإيمان

39-وأنذرهم يوم الحسرة...وهم لا يؤمنون.

أعلمهم بما يترصدهم من سوء ليأخذوا حذرهم منه، هذا الذي يترصدهم هو حضورهم في اليوم الذي تكون فيه الحسرات متواصلة. يذكرون تفريطهم ويحضر أمامهم ما هم صائرون إليه، ويستفيقون إلى أنه كان في إمكانهم أن يقوا أنفسهم سوء المصير، فتتوالى حسراتهم ،حتى كأن اليوم كله حسرة. والعجب أنهم في

ذهول عن هذا اليوم الذي يتم فيه القضاء، فيــأذن الله بتنفيــذ الموعــود .والعجــب مــنهم أنهم يواصلون ثباتهم على الكفر وعدم الإيمان.

40-إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون.

مع التأكيد الكامل سيفنى ما على الأرض من الكائنــات التــي لهــا وجــه تصــرف فــي كوكب الأرض، من الحيــوان والإنســان. وتصــرف الله فــي الأرض ومــن عليهــا مــن الكائنات سينفرد به وحده بعد هــلاك كــل مــن عليهــا. وســيعود الجميــع إلــى قبضــة الجبار ينفذ فيهم ما سبق في قضائه القضاء العدل. وما ربك بظلام للعبيد .

وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الصديق: المتصف بالصدق بصفة بالغة في الامتثال لما كلف به .

النبي : من سما لقبول الوحي من الله.

يا أبت : يا أبي زيدت التاء في آخره .

العصي : المبالغ في العصيان .

وليا : صاحبا، مصيرهما واحد.

بيان المعنى الاجمالي :

أمر من الله لرسوله أن يذكر قصة إبراهيم في القرآن ونوه بــه بأنــه بــيّن الصــديقية فــي كمال الامتثال والصدق في ذلكم الظرف الذي دعا فيه أبــاه ليرشــده إلــى مــا ينقــذه مــن الضلال. دعاه أربع مرات بيا أبت ! مستفهما أولا: عــن عبادتــه إلهــا أصــم لا يســمع، أعمى لا يرى، عاجزا لا يساعد لا على جلــب خيــر ولا علــى دفــع ضــر. وثانيــا: أن يطرح ما هو عليه وأن يتبع ابنه، وليس فــي ذلــك غضاضــة لأن ابنــه قــد تلقــى مــن العلم ما لم يحصل عليه أبوه، وبهذا العلم ســيهديه إلــى الصــراط الســوي المبلــغ للحــق والسعادة. وثالثا: موقظا له بأنــه يتبــع المســالك التــي زينهــا الشــيطان متخفيــا دون أن يشعر أنه متبع للشيطان. والشيطان جبل علــى العصــيان للــرحمن .ورابعــا: إن اتباعــه

للشيطان الذي هذا شأنه سيفضي به إلى عاقبة يخشى عليه فيها أن يقع تحت طائلة العذاب من الرحمن الذي لا يرحم الشيطان وأتباعه ، ويرتبط مصيره به فيكون مصاحبا له .

بيان المعنى العام :

41- واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا.

عطف القرآن قصة إبراهيم على قصة مريم، واستويا في طريقة الافتتاح: واذكر «اذكر يا محمد في القرآن خبر إبراهيم، الذي أقام أول معلم للتوحيد: الكعبة بيت الله الحرام . وهذا الأمر والعناية مبناه، أن العرب ينسبون أنفسهم إليه، ويحجون إلى البيت الذي أسسه، ويرون أن شرفهم في القيام على شريعته. فذكر خبره على النحو الذي سيرد في الآية محرض لهم على ترك الشرك والإقبال على التوحيد.

افتتح القرآن الحديث عن إبراهيم بالتنويه بصدقه الذي بلغ مستوى رفيعا جدا، فكلمة "صديقا" تعبير عن منزلته ﷺ في الصدق، الذي يشمل صدق الحديث، والصدق في الامتثال فلا تجد في قيامه بما كلف به تهاونا ولا ترددا ولا نقصانا، كما سيأتينا في سرعة امتثاله لما أمر بذبح ولده. ثم أردف أنه كان مع صديقيته نبيا من أنبياء الله يوحى إليه.

42-إذ قال لأبيه يا أبت...ولا يغني عنك شيئا.

اذكر إبراهيم في الظرف الذي توجه لأبيه ناصحا. وفي تتبع قصة محاورته له عبر في الدعوة إلى الحق، وفي طريقة عرضه.

فاتح ابراهيم أباه بندائه شأن الولد مع والده في الاستغاثة به، و لفت نظره إلى ما هو في حاجة إليه، ليقبل عليه بدافع الفطرة. ثم ألقى عليه السؤال المحرك لعقله كأنه يقول له: ماهي العلة وما السبب الذي جعلك تعبد كائنا لا يسمع دعاءك إذا دعوته، ولا ابتهالاتك إذا توجهت إليه طالبا متقربا، ولا يراك في تقلبك في الأمكنة والأزمنة فلا صلة بينك وبينه، و مع هذا الانقطاع بينك وبينه لا يستطيع أن يسعفك بما أنت في حاجة إليه ولا أن يدفع عنك ضرا تتعرض إليه.

43-يا أبت إني قد جاءني...أهدك صراطا سويا.

ثم واصل مرتقيا متلطفا حتى لا يثير فيه تعالي الكبار على من هم دونهم سنا، فأعاد النداء " يا أبت " أخبرك أني قد وصلني حظ من العلم لا تعلمه أنت، وأنا أدعوك أن تتبعني فيما وصلني من المعرفة، فبفضل ما أوتيتُه أهديك طريقا مستقيما واضحا، يبلغك الحق الذي يقتضيه العقل. وهذا التقديم من إبراهيم مع ثناء الله عليه فيه دلالة على أن الحقيق بالاقتداء به هو العالم.

44-يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا.

ويواصل نداءه ثالثة بدعوته أن يقلـع عـن عبـادة الشـيطان الـذي اسـتقر فـي فطـرة البشر أنه مضل للإنسان لا يقوده إلا للشـر، ولكـن قدرتـه علـى التضـليل فـي خفـاء تجعل المنحرف لا يتفطن إلى أن ضلاله جاء مـن الشـيطان. فـإبراهيم عليه السلام يـوقظ أبـاه بفضل ما أوتيه من العلم أنه متبع للشـيطان دون أن يـتفطن. ويؤكـد عليـه أمـر ابتعـاده عما يدعو إليه الشـيطان ومـا يوسوسـه، بـأن الشـيطان قـد اسـتقر علـى عصـيان الرحمن عصيانا لا يخالطه طاعة أبدا. فمن اتبعه فقد قطـع مـا بينـه ومـا بـين الرحمـة العظمى ، ولذلك اختير لفظ الرحمن.

45- يا أبت إني أخاف أن يمسك...للشيطان وليا.

ثم يواصل نداءه رابعا ملحا: يا أبت – مظهـرا التحـنن والاهتمـام بأبيـه فـي الحاضـر والمآل، إني أخاف عليك أن يعذبك الله علـى اتبـاع الشـيطان فتكـون رفيقـا مصـاحبا للشيطان، مآلكما واحد. التعبير بالخوف دون التيقن، مـع أن مـن يتبـع الشـيطان خاسـر لا محالة، لوحظ فيه أمران: أحدهما تأدبـه مـع الله إذ العـذاب مـن أمـره سـبحانه فـلا يحقق ما هو من أمر الله، وثانيهما لأنه يرجو أن يتوب أبوه فينقذ نفسه من العذاب .

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الرجم : القتل بالرمي بالحجارة.

الهجر : قطع المكالمة، والمعاشرة.

مليا : طويلا.

الحفي : الشديد البر والإلطاف .

أدعو ربي : أعبده.

اللسان : الذكر.

الصدق : ثناء الخير والتبجيل.

بيان المعنى الاجمالي :

إعراض أبيه وجفاؤه، وعبادة الأصنام، أجبره ذلك على الانتقال من الأرض التي بها قومه. ولم يظهر منه إلا ما عرف به من سمو خلقي بعيد عن الجفاء، فقال مودعا لوالده وهو كبير القوم: سلام عليك، الأمن عليك فسوف لا أقابل جفاءك وتهديدي بالمثل، وأطلب ربي أن يغفر لك ذنوبك، فإنه عودني قبول دعائي وإكرامي بالاستجابة لي. أترككم مع ما تعبدونه من الأصنام من دون الله، وأتوجه مخلصا بعبادة ربي، ورجائي أن يسعدني بقبول صلاتي ودعائي وابتهالاتي. ثم خرج متوجها إلى أرض الشام.

إنه لما فارقهم ورضي بالاغتراب تصحبه زوجته، ولم يكن لهما ولد في ذلك الوقت. آنس الله وحشته فوهب له من فضله إسحق وأنجب إسحق يعقوب، انضما إلى العائلة قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى. وجعل كلا منهما نبيا سما إلى تلقي الوحي من الله.

ويتنزل شيء من الرحمة على هذه الأسرة بما أعد الله لها من الكرامة في الدار الآخرة. كما أكرمها في الدنيا بإطلاق الألسنة بالثناء على أعضائها ثناء رفيعا، فجمع لها بين سعادة الدارين فضلا من الله، والله ذو الفضل العظيم.

بيان المعنى العام :

46- قال أراغب أنت عن ألهتي ...واهجرني مليا.

بعد الدعوة التي جمعت بين اللطف والنصح وبيان العاقبة، تقدم الوالد العاتي الغليظ، فواجه ابنه مفتتحا بسؤال فيه إنكار، مقصود به التعجب من إعلانه عن رفضه لعبادة آلهة أبيه. وناداه (يا إبراهيم) إشارة إلى أنه في نظره مغرق في الذهول فيوقظه بالنداء ليعود إلى رشده وينتبه إلى خطئه. ثم أعلن عن تهديده له مؤكدا: أنه سيرجمه بالحجارة إلى أن يموت ويقضي على حياته الرافضة للخضوع للآلهة. وأضاف، أنه بين تنفيذ الرجم وبين زمن التهديد، أنه يقطع ما بينه وبينه، فلا يكلمه ولا يجلس في مجالسه، مهما طال الزمن. ومن الجفاء أنه عبر عن المقاطعة بقوله: اهجرني مليا للإشارة إلى أن هذا الهجر يقصد منه طرده احتقارا وتوهينا لشأنه ، وقد انقطع ما بينهما من صلات.

47-48،قال سلام عليك سأستغفر ...ألا أكون بدعاء ربي شقيا.

أمام هذا التصميم والعنف، كان موقف إبراهيم جاريا على ما أدبه به ربه من الكمالات ، وعدم مجاراة أبيه في غلظته . يبدو هذا الأدب والسمو في:

أولا: أن ودعه بقول سلام عليك. بما تدل عليه هـذه الصـيغة مـن أنـه يـود أن يـتمكن منه السلام والأمن. وفهمت من هـذا التوديـع أن إبـراهيم يرجـو أن يحـل السـلام فـي قلب أبيه بترك عبادة الأصنام والإخـلاص لله. و ممـا يقـرب هـذا أنـه أعقـب سـلامه بوعده: أنه سيواصل طلب المغفرة لأبيه، وأنه علـى رجـاء أن يغفـر لـه اعتمـادا علـى ما عوده ربه من تكريمه، وإسعاده بالألطاف.

ثانيا: أعلن أنه سيعتزل أباه وقومه، ولا يبقى فـي بلـد يعلـن فيـه الشـرك بـالله، ولـذا عطف على اعتزالهم والبعد عنهم، الانفصال عمـا يعبدونـه مـن الأصـنام مـن دون الله، التي كان تقديسها والإيمان بها السبب الذي من أجله اعتزلهم.

ثالثا: أنه سيواصل دعاء ربه الذي يعتز بانتسابه إليه فهـو يعبـده ويناجيـه ، وهـو آمـل راج أن يسعده بالقبول، وأن تكـون عاقبتـه صـالحة غيـر خاسـرة علـى الشـأن الـذي عوده به ربه من قبول دعائه .

49- فلما اعتزلهم وما يعبدون...وكلا جعلنا نبيا.

خرج عن قومه وسار في أرض الله إلى المقام الذي هدي إليه بالشام. وإنه لما آثر الاغتراب عن قومه، ورفض آلهتهم التي يعبدونها ويقدسونها ويتوسلون إليها من دون الله، ترتب على ذلك أن الله آنس وحشته ورزقه بركة في عائلته، فولد له إسحق من زوجته هاجر ،وأكرم بولادة حفيده يعقوب في حياته. ونوه الله بإسحاق ويعقوب، على أن الله قدر السمو بهما إلى مرتبة النبوة. ولم يذكر في هذا المقام إسماعيل لأن الأنس العائلي الذي عوض له اعتزال قومه كان بما تركبت منه العائلة في ذلك الظرف: هاجر وما ربي في حجرهما. وأما إسماعيل فقد كتب الله له أن يعيش بعيدا عن والده عند أول بيت وضع للناس جميعا، إيذانا بأنه سيتناسل منه من يرسله الله للناس جميعا محمد ﷺ . وسيأتينا التنويه به في الآيات 57/56 في هذا السورة وفي غيرها من السور. كسورة الصافات و (ص)

50- ووهبنا لهم من رحمتنا...لسان صدق عليا.

ثم أتبع التنويه بما تفضل الله به علـيهم، بـأن الله قـدر أن ينـالهم شـيئا مـن رحمتـه، تكون به حياتهم سعيدة ونسلهم مباركا فيه يرقى لحمـل النبـوة. وأن يلقـى الثنـاء علـيهم على ألسنة البشر اعترافا بفضلهم عليهم، ويضفي علـيهم مـن التبجيـل مـا أهلهـم لـه. وهو ثناء وتبجيل يبلغ كل منهما حد الكمال فـي نوعـه. فجمـع لإبـراهيم بـين التقـدير والسعادة في الدنيا بالنسل الصالح، والجزاء الأخـروي المـدخر للصـالحين، بمـا سـينالـه من رحمة الله وحسن جزائه.

وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا

بيان معاني الألفاظ :

المخلص : الإخلاص هو النقاء من كل شائبة تكدر الصفاء.

ناديناه : طلبنا منه أن يقبل .

الطور : الجبل الواقع بين بلاد الشام ومصر. وهو طور سيناء

جانبه : ناحيته السفلى.

التقريب: تقريب اعتباري حتى اختص بسماع ما أوحي له.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر يا محمد في القرآن موسى عليه السلام ؛ اذكره بمزاياه التي منها إخلاصه في تحمل عبء الهداية. فقد كان رسولا في مرتبة من المراتب العليا للمرسلين. و طلبنا منه أن يقبلَ على وعي الوحي لما كان الطور في جانبه الأيمن. وسمونا بمداركه فأصبحت تتلقى عنا ما نريد إبلاغه بدون واسطة لا من الأذن ولا بملك. يتلقى عنا كلامنا مختصا بذلك كما يتلقى المناجي كلام نجيه. وأكرمناه بتأييده بأخيه هارون الذي ارتقى إلى درجة النبوة استجابة لدعاء موسى.

بيان المعنى العام:

51←53: واذكر في الكتاب موسى....أخاه هارون نبيا.

اذكر يا محمد في القرآن موسى مثنيا عليه بما له من مزايا. إنه كان مخلصا في إيمانه واعتماده على الله حتى في أشد الظروف التي مرت به. بذل غاية وسعه في تبليغ الرسالة، رغم شدة شغب بني إسرائيل ومعاكساتهم، وتوالي طلباتهم التي منها ما هو مناقض للتوحيد. قالوا: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة[1].

وإنه كان رسولا نبيا . ومن المعلوم أن كل رسول نبي، إذ النبي موحى إليه، والرسول موحى إليه مع أمره بالتبليغ فلماذا عطف النبي على الرسول مع أن وصف الرسالة يغني عن وصف النبوة؟ خرجه الألوسي على أن النبي مشتق من النبوة بمعنى الرفعة .اهـ - يعني أن له مقاما رفيعا بين الرسل. وهو ما يشير إليه قوله تعالى: تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله[2] والكليم هو

---

[1] سورة الأعراف 138

[2] سورة البقرة آية 253

موسى. وإنه رفع ما بينه وبين ربه من أبعـاد اعتباريـة لا مكانيـة، فـي المنزلـة التـي سما بها عن خضوع الإدراك للحس. فكان يعـي مـا يخاطـبُ بـه مـن غيـر واسـطة، وجسّم هذا بما يقع بين الشخصين المتناجيين اللـذين لا يسـمع أحـد مـا يجـري بينهمـا. كان موسى ﷺ في ذلك الموقع والطور على يمينـه يتلقـى مـن ربـه كلامـا اسـتوعبه بدون لفظ ولا تموج هواء، ودون أن يمكن لأحد غيره إدراك ما وعاه.

كلف الله موسى بإبلاغ الرسالة، وهي أسمى مقام يمكـن أن يصـل إليـه الإنسـان، وهـذا المقام يحدث في نفس الرسول رغبة أشد ما تكون الرغبة لينجح في مهمته.

فمثلا، كاد عناد قريش للنبي ﷺ ، الذي عطـل انتشـار الإسـلام بالصـفة التـي كـان ﷺ حريصا عليها، كاد هذا العناد أن يهلكه كما أخبـر بـذلك القـرآن ، **فلعلـك بـاخع نفسـك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا**[1].

ولم يكن موسى ﷺ من الفصاحة التي عليها أخوه هارون، فخشي أن يكون وضعه ذاك يقصر به عن إقناع المخاطبين. فسأل الله أن يعززه بأخيه، ليتحمل معه مهمة البلاغ. فأجاب الله دعاءه، فكان تحمل هارون ذلك العبء مع موسى هبة من الله واستجابة لدعائه.

وَٱذۡكُرۡ فِى ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِى ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

صادق الوعد : يفي بما يعد .

مرضي : رضي الله عنه فأنعم عليه بالنعم العظمى.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر يا محمد في القرآن إسماعيل بن إبـراهيم فـي موكـب المرسـلين، الـذي طبعـه الله على الوفاء بوعوده وشرفه بالرسـالة وأعلـى مقامـه. و مـن فضـله أنـه كـان شـديد الحرص على أهله ليقوموا بما فرض علـيهم مـن الصـلاة والزكـاة. ثـم إن الله رضـي عنه فأكرمه بكرامات عديدة، أعظمها أن سيدنا محمـدا ﷺ كـان مـن نسـله فختم بـه رسالاته إلى العالمين.

[1] سورة الكهف اية 6

واذكر أيضا في القرآن إدريس عليه السلام ، أول نبي أوحي إليه من البشــر كــان قبــل نــوح ، الذي كان صادقا في أقواله وفي أفعاله فبلغ درجة الصــديقية، وكــان نبيــا أوحــى إليــه. ورفع الله مقامه إلى منازل عالية.

بيان المعنى العام :

54←55، واذكر في الكتاب إسماعيل ...وكان رسولا نبيا.

اذكر يا محمد إســماعيل الابــن الأول لإبــراهيم عليه السلام . أفــرده القــرآن بالــذكر لتفــرده بإقامة الدين في بلد غير ذي زرع. واستمر الــدين الــذي نشــره فــي الجزيــرة العربيــة، إلى أن ختمت تلك الهداية بالعلم الفرد محمد ﷺ . نوّه بمزايــاه التــي منهــا: أنــه كــان إذا وعد وفى بما يعد. وأبقى هذا الخلق فــي ذريتــه. وتحمــل الرســالة فبلّــغ الــوحي الــذي أتاه من ربه. وكان نبيا عالي القدر بين المرسلين. وكــان حريصــا علــى قيــام مــن هــم إلى نظره بما فرض عليهم من الصلوات ومــا ألزمــوا بــه مــن زكــاة أمــوالهم. وبــذلك بلغ مقاما يطمح إليه الفضلاء ، مقــام الرضــى عنــد الله فأكرمــه بــنعم كثيــرة إذ بــارك فيه وفي ذريته، وقدر أن يكون أشرف الرســل مــن نســله ،فختــم الرســالة بــه لتكــون شريعته هي الشريعة الباقية التي لا يرد عليها ما ينسخها.

56←57،واذكر في الكتاب إدريس ...ورفعناه مكانا عليا.

ختم العرض لموكب الأنبياء في هذه السورة بأمر النبي ﷺ أن يذكر في القران المتلو إدريس عليه السلام . قيل إنه جد لنوح فعلى هذا يكون أول رسول في العالم. وتقدم قريبا معنى الصديقية والنبوة. وثلث القرآن أن الله رفعه مكانا عليا، فرووا روايات عديدة عن رفعه إلى السماء الثانية أو الرابعة، وعن دخوله الجنة واطلاعه على النار. وهي روايات لا يوثق بها. لأن العلو المكاني لا يقتضي تشريفا. يقول الشاعر:

فالنار يعلوها الدخان وربما *** يعلو الغبار عمائم الأبطال

فالذي نرجحه أن الله أعلى قدره ومقامه بين الخلائق. والله أعلم .

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩ (58)

بيان معاني الألفاظ :

هدينا: هديناهم وهدينا بهم.

اجتبينا : اخترنا واصطفينا.

بيان المعنى الاجمالي :

أشارت الأية إلى جميع من تقدم ذكرهم في هـذه السـورة مـن النبيـين فجمعهـم تحـت جامعة الإنعام الإلهي، سواء أكانوا من ذريـة آدم كـإدريس ونـوح، أم مـن ذريـة نـوح كإبراهيم، أم من ذرية إبـراهيم كإسـماعيل وإسـحق ويعقـوب، أم مـن ذريـة يعقـوب كموسى وهارون وزكريـاء ويحيـى، مـن الـذين هـداهم الله إلـى الصـراط المسـتقيم واختارهم لتحمل شرف الوحي. أولئك الأخيار إذا تتلـى علـيهم أيـات الـرحمن ينفعلـون مع مضامينها فيخرون سجدا لله باكين من فرط التعظـيم والخشـية، والشـوق إلـى لقـاء الله.

بيان المعنى العام :

58- أولئك الذين أنعم الله عليهم....خروا سجدا وبكيا.

تميّز موكب الأنبياء والمرسلين وتتـابعوا مـن زكريـاء إلـى إدريـس علـيهم السـلام، فجمعهم القرآن ليشير إليهم كلهم وقد أتم إحضـارهم فـي ذهـن التـالي بمـا رافـق كـل واحد منهم من بيانات مبرزة لمزايـاه. جمعـتهم مضـلة الفضـل الإلهـي علـيهم بعديـد صور الإنعام. كل واحد منهم حصل له من إرث النبـوة بواسـطة الاتصـال النسـبي مـا تبوأ به مكانة الهداية للناس .فمنهم مـن هـو يرمـي بطرفـه إلـى آدم كـإدريس، ونـوح عليهما السلام، ومن يعلو نسبه إلى نـوح كـابراهيم ﷺ ، ومـنهم مـن يتصـل بـابراهيم إسماعيل وإسـحق ويعقـوب. ومـنهم لـه خـيط جـامع بإسـرائيل كموسـى وهـارون وزكرياء ويحيى ومريم عليهم السلام .

ثم أعلن القرآن عن نوع آخر مما خصهم به مشرفا لهـم، بـأنهم قـد اهتـدوا بهدايـة الله، وأن ما بلغوه كان تبعا لاصطفاء الله لهم واختياره. فـإن النسـب الشـريف منـة ونعمـة، وفوقه أن تتحقق الهداية بشـهادة خـالق الأكـوان، وأن يـنص علـى أنـه وهـو العلـيم بالظواهر والخفايا والحق من الزيف قد اختارهم ليكونوا حملة وحيه.

ومن مظاهر كل ما تقدم أنهم إذا سمعوا آيات الله تتلـى علـيهم، تتفاعـل معهـا مـداركهم وأرواحهم، فيخرون ساجدين لله باكين مـن أثـر قـوة الانفعـال المخـتلط بـين التعظـيم والخشية لله رب العالمين.

وعند قوله : وبكيا- يسجد التالي اقتداء بهم وبسجوده ﷺ .

وذكر القرطبي: المسألة الرابعة - قال العلماء ينبغي لمن قرأ سجدة يدعو فيها بما يليق بآياتها، فإن قرأ سورة السجدة "الم تنزيل" قال: اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك، المسبحين بحمدك ،وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك. وإن قرأ سجدة "سبحان" قال: اللهم

اجعلني من الباكين إليك، الخاشعين لك. وإن قرأ هذه الآية قال: اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم، المهديين الساجدين لك. الباكين عند تلاوة آياتك.[1]

۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

خلف: بسكون اللام عقب السوء، وبفتحها عقب الخير.

أضاعوا : فرطوا.

الغي :جزاء الضلال.

لا يظلمون: يوفون أجورهم كاملة دون نقص.

عدن : إقامة وخلد.

الغيب: ما غاب عن المشاهدة الحاضرة.

مأتيا: يحصلون على هو مرتقب.

اللغو : فضول الكلام.

الرزق : ما يصل إلى أصحاب الجنة من طعام وشراب وكسوة وغير ذلك.

البُكرة : النصف الأول من النهار.

العشي : النصف الأخير من النهار.

نورث : نعطي عطية مدخرة كأنهم يرثونها.

بيان المعنى الإجمالي :

انحرف كثير من نسل هؤلاء الأنبياء الصالحين عن المنهج الذي سار عليه أسلافهم، ورثّهم آباؤهم إقامة الصلاة كنزا لا يفنى، يجدون به التأييد الإلهي والطمأنينة الراضية، ففرطوا في هذا الكنز وأضاعوا الصلاة ولم يقيموها، وانحدروا إلى اتباع ما تدعوهم إليه شهواتهم الهابطة، فاستحقوا العقاب المناسب لضلالهم. واستثنى الذين استفاقوا فتابوا وندموا على ما فرطوا وعملوا الصالحات؛ إن هؤلاء سيجزيهم

---

[1] الجامع ج 11 ص121

ربهم. إن هؤلاء التائبين سيدخلهم ربهم جنات يقيمون فيهـا إقامـة لا تنقطـع. هـي التـي وعد الرحمن بها عباده الصـالحين، فـآمنوا بهـا قبـل أن يروهـا. إن وعـد الله آت لا يخلف . جمع الله لهم بين النعيم الروحي فـلا يسـمعون فـي الجنـة أحاديـث السـفهاء التي تصطك منها أذواق الكمـل. ويحصـلون علـى مـا يبغونـه مـن المـلاذ الماديـة بصفة متواصلة غير منقطعة.

تلك الجنة التي تحدثت عنها الآيات يمكّن الله منهـا المتقـين بـدون عنـاء، كمـا يحصـل الوارث على مال مورثّه.

بيان المعنى العام :

59-فخلف من بعدهم خلف...فسوف يلقون غيا.

موقع هذه الآية بديع جدا. فإذا كانـت الآيـة السـابقة ربطـت الذريـة الصـالحة التـي أوتيت النبوة بأصولها ، فإن العدل الذي بنـى عليـه الله مسـؤولية الإنسـان فـي الحيـاة يقتضي أن لا يسعد الإنسان بصلاح والديه إذا هـو لـم يسـلك سـبيلهم. كمـا لا يشـقى بضلالهم. فتنبه هذه الآية ما تناسل مـن أولئـك الأنبيـاء والمرسـلين أن مقـام آبـائهم لا يغني عنهم شيئا ،وأنهم يجازون حسبما قدموا، بـل إن الآيـة شـهرت بهـم وأوعـدتهم ، شهرت بهم إذ أنهم عوض أن يلتزموا بما يحفظ لهـم تـوازنهم النفسـي ويقـوي صـلتهم بربهم، فرطوا في القيمة العليا التي كـان يتمسـك بهـا آبـاؤهم ، حتـى نسـوها، وهـي الصلاة التي بلغ آباؤهم في نهاية الآية السابقة أنهم يخـرون للأذقـان سـجدا عنـد سـماع الأيات تتلى عليهم. وبتفـريطهم فـي الصـلاة التـي تحفـظ اليقظـة الروحيـة، قويـت شهواتهم فاتبعوها وأصبحت هي التي تقودهم في الحيـاة، ومـا الشـهوة إلا مركـب مـن الفساد والأنانية. فحقّ عليهم الوعيـد: أنهـم سـيلقون جـزاء ضـلالهم (سـيلقون غيـا) وهذه الآية عامة تشمل البشرية قاطبة من الذين تناسلوا من آدم إلى يوم الدين.

60-إلامن تاب وآمن ...ولا يظلمون شيئا .

على أساس العدل الذي قامـت عليـه السـماوات والأرض وحسـاب البشـر ، فـإن الله تفضل على من استيقظ من ضلاله ورجـع عـن غيـه، فأقبـل علـى الله معترفـا بذنبـه عازما على الاستقامة وعدم العود، فطهّر نفسـه مـن اتبـاع الشـهوات وتـأثر بالتأنيـب الباطني، مما تظهر آثاره في التحول من عمل الشر إلـى عمـل الصـالحات ،عمـلا مـن أسسه أنه لا يفرط في واجب ولا يقبل على منهـي عنـه، فـإن الله يعفـو عنـه ويجزيـه بدخول الجنة، ويحفظ له أجر كل ما قام به من الصـالحات بعـد أن يمحـي عنـه سـيئاته بتوبته .

61- جنات عدن التي وعد الرحمان... وعده مأتيا.

وهي ليست جنة واحدة ولكنهـا جنـات لا يعلـم سـعتها ونعيمهـا إلا الله. تلكـم الجنـات التي لا ينقطع مدد نعيمها ولا يخرج منها داخلهـا. هـي الجنـات التـي وعـد الـرحمن، الذي وسعت رحمته كل شيء، فلا تسل عن النعـيم وعـن الرضـا وعـن الفضـل فيهـا، فهي منتسبة إلى اسم الرحمن، وعدهم بهـا فـآمنوا بهـا وهـم لـم يشـاهدوها. والقاعـدة التي لا تتخلف: أن كل ما وعـد بـه الله آت لا محالـة، سـيلقاه الموعـود علـى النحـو الذي يليق بالواعد الكامل.

62-لا يسمعون فيها لغوا ...رزقهم فيها بكرة وعشيا.

يسبق النعيم الروحي والعقلي، في المنة لمن كتبـت لـه الجنـة. إن الكُمّـل مـن البشـر يؤذيهم في الدنيا ما يسمعونه من السفهاء مـن الكـلام الباطـل، والهـذيان السـاقط، فمـا قدره من نعيم لأهل الجنة أن ما يجري فيهـا مـن حـديث يسـمو إلـى مسـتوى المتعـة العقلية والروحية ولا يخالطه الهذر والسُّخْف.

ومع المتعة العقلية فإن أرزاقهم، على المستوى الـذي يرغبـون فيـه، تـأتيهم دون عنـاء ولا تفكير في طريقة تحصيلها، هـو مـدد إلهـي متتـابع لا يختلـف الوضـع فيـه فـي الصباح عن المساء.

63- تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا.

وصفت الجنة وصفا مميزا، يشتاق إليها التالي، كتب الله لنا ولكم الفوز بنعيمها، فاحضرها القرآن وأشار إليها ، تلك التي يظفر بها ميراثا بدون عناء، شأن المال الذي يصل إلى الوارث من مورثه، كل من استقرت التقوى في قلبه، وظهرت في فعاله.

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك : عموم الجهات.

نسيا: صيغة مبالغة من النسيان.

الاصطبار : شدة الصبر على الأمر الشاق .

السمي : المماثل له .

بيان المعنى الإجمالي :

فتر الوحي مدة فاشتاق النبي ﷺ للقيا جبريل، وعبر له عـن ذلـك لمـا نـزل عليـه بعـد ذلك. فخاطب الله جبريل أن يقول لمحمد مـا نتنـزل عليـك إلا بعـد صـدور الإذن لنـا. إنه سبحانه المتحكم فـي المسـتقبل والماضـي والحاضـر. ومـا يحويـه الـزمن مـن الكائنات والأحوال. وعلمه محيط بكل شيء لا يغيب عنه أي شيء في الأكوان.

وإنه سبحانه رب السماوات والأرض والأجواء التـي بينهـا، ومـا تحويـه مـن كائنـات، فاعبده فإنه بذلك حقيق بأن يعبـد. ووطّـن نفسـك علـى التغلـب علـى فتـرات الغفلـة والضعف في عبادته، يحتم عليك ذلك أنه لا مثيـل لـه يشـاركه فـي اسـتحقاق العبـادة. فاسعد بعبادته.

بيان المعنى العام :

64 -وما نتنزل إلا بأمر ربك...وما كان ربك نسيا.

موقع هذه الآية وارتباطها بمـا تقـدمها فيـه خفـاء. روى البخـاري بسـنده إلـى ابـن عباس، قال النبي ﷺ لجبريل: مـا يمنعـك أن تزورنـا أكثـر ممـا تزورنـا؟ فنزلـت- وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا ومـا خلفنـا[1] وأن جبريـل أعلمـه بموقـع هـذه الآية من القرآن. فموقعها مبناه نزولها عقب الآية السابقة.

ورويت روايات مكملة لما أفـاده حـديث البخـاري، نظمـت سـلكا، مفادهـا أن جبريـل ﷺ أبطأ فلم يأت بوحي زمنا، فلمـا جـاءه بعـد الفتـرة سـأله، فـأوحى الله لجبريـل الكلام الذي تضمنته الآية، وأمر بتبليغـه لرسـول الله ﷺ علـى أنـه كـلام مخاطـب بـه جبريل، وهو قرآن. ويكون معنى وماربك نسيا: ومـا ربـك بتاركـك بـل عنايتـه بـك موصولة . كقوله تعالى: والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى.

ويرى بعض المفسرين أن هذه الآية مـن كـلام الاتقيـاء فـي قولـه تعـالى فـي الآيـة السابقة: تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيـا، الـذين يعبـرون بعـد دخـولهم الجنة قائلين: إنا ما نتزلنا في هذه المنزلة إلا بإذن ربك، فهـو الـذي أحلّنـا هـذا الموقـع، وهو المتحكم في كل شيء متحكم فـي ماضـينا ومسـتقبلنا وحاضـرنا. وتعـالى سـبحانه أن ينسى شيئا من صالح أعمالنا، فقد وفانا أجرنا.

هذا ما وجدته للمتقدمين في تفسير الآية والله أعلم.

65- رب السماوات والأرض وما بينهما ...هل تعلم له سميا.

كل ما تدركه بحواسك أو تثبته القـوانين مـن الأرض التـي تسـير عليهـا، والسـماوات التي تعلوك وما يعمرها مـن الكواكـب والمجـرات، ومـا بـين السـماء والأرض مـن

---

[1] فتح الباري ج10ص44

الأجواء .سبحانه هو الذي يسير كل ذلـك ويـدبر أمـره ويحفظـه بعنايتـه، علـى مـا تقتضيه الحكمة ، مما يوجـب التوجـه إليـه بالعبـادة ،العبـادة التـي ترضـيه ،والتـي تصحب الإنسان باطراح ما يشغله عن القيام بحقهـا. وإنــه لحقيـق بـذلك، وإنـك لملـزم بتوطين النفس على الإخلاص في عبادته لأنه فرد لا مثيل له.

وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

جثيا : على ركبهم وقد حل عليهم الهوان.

شيئا : موجودا.

النزع : إخراج شيء من غيره.

الشيعة : الفرقة المرتبطة بمذهب واحد المتعاونة فيه .

العتي : العصيان والتجبر.

صلي : تسلط عذاب النار عليه .

بيان المعنى الاجمالي :

إن البعث يوم القيامة مـن الحقـائق التـي أرهقـت أفكـار الكفـرة، وهـي التـي تقـض مضجعهم بما تنادي به من الحساب والجـزاء علـى مـا قـدموه فـي الـدنيا، ورأوا فـي نكران البعث ما يخفف الوخز الذي تـؤثر بـه هـذه العقيـدة، وبـرروا لأنفسـهم نكـران البعث، أنه لا يتصور أن يعود الإنسان للحياة ويحاسـب بعـد أن يمـوت ويتحلـل. وكـان الرد عليهم مفحما: كل كافر بالبعث ومستبعد له، كـان معـدوما، و لـم يكـن شـيئا. إنـه قد وجد من عدم على غير مثال، فإعادته بعد موته أيسـر فـي العـادة مـن الخلـق الأول حسب مقاييسهم.

قسما بربك يا محمد سوف أحشرهم جميعا لا ينفلت مـنهم أحـد. ونجمعهـم فـي الحشـر مع الشياطين الذين كانوا يأتمرون بأمرهم، ثم يساق الجميـع إلـيَّ فيقبعـون حـول جهـنم جاثين على ركبهم تعلوهم الذلة. ثم لنخـرجن أولا الزعمـاء الـذين كـانوا أشـد عصـيانا لله واستكبارا وأنفذ في الإضلال. ولا يفوتنـا أي واحـد مـن هـؤلاء المسـتكبرين فـنحن نعلم الذين هم أولى بعذاب النار والاحتراق بلهيبها.

بيان المعنى العام :

66- ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا.

بعد أن نوه القرآن بالذين تابوا وعملوا الصـــالحات، ووعــدهم مــن فضــله الكرامــة فــي الدار الأخرة، تحدث في هذه الآية على الشق المقابـل المنكـر للبعـث، فيشـهر بالإنســان الذي هذه صفته، الذي بلغ من العنــاد أنــه يصــرح بقولــه: كيــف يقبــل أن أعــود إلــى الحياة بعد الموت وأخرج إلى البعث حيا أحاسبُ ؟ إن هذا لا يقبل .

67-فوربك لنحشرنهم ...حول جهنم جثيا.

عجبا من هذا التفكير ومن هذا الغباء، ومــن التجاهـل لمــا جــرى علــى كـل قائــل أو معتقد لهذه المقالة! مثار العجب أن كل قائل أو معتقـد لهـذه المقالــة، قـد كــان معـدوما، لم يكن شيئا موجودا له حقيقة خارجية، ثـم وجـد بمواصــفاته الخاصــة، دون أن يكــون له مثال سابق قدّر على مقاييسه، فمن الذي خلقــه مــن عــدم ؟ ألــيس الخلــق مــن عــدم أدل على القدرة الإلهية من إعــادة الخلــق. البديهــة تقتضــي أن الإعــادة فــي مجــاري العادة أيسر، ولكن الأمرين سواء بالنسبة للقدرة الكاملة التي لا يعجزها شيء.

68- فوربك لنحشرنهم حول جهنم جثيا.

قسما بربك يا محمد لنبعثنهم ولنجمعنهم مع الشياطين الذين كانوا يطيعونهم في الدنيا ، وبعد ذلك تكون المرتبة التالية في المهانة أن تراهم جاثين على ركبهم ترهقهم الذلة، الأمر والمأمور سواء، تكشف لهم جهنم وهم حولها ينظرون إلى مآلهم فيها.

69- ثم لننزعن من ...أيهم أشد على الرحمن عتيا.

ثم إنه تحقيقا للعدل المبني على العلم الكامـل، يميــز الله رؤوس الكفــر وقــادة الضــلالة، الذين كانوا مقدمين في كل جماعة بشدتهم فــي الكفــر، وبقــوتهم علــى إغــراء الأتبــاع، وتجبُّرهم على أوامر الرحمن. وفي التعبيــر بــالرحمن مــا يشــير إلــى فســاد تــركيبهم، لمقابلة المتصف بالرحمة الشديدة، بالابتعــاد عنــه والامعــان فــي عصــيانه. إن هــؤلاء المستكبرين المضلين يقتلعهم الله من بين كل جماعــة مــن الجماعــات المحشــورة جــاثين على ركبهم حول جهنم، ليكونوا أول الداخلين للنار .

70- ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا.

[ثم] تحصر الآية العلــم الــدقيق الــذي ينفــذ إلــى تجلــي الخفايــا فــي العلــم الإلهــي المصحوب بالعدل، فهو وحده سبحانه الذي يعلم الــذين هــم أحــق بصُــليّ النــار، فينفــذ فيهم العقاب بدون ظلم ودون أن يخفى عنه أي فــرد مــن الــذين تولــوا إضــلال الأتبــاع واستكبروا في الأرض.

وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الورود : واصلون إليها.

نذر : نترك.

حتم : لازم.

المقضي : المحكوم به.

تتلو عليهم آياتنا : تقرأ عليهم آيات القرآن.

خير مقاما : خير حياة.

القرن : الأمة يجمعها العصر الواحد.

الأثاث : متاع البيوت الذي تزين به.

ريا : منظرا وهيئة .

بيان المعنى الإجمالي :

مع التأكيد الكامل، فإنكم جميعا ستردون على جهنم، هذا أمر لازم قضى الله به، والمخاطب بهذه الآية هم الكافرون الذين اقتلع الله رؤساءهم في الآية السابقة وعجل بهم إلى النار. وقيل إن الخطاب شامل لجميع البشر مؤمنهم وكافرهم أنهم سيمرون على جهنم، بالنسبة للمتقين يكون مرورا لا يلحقهم منه عذاب، وبالنسبة للكافرين يَهْوُون به في جهنم ويلقون مصيرهم الأبدي. وقد كتب الله النجاة والسلامة للمتقين.
بلغ من إصرار المشركين على الكفر وتحديهم، أنهم إذا تطرق أسماعهم آيات القرآن المنوهة بالمؤمنين المهددة لهم المحتقرة لآلهتهم، يقول الكافرون للمؤمنين، وازنوا بين وضعكم ووضعنا ومن هو خير؟ فنحن أكثر ثراء، وأقوى نفوذا، وألين عيشا، ومن يحضر نادينا هم وجوه القوم والسادة. وحظكم ضعيف من كل ذلك. فلو كانت لكم منزلة في الآخرة لرزقتم في الدنيا حظا أفضل. ويبطل القرآن قياسهم وينسف تضليلاتهم، بأن الماضين من أهل القرون السابقة، كانت مساكنهم مؤثثة خيرا من أثاث بيوت المشركين وكانت مظاهرهم أفضل من مظاهرهم، ومع ذلك فإن الله أهلكهم وأبادهم بكفرهم .

بيان المعنى العام :

71←72: وإن منكم إلا واردها....ونذر الظالمين فيها جثيا.

بكل تأكيد لا يفلت أي واحد منكم من دخـول جهـنم؛ كـان هـذا المصـير أمـرا لازمـا سبق به القضاء الذي لا يتخلف ولا يردُّ.

والضمير في قوله منكم ضمير خطـاب، فمـنْ هُـمُ المخـاطبون؟ الـذي يرجحـه حـذاق المفسرين أن المخاطب هم الكفرة الذين يعجـل برؤسـائهم إلـى جهـنم، ويُقتلعـون مـن بين جماعتهم. فالقرآن يستحضر الأتبـاع ويخـاطبهم بمـا يفيـد: إنكـم أيضـا سـتتبعون رؤساءكم لا يتفلت منكم أحد، وذلك قمعا لآمالهم فـي النجـاة إذا دخـل رؤسـاؤهم وبقـوا هم خارج جهنم.

ويرى كثير من المفسرين أن الخطاب موجه لجميـع البشـر .فكـل إنسـان سـيرد علـى جهنم صالحهم وطالحهم. ثم أولوا الآية بتـأويلات عديـدة بنـاء علـى مرويـات تختلـف ضعفا وقوة .

فتأول بعضهم الورود على أنه الاقتراب لا الـدخول كمـا جـاء فـي قولـه تعـالى عـن موسى: ولما ورد ماء مدين[1] ، فهو لم يـدخل المـاء وإنمـا مـر بجانبـه . فتفيـد الآيـة اطلاعهم على النار دون أن يتأذى بها الصالحون. وفـي مشـاهدتها عـن قـرب تحسـيس بالكرامة والنعيم، لمّا يقارنون نعيمهم في الجنة بمـا شـاهدوه مـن حقيقـة عـذاب النـار. وهذا الشعور في نظري لا يتوقف على المشاهدة الحسية .

وتأول فريق آخر أن ورود جهنم المرور فوقها، فتكون غير مضرة بالمؤمنين لأن طبيعة خلقهم يومها لا يتأثر بحر جهنم، فهم يمرون فوقها دون أن تضرهم ولا يجدون شيئا من حرها. وتجذب الكفار إلى قاعها. وإذا كان الأمر كذلك فأي حكمة في ذلك ؟

وتأول فريق ثالـث: علـى أن المـراد بـورود المـؤمنين النـار الحمـى التـي تصـيب المؤمن. و الحمى لا تصيب جميـع المـؤمنين، فـأين التعمـيم المفـاد مـن قولـه " وإن منكم

والذي يترجح عندي هو التخريج الأول، وأن ما روي مـن أحاديـث يـؤول بمـا يتناسـق مع مبدأين:

المبدأ الأول: أن الآخرة دار جزاء وكرامة للمؤمنين لا دار اختبار و إعداد.

والمبدأ الثاني: أن حكمـة الله فـي كـل أمـر يقينيـة. ولا تظهـر حكمـة فـي إدخـال الصالحين النار، ولا في مرورهم عليها وهي خامدة هامدة لا لهب لها.

---

[1] سورة القصص آية 23

ويخبر الله بعد ذلك مبرزا لمرتبة تحقق العدالة يوم القيامة: أنه ينجي الذين تحصنوا بتقوى الله من كل كرب في ذلك اليوم، ويترك الكافرين مهملين أذلاء جاثين في جهنم.

73- وإذا تتلى عليهم آيتنا بينات ....وأحسن نديا.

تشهر الآية بموقف المكذبين، فهم إذا تليت عليهم آيات القرآن النازلة من عند الله، المتضمنة للأدلة البينة الواضحة، الرافعة للأوهام، كان موقفهم التصريح بقولهم للمؤمنين: انتبهوا ! فها هو القرآن ينوه بكم ويفردكم بحسن العاقبة، ولو كان ما يقوله محمد حقا لكنتم أسعد حظا منا في الحياة، فلوكان لكم الخير فلِمَ لم يُعَجِّل لكم حظكم في الدنيا، بل أنتم أقل منا مالا وبنين وحظوة وسيادة . لا تنخدعوا وتثبتوا، فالأمر واضح أمامكم، تسألكم سؤال التقرير، هل نحن أحسن حالا منكم أم أنتم أحسن حالا منا، ومن منا يحضر في ناديه أصحاب المقامات العلية بما يبدو من مظاهر السؤدد والأناقة فيهم ؟

74-وكم اهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورءيا.

ويسرع القرآن مخاطبا النبي ﷺ مبطلا قياسهم ومظهرا لضلالهم ببيان سنته في الكون، فكم من أهل قرون مضت أهلكناهم مبيدين لهم، ولو قايست بينهم وبين مشركي مكة لوجدت أن المُهْلَكين من السابقين كانوا ينعمون بالمنازل الفاخرة الأثاث، مما لم يؤت القرشيون مثله، ومظاهر الرفاه عليهم أوضح وأتم من هؤلاء وهي بارزة للعيان.

قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

يمد له الرحمن مدا: يمهله إمهالا.

الباقيات الصالحات : الأعمال الباقي نعيمها.

المرد : عاقبة الأمر .

بيان المعنى الإجمالي :

قل لهم معلنا: أن من كان منغمسا في الضلالة فإن الرحمن سيمهله استدراجا، فيمضي سادرا في ضلاله حتى إذ وقفوا على عاقبتهم الحتمية التي هي أحد أمرين

إما العذاب العاجل في الدنيا ثـم عـذاب الأخـرة، وإمـا تواصـل الإمهـال إلـى لقيـاهم عذاب الآخرة. وعند ذلك سينكشف لهم من هو مغرق فـي شـر الأوضـاع، ومـن هـو ذليل لفقد النصير والمدافع.

والله بإمهاله الكافرين يزيدهم ضـلالا، وبالمقابـل يزيـد المهتـدين هدايـة. والنتيجـة أن الأعمال الصالحة لموافقتها للشريعة ولحسـن قصـد أصـحابها، يضـيف الله لهـم زيـادة عن نجاتهم من العذاب الثواب الجزيل والعاقبة الأفضل من كل التصورات.

بيان المعنى العام :

75-76، قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا....وأضعف جندا.

وجهت العناية لمضمون هذه الآية فافتتحت بكلمة: قل - وهو رد على الكافرين الذين قالوا: أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا - مستخفين بالمؤمنين وخاصة من كان منهم فقيرا أو غير منتسب لقبيلة لها شأن في الجاهلية. كان الرد نقضا لما توهموه، من أن متاع الحياة الدنيا والمكانة الاجتماعية هما المعيار، وبهما تعلو رتب الناس أو تسفل. فأظهرت الآية أن تصوراتهم باطلة، وأن ما رزقوا من النعم هو إمهال لا إكرام، وأن الله يستدرجهم علّهم يستيقظون ويرفعون غشاوة النظرة العاجلة، ويتأملون أن الإنسان الفاقد لرضا الله المنغمس في الضلالة، هو مغرور بإمهال الله له. فيكون معنى قوله تعالى: فليمدد له الرحمن مدا. إن الرحمان سيمهله إمهالا إلى الأمد القصير المقدر له في الحياة الدنيا. سينتهي هذا الإمهال لامحالة، وسيواجه الكفرة ما أوعدهم الله به. وما أوعدهم هو أحد أمرين إما عذاب الحياة الدنيا ثم عذاب الآخرة، وإما إمهالهم في الدنيا ليلاقوا عذاب الآخرة. وعند ذلك يعلمون من هو أشقى وأسوأ عاقبة. وسينكشف لهم من هو المحاط به الشر من كل جانب ردا لقولهم نحن خير مقاما، وسيرون ضعفهم باديا لا معين ولا نصير ويغشاهم الذل، وهو المقصود بقوله تعالى: وأضعف جندا، ردا لمقالتهم وأحسن نديا.

إنه بهذا الإمهال في الضلال، يـزداد مـن كـان فـي الضـلالة ضـلالا، ليُطبـق عليـه العذاب في المآل، وفي المقابـل يحـيط المهتـدين بألطافـه التـي بهـا يواصـلون خـط مسيرهم فيضيفون إلى هداهم السابق هدى لا حقا.

والقاعدة العامة : أن الأعمال التي لا ينقطـع أثرهـا الصـالح، لحسـن قصـد أصـحابها وموافقتها لما قرره الشرع ، هي خيـر مـن نعمـة النجـاة مـن العـذاب، فالنجـاة مـن العذاب معنى سلبي، والذي أفادته الآية أنهم سـيلقون بعـد النجـاة النعـيم الـذي لا تحـد حدوده ولا يبلغ التصور مداه .

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

الغيب : كل ما كان غير مشاهد.

عهدا : أي إن الله عهد إليه أنه سيؤتيه مالا وولدا.

المد من العذاب : الزيادة منه.

نرثه : نسلبه.

ما يقول : ما دل عليه قوله من المال و الولد.

اتخذوا : اعتقدوا اعتقادا لا أساس له.

عزا : العموم في النصرة و المنفعة و التأييد.

الضد : خلاف ما أملوه

بيان المعنى الإجمالي :

كان العاصي بن وائل السهمي أحد سادات قريش، فاستصنع سيدنا خباب بن الأرت سيفا ، ولما طلبه بثمنه قال له لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فأجابه خباب: لا أكفر بمحمد ﷺ حتى يميتك الله ثم يحييك، فرد عليه: إذا بعثت فسيكون لي مال وولد وعندها أقضيك . أخبر خباب النبي ﷺ فنزلت الآية مشهرة بوقاحة هذا المغرور. فهو قد كفر بآيات القرآن فجحد البعث، وقال سيكون لي مال وولد يوم القيامة. إنه الغرور الذي دفعه لهذا الكلام فمن أين له ما ادعاه، فهل أشرف على الغيب، ما سيتم يوم القيامة، فوجد أنه سيكون له مال وولد؟ أم إن الرحمن قد أعطاه عهدا أن يؤتيه ذلك، كلا الفرضين باطل. سنوثق ما قاله ونضاعف له العذاب تضعيفا هو كفاء غروره وتحديه، وسنهلكه فينفصل عن ماله وينفصل ماله عنه ، وستنقطع الصلة بينه وبين أولاده بدخولهم في الإسلام. وسيقدم علينا يوم القيامة ذليلا وحيدا بلا مال وبلا أهل.

ومن سوء تقديرهم، أنهم أقاموا بلا دليل ولا حجة ولا منطق، أقاموا آلهة يعبدونها وتركوا عبادة الخالق الواحد، ظنا منهم أن تلكم الآلهة سيكونون لهم عزا بنصرهم وتأييدهم. و لكنهم عندما تتكشف لهم الحقيقة سينقلبون على ما قدسوه، وتكون الآلهة التي استنصروا بها مخيبة لآمالهم.

بيان المعنى العام :

77←78، أفرأيت الذي كفر بآياتنا...أم اتخذ عند الرحمان عهدا.

تفتح الآية بالتعجيب من هذا الكافر المستكبر الغليظ الجافي، فتوجه الخطاب في قوله : أرأيت - إما إلى النبي ﷺ أو إلى كل من يمكن منه الرؤية، إيماء إلى أن الواقعة فاضحة يدركها كل من تتأتى منه الرؤية. وهذه الواقعة هي التي تضمنها الحديث الذي أخرجه البخاري رض بسنده إلى خباب بن الأرت ﷺ قال: كنت قينا (حدادا) بمكة فعملت للعاصي بن وائل سيفا فجئت أتقاضاه فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، قلت :لا أكفر بمحمد ﷺ حتى يميتك الله ثم يحييك، قال: إذا أماتني الله ثم بعثني ولي مال وولد فأقضيك. فأنزل الله أفرأيت ....[1]

فالآية تدعو إلى التعجب من هذا الموقف الوقح المتحدي للعاصي بن وائل، وهو الذي كفر بآيات القرآن، وقال: بكل تأكيد سيكون لي مال وولد إن بعثت يوم القيامة. وتدل الآية على سفاهته. إن بعده عن الحكمة هو الذي خول له هذا الرد، فمن أين له أنه سيكون له مال وولد يوم القيامة فهل أشرف على الغيب فرأى أنه سيكون له مال وولد ، وهو أحقر من أن يكون له اطلاع على الغيب. أم إن الله عهد إليه أنه سيؤتيه مالا وولدا في وثيقة محفوظة عند الله ؟وهذا كسابقه .

79←80كلا سنكتب ما يقول .... ويأتينا فردا.

افتتحت الآية بكلمة (كلا) الدالة على إبطال ما سبقها، وتتضمن أن المخاطب بها ما كان من حقه أن يتكلم بالكلام التي أبطلته. فهي دالة على النفي عكس قول القائل: أجل، وإي، ونعم .فآل المعنى إلى إن ما ذكر من إيتائه المال والولد باطل ومنفي. وكلامه ذاك موثق سيحاسب عليه. ونضاعف عذابه. وما يقول في الآيتين ما قاله من الإلحاد والتهكم بالإسلام، وما ذكره من المال والولد. ونرثه ما يقول، أي سنسلب ماله، إيماء إلى قرب هلاكه عقب مقالته المعبرة عن الكفر والتحدي. ومعنى نرث ولده، أنهم يصيرون مسلمين، تنقطع صلتهم به، وهذا ما تم فعلا ، فقد كان ابنه سيدنا عمرو بن العاص صحابيا جليلا أبلى في نشر الإسلام وضبط أمور الولايات التي وليها البلاء الحسن، وكذلك أخاه هشاما الذي توفي شهيدا يوم أجنادين. رحمه الله ورضي عنه .

وسيأتي العاصي يوم المحشر وحيدا لا مال له وقد انقطعت صلته بولديه .

---

[1] فتح الباري ج10ص45

81←82، واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا.

و تقرير وتصريح بوضع المشركين، فهم قد تكلفوا جعـل الآلهـة متعلـق عقيـدتهم، وهـم يرمون من اعتقادهم في الآلهة دون الله أن يكونوا لهـم عـزا يُمكّـن لهـم مـن الكرامـة وينفي عنهم الذل. وأسرع القرآن بإبطال عقيـدتهم ومـا يأملونـه. فـإنهم سـينتهون إلـى الكفر بآلهتهم عندما يحشرون يـوم البعـث، وسـتكون هـذه الآلهـة علـى خـلاف مـا يرقبونه منهم فعوض أن يتأيدوا بهم يتبرأون منهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

أرسلنا : سلطنا.

الأز: الهز والاستفزاز الدافع .

لا تعجل عليهم : لا تستبطئ عذابهم .

العد : الحساب .

الحشر : الجمع مطلقا ويكون في الخير كما يكون في الشر.

السوق :أصله في تسيير الأنعام .

الورد : أصله السير إلى الماء، تساق إليه الأنعام راهبة زجر الرعاة.

لا يملكون : لا يستطيعون .

بيان المعنى الإجمالي :

إنه من الواضـح أنـا سـلّطنا الشـياطين علـى الكـافرين يتحكمـون فـي اختيـاراتهم، ويدفعونهم دفعا شديدا إلى الشر والكفـر. كمـا يظهـر ذلـك مـن تتبـع سـيء أعمـالهم وفاسد عقائدهم. فلا تستعجل إنزال العـذاب علـيهم، فـإن أيـام إمهـالهم قليلـة معـدودة إنهم سيلقون جزاءهم في اليوم الـذي يجمـع فيـه المتقـين إلـى فضـل الـرحمن الـذي يعتبرهم وافدين عليه حقيقين بالكرامة. وفـي المقابـل يسـاق المجرمـون بسـوء أفعـالهم وفاسد عقائدهم سوق الأنعام السائرة في تـدافع وخـوف مـن سـائقها وشـوق إلـى ورود الماء، ولكن الماء الذي ينتظرهم وهم في لهـث يتـدافعون، هـو نـار جهـنم، لا ينقـذهم

منها ما قدموه ولا الشفاعة . لكن الشفاعة مفتوحــة للــذين اتخــذوا عنــد الله عهــدا، وهــم الأنبياء والملائكة والصالحون .

بيان المعنى العام :

83- ألم تر أنا أرسلنا الشياطين ...تؤزهم أزا.

مضمون هذه الآية صيغ في قالب يدل على أنه بلغ غاية الوضوح، فالعجب من عدم رؤيته، وذلك يفيد تحققه وثبوته بما لا مجال للشك فيه. مضمون الآية أن الله سلط الشياطين على الكافرين تسلطا استحوذوا به على قيادتهم ودفعوهم إلى ما يريدون فانقادوا. وإذا كانت الشياطين غير داخلة في مجال البصر، إلا أن سلوكهم واختياراتهم وتغليبهم شهواتهم وانحرافهم عن الهدى إلى مسالك الفساد، كل ذلك يقوم شاهدا على أنهم لم يستجيبوا للفطرة ولا لما جاءهم عن الله، وإنما حكموا الشياطين في حياتهم.

84- فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا.

فإذا انحصرت دائرتهم في اتباع الشياطين فــلا تســتعجل تســلط العــذاب علــيهم ونــزول هلاكهم، ولا تستبطئه، فإنــا ونحــن بيــدنا القــدرة التــي لا تغالــب، والحكمــة التــي لا تتخلف، فإنا قد ضربنا لهم أجلا قريبا، أيامه معدودة، فينتهــي مــا قــدر لهــم مــن نعــيم، شأن المعدود لا يتعلق إلا بالقليــل. وفــي الآيــة تهديــد للمشــركين، وإنــذار لهــم بــأن عذابهم ليس ببعيد.

85-يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا.

ثبت في الآيات الســابقة مصــير الــذين لا يؤمنــون بآيــات الله ويبغــون العــزة عنــد آلهتهم، وأنهم سيخذلونهم ولا يجدون منهم ما يأملون. إن ذلــك ســيتم يــوم الحشــر، يــوم يجمع الله البشر كلهم. ولما كان الحشر يعم البشــر جميعــا صــالحهم وطــالحهم مــؤمنهم وكافرهم ، أدمج القرآن تمييــز المــؤمنين بــأنهم سيحشــرون قاصــدين ربهــم المتجلــي باسم الرحمن وافدين عليه. واختير في التعبير في هــذه الآيــة اســم الــرحمن بمــا يشــير إليه من الألطاف والرحمة والتقريب. ولفــظ وفــدا بمــا يشــير إليــه لفــظ الوفــادة مــن التكريم والعزة، كما هو شأن الوفادة.

86- ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا.

وإذ رق التعبير عن وضع المــؤمنين يــوم القيامــة، تميــز فــي المقابــل التعبيــر عــن المجرمين بسوء الأفعال، وفساد العقيــدة ،بالقســوة والإذلال، فهــم يســاقون كمــا تســاق الأنعام التي يدفعها راعيها من خلفها دفعا، وينتهي الدفع إلــى جهــنم لتكــون هــي الــورد المقصود لا الماء الذي تتسابق إليه الأنعام.

87- لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا.

لا يستطيع المجرمون التقدم لنيل الشفاعة في ذلك اليوم، إن حرمانهم من ذلك المستوى الرفيع الذي يتوقون إليه، لمشاهدتهم عفو الله ينزل على من تمت الشفاعة لهم ، يكون ذلك إهانة لهم وقمعا لتطلعاتهم. لكن الله بفضله يكرم الأنبياء والملائكة والصالحين فيُمكّنهم من الشفاعة ويقبلها منهم بناء على وعد سابق منه تعالى عهد به إليهم ، والله لا يخلف الميعاد.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ يَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإد: الأمر الشنيع.

التفطر: الانشقاق.

الخرور : السقوط.

الهد : هدم البناء.

دعوا : نسبوا .

ما ينبغي : ما يجوز.

بيان المعنى الإجمالي:

ما أقبح مقالة المشركين الذين نسبوا لله الملائكة بناتا، والنصارى الذين نسبوا له عيسى ولدا ! إنه لقول شنيع جدا. يبلغ من قوة باطله الصادم أن السماوات يكاد تركيبها يختل وتتمزق، وكذلك الأرض تشقّق وتنهار جبالها. لأنهم ادعوا أن للرحمن ولدا. ويستحيل أن يكون للرحمن ولد. يقوم دليلا على ذلك أن كل ما حوته السماوات من ملائكة وغيرها، وكل ما اشتملت عليه الأرض من الإنس والجن وغير ذلك، الكل منقاد لإرادته وتصرفه على أنهم عبيده الذين لا يملكون من أمرهم شيئا، ينفّذ فيهم إرادته حسب ما سبق في علمه. أحصى سبحانه ذواتهم وأفعالهم ونواياهم، إحصاء مدققا جزئيا . ثم إنهم سيبعثون يوم القيامة فرادى و لا ينصر أحد غيره.

بيان المعنى العام :

88- وقالوا اتخذ الرحمان ولدا.

الذين نسبوا إلى الله الولد هم مشركو مكة لما زعموا أن الملائكة بنات الله، وكذلك النصارى الذين ضلوا باعتقادهم أن عيسى ابن الله .فالفريقان سواء في الضلال. وفي قولهم ذاك جراءة عظيمة. إنه لقول شنيع فإن شناعة من يثبت لله ولدا أعظم من شناعة الكافرين بوجوده. ذلك أن دعوى أن الله اتخذ ولدا هي في حقيقتها ترويج لكونه سبحانه ناقصا يجري عليه ما يجري على البشر من اتخاذ الولد، وإكمال النقص به. وهذه من أكبر خدع الشيطان إذ أنه لما لم يستطع أن يعاكس الفطرة التي غرس في أعماقها وجود الخالق سبحانه، وسوس مضللا أن له ولدا، وبذلك انحرفت كل القيم والمفاهيم عند من يعتقد ذلك، فأصبحوا يتقربون للابن ويدخلونه في مفهوم الألوهية ، ونزل الإله المتعالي في كماله إلى صف البشر ، وترتب عن ذلك أن تحويل المشرك أو الرافض للألوهية أيسر من تحويل المدعين لله ولدا. ومن بلاغة القرآن أن وقع التعبير عنه في نفي الولد باسم الرحمن ، لأن من شأن الرحمن عظيم الرحمة أن لا يكون له ولد، ينفي وجوده حاجة المنسوب للرحمة.

89-،90، لقد جئتم شيئا إدا ...وتخر الجبال هدا.

ولذلك صرح القرآن أولا بشناعة هذا القول وفظاعته، إذ لا توجد أدنى شبهة تبرر القول به، وإنما هو أمر مختلق لا أساس له. جاؤوا به من عندهم تبعا لنزغات الشيطان. إن هذا القول لبطلانه يصدم حتى من لا يعقل، فالسماوات ترفض ذلك حتى تكاد تضطرب فيختل تركيبها وتتحلل أوصالها، وكذلك الأرض تكاد تتشقق أيضا سهولها. وتنهد جبالها فتنهار كما ينهار البناء بحركة الزلازل.

92-أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا.

زيادة تشهير بمقالتهم تلك، بإظهار ما سيحدث في الكون منها في صورة التعليل، أي لأنهم نسبوا إلى الرحمن ولدا، وما يجوز أن ينسب للرحمن ولد.

93-إن كل من في السماوات والأرض...آتي الرحمن عبدا.

يتابع القرآن اهتمامه بنفي عقيدة البنوة بإقامة دليل على بطلانها، حاصل ذلك أن السماوات وما حوته من ملائكة وغيرها مما لا يعلمه إلا الله ، وكذلك الأرض وما حوته من مخلوقات ، كل ذلك خاضع له سبحانه لا يملك شيئا، وأمره بيد الله ، وصلة البنوة تنافي العبودية .فقارن ذلك بما هو معلوم عند المخاطبين من وضع

العبيد الذين لا يتصرفون في شــيء إلا بــإذن مــالكهم . وإن كانــت العبوديــة لله أحكــم وأتم، ويصحبها الرحمة فلا ظلم فيها ولا قهر فقال تعالى: إلا آتي الرحمن عبدا.

94- لقد أحصاهم .....عدا.

الآية تثبت العلم التفصيلي لكل جزئيــة مــن هــذا الكــون، يســتوي فــي ذلــك الــذوات والأفعال. جسم هذا المعنى بأن الله قد أحصى كل شيء فعلمــه علــى وضــعه الــذي هــو عليه لا يخرج عن علمــه كبيــر ولا صــغير ولا مــا وقــع جهــرا ولا مــا تخفّــى بــه صاحبه. ويزيد هذا المعنى توضيحا وتأكيدا بأنه عدّ كــل شــيء عــدًا. هــو علــى نحــو من يريد حصرما هو في ملكه فيجمعه، ثــم يحســب كــل وحــدة منهــا، فتأخــذ رقمهــا الحسابي. وبذلك لا يفلت من علمه شيء.

95- وكلهم آتيه ...فردا

تثبت هذه الآية أن كل فرد من الذين حوتهم السماء والأرض، سيبعثون يوم القيامة ويأتي كل واحد منهم فردا. فالآية تنفي ما تصوروه من أن عبادتهم للملائكة تقربهم من الله ويشفعون لهم، وما قامت عليه عقيدة النصارى: أن الإيمان بأن الله يمحو سيئات البشر إذا اعتقدوا أن المسيح ابن لله، وأنه عذب ليكون ما سلط عليه من عذاب مكفرا لمعاصي المؤمنين بألوهيته وتعذيبه فهو شفيعهم المخلص لهم. فلا الملائكة يصحبون عبدتهم ولا المسيح يصحب من ألهوه. و كل إنسان يعرض يوم القيامة وحيدا لا ناصر له ولا شفيع.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا

بيان معاني الألفاظ :

وُدًا : حبا عند عباده .

لدا : المبالغين في الجدل والخصام بالباطل.

القرن : الأمة .

الركز : الصوت الخفي .

بيان المعنى الإجمالي :

يعامل الله بفضله المؤمنين الذين يحرصون علــى فعــل الخيــر وصــالح الأعمــال، بأنــه سيجعل لهم يوم القيامة من يحبهم مــن المقــربين مــن ملائكتــه وأنبيائــه فيشــفعون فــي تقصيرهم، كما يجعل لهم في قلوب خلائقه مودة ومهابة.

يسّرنا لك وعي الوحي القرآني بما أعطيناك من قوة على تحمل ثقل التنزيل، وبصياغة مضامينه بلسان عربي. وبهذا كنت أقدر على تبشير المؤمنين بحسن العاقبة ليزدادوا إقبالا، وتنذر القوم المعاندين الذين ما حذقوا إلا الجدل والخصام. ستجري عليهم سنة الله التي ظهرت في التاريخ، فقد أهلك الله أمما كثيرة أعرضت وجادلت بالباطل. إنك اليوم لا ترى لهم أثرا، ولا تحس بوجودهم فقد انقرضوا وذهبوا غابرين في التاريخ، ولا تسمع لهم أي صوت. وعلى هذا النحو سيؤول لجاج المشركين المخاصمين .

بيان المعنى العام :

96- إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا.

الآية السابقة حسب ظاهرها أفادت أن البشر كلهم يستوون في تفردهم يوم القيامة ، وأنه لا يجد أحد عونا ولا شفاعة يوم القيامة، فأتبعت بهذه الآية التي مضمونها أن المؤمنين سيجعل الله بفضله لهم مودة في قلوب ملائكته وأنبيائه، تدفعهم هذه المودة للشفاعة فيهم عند الله، كما جاء في قوله تعالى عن الملائكة: (**نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة**)[1] كما يأنس بعضهم ببعض.

كما تفيد الآية أن المؤمن إذا صلح عمله، واتقى ربه فإن الله ينزل في قلوب عباده محبة له ومهابة. أخرج البخاري بسنده إلى أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه ، ثم يوضع له القبول في الأرض.[2]

97- فإنما يسرناه بلسانك...وتنذر به قوما لدا.

يقوّي القرآن عزيمة الرسول ﷺ على مواصلة الدعوة، وإبلاغ القرآن للناس عامة. إن إنزال القرآن عليك تمكنك من تلقيه عن طريق الوحي، ما كان ليحصل لولا أن الله أيدك تأييدا أصبح معه وعيك لما أنزل عليك ميسورا، ومن التيسير الذي هو من صنع الله ورفقه بك أن اختار اللغة الحاملة للقرآن لغتك اللغة العربية. أنزلناه عليك لتبشر به المؤمنين فيزيدون إقبالا على الخير، وصلاحا في الحياة، ولتواجه الكفرة بما يبطل عقائدهم ومفاهيمهم وتنذرهم سوء العاقبة. هؤلاء الكفرة الذين تمردوا وتمسكوا بالجدال الباطل وموصول الخصام حتى كان ذلك الظاهرة التي تميزهم.

---

[1] سورة فصلت اية 31

[2] فتح الباري ج 7ص116

98-وكم أهلكنا قبلهم....أو تسمع لهم ركزا.

حطمت الآية استكبار الكافرين، وظنهم أنهم أصــحاب قــوة و بــأس شــديد، لا يــرهبهم الإنذار، فأعلنت الآية مذكرة بسنة الله فــي الخليقــة أنــه يستأصــل المتمــردين ويهلكهــم فلا يبقى لهم أثر تحس به، ولا تســمع لهــم صــوتا ولوكــان خفيــا. وفــي هــذا بشــارة للمؤمنين بأن الله سيفني أعداءهم ويطهر الأرض مــنهم ويــزول مــا كــانوا يلقونــه مــن لجاجهم في الكفر ومقاومة الدين.

تم بحمد الله وحسن عونه تفسير معــاني ســورة مــريم وذلــك يــوم الأربعــاء12جمــادى الأولى 1433- 4 أفريــل 2012 نســأله ســبحانه أن يتقبلــه وينفــع بــه المــؤمنين وأن ييسر لنا إتمام باقي سوره وآياته .

سورة طــه

هذا هو الاسم الذي اشتهرت بــه هــذه الســورة . وذكــر الســيوطي فــي الاتقــان عــن السخاوي أنها تسمى أيضا : سورة الكليم – وهي ســورة مكيــة. رتبتهــا فــي المصــحف العشرون. وحسب ترتيب النزول الخامسة والأربعــون نزلــت بعــد ســورة مــريم وقبــل سورة الواقعة.

بسم الله الرحمن الرحيم

طه (1) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ (2) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (3) تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى (4) ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ (5) لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ (6) وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى (7) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ (8)

بيان معاني الألفاظ :

الشقاء : مقابل السعادة.

التذكرة : حضور المنسي بالذهن.

الثرى : التراب.

ما تحته : باطن الأرض.

وأخفى : ما يجري في الذهن دون أن ينطق به اللسان.

الأسماء : الكلمات الدالة على الذات الخاصة.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت السورة بحرفين يقرأن هكذا – طا– ها– ومــا ذكــر فــي ســورة البقــرة يجــري هنا أيضا.

يتوجه الخطاب من الله إلى النبــي ﷺ، وقــد وجــد مــن صــدود المشــركين عــن قبــول الدعوة، ومن الجدال بالباطل ليتغلبوا على الحــق، مــا أثــر فــي نفســه الشــريفة وأغمــه وكدره. يسليه ربه: إني لم أنزل عليك القــرآن إلا لتكــون بــه أكثــر ســعادة، لا لتحــزن وتشقى ، إن مهمتك تنحصر في تذكير الذين لانت قلــوبهم لاتبــاع الحــق، وامــتلأت مــن

خشية الله. إن القرآن كتاب عظيم أنزله الــذي خلــق الكــون بأرضـــه وســماواته الذاهبــة في المنازل العالية المدى الذي لا يحد. هو الرحمن الــذي اســتوى علـــى العــرش فتفــرد بالتصرف في الكون كله من يوم وجـــوده، يقــوم علـــى كــل تطــور فيــه إلـــى الآمـــاد المستقبلة التي لا يعلم نهايتها إلا هو. إنه المالـــك الوحيـــد للســماوات ومـــا حوتـــه، ولـــه وحده ما هو فوق الأرض من كائنـــات، ومـــا بـــين الســماء والأرض، ومـــا انـــدس فـــي طبقات الأرض. وهو العليم بما هو محسوس ظـــاهر عنـــد البشـــر، ومـــا خفـــي علـــيهم، وما لا يدخل من الموجودات في نطاق علمهـــم. هـــو الله الواحـــد الأحـــد لا إلـــه إلا هـــو، واحد في ذاته وواحد في صفاته لا يشاركه في ذاته أحـــد ولا فـــي صـــفاته. ومـــا يجـــري من الصفات على المخلوقات يكون علـــى مســـتوى نـــاقص يتناســـب مـــع حقيقـــتهم. فـــإذا قلنا فلان عالم أو مالـــك ونحـــو ذلـــك، فهـــو علـــم محـــدود، وملـــك نـــاقص، التصـــرف الحقيقي فيه لله لا له. وإذا قلنا الله عالم فهو العلـــم المحـــيط الـــذي لا يخفـــى عليـــه شـــيء من المعلوم لا في ماضيه ولا في حاضره ولا فـــي مســـتقبله ومصـــيره. فكانـــت أســـماؤه سبحانه مرتبطة بالكمال الذي لا ينبغي لأحد غيره، فكانت له الأسماء الحسنى.

بيان المعنى العام :

1-طـــه .

افتتحت السورة بحرفين الطاء والهاء، وتقرأ هكذا – طا- ها- وما قيل في أول سورة البقرة يجري هنا. وذكر المفسرون توجيهات عديدة أخرى محتملة لا تبلغ درجة الظن.

2-←3- ما أنزلنا عليك القرآن ....إلا تذكرة لمن يخشى.

أنزل الله القرآن على رسوله محمد ﷺ. وحمّله أمانة التبليغ لهداية الناس إلى التوحيد وإقامة شرعه. فتحمّل شرف هذه المهمة التي تخيّره سبحانه من بين الخلائق جميعا من أول الكون إلى نهايته، ليكون ﷺ خاتم الهداية الربانية للعالمين. اختلطت الرسالة بعقله وروحه ومشاعره، ومحض جهوده لأداء المهمة الثقيلة، التي تلقاها معظم المرسل إليهم أولا بالإعراض، وتفننوا في معاكسته وصده عن التبليغ. وأثر ذلك في نفسه الشريفة لأمرين:

أولهما: أنه يبغي رضوان ربه عليه ويعد النجاح في مهمته باب ذلك الرضا.

وثانيهما: لأن حبه للبشرية ملك عليه حياته فكان يحـــس فـــي نفســـه بأشـــد الأســـى إذا هـــم لم ينقذوا أنفسهم من الكفر باتباع هداية الله.

و محمد ﷺ سلم له المنزلة الرفيعة عند ربه فقد خاطبـــه تعـــالى بقولـــه: (فإنـــك بأعيننـــا)[1] فتوجه إليه القرآن بقوله: ما أنزلنا عليك القرآن لتشـــقى. مـــا أنزلنـــا عليـــك القـــرآن فـــي

[1] سورة الطور آية 48

حال من الأحـوال إلا حـال التـذكرة لمـن يخشـى. أي لا لتكـون تعيسـا فـي حياتـك مهموما بعنادهم وكفرهم، ولكن هـذا الـوحي ينبغـي أن يزيـد فـي إحساسـك بالسـعادة والوثوق من القـرب. ومهمتـك لا تعـدو التبليـغ فتـذكر الـذين لـم تجمـد مشـاعرهم ،وتفتحوا على ما عند الله وحلت الخشية من ربهم فـي قلـوبهم ، فهـم يتلهفـون لمتابعـة ما ينزل عليك ويجهدون أنفسهم لاتباع رشده. وقد تمكنت مـن هدايـة فريـق هـم حولـك يزيدونك ويخشون ربهم .

4←6- تنزيلا ممن خلق الأرض...وما تحت الثرى.

بعد أن ذكر في الآية السابقة أن القـرآن منـزل مـن عنـد الله لينـذر مـن لـم تتحجـر مشاعره، أضاف تنويها بالقرآن وبيانـا لعظمتـه، بأنـه منـزل مـن الـذي خلـق الأرض والسماوات التي تذهب في علوها إلـى أبعـاد لا يعلمهـا إلا هـو. إن وصـف السـماوات بالعلو، وإن كان معلوما إلا أن في التنصـيص عليـه إحضـارا للواقـع حتـى يستشـعره الإدراك ولا يغفل عنه، فتتكون من خلق الأرض والسـماوات العلـى صـورة مـن القـوة والعظمة، هي مقترنة بالقرآن باعتبار أنّ من خلَق ما تعدونـه عظيمـا ،هـو الـذي تفـرد بإنزال القرآن الذي ليس لأحد دخـل فـي نصـه، لا الملـك الـذي حملـه، ولا الرسـول المحول إليه ليقوم بتبليغه. ويتضاعف تقرير عظمـة القـرآن بـإجراء الأوصـاف التاليـة على مُنزّله : هو الرحمن الذي وسعت رحمته كـل شـيء، فـأنزل القـرآن بهـذا الاسـم رحمة بعباده الذين يتذكرون به ويزيدهم خشية مـن ربهـم. وهـو مـع رحمتـه عظـيم. فالصورة التي يريد أن ينقشها القرآن في هذا المقطـع هـي العظمـة. وتجسـيما للعظمـة نصت الآية على أنه استوى علـى العـرش. فأضـافت الآيـة إلـى تفـرده بخلقهـا أنـه تصرف فيها تصرفا لا يشاركه فيه أحد، إذ لا يقـال اسـتوى علـى العـرش فـي عـرف الاستعمال اللغوي إلا إذا كان الجالس على العـرش تفـرد بالسـلطان. ولـذا فـإني أفهـم من الاستواء على العرش ذلك المعنى الـذي يسـبق إلـى فهـم المخاطـب إذا سـمع: إن الملك الفلاني استوى على العرش، أنه تفـرد بالسـلطة. فعـرش الله هـو سـلطانه علـى الكون بما يحويه. فهو خلقـه وتـدبيره ، وهـو المـتحكم فـي واقعـه ومصـيره تطـورا وإفناء. وبعد ذلك فكل ما ورد فـي الأخبـار الصـحيحة ممـا يتعلـق بعـرش الـرحمن، نؤمن بما صح منه ، وننزه الله عن كل ما يفيد الجسـمية والملاصـقة، ونكـل ذلـك إلـى علم الله الذي خلق عقولنا قاصرة عن إدراك حقيقته.

ثم أكد المفهوم مقررا له بأن كل ما تحويه السماوات من الكواكب والمجرات ما هو معلوم للبشر بحواسهم، أو بالأدلة العقلية، أو ما هو وراء ذلك، كذلك ما حوته الأرض على ظاهرها، وما هو كامن في باطنها إلى أبعد الأعماق، هو ملك له وحده.

7-وإن تجهر بالقول....وأخفى.

تثبت هذه الآية إحاطة علم الله، فهو كما أحاط ملكه بجميع الكائنات في السماوات وفي الأرض، فهو كذلك عليم بدقائق محتوياتها، ولما كان العلم بالمحتويات يشمل ما سبيله الحس ، فإن وراء ذلك إدراكا لغير المحسوس. فعبر القرآن عن هذا العلم العام الشامل بكونه سبحانه عالما بما هو مدرك بالحواس، وهو عالم أيضا بما يجري في الضمائر وتتضم عليه العقول فيجري في مجاريها دون أن يبرز إلى الوجود الفعلي ليكون له أثر محسوس. فتثبت الآية استواء علم الله بما يصدر منك جهرا بالكلام، واختير النطق لأنه خاصية الإنسان. ولذا قيل في تعريف الإنسان هو الحيوان الناطق .ويدل الإدراك للجهر من القول على إحاطة العلم بجميع المحسوسات الدقيقة والعظيمة، كما يدل السر وأخفى على ما لا يدرك بأثره اللافت للانتباه، ولكن بعلم اختص به الله. والسر قد يطلق على ما تحدثت به في خفية وقصد أن لا يطلع عليه إلا من تساره ، ويطلق السر على ما لم يخرج من فكرك معبرا عنه بالحروف. والأخفى على المعنى الأول ما كان في نفسك ولم تنطق به، وعلى المعنى الثاني يكون الأخفى هو ما لا يدركه البشر أصلا. والمراد شمول علم الله للظواهر والخفايا.

8- الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى.

هذه الآية كأنها نتيجة لما جرى على الذات الإلهيـة فـي الآيـات السـابقة، فقـد وصـف بالعظمة، والملك ، والتصرف، والعلـم. واتصـافه بـتلكم الصـفات هـو علـى مسـتوى الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه أحد. ولـذلك افتتحـت الآيـة بإثبـات الوحدانيـة لله لا إله إلا هو. وإذ كان سبحانه فردا واحدا فـإن أسـماءه المشـتقة مـن تصـرفه هـي فـي مفهومها على مستوى الوحدانية، الدالة على الكمال المطلـق، وغيـره إنمـا يسـمى بتلـك الأسماء على وجه من النقص بعيد عن الكمـال .وبهـذا ثبـت لله الأسـماء الدالـة علـى الكمال الذي لا يخالطه ولا يلحقه نقص .انظر الآية 180 من سورة الأعراف.

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (9) إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ (11) إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ (13) إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ (14) إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ (15) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ (16)

بيان معاني الألفاظ :

الحديث : الكلام الذي يخبر به عن أمر وقع في الخارج.

الأهل : الزوج والأولاد.

آنست : أحسست وأبصرت.

القبس : ما يؤخذ من النار ليُشعل به نارا.

اخلع نعليك : كن حافي القدمين.

الوادي : المفرج بين الجبال والتلال.

المقدس : المطهر.

طوى : طوى بضم الطاء مقصورا اسم للبقعة. وقرئ طوًى مقدس مرتين.

بيان المعنى الإجمالي :

هل سمعت يا محمد بخبر موسى ؟ سؤال يثير السامع للانتباه ويقرب المسؤول من السائل. هل سمعت ما وقع له في ذلك الظرف الذي كان فيه مع أهله وقد لفهم الظلام في الصحراء، إذ أبصر نارا. طلب من زوجته وولده أن ينتظروه ولا يبرحوا مكانهم، وأنه سيقصد مكان النار، ليأتيهم منها بقطعة يوقدون بها النار ليتدفؤوا وقد أحسوا ببرد الصحراء في الليل. أو أن يجد عند موقد النار معرفة يهتدي بها لأفضل طريق يصل به إلى مصر. ولما وصل إلى النار ناداه ربه مباشرة إني أنا الذي أخاطبك، أنا ربك أقبل علي حافيا، إنك الآن في المكان المقدس المطهر طوى، وإني قد اخترتك من بين العالمين فكن واعيا لما يصلك مني.

بيان المعنى العام :

9-وهل أتاك حديث موسى.

تثير هذه الصيغة الاهتمام فجاءت صياغتها على شكل سؤال دون أن يتطلب السائل جوابا؛ لأن السؤال يثير الذهن فيزداد المسؤول إقبالا. فهي بذلك تؤكد العناية برسول الله ، وتقربه مُشوقًا له بما سيقصه عليه.

10 - إذ رأى نارا فقال لأهله....أو أجد على النار هدى.

الذي وقع لموسى في ذلك الظرف، أنه تبين له في ظلام الليل، نارا تتوقد. دعته النار المشتعلة للوصول إليها ومعرفة ما يجري حولها. قبل أن يتحرك نحو المشهد الذي أحس بداعية إليه، أعلم أهله(زوجه وولده) الذين كانوا يصحبونه، أعلمهم بما رأى وبما عزم عليه: إنه سيذهب نحو مصدر الضوء، وأن عليهم أن ينتظروه في مكانهم. وأنه يرجو أن يأتيهم بقطعة من النار يقتبسها ليوقد لهم ما يجتمعون حوله للدفء، وهم في الصحراء التي تنزل فيها درجة الحرارة بالليل بصفة واضحة، أو

أن يجد حول النار الموقدة من يهديه الطريـق الأحسـن للوصـول إلـى مصـر مقصـده. وفي هذه المقطع أدب في العلاقات الأسرية، فرئيس العائلـة يعـرض الأمـر الـذي يهـم الأسرة على أعضائها، ولا يكتمهم.

11←13، فلما أتاها نودي....فاستمع لما يوحى.

المشهد التالي الذي وقع الإعداد له وهو غير معين، وهو ما دلت عليه الآيات الثلاث.
وصل موسى إلى المكان الذي أنس منه النار. وبمجرد مـا وصـل سـمع صـوتا يناديـه باسمه، ويواصل النداء بقوله: إني أنا ربك - فـاخلع نعليـك - إنـك بـالوادي المقـدس طوى - وأنا اخترتك فاستمع لمـا يـوحى. هـذه أربـع جمـل، وعاهـا موسـى وأدرك بكامل الوضوح مؤداها.

أولا : يرفع الله حيرته فيبادره معلما: إني أنا الـذي أكلمـك، ربـك الـذي خلقـك ووالـى عليك ألطافه متتابعة كما سيصرّح به فـي أثنـاء القصـة بأوسـع مـن هـذا. والمبـادرة بتطمينه هي من رحمة الله به. ذلك أن موسـى كـان وحـده فـي البريـة، وفـي ظـلام الليل، ويسمع كلاما فيعيه بلا صـوت ولا حـرف مـا سـمع مثلـه مـن قبـل، ويحـس إحساسا يقينيا بصدقه وأنه لـيس تخـيلا، وأنـه كـلام يمـلأ الـنفس بهجـة، فكـان فـي المبادرة لطف عظيم، وهذا هـو شـأن الله الـرحمن الـرحيم مـع رسـله. ويصـرح لـه بصلته به أنها صلة الربوبية، بما تشير إليـه مـن عنايـة وألطـاف. وأنـه مقـرب مـن جلاله، بإضافة كلمة [رب] إلى موسى [ربك]

ثانيا: يواصل الصوت اخلع نعليـك، لـتكن حـافي القـدمين. فـالموقف موقـف رهيـب والمكان الذي أنت فيه، هذا الوادي الذي اسمه (طـوى) مكـان مقـدس. وكيـف لا يكـون كذلك وقد حله التقديس بإيجاد كلام من عند الله فيـه، يكـون بـه موسـى أول مـرة يعلـم بأنه مخاطب من الله.

ثالثا: تهيأ موسى للأمر العظيم ، فخلع نعليه وتطلع بكل أشـواقه لمـا سـيأتي، فـإذا هـو إعلام له بأن الله ميزه من بين البشرية كلها في ذلـك العصـر. إنـي أنـا الله العلـيم بكـل الناس قد اخترتك من بينهم وقربتك إلي، فاسـتمع لمـا يـوحى إليـك، وكـن واعيـا لـه. والذي أوحي إليه في هذا المقام معاني. صيغت فـي الآيـة لنعرفهـا، ولكـن موسـى لـم يتلقها من ربه على الصياغة القرآنيـة، ولكنهـا مسـاوية لهـا معنـى. جاءتـه مـن رب العزة وعاها أتم وعي وفهم المراد منهـا، وغمـره بالإحسـاس بهـا وبمضـامينها سـعادة تفوق الوصف. وهي ليست بحروف ولكنـه إدراك فـوق ذلـك يتناسـب مـع تنزيـه الله عن الزمان والأحداث، سمت القدرة الإلهية بموسـى ليتلقـى مـن ربـه مـا تلقـاه بـدون واسطة ملك وفي اليقظة لافي المنام.

إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

إقامة الصلاة : المداومة عليها وعدم الغفلة عنها.

الساعة : يوم القيامة .

أخفيها : أسترها.

تسعى : تعمل.

لا يصدنك : لا يصرفنك.

تردى : تهلك.

أتوكأ : اعتمد عليها .

أهش : أخبط بها الشجر ليسقط الورق طعاما لغنمي.

مآرب : جمع مأرب، أمور أخرى أستعين فيها بالعصا.

الحية : صنف من الزواحف السامة.

تسعى : تتحرك بسرعة.

سيرتها الأولى : طبيعتها الأولى، سنعيدها عصا كما كانت.

الجناح : العضد وما تحته إلى الإبط.

الضم : الإلصاق.

الكبرى : القوية الدلالة على قدرتنا.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن تهيأ موسى لقبول الوحي مع الحضور. كان أول ما أوحى الله له به أنني أنا الله لا يشاركني أحد في اسمي. ولا يشاركني أحد في ألوهيتي، فكل ما اتخذه البشر من آلهة سواي هو باطل وزيف . وبناء على ذلك تحتم أن تفردني بالعبادة ولا تتقرب إلا إلي. ونص على الصلاة باعتبار أنها أفضل ما يتقرب به العابد من

المعبود. فأقم الصلاة وأدها على أكمل وجوهها لتكون ذاكرا لي بقلبك ولسانك. وإن يوم القيامة آت لا ريب فيه. وأردت أن أخفي وقت حضور الساعة فلا تُعلَمُ بالضبط إلا عندما يقوم الناس من قبورهم. وعندها تلقى كل نفس جزاء ما قامت به من أعمال أو ما فرطت فيه من واجبات. فلا يصرفنّك عن تذكرها واستحضارها دائما، ما يقوم به المغرقون في الشهوات الذين لا يؤمنون بها من إنكارها وجعل تأخر حصولها باب شك في وجودها. احذر فتنتهم فإن الهلاك والخسران مآل الغفلة عن الساعة. وبعد أن من الله على موسى بإحساسه أنه في حضرة الله يخاطبه بدون واسطة وعلى غير ما ألفه من الإدراك. يتلقى سؤالا يطلب منه أن يعرّف ما يمسكه بيمينه. ما كان موسى ممسكا لشيء إلا لعصاه التي تلازمه. فأجاب بكل تلقائية استجابة للأمر: هي عصاي، وتبعا لفطنته أسرع إلى مواصلة الحديث عن سبب صحبته للعصا، فقال هي عصاي أعتمد عليها فتساعدني في المشي، وأخبط بها الشجر لتتساقط الأوراق التي يتغذى منها غنمي. وتسعدني على تحقيق أغراض أخرى. والذي يتبادر من هذا الاطناب أن موسى يقوم في باطنه عامل داخلي يستحثه ليطول الموقف في حضرة ربه. فإنه ما شعر في حياته السابقة، ولا يتصور أن يكون له فيما يستقبل موقف تغمره فيه السعادة والإحساس بالرضا والأنس كموقفه ذاك. فكل كلمة ينطق بها تطيل هذا اللقاء السامي العزيز ومناجاته لربه التي تميز بها بين كل من سبقه من البشر. وانحصر ذهنه في عصاه، فيأتيه الأمر أن يلقي بعصاه على الأرض. وما أعظم دهشته إذ فوجئ بانقلاب العصا حية نشيطة تتحرك في قوة. ويطمئنه ربه بقوله : خذها بيدك ولا تخف منها فإني سأعيدها إلى طبيعتها الأولى عصا كما كانت . وما إن طبع ذهنه بهذا التحول الذي جرى على العصا يتلقى أمرا اخر: أدخل يدك في جيبك حتى تبلغ جلدك تحت إبطك، ثم أخرجها. ويستجيب للأمر فإذا يده تخرج بيضاء نقية شديدة الصفاء، وكان لونها سمراء كلون بشرته. ويتلقى من الله خطابا على نفس النسق الذي حصل عند استماعه للنداء الأول، فيقول الله، فعلنا ذلك لنريك بعض آياتنا العظيمة التي بها نجري الوجود ونحوله كما نشاء، ونخرق ما تعود عليه البشر.

بيان المعنى العام :

14 - إنني أنا الله لا إله إلا أنا...لذكري.

استعد موسى فخلع نعليه وصفت روحه للتلقي، وغمرته السعادة بالاصطفاء والتقريب ولبلوغه لحظة ما تأتّتْ للرسل من قبله، فتهيأ لقبول الوحي الذي تواصل فكانت المجموعة الأولى منه مركبة من أربعة أركان أولا: التعريف بالعقيدة التي

تقوم على الوحدانية .بالاعتراف بأن الله هـو الإلـه الحـق، وأن مـا يـدعى مـن دونـه باطل وهوس. فعلى نفي الشريك وتقديم هذا الـركن علـى غيـره تتفـق كلمـة المرسـلين جميعا.

ثانيا: تخصيص الله بالعبادة والطاعـة، فإنـه لمـا تفـرد سـبحانه بالألوهيـة، وجـب أن يتفرد بالطاعة والعبادة، فـلا يتقـرب إلا إليـه، ولا يـدعى إلا هـو. وأن يخلـص العابـد للمعبود.

ثالثا: الأمر بالصلاة، اختصت من بين أنـواع العبـادة حتـى كأنهـا نـوع خـاص، لمـا اشتملت عليه من صقل للروح وتغذيـة للعقـل، وتنبيـه للمشـاعر. يقـف المصـلي بـين يدي ربه معرضا عن الدنيا متعلقا بربه متسـاميا عـن دواعـي الميـول والغرائـز. ولـذا قال ﷺ: جعلت قرة عيني في الصلاة. وربطـت الصـلاة فـي الآيـة بقولـه " لـذكري " ويحتمل المعنى أقم الصلاة لتذكرني. أو عند الوقت الذي جعلته لذكري.

رابعا : الإيمان بالبعث. عبر عنه بـأن السـاعة (أي يـوم القيامـة) هـذا الموعـد آت لا ريب فيه. إنه هو الذي يحمـل الإنسـان علـى مراقبـة أقوالـه وأعمالـه فيلتـزم الخيـر ويبتعد عن الشر، وهو المُظهر للمسـؤولية لمـا كانـت الـدنيا لا يعجـل فيهـا الجـزاء. وعقب الساعة بأمرين: ذكر وقتها، وما يحصل فيها. أما وقتهـا فعبـر عنـه بقولـه: أكـاد أخفيها. ولما كانت لفظة " أكاد" تدل علـى نفـي مـا بعـدها وإن قـارب الوقـوع حـاول المفسرون تخريج المعنى على ما يتفق مع اليقين في الأمـر. بيـان ذلـك أنـك إذا قلـت كاد يقتله، أي قارب قتله ولم يقتله. وكذلك أكاد أخفيها قاربـت الإخفـاء ولـم أخفهـا. مـع أن الساعة لم يعلم الله بها أحدا: لا تأتيكم إلا بغتـة- فحمـل بعضـهم أكـاد، علـى أنهـا زائدة. وادعاء الزيادة بدون مبرر لها لا تطمئن لـه الـنفس. وحمـل بعضـهم أن الهمـزة للإزالة ، أي أزيل خفاءها فأظهرهـا أي إن وقوعهـا قريـب. والـذي اطمأننـت إليـه هو حمل الآية على ظاهرها. أي إني قاربت إخفاءها عـن البشـر، فهـم يتسـاءلون عنهـا ولا يجدون جوابا، وسأظهرها يـوم تتعلـق إرادتـي بإظهارهـا . عنـدها يعلمـون بعـد إتيانها أنها حق. فليس إخفاؤها إخفاء أبـديا، ولكنـه إخفـاء ينتهـي إلـى معرفـة قريبـة. وقد جاء في القرآن: (وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا)[1]

وأما ذكر ما يحصل فيها، فهو تحقق الجزاء العادل عمـا قـام بـه الإنسـان فـي حياتـه. نعم هو يسعى ويتحرك ويؤثر فيما حوله، وتأخذ أفعالـه فـي علـم الله الصـورة الحقيقيـة

---

[1] سورة الأحزاب آية63

لها، وذلك بربطها بمنطلقاتها من النوايا. وكـذلك مـن يتهـاون بمـا هـو واجـب عليـه، فيلقى أيضا جزاء تفريطه.

16-فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى.

في هذه الآية تنبيه لموسى ﷺ ليكون يقينه بأمر الساعة ثابتا وحاضرا، وأن يكون يقظا للذين يشككون في أمرها، ويعملون على رفضك اليقين بها تبعا لتراخي وقتها. مع أنهم لا شبهة لهم ولا موجب للشك فيها ولكن اتباعهم لشهواتهم وانقيادهم لهواهم هو الذي يصرفهم عن الإيمان بالأخرة لما يترتب عن تذكر إيقافهم للسؤال ثم الجزاء على سوء أفعالهم ما ينغص عليهم لذاتهم. إن تسيب المتبعين للشهوات لا يعكر عليهم لذاتهم إلا استحضار أنهم سيحاسبون عن الشرور والمفاسد التي ارتكبوها إرضاء لنزواتهم. احذر أن يفتنوك عن استحضار حصول يوم القيامة فإن الغفلة عنه مهلكة وخسران مبين.

17–18، وما تلك بيمينك ياموسى ...مآرب أخرى.

بعد ذلك المشهد المقدس المتعالي، وقد ارتسم فيه في سرعة خط التصور من البداية من مبدع الكون الواحد الأحد إلى النهاية يوم القيامة وما بينهما من الاستعداد الموصول، وعدم الغفلة عن أي جزء من تلكم الحركة، الإيمان بالله، عبادته، إقامة الصلاة، الحضور الإلهي في الروح والعقل ،الاستحضار للنهاية يوم القيامة. بعد ذلك يلقي الله على موسى سؤالا يخرج به من الجو الروحي الذي بلغ درجة من السمو والطهر والبعد عن المادة والطين حدا ما بلغه أحد من البشر من قبله. يعيد هذا السؤال موسى إلى الواقع فيسأله: ما تلك التي تمسكها بيمينك ؟ لاشك أن السؤال ليس عن ماهية ما بيمينه ، إذ هو واضح أنه يمسك عصاه التي لا تفارق الرعاة وقد كان يرعى غنم سيدنا شعيب . والسؤال من الله، وعلى موسى أن يجيب، فأجابه: إنها عصاي. وواصل إذ لعله قصد بالسؤال اختياره عن حاجته لأخذها معه، فقال :أتوكأ عليها: تعينني وأعتمد عليها في سيري، وأخبط الشجر بها لتتساقط منها الأوراق التي ترعاها غنمي، وتساعدني في القيام بوظائف أخرى.

19–20، قال ألقها ياموسى...حية تسعى.

قال الله: ألقها من يمينك على الأرض. ألقاها ويفاجأ موسى بأن العصا تنقلب حية نشيطة سريعة الحركة. ومن اللطف بموسى لم تنقلب العصا حية حتى انفصلت عنه وفارقت يده.

21- قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى.

تطوي الآية فزع موسى من الحية، ويشـير إليـه قولـه: **ولا تخـف**. يـؤمر بـأن يمسـك بالحية، ويحس بالخطاب المطمئن الذي مـلأ كيانـه كلـه مـن ربـه امسـكها ولا تخـش منها سوءا فسنعيدها إلى طبيعتها التي كانت عليها.

22-23، واضمم يدك ...لنريك من آياتنا الكبرى.

ويثني الرحمن بعرضه أمرا آخر خارقا للعادة. كان موسى عليه السلام أسمر اللون، فبعد أن أمسك بالحية وعادت إلى طبيعتها يأمره أن يدخل يده من فتحة جيبه ويبلغ بها تحت إبطه فتمس جلده. ويستجيب للأمر منتظرا ما ذا سيحدث، ويخرج يده فإذا هي بيضاء نقية، مشرقة بصفاء لونها. فليس تحول اللون كما يحدث بالبرص والبهق . ويشاهد موسى الآية الأولى والآية الثانية. وإذا كان موضوع الآية الأولى عصاه المنفصلة عن ذاته، فإن الآية الثانية كانت في ذاته. ثم يلقي في سمعه وقلبه: نريد بما شاهدته أن نريك بعض آياتنا الكبرى التي تخرق العوائد. فما كانت العوائد التي استقرت لدى البشر إلا مسببة عن تكوين إلهي لها، وليست واجبة أن تكون على ما هي عليه، ولذا فإنه متى أردنا توقيف العادة وإبدالها بصورة مغايرة استجابت للإرادة و القدرة.

ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾

بيان معاني الألفاظ

طغى : جاوز الحد في فساده.

اشرح لي صدري : وسع لي في صدري حتى لا يضيق عليه الأمر في الأوقات الحرجة.

عقدة لساني : حبسة لساني.

يفقهوا: يفهموا.

الوزير: المعين القائم بوزر الأمور.

الأزر: أصله الظهر. والمراد به القوة.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن أعد الله موسى إعدادا سما به إلى درجة رفيعة من التقريب وبعد أن أظهر له من المعجزات الكبرى ما يقوي عزمه، أمره أن يذهب إلى فرعون ليحوله عن طغيانه. كان موسى يعلم استكبار فرعون واستبداده وكبره، فسأل ربه أن يساعده على تحمل أمانة الرسالة التي أوكلها إليه. سأل ربه أن يشرح صدره فينزع منه الخوف، ويبصره بالحلول الموفقة للمشاكل تعترضه، وأن يمده بالعون والتوفيق

الذي يسهل عليه مهمته، وأن يمكنه من التعبير عن مراده بطلاقة لسان حتى يفهموا قصده فهما جيدا. وأن يجعل له معينا ومؤازرا من أهله يقوم معه بثقل المهمة، وسأل أن يكون هذا المؤازر أخاه هارون، يقويه ويقلّب معه أوجه الرأي للظفر بالحلول الناجحة. ونتشارك في القيام بدعوة فرعون. حتى نتعاون على مواصلة تسبيحك، ونوالي ذكرك، فإنك العليم بحاجتنا لعونك وتسديدك.

أعلم الله موسى أنه أجابه لما سأل، ومكنه مما طلب.

بيان المعنى العام :

24 –32: اذهب إلى فرعون ...وأشركه في أمري.

أعد الله موسى لتحمل الرسالة لأعتى ملوك الأرض في زمانه، فقوّى نفسه بكلامه وأكسبها عزة وثقة، وكشف له من آياته التي تحول العصا حية والسمرة بياضا، مما يدل على أن تأييده له في مغالبة الصعاب على النحو الذي رآه رأي العين. فتوجه له بالأمر الجازم والتكليف المشرف: أن يذهب إلى فرعون، ويُجمل المهمة في لفظ واحد: إنه طغى: أي إنه جاوز الحدود، وتجبر. اذهب إليه لتحوله من طريق الظلم والاستبداد إلى طريق العدل والرشاد.

ويستشعر موسى عليه السلام ثقل المهمة، وهو الذي ربي في حجر فرعون، وقد مرت به صور كثيرة من طغيانه واستخفافه بالأرواح والحقوق. فطلب العون من الله لينجح في مهمته فسأله وهو في حضرته:

أولا : أن يشرح صدره فيتسع فكره لحل المشكلات التي تعترضه في أداء مهمته، ولا تنغلق مفاتيح حل الأزمات. ولا يستولي عليه الخوف الذي يشل الحركة والفكر.

ثانيا: أن يسعفه بعونه ليهوّن عليه أمر مهمته، وقد رأى من الآيات ما قوّى يقينه بقدرة الله على تيسير العسير.

ثالثا: لما كانت مهمته تعتمد وضوح الحجة والقدرة على البيان والبلاغ، فإن اللسان هو آلة الخطاب ، وقد كان موسى عليه السلام يشكو حبسة في لسانه، قد تكون عدم وضوح بعض الحروف على لسانه فيعسر عليه إخراجها من مخارجها فلا يبين، وقد تكون عدم مساعدة لسانه على الاسترسال في الحجاج، فينحبس عن المواصلة. ويفشل قبل بلوغ الغاية من العرض. وعلى كل فإنه يحس من نفسه بعظم هذا المعوّق، ولذا نكر لفظ " عقدة" للدلالة على التعظيم. ووصل بأن الاستجابة تصل به إلى أن يفهم عنه الفهم الجيد ما يريد أن يقنع به المرسل إليهم.

رابعا: أن يؤيده بأخيه هـارون فيشـركه فـي المهمـة الموكلـة إليـه ،ويعينـه برأيـه . واسترسل مفصلا موجبات الاختيار علـى هـارون، لأنـه أخـوه وشـأن الأخ أن يكـون مخلصا لأخيه، ولأنه قوي وفصيح فيكـون وضـعه معـه كـالحزام الـذي يشـد الظهـر، ليكون شريكا له في المهمة يقلبان الرأي معـا، فيحصـل بينهمـا التكامـل لتقليـب وجـوه النظر في المهمات وهو أعون على النجاح .

33←34: كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا.

وبرر طلب تعزيزه بأخيه بأن ذلك يمكنه بصـفة أفضـل مـن الامتثـال لأول أمـر تلقـاه من ربه " لا إله إلا أنـا فاعبـدني وأقـم الصـلاة لـذكري" فـإن التعـاون علـى مهمـة الرسالة يمكنهما مـن وقـت أوسـع للعبـادة، فيكثـر تسـبيحهما وتمجيـدهما لله، وتكثـر أوقات توجههما بالصلاة إليه. وفي ختم دعائه بربطـه بـأول مـا تلقـاه مـن ربـه مـا يؤكد انتقاش ما جرى فيه.

35: إنك كنت بنا بصيرا.

و ينعطف على كل ما سأله بأنـه مفـوض أمـر إسـعافه بطلبـه إلـى الحاجـة التـي لا يتمكنان منها إلا بفضله، وهو العليم بحاجتهما، لا يخفى عليه من أمرهما شيء.

36: قال قد أوتيت سؤلك يا موسى.

قال الله تعالى بعد أن أتم موسى دعاءه وبلغ بتضرعه مسـتوى القبـول: قـد تحقـق لـك نيل ما سألت، وناداه باسمه ليفرغ في روحه وثوقـا وطمأنينـة، يـا موسـى. ومـا ألـذه من نداء من رب العزة، وأي تقريب أ حس به موسى!

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾

بيان معاني الألفاظ :

أوحينا: ألهمناها إلهاما أحست بصدقه.

اقذفيه في التابوت : ضعيه في الصندوق.

اليم : نهر النيل.
الساحل : الشاطئ.
العدو : فرعون.
تصنع : تربى وتنمو .
على عيني : أراك وأرعاك .
تقر عينها : برؤيتك في حجرها.
لا تحزن : بتحقق سلامتك من الضياع.
الغم : الحزن.
الفتون : اضطراب الحال الذي يعرض للإنسان في مدة حياته.
قدر: تواصلت عنايتي بك إلى أن جئت هذا المكان بتقديري.

بيان المعنى الاجمالي :

كان موسى في حضرة الله يسمع بكل كيانه إلى ما يلقيه الله له. ذكره بالمنن التي والاها عليه. ذكره برعاية الله لمّا وُلد، إذ أدخل في فكر أمه حلا استيقنته ونفذته، ذلك أن من طغيان فرعون عزمه على قتل كل مولود ذكر من بني إسرائيل، فأوحى إليها أن تسرع بإدخاله في صندوق قبل أن يتفطن له زبانية فرعون، ثم ترمي به في النهر، وقدرتُ أن يحملك الماء إلى ساحله في المكان الذي يأخذك فيه خدم فرعون «عدوي بادعائه، الألوهية »وعدوك في المستقبل. وجعلت فيك جاذبية يحبك من يراك، فبمجرد ما رأتك امرأة فرعون تعلق قلبها بحبك. ثم واليت عليك منني ليتم تطورك في البيئة الصالحة تحت رقابتي، فأبعدت عنك كل ما يتبعه الانحراف. وإذ تكدرت امرأة فرعون لما عزفت عن قبول المراضع، فقبل بلاط فرعون نصيحة أختك أن بيتا صالحا يمكن أن يكفيكم أمر القيام عليه في أمد رضاعه. وقبلوا ذلك وعدت إلى أمك فقرت عينها سرورا بعودتك، وذهب ما كان يخامرها من الحزن خوفا عليك من الضياع أو الغرق في النهر. ومنة أخرى أنه لما قويت عضلاتك، وانتصرت لواحد من بني قومك فدفعت القبطي، الذي أراد التسلط عليه، دفعة مات منها. وقد أصابك الغم، ونجيناك من القصاص، وإن كنا فتناك بتلك الفعلة. بما أصابك من غم، وبمفارقتك لأسرتك وقومك، ومكثك عشر سنين مختفيا من فرعون. وفي تلك السنوات العشر التي قضيتها مع شعيب ﷺ ، تعمق في نفسك سلوك النبوة وطهارتها، ثم بعد ذلك أتيت إلى الطور في وقت قدرته تقديرا لا مجال للمصادفة فيه، وقد كنت أراعي تقلبك في كل فترة من فترات حياتك لتكون مكونا على ما أريده لتتحمل عبء رسالتي.

بيان المعنى العام:

37←39، ولقد مننا عليك مرة أخرى...ولتصنع على عيني.

وبكل تأكيد كانت عنايتي بك قد صحبتك من يوم ولادتك، أذكرك بالمنة الأخرى التي مننت بها عليك وأنت في المهد، في ذلك الوقت أوحيت إلى أمك وحيا هاما، فركزتُ في عقلها اقتناعا يذهب عنها كل تردد في اتخاذ القرار الخطير: الإسراع بوضعك في الصندوق بلا تردد. ثم إلقاء ذلك الصندوق في نهر النيل. وصدر الأمر التكويني منا أن يحمله الوادي إلى شاطئ معين ولا يذهب به إلى غيره. وسيأخذه من هناك عدو لي فرعون الذي جاهر بدعوى الألوهية، والذي هو عدو لك لو علم أنك من بني إسرائيل الذين عزم على قتل ما يولد لهم من الذكور، وسيكون عدوا لك أيضا عندما تعرض عليه رسالتك . ومن كمال المنة أني جعلت فيك جاذبية فمن رآك أحبك، هي محبة حلت عليه من عجيب صنع الله؛ على خلاف الشأن في تولد المحبة عن مخالطة وإعجاب أو انتفاع. ولذلك فبمجرد ما وقعت عين امرأة فرعون عليك أحبتك، وأقنعتْ زوجها بأن تكون مرعيا في قصره. وتولدت في نفسها الآمال أن تكون خير عون لهما. وكل ذلك من تصاريف القدر المساعد المصاحب لك من أول أمرك في الحياة.

40←41، إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم...واصطنعتك لنفسي.

واذكر إذ مننت عليك أيضا فجعلتك تنمو وتربى بعنايتي، وأنا أراك وأرعاك. وتفصيل ذلك أن أختك عرضت على الموكلين بك من قومة فرعون لما لم تقبل التقام أي ثدي قدم لك، عرضتْ عليهم أن تدلهم على بيت صالح يرعاه ويقوم على تربيته في أمد رضاعه، فاستجابوا، وعدت بصنع عجيب منا بعد زمن قليل إلى حجر أمك. فقرّت عينها بالنظر إليك في حجرها، ولا أبعد حنانا من عين الأم عندما تضم وليدها إلى صدرها، وانتفى الحزن الذي كان يعصر على قلبها، خوفا عليك من ضياعك في النهر أو غرقك. فإذا أنت سالم معافى في بيتها.

ومنة ثالثة انضافت إلى المنة الأولى التي هي إنجاؤك من شرطة فرعون الذين يأخذون كل مولود ذكر قسرا ليقتلوه فأقنعنا أمك بوضعك في الصندوق ثم إلقائك في النهر، وإلى المنة الثانية وهي أنك سلمت من الضياع أو الغرق وعدت عن قرب لأمك. أما المنة الثالثة، فهي أن موسى قتل قبطيا من قوم فرعون، اختصم مع إسرائيلي وكاد يبطش به، فاستغاث الإسرائيلي بموسى فوكزه موسى وكزة قتلته. وقد تجمع أمران يعرضان موسى للقتل، أحدهما أن موسى قاتل عمدا، والقاتل يقتل، وثانيهما ظروف التشديد إذ المقتول قبطي من قوم فرعون، وموسى إسرائيلي.

أدرك موسى بعد موت القبطي الوضع الصعب الذي هو فيه، واغتم لعلمه أن فرعون لا يمكن أن يتسامح في تعدي إسرائيلي على قبطي، والمنزلة الاجتماعية للأقباط أفضل من منزلة الإسرائيليين. وأنه سيقتص منه لامحالة. ويذكّر الله موسى أن القتل فظيع ،وأنه سبحانه لم يهدر دم القتيل فهي نفس محترمة ،وأن القتل كان سببا لفتنته فتونا، فابتُلي موسى بخروجه من بلده، وبعده عن عائلته وقومه، وتحرك ضميره المؤنب، وكان وجلا من أن يلحقه الطلب بالدم، واجتهد لطلب العفو والمغفرة من الله، ووالى ابتهالاته لينجو، ومكث يرعى غنم شعيب عشر سنين .فهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى: **وفتناك فتونا**.

بقي موسى يخدم شعيبا عشر سنوات في مدين. وهو اسم أحد أبناء إبراهيم عليه السلام . سكنت ذريته في مواطن تسمى الأيكة على شاطئ البحر الأحمر. وغلب اسم القبيلة على الأرض وصار علما للمكان.

رعيناك في أطوار حياتك، وتوالت ألطافنا بك، كما أفاده قوله: تعالى **ولتصنع على عيني**، وتم ذلك التكوين الروحي بمخالطته لسيدنا شعيب العشر سنوات الأخيرة، فبلغ موسى بذلك المستوى الذي أهّلهُ ليتلقى الوحي، ويكلف بالرسالة. فكان قدومه إلى الطور مرتبا مقدرا لا مصادفة فيه .وتأكيدا لما سبق في تعداد المنن ختمها بأن الله صنعه صنعا متقنا، كما هو شأن من يعد شيئا لذاته ، فهو يبذل فيه كمال العناية. واصطنعتك لنفسي.

ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا تنيا : لا تضعفا.

القول اللين : القول الذي يغلب عليه الترغيب.

يتذكر : ينظر نظر المتبصر.

يفرط : يعجل بمكروه فينا قبل تبليغه.

يطغى: يستكبر فيعاملنا بالتحقير والإهانة.

بيان المعنى الإجمالي:

توجه مع أخيك إلى فرعون، وكونا واثقين مــن أنفسكما لا تضــعفا ولا يخالطكمــا تــردد في التبليغ. وإياكما أن يبلغ بكما الوثوق بــالنفس حــد الغلظــة، بــل لــتكن دعوتكمــا لــه باللين والكلام السمح غير المنفر؛ فرجاؤكما في التأثير عليــه مــع اللــين أقــرب للتحقــق، فربما يتبين له الحق فيقبله، وربما يحصل له الخوف من العناد فيطيع.

خاف موسى وأخوه لما يعلمان من استكبار فرعــون، وأنــه يســرع إلــى إنــزال العقوبــة الشديدة بهما قبل أن يتأمل أو يحاور، أو أن يحتقرهما ويتجرأ على الخالق.

طمأنهما ربهما ، أن فرعون لا يفعل بهما ما دار فــي خاطرهمــا، فــلا يخافــا وليمضــيا إليه، فإن الله مسندهما يسمع ويرى ما يحصــل مــن فرعــون، فيحُــول بينــه وبــين مــا تخوفا منه.

ودلهما على الطريقة التي لا تهيج غضبه ، وليكن خطابكمــا لــه علــى النحــو التــالي: قولا له أولا: إنا رسولان من عند ربك الذي لطــف بــك مــن صــغرك إلــى أن تمكنــت من ملك مصر؛ وثانيا: إنك مطالب بأن تمكننــا مــن بنــي إســرائيل فــلا تحــول بيــنهم وبين الخروج معنا، وارفع العذاب عنهم . قد أيدنا ربنــا بمعجــزة منــه تقصــر قــدرات البشر جميعهم على فعل مثلها. وإن الله ينــزل الســلام والأمــن علــى مــن لــم يســتكبر واتبع الهدى البين. ومن نا حية أخرى فإن الله أوحى إلينــا أنــه يســلط عذابــه علــى مــن كذب بالحق الذي جاءه وأعرض عن قبوله .

بيان المعنى العام :

42- اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري.

تم إعداد موسى ﷺ لتحمل الرسالة، بما ملأ عقلــه وروحــه مــن خطــاب الله لــه وفــي حضرته. وقوى إرادته بما ذكره به من النعم التي توالــت عليــه مــن يــوم ولادتــه إلــى خروجه إلى مدين ، وسما في أدبه بمعاشــرته لشــعيب ﷺ ، وعيشــه فــي بيــت النبــوة عيشا انتهى بالمصاهرة. وتأيد بإخبار الله إياه أنــه قبــل دعــاءه وقــواه بأخيــه هــارون. أصبح الجو ملائما لتحمل المهمة التي أعده الله لهــا، وقــد صــنعه علــى عينــه. ولــذلك خاطبه بقوله: اذهب أنت وأخــوك مصــحوبين بالآيــات البينــة التــي جربتهــا أمــامي، وعلمــت أســرارها. وحــذرهما أن يــدخل الريــب أو الضــعف فــي قلبيهمــا، فلــيكن شعورهما بالقوة الباعثة على مواصلة المهمة موفورا، مهما اعترضهما من صعاب

43-اذهبا إلى فرعون إنه طغى.

يصح أن تكون هذه الآية توجه بها الله إلـى موسـى وهـارون بعـد أن خـرج موسـى إلى مصر ولقي أخاه، وأعلمه بما كلفـا بـه، وأن الله خاطبهمـا إثـر ذلـك وهمـا معـا. ويصح أن يكون الخطاب موجها عند الطور إلـى موسـى، بـأن يكـون الله أمـر موسـى الذي هو مطلوب منه أن يأمر أخاه عندما يلتقي به.

و لكي يكونا على بينة مـن مهمتهمـا علـل سـبب توجيههمـا لفرعـون، بأنـه تجـاوز الحدود، فليعملا على أن يقلع عن طغيانه.

44- فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى.

المهمة واضحة، والمقصود بالإصلاح: فرعون الطاغيـة ؛ ولنجاحهمـا فـي المهمـة قـدم لها بأن عليهمـا أن لا يضـعفا، وأن لا يبعثهمـا اعتقـاد كونهمـا علـى صـواب يقينـا والمبعوث إليه على خطأ يقينا، وأنهما مؤيـدان مـن الله، لا يحملهمـا ذلـك علـى الشـدة والإغلاظ ، والعنف والقوة ، بل عليهما أن يلينا فـي عرضـهما بعيـدا عـن الاسـتفزاز. بصفة يكونان معها على رجاء أن يسمع كلامهما ويتأملـه متـدبرا فيـه، أو أن تحـل فـي قلبه الخشية والخوف من الله فينصاع وتذهب كبرياؤه ويقبل ما يعرض عليه.

إنه المنهج في الدعوة إلى الله، يجمع الداعية:

أولا: بين الإيمان الذي لا يداخله شك أنه يدعو إلى الحق.

ثانيا: شكره لله أن وفقه للقيام بالدعوة إلى دينه.

ثالثا : أن يخفض جناحه للمدعو ولا يغلظ له ولا يظهر له أنـه علـى خطـأ سـيقوده إلـى النار وغضب الجبار ،بل يفسح له الأمل في التوبة والعفو وحسن المآل.

45- قالا ربنا إننا نخاف....أو أن يطغى.

عزم موسى وأخوه على القيام بما كلّفا به، ومن شأن القائم الرشيد بالمهمة أن يقدّر كل العواقب التي يمكن أن تعوقه عن بلوغ النجاح. كانا يعلمان ظلم فرعون واستبداده، وتكبره، فخشيا أن يخيبا في مهمتهما، فتوجها إلى الله بعرض ما خامرهما : ربنا إننا نخاف أن يكون رد فرعون بمجرد ما نقدم عليه، ما عرف به من العجلة والاستخفاف بالأرواح فيأمر بقتلنا، أو بتسليط العقاب الشديد علينا قبل أن يسمع منا ،أو أن يتكبر فيحتقرنا ويهيننا، أو يتجرأ باستنقاص ذاتك العلية. ومؤدى كلامهما طلب التأييد في الموقف الصعب.

46- قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى.

خاطبهما الله بما ينفي الاحتمالات التي سببت لهما الخـوف مـن فرعـون: لا تخافـا مـن عجلته ولا من طغيانه، فإني حافظكما مؤيد لكمـا ، أتابعكمـا متابعـة دقيقـة فـلا يـذهب

عني أي حدث، إني أرى وأسمع كل ما سيحدث وأنتما بحضرته. مما يدل على أنه لا يحدث أي شيء مما توقعاه .

أولا: عرّفاه بمنزلتكما، وأنكما ما قدمتما عليه باجتهاد، بل قولا له قولا واضحا: نحن رسولان من ربك الذي تقلبت في رعايته وأعطاك ما أعطاك ومكنك من ملك مصر

47- فأتياه فقولا إنا رسولا ...والسلام على من اتبع الهدى.

تقدّما وادخلا عليه واثقين، وقولا له قولا واضحا لا لبس فيه: نحن ما قدمنا عليك باجتهاد منا، ولكنا مبعوثان من ربك الذي تولاك من صغرك إلى أن بلغت ملك مصر. إنا نطلب منك أن تمكننا من بني إسرائيل فترسلهم معنا، وترفع عنهم التسخير المعذب، إذ كان فرعون يكلفهم بالأعمال الشاقة مع الإهانة ويعتبرهم في درجة إنسانية أحط من القبط ؛ وأمعن في ذلك باتخاذه قرار ذبح ذكرانهم واستحياء نسائهم. ونثبت لك أنا مبعوثان من ربك باستعدادنا أن نعرض عليك معجزة من صنع ربك، تقصر القدرة البشرية على الإتيان بها.

وختما رسالتهما مقدمين البشارة على الإنذار فقولا له: إن الأمن ثابت والإكرام محقق متمكن ممن اتبع طريق الهدى. مما يومئ إلى أن الأفضل لفرعون أن يتبع الهدى ولا يستكبر عن قبول الحق. وموسى ﷺ مكلف بأمرين:

أولهما: الدعوة إلى التوحيد، وهي دعوة عامة لا يجوز له أن يرى مشركا ولا يهديه لعبادة الله الواحد الأحد. وهذا من أول ما خوطب به: إنني أنا الله لا إله إلا أنا-

ثانيهما : أن يخلي بينه وبين بني إسرائيل ليبين لهم الشريعة التي تضبط حقوق الخالق في طريقة التقرب إليه بالعبادة، وحقوق المخلوق وواجباته في العلاقات البشرية من أسرة وتعامل مالي وأخلاق، مما يكون أمة تكون علاقاتها بصفة عامة معلومة وبينة واضحة.

48- إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى.

واصلا إبلاغ الرسالة بإنذاره. فبعد أن فسح الله له باب البشارة بأن السلام يحل على من اتبع الهدى ولم يستكبر عن الحق، أبلغاه الإنذار أن العذاب سيستحوذ على من كذب دعوة الرسل وأعرض عن قبول ما هدي إليه. وإلى هنا تم الوحي الذي أوحى الله به لموسى وهارون.

و طوي ما يفهم من المقام أنهما قاما بالمهمة، ودخلا على فرعون وأبلغاه ما كلفا بإبلاغه. ولذا فستعرض القصة ما أجاب به فرعون بعد أن سمع رسالة ربه.

قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

خلقه : خصائصه الذاتية التي بها يتميز عن غيره.

ما بال : ما هو حال.

القرون الأولى : من مضى من أهل مصر الذين كانوا يعتقدون في ألوهية فرعون.

مهادا : ميسرة للسير فيها.

سلك لكم فيها سبلا: جعل لكم فيها طرقا تصل بكم إلى مقاصدكم.

أشتاتا: أنواعا متباعدة في الشكل واللون وأنواع الانتفاع.

النهى : جمع نهية وهي العقل، لأنه قوة تنهى الإنسان عن فساد في الفعل والتفكير.

بيان المعنى الإجمالي :

كان سؤال فرعون بعد أن أتما العرض، من هو ربكما الذي تدعونا لتنفيذ أمره؟ أجاب موسى: ربنا هو الذي أعطى لكل كائن خصائصه التركيبية التي بها يتميز، ثم ضبط له القوانين التي يسير عليها ليبلغ غاية مداه. وهو جواب لا يستطيع فرعون المجادلة فيه، فهو يعلم من نفسه أنه ما خلق أي شيء ولا سيره. فحول فرعون السؤال بطريقة خبيثة يترتب عنها إلزام يضعف موقفهما في ظنه. سألهما: ما هي أحوال من مات من آبائنا الذين ما كانوا على دينك الذي تدعو إليه ؟ ألهم موسى جوابا يقمع تشغيبه، فقال: علم مصيرهم عند ربي ، موثق لا يضيع منه شيء ، فربنا لا تختلط عليه الأمور، بل كل كائن مميز عمله ومصيره، كما أن ربنا لا يغفل عن أي فعل من الأفعال، على معنى أن كل مكلف سيجد كل أعماله موثقة، وسيجزى عنها.

من شأن القرآن أنه يدمج كلما وجدت المناسبة ما يوقظ العقول لتتنبه إلى الأدلة المبثوثة في الكون لتتأمل فيها بما يثبت الحق في نفوسهم. فالأرض التي نحيا على ظهرها قد يسر الخالق لنا العيش عليها فمهدها كما يمهد الفراش، ويسر السير فيها والانتقال بين أرجائها، فنشر فيها طرقا، وأعاننا على تمهيد طرق أخرى تتصل

بواسطتها البشرية ببعضها. وربط بين السماء والأرض فأنزل من السماء ماء يتفاعل، فمكّن النبات من الحياة وطوع الأرض لتنشق له وتساعده على النمو، وإذا هي أنواع مختلفة الألوان متعددة الأشكال، منها ما هو للبشر، ومنها ما هو للأنعام، ومنها ما هو للزينة والجمال. وامتن بالإذن بالانتفاع بما أخرجته الأرض نأكل منه، وتسرح فيه أنعامنا، ثم يتحول ما تأكله الأنعام لحوما وألبانا تدخل في طعامنا، وأصوافا ووبرا للباسنا، وجلودا تمكن من أغراض عديدة. إن في ذلك كله أدلة لأصحاب العقول التي تتجاوز الظواهر إلى ما وراءها، تقوم شاهدا على القدرة والحكمة.

بيان المعنى العام :

49، قال فمن ربكما يا موسى.

بمجرد ما أتما عرض ما أمرهما الله بعرضه على فرعون، ودعوته ليستجيب لما طلبا منه، توجه فرعون بالخطاب لهما أولا: من ربكما؟ وصيغة السؤال تدل على رفضه الاعتراف بالربوبية لله. وانتهى بالإقبال على موسى فناداه: ياموسى -وقد تقدم لنا في سورة الأعراف أن فرعون عرف أن الذي أوتى الآية وهو قادر على إظهارها هو موسى وقال له:(إن كنت جئت بآية فأت بها)[1].

50- قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

أجاب موسى عليه السلام ربنا الذي ندعوك للانصياع لما يطلبه منك، وهو الذي أرسلنا إليك، هو الذي أحكم خلق الأشياء فكل جزئية من أجزاء التكوين في الكون أعطاها خصائصها بحكمته، فلا تجد في الخلق إلا التكامل الدال على العلم الشامل والدقيق، ثم إنه بحكمته أعطى لكل كائن الطريق الذي يسير عليه ليتطور تطورا يحقق ما هو مؤهل له. فما يتكون منه كل كائن مقدر ومنفذ حسب التقدير، ثم يتبع كل كائن بعد إيجاده قوانين الحياة العامة والخاصة المضبوطة بتقدير العزيز العليم.

51-قال فما بال القرون الأولى.

ما كان فرعون مستعدا لاتباع ما جاءا به، فانتقل من المحاورة التي تهدف إلى معرفة الحق من الضلال، والصواب من الخطأ، إلى التشغيب والإلزام الذي يستغله ليثير عليه الرأي العام. فقال له: ما بال القرون الأولى؟ أخبرني ياموسى عن وضعية الذين سبقوا وعاشوا على اعتقاد أن فرعون رب مصر. ما مصيرهم؟ أتقول: إنهم كانوا على ضلال، وخسروا عاقبتهم باطمئنانهم على عقيدتهم، وهم في

[1] سورة الاعراف آية 106

العذاب لقولك: إن العذاب على من كـذب وتـولى ؟ وهـذا مـا يثير حفيظـة أبنـائهم فيتألبون على موسى وأخيه ويكونون عليـه ضـدا. أو تقـول: إنهـم نـاجون . وإذا كـان الأمر كذلك فلا فارق بينهم وبين فرعون، فهم على ملـة وطريقـة واحـدة. فأسـقط بهـذا السؤال حسب ظنه رسالة موسى وأخيه.

52- قال علمها عند ربي...ولا ينسى.

ألقى الله الحكمة على لسان موسى، فكـان جوابـه : الله أعلـم بمـا صـاروا إليـه، فـإني ما جئت لتحاورني في أمر الماضـين، وإنمـا أطلـب منـك موقفـك مـن الحـق ، ودعْ أحوال القرون الأولى؛ فإن معرفة أحوالهم ومـا صـاروا إليـه موثّـق عنـد ربـي فـي كتاب ،شأنهم شأن الأمر الذي يعنى به حتى لا يتغير، أنـه يوثـق كتابـة لتكـون الوثيقـة المكتوبة المرجع الثابت. إن ربي لا يلحق علمه خطـأ، فكـل فـرد سـجله منفـرد غيـر مختلط بغيره، كما أنه شامل لكل ما صدر عنه، فلا يطوي النسيان أي شيء.

53-الذي جعل لكم الأرض مهادا...من نبات شتى.

يدمج القرآن بمناسبة طلب فرعـون تحديـد مفهـوم الألوهيـة عنـد موسـى، مـا بيـن القدرة الإلهية وحسن التقدير للأمور.

أولا :التقدير الإلهي المحكـم الـرابط بـين الإنسـان والأرض، فيثبـت أن خلـق الأرض راعى فيه سبحانه تيسير إعمارهـا علـى الإنسـان، فسـهلها للسـير فيهـا والتنقـل بـين أرجائها. كل أجزائها متقاربـة، فتسـتطيع العائلـة البشـرية أن تتبـادل فيمـا بينهـا مـا يُمكنها من الاستخلاف الأرشد .ولا تجد صعوبة في الحياة على سطحها.

إن طرق الأرض بعضها مهيـأ فـي خلـق الله لـه وتكوينـه، وبعضـها هـدي الإنسـان لتعبيده، والكل يحقق الهدف الذي ذكرناه.

ثانيا: أن الله ربط بين السماء والأرض، ومن ذلك إنزاله من السماء ماء، طوع به النبات للحياة بماء السماء، وطوع الأرض لتمكن النبات من الظهور. واصل المنة ومظاهر القدرة: أن الله أخرج بالماء الواحد النازل من السماء ومن الأرض في مكان واحد أو أمكنة متعددة، أنواعا كثيرة من النبات، مختلفة في ألوانها وأشكالها ومنافعها.

54-كلوا وارعوا أنعامكم... النهى.

إذْنٌ في الانتفاع بما خلق، وإظهار للمنة بإباحة الانتفـاع ، وإيقـاظ للنـاس بـأن يتفكـروا في القدرة والحكمة والمنة، ليحصل لهم بذلك أدلة واضـحة علـى ذلـك كلـه، فـلا شـك أن العقل الفقيه يتجاوز الظاهرة المحسوسة إلى مـا وراءهـا، الأمـر الـذي بـه يسـمو الإنسان عن الحيوان .

• مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

تارة : مرة.

موعدا : وعدا لازما في المقابلة زمانا ومكانا.

سوى : لا يبعد عنا وعنك، أو على أرض مستوية يمكن للناس مشاهدة ما يحدث.

الضحى : وقت ارتفاع الشمس.

بيان المعنى الإجمالي :

سيخرج الله الإنسان من الأرض بعد موتـه كما أخرج النبات من الأرض، وهو بين المرحلتين الخلق الأول والبعث تحتضنه الأرض .

ثم والى القرآن عرض ما وقع لموسى مع فرعون فذكر أن فرعون استكبر عن قبول الحق وكذب موسى رغم مشاهدته الحسية للآيات التسع التي لا تتأتى للإنسان. وقال له وهو بين الحذر منه وبين التحدي له: أنت ما جئت يا موسى إلا طلبا لتحل محلنا في ملك مصر، واعتمدت على السحر لتوهم الناس بسحرك أنك مقتدر على ما يقدر عليه الناس، فسنبطل دعواك ونأتيك بسحرة لهم مثل قدراتك السحرية، لينكشف أمرك للناس. فاختر موعدا: مكانا وزمانا، نلتزم به جميعا ولا يتقل الإتيان فيه على أي منا.

اختار موسى أن يكون الموعد يوم الزينة الذي يحتفل به أهل مصر، ويحضرون في مكان معين بأفخر لباسهم. وحدد أن يكون الاجتماع في وقت الضحى الذي تسطع فيه الشمس وقبل اشتداد حر الظهيرة.

بيان المعنى العام :

55- منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى.

نبهت الآية السابقة إلى ما في عجائب التصرف الإلهي في الأرض من تمهيدها إلى انفلاق الحب في باطنها، إلى خروجه نباتا متنوعا. أردفت هذه الآية مرتبة أسمى في التقدير، فذكرت أن الله خلق الإنسان من الأرض، كما جاء في خلق آدم: من طين. ثم إن نموه وتطوره مرتبط بغذائه المستمد من الأرض أيضا. فتواصل الخلق

الأول إلى الخلق المتوالي في جميع مراحل الحيـاة. وفـي الأرض يـدفن الإنسـان ليعـود إلى حضنها بعد أن خرج منها. ولذا كانـت الفطـرة قاضـية بـأن يـدفن الإنسـان فـي الأرض ، لا أن يحرق ويوضع رماده في قـارورة أو يـذرى فـي البريـة أو الأنهـار أو البحر ، أو يوضع في صناديق من رخـام أو غيـره فـوق الأرض، كـل ذلـك مخـالف للفطرة ولما هدت إليه الشريعة الإسـلامية. وعـودة الإنسـان إلـى الأرض هـي عـودة إلى أمد ليخرجه الله من بطنها مرة أخرى. (كمـا بـدأنا أول خلـق نعيـده وعـدا علينـا إنا كنا فاعلين)[1].

56-ولقد أريناه آيتنا كلّها فكذب وأبى.

بعد أن أيقظت الآيات الـثلاث 55/54/53- الفكـر للتأمـل فـي العجائـب الدالـة علـى القدرة والحكمة الإلهية في تصرفه فـي الكـون، واصـل القـرآن عـرض مـا تـم بـين موسى وفرعون. فاستأنفه بالتأكيد على تصلب فرعـون فـي كفـره، وقـوة عنـاده. فقـد عرض عليه موسى المعجزات التي أيده الله بها، أبصـرها ونظـر فيهـا، فكـذب موسـى فيما دعاه إليه، وأبى الاعتراف بأن الله هو الخـالق الواحـد المالـك للكـون كلـه، تمسـكا بالتسلط على قومه بوصف الألوهية. كلما عرض عليه موسـى آيـة مـن الآيـات التسـع (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات)[2]

57←58- قال أجئتنا لتخرجنا....ولا أنت مكانا سوى .

سجل القرآن رد فرعون على ما شاهده من الآيـات الأولـى. هـذا الـرد المنبعـث مـن الحذر والتحدي.

أولا: بدا فرعون حذرا من موسى، إذ أول ما رد به أن الآيات سحر. قصده الوحيد أن يزيل ملك فرعون، وأن يحل مكانه كشأن الانتفاضات التي يرمي القائمون بها إلى الحلول محل صاحب السلطة. وكأنه يهدده بندائه: يا موسى ، يقول: أفق من هذا الذي تخيلته يؤثر في الجماهير ، فبكل تأكيد سنرد عليك ما يمزق الشباك التي نصبتها من السحر لتغر الناس، بما نأتيك به من السحرة الذين يساوونك في إحكام صناعة السحر. وإني أعرض عليك أن تحدد موعدا نلتزم به مكانا وزمانا. نعرفه نحن وأنت، وعلى بعد لا يثقل على أحدنا، أرضه مستوية منكشفا للناظرين لا يحجب أحد عن متابعة ما تعرضه، وما يعرضه سحرتنا.

---

[1] سورة الأنبياء 104

[2] سورة الإسراء آية101

59-قال موعدكم ....وأن يحشر الناس ضحى.

أجابه موسى في وثوق: الموعد سيكون يوم الزينــة، فعــين المكــان الــذي يجتمــع فيــه الناس عادة، والمعروف عندهم بيــوم الزينــة، ويفهــم مــن لقبــه أنــه يــوم يحتفــل بــه المصريون ويلبسون أجمل ثيابهم ويجتمعون في مكــان معــين. قيــل هــو ســاحة قصــر فرعون. ويوم الزينة ضبط للزمان مع المكــان، إذ هــو اليــوم الســابق لفصــل الخريــف الذي يمتلئ فيه النيل، فينســاب المــاء فــي التــرع التــي تــذهب بعيــدا عــن مجــراه، فيزرعون بعد الري الواصل . وقد حــدده الشــيخ محمــد الطــاهر ابــن عاشــور بــاليوم الخامس عشر من تشرين (سبتمبر) اقتــرح أن يكــون الاجتمــاع وقــت الضــحى الــذي يتم فيه إشراق الشمس، وقبل اشــتداد حــر الظهيــرة. وفــي قــول موســى: وأن يحشــر الناس، إيماء إلى رغبته في حضور أكثر عدد ممكن ممن يشهدون على ما يقدّمه.

فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

تولى : انصرف.

كيده : التدبير الذي يخفيه ويظن أنه يغلب به موسى.

الويل : اسم للعذاب والشر.

الافتراء : اختلاق الكذب .

فيسحتكم : يستأصلكم .

تنازعوا : تخالفوا في الرأي، ويعمل كل فريق على جذب الآخر لرأيه.

أسروا النجوى : أخفوا الحديث الدائر بينهم في تكتم.

طريقتكم المثلى : ما أنتم عليه ،وهو الأفضل والأكثر خيرا .

أجمعوا أمركم : كونوا متعاونين متفقين على رأي واحد.

صفا : مرتبين الواحد بجانب الآخر .

استعلى : حقق علوه وغلبته.

تنازعوا : تخالفوا في الرأي مع عمل كل صاحب رأي على إقناع الطرف الآخر .

النجوى : الحديث غير المعلن.
طريقتكم المثلى : سيرتكم الفضلى.
أفلح : ظفر وفاز
استعلى : غلب وظهرت مكانته العالية.

بيان المعنى الإجمالي :

بمجرد ما عرض موسى الموعد، أخذ فرعون يدبر المكائد التي يستطيع بها في ظنه أن يقمع موسى ويتغلب عليه، وأمضى زمنا في ذلك حتى جاء الموعد فحضر ومعه سحرته وشعبه. بمجرد ما رآهم موسى توجه إلى الجميع بصوت أسمعهم محذرا، يا عذابكم وأي شر سيحل بكم !لا تكذبوا على الله بتصديق فرعون في ادعائه الألوهية، ولا تظنوا أن السحر يوازي الآيات التي أسعدني الله بها ، احذروا أن يستأصلكم الله بعذابه ، فإنه قد جرت سنته في الخليقة أن كل من كذب على الله مآله الخيبة .

ارتج السحرة من تهديد موسى ﷺ ، وانحازوا يتدبرون الأمر في خفية حتى لا يطلع أحد على ما دبروه، وتكون كلمتهم واحدة فيما قرروه.

بعد تقليب الأمر انتهوا إلى أن الأمر خطير جدا، فموسى يريد أن يستولي على الجماهير، ويبطل من ناحية أخرى مكانة السحرة، ومنهجهم الطاغي في الحياة. ولذا فإن الأزمة تدعو إلى تجميع كل طاقاتهم الكيدية، ويعدوا تصورا عمليا واحدا، وينظموا أنفسهم صفوفا يأتون إلى موعد اللقاء تعلوهم المهابة. فإن هذا اليوم يوم فاصل، بين مهزوم لا حظ له في المستقبل وبين منتصر يحقق الظفر والنجاح.

بيان المعنى العام :

60 - فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى.

عقب قبول موسى للتحدي وضربه الموعد، أسرع فرعون بإعداد العدة للتغلب على موسى، فدبر من المكائد التي يظن أنها تخفى على موسى وتشوش عليه أمره وتفضحه أمام النظارة، ليقتلع ما انتشر في الرعية من المستوى الرفيع لموسى وقدراته العجيبة. وأمضى في إعداد مكره زمنا، ولما وثق من أمره، جاء للموعد ومعه السحرة، واجتمعت الجموع الحاشدة لتحضر هذا المشهد. وكل فرد يعتلج في نفسه سؤالا : ما هي النتيجة؟

61-قال لهم موسى ويلكم ...وقد خاب من افترى.

رأى من تصميم السحرة على المناظرة، أنهم واثقون من أن إلههم فرعون لا يمكن أن يغلب، وأن موسى وما أتى به شعوذة ستنهار أمام سحرهم العظيم، الذي بلغوا

فيه الغاية بعد تمرسهم بـه السنين الطويلة. فنادى موسى بصوت أسمع السحرة والجموع الحاشدة ، لمّا رأى منكرا تمالأ عليه الحاضرون جميعهم . يا ويلكم، وأي شر سيلحق بكم مما أنتم مصممون عليه من رفض الدعوة إلى الله، ومواصلة العناد والإيمان بفرعون، وتصوركم التكافؤ بين الآيات الإلهية وبين الشعوذة والسحر.
إن الله سيستأصلكم بعذاب عظيم يسحقكم سحقا. هذه سنته التي جرت مع الأمم الماضية: كل من افترى على الله كذبا يمهله ولا يهمله، وسيلحقه العذاب لا محالة. فثوبوا إلى رشدكم قبل فوات الأوان.

62 - فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى.

كان لتهديد موسى ﷺ أثر في إرباك السحرة، إذ هو نابع من الحق ، وصادر عن خالص الحق لا عن أوهام، فارتجوا إثر سماعه، وتشاوروا فيما بينهم ، فتضاربت آراؤهم وتنازعوا في الموقف الذي ينبغي اتخاذه، وحرصوا أن يُسرُّوا في تدبيرهم ولا يعلنوه ، حتى يكون ما ينتهون إليه صادرا عن إجماع محفوظةٌ أسرارُه، ولا يطلع أحد على ما هو خفي من عُواره .

63—64، قالوا إن هذان لساحران.... وقد أفلح اليوم من استعلى.

انتهى بهم تقليب النظر إلى الاتفاق على التصور الآتي :
1)إن موسى وأخاه ساحران لا حقيقة لما يدعيانه، فصناعتهما من نفس الصناعة السحرية التي يعتقدون أنهم أشد حذقا لها. وقد وقف المفسرون في إثبات الألف في قوله تعالى: إن هـذان. ومن أفضل التوجيهات أن تكون [إن] ليست الناسخة لإعراب المبتدأ والخبر بل هي بمعنى:[نعم] أي نعم هما لساحران. وتأيدوا بشعر عبد الله بن قيس الرقيات :
و يقلن (أي الغواني) شيب قد علا *** ك وقد كبرت فقلت إنَّهْ – أي نعم
كما خرج على أن هذه القراءة جرت على لغة كنانة وبني الحرث بن كعب ممن يلزم المثنى الألف – رفعا ونصبا وجرا.
و مما رجح في نظري ذلك مراعاة التوافق بين جرس اللفظ والمعنى، فإن السحرة يريدون الإشارة مع امتداد الصوت المعبر عن خطرهما، فلو عبر بهذين لانكسر الصوت، ولم يتفق المعنى الحاصل في النفس مع جرس الكلمة. ولضاعت هذه المزية التعبيرية .
1) إنهما لا يقصدان إلا أمرا واحدا، وهو أن يؤثرا في الجماهير ليستوليا عليهم، ويتحكما فيهم ، ويتوصلا من سحرهما إلى إبطال مكانة السحرة ، ووثوق الناس بقدراتهم . فخطرهما مزدوج، على سيادة فرعون، وعلى حظوظ السحرة أيضا.

وأن المآل خطير، فما سرنا عليه من الطريقة المثلى الحسنة الجيدة ، سيتحطم وسيقضيان عليه بما قدماه .

دعا بعضهم بعضا بأن تكون عزيمتهم على دحض ما جاء به موسى عزيمة ماضية لا تردد فيها. كما يمكن أنه دعا بعضهم بعضا ليضموا جهودهم ومعارفهم السحرية، ويواجهوا بها موسى وأخاه. فقد أخذوا أنفسهم بالجد، وفي الاتحاد قوة.

2) أن يقدموا في صورة ظاهرها المهابة والقوة، ينطلقون إلى مكان العرض منظمين مصطفين، كما تجري عليه اليوم الاستعراضات العسكرية، يأتي المشاركون في الاستعراض صفوفا منتظمة، مما يزيد في مهابة الجيش وإظهار قوته .

3) صرحوا بأنه يوم فاصل، بين متغلب قاهر للخصم، ومهزوم مقهور لا قيمة له في المستقبل، وقد أفلح اليوم من استعلى. فاز اليوم من كانت له الغلبة.

قَالُوا يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

أوجس : استشعر.

خيفة : خوفا.

تلقف : تبتلع.

بيان المعنى الإجمالي:

عرض السحرة على موسى أن تكون له الضربة الأولى، أو أن يتقدموا بعرض ما أعدوه. كان جواب موسى: لكم البداية. فألقوا ما أنتم ملقون. وكانت المفاجأة شديدة إذ عرضوا على أعين النظارة ما هيأوه من حبال وعصي وما ركبوه فيها وما رتبوه، وتحركت الحبال والعصي حركة شديدة حتى خيل لموسى أنها سرت فيها الحياة . وشعر بالخوف من المنظر المفزع ، وتأثيره على النظارة. ثبّته الله بقوله لا تخف، فإنك أنت الغالب، وستحطم كل ما أحكموا صنعته، وألق العصا التي في يمينك، تلك العصا التي شاهدت أسرارها في الطور، فستبتلع كل ما صنعوه وأعدوه

من حبال وعصي وتقلبُها أثرا بعد عين. إن الـذي صـنعوه يـا موسـى حيـل لا حقيقـة لها، هي من السحر، والساحر خاسر ماله الخيبة في أي مكان كان .

بيان المعنى العام :

65-قالوا يا موسى ...أو أن نكون أول من القى.

أقبل السحرة وهم واثقون بأن مـا أعـدوه مـن السـحر سـحر عظـيم، امتزجـت فيـه تجاربهم ، فبادروا سيدنا موسى بتخييره بـين أن يبـدأوا بـالعرض، أو أن يتقـدم هـو . وفي ذلك إدلال بإحكامهم لما أعدوه ، وأنهم لا يخشون ما عنده .

66-قال بل ألقوا ...من سحرهم أنها تسعى.

أجابهم موسى: لكم ضربة البدايـة، حتـى يفـرغ مـا عنـدهم فيجهـز علـيهم بعـدها، ويبطل سحرهم ويظهر زيفهم. وأسرعوا عقـب كلامـه إلـى عـرض مـا أعـدوه. وقـد كانت المفاجـأة قويـة، الحبـال والعصـي التـي أحكمـوا اختيـار موادهـا، وطلاءهـا، وتركيبها، والنسب التي بينها، وأوضاعها من أشـعة الشـمس إذ الوقـت ضـحى، أخـذت تضطرب وتتحرك، وإذا المشهد كله حيات تتلمض وثعابين تتلوى.

67-←68-فأوجس في نفسه ...ولا يفلح الساحر حيث أتى.

كان المشهد مؤثرا ومخيفا، حتى إن سـيدنا موسـى ارتـاع لمـا شـاهد ورأى، وإن بـدا ﷺ ، ثابتا لم يتجاوز الخوف أحاسيسه الباطنية، (في نفسـه خيفـة موسـى) وفـي هـذا المقام الحرج يُثبّته ربه فـيحس فـي نفسـه بـأن الله أودع الطمأنينـة فـي قلبـه، ورفـع هاجس الخوف، ويؤكد له أنه هو الأقدر في هـذا المشـهد: لا تخـف إنـك أنـت الأعلـى. ويأمره أن يُلقي ما في يمينه، وهي العصا التي أطلعـه الله علـى مـا فيهـا مـن أسـرار عند الطور ، ولهذا لم يقل له: وألق عصـاك، ليـذكّره بخصائصـها التـي شـاهدها لمـا سأله : وما تلك بيمينك يا موسى؟ ولـم يتركـه للتجربـة تُظهـر آثارهـا، فعرفـه قبـل إلقائها أنها ستلتهم كل تلك الحبال والعصـي التـي بلغـوا فـي صـنعها وترتيبهـا مبلغـا كبيرا من التمويه وإخفاء الحقيقة وإظهارهـا علـى نحـو بعيـد عـن واقعهـا. اعلـم يـا موسى أن الذي صنعه السحرة هو كيد سـاحر، حيـل قصـد بهـا القصـد السـيء مـن تغليط النظارة وإيهامهم حقا مـالا حقيقـة لـه. وستمضـي علـيهم سـنتي: أن السـاحر خائب، بعيد عن الفلاح ولا يظفر ببغيته، وحيث توجه هو خاسر .

فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم

مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإلقاء : أصله الطرح على الأرض ، خروا سجدا على الأرض لله.

آذن لكم : أن أسمح لكم.

أقطعن : شدة التقطيع.

أصلبنكم : أصلبكم على الأعواد صلبا شديدا.

جذع النخلة :ساق النخلة التي تحمل الجريد والعراجين .

نؤثرك : نفضلك

المجرم : فاعل المعصية والفعل الخبيث.

تزكى : تطهر.

بيان المعنى الإجمالي :

عرف السحرة أن ما جاء به موسى ليس من جنس السحر، ولا هو من طوق البشر، فايقنوا بصدقه وخروا ساجدين لله الذي أيده . وصرحوا بقولهم: آمنا برب هارون وموسى القادر الفاعل لما يشاء.

كان هذا الموقف صاعقا لفرعون، وحول غضبه بمكر، إلى أنه لا يغفر لأي رجل من شعبه أن يختار ما لم يأذن له به. ثم لجأ إلى تهديد السحرة ليخوفهم ويخوف بقية الشعب، إنه سيقطع أيديهم وأرجلهم بصفة متتابعة، ثم سيصلبهم على جذوع النخل مشهرًا بهم . وستدركون من الأنكى تعذيبا وتواصلا. ما أوعدكم موسى أو ما سأفعله بكم.

أجابوه إجابة قاطعة نا بعة من نور الإيمان، لن نفضل دينك يا فرعون على الحق الذي حل قلوبنا من الآيات التي أضاءت أرواحنا، ولن نفضل عبادتك على عبادة

الله الذي خلقنا. نتحداك في شجاعة: افعل ما أنت عازم على فعله فلن نرتد عن إيماننا، إن بطشك لا يتعدى هذه الحياة الدنيا القصيرة المدى.
اعلم أننا آمنا إيمانا صادقا بربنا راجين أن يتفضل علينا فيغفر لنا الخطايا التي ارتكبناها يوم كنا نتبعك، وأن يغفر لنا ما أكرهتنا عليه من السحر لنبطل الحق الذي جاء به موسى، وما عند الله خير مما عندك والله خير منك، وفضله موصول لا ينقطع. ثم تابعوا: إنا نعتقد أنه من يقدم على ربه يوم القيامة ملوثا بالكفر والمعاصي، فإن جزاءه سيكون جهنم يعذب فيها عذابا متواصلا، لا يموت منه فيستريح، ولا يرتفع عنه لحظة فيعيش حياة سوية. وفي المقابل إن الذين يقدمون على ربهم وقد اطمأنت قلوبهم بالإيمان، وأنجزوا في حياتهم الأعمال الصالحة، فإن الله سيفضلهم بالدرجات العلى، ينعمون في جنات يقيمون فيها ولا يبرحونها، تتخللها الأنهار بما يصحبها من لطيف الجو وجمال المنظر، لا تنقطع حياتهم فيها، فهو الخلود الأبدي، سيحقق الله كل ذلك جزاء لمن تطهر من الكفر والآثام .

بيان المعنى العام :

70- فألقي السحرة سجدا...هارون وموسى.

ألقى موسى عليه السلام عصاه فابتلعت كل ما أعده السحرة من عصيٌ وحبال، وما طليت به، وما كانت تموج به الساحة من صورة الحيات والأفاعي، فبدت فارغة في لحظة واحدة. وليس في الأمر تخييل، بل هي الحقيقة العارية المكشوفة. أدركها السحرة فنفذ بريق الحق إلى قلوبهم وخروا سجدا، ونفّسوا عما امتلأت به أرواحهم قائلين: آمنا برب هارون موسى.

71- قال آمنتم له قبل أن آذن لكم....أينا أشد عذابا وأبقى.

صُدم فرعون صدمة عنيفة بما انتهى إليه أمر المناظرة. إن الذين كان يعول عليهم لينتصر بهم على موسى وأخيه، ويتمكن بهم سلطانه أفضل تمكن، قد خذلوه بإسراعهم إلى الإيمان برب موسى وهارون. وأسعفه في هذا الموقف الحرج ما ربي عليه من الطغيان والمكر، فتوجه إلى السحرة معلنا جريمتهم التي يستحقون عليها المقت والتعذيب: الجريمة التي لا يمكن أن تغتفر حسب القيم الاستبدادية: الحرية في الاختيار، والإعلان عن الرأي قبل أخذ الإذن من الحاكم. ولذلك لم يتهدّدْهم بالعذاب لإيمانهم برب موسى وهارون، ولكن للتعبير عن رأيهم قبل أخذ الإذن منه " قبل أن آذن لكم" ثم ثنّى بإعلان الإرهاب المعتمد من كل الظلمة المستبدين في الأرض قديما وحديثا لإثبات سلطانهم وشل كل انتقاض عليهم. إذ بالإرهاب وتثبيت الخوف في النفوس يؤمّنون الرضوخ والطاعة العمياء من جميع

أفراد الشعب، ويفتحون أبواب التزلف والنفاق. صرح بالعذاب المرهب الذي قرر تسليطه على السحرة بعد إيمانهم: تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، ثم تثبيتهم مصلبين على جذوع النخل. إن قطع الأيدي والأرجل بصفة متتابعة، اليد اليمنى ثم الرجل اليسرى، ثم اليد اليسرى وإتباعها بالرجل اليسرى، إمعان في التعذيب، وفي التعبير بالتقطيع الشديد تخويف عام، وكذلك اختيار أن يكون الصلب متمكنا في جذوع النخل لا يستطيعون عنه فكاكا هو للإرهاب أيضا، ذلك أن ارتفاع سوق الأشجار العارية من كل الأغصان، مما تتفرد به جذوع النخل فيجتمع على المصلوب التشهير والعراء. فحصن فرعون ملكه من متابعة بقية الشعب لموسى وأخيه. ثم زاد في التهديد : إن الحكم فيكم سينفذ بلا تردد، وستعلمون عندها من هو أقسى عذابا ، ومن سيكون عذابه مستمرا غير منقطع . يرهب الجميع بأن عذابه هو أقطع وأدوم من عذاب الله الذي حذر منه موسى السحرة بقوله: **ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب.**

72←73: قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا...والله خير وأبقى.

مشهد رفيع، يتقابل فيه الإيمان بوضوحه وسموه، مع التهديد والوعيد والبطش الشديد، فيعلو الإيمان ويحطم في عزة وأنفة الاستكبار والطغيان، ويقطع على المتجبر فرعون ما أمله من خوف السحرة وخضوعهم له وعودتهم إلى قبول سيطرته. أعلنوا على رؤوس الملأ: لن نفضل أبدا طاعتك ودينك على ما حل بقلوبنا وعقولنا من الأدلة البينة الواضحة، ولن نقدم الإيمان بك على الإيمان بالله الذي خلقنا وصورنا. ونحن نتحداك، فافعل ما توعدتنا به، فات وقت الرهبة والخوف، إن قوتك وبطشك لا تتجاوز هذه الحياة الدنيا القريبة الزوال، افعل ما أنت فاعل فبدخول نور الإيمان قلوبنا أصبح كل عذاب مادي يهون أمام رضا ربنا.

و اعلم أن اختيارنا هذا هو نابع من إيماننا بربنا، وكل همنا أن يغفر لنا ربنا خطايانا التي كنت محرضا لنا على اقترافها، وأن يغفر لنا إقدامنا على ما أكرهتنا عليه من محاولة تحدي آيات ربنا الصادقة بالسحر المتخيل الباطل. تطهرت قلوبنا من أرجاس الماضي ، وما نأمله من رضى ربنا خير من كل مغرياتك وأبقى أثرا. لقد علمنا أن ما عند الله هو الباقي لا وعيدك في قولك ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى.

74-إنه من يأت ربه مجرما...لا يموت فيها ولا يحيى.

هذه الآية تحتمل أن تكون من كلام رب العزة، ثم التذكير بها هنا لإكمال ما بسطه السحرة التائبون. كما يمكن أن تكون مما ألحقه التائبون من السحر مما اقتنعوا به وصرحوا به مما يغيض فرعون . فماذا قالوا ؟

قالوا إنه من يقدم على ربه يوم القيامة وهو مصر على إجرامه ملوث بالكفر والمعاصي، ولم يغسل ذلك بالتوبة قبل الموت، فإن الله أعد له جزاءه في جهنم، يتواصل عذابه، فلا هو يذوق سكرات الموت ويفنى فيرتفع إحساسه بالعذاب، ولا هو يحيى الحياة السوية التي لا يألم فيها ولا يعذب .والمقصود تواصل العذاب وتواصل الإحساس به. وهذا بسط لمقام الخوف من عذاب الله .

75-،76-ومن يأته مؤمنا...وذلك جزاء من تزكى.

وفي المقابل فإن من يقدم على ربه يوم القيامة جامعا بين الإيمان وصالح الأعمال، بأن كان قلبه عامرا بالإيمان، وأفعاله مستجيبة لمقتضيات إيمانه، فأولئك المؤمنون الصالحون يستحقون من فضل الله الدرجات العلى . فهو نعيم مادي ونعيم أدبي فيه الرفعة والسمو، ينعمون في جنات إقامة تتخللها الأنهار. وذلك الفضل والنعيم والرفاهية جزاء من تطهر من الكفر والآثام.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ

بيان معاني الألفاظ :

أسر: سر بهم ليلا.

اضرب لهم طريقا : اجعل لهم طريقا.

يبس : يابس .

درك : أن يدركك فرعون. الخشية شدة الخوف

فأتبعهم : تبعهم.

اليم : البحر .

غشيهم : غطاهم بما أغرقهم فيه .

المن : مادة صمغية يصنع منها الخبز.

السلوى : طائر لحمه لذيذ.

بيان المعنى الاجمالي :

أوحى الله إلى موسى، وقد أبصـر أن فرعـون وجنـده يحثـون السـير للحـاق بهـم ، ليجبروهم على العودة إلى مصر، أوحى إليـه أن يضـرب البحـر بعصـاه ليجعـل لهـم بذلك طريقا ممهدا يسيرون فيه، يابسا لا تسيخ فيـه الأقـدام ولا سـنابك الخيـل. وأعلمـه أن عليه أن يكون مطمئنا واثقـا لا يخـاف مـن أن يدركـه جنـود فرعـون، ولا يخشـى الغرق وهو سار في طريقه.

أبصر فرعون بني إسرائيل وهـم سـائرون فـي طريـق ممهـد، وأنهـم سـينفلتون مـن قبضته، فـأمر جنـوده أن يتبعـوهم فـي الطريـق المفتـوح. ومـا إن اجتمـع الجـيش وفرعون وسط الطريق حتى أطبق علـيهم البحـر مـن جانبيـه فـأغرقهم بسـوء تـدبيره وعناده. كان فرعون مضللا لقومه موقعا لهم فـي الخسـارة والضـياع، مـا حصـل لهـم منه الهداية التي لوح بها لما قال: **وما أهديكم إلا سبيل الرشاد**[1].

ثم ذكر الله بني إسرائيل بـبعض نعمـه ليستحضـروها فـي مشـاعرهم ويكونـوا بـذلك يقظين لشكرها. فمنها أننا أنجينـاكم مـن بطـش عـدوكم فرعـون، وأكرمنـاكم بـإنزال التشريع المنظم لحياتكم لما وعدنا موسى أن يأتينـا إلـى جانـب الطـور الأيمـن، فـأتى وقبل ما أوحيت إليه. ولم نهملكم وأنـتم فـي الصـحراء فمكنـاكم مـن المـن والسـلوى وأحللناه لكم قوتا طيبا لذيذا. لا تغفلوا عـن الاعتـراف، نحـذركم سـوء العاقبـة إذا أنـتم استكبرتم فنسيتم أن كل ذلك هو من فضلي عليكم، سـينزل علـيكم غضـبي. ومـن حـل عليه غضبي فقد هلك.

و اعلموا أني أنا الله الغفور الرحيم، إني لعظـيم المغفـرة لمـن تـاب مـن ذنبـه، وشـع الإيمان في عقله وروحه، وواصل الاستقامة في حياته.

بيان المعنى العام :

77 - ولقد أوحينا إلى موسى ...لا تخاف دركا ولا تخشى.

أنهى القرآن الحديث عن السحرة بما تقدم في الآيـات السـابقة، وانتقـل لعـرض قصـة أخرى، وقد فصل بين القصتين مدة زمنية وأحداث.

أوحى الله لموسى ﵇ وحيا مؤكدا بـأمره بـأن يجمـع بنـي إسـرائيل ، ويخـرج بهـم ليلا ، والليل ساتر لمن يسير فيه، مما يفيـد أنهـم لا يـأمنون أن يمـنعهم فرعـون مـن الخروج من مصر .و قد فصلت سورة الأعـراف نكـث فرعـون بعهـوده فكلمـا نزلـت آية فيها بلاء وعد بتخلية سبيلهم ، ثم ينقض وعده.

[1] سورة غافر آية29

سار موسى عليه السلام بقدم قومه إلى أن وصل إلى البحر، فأوحى الله إليه أن اجعل لبني إسرائيل طريقا يبسا وسط البحر، وضرب البحر بعصاه فانفرج الطريق لبني إسرائيل ومضوا سالكين ما بين الضفتين، وقد ذهب الوحل وكانت الطريق ممهدة يابسة لا مشقة على بني إسرائيل من قطعها. وكن واثقا من أن فرعون لا يستطيع أن يدركك قبل أن تبلغ الضفة المقابلة فلا تخف. وكن مطمئنا فإن البحر بعد انشقاقه لبني إسرائيل لا يلتئم من جديد فلا تخش الغرق.

78-79: فأتبعهم فرعون بجنوده...وما هدى.

لما فطن فرعون بخروج بني إسرائيل دون أن يأذن لهم، أسرع للالتحاق بهم وردهم للتسخير في مصر، وقد أعد العدة لذلك وجمع جيوشا لا يستطيع معها بنو إسرائيل أن ينفلتوا.

لحقهم بعد أن انفتح لهم البحر، وساروا في الطريق الممهد الذي هيأه الله لهم. ولما بصُر فرعون بالطريق سالكة في البحر، أمر جيوشه باتباعه والالتحاق ببني إسرائيل. فأطبق عليهم البحر، وغرقوا بعد أن بلغ موسى وقومه الضفة المقابلة ونجوا. وطفت جثث فرعون وجنده على سطح البحر. لقد دبر فرعون ورتب الأمور ظنا منه أنه سيمكن قومه من الطريق الصالح المحقق لهم بلوغ الغايات الرشيدة، ولكن تدبيره وصل بهم إلى الضياع واختلاط الأمور، وما هداهم إلى الطريق الأرشد المنجي في العاقبة. وكذب عليهم في قوله: (وما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد)[1]

80-يابني إسرائيل قد أنجيناكم .... المن والسلوى.

امتن الله على بني إسرائيل بعد أن أنجاهم من ملاحقة فرعون، إذ يسر لهم في إقامتهم الجديدة من نعمه وعنايته ضروبا متنوعة، فذكرهم ببعض منها. والتذكير بالنعم إيقاظ لداعية الاعتراف بالفضل، بما يتحتم أن يصحبها من الاستقامة والشكر. والتذكير بالنعم ينزع حجاب الغفلة الذي يغطي على النعمة بالتعود بها مما يُضعِف الإحساس بها. ومن ناحية أخرى فإن التذكير بنعم الله يشعر المنعم عليه بعناية الله به ورعايته له، وهو معنى عظيم يشع في النفس الاعتزاز ويملأها ثقة ويمكن من الاقتراب من المعبود المنعم.

توجه الخطاب بعد مدة من مجاوزتهم للبحر. فضمنه ما يلي:

1)تحققت لكم النجاة من طلب عدوكم فرعون، فعليكم أن تستحضروا الألطاف التي حفت بكم والعناية التي أيدتكم بها. فحررتكم من تسلط فرعون.

---

[1] سورة غافر اية 29

2) وعدتكم بإنزال الشريعة على رسولكم مفصلة للأحكام التي تؤلف بينكم، وتضمن إقامة الحق فيكم، وتفصل لكم المنهج الهادي في الحياة ببيان القيم الخلقية ، ووعدني موسى بالحضور في الموعد لتلقيها، فتمت المواعدة بين الله المنزل للشريعة، وموسى القابل لها. في المكان المخصص لها من سفح جبل الطور في جانبه الأيمن. وهو الجبل الذي آنس في عودته من مدين نورا، وتلقى فيه الوحي الأول، حسبما سبق في أول القصة.

3) كفيتكم أقواتكم بإنزال المن والسلوى كما تقدم في سورتي البقرة والأعراف.

4) أذن الله لهم بأن يأكلوا مما يعرض لهم من المن والسلوى، وهذه نعمة التحليل مدمج فيها أنه طعام طيب تستلذه الأذواق ولا تنفر منه. وأنه رزق من الله ساقه إليهم بدون جهد.

نحذركم من الطغيان في مقابلة النعم ، بالاستكبار والانفصال عن الله بعدم استحضار نسبة تلكم النعم لمسديها رب العالمين، وعدم شكره. ولتعلموا أن كفران النعم سيعرّضكم للعذاب، فينزل عليكم غضبي نزول الجيش القاهر المدمر.

ومن ينزل عليه غضب الله فقد هلك وخسر خسرانا لا قيامة له بعد. حالته كحالة من زلت به رجله من شاهق جبل فاندفع إلى الهاوية.

والله رحيم بعباده فبعد التحذير من المآل المرعب لمن كفر بنعمه أو نسيها، ينفث في قلوب البشر الأمل بأنه سبحانه يغفر ذنوب المذنبين إذا استيقظوا فندموا وأقلعوا تائبين، وأحيوا نور الإيمان في أرواحهم، الإيمان الفاعل الذي يتبعه القيام بصالح الأعمال، وفوق ذلك لزموا طريق الهداية ولم يرتدوا إلى ما كانوا عليه .

• وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿83﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿84﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿85﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿86﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿87﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿88﴾

بيان معاني الألفاظ :

أثري : لاحقون بي .

ملكنا : إرادتنا.

أوزارا : أثقالا.

من زينة القوم : ما اتخذ من الذهب والفضة للزينة.

فقذفناها : طرحناها في النار.

جسدا : صورة مجسمة لها ظل وليست نقشا.

الخوار : صوت العجل.

بيان المعنى الإجمالي :

سأل الله موسى عليه السلام سؤال لوم عن عجلتــه، بقدومــه قبــل وقــت الميعــاد، وتــرك بنــي إسرائيل وراءه. مع أنه كــان عليــه أن لا يتقــدم علــى الميعــاد ولا يتــأخر عنــه، وأن يصحب قومه حسبما أمر به. أجاب موســى أنــه وثــق مــن أن قومــه ســيتبعونه عــن قرب، وأن أشواقه لمناجاتك ربي حرّضتني علــى العجلــة ابتغــاء رضــوانك. أعلمــه الله أن عاقبة عجلته كانت فتنــة لقومــه، وأن الســامري أثــر فــيهم فــأخرجهم مــن طريــق الهدى إلى الضلالة .

رجع موسى مشحونا بالغضب على قومه، وبالحزن والألــم مــن صــنيعهم. توجــه إلــيهم معنفا، كاشفا لهم عن غبــائهم، ووالــى علــيهم الأسئلة المبــرزة لعظــيم مســؤوليتهم . ثلاثة أسئلة إنكارية محرجة لا جواب لهم عنها: هــل إن الله لــم يعــدكم أن ينــزل علــيكم شريعته الجامعة لأمركم، المبينة للمنهج الصالح في الحيــاة ؟ هــل مضــى علــيكم زمــن طويل تراخت فيه عزائمكم، أي إنكم ما زلتم حديثي عهــد بخــروجكم مــن مصــر ؟ هــل إنكم رضــيتم لأنفســكم أن ينــزل الله علــيكم غضــبه، فلــم تثبتــوا علــى العهــد الــذي وعدتموني بالحفاظ عليه؟

أجابوا جوابا لا يعدو أن يكون تنصلا من المســؤولية، فقــالوا: مــا أخلفنــا الوعــد الــذي التزمنا به بإرادتنا. ولكنا لما خرجنا من مصــر خــدعنا الأقبــاط واســتعرنا مــنهم حليــا، فقذفناها في النار التي أوقدها السامري . سهل لنا الأمر أنــه فعــل مثــل مــا فعلنــاه، ثــم إن السامري أتقن لهم صناعة شكل عجــل مــن الــذهب المصــهور فــي النــار بقوائمــه ورأسه وقرونه وجسده، ثم إنه رتب فــي تجاويفــه مــا جعلــه يصــوت ويخــور . فأقبــل عليه الدهماء، وقالوا هذا إلهكم وإلــه موســى، ولكنــه غفــل عنــه وذهــب إلــى الطــور يبحث عنه.

بيان المعنى العام :

83- وما أعجلك عن قومك يا موسى .

تغير الأسلوب في مفتتح هذه الآية، فبعد أن كانت المقاطع السابقة تسرد أجزاء من قصة موسى عليه السلام ، يتحول الأسلوب إلى افتتاح الجملة بالسؤال. ولما كان السؤال موجها من الله العليم بالخفايا، فإنه يتبع ذلك أن يكون غير مقصود به الإجابة عن المسؤول عنه. فالسؤال هنا هو سؤال لوم لموسى على استعجاله وحضوره إلى الطور قبل موعد المناجاة المحدد الذي سبق لنا في قوله تعالى: **وواعدناكم جانب الطور الأيمن**. والموعد هو لموسى ولبني إسرائيل، فموسى سبق قومه، وتركهم خلفه ليلحقوا به. ترتّب على عجلته أمران: أنه جاء قبل الوقت المحدد، وأنه لم يصحب قومه الذين أمر أن يحضروا معه. وفي هذا اللوم مع تغيير الأسلوب ما يلفت نظر التالي لقصة موسى للحكمة التربوية من هذه الحادثة. كان موسى عليه السلام حريصا على تلقي الشريعة التي وعدها ربه، ودفعه هذا الحرص إلى أن يترك بني إسرائيل ويسبق قبل الميعاد شوقا منه إلى المناجاة التي نعم بها في جانب الطور وهو عائد من مدين نعيمًا ملك عليه مشاعره، ولم ينعم بمثله، ولا بما يقاربه في جميع فترات حياته.

العبرة تبدو في تربية المؤمنين أن يضبطوا حياتهم بين العجلة المستجيبة للعواطف، والبطء المنبعث عن التراخي ووهن النفس. فالمناجاة لا تبرر العجلة التي لا يأخذ فيها العجول جميع الاحتياطات ويتروى في دقائق ما يمكن أن يترب على إسراعه .

84- قال هم أولاء على أثري...لترضى.

أجاب موسى عن الأمرين اللذين لم يرْعهما:

أما عدم انتظاري لقومي ليحضروا معي، فقد ظننت أن عزمهم على اللحاق بي كاف، إنهم قادمون على أثري، سيلحقون بي عن قرب كأن خطواتهم تقع على آثار خطواتي.

وأما حضوري قبل الميعاد، فإن ذلك مبالغة مني في الاجتهاد لأحصل على رضاك ربي.

85-قال فإنا قد فتنا...السامري.

عرفه الله بما ترتب على عجلته فقال: إنا أوقعنا قومك في الفتنة، التي سيأتي تفصيلها ، بعد أن تركتهم وحدهم دون أن تتحوط . فأخرجهم من الرشاد إلى الضلال . ومن عبادة الله إلى عبادة العجل الوثن.

ويفهم إسناد الفتنة إلى الله " **فتنا قومك**" أن بني إسرائيل عندما رأوا العجل يخور اختلفوا واقتنع معظمهم بأنه إله وعملوا على إقناع الرافضين ، فكانوا بين ثابت

على إيمانه وبين قابل لتضليل السامري، فكانــت الفتنــة مــنهم ولــم يسـعفهم الله بألطافــه لينفوا ما أضلهم به السامري ،تمكن السامري من التــأثير علــيهم بمــا صــنعه، وبالشــبه فأخرجهم من الرشاد إلى الضلال . ومن عبادة الله إلى عبادة العجل الوثن .

86 -فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا...فأخلفتم موعدي.

لما أعلمه الله بأن قومه قد فتنوا وضــلوا، أســرع إلــى قومــه ليجتــث الضــلالة التــي أفسدتهم. كان وضعه النفسي مقسّما بــين الغضــب ممــا انحرفــوا إليــه وأقــاموا عليــه، والغضب انفعال في النفس مزيج من الرفض والألم؛ وبــين الأســف وهــو مــزيج أيضــا من الحزن والانكسار .

بادر بني إسرائيل بتوبيخهم مناديا لهــم: بيــا قــومي، تشــنيعا علــيهم، لأن الأذى عنــدما يحصل من القريب يكون أبلغ إيلاما، وموجبا لشعور الملُــوم بقــبح مــا أقــدم عليــه. ثــم نفى أن يكون لهم أي مبرر للوقوع فيما انحرفوا إليــه. فســالهم ســؤالا توبيخيــا، هــل إن الله أهملكم ولم يعن بكم ولــم يعــدكم " الوعــد الحســن " أنــه ســينزل علــيكم الشــريعة الجامعة لكلمتكم الهادية لكم ؟ ثم زاد في تقريعهم ، كيف أقــدمتم علــى مــا أقــدمتم عليــه ألكم عذر ببعد العهد الذي عهده إليكم ، وطول الزمن الــذي يفصــل بــين كفــركم وبينــه، فتعتذرون بأن طول العهد أنساكم وتراخــت عــزائمكم ؟ أم تعلقــت إرادتكــم بــأن ينــزل الله عليكم غضبه ونقمتــه وعذابــه، فعملــتم علــى خــلاف مــا يقتضــيه الموعــد الــذي وعدتكم من إبلاغكم الشريعة؟ كل هذه الأســئلة يقصــد منهــا أن مــا وقعــوا فيــه مــن عبادة العجل غبــاء وارتــداد وفســاد وضــلال مبــين، لا يتصــور أن يقــوم بــه عاقــل حريص على نفع نفسه.

87 - قالوا ما أخلفنا موعدك...فكذلك ألقى السامري .

ألجأهم موسى ﷺ بأسئلته المحرجة التي ضيق بهــا علــيهم ، فحــاولوا الاعتــذار بعــذر بارد، مضمونه: أننا ما نقضنا ما التزمنا بــه بإرادتنــا واختيارنــا ، ومــا قصــدنا الوقــوع في الضلال، ولكن كنا حملنا معنا عند خروجنا من مصــر حليــا مــن معارفنــا الأقبــاط ، أوهمناهم أننا نستعيرها منهم لنردها علــيهم ، وســموها أوزارا لأنهــم يعلمــون أن فعلهــم هذا إثم ومنكر.

إذن كانوا يشعرون في باطنهم أن ما معهــم مــن الحلــي الــذي حصــلوا عليــه بخــداع الأقباط، هو حرام لا يحل لهم، وهذا ما ســهل علــيهم إلقــاءه فــي النــار التــي أوقــدها السامري ليتحول عن صورته الأولــى، مــع أن الســامري ألقــى حليــه أيضــا ليغــريهم باتباعه.

88-فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار...وإله موسى.

ثم إن السامري لمهارته في صياغة الحلي صور لهم من الحلي المذاب في النار عجلا أظهره مجسّدا بقوائمه في شكل جامع لخصائص العجول . ومن قدرته على التمويه ، رتب في صنع العجل من الحيل ما يجعل الهواء يدخل من مكان ويخرج من مكان آخر، فيحدث صوتا [خوارا] كأنه صوت عجل . وقد بينا هذا في سورة الأعراف آية 148-

يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: إن المصريين كانوا يعبدون العجل إيبيس، فلما رأى الإسرائيليون عجلا من ذهب، وهو يصوت كما يصوت العجول، استقر في عقولهم أنه هو الإله الذي يعبده موسى. ولذلك تنادى دهماؤهم بأن هذا هو الله الذي غفل عنه موسى، وذهب يبحث عنه في الطور، وها هو بين أيديكم .

أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

يرجع : يرد.

يملك : يستطيع.

عاكفين : ملازمين، وأصله الانحناء على الشيء من شدة الملازمة.

ترقب : تنتظر.

بيان المعنى الإجمالي :

ما أشد غباء الجمع من بني إسرائيل الذين عبدوا العجل، أفقدوا البصر فلم يروا أنه لا يتفاعل معهم في قليل ولا كثير، هو لا يسمع دعاءهم ولا يرد عليهم إن سألوه، وهو عاجز عن دفع ضر عنهم أو تحقيق رغبة لهم. ومع ذلك فإن هارون عليه السلام نبههم إلى أن السامري قد خلط عليهم وفتنهم بالعجل الذي صنعه. وحقق لهم هارون أن ربهم هو الرحمن الذي رحمهم فنجّاهم من تسلط فرعون، وأغرق

عدوهم، فاتركوا ما دعاكم إليه السامري واتبعوني، وأطيعوا ما آمركم به كما عهد إلي موسى قبل أن يذهب إلى المناجاة.

أجابوه بأنهم ارتبطوا بالعجل فهم مواصلون عبادته والالتزام بذلك إلى أن يعود لهم موسى.

استشاط موسى غضبا ورأى أن هارون قصر ولم يقم بالخلافة على الوجه الأمثل. فسأله أولا سؤال توبيخ مؤداه: أنه لا مانع يمنعك إذ رأيتهم صمموا على الضلال أن تتركهم وتلتحق بي، ولا تقعد مع القوم المشركين. مد موسى يده إلى لحية هارون وشعر رأسه معنفا. فقال له هارون يا ابن أمي مسترحما بتذكيره بأنه قد جمعهما رحم واحد ورضعا من لبان واحد، فك شعري من قبضتك، إني اجتهدت فخشيت أن أكون مسؤولا عندك إذا أنا تشددت مع بني إسرائيل، أن يفضي بهم تشددي إلى الفرقة واختلاف الكلمة بعد ما بذلته أنت من توحيدهم، وأن الواجب في هذه الأزمة أن لا أبادر باتخاذ القرار الحاسم. ولكن أنتظرك لترى رأيك.

بيان المعنى العام :

89 -أفلا يرون ألا يرجع...ضرا ولا نفعا.

تشهر هذه الآية بغبائهم، ويتوجه السؤال مظهرا للعجب. أعشوا فلا يرون ولا يبصرون أن هذا العجل ظاهر، أمام أعينهم، أنه فاقد للإدراك، لا يسمع منهم خطابا، وبالتالي هو لا يرد عليهم لا بالنطق ولا بالإنجاز لما يطلبونه منه. وهو أمامهم جسد لا يتحرك ، عاجز لا يستطيع أن يدفع عنهم ضرا ولا أن يغضب فيلحق بهم ألما، ولا أن ينفعهم بتحقيق رغبة من الرغبات المسؤولة. فعبادتهم لهذا الجماد على صورة العجل تنادي بغبائهم وتبلد عقولهم.

90←91ولقد قال لهم هارون ....حتى يرجع إلينا موسى.

لازموا عبادة العجل بالرغم من تيقنهم أنه لا يسمع ولا يتكلم ولا يستجيب لتوسلاتهم لا بدفع الضر ولا بتحقيق المرغوب، وبالرغم من أن هارون نبههم مصرحا بمجرد ما شاهدهم توجهوا للعجل معجبين به قائلين هذا هو إله موسى، هذا العجل ليس ربا ولكن السامري فتنكُم به ، وأدخل الاختلاف في صفوفكم ، وزين لكم عبادة عجل جسدٍ لا يتحرك ولا ينفع ولا يضر، وإن ربكم هو الرحمن الذي تتعلقون برحمته التي شاهدتم آثارها في إنجائكم من فرعون، وفيما رزقكم به في الصحراء .أعْرِضوا عن عبادة العجل واتبعوني لنلحق بموسى في الميعاد، أطيعوني ولا تعصوني كما أمركم موسى .

لم ينتفعوا بموعظة هارون، بل زادوا إصرارا على مواصلة عبادة العجل، وزادوا أنهم ملازمون لعجل الذهب ملازمة من ينحني على الشيء فلا ينصرف عنه لا بجسمه ولا ببصره، إلى أن يعود إليهم موسى.

92←93:قال يا هارون ما منعك...أفعصيت أمري.

بعد أن وبخ موسى بني إسرائيل على عبادتهم العجل، وسجل غباؤهم، وعصيانهم لهارون لما نهاهم، توجه موسى لأخيه هارون بلومه في صيغة سؤال إنكاري لموقفه الذي اتخذه في المشكلة فباشره ببيان الحقيقة والنهي عن الشرك. فقال له: ما الذي منعك من الالتحاق بي، واضطرك إلى أن لا تتبعني، بعد أن ظهر منهم الإصرار على اعتقاد الضلال والتمادي عليه؟ يشير موسى ﵇ أن لا مانع لهارون أن يتخذ موقفا مغايرا بتركهم والالتحاق بموسى ليخبره بما تحول إليه أمر القوم . وبالغ في الإنكار بإظهار صورة ما فعله في صورة العصيان لمّا أمره أن يكون خليفة له في قومه محافظا على ثباتهم على العقيدة التي تركهم عليها، قبل أن يذهب للمناجاة.

94- قال يا ابن أم لا تأخذ ...ولم ترقب قولي.

طوي هنا ما فصل في سورة الأعراف، من أن موسى اشتد على هارون وأخذه من شعر رأسه ومن لحيته يجره إليه. وتمت الإشارة بأن هارون استعطف أخاه موسى مناديا بالرحم التي جمعتهما، يا ابن أمي ، ولم يقل يا أخي ليحرك فيه عاطفة الوحدة في الولادة وفي الرضاع، وما يقتضيه ذلك من الرأفة والودّ لا الغلظة والعنف، طلب منه أن يخلي شعر رأسه ولحيته من يديه القويتين. واسترحمه بأنه اجتهد وأن اجتهاده أداه إلى أنه إن اشتد مع بني إسرائيل مع ما تبين له من إصرارهم وعنادهم، أن الشدة ستقضي بهم إلى التقاتل وانقسام الكلمة، وتذهب بالتالي الوحدة التي نجح فيها موسى، وجمع بني إسرائيل على كلمة واحدة. وأنه رجح أن ينتظره في تلك المشكلة ولا يكون مسؤولا عن عدم ترقب رأيه الفاصل.

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

ما خطبك : ما هو غرضك المكروه ؟
بصرت بما لم يبصروا : علمت ما لم يعلموا به.
قبضت : أطبقت أصابعي على ما أخذته في كفي.
التسويل : تزيين ما ليس بزين.
ظلت : داومت.
عاكفا : ملازما لعبادته.
لنحرقنه : نحرقه حرقا شديدا.
لننسفنه : تفريق مع إذراء .
اليم : البحر .

بيان المعنى الإجمالي :

توجه موسى إلى السامري مؤنبا ومقرعـا، مـا هـو قصـدك الخبيـث الـذي زيـن لـك القبيح فأقدمت على ما أقدمت ؟ أجاب السـامري معترفـا بحقيقـة مـا فعـل قـائلا: إنـي علمت ما لم يعلمه بنو إسرائيل من التقنيات التي صغت بهـا مـن الحلـي العجـل ورتبتـه بطريقة فنية، ومبالغة في التمويه عليهم شـاركت بقـذف مـا أملكـه مـن حلـي، وكـان منتهى ما عندي من الشريعة جزء قليل من آثار الرسـول، فتركتـه جانبـا ومضـيت فـي إضلال بني إسرائيل، وعلى هذا النحو اتبعت ما زينته لي نفسي.
عقّب موسى على اعترافات السامري بقوله :اذهـب طريـدا، وقـد قـرر الله لـك عقوبـة في الدنيا ، هي انفصالك عن الناس فـلا يقربونـك ولا تقـربهم وتتحامـاهم ويتحامونـك. وعقوبة في الأخرة هي الموعد الذي لا يتخلـف لتلقـى الخـزي والعـذاب جـزاءك يـوم القيامة. ثم أعلن أنه سيأخذ العجل ويحرقه أبلغ التحريق حتـى يتفتـت ثـم يـذرو أجـزاءه في البحر الأحمر إمعانا في إذلاله.
ثم توجه موسى إلى بني إسرائيل ليكونوا ذاكرين دومـا حقيقـة الألوهيـة ولا يقعـوا فيمـا وقعوا فيه من الفتنـة فقـال: لا إلـه لكـم يـا بنـي إسـرائيل إلا الله المتفـرد بالألوهيـة والكمال المطلق. وهو العليم بكل صغيرة وكبيرة ومـا تسـرونه ومـا تعلنونـه، فـاعلموا أنه يرقبكم، فأصلحوا عقيدتكم وأعمالكم .

بيان المعنى العام :

95←96- قال ما خطبك يا سامري...وكذلك سولت لي نفسي.

بعد أن سرح موسى هارون، ولعله قبل عذره. التفت إلى مـن كـان سـبب البليـة وهـو السامري ، الذي يشكك المفسرون في كونـه واحـدا مـن بنـي إسـرائيل، فتوجـه إليـه

قائلاً : ما خطبك يا سامري؟ ما الذي حملك على ما فعلت، وما هو قصدك السيء، والتعبير بما خطبك يطلق عادة في الشأن المكروه.
أجاب السامري بقوله: أدركت أمرا فعلمته ولم يتفطن له أحد غيري.
إن هذا الأمر الذي علمه ذهب فيه المفسرون إلى اتجاهين : أكثرهم ذهب إلى أن السامري، أراه الله جبريل راكبا فرسا فوطئت رجل فرسه مكانا فاخضر، فتفطن إلى أن موطئ فرسه يحيي الميت، فأخذ قبضة من أثر الحافر ، ونبذها في الحلي الذي صنع منه مجسّما على صورة العجل، فأصبح يصوت كما تخور العجول . وهذا التفسير حمل للتركيب على ما لا دليل عليه لا من السنة ولا من كتاب التوراة. والاتجاه الثاني لفريق من المفسرين ،حمْلُ الكلام كله على المجاز. فيكون المفهوم من الآية: أن السامري علم ما لم يعلمه بنو إسرائيل من الفنيات التي يصوغ بها عجلا يصوت. وأنه قد تلقى عن موسى علما قليلا" وهو أثر الرسول" لم يتعمق فيه ولم يبلغ اليقين الأيقن، فهو كمن قبض قبضة من شيء خارج عنه فلم تخالط كيانه. فنبذ معارفه تلك التي تلقاها من الرسول موسى ولم يعمل بها، وانخلع عنها إلى التحريض على الكفر وإحداث الشبه في عقول بني إسرائيل ، وعلى هذا النحو كنتُ مستجيبا لدواعي نفسي المضللة .

97-قال فاذهب فإن لك ...في اليم نسفا.

بمجرد ما أتم السامري جوابه الكاشف عن سوء قصده وعمله على إضلال بني إسرائيل ، صرفه صرف الأشياء الفاسدة التي لا يرجى لها صلاح، مع إهانة كقول القائل : اغرب عن وجهي فلا أراك . أي أنت أحط من تكون بمرأى مني. ثم صرح له بالعقوبة التي حلت عليه في الدنيا وفي الآخرة:
أما في الدنيا فإنه سيفقد خاصية الإنسانية التي هي فطرة التعلق بالمجتمع وحب الاندماج فيه والتواصل مع أفراده. عاقبه الله بأن أفسد فطرته فأصبح لا يطيق الاقتراب من أي كان، كلما لقي أحدا يقول له: ابتعد عني لا تمسني ولا أمسك، ولا تقترب مني، ولا أقترب منك. انقلبت حياته إلى حياة متوحشة، شأن الوحوش يفرون من الناس. فكانت عقوبته الدنيوية من جنس فساده، فكما كان يبغي أن يفرق بين بني إسرائيل ويدخل الشقاق فيهم ويصرفهم عن الإيمان الموحد لكلمتهم، عوقب بلفظ المجتمع له والفرقة الأبدية بينه وبين الناس .
وأما في الآخرة فأعلمه: إن الله قدر لك موعدا ثابتا ليس لك عنه محيد ،ولا تستطيع أن تتأخر عنه ولو لحظة ، هو موعد يوم البعث والجزاء سيحشرك وتلقى أنكى الجزاء بما أفسدت وأضللت. والله لا يخلف الميعاد.

وبعد أن أدب موسى هارون، وطرد السامري وعرفه بما سيلقاه من جزاء في الدنيا والآخرة. غير المنكر بيده وهو القوي الأمين، قائلا : إن إلهك، وليس له من سمات الألوهية إلا ما زعمته لنفسك، والذي عظمته وخدعت به بني إسرائيل لأذلنه بتحريقه كأبلغ ما يكون التحريق، فلا يبقى له جزء متصل بغيره ،ثم إمعانا في تحقيره لأذرو أجزاءه المفككة في البحر الأحمر. فلا يكون له مكان على وجه الأرض يعرف به.

98- إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شيء علما.

بعد أن أتم موسى عليه السلام تغيير المنكر، توجه إلى قومه ليثبت في عقولهم الحقيقة التي هي أصل الفلاح والنجاة. هي عقيدة التوحيد الخالص ليثبتوا عليها وتكون حاضرة واضحة في قلوبهم فقال: لا إله لكم إلا الله المتفرد بالوحدانية في ذاته وصفاته لا شريك له سبحانه، هو الكامل كمالا مطلقا المنزه عن النقص. وهو الذي تفرد بالعلم الشامل لكل شيء، لا يخفى عنه دقيق ولا جليل أحاط علمه بكل الكائنات. وبكل ما تسرُّونه في نفوسكم وما تعلنونه وتفعلونه ،فارقبوا ربكم رقابة تحصّنكم في عقيدتكم وفي أفعالكم ونواياكم .

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

أنباء : جمع نبأ وهو الخبر.

وزر : إثم.

حمل : محمول .

الصور : بوق ينفخ فيه لجمع الجيوش في الحرب .

أمثلهم طريقة : أقربهم للصواب .

بيان المعنى الإجمالي :

على هذا النحو من الصدق نقص عليك بعض أخبار الأمم الماضية. وما نقصه عليك يهدف إلى التأمل والتدبر في سنن الله في الاجتماع في هذا القرآن الذي أنزلناه عليك للتذكر. إن من أعرض عن القرآن فلم يتأمل في مضامينه فإنه سيأتي

يوم القيامة يئن تحت ثقل ما قدر له من العقوبة على إثم الإعراض، وسيخلد في العقاب. وما أقبح الحمل الذي حمله يتعب بحمل ثقل هو عذابه. يتحقق ذلك في اليوم الذي ينفخ فيه في الصور فيستجيب كل فرد من أفراد البشر إلى النداء، ويسرعون إلى أرض المحشر، وقد اختنقت أنفاس المجرمين المشركين فكست الزرقة أبدانهم. وهم في هذا الكرب يتهامسون بينهم: يقول بعضهم ما مر علينا من يوم موتنا إلا عشرة أيام. وسواء أخفي حديثهم أم أعلن فإني أنا الله أعلم بأقوالهم التي أسروها. وفريق آخر من المجرمين ظن أنه أفضل اهتداء، تأمل فقال: بين بعثنا وموتنا يوم واحد، لما تبين له أن صورته لم تتغير .

بيان المعنى العام :

99←101: وكذلك نقص عليك ...وساء لهم يوم القيامة حملا.

عقب القرآن عرض قصة موسى مع قومه بإظهار المنة، باطلاعه نبيه ﷺ على الأخبار التى طواها الزمن الماضى، فإنه على هذا النحو من الدقة والصدق نقص عليك يا محمد بعض أخبار الأمم الماضية. والأحوال التي مرت بها تلك الأمم. إن تلك القصص لا يقصد منها التلهية وتمضية الوقت، ولكن التبصر والاعتبار بسنن الله في الاجتماع ،والحال أنا قد آتيناك قرآنا صادرا منا، وكفاك بذلك ثقة به وتنويها بكماله ومنة عظيمة خصصنا بها المسلمين.

ثم حذر المشركين الذين أعرضوا عن التدبر في القرآن. بأن من أعرض عنه فإنه يلاقي المشقة من حمل عقاب الإثم الذي يلازمه ولا ينفك عنه إلى أبد الآبدين.

ثم علق على وضعهم وهم يئنون تحت ثقل الآثام :ما أسوأ ما يحملون .ذلك أن شأن العاقل أن يحمل ما يجد فيه فائدة عاجلة أو مترقبة، أما أن يحمل ما فيه هلاكه ويعاني ثقله فهو أسوأ ما يمكن أن يحمل في هذا اليوم الذي يتحقق فيه جزاء الأعمال . فلينتبه المعرضون عن القرآن إلى مآلهم.

102←104: يوم ينفخ في الصور ...إن لبثتم إلا يوما.

ما هو مآلهم، هو اليوم الذي ينفخ فيه في الصور. والنفخ في الصور هو تمثيل لأمر من أمور الآخرة قرب للأذهان بما يحدث عندما يلتقم الموكل بجمع الجيوش بوقا ينفخ فيه فيحدث عنه صوت عنيف يسمعه حتى البعيد، يفهم منه الجنود أن عليهم أن يلتحقوا سريعا بمواقعهم ويستجيبون. وهكذا يكون يوم القيامة ينبعث البشر فيخرجون سراعا إلى المحشر. إن أمور الآخرة تختلف عن طبيعة الحياة الدنيا

اختلافا كبيرا، ولكن يتم تقريب تلكم المفاهيم إلى تصورات البشر بما ألفوه في دنياهم.

في هذا اليوم العظيم الذي يستجيب فيه كل البشر الذين عاشوا على وجه الأرض لدعاء المنادي لهم بالحضور، وتنتشر فيهم الحياة من جديد، يلتقط القرآن في هذا المقام الصورة التي يكون عليها المجرمون: فالصورة العامة هي أن المجرمين يكونون زرقا. ذهب بعضهم إلى أن لونهم يكون أزرق وهو لون قبيح، وذهب بعضهم إلى أنهم زرق العيون، والعيون الزرق مكروهة عند العرب، وقيل المراد بالزرق العُمْيْ .والذي ترجح عندي أن المراد بالزرقة لون الإنسان عندما يختنق فيتغير لونه إلى زرقة، ويعاني من ذلك أشد العناء، فدل ذلك على أن الكرب يلازمهم في المحشر من حين خروجهم مختنقين يطلبون النفس فلا يجدونه . فناسب الوصف الثاني وهو أنهم يتحدثون فيما بينهم بصوت خفي، وهو صوت المختنق.

سجل القرآن الوضع الذي سيكونون عليه يوم القيامة زرقا يتحدثون هامسين، وما هو حديثهم ؟ يقول بعضهم لبعض إن الفارق الزمني بين موتنا وبعثنا لا يكون أكثر من عشرة أيام، بناء على العقيدة التي ماتوا عليها: أنه إذا تحللت أجسامهم وأصبحت هباء لا يمكن أن تعود. وهنا يدخل صوت الحق ليعلن أن كل ما ينطقون به سرا لا يخفى عن الله العليم. ويبرز القرآن في صورة تهكمية من يظن نفسه أدق في التقدير ورأيه أولى بالقبول: أنهم ما لبثوا إلا يوما، أي إن الزمن الفاصل بين موتهم ويوم بعثهم يوم واحد. وذلك لأنه وجد أن حالته الجسدية لم تتغير عن آخر يوم له في الحياة، ولذلك اعتقد ووثق أنه مات بالأمس وبعث اليوم.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

القاع : الأرض السهلة.

صفصفا : مستوية.

لا أمتا : لا نتوء فيها. وقد نسفت الروابي والجبال.

الداعي : هو إسرافيل الملك الموكل بدعاء الأموات للقيام من قبورهم أحياء.

الخشوع : الخضوع.

الهمس : الصوت الخفي.

عنت : خضعت ذليلة. والعاني يطلق على الأسير.

القيوم : القائم بتدبير الناس.

الهضم : النقص.

بيان المعنى الإجمالي :

تحير المشركون كيف يقضي الله على الكون بالفساد، مستبعدين أن تزول الجبال الشامخة فسألوا عن مصيرها ، فسألهم الله نبيه ﷺ ما قضى به، قل لهم :إن الله يفتتها تفتيتا فتنقلب أماكنها إلى أرض سهلة منبسطة، يمتد بصرك فلا تجد بعد زوالها منعرجا ولا مكانا مرتفعا.

يوم القيامة يسمع كل فرد من البشر دعوة الداعي فينجذب إلى مصدر الصوت مسرعا غير متردد، وقد خشع الجميع لله فلا تسمع منهم إلا صوتا خافتا لا يقوى على أرفع من ذلك. هم في يأس فلا ينتفعون بشفاعة شافع، ولا يتقدم أحد للشفاعة إلا من صدر له الإذن بذلك من الرحمن الذي يضع رحمته حسب حكمته، ويهدي الله الشافع للقول الذي يرضيه فيرتب عليه قبول شفاعته.

إن الله يجري الأمور على العدل الكامل، فهو يعلم ما قدمه كل فرد من الأعمال والأقوال، وما انطوت عليه النفوس والنوايا. وإذا كان الله قد أحاط علمه بكل ظاهر وخفي ، فإن البشر يقصر علمهم عن العلم بذات الله وبصفاته علما محيطا، إذ أن الله سبحانه أزلي أبدي. وعلم الإنسان محدود بحدود الزمان والمكان.

يبدو الكفرة المجرمون يوم القيامة أذلة خاضعين، تعلو وجوههم آثار ما تنطوي عليه بواطنهم من المهانة. وفي هذا اليوم تتحقق خسارة وخيبة من انطوى على الظلم والكفر.

و في المقابل تظهر السعادة والبشر على وجوه الذين عملوا الأعمال الصالحة، وصدرت فعالهم عن إيمان نقي وقصد طيب. إنهم لا يخشون يوم القيامة فقد جزاء صالح أعمالهم، ولا أن ينقص منها شي فهم يجدون أجرهم وافيا.

بيان المعنى العام :

105-107: ويسألونك عن الجبال ...ولا أمتا.

أنذر القرآن المشركين بالبعث بعد فناء العالم. وعظم في تصورهم الساذج فناء الجبال الراسية. خاصة ومكة يحيط بها الجبال. فهدى الله نبيه ﷺ ليجيبهم عن سؤالهم ذاك: إن قدرة الله الذي خلق تلك الجبال لا تعجز عن تفتيتها تفتيتا تتقلب به هباء. ويقلب أمكنتها إلى أرض سهلة مستوية وغير صخرية. أينما نظرت يمتد بك البصر إلى أبعد نقطة، إذ قد انبسطت انبساطا ليس معه منعرجات، ولا نتوءات، ولا أماكن مرتفعة.

108-يومئذ يتبعون الداعي ...فلا تسمع إلا همسا.

يواصل القرآن بيان هول يوم القيامة. فبعد أن صور فساد عناصر الكون القوية الشديدة كالجبال، أعقبه ببيان حال البشر في ذلك اليوم. إنه يوم شديد يقوم الملك الموكل بدعوة الناس إلى المحشر، فتبلغ دعوته كل فرد من الناس، وينتهي الاختيار الذي كان مناط التكليف، فكل سامع يأتي قسرا ودون تردد ،متجذبا إلى مصدر الصوت في خط مستقيم . وفي هذا المشهد الرهيب لا يقدر أي إنسان أن يصيح أو يرفع صوته، فمن الهول يهمسون بما ينطقون، لا تسمع إلا وشوشة ضعيفة حذرة خائفة.

109-يومئذ لا تنفع الشفاعة ...ورضي له قولا.

يظهر القرآن إثر ذلك صورة أخرى من هول يوم القيامة، بعد أن بين حالة الكون، وحالة الإنسان المسرع إلى إجابة الداعي، هذه الصورة هي أن شأن الإنسان إذا أحاط به البلاء وتبين له عجزه، أنه يبحث عن المساعد الذي يشد أزره ويسعده بالعون لينقذه من موقفه الصعب، فينفي القرآن أن يجد أحد من نفسه القدرة على التوسط بين الخلائق وبين الخالق، ليخفف عنهم ما يقاسونه. فنفى أن ينتفع أحد بالشفاعة على معنى أنها لا تقع. واستثنى حالة الشافع الذي لا يتقدم لذلك إلا بعد صدور الإذن له من الرحمن. أي إلا إذا اقتضت رحمته التخفيف بناء على بالغ حكمته. وقد ورد في السنة أن النبي ﷺ يسجد سجودا يطول فيأذن الله له في الشفاعة فيشفع .جعلني الله وإياكم من المفوزين بشفاعته ﷺ . والعلم الشامل ينبني عليه أن الشافع ملهم من فضل الله، فيتكلم بالكلام الذي يرضى الله عنه رضى يستجيب به للشفاعة ، والكل من فضله سبحانه.

110-يعلم ما بين أيديهم ...به علما.

وذلك من أثر العلم الذي أحاط بما هو ظاهر من الأقوال والأفعال التي حصلت من المشفوع لهم في الدنيا " ما بين أيديهم "، كما أنه سبحانه عليم بما انطوت عليه سرائرهم مما هو مخفى عن الناس " وما خلفهم "

وتعالى الله في عظمته وكمالــه أن يحـيط بــه علـم البشـر القاصـر المحـدود، إذ هـو سبحانه لا تحده حدود وليس لذاته ولا لصفاته بداية ولا نهاية.

111 -وعنت الوجوه ...من حمل ظلما.

ثم أعطى القرآن صورة تجمـع بـين الوضـع النفسـي والصـورة الظـاهرة للمجـرمين الكفرة، فهو تكميل لقوله تعالى: "ونحشر المجـرمين يومئـذ زرقـا" فـذكر أن وضـعهم وضع ذلة ومهانة، استقرت الذلـة فـي نفوسـهم وظهـرت علـى وجـوههم، وخضـعوا للحي الذي تؤكد هذه الصفة علمه الشامل الكامـل، واطلاعـه علـى الخفـي والظـاهر، القيوم القائم بتدبير أمـور الكـون والبشـر، فكـل شـيء يسـتمد منـه حقيقـة وجـوده وموجبات بقائه وما يصدر عنه.

ثم ختم القرآن العرض السابق بقاعدة لا تتخلف، عليهـا يجـري النظـام: أن مـن انطـوى على الظلم " إن الشرك لظلم عظيم " خاسر تلزمـه الخيبـة فـي المـآل، فـلا يجـد لمـا قدمه في حياته الدنيا أي أثر ينفعه .

112 - ومن يعمل من الصالحات ...ظلما ولا هضما.

وفي المقابل فإن من يعمل الأعمال الصـالحة، ولا تكـون صـالحة إلا إذا صـدرت عـن نفس تطهرت وسمت بالإيمان، وارتبطت بالنيـة الحسـنة والقصـد الخيـر، فليبشـر بـأن ما قدمه من صالح الأعمال لا يضـيع مـن جزائـه شـيء، فـلا يظلـم بإحبـاط صـالح أعماله . لا يخاف أن ينقص له من أجره الموعود ولو قليلا.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

التصريف : التفنين والتنويع .

يتقون : يخافون فيطيعون.

ذكرا : تدبرا.

بيان المعنى الإجمالي :

على هذا النحو من الإعجـاز أنزلنـا القـرآن بلغـة متميـزة فـي الدقـة وحسـن الأداء، ونوعنا فيه من ضروب الوعيد بالتحـذير تـارة، وبتجسـيم صـنوفه، وبعـرض المـثلات التي مضت، وبذكر ما تحدثه الذنوب من فساد فـي الفـرد وفـي المجتمـع ونحـو ذلـك.

رجاء أن يتعظوا فيقلعوا عن الكفر والشر، ويـؤثر فـيهم تـأثيرا يجعلهـم مقبلـين علـى الطاعة والتدبر. جل الله وسما عن كل نقـص، هـو الملـك الحـق، وكـل مـدع يحسـب نفسه ملكا مخدوع واهم ومتبع للباطل. إذ ملكـه سـبحانه هـو الملـك الكامـل لا يخـرج عنه شيء أزلي باق لا ينقطع سلطانه.

ورغم شدة حرصك على وعي ما أنزل إليك فـلا تعجـل بـه قبـل أن يـتم إبلاغـك مـا كلف جبريل بإنزاله إليك. وحرصك على الاسـتزادة مـن علـم القـران محمـود فـادع ربك أن يزيدك علما.

بيان المعنى العام :

113- وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا...أو يحدث لهم ذكرى.

نوه الله بعنايته بهذه الأمة، ومما تمثلت فيه العناية القصـص الحـق عـن الأمـم السـابقة ولفت الأنظار إلى سننه في الاجتماع للتذكر والاعتبار. فـي قولـه تعـالى: كـذلك نقـص عليك من أنباء ما قد سبق. وثنى في هـذه الآيـة بـإنزال القـران. وعلـى هـذا النحـو الملحوظ أنزلناه، فسما به البشر إلى منزلة قدسية عاليـة، حالـة كونـه يتلـى ويجـد فيـه القارئ سلاسة ويسرا ونظما عاليـا يغـذي العقـل والـروح والـذوق. وتخيرنـا لحمـل مضمونه اللسان العربي، أقدر الألسنة على تحمل الـوحي فيؤديـه مـن غيـر نقـص ولا اختلال . وقد مضى على إنزاله اليوم أكثر من أربعة عشر قرنـا ومـا يـزال فـي جمـال أسلوبه ودقة بيانه وغزارة أبعاده يتحـدى البشـرية، ومـن موجبـات إعجـازه مـا فـي العربية من أسرار ارتقت بها لتكون أمينة على الشريعة الخاتمة.

ونوعنا في طرق التأثير بالوعيد لا لتيئيس البشـر، ولا لسـحق عـزتهم، ولكـن ليكونـوا على رجاء أن يصلح بواطنهم، ويقوي في نفوسهم داعيـة الخيـر والعمـل بـه ،ويجلـبهم للطاعة ، ويحرك عقولهم للتذكر فينقيها من البلادة والعجـز، بـل تكـون متحفـزة للتأمـل والتدبر.

114- فتعالى الله الملك الحق ...وقل رب زدني علما.

وقفة للتأمل فيما ساقته الآية من مـتن، دالـة علـى الإعجـاب بمـا أفضـت إليـه فـي النهاية من تحريك الطاقات الفكرية التأمليـة. أبـرزت ذلـك فـي الإعـلان عـن الثنـاء على منزل القرآن بما تبعه، تقدس وسما منـزل القـرآن الله الملـك الحـق ، ومـا يسـمى به غيره من الملوك، هو زيف لا حقيقة لـه، ذلـك أن مـن يلقـب نفسـه بالملـك هـو ناقص عاجز فان ، ملكه موقت بزمن ينفصل عنـه شـاء أم أبـى. وملـك الله ملـك دائـم لا ينقطع.

وإذا كان القرآن بتلك المنزلة التي نـوه الله بهـا، فـإن إحسـاس النبـي صـلى الله عليـه وسلم بتلك الخصائص، وتشبعه من أسرارها ، جعله شـديد الحـرص علـى تقبـل إنـزال أكثر منه، والتعجيل بـه . فأرشـده ربـه إلـى التريـث وعـدم سـؤال تعجيـل الآيـات القرآنية. فإن الله أحكم تفريق تنزيل آيات القرآن.

كما يحتمل معنى الآية أن النبي ﷺ كان شديد الحرص على حفـظ مـا يصـل إليـه مـن الوحي ،فيعجل في تلاوة ما سمعه من جبريـل وتـرداده تثبيتـا للحفـظ، وتحصـينا مـن النسيان، فأرشده ربه أن يتريث ولا يسـرع بالإعـادة قبـل أن ينهـي جبريـل إلقـاء مـا أمر بتبليغه. والله قد ضمن حفظ القرآن قال تعـالى: (لا تحـرك بـه لسـانك لتعجـل بـه إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه) [1].

ولما كان الدافع للنبي ﷺ التعلق الشديد بما ينزل عليه مـن القـرآن، ونهـاه عـن العجلـة، فرق القرآن بين استعجال الوحي، وبين حب الزيـادة مـن العلـم الـذي يتحقـق بـالقرآن، فأكد له رضاه عن ذلك الحرص، بقوله وقـل رب زدنـي علمـا. فالزيـادة مـن القـرآن محمودة، بل هي الخير كله.

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

العزم : الجزم وعدم التردد.

تضحى : مضارع ضحي، أصابه حر الشمس.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد عهدنا لآدم أن يحتاط ولا يأكـل مـن الشـجرة. وكـان هـذا العهـد أول عهـد ألزم به الله واحدا من البشر. ولكن آدم لم يحرص على تـذكر العهـد حتـى نسـيه وفقـد العزم الكابح له عن عدم مراعاة العهد.

---

[1] سورة القيامة آية19/16

واذكر إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم تكريما له بعد أن ظهرت مزاياه وقدراته العلمية، واستجاب الملائكة فسجدوا تنفيذا للأمر وعبادة لله. وكان إبليس مطالبا بالسجود فامتنع وعصى الله.

قال الله لآدم : احذر، إن هذا الشيطان مصمم على عداوتك وعداوة زوجك ، قد امتلأ حسدا لكما، وهو يسعى للكيد لكما فتنبها حتى لا يصل إلى إخراجكما من الجنة فتذوق الشقاء بعد النعيم. لقد جمعت لك في الجنة ضروب النعيم والهناء. لا تحس بالجوع ولا حاجة بك إلى اللباس، ولا تحس بالعطش ولا بحر الشمس.

بيان المعنى العام :

115- ولقد عهدنا إلى آدم ....ولم نجد له عزما.

مع التحقيق الأكمل سبق أن عهدنا إلى آدم عهدا موثقا، يقتضي أن لا يأكل من الشجرة. كان هذا الالتزام من آدم أول العهود التي أخذها الله على البشر. ولكن آدم ضعف عن تحمل تذكر العهد والوفاء به إلى غاية مداه. ذلك أن من عهد إليه بشيء ليوفي به، فإنه تبعا لتداخل مشاغله وتعددها قد يذهب ما عهد إليه به من مقدمة الاهتمام، ثم لا يزال يتراجع وينزل إلى أن تغمه اللواحق ويسقط في بؤرة النسيان. ولا يبقى على اليقظة له إلا عزم على الوفاء يتجدد، ويطرد دواعي النسيان التي بيّناها. فآدم ﷺ ضعف عزمه عن تجديد تذكر العهد. فبدا كأنه لا عزم له حسبما تفيده الآية، ولم نجد له عزما، إذ لو كان له عزم لوُجد.

وفي هذا المقطع تنبيه للمؤمنين حتى لا تتراخى عزائمهم بالغفلة وعدم تذكر ما التزموا به لما دخلوا في دين الله وعاهدوا الله على تطبيق شرعه.

116- وإذ قلنا للملائكة اسجدوا...إلا إبليس أبى :

مفاد الآية تقدم نظيره في سورتي البقرة والأعراف . وخلاصة ما تدل عليه الآية: اذكر ما تم عندما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم. على معنى التحية، مع تخصيص الله بالخضوع، لأنه هو الذي طلب منهم السجود فتنفيذه تطبيق للأمر الإلهي إكراما لآدم لا عبادة له. وأن الملائكة استجابوا، وامتنع إبليس من السجود مع أنه كان داخلا في الأمر .

117 -119، فقلنا يا آدم اسكن ....ولا تضحى .

كشف الله خبث إبليس لآدم ونبهه بندائه " يا آدم" اعلم علما مؤكدا أن هذا الحقير " إبليس " قد أضمر العداوة لك ولزوجك. إنه حسدكما لما رأى الملائكة كلهم يحيونك ويسجدون عند إتمام خلقك وتعليمك، وعلى ما قدرته لكما من الاقتدار على الانفلات

من الجانب المادي والسمو إلـــى آفـــاق المعرفـــة وكشـــف أســـرار الكـــون. إنهـــا عـــداوة مستحكمة تجعله يمحض كل مكره وحيله ليفسد عليكمـــا حياتكمـــا ويخرجكمـــا مـــن الجنـــة التي مكنتكما من سكناها والتنعم بما احتوته من خيـــرات دانيـــة، وحصـــنتكما مـــن أتعـــاب الحياة فيها. إياكما أن تركنا له وتستجيبان لمـــا يزينـــه لكمـــا. إن طاعتكمـــا لـــه تخرجـــان بها من الجنة، ولا يتبع ذلك إلا شقاؤك.

ثم عدد عليه النعم التي يسرها له فـــي الجنـــة، علـــى معنـــى أنـــه بخروجـــه مـــن الجنـــة سيفقدها، فهو تحليل لقوله: فتشقى. أنه قد كفـــي فـــي الجنـــة مطالـــب حياتـــه الجسـمية، فهو لا يشعر بالجوع وبالتالي فـــلا حاجـــة إلـــى إعـــداد طعامـــه، وهـــو مســـتور ســـترا جميلا، فلا يسعى ولا يفكر في لبـــاس واق أو مـــزين. ويجـــري الـــري فـــي كيانـــه فـــلا يشعر بالعطش أبدا. وجو الجنـــة منســـجم معـــه انســـجاما كـــاملا ينتفـــع بـــالنور دون أن يتأذى بوهج الشمس زمن الضحى وما يتلوه. وهـــو يشـــير أيضـــا إلـــى توافـــق تـــام بـــين وضعه الجسدي والجو في الجنة كمســـتوى الضـــغط، والنـــور ومقـــدار انتشـــاره، وقـــوة الأصوات إلى آخره، مما يجعل حياته في الجنـــة الحيـــاة الســـعيدة التـــي لا يجـــري معهـــا في تفكيره أي مطلب من المطلب .

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (122) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (126) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (127)

بيان معاني الألفاظ :

يخصفان : يلفقان بضم بعض الورق إلى بعض.

غوى : الغواية ضد الرشد، فهي عمل فاسد أو اعتقاد باطل.

اجتباه : اصطفاه.

هدى : أرشده إلى ما فيه نفعه.

ضنك : الضنك الضيق النكد الشاق.

أسرف: ضل في اعتقاده.

بيان المعنى الإجمالي :

ثم ما حذر الله منه آدم، فإبليس لتمكن عداوته لـه، أتاه من مأتى خفي فألقى في تفكيره حب الأكل من الشجرة ، وشوقه بتحريك غريزة حب البقاء، فأغراه بالأكل لأن هذه الشجرة تضمن له البقاء السرمدي ولا يفنى، وبغريزة حب التملك، على أن من أكل منها يحصل له الملك الأبدي الذي لا يفنى. تراخت عزيمة آدم وأكل مع زوجه من الشجرة فتعريا في الحين مما كان يستر بدنيهما، والتجأ إلى أوراق الشجري يلفقان منها ما يغطي بدنهما. وبذلك عصى ادم ربه، وقام بعمل فاسد سيقاسي نتائجه. ثم إن الله قبل توبته وتوسلاته فتاب عليه وغفر له ذنبه وهداه إلى العمل الذي يرضى به عنه. وقال الله للثلاثة آدم وحواء وإبليس ليس لكم مكان في الجنة، انزلوا إلى الأرض، والعداوة مستحكمة بين إبليس وذريته وبين آدم وذريته. وتوجه إلى ادم وذريته أنه إن جاءكم مني هدى، فإن من اتبع هداي والتزم بالمنهج الذي تلقاه عن المرسلين، أمن ولا يقع في الضلال وبالتالي يكون سعيدا. وأما من أعرض عن الهدى الذي بلغه، فإن حياته في الدنيا ستكون حياة نكدة عسيرة، وسيبتلى يوم القيامة بفقدان بصره فيحشر أعمى يتخبط ويتعثر. ومن شدة البلاء يسأل الله قائلا: لقد كان نظري في حياتي سليما فلماذا أفقدتني بصري اليوم؟ إمعانا في إذلاله يتلقى الجواب: كذلك حشرتك أعمى لأني مكنتك من آياتي الهادية فأعرضت عنها، وجعلتها نسيا منسيا لا دخل لها في تخطيط حياتك. فعوملت اليوم بحرمانك كذلك من بصرك.

ولتحذروا أيها المستمعون للقرآن فإننا نجزي على هذا النحو من كفر ولم يؤمن بآيات ربه. وإن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا لأنه لا يهدأ ولو لحظة، وهو عذاب موصول أبدي لا ينقطع.

بيان المعنى العام :

120 -فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم ...و ملك لا يبلى.

تمكن إبليس من أن يلقي في فكر آدم ما هيأه من الكيد له، وكان حاصل الكلام الخفي الذي أحس به آدم واقتنع به: أحس بنداء في باطنه يقول له:" يا آدم " أعرض عليك أن أعرفك على شجرة عجيبة ، من أكل منها حقق لنفسه الخلود

المرفه ،وذلك بتحقق الملك الأبـدي الـذي لا ينتـزع منـه. واقتنـع آدم بـذلك، وكانـت دوافعه الفطرية نومت حـذره. أتـاه الشـيطان أولا: مـن جانـب غريـزة حـب البقـاء فتأثر، وصادفت وسوسته رغبة فطرية في الجـنس البشـري؛ وثانيـا مـن غريـزة حـب التملك كذلك. ويبدو أن إبليس اختار أن يوسـوس لآدم، تبعـا لشـدة خبثـه إذ قـدر أن آدم إذا انصاع لوسوسته فإن زوجه ستتبعه على سنة الحياة البشرية.

121-فأكلا منها فبدت....وعصى آدم ربه فغوى.

تبعا للوضع الذي تحول إليه من الشوق الفطري للأكـل مـن الشـجرة التـي دلـه عليهـا إبليس ، تقدم مع زوجه وأكلا من الشجرة. وبمجرد مـا أكـلا تعريـا وذهـب مـا كـان يستر جسميهما، وافتضحا بالعري، فعملا علـى سـتر مـا يمكنهمـا سـتره بـورق مـن أغصان الشجر. وبذلك تحقق عصيان آدم لربه الـذي نهـاه عـن الأكـل مـن الشـجرة. وعصيان الله ليس بالأمر الهين، فتبعه أن اعتبر آدم غاويـا مخالفـا لمـا أمـر بـه غيـر متحصن من الزيغ عن اتباع طريق الرشد.

و لما كان آدم وهو في الجنة خارجا عـن عـالم التكليـف، فإنـه لـم يكـن يومهـا نبيـا وليست له عصمة. فلا دليل في الآية على عدم عصمة الأنبياء ولا على العكس.

122-ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى.

طوت القصة خروجهما من الجنة، وتوسـلات آدم التـي تلقاهـا مـن ربـه ممـا بينتـه سورة البقرة، وإشارة إلى تلك المرحلة عطفت الآية بكلمـة " ثـم " الدالـة علـى التراخـي والفصل بين ما قبلها وما بعدها. ثـم إن الله بفضـله ورحمتـه، اصـطفاه فحمّلـه شـرف النبوة وهداه إلى ما فيه الخير له ولذريته من التوحيد وما يتصل به.

123- قال اهبطا منها ...فلا يضل ولا يشقى.

صدر الأمر الذي لا رجوع فيـه لآدم ولإبلـيس: انـزلا مـن الجنـة جميعـا لا يتخلـف أحدكما عن انطباق الأمر عليـه، فقـد جعلـت الأرض محـلا لإقامتكمـا. وتتبـع حـواء زوجها في الهبوط. ومع هبوطكما من الجنـة فقـد تأكـدت عـداوة كـل منكمـا للآخـر. ويشير قوله تعالى بعضكم لبعض عدو، إلى أن العداوة سـارية فيمـا تناسـل منهمـا ولـذا جمع الضمير " بعضكم"

وواصل مبينا التحول الكبير الذي حصل فـي حيـاة آدم وحـواء، وفـي حيـاة ذريتهمـا، أصبحوا في عالم اختلط فيه الخير بالشـر والصـلاح بالفسـاد، مكلفـين مسـؤولين عـن كل عمل يعملونه، لا غنى لهم عن العـون بالهدايـة المبينـة لطـرق الرشـد والصـلاح التي تأتيهم مني أنا الله العليم بالغايات القريبـة والبعيـدة ، ومـا يجلـب للإنسـان الخيـر

وما يوقعه في الشر. وأنهم مطالبون باتباع ما يتلقونه من رسل الله، حتى يحصنوا أنفسهم من الوقوع في الضلالة، التي يتبعها الشقاء ولا بد، كالوقوع في التناقض بين الحقيقة التي يسلم بها وبين بعض الأفعال التي يقوم بها. بيان ذلك: أن الفصل بين الحياة وبين موجدها يؤول بالإنسان إلى التأثر بهواه وغرائزه في اختياراته، وهو المختار، دون شعور منه، والغرائز والهوى والشهوات تضرب بحجاب على العقل في بعض الأوقات على الأقل، وتحول بين نوره ولماع بريقه وبين النظر المستجيب لطبيعة الحق ولذلك لا تكاد تجد عبقريا من عباقرة العالم، وأشدهم ذكاء ونباهة، إذا لم يتحصن بالإيمان الحق، لا تجد سلوكه الخاص إلا ملوثا بسقطات وانحرافات قبيحة. وضلالات تشقيه حتما في آخرته وقد تشقيه في دنياه .

124- ومن أعرض عن ذكري...يوم القيامة أعمى .

وبالمقابل فإن من أعرض عن الذكر الذي أنزلته، ولم يلق له بالا، وواصل حياته معرضا عما جاء به المرسلون، فإن الخسارة تلحق به أولا. ستكون حياته ضيقة مضروبة بالعسر. ذلك أن همه منحصر في الرفاه المادي. وكلما تعلق الإنسان بالمادة ضيقت عليه الخناق واستعبدته. فهو في ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله، وضنك القلق والحيرة، فلا هو يدري من أين أتى ولا إلى أين يسير، وليس له في الشدة من ولي يرقب منه العون ولا نصير يأمل أن يأتيه منه الفرج. ويتواصل معه الحرمان يوم القيامة فيحشر أعمى لا يبصر شيئا، يتخبط وينساق إلى مصيره كما يساق من سينفذ فيه حكم الإعدام معصوب العينين إلى سوء مصيره.

125 -قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا.

يتوجه الأعمى لإعراضه عن النظر فيما أتى به الرسل، إلى ربه متوسلا: رب لما ذا أفقدتني حاسة النظر، مع أن بصري كان سليما في الدنيا. وشأن الإنسان أن تخف مصيبته إذا علم سببها، إذ معرفة السبب تعطيه الأمل بزوالها إذا ذهب السبب. ويأتي الجواب الذي يفرغ في قلبه شحنة اليأس من ناحية ، ويزيده كمدا بتحميله المسؤولية، فهو السبب، فيقول الله له: كنت ممكنا في الدنيا من النظر في آياتنا فأعرضت عنها إعراض الناسي لها ، وعلى ذلك النحو تنسى اليوم وتحرم فلا تجد طاقة بصرك. وهو جزاء من نوع الجريمة. فالجريمة عدم النظر في الدنيا والجزاء عدم البصر في الأخرة.

126 -←127 قال كذلك أتتك آياتنا ...ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

كما سلطنا على من أعرض عن ذكرنا الحرمان في الدنيا من سعة العيش وطمأنينة الضمير، نجزي من كابر في آياتنا وكفر، المهانة والحرمان من رحمتي

يوم القيامة. وإن عذاب الآخرة أشد لكونه لا يهدأ ولا يسكن ألمه، ومع شدته هو مستمر لا ينقطع.

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (128) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (129) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (130) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (131) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (132)

بيان معاني الألفاظ:

أفلم يهد لهم: أفلم يبين لهم فيرشدهم.

النهى : العقل .

الكلمة : التقدير السابق في مسيرة الكون.

لزاما : لازما.

مسمى : محددا.

آناء الليل : ساعاته.

ترضى : تثاب وتعطى ما يرضيك.

مد العينين : إطالة النظر.

زهرة الحياة : زينة مباهج الحياة وجمالها.

اصطبر : انحبس، أكثر من النوافل .

لا نسألك : ما كلفناك.

بيان المعنى الإجمالي :

عجب من هؤلاء المشركين يقيمون على الشرك مع أن الله بين لهم بيانا واضحا، عاقبة الذين أشركوا بالله كيف دمرهم، إنهم يمشون في الديار التي كانوا يسكنونها، يشاهدون أنه لم يبق من حضارتهم إلا آثار تنادي من له عقل أن يعتبر بمآلهم. إن الله لم يعجل بإهلاك المكذبين الكائدين للإسلام إلا لأنه سبحانه لا يعجل بالعقوبة، ولكنه تبعا لعلمه وحكمته يدمر في الوقت المناسب من قدر إهلاكه، ويستبقي من سيكون قوة للدين .

تدرع بالصبر فسيظهر الله أمره، ولا تكترث بأقوالهم الفاسدة والمؤذية، وتقو بالإقبال على الصلاة قبل طلوع الشمس "صلاة الصبح" وقبل الغروب "صلاة الظهر والعصر" وأوقاتا من الليل "صلاة المغرب والعشاء" وكن متذكرا ربك مسبحا بحمده في ساعات النهار. لا يشغلك العمل عن التسبيح. فإنك ترجو بذلك أن يحصل لك الرضا النفسي والسعادة. ولا يعجبك ما رزقوه من نعم فتديم تثبيت بصرك فيها، فما تلك النعم إلا زهرة الحياة الدنيا، والزهرة وإن كانت جميلة إلا أنها سريعة الذبول، يفتن الكفار بها فتنة تذهب بهنائهم وتؤكد شقاءهم. فبإعراضهم عن شكر الله سلبوا من النعمة حقيقتها. وأما المؤمنون فرزقهم مرتبط بالله بواسطة الشكر والاعتراف بفضل مسديه، رزق ربك، يصحبه الأمن والطمأنينة والرضا، فهو خير، وسينضم لنعيم الدنيا فيه ثواب الآخرة على الشكر وعلى الكسب الحلال. وفي الختام يأتي الأمر بما يجعل جو بيت النبوة كله صلاح وعبادة لله، فيأمر نبيه أن يحرص على من يقيم معه ليقيموا الصلاة، وأن يكثر من التنفل. واعلم أنا لا نطلب منك رزقا كما يفعل الجباة الذين يجمعون الأموال للرؤساء والقادة. إنني أنا الغني أرزقك ما يكفيك، والخاتمة الصالحة هي خاصة بأهل التقوى، يستوي في ذلك حالهم في الدنيا بالطمأنينة والرضا، وحالهم في الآخرة بالفوز بجميع أنواع النعيم.

بيان المعنى العام :

128 -أفلم يهد لهم كم أهلكنا... لآيات لأولي النهى.

استفهام تعجبي من إقفال المشركين عقولهم عن الاعتبار بما يشاهدونه من آثار الأمم السابقة. فالتقدير أفلم يبين الله لهم من العبر ما ينتبهون به إلى عاقبة الذين يكذبون رسل الله. إذ يمر العرب في رحلتهم إلى اليمن على مساكن عاد، ويمرون في رحلتهم الشامية على ديار ثمود. وهي مساكن أقوام كانت لهم حضارة وقوة، وأرسل إليهم رسله لما انحرفوا وكفروا بالله، وحكموا في علاقاتهم أهواءهم. فلم يرتدعوا وعصوا الرسل، وتحدوا كما سبق في تفصيل عصيانهم وتمردهم، فسلط الله عليهم العقاب الذي دمرهم به، وأبقى آثارهم عبرة. إن في تلك الآثار وما بسطه القرآن من مواقفهم وأحوالهم وأنواع عذابهم ما يقوم منه شواهد على سنة الله في الذين يرفضون الحق ويستكبرون. يتعظ بها أصحاب العقول التي تتأمل فتحصن نفسها من عواقب السوء. والآية تشير إلى أن المشركين كأنهم لا عقول لهم. إذ العقل الذي يغفل عن الشواهد المعروضة أمامه، ويمر مع ذلك كأنها غير موجودة عقل كالعدم.

129-ولولا كلمة سبقت ...وأجل مسمى.

هون الله على نبيه إعراض قـريش، ومواصـلة صـدهم النـاس عـن الإسـلام، ببيـان هوانهم على الله، وأنهم في قبضـته تنفـذ فـيهم أحكامـه متـى أراد. وعرفـه أن العـالم يسير حسب حكمته وتقديره الذي سبق في علمـه، وعلمـه سـبحانه لا يتـأثر بـالظروف، ولكنه يمضي بما تتحقق معه الحكمة الأزليـة التـي لا تظهـر فتـدرك إلا فـي ميعـاد ظهورها ، فهو يمهل لحكمة في الإمهـال ، وينجـز لحكمـة فـي الإنجـاز. ولـولا ذلـك لسلط العذاب عليهم بمجرد ما يؤذونك ويعترضـون مـد الـدين. وفعـلا فـإن الله أمهـل قريشا، ولم يعاجلهم جميعا بالعقوبة، بل ميز بين الذين علـم أنهـم مصـرون علـى الكفـر ولو جاءتهم كل آية، فلقوا مصارعهم في غزوة بدر وهـو الأجـل المسـمى الـذي عينـه. وأمهل فريقا آخر فكان منهم المؤمنون الصـالحون والقـادة الـذين فـتح الله علـى أيـديهم أقطار الأرض ونشروا الإسلام وبذلوا في سبيله أرواحهم.

هذا هو الفهم الذي رجحـه كثيـر مـن المفسـرين . وذهـب بعضـهم إلـى أن الأجـل المسمى هو الموت الذي يلقى فيه المصر علـى الكفـر أول مراحـل العـذاب الـذي قـدر له. وحمله بعضهم على أنه يوم القيامة.

130- فاصبر على ما يقولون ....لعلك ترضى.

لاشك أن النبي ﷺ يتأثر بما ينشره المشركون مـن تحريـف الحقيقـة، وإذايـة المسـلمين، والإشاعات المختلقـة، وصـور كثيـرة مـن الوقاحـة، فأرشـد الله نبيـه إلـى التحلـي بالصبر، صبر من يثق بأن العاقبة له، وأن ربـه مؤيـد لـه لا يتركـه. ولا يحزنـك مـا يقولون ويتقولون ، والتجئ لتقوية عزيمتك ولتجد الطمأنينـة وتفـتح لـك أنـوار الأمـل ، إلى التسبيح بحمد ربك، التسبيح الشامل لقول: سبحان الله، وللصلاة.

ذكرت الآية الأوقات التالية:

1) قبل طلوع الشمس: وهو وقت صـلاة الصـبح. وهـو أول اليـوم يفتتحـه المـؤمن بالتوجه إلى الله وتجديد الصلة به، وشحن روحه بطاقات نورانية تؤيده.

2) قبل غروب الشمس: وهـو يشـمل صـلاة الظهـر وصـلاة العصـر فكلتاهمـا فـي النصف التالي لـزوال الشـمس عـن كبـد السـماء. فيحصـن روحـه مـن أن يكـون لمشاغل الحياة سلطان عليها، ويطرد بعض الغبش الذي علق بها.

3) ومن آناء: جمع إني وهـو سـاعات الليـل، الشـاملة لصـلاتي المغـرب والعشـاء، وبذلك يكون المؤمن كلما أوغل في الحياة ومشـاغلها، يقـوم نـداء الصـلاة فـي باطنـه يحيى قيم الإيمان والشريعة والاستقامة في نفسـه، فتجـده بواسـطة الصـلاة علـى ذكـر دائم بالله. وهذا ما فسرته السنة النبوية .

4) وأطراف النهار: لقد تم بما حمل عليه المقصود من الفاظ الثلاثة استيعاب أوقات الصلوات الخمس، ويقوم سؤال إثر ذلك، وهو على ما ينبغي أن يحمل قوله تعالى: وأطراف النهار ؟

حمله كثير من المفسرين على أنه تأكيد للحث على صلاة الظهر باعتبار أن قوس الشمس يبلغ نصفه عند الزوال ، فيكون عند الميلان ممثلا لطرفين طرف سابق وطرف لا حق فاستعمل المثنى استعمال الجمع " أطراف النهار" والتمحل على هذا التخريج باد.

الذي اطمأننت إليه هو ما ذكره ابن الكلبي : أطراف النهار :ساعاته.[1] ويكون النص القرآني قد شمل الصلوات الخمس أولا، ثم أرشد إلى تسبيح الله تسبيحا مكررا في ساعات النهار.

وتختم الآية " لعلك ترضى" خطابا للنبي ﷺ : وبذلك ترجو أن يحصل لك الرضا النفسي والأمن الروحي والسعادة الكبرى . وهذا الختام فيه تصريح بقوة تعلق النبي ﷺ بربه وبالصلاة، فروحه لا تبلغ أقصى تنعمها بالروح والريحان ويكتمل لها الرضا إلا بالصلاة. وقد قال ﷺ: وجعلت قرة عيني في الصلاة. رواه النسائي والحاكم والبيهقي (قال بعض الصالحين: ما أخاف من الموت إلا من حيث أنه يحول بيني وبين قيام الليل، اللهم ارزقني قوة الصلاة في القبر .[2]

131-ولا تمدن عينيك ... ورزق ربك خير وأبقى.

يوالي القرآن عنايته برسول الله فيرشده بما يثبته على المنهج الذي ارتضاه في حياته ، فليس الإرشاد في هذه الآية للفت نظره إلى أمر جديد، لكن ليواصل ﷺ ما التزمه ، وليكون نصا يعود إليه المؤمنون باعتبار أنه كمال سار عليه رسولهم وأرشد إلى متابعته. وحاصل ذلك: يا محمد لا يتملكك الإعجاب فتديم النظر لتتملى المشاهد التي هي تحت نظرك من أنواع النعم التي مكنت منها أسرا من الكفرة "أزواجا منهم" بما يتمتع به كل قرين من قرينه وما رزقوا من ذرية وأموال ورياش ومتاع. تلكم النعم إن هي إلا كالزهرة التي لها زينة وجمال ورونق يلفت النظر إليها، ولكن الزهرة تنتهي سريعا إلى ذبول فسقوط. وتلكم المرافق الحياتية عاقبتها اضطراب حال أصحابها "لنفتنهم فيه" . تبدو هذه الفتنة في شدة التعلق بها والخوف من زوالها، وفيما تشحن به قلوب أصحابها من استعلاء فظلم ثم ذهول عن

---

[1] لسان العرب ج2 ص583

[2] فيض القدير ج 3ص371

المصير، وما تسببه من حسد بعضهم لبعض. وتتفاعل تلكم الفتن لتغم على النفس وتقضي على الطمأنينة والرضا. وهكذا يقذف الله في قلوب المفتونين بمتاع الدنيا الغم والخوف.

نعم إن كل ما أوتوه هو من رزق الله، ولكنهم أدخلوا على النعم التي مكنهم الله منها فساد دخيلتهم، وقطعوا صلتهم بمانحها فأصبحت بانحرافهم معلقة مضطربة ومسببة لاضطرابهم.

وفي المقابل، فإن الرزق الذي يُنعم به ربك على المؤمنين، وماهم عليه من الرضا بما رزقوا، وحمدهم وشكرهم لربهم على ما أعطاهم ، يكون هذا الرزق مُطهرا من الفساد يتعمون به خالصا، يزيدهم إيمانا، فيكون بذلك نيل المؤمن ما يرزقه ربه من نعم دنيوية ممزوجا بتجدد تعلقه بربه. ولذا فهو خير مما ناله الكافرون من ناحية القيمة المطلقة للرزق، وهو أبقى نفعا إذ نفعه يتجاوز الحياة الدنيا إلى ثواب الأخرة.

132- وامر أهلك بالصلاة واصطبر عليها...والعاقبة للتقوى.

كما أمر ﷺ في الآية 130 بالقيام بالصلوات الخمس ليجد الرضا والسعادة، أمر في هذه الآية بأن يحرص على أن يقيم أهله: أزواجه وبناته ومن يعيش معه، الصلوات. وأمر أن يكثر من النوافل. وقد تنوع حث النبي ﷺ على النوافل. قال تعالى: (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه)[1]

وقال تعالى: ومن الليل فتهجد به نافلة)[2]

و ختمت الآية بأن الواجب نحو المنعم بكل ما يتقلب فيه الإنسان من فضل إلهي، هو شكره بعبادته حق العبادة، والله هو الغني الغني المطلق لا يكلفك أن تدفع له رزقا، بل إنه هو الذي يرزقك. وفي النهاية لا ينجح إلا من اتقى ربه. فبالتقوى يضمن الإنسان لنفسه حسن العاقبة. وفيه إيماء إلى أن العسر ينقلب يسرا بتقوى الله. كما أن المآل السعيد يوم القيامة هو خاص بالمتقين.

وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

---

[1] سورة المزمل اية 4/1

[2] الإسراء79

بيان معاني الألفاظ :

البينة : الحجة .

الصحف الأولى : كتب الأنبياء السابقين.

الذل : الهوان.

الخزي : الافتضاح.

التربص : انتظار حصول خير أو شر.

الصراط : الدين وأصله للطريق.

بيان المعنى الإجمالي :

اقترح المشركون على رسول الله آيات قلبوا بها وضعهم، وقام ما اقترحوه دليلا على عنادهم، إن وضعهم يقتضي النظر فيما أتاهم به رسول الله من عند الله وهم عبيده. فطلب دلائل معينة يريدون أن يؤيد بها ولا بد، ليؤمنوا به، انقلاب في الوضع، تحولوا به إلى حاكمين فيما يعتبر حجة .ما لهم ينكرون أن محمدا جاءهم بحجة هي القرآن الذي صحح ما جاء في الكتب السابقة مع أنه أمي، عاش في بيئة ليس لها علم بما جاءت به تلك الكتب.

وقطع الله ببعثة محمد ﷺ، ما يمكن أن يعتذر به المشركون، فإنه لو سلط الله عليهم العذاب بسبب كفرهم، لكانوا جديرين به وما ظلمهم، ولكنهم قد يعتذرون بأنهم ضعفوا عن طرد الشبه التي حصلت لهم، ولو أرسل إليهم رسولا هاديا لاهتدوا وما سلط عليهم الذل وما افتضحوا .فقطع الله عذرهم بإنزال القرآن حجة لا تدفع وبإرسال محمد ﷺ.

وأخيرا اسمعوا مني ما أنذركم به: إنكم بتصلبكم في الشرك آخر كلمتي لكم هي التالية :انتظروا المآل الذي لا يتخلف، مآلي ومآلكم ،إني منتظره بوثوق واطمئنان، وعند ظهوره سوف تنكشف لكم الحقيقة التي لا شك فيها، ستعلمون من كان سائرا على الطريق الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، من هو المهتدي البالغ كمال النجاح.

بيان المعنى العام :

133-وقالوا لولا يأتينا بآية...ما في الصحف الأولى.

تؤذن السورة بختامها ، فترتبط بفاتحها التي تحدثت عن تكريم الرسول بإنزال القرآن على قلبه ليكون للعالمين نذيرا، وليسعد به لا ليشقى. فتفيد هذه الآية أن الرافضين للدعوة يقترحون ما لا ينفعهم في الاهتداء لمضامين القرآن. فقالوا: لولا يأتينا بحجة واضحة صادرة مباشرة عن ربه.

ما هذا الإنكار للحقيقة ؟ ما لهم يتجاهلون وهم يعرفون أن محمدا مبشر به في الصحف الأولى، وأن القرآن الذي يتلوه عليهم يقرر ويصحح ما جاء في الكتب السابقة التي بلغها المرسلون ؟ إن اشتمال القرآن على ما ورد في الصحف الأولى، مع أن محمدا لم يتلق من أخبار المرسلين قبل القرآن شيئا، ولم ينشأ في قوم أهل كتاب، وهيمنته على الكتب السابقة بتصحيح ما ورد فيها من زيف وتناقض ، لهو أعظم آية وأبلغ حجة على أن القرآن من عند الله. زد على ذلك ما طبع عليه نصه من بيان بلغ حد الإعجاز.

134- ولو أنا أهلكناهم بعذاب ....من قبل أن نذل ونخزى.

تبين هذه الآية فضل الله بإرسال محمد ﷺ، كما تفيد قطع معذرة الكافرين. فتفيد الآية أن الله لو سلط عليهم العذاب بسبب الشرك الذي هم مقيمون عليه ومتشبثون به لما ظلمهم، لأن دلائل نظام الكون وعجز آلهتهم التي جعلوها هم آلهة شاهدة ببطلان عقيدتهم واستحقاقهم العذاب. وقطع الله عذرهم لو أرسل عليهم العذاب بكفرهم ، في الدفاع عن أنفسهم بتبرير ما هم عليه، بأنه قد حصل لهم من الشبهات ما أضلهم، ولو أرسلت إلينا رسولا يهدينا لاهتدينا وأقلعنا عما نحن فيه ولا نصل إلى تسليط الذل علينا والفضيحة يوم القيامة. إن حجتهم الواهية تلك ترتفع من أصلها، فقد أرسلت إليكم رسولا فأعرضتم، وعاندتم واقترحتم الآيات حسب هواكم. فقد قطع عذركم، وأنتم أهل لما يسلط عليكم، وما ظلمناكم.

135- قل كل متربص فتربصوا...و من اهتدى.

بهذا يبلغ النص القرآني أبعد مستوى في إفحام المشركين مهددا لهم قامعا لتصلبهم، إن المستقبل سيكشف الحق، ونحن واثقون بأنكم ستلقون مصيركم فانتظروا الذل والخزي وخسران العاقبة، ونحن ننتظر ما وعدنا ربنا من النصر والتأييد وانتشار دينه في الآفاق. إنه سيظهر في الوجود من هم متمكنون من السير على الطريق السوي الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، من هم المهتدون الذين يبلغون ما يريدون أن يصلوا إليه. وفي عدم التصريح بمآلهم المفهوم من أنه عكس ما ينتظره المؤمنون إيماء إلى أنه أحقر من أن يذكر.

ويظهر بهذا الختام تأكيد قوله تعالى في مفتتح السورة "ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى" فأنت به سائر على الطريق السوي مهتد بهدايته، مأمون الحاضر والعاقبة.

أكملت بعون الله وفضله وتوفيقه وتأييده ما فتحه علي في فهم سورة طه، فله الحمد والمنة والشكر المتواصل وذلك يوم الأحد السابع من جمادى الآخرة 1433-التاسع والعشرين من شهر أفريل 2012- أسأله أن يعينني بكرمه على إتمامه، وأن يجعله خالصا لوجهه، وأن يغفر لي تقصيري ولوالدي وللمؤمنين، وأن ينفع به المؤمنين والمؤمنات. إنه ولي النعم .

ســــورة الأنبيـــاء

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به. وذلك أنه ورد في آياتها اسم ستة عشر نبيئا. وهي سورة مكية رتبتها في المصحف الحادية والعشرون. وحسب ترتيب النزول: الحادية والسبعون نزلت بعد سورة حم السجدة وقبل سورة النحل. وعند البقاعي نزلت تالية لسورة إبراهيم وقبل سورة المؤمنون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَٰلَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

اقترب : قرب قربا بليغا.

الغفلة : الذهول عن الشيء.

الإعراض : صرف العقل عن الاشتغال بالشيء .

ذكر : القرآن .

محدث : جديد.

أسروا : كتموا، بإخفاء الكلام إخفاء لا يكاد يسمع.

النجوى : الكلام الخفي.

أضغاث : جمع ضغث واصله الحزمة من الأعواد، وأريد منه تراكم أحلام .

بيان المعنى الإجمالي :

لم يبق بين المشركين وبـين عرضـهم للحسـاب، ثـم مجـازاتهم عمـا قـدموا إلا أمـد قريب. والعجيب من أمرهم أنهم ماضون في غفلـتهم عـن المصـير الـذي يلقـون فيـه العذاب الموعود. وكان من آثار تصميمهم علـى الكفـر أنـه كلمـا كـرر إنـزال القـرآن البيان للحق والمواعظ بطرق مختلفة، وأسـاليب متنوعـة، فـي مناسـبات متتابعـة، فـإن موقفهم واحد أنهم يسـتمعون إليـه بـآذانهم دون أن ينفـذ منـه شـيء إلـى عقـولهم، إذ عقولهم منصرفة إلى اللهو واللعب لا إلى حياة الجد التي ترفع من منزلتهم .

ثم إن رؤوس الكفر تناجوا فيما بينـهم ليصـرفوا مـن ظهـر منـه ميـل إلـى الإسـلام، فأجمعوا على صد هم بقولهم : محمد هذا الذي يـدعوكم مـا هـو إلا رجـل مـثلكم، لـه قدرات سحرية، سحر من اتبعه فأطاعـه، فـانتبهوا ولا تتـأثروا بسـحره، والحـال أنكـم تدركون بداهة ما يدعوكم إليه من باطل .

انقض نجواهم التي تناجوا بها ظانين أن الله لا يعلم مـا تنـاجوا بـه، فقـل لهـم إن ربـي لا يخفى عليه شيء فـي السـماوات ولا فـي الأرض مهمـا دق وخفـي . فقـد أطلعنـي سبحانه على ما تناجيتم به . والله هـو السـميع الـذي لا يغيـب عنـه أي صـوت مهمـا ضعف، وهو العليم بما أخفيتموه في صدوركم وصممتم على تنفيذه فسيجزيكم عنه.

وأكثر من ذلك أنهم قالوا ما يحدثكم به محمد من البعث والجزاء والجنة والنار، إن هو إلا أحلامه المتراكمة، بل هي أمور اختلقها لا أصل لها، بل هو شاعر يؤثر عليكم بسحر كلامه. قولوا له: ائتنا بآية تصدقك على النحو الذي تأيد به من قبلك من المرسلين.

إنهم ما دروا أن من سنة الله في أهل القرى التـي يبعـث إليهـا رسـله أنـه إذا جـاءتهم الآية المادية، أنهم يستكبرون، فيستأصلهم. وهـم لا يؤمنـون لتصـلبهم فـي الكفـر. فـلا تكون عاقبة إنزال الآيات المادية إلا هلاكهم.

بيان المعنى العام :

1 - اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون.

افتتحت السورة بتقرير حقيقة متضمنة للتهديـد. الحقيقـة هـي أن محاسـبة الكفـار عـن كفرهم سيتم عن قرب ولـيس بعيـدا. وهـو مـا ينكرونـه ويـزعجهم ذكـره . وقـربُ الحساب إما بالنظر إلى أن ما مضى من خلق الكون بالنسـبة لمـا بقـي هـو قليـل. وقـد قال ﷺ : (بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار إلـى السـبابة والوسـطى)[1] . وإمـا أن يكـون المعنى أنهم سيموتون قريبـا، إذ أيـام الحيـاة الـدنيا معـدودة، وسيحاسـبون ويعلمـون مآلهم بمجرد ما يفارقون الحياة الدنيا.

---

[1] متفق عليه فيض القدير ج3ص202

وتتضمن تهديدا لمشركي مكة أن نهايتهم ثم محاسبتهم عن كفرهم وفسادهم سيتحقق قريبا، على معنى أنهم سيلقون العذاب الموعود به، ولا يفصلهم عنه إلا أمد قليل في عمر الكون . وإن كان مشركو مكة، هم المقصودين قصدا أوليا، فإن هذا التهديد ينسحب على جميع الكفار .

والغريب من أمرهم أنهم لم يستيقظوا لما يترصدهم، بل يتابعون حياتهم غافلين صارفين عقولهم عن التأمل في آيات القرآن، التي تكشف لهم عن مآل الكون ومآلهم فعطلوا مواهبهم عن إدراك تلكم الحقيقة .

2- ما يأتيهم من ذكر من ربهم ...وهم يلعبون.

زادت هذه الآية بيانا وتأكيدا لغفلتهم ولإعراضهم. ذلك أن القرآن يهدف إلى هداية البشر وإخراجهم من ظلام الكفر إلى نور الإيمان. وبناء على ذلك يذكرهم بمتنوع الطرق والأساليب، ويلفت أنظارهم مكررا عرض الحقائق التي تُنجيهم من الضلال. ولكن الكافرين عوض أن يهزّهم ما يتجدد من آيات القرآن المبينة للعقيدة الحق، وما سيلقاه من أعرض عن عبادة الله الواحد الأحد وتطبيق شرعه، تجد تلكم الآيات تمر على أسماعهم دون أن تبلغ الوعي المتأمل المهتدي بما يسمع. إنهم لا يأخذون الحياة مأخذ الجد الذي يتبعه النظر المتعمق الذي يتجاوز الظرف الحال إلى المآلات البعيدة، بما يطوع أفكارهم وسلوكهم إلى ما يكون أفضل عائدة لهم .

والذكر المحدث: يقصد منه القرآن المنزل في أزمنة متجددة متكررا فوصف القرآن بمحدث هو بالنظر إلى وقت إنزاله للتذكر والاعتبار. أما ذات القرآن بمعنى الكلام النفسي القائم بالذات العليه فهو قديم .

3-لاهية قلوبهم واسروا...وأنتم تبصرون

إن عقولهم مشغولة بالشهوات وبالحياة القريبة. ويطلق لفظ القلوب في القران ويراد منه آلة الإدراك لا القلب النابض بالدم.

ثم إن تصميمهم على رفض القرآن، والإعراض عن هداية رسول الله صلى الله عليه وسلم، حملهم ذلك على الكيد للإسلام والتدبير لمنع من ظهر منه ميل لقبول الدين. قلّبوا وجوه النظر في خفية حتى لا يطلع عليهم المسلمون فيكشفوا ما تحدثوا به، وما نجواهم وإسرارهم إلا رشح الظلم للحق، فهم ظالمون بشركهم وبصدهم. وإلى ما ذا انتهوا بعد التآمر على الدعوة المحمدية ؟ قال الظالمون لمن يتوقع منه الإيمان: إن الذي يدعوكم لهذا الدين ما هو إلا رجل مثلكم، لا يتميز عليكم بشيء يرفعه لأن يكون متبوعا وأنتم تابعون له. وما هذا القران الذي يتلوه عليكم، وقدراته

على جلب الناس لدينه إلا ضرب مـن السـحر. أفيقـوا ولا تنخـدعوا ! كيـف تتـأثرون بسحره وعيونكم مبصرة تشاهدون أنه ليس لـه مـن المـؤهلات مـا يوجـب اتباعـه، إن البداهة تدعوكم لرفض دعوته .

4- قل ربي يعلم القول في السماء ...وهو السميع العليم .

هذه الآية تنقض ما تناجوا به، وما أوهموا به من أن الرسـول ﷺ سـاحر إلـى آخـر مـا وصلوا إليه فيما أسرّوا به بينهم، أبطل كل ذلـك بـاطلاع الله رسـوله علـى مـا تنـاجوا به . واجههم يا محمد وقل لهم :ربي الذي أدعـوكم لعبادتـه، هـو الـذي يعلـم مـا فـي السماء المحجوبة عنكم كليا، ويعلـم مـا فـي الأرض التـي لا تعرفـون منهـا إلا قـدرا قليلا، وهو السميع لكـل حركـة وإن خفـتْ، ولكـل صـوت وإن عمـل صـاحبه علـى إخفائه إلى أبعد درجات الإخفاء، فهو الذي أطلعنـي علـى مـا دار بيـنكم ممـا تنـاجيتم به، وهو سـبحانه العلـيم بـالظواهر والعلـيم بالخفايـا فمـا انطـوت عليـه صـدوركم المريضة لا يخفى منه شيء علـى الله، وسيحاسـبكم علـى كـل ذلـك، ويجـزيكم عـن ظلمكم وعملكم على صد الناس عن الاسلام.

5- بل قالوا أضغاث أحلام ...كما أرسل الأولون.

ثم عرض القرآن شيئا مما تناجوا بـه، ومـا دبـروه لصـد النـاس عـن الـدخول فـي الإسلام. فقالوا تارة: إن ما يخبـركم بـه مـن الجنـة والنـار والجـزاء، وأهـوال يـوم القيامة، والتحليل والتحريم، ما هو إلا أحـلام تراكمـت فأشـاعها. بـل هـو كـلام مـن عنده افتراه لا أصل له ونسبه إلـى الله، بـل هـو شـاعر يقلـب أوجـه الكـلام بحـذق ليجلبكم إليه. ونحن نتحداه بأن يظهر لنا على يديـه معجـزة كمعجـزات الأنبيـاء الـذين سبقوه.

6-ما آمنت قبلهم من قرية... أفهم يؤمنون.

إنهم سألوا المعجزات من جنس المعجزات التي ادعوا أن الـذين مـن قبلـه تأيـدوا بهـا. إن أهل القـرى الـذين جعلـوهم مثـالا، ويوقفـون إيمـانهم علـى أن يعـرض علـيهم معجزات مثل المعجزات التـي جـاءتهم ؛ إن سـنتنا أنهـم إذا لـم يؤمنـوا بعـد نزولهـا يتسلط عليهم أرسال الإبادة والإهلاك .فهل إن كفـار مكـة يؤمنـون لـو جـاءتهم الآيـات المقترحة ؟ إنهم لا يؤمنون . وسيترتب علـى كفـرهم إهلاكهـم. وقـد قـدر الله بحكمتـه أن لا يستأصل قريشا، بل سيكون منهم ومن ذرياتهم مـن ينصـر الإسـلام ويجاهـد فـي سبيله.

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۞ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۞ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۞

بيان معاني الألفاظ:

صدقناهم الوعد : حققنا لهم ما وعدناهم من النصر.

المسرفون : المبالغون في التكذيب، المصرون على الكفر.

كتابا : القرآن.

الذكر: كلمة تطلق ويراد بها، ما يشمل صلاح أمرهم، ما يترتب عنه السمعة

بيان المعنى الإجمالي :

أكدت الآية حقيقة هـي: أن جميع رسل الله كانوا من البشر رجالا، اختارهم الله وكلفهم بإبلاغ وحيه. وإن كنتم جاهلين فاسألوا أهل العلم بالكتب والشرائع السابقة. وكل الرسل كانوا بشرا ينبضون بالحياة، والحركة الداخلية والخارجية. وما كانوا أجسادا لا يتحركون، غير محتاجين لأكل الطعام، بل كانوا يأكلون وتجري عليهم الأعراض البشرية التي لا يتبعها نقص، وأنهم يموتون ولا يخلدون في الدنيا.
ثم إن سنتي في الرسل أني أحقق لهم ما وعدتهم به من النصر والتأييد، وأني أهلك مستأصلا المبالغين في التكذيب المسترسلين في الكفر.
بكل تأكيد أنزلنا إليكم كتابا عظيما معجزا، يجيبكم عن كل إشكالاتكم، وينهج لكم طريقا واضحا مأمونا في حياتكم الخاصة والعامة، في حياتكم الدنيا وفي حياتكم الآخرة. تجدون فيه ذكرا تستلهمون منه العقيدة والتشريع والأخلاق ومقومات الحياة السعيدة. كما أنه بالقرآن ستعلو قيمتكم في الكون، وبعد ما كنتم ممزقين تابعين، ستتحولون بالقرآن إلى قادة للعالم وللفكر. ما لكم لا تعقلون هذه المزايا؟

بيان المعنى العام :

7- وما أرسلنا قبلك ...إن كنتم لا تعلمون.

صرحت الآية السابقة أن المشركين قالوا: إن محمدا بشر مثلكم، استبعادا لأن يكون رسولا، على معنى التنافي بين الرسالة والبشرية. فشنعت هذه الآية بجهلهم مبينة: أن جميع الرسل الذين اختارهم الله فحملهم رسالته إلى أقوامهم، جميعهم رجال لهم خصائص البشر، ميزهم الله بأن سما بهم إلى مرتبة يستطيعون معها تقبل الوحي.

وما عليكم لتتأكدوا من ذلك إلا أن تسألوا أهل الذكر، ويعني به علماء اليهود والنصارى، إن كنتم لا تعلمون هذه الحقيقة.

وفي التصريح بكونهم رجالا هو سند الإجماع على أن الله لم يبعث أنثى رسولا.

8-وما جعلناهم جسدا ....وما كانوا خالدين.

تأكيدا لعدم المنافاة بين الرسالة والبشرية بجميع خصائصها: أن الرسل الذين تتابعوا في تاريخ البشرية كانوا بشرا فيهم جميع مقومات البشرية، فما جعلناهم أجراما ذوي أبعاد لا حياة فيهم، في غناء عن الأكل، وما يتبع الأكل من الأعراض. وقد شغبوا بقولهم : (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق)[1] وإذا كانوا يأكلون الطعام وتجري عليهم سنة الهدم والبناء والتحولات، فإنه يستحيل أن يكونوا باقين البقاء الأبدي .

9- ثم صدقناهم الوعد...وأهلكنا المسرفين .

تتضمن الآية ثلاثة أغراض مجتمعة:

أولا: تثبت سنة الله في معاملته لرسله: أنه يحقق لهم ما وعدهم به من النصر وإهلاك المفرطين في الكفر

ثانيا: في ذلك إيماء إلى أني أنا الله سأنصرك يا محمد كما نصرت من سبقك من المرسلين. ونصرت من هو أهل للنصرة ممن آمن بهم.

ثالثا: في ذلك إنذار للمشركين من أهل مكة أنهم إن لم يقلعوا فسيلقون نفس المصير الذي سلط على من قبلهم. وهو الإهلاك الماحق .

10- لقد أنزلنا إليكم ....أفلا تعقلون.

طلبوا في الآية السابقة أن يأتيهم محمد صلى الله عليه وسلم بمعجزة مادية. فذكرهم أن الله قد من عليهم منة لم تسبق في تاريخ الرسل، هي أعظم من كل الآيات التي أنزلها تأييدا لرسله. لقد أنزلنا من عندنا ما قصدنا إكرامكم به، أنزلنا القرآن إليكم كتابا عظيما. فانتبهوا .إن فيه ما يذكركم فيفتح لكم معرفة ما يهديكم إلى الطريق القويم الذي ينجيكم في دنياكم وفي آخرتكم، يصحح العقيدة، ويكشف لكم طرق النجاح في حياتكم الخاصة والعامة، ويسعدكم بالفوز في حياتكم الباقية .وهو ذكر دائم موثق مرجع لكم مهما اختلفت الظروف والأحوال. وهو من ناحية أخرى لا يقف مده على وقت إنزاله بل يمضي مع الزمن، وينتشر في أقاصي الدنيا لترتفعوا به بعد هوان ولتصبحوا به قادة للعالم. إن الآيات المادية يقف تأثيرها على القوم

---

[1] سورة الفرقان آية 7

الذين شاهدوها، أما القرآن فإنه شرف لكم أولا، وماض إلى أبـد الآبـدين ثانيـا. مـا لكـم لا تتدبرون بعقولكم في هذه المزايا لتدركوا منة إنزال القرآن إليكم ؟

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

القصم : الكسر الشديد الذي لا يرجى بعد التئام.

أحسوا : أدركوا بواسطة الحس.

الركض : أصله لسرعة جري الفرس.

الترف : النعيم ورفه العيش.

الحصيد : المحصود من الزرع .

خامدين : خمدت النار إذا زال لهيبها.

بيان المعنى الإجمالي :

في تاريخ الكون تجدون: أنا دمرنا تـدميرا لا قيامـة بعـده أهـالي قـرى كثيـرة بسـبب ظلمهم، وبعد استئصالهم أنشأنا أقواما يخلفونهم، فـإهلاك الظـالمين لا يـنقص مـن ملـك الله شيء.

أولئك المهلكون بمجرد ما أحسـوا نـذر العـذاب آتيـة لا مـرد لهـا، فـروا مسـرعين ركضا، كأنهم الخيل في جريها السريع. ظانين أنهم سيفلتون من العذاب.

يحسون وهم يركضون صوتا في داخلهم يسـتهزئ بهـم ويقـول لهـم : لا تركضـوا، ولا تسرعوا وارجعوا إلـى منـازلكم لتشـاهدوا أوضـاعها، لعلكـم تسـألون فتعرفـون مـا تجيبون به .

استفاقوا من غفلاتهم، فاستبد بهم الندم وقـالوا: يـا ويلنـا مسـتغيثين، إنـا نعتـرف بأنـا كنا سادرين في متاهات الظلم .

واصلوا ترددهم لتلك الجملة: يا ويلنا إنـا كنـا ظـالمين. دهشـوا فلـم يسـعفهم فكـرهم بغيرها، إلى أن تم استئصالهم. هـم كـالزرع الـذي كـان قائمـا علـى سـوقه يعجـب الناظرين، فحصـد وتراكمـت سـنابله بعضـها فـوق بعـض لا حيـاة ولا نضـارة. أو كالنار المشتعلة يستعر لهيبها ويعلو، ثم تنطفئ وتخمد فلا يبقى لها أثر .

بيان المعنى العام :

11-وكم قصمنا من قرية ...قوما آخرين.

الآيات السابقة تضـمنت تهديـدا للمشـركين " مـا آمنـت قـبلهم مـن قريـة أهلكناهـا" وأهلكنا المسرفين" فجاءت هذه الآية مؤكـدة بصـفة أصـرح، كأنهـا تقـيم الـدليل علـى نفاذ الوعيد فيهم . إذ افتتحت بلفظ [كم] الدال على الكثـرة وعلـى التكـرر . فقـد أخبـرت الآية بأن الله قد أهلك كثيرا من أهل القـرى. أبـادهم بسـبب ظلمهـم، فقصـمهم قصـما، وكسر قوتهم وفتتها بحيث لا يرجى لهـا عـودة ولا اجتمـاع. وبهـذا تكـون الآيـة دالـة على قاعدة عامة هي سنة الله في معاملة الظـالمين. وهـو تهديـد للظـالمين مـن قـريش أنهم بصدد أن يحل بهم مـا حـل بأمثـالهم. ونكايـة بـالمهلكين أنشـأ الله مكـانهم قومـا آخرين . مما يدل على هوانهم، وأن الله القادر على إنشـاء قـوم آخـرين مكـانهم، ينـذر المعاندين من مشركي مكة إلى أن لهم نفس المصير .

13/12-فلما أحسوا بأسنا ...لعلكم تسألون .

واصلت الآية وصف ما حل بأهل القرى الـذين أهلكهـم الله؛ حـل الفـزع الـذي أعقبـه اليأس في قلوبهم، وبمجرد ما أحسـوا مقـدمات التـدمير، تركـوا قـراهم وفـروا منهـا مسرعين كما تجري الخيل راكضة. إنهم يحسـون فـي بـاطنهم صـوتا مؤنبـا مسـتهزئا بهم، يقول لهم: لا تركضوا وارجعوا إلى ديـاركم وعيشـكم المرفـه فيهـا. إنـه بعـودتكم إلى مساكنكم ستشهدون ما آلت إليه .فلو سـألكم سـائل عـن قـريتكم وجـدتم الجـواب الصحيح بعد المشاهدة. وهذه الجملـة المعترضـة إمعـان فـي تعـذيبهم، إذ انقلبـوا بعـد الاستكبار والاعتزاز إلى موضع سخرية واستهزاء.

14-قالوايا ويلنا إنا كنا ظالمين .

يتابع النص الكشـف عـن وضـع أهـل القـرى المـدمرة وقـد حـاولوا الفـرار منهـا راكضين. وكما هو شأن اليائس الذي حلت به نتـائجُ مـا قدمـه مـن فسـاد، يعـود إلـى نفسه متلهفا متحسرا على ما فـرط ؛ يقولـون فـي أنفسـهم : يـا ويلنـا، اسـتغاثة مـن العذاب الذي تحققوا أنه لا مناص لهم منـه، ويعترفـون بـأنهم كـانوا ظـالمين بكفـرهم وتمردهم على رسلهم.

15-فما زالت تلك...خامدين.

أحاط بهم العذاب، وغُمّ على تفكيرهم، وذُهشوا، فأخـذوا يـرددون : **ياويلنـا إنـا كنـا ظالمين.** إلى أن أبيدوا ولهواتهم تخرج منهـا الحسـرات متتاليـة بصـيغة واحـدة، إلـى أن تم استئصالهم استئصالا كاملا. جعلهـم الله كـالزرع الـذي كـان قائمـا علـى سـوقه

أخضر يعجب الناظرين، فعملت فيه المناجل فـإذا هـو ملقـى علـى الأرض متراكمـا لا حياة فيه ولا بهجة . أو كالنـار المشـتعلة الموقـدة بقـوة ضـرامها وشـدة لهيبهـا ثـم انطفأت وخمدت وذهب اللهيب وسكن الموقع .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

اللعب : القول أو الفعل الذي لا يقصد به تحصيل غرض صحيح .

القذف: أصله رمي جسم على جسم بقوة.

دمغ الباطل : محوه.

زاهق : مضمحل.

الاستحسار : التعب الشديد من العمل .

لا يفترون : لا ينقطعون .

بيان المعنى الإجمالي :

إن حكمة الله هي قانون خلق الكون، لا تجـد فـي هـذا الخلـق مـا هـو خـارج عـن التدبير المحكم الجاري على العلم الشامل بالكليات والتفاصـيل. وكـل مـا خلقـه الله هـو لحكمة يعلمها، فالسماء والأرض وما بينهما خلقـت لغايـة مضـبوطة مقـدما، وليسـت عبثا ولهوا. إنه لو فرض كما يفرض المحـال أن يتخـذ الله لهـوا لجعـل مجالـه العـالم العلوي الـذي هـو منفـرد بالتصـرف فيـه، لا العـالم الأرضـي الـذي مكـنكم مـن الاستخلاف فيه . هذا إن فرض أنا فـاعلون شـيئا مـن اللهـو، فـدعوى المشـركين أن مسؤوليتهم بحدود حياتهم يصير بهم وجودهم عبثـا . والعبـث مرفـوض عقـلا عـن الله. بل إن شأننا أنا نقيم الحق، فهو واضح فـي خلـق السـماوات والأرض التـي رضـخت وتقدمت طائعة لربها، وبقي الإنسان الذي مكن مـن الحريـة، وقـد يسـيء التصـرف، فإذا عمل على إظهار الباطل، فإن الله يسـلط علـى باطـل البشـر قـوة الحـق المؤيـدة بصريح العقل وأدلته، وبقوة الصالحين فـي الكـون الـذين يزلزلـون الباطـل فيضـربونه

الضربة القاضية، فـإذا هـو مهـزوم وأثـر بعـد عـين. وانفـردتم أيهـا المشـركون باختصاصكم بالعذاب المهين بسبب وصفكم المتجني على الرسول وعلى القرآن.
تفرد الله بملك جميع مـا حوتـه السـماوات والأرض، وبملـك الملائكـة الـذين شـرفهم بقربهم منه. يجدون لذتهم في الخضـوع لـربهم وعبادتـه دون أن يتعبـوا لفـرط تعلقهـم بعبادته. إن تنزيه الله عن كل نقـص والتعبيـر عـن كمالـه المطلـق يصـاحبهم بالليـل والنهار دون انقطاع.

بيان المعنى العام :

16- وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين.

إن الله الموصوف بالحكمة البالغة لا يصدر عنـه شـيء إلا حسـب مـا يقتضـيه علمـه المحيط بجميع الجزئيات والأوضاع . بالحاضـر والمـآل، بالعلاقـات التـي تقـوم بـين ما ينشئه وبين كل ماله اتصال به .
ومثال على ذلك خلق السـماوات والأرض ومـا بينهمـا، مـا يعلمـه الإنسـان إجمـالا، وما مكنه الله من علم بعض تفاصيله. تنادي كـل جزئيـة مـن جزئيـات الكـون بـأن الله أحكم تقديرها، لا أثـر للمصـادفة فـي مكوناتهـا وفـي موقعهـا مـن الكـون الكبيـر . فسبحان الله يجب تنزيهه عن أي نقص هو أحسـن الخـالقين. وعلـى هـذا الضـبط مـن الحكمة خلق الإنسان، فمكنه من اتباع طريق الخيـر أو طريـق الشـر، بمـا أودع فيـه من عقل وبما أرسل إليه من الرسل الذين يبينـون لـه طـرق الرشـاد ومآلـه فـي هـذه الحياة وفي الآخرة. وما ينـتظم بـه البنـاء الاجتمـاعي المحقـق للنجـاح فـي الخلافـة وعمارة الأرض . إنه لو كانت حياة الإنسان المسـتخلف تقـفُ علـى أيـام وجـوده فـي الأرض، فيستوي المصلح والمخـرب، والعـادل والظـالم، والتقـي والفـاجر، لكـان هذا الخلق خلقا بلا هدف ولا غايـة، هـو لعـب ولهـو وقتـل للوقـت. وذلـك نقـص صارخ لا يليق بالكامل. وهذا ما يحقـق مـا ذكـر فـي الآيـات السـابقة مـن حسـاب الظالمين المنقطعين عن الخالق الحكيم.

17- لو أردنا أن نتخذ...إن كنا فاعلين .

وللتدليل على قيام الحكمة في الخلق، وحسـاب البشـر ونفـي اللعـب والعبـث، تقـول الآية: إنه لو تعلقت إرادتنا باللهو، وهو يفـرض كمـا يفـرض المحـال، لمـا صـلحت الأرض التي استخلفناكم فيها لتكون مجالا للهو، تبعا لمـا لكـم فيهـا مـن حـظ. وكانـت مجالات العالم العلوي الذي هو من اختصاصنا ولا شأن لكـم بـه. هـذا إن كنـا فـاعلين

للهو المنفي عنا لتناقضه مع كمالنــا وحكمتنــا. والمقصــود تأكيــد أن البشــر سيحاســبون على أعمالهم، وفرض عدم محاسبتهم غير مقبول عقلا.

18- بل نقذف بالحق ...ولكم الويل مما تصفون.

إضراب لإبطال كل ما ادعاه المشركون ومــا زينــوه مــن تصــورات خياليــة، وإثبــات أن حكمة الله اقتضت أنه يقــذف بــالحق قــذفا قويــا يزعــزع الباطــل، ويصــيبه فــي المقتل، فإذا الباطل هالك لا أثر له. وذلك بمــا يؤيــد بــه الحــق مــن شــواهد العقــل، وبيان المرسلين. وتسليط عباده الناصــرين للحــق علــى المفســدين المــروجين للباطــل. فبمجموع ما في الحق من قــوة ذاتيــة، واهتــزاز الباطــل ذاتيــا، وبقيــام المنتصــرين لسيادة الحق في الكون ينهزم الباطــل وأهلــه ويقمعــون. وهــذا مــا يلقــي فــي قلــوب المؤمنين الثبات على مواصلة الجهاد لإظهار الحــق، فســنة الكــون تنــادي بــأن العقبــة لهم، والله معهم.

وتختم الآية بالتهديد لمشركي مكة : أن الله قرر عذابهم على ما يصفون به افتراء وكذبا، القرآن ومحمدا ﷺ. والويل كلمة دالة على العذاب المهين، فهم مختصون به .

19- وله من في السماوات والأرض...ولا يستحسرون.

إذا كانت الآية السابقة أفادت الحكمة المنبثة فــي خلــق الســماوات والأرض، فــإن هــذه الآية أفادت تفرد الله واختصاصه بملــك مــن فــي الســماوات ومــن فــي الأرض .فكــل الكائنات في الكون ما هو عاقل وما لا عقل له مملــوك لــه يتصــرف فيــه كمــا تشــاء حكمته . وإذا كان لفظ – من – مختصا بمن يعقــل، فإنــه أطلــق لفــظ مــن فــي الآيــة على العاقل وغير العاقل على طريقــة التغليــب. فــردت الآيــة علــى عقيــدة المشــركين من العرب الذين اتخذوا أصناما آلهة من دون الله وعلى عقائــد كثيــر مــن البشــر الــذين اتخذوا آلهة للخير وللشر وللمطر وللحب إلى آخر ما تخيلته العقول المنحرفة.

ويدخل في ملكه سبحانه المخلوقات العلويــة مــن الملائكــة، الــذين مــن صــفاتهم أنهــم يجدون لذتهم في الطاعة وهم لا يستكبرون استكبار مشركي مكة عن عبادة الله .

إن هؤلاء الملائكة يواصلون العبادة وتنفيذ مــا يطلــب مــنهم دون أن يلحقهــم إعيــاء أو شعور بالتعب.

20- يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

إن ملائكة الله الذين شرفهم بعبادته دون انقطــاع ودون شــعور بالكلــل أو المــلال، ســمة تقربهم التسبيح لله، يحضر في عبادتهم وفــي أقــوالهم تنزيــه الله، هــو الشــعور الــدائم بكماله وتنزيهه، سواء في ذلك الليل والنهار لا يلحقهم فتور.

أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (21) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (22) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23) أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ (24) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25)

بيان معاني الألفاظ :

لفسدتا: لفسدت السماوات والأرض باختلال نظامهما، ثم بانتفاء النفع.

لا يُسأل : سؤال محاسبة.

البرهان : الحجة الواضحة.

ذكر من معي : القرآن.

ذكر من قبلي : ما أنزل على الرسل السابقين.

بيان المعنى الإجمالي :

وأمر آخر قبيح بالعاقل أن يعتقده ويعرّض صاحبه للسخرية . إنهم اتخذوا آلهة صنعوها بأيديهم من أجزاء الأرض. التي هي ملك لله كالحجارة والحديد والنحاس والخشب. وإذا كانت آلهة فيلزمهم اعتقادهم هذا أن تلك الآلهة تبعث عابديها للنشر والحساب وهذا إلزام لا يستطيعون الانفكاك منه لأنه من مستتبعات الألوهية . إنه لو تعددت الآلهة وكل واحد منهم كامل القدرة والإرادة لا يخرج شيء عن طاعته، فتتصادم إراداتهم وأفعالهم ويفسد الكون. والكون ماض على نظامه وتناسقه مما يقوم شاهدا من العقل والحس على أن الإله واحد لا شريك له.

ومن مقتضيات الألوهية أن الله الحق هو الكامل الذي يكون جميع ما يصدر عنه هو الكمال في التدبير، وإن خفيت الحكم لقصور البشر عن الإحاطة بالغيب . ومع تحقق الكمال لا يمكن أن يسأل سؤال حساب، إذ الحساب يكون لما يمكن أن يكون عليه المسؤول من نقص. وما سوى الله بما أنه غير كامل يكون معرضا للحساب عما فعل.

ثم انتقل القرآن فوجه سؤال إنكار عليهم باتخاذهم آلهة من دون الله، فطالبهم أن يثبتوا ما يدعون بنص من الذكر المنزل على محمد ومن معه أو بنص من الكتب السابقة. إنهم لا يجدون لباطلهم سندا، ولكن الجهل الذي سببه الإعراض عن التأمل

في كتب الله، هو الذي أعماهم عن الحق . وهــذا شــأن أكثــرهم وبعضــهم انتهــوا إلــى مصير الجهلة عنادا لا جهــلا. إن جميــع المرســلين الــذين أرســلناهم قبلــك وشــرفناهم بوحينا أكدنا عليهم تأكيدا أوليًا بأن يعتقدوا هم وأتبــاعهم: أنــي أنــا الله الواحــد الأحــد لا شريك لي. وأن عليهم أن يخصوني بالعبادة والخضوع.

بيان المعنى العام :

21- أم اتخذوا آلهةً من الأرض هم ينشرون.

هذه الآية تشنع بالمشــركين، وتكشــف عــن فســاد تفكيــرهم، وانخــداعهم بأوهــام لا حقيقة لها .تنكر عليهم اتخاذ آلهة حجارة أو نحاســا أو خشــبا، ونحــو ذلــك مــن المــواد الأرضية التي صــنعوا منهــا أصــناما يعبــدونها، هــؤلاء الــذين رفعــوا أجــزاء مــن الأرض فعبدوها، معرضون للسخرية، لكونهم اتخــذوا آلهــة منهــا، وتســقط دعــواهم بما جاء في الآية السابقة أن الأرض ملك لله . واستهزأت الآيــة بهــم مــن ناحيــة ثانيــة، ذلك أن هذه الجمادات تبعث النــاس أحيــاء يــوم القيامــة، إذ الألوهيــة تقتضــي القــدرة على الإحياء" هم ينشرون". والمشركون لم يدعوا لآلهــتهم ذلــك، ولكنــه إلــزام للــتهكم بهم.

22- لو كان فيهما آلهةٌ...فسبحان الله رب العرش عما يصفون.

يتابع القرآن تناقضــاتهم وإلــزامهم بمــا يترتــب علــى عقائــدهم . إنــه لــو كــان فــي السماوات والأرض آلهة متعددة كما يدعون، وكــل واحــد مــنهم قــادر لا حــد لقدرتــه، مريد لا يعطل إرادته شيء، وخلق الســماوات والأرض يمكــن أن يــأتي علــى كيفيــات وصور مختلفة، ولكن لا ينتظم أمرها وتسير علــى توافــق وتكامــل بينهــا إلا إذا كــان بناؤها على تنسيق واحد، وكذلك استــمرارها فإنــه فــي كــل لحظــة كــل جــزء منهــا معرض لتحولات، فإنه لا يخلو الأمر إمــا أن ينفــرد أحــدهم بالتــدبير وينجــز الكــون، ويدبر التحولات التي تتم في الكون، ويكون غيره معطــلا لــم يصــدر عنــه أي شــيء، فلا يكون الإله إلا واحدا وهو الــذي دبــر وأنجــز وأمســك بإرادتــه وقدرتــه التحــولات المتتابعة. وإما أن ينفرد كل إله بجزء مــن الخلــق والتــدبير، ولا تــدخل بقيــة الآلهــة في ميدانه فيقضي هذا إلى أن كل واحــدمنهم عــاجز عــن التــدخل فــي ميــدان الإلــه الآخر، فيقضي أنهم عجزة كلهم . والإلــه الكامــل المعبــود لا يكــون عــاجزا. وإمــا أن يكون كل واحد منهم مطلق الحرية تنفذ إرادته وفعله في الكــون كلــه، ومــع هــذا فإمــا بالاتفاق بينهم أو الاختلاف، فإن اتفقوا علــى أن واحــدا مــنهم ينفــرد كــان هــو الإلــه ويكون تعدد الآلهة عبثا لا أثر له. وإن اختلفوا فكل واحــد ينفــذ حكمــه فــي الكــون دون

أن ينتظر من الإله الآخر موافقة أو مخالفــة، فإنــه مــع الاخــتلاف تتضــارب الأفعــال ولا يمكن للكون لا أن يحــدث ولا أن يســتمر. والمشــاهد أن الكــون يســير علــى أتــم نظام لا اختلال فيه، مما يقوم شاهدا على أن الله واحد لا شريك له.

وتختم الآية بالتنصيص على الحق الذي يتحتم تثبيتــه فــي العقــول، ويبطــل مــا ادعــوه من تعدد الآلهة. فسبحان الله: تنــزه الله أن يكــون معــه إلــه، هــو رب العــرش النافــذة إرادته وقدرته في الكون كله، ما كان منه تافها كالذرة ومــا كــان واســع الأبعــاد كبيــر الحجم كالكواكب والأرض والسماوات. تنزه عــن كــل مــا يُلحقــه بــه المشــركون مــن أوصاف تنافي عظمته كماله.

23-لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

يواصل القرآن رسم الصورة الكاملة لله التــي يجــب أن ترســخ فــي العقــول والأرواح. إنه سبحانه الحكيم الكامل العليم بالحاضر والمــآل علمــا واحــدا لا يخفــى عليــه شــيء ولا يلحقه نفع ولا ضر مما ينجزه أو يمنعه، وبهذا التصــور فــلا يمكــن أن يســأل عــن أفعاله فهي كلها عدل وحكمة. وما سوى الله علــى خــلاف مــا أثبتنــاه لله فهــو معــرض ليسأل سؤال حساب عما فعل .

كما أن السؤال المراد به الحساب لا يكون إلا ممن لــه ســلطة علــى المســؤول، وكــل من في الســماوات الأرض آتــي الــرحمن عبــدا، لا يســتطيع أن يخــرج عــن نطــاق العبودية، مخلوق لله، فلا يتصور أن يحاسب أحد رب العزة .

نعم يطلق السؤال بمعنى الدعاء، وهذا غيــر منفــي، وكــذلك مــا يســأله العــالم طلبــا للظفر بالإجابة عن تحقق ما استقر يقينيا في علمه، أن كــل مــا يصــدر عــن الله حكمــة وعدل، فيبحث تبعا لذلك عــن الحكمــة فــي الفعــل أو التشــريع أو النظــام الكــوني، لا يسأل الله ولكن يسأل فكره ليتعمق في البحث عن الحكمة أو عــن ســر النظــام الــذي بــه يسير الكون.

24- أم اتخذوا من دونه ...فهم معرضون .

أفادت الآية السابقة : (لوكان فيهما آلهــة إلا الله لفســدتا) حجــة عقليــة علــى تفــرد الله بالألوهية ونفي الشركاء . وأيدت هذه الآية نفس الغــرض، لكــن بــدليل نقلــي . فســألهم سؤالا إنكاريا بعد الإضراب عما تقدم مــن بيــان فســاد الشــرك وتهافتــه. أنكــر علــيهم ترك عبادة الله واتخاذهم آلهة من دونه. ثــم أوقفهــم ليســألهم ســؤالا يفضــح جهلهــم. إن كل دعوى لا يؤيدها الدليل لا تــنهض ولا تصــح، فاعرضــوا علــى برهــانكم وحجــتكم التي استندتم إليها. ثم عــاجلهم بأنــه لا يوجــد بــين أيــديهم أي أثــر صــحيح يمكــن أن يُسندهم في دعواهم الشريك لله. فهــذا أولا القــرآن الــذي يتلــوه الــذين هــم معــي مــن

المؤمنين و هو المنزل من الله، وثانيا ما نـزل علـى جميـع المرسـلين قبلـى ممـا هـو ذكر للبشر في كل عصر من عصـور الهدايـة، لا تجـدون فيهـا مـا يثبـت أن الله قـد اتخذ شريكا . وإذ سقطت دعواهم عقليا بالآية السـابقة ونقليـا بهـذه الآيـة، فمـا بقـي إلا أن مقالتهم صادرة إما عن جهل وهذا حـال الأكثريـة، بسـب إعراضـهم عـن إعمـال نظرهم فيما بين أيديهم وخاصة القرآن .

وإما عن عناد وإصرار وهو وضع الأقليـة الـذين يعلمـون الحـق، ولكـن تصـميمهم على رفض الدعوة، جمعهم في النهاية إلى الجهلة المغرقين في الجهل.

25-وما أرسلنا من قبلك...إلا أنا فاعبدون .

تحدث الآية السابقة المشركين وبينت أن شركهم لا يسـتند إلـى عقـل ولا إلـى وحـي وأنه معرى من كل مؤيـد. وجـاءت هـذه الآيـة مصـرحة تصـريحا محققـا، إن كـل رسول أرسلته من قبلك يا محمـد أوحيـت إليـه أنـه لا إلـه إلا أنـا فاعبـدني، فهمـا ركنان أساسيان في كل رسالة:

أ- توحيد الله توحيدا ينفي كل شـرك فـي الـذات، أو فـي التـأثير. ذلـك أن أول ركـن لصلاح الكون ومن فيه توحيد الله، وقطع دابر الشرك

ب- إفراده بالعبادة ، والخضوع لجلاله وتطبيق شرعه

إن ما عاناه العالم من الاسـتبداد ومـن الحـروب ومـن الاسـتعمار الظـاهر والخفـي، قاعدته الاستكبار وتقمص المستبدين أوصاف الألوهية، التي منهـا مـا جـاء فـي الآيـة السـابقة لا يسـأل عمـا يفعـل وهـم يسـألون. فجبـابرة الأرض تطـوروا فـي الظلـم والتعسف لما ظنوا أنفسهم فوق المساءلة التي هي من خصائص الربوبية

يقول الشيخ البشـير الإبراهيمـي رحمـه الله : والغالـب علـى الشـعوب البدائيـة فـي السياسة أن تكون على بقية من وثنية، أصـنامها الشخصـيات، ويكـون إحساسـها تابعـا لإحساسهم وحركاتهم منوطة بتحريكهم، ولو إلى الضـياع والشـر. وهـذه هـي الحالـة السائدة في شرقنا، وقد تفطـن الغـرب لهـذه النقيصـة فينـا، بـل إلـى هـذه الثغـرة الواسعة في نفوسنا، فأصبحوا ينصبون لنـا التماثيـل مـن الرجـال، ويحكموننـا بهـا ويصرفون حياتنا من ورائها لمصلحتهم[1] .

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا

[1] آثار الإمام ج5ص131

يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الولد : النسل ذكرا كان أو أنثى.

لا يسبقونه: لا يتقدمون عليه.

مشفقون : حذرون تبعا لإيمانهم بأنه لا راد لما أراده.

بيان المعنى الإجمالي :

ضلالات عششت في عقول بعض المشركين، فزعموا أن لله ولدا وهي أبلغ ما صدر عن المشركين من الباطل، تنزه عن قولهم وما نسبوه له من النقص باتخاذ الولد. وما توهموه من أن الملائكة بنات الله، هو وهم من لم يعرف حقيقة الملائكة. إنهم عباد الله مخلوقون له، مستحضرون دائما هذه المنزلة التي جعلتهم لا يتكلمون إلا بعد أن يصدر لهم الإذن، ولا يعملون عملا إلا وهم متأكدون أنه موافق لأمر رب العزة. والله يعلم ما قدموه وما تسببوا فيه وما سيحصل منهم في المستقبل. وهم لا يشفعون لأحد إلا من رضي أن يُشفع فيه، وهم لصفاء معرفته بالله هم يخشونه أشد الخشية، حذرون جدا من أن يرفع عنهم ما خصهم به من الكرامة.

هذا وإن أعظم الظلم الذي لا يغفر ادعاء الألوهية. فلو فرض كما يفرض المحال، أن أحدا من الملائكة، على ما قدمه القرآن من مزاياهم، ادعى الألوهية فإن عاقبة هذا المدعي تكون حتما عذاب جهنم، وعلى هذا النحو يجزى كل من فتح بابا للشرك.

بيان المعنى العام :

26/27- وقالوا اتخذ الله...بأمره يعملون .

من الاعتقادات الضالة التي آمن بها بعض العرب، اعتقادهم أن الله له ولد. وهذه العقيدة شاعت في قبيلة خزاعة التي كانت تسكن ضاحية من ضواحي مكة، وتسربت هذه العقيدة إلى بعض القرشيين. يزعمون أن لله بناتا . وأعقب تسجيل قولهم الفاسد هذا بأنه ينافي الألوهية. فقوله " سبحانه" يبطل قولهم باعتبار أنه فاسد عقلا. إذ اتخاذ الولد ناشئ عن نقص تنزه الله عنه.

من البديهيات أن من لم ينجب، ففقد الولد يشعر بالنقص والتعاسة، وإن توفر له من المال والصحة والجمال حظوظ كبيرة. فالولد حاجة للأصل يجد فيه امتداده، ويستحضر أنه منقطع بدون الولد. وجل الله أن يكون في حاجة إلى ولد إذ هو الغني الكامل الباقي، تعالى أن يلحقه فناء.

ثم خصص ما اعتقده المشركون من أن الملائكة بنات الله، فصرحت الآية بماهيتهم: إنهم مملوكون لله، عباده، فالعلاقة بين الله والملائكة هي علاقة المخلوق بالخالق . وهذا لا ينافي أن الملائكة كرّمهم الله برضاه عنهم وسما بهم إلى المنازل الرفيعة وحال بينهم وبين التمرد، أو الخروج عن حدود الأدب والاستحضار للعبودية في كل وقت، فهم من أجل ذلك لا يتكلمون إلا بعد صدور الإذن لهم، ولا يعملون عملا إلا عملا يرضيه تطبيقا لأمره ،وهي الطاعة الخالصة يسّرها الله لهم تفضلا منه .

28- يعلم ما بين أيديهم....وهم من خشيته مشفقون .

وتعريفا بما أراد الله اطلاعنا عليه من مميزاتهم ذكر القرآن : أن الله يعلم ما قدموا من الأعمال، وما تسببوا فيه فنشأ عن تدخلهم، على نفس المستوى من علمه بما يقومون به في المستقبل . وبذلك تكون شهادة الله فيهم كاشفة عن الحقيقة مبينة للواقع، دافعة لكل تساؤل . كما ذكر أنهم مع شدة قربهم من الله وما خصصهم به من المزايا، فإنهم لا يتقدمون بالشفاعة لأحد إلا لمن أطلعهم أنه يرضى عن طلب الشفاعة له . كما ألحق بهم وصفا ملازما، وهو أنهم رغم ما أكرمهم به، وهداهم إليه، وقربهم من المنازل السامية عنده، وقدر أنهم ميسرون للخير والطاعة لا للشر والعصيان، مع ذلك فإن الله أقر في نفوسهم المعرفة بعظمته وواسع قدرته وأنه لا راد لما أراده . فخشيتهم وخوفهم منه كأشد ما تكون الخشية. هم حذرون وجلون من أن تحل بهم نقمته أو ترفع عنهم كرامته. وفي هذه الخاتمة تربية للمؤمنين حتى لا يطمئنوا بما هدوا إليه من استقامة. وتحقيقا لذلك جاء قوله تعالى: (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون)[1]

29- ومن يقل منهم ...كذلك نجزي الظالمين .

هذه الآية تؤكد نفي ما اهتم به القرآن في الآيات السابقة من نفي الشريك عن الله، وأنه أعظم الظلم الذي لا يغفر . أفادت الآية : أن الملائكة على ما صرحت به الآيات السابقة من سموهم، وتقريب الله لهم كما بيناه في الآيات السابقة، فإن لو فرض، كما يفرض المحال، أن أحدهم ادعى الألوهية ونسبها لنفسه، ونفاها عن الله الواحد، فإنه ليس له إلا جزاء واحد هو العذاب والإذلال في جهنم . وإن هذ المآل ينسحب على جميع الظالمين، والمقصود بالظالمين هنا المشركون .

[1] سورة الأعراف آية 99

أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

رتقا: الرتق الاتصال والتلاصق بين الأجزاء.

الفتق : الانفصال بين الأجزاء .

الرواسي : الجبال .

الميد : الاضطراب .

الفج: الطريق الواسع.

السبل : جمع سبيل، الطريق الواضح.

بيان المعنى الإجمالي :

أنكر القرآن على الكافرين ما أوقعوا فيه أنفسهم من جهل بإعراضهم عن القرآن، فلم يعلموا أن السماوات والأرض كانتا كتلة واحدة ففرق الله بين الأرض وأجرام السماء. وأن الله قد جعل من الماء كل شيء حي، فربط بين الماء وبين الحياة، فلا تقوم الحياة إلا به. ما لهم لا ينتهون إلى الإيمان.

لقد جعلنا في الأرض جبالا تحفظ توازنها، وأنشأنا السهول، والمنافذ الواسعة بين الجبال بما يمكن البشر من الطرق السالكة للتواصل والإعمار . وأحكمنا بناء السماء، ففي أي بقعة أنت من الأرض تجد السماء محيطة بك من الأعلى، وحفظناها من الاختلال فهي تحيط بالأرض دون أن تصدمها بشيء من مكوناتها . والكافرون عما حوته السماء من الآيات البينة معرضون عن التأمل والاعتبار. والله وحده هو الذي خلق الليل والنهار وخلق الشمس والقمر. ونظم لكل كوكب مساره في مداره يسير فيه دون أن يحصل اصطدام، كما يسبح السابح في البحر

بيان المعنى العام :

30- أولم ير الذين كفروا...أفلا يؤمنون.

توالى لفت البصائر من الآية -16- إلى هـذه الآيـة علـى تفـرد الله بخلـق السـماوات والأرض وما حوته. وأنه هو الله الواحـد الأحـد عقـلا ونقـلا. وأنـه سـبحانه لا يغفـر لمن يشرك به . وأتمت هذه الآية بيان حقيقة سـندها الـوحي الإلهـي، فمـن لـم يـؤمن به لا مطمع له في إدراكها وقـت نـزول الـوحي. هـذه الحقيقـة أن السـماوات والأرض كانتا كتلة واحدة، ثم إن الله فصـل الأرض عـن السـماوات. تفيـد الآيـة أن الكـافرين في عهد الرسالة وما تبعه ركبهم الغـرور، وحكمـوا معـارفهم المحـدودة، وبنـوا علـى مستواهم المعرفي نفي أشياء، وما كان مستواهم المعرفـي إلا محـدودا جـدا، كمـا قـال تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)[1] فهذه الحقيقة أن الكـون كـان كلـه كتلـة واحـدة متلاصقة الأجزاء، ثـم إن الله فصـل بـين تلـك الأجـزاء فاسـتقلت الأرض بجرمهـا وموقعها، وكذلك بقية أجزاء الكون . هـذه الحقـائق التـي سـجلها القـرآن تؤكـد : أن علم الإنسان قاصر، ومعارفه مرتبطة بحواسه، حتى يـأتي العقـل فيكشـف شـيئا مـن الأسرار، والعلم الكامل لله. فلفتُ النظر إلى ما لم تصـل إليـه المعرفـة البشـرية يزيـد الذين آمنوا إيمانا، ودفعا للبحث عن قانون الله في الخلـق، ويجعـل حـظ الكـافر كحـظ النعامة التي تخفي رأسها في الرمل إذا أحـاط بهـا الصـيادون، يخيـل إليهـا أنـه لمـا حجب عن بصرها الصيادون، أنهم غير موجـودين. وأمـا الإيمـان فإنـه يكـون محركـا للمعرفة. أما كيف كانت السـماوات والأرض كتلـة واحـدة، ومـا هـي الأطـوار التـي مرت بها حتى وصلت إلى الوضع التي هـي عليـه الآن ؟ فـذلك موكـول إلـى البشـر، يبحثون وينظرون، وقد يصلون إلى بعض أجـزاء الحقيقـة، والحقيقـة كلهـا هـي فـي علم الله العليم بكل شيء. وإذا كان بعـض الفرضـيات العلميـة تؤكـد الانفجـار العظـيم الذي تولد عنه الكون، فإن ذلك لا يتجـاوز حـد الفـروض العلميـة تنبـئ عـن ذكـاء وفطنة، ولكنهـا لا تقـدم حقيقـة علميـة يقينيـة .ولا يصـح حمـل الآيـة علـى هـذه الفرضية، لأن الفرضيات العلمية منهـا مـا يثبـت بالتجربـة أو بقيـام الأدلـة المبلغـة لليقين فيقبل، ومنها ما يبقى تحت مظلة الفرضيات فهـو ظـن أو شـك لا يصـح حمـل ما كان يقينيا عليه. ولذا فإن ما تهـدينا إليـه الآيـة: أن السـماوات والأرض كانتـا كتلـة واحدة، وأنه حصل الانفصال بعد ذلك، أما كيف تم ذلك فـلا يوجـد اليـوم مـا يفصـل الطريقة التي تم عليها الحدث.

[1] سورة الإسراء آية 85

وهذا المحمل الذي اتبعناه والذي يساعد عليـه ظـاهر نظـم الآيـة، لـيس هـم المحمـل الوحيد، بل ذهب بعض المفسرين إلى أن المـراد إلـى أن الرتـق هـو فـي السـماوات على حدة وفي الأرض على حدة. ثم فتقت السماوات وفتقت الأرض .

ورجح بعضهم أن المراد بـالرتق مـا يبصـره الرائـي: أن السـموات تمثـل وحـدة وأن الأرض تمثـل وحـدة، ثـم إن الفتـق هـو مـا يشـاهد مـن نـزول المطـر والبـرق والصواعق، وتخلخل الأرض بماء المطر، وخروج النبات والشجر من باطنها .

ولفتة ثانية تظهر الحكمة في الخلق والتقدير لتدل العالمين على سر من أسرار الخلق، هو الارتباط بين الماء والحياة. سواء أكان ذلك في خلق الإنسان، أو في خلق بقية الحيوانات، وفي ارتباط دوام الحياة بالرطوبة، فإذا ذهبت الرطوبة امحت الحياة .

ما بـال النـاس لا يتـدبرون فيؤمنـون بمـا يشـاهدونه مـن أسـرار خلـق السـماوات والأرض، ومن تداخل الرطوبة في تولد الحياة . إن ذلـك لـيس ممـا يقتضـيه القـانون العقلي، ولكن الواقع كشف عن ذلك، فمن الـذي جعـل المـاء أساسـا للحيـاة ارتبطـت به وجودا وعدما؟ إنها مشاهدُ الكون تنادي بوجود الخالق، فما للناس لا يؤمنون!

31- وجعلنا في الأرض رواسي ....لعلهم يهتدون.

لفتت الآية الأنظار إلى بعض مظاهر تركيب الأرض .

1)بث الله الجبال محققة لتوازنها، التـوزان الـذي يمهـد لتكـون حيـاة الإنسـان علـى سطحها ميسرة، إذ لو كان الاضـطراب قـانون بقائهـا لمـا اسـتقامت للإنسـان حيـاة يطوّع بها خيراتها ويمكنه من الاستخلاف فيها .

2) بسط الله بجانب الجبال السهول التـي لا تعوقـه عـن الضـرب فـي الأرض، فخـط منها طرقا يسلكها، وينتقل في أرجائها، ويتصل بإخوانه فـي الإنسـانية فـلا تضـيق بـه طبيعة الأرض عن القيام بعمارتها.

إن هذه النعم والألطاف، وحسن التدبير بوضع كل شـيء فـي مكانـه، هـي تنفـذ إلـى المدارك، فتكون مهيئة لرجاء أن يتأملوا فيها فتهديهم إلى الإيمان .

32-وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون.

يواصل القرآن استحضار مشاهد الكون حتى لا يمـر الإنسـان عليهـا غـافلا، ذلـك أن تكرر المشهد على بصره، في نظام لا اخـتلال فيـه بلـغ حـد الرتابـة، تغطـي صـفة الاستمرارية فيه على ما فيه من عبر. منـذ الصـبا البـاكر نشـاهد هـذه القبـة الزرقـاء فوق رؤوسنا، تظهر فيهـا الشـمس وتختفـي، وكـذلك القمـر والنجـوم والكواكـب.

تغطي كـل جـزء مـن أجـزاء الأرض، سـقف محفـوظ مـن الاضـطراب، والأرض

محفوظة من تلكم الكواكب السائرة في الفلك العظيم فكل لـه مساره، ثـم إن الجاذبية التي بينها البالغة أقصى حدود الدقة تؤذن بالحكمة فـي تقـديرها. إن فيهـا أدلـةً واضحة تنادي بأنها حدثت عن الله القادر الذي رتب كـل شـيء ترتيبـا ينـادي الإنسـان للتأمـل فيه، والعمل على معرفة أسراره حسب مقدرته العلمية. إنـه لـولا النظـام فـي الخلـق ما دعي الإنسان للتأمل وعدم الإعـراض عـن آيـات الخلـق. إن ارتبـاط حركـة المـد والجـزر بـالقمر، والنهـار والليـل بالشـمس، وارتبـاط الفصـول بكواكـب تظهـر وتختفي، والسحب والرعد والبرق والأمطـار بالإنبـات والخصـب وغيـر ذلـك، ممـا يدعو إلى الاقتراب من هذه الآيات الكونية، لينشرح الصدر للإيمان.

33-وهو الذي خلق...كل في فلك يسبحون .

بعد أن حرك الأنظار فـي الآيـات السـابقة لتعتبـر بمشـاهد الكـون، خـتم العـرض بظاهرتين تشملان الأرض وما عليها، ويقع كـل شـيء تحـت تأثيرهمـا : الليـل الـذي ينسحب على الأرض فيلفهـا الظـلام، ويجـد الإنسـان فـي سـكونه راحتـه المجـددة لطاقاته، ثم النهار الـذي يبعـث فيـه النشـاط والحركـة ويدفعـه للسـعي والتحصـيل. وربط الظاهرتين بالشمس والقمر في السماء، فإذا الكـون كلـه وحـدة سـماؤه وأرضـه بينهما التفاعل المقدر. ولذا فتحت الآيـة بقصـر مـا تضـمنته علـى خلـق الله. " وهـو الذي خلق " فقضية التفرد بالخلق هي الأهم والمقصـود مـن الآيـة. ولفـت النظـر إلـى أن ما حواه هذا الكون من الكواكب عيّن الله لـه مسـاره الـذي يسـير فيـه، هـو الفلـك الذي يتبع فيه خطا دائريا، وأنه لا يجـد فـي فلكـه ذاك مـا يعترضـه، فتخيـر القـرآن للتعبير عن ذلك قوله يسبحون .

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

الخلد : استمرار الحياة إلى الأبد.

ذائقة الموت : تحس بآلامه عند النزع.

نبلوكم : نختبركم .

يتخذونك هزوا : محلا لسخريتهم منك.

بيان المعنى الإجمالي :

من سخف المشركين وانحطاط مستواهم النفسي، أنهم يتمنون مشاهدة موتك. إن الموت ليس نقصا فقد مات جميع المرسلين من قبلك. ثم إنهم عللوا أنفسهم بالتشفي منك إذا ما مت، وهم غير خالدين، وسيحصد الموت المتمنين قبل أن يفرحوا بموتك. وقد حقق الله وعده لرسوله ووعيده للمشركين المتربصين. ثم إن كل نفس من البشر أو الحيوان ستموت، وتذوق عند النزع آلام الموت. وما يجري عليكم في حياتكم، من الخير الذي تحبونه، ومن الشر الذي تتوقونهُ هو ابتلاء لكم واختبار لصفاء إيمانكم، ثم ترجعون إلينا يوم القيامة لنجزيكم عن الشكر نعمة ورضا، أو عن الكفر نقمة وعذابا.

ومن سفه المشركين أنهم إذا رأوك حاولوا أن يستنقصوا من مقامك بقولهم لأتباعهم : هذا الذي ترونه هو الذي يستنقص آلهتكم ويذكرها بسوء، رأوا أن أصنامهم أعلى منزلة من جميع الكائنات. والغريب من أسرهم أنهم غافلون عن ذكر الرحمن بما هو أهله، وبالتعلق بالقرآن الذي أنزله .

بيان المعنى العام :

34 - وما جعلنا لبشر...فهم الخالدون.

تتابعت الآيات في هذه السورة، مقرعة للكافرين، مسقطة لشبهاتهم، مما ضاعف حقدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكثر حسدهم، وعجزوا عن إلحاق الضرر به، فتمنوا أن يموت ليستريحوا منه، وتمني الموت هو رشح النفوس المهزومة المريضة. فرد القرآن عليهم من ناحيتين :

الناحية الأولى: هي التذكير بما أجريتُ عليه سنة الخلق جميعا حتى المقربين المكرمين بالرسالة الذين أرسلتهم من قبلك: أن الموت لحقهم، والموت ليس نقصا. فتمني الموت للتشفي ينبئ عن انهزام نفسي من العجزة .لأنهم من سخفهم يتمنون الموت الذي سيحصدهم أيضا، ولا مطمع لهم في البقاء بعدك، ليجدوا لذة تحقق ما رغبوا من مشاهدة موتك. وقد تم ذلك فإنه ما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى حتى حصد الموت رؤوس الكفر .

35 - كل نفس ذائقة الموت ...وإلينا ترجعون.

إن بساط الآية السابقة هيأ للتصريح :

أولا: بهذه القاعدة التي أجرى الله عليها كل من انتشرت الحياة في ذاته، فكل نفس من البشر والحيوان غير مخلدة، وتستوفي أجلها المقدر لها لتلاقي الموت المحتّم.

وانفصال الروح عن الجسم الـذي يـتم بـه المـوت يصـحبه سـكرات النـزع وآلامـه، لطف الله بنا وبكم وثبتنا علــى كلمــة التوحيـد، وبعـد المـوت ينتهــي الإحســاس فــلا يذوق" يحس " الميت شيئا .

ثانيا: أن الله قدر في حياتكم أن يقترن الخيـر بالشـر، والسـلامة بالعطـب، والصـحة بالسقم، والفرح بالحزن، والغنى بالحاجـة، والنجـاح بالفشـل وهكـذا. هـذا قـدر الله، ولا راد له. هذا هو الجانب الأول، والجانـب الثـاني أن هـذه الأحـوال تجـري علــى الإنسان وله موقف منها . إما أن يتقبـل الحـدث بالرضـا المقتـرن بـالرجوع إلــى الله، بالشكر على ما أنعم، وبالصـبر علــى البلـوى. إذ الخيـر والشـر كـل واحـد منهمـا اختبار للإنسان نتيجته، إما تعميق الإيمان في روحه، وإمـا مـد فــي ضـلاله. فكلاهمـا فتنة واختبار ونجاح أو خيبة. ثـم لا يقـف أثـر ذلـك علــى الظـرف الـذي وقـع فيـه الاختبار، بل يكون مهيئا للحساب علــى مـا قـدم عنـدما يرجـع كـل فـرد إلــى الله. فانسحبت الآية على قانون نهاية الحياة، وعلى ما يلقاه كـل فـرد فــي حياتــه، وعلــى المصير يوم القيامة في أوجز لفظ وأوسع مدلول.

36- وإذا رآك الذين كفروا ...هم كافرون .

يواصل القرآن الإفصاح عن علاقة الرسول صـلى الله عليـه وسـلم بالمشـركين، فبعـد أن ذكرت الآية السابقة أنهم ضاقوا ذرعا به وتمنوا مشـاهدة موتـه، عطـف علــى ذلـك موقفهم منه وهو ينشط في الدعوة إلــى الله، وقـد بلـغ تغـيُّظهم عليـه أن نزلـوا إلــى سفاهة السفهاء الذي يستنقصون الكمّل مـن البشـر بالاسـتهزاء مـنهم . فـإذا مـر بهـم النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كساه الله من المهابة ما لـم يعطـه أحـدا مـن العـالمين، تغامزوا عليه يرومون استنقاصه فــي أعـين مـن لـم يـؤمن ليصـدوهم عـن اتباعـه، ويقولون مستنقصين :هذا المار أمامكم يتجاسر علــى آلهـتكم فيـذكرهم بمـا يحـط مـن قيمتهم، كأنهم يعجبون من أن يتجرأ بشـر علــى ذكـر الآلهـة بسـوء. ومـن اخـتلال عقولهم أنهم غافلون عن ذكر الرحمان، وإجراء مـا يجـب لـه مـن التعظـيم، غــافلون عن كلامه القرآن المنزل على رسوله، كــافرون بحقـوق الـرحمن الـذي رحمهـم فــي جميع أطوار حياتهم حتى بلغوا المستوى الذي هـم عليـه قـال تعـالى: (وإذا قيـل لهـم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن)[1]. وفي التعبير عـن الـذات الإلهيـة باسـم الـرحمن إغاظة لهم، إذ هم ينكرون اسم الرحمن .

---

[1] سورة الإسراء آية 85

خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

العجل : السرعة.

حين : وقت.

البغتة: فجأة.

تبهتهم : تحيرهم

بيان المعنى الإجمالي :

قدم القرآن حقيقة لا يعلمها إلا الخالق، كشف بها طبيعة خلق الإنسان، وأن حظه من الصبر محدود. وإن لم يكونوا على مرتبة سواء فبعضهم بما له من وفرة في عقله وتحكم في عواطفه وقوة في إيمانه يكون أكمل صبرا وأقل عجلة، وبعضهم يتقدم به العمر دون أن يفارقه الوضع الذي كان عليه في صباه. واستبطأ المؤمنون الوعد الذي وعدهم ربهم من النصر وعلو كلمة الدين، كما استبطأ ذلك الكافرون استهزاء .فختمت الآية بأن وعد الله حاصل لا شك، فلا تطلبوا متى تحقيق ذلك في الوقت الذي تريدون .

وإمعانا من الكافرين في التكذيب يقولون: إذن متى سيتم تنفيذ الوعد إن كنتم صادقين في وعدكم؟ ظنوا الإمهال التابع للحكم في التوقيت إهمالا لهم ونفيا للوعيد. مستبعدين صدقه.

لو يعلم الكافرون طبيعة العذاب الذي سيسلط عليهم ما استخفوا به ولا واصلوا التكذيب، إنه نار جهنم التي ستحيط بهم من أمامهم ومن خلفهم فلا يستطيعون حماية وجوههم ولا ظهورهم ، ولا يجدون نصيرا من الذين كانوا يزعمون أنهم سيكونون شفعاء لهم لو تحقق ما يوعد به القرآن .

إن ما هيء لهم من جزاء سيباغتهم بما يحيرهم ويذهب هوله بعقولهم، ولا يستطيعون إبعاده ولا حتى تأخيره عن موعده.

بيان المعنى العام :

37- خلق الإنسان من عجل ...فلا تستعجلون.

تمرد المشركون، وشاكسوا المؤمنين، وشككوا فيما أوعدهم به القرآن من النكال، كما أن المؤمنين استبطأوا حلول الوعيد بالكفرة مع اقتناعهم بأنه آت. إن ما يحدث في الكون مقدر في علم الله، طبيعته وزمن تنفيذه. ولكن الإنسان رُكز في خلقته السرعة، فهو يود أن يتحقق له ما يرغب فيه في أقرب وقت، كما يرغب أن يزول عنه ما حل به من شر سريعا. ولكل فرد حظه من الصبر يتفاوت بمقدار ما وفّره الله له من قوة في عقله، ومن إرادة تعلو على الظروف الحاضرة ولا تتعجل، ومن وضوح الإيمان في قلبه، دون أن تكون عواطفه باردة لا يلابسها أي قدر من العجلة، إذ لكل فرد حظه منها كما جاء في الآية: أنها جزء من طبيعته مخلوقة معه لا تفارقه. ولما كان وعد الله ووعيده كلاهما حق لا ريب فيه، فستشاهدون تحقق ذلك، فلا تطلبوا أن يعجل الله لكم ما وعدكم، كما هي تهديد للكافرين بأن الوعيد سيحل بهم، ولكن الله ينزله في الوقت المقدر له.

38- ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين.

ويقول الكافرون استهزاء: متى يتحقق هذا الوعد الذي يعده القرآن للمؤمنين؟ وأتبعوا سؤالهم بقولهم: إن كنتم صادقين، بما يدل عليه لفظ "إن" من الشك والاستبعاد في صدق الوعد. فقد جمعوا في مقالتهم تلك الاستهزاء والإيماء لتلقي الوعد بالتشكيك، والتدليل على ذلك ببطء حصوله.

39-لو يعلم الذين كفروا...ولا هم ينصرون.

استعجلوا حصول الوعيد من شدة غفلتهم، ولو يعلم الذين كفروا ما سينزل بهم من العذاب والمهانة، لما استعجلوا ولما أقاموا على ما هم عليه من الكفر والاستهزاء. لو يعلمون الوقت الذي سينفذ فيهم الله ما أوعدهم به لحاولوا إنقاذ أنفسهم، هو الوقت الذي من شدة عذابه ، أن النار تحيط بهم من كل جانب. وتجسيما لذلك فإنه من شأن الإنسان أن يتقي بيديه الخطر المهدد لوجهه أولا، ولكن لهب جهنم المحيط أمضى من أن يردوه عن وجوههم ولا عن ظهورهم، ولا يجدون نصيرا ينصرهم، فيبطل ما تخيلوه من أن آلهتهم تشفع لهم، لا شفيع يومها من الذين كانوا يُعوّلون عليهم وصرحوا به .

40- بل تأتيهم بغتة ...ولا هم ينظرون .

حساباتهم كلها مغلوطة غير صحيحة، ظنوا أنهم يستطيعون الاستعداد لدرء الخطر بمجرد ما يتوقعون قربه. قاسوا وعيد الله على ما يحدث بينهم من الحروب والغارات، وما دروا أن الدواهي التي تأتيهم ستكون مباغتة، تفوق طاقات

التحمل، فيتحيرون، ويتبينون عجزهم عن دفعها، وحتـــى لـــو طلبـــوا التـــأخير فإنـــه لا سبيل إليه، الأمر محسوم لا يؤخر ولو لحظة.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

حاق: نزل وحل.

بيان المعنى الإجمالي :

يؤنس القرآن النبي صلى الله عليه وسلم، والكفـــر يشـــتد، والاســـتهزاء ينتشـــر ويمتـــد، فيقول له :لقد استهزئ بالمرســـلين قبلـــك علـــى هـــذا النحـــو، فأنزلـــت علـــيهم عـــذابي بسبب استهزائهم . فكان استهزاؤهم سببا في إهلاكهم.

قل لهم قولا من شأنه أن يوقظ الغافلين: من يحفظكـــم مـــن عـــذاب الـــرحمن، فـــي الليـــل وما يصحبه من أنواع الضر، وكـــذلك بالنهـــار؟ لـــيس لكـــم ولآلهـــتكم أي قـــدرة علـــى حمايتكم. ولكنهم أقفلوا عقولهم وتمادوا معرضـــين عمـــا تـــذكرهم بـــه فـــلا ينتفعـــون بمـــا من شأنه أن يوقظ البشر.

بل قد يكون السبب في استكبارهم، استدراج الله لهم ببســـط نعمـــه علـــيهم وعلـــى آبـــائهم بسطا طال أمده، حتى تمردوا مطمئنين. إنهـــم واهمـــون، فشـــواهد عاقبـــة المســـتكبرين بينة في صحيفة التـــاريخ، إن الله أخـــذهم مـــن مواقـــع عـــزهم، فجعلهـــم أطرافـــا ثـــم أبادهم. ومع ذلك فإن باطلهم أبعد ما يكون عن الغلبة .

بيان المعنى العام :

41-ولقد استهزئ برسل ...ما كانوا به يستهزئون.

تطمئن هذه الآية النبي ﷺ وتؤنسه، وتقوي عزيمتـه علـى مواصـلة مواجهـة الكـافرين .يقول الله لنبيه إن هـذه سـنة المرسـلين مـن قبلـك، أنهـم كلمـا أفحمـوا المشـركين وكشفوا عن فساد عقيـدتهم، واخـتلال قـيمهم يواجهـونهم بالسـخرية . ولكـن الله مـنهم بالمرصاد فأنزل عليهم عذابه بسبب اسـتهزائهم برسـل الله، وسـيلقى مشـركو مكـة نفس المصير.

42-قل من يكلؤكم بالليل....عن ذكر ربهم معرضون.

صرّح لهم بما يوقظهم من غفلتهم، واسألهم بمـا يحـرك الحقـائق فـي نفوسـهم لعلهـم يستحيون بهذا السؤال المقرّع، فيرتدعون ويكفـون عـن كفـرهم. مـن الـذي يحفظكـم من المهالك ومما يؤذيكم بالليل والنهـار ؟ وقـدم الليـل لأن الضـرر فيـه أكثـر وقوعـا، وعطف عليه النهار، فأفاد استيعاب الحفظ جميـع الأزمنـة . مـن يحفظكـم مـن عـذاب الرحمن وبأسه حفظا مستمرا، وفي ذكر الـرحمن إيمـاء إلـى أنـه برحمتـه يـتم ذلـك الحفظ، ففي كل لحظة إنزال العـذاب ممكـن لا يبعـده إلا حفظـه برحمتـه. وأضـرب عن الكـلام ليشّـنع بغفلـتهم وإصـرارهم، إنهـم عـن ذكـر الله والاعتـراف بفضـله معرضون. ولا ينتفع الإنسان بالتنبيه إلا إذا لـم يغلـق مداركـه عـن الانتفـاع بمـا نبـه إليه. فمع العناد لا ينفع التذكير.

43- أم لهم آلهةٌ تنصرهم ...منا يصحبون.

ثم أضرب القرآن إضرابا ثانيا، ليهزهم بسؤال لاحق يكشـف عـن زيـف مـا اعتمـدوه. اعتمدوا آلهة مـن دون الله تحصـنهم مـن المكـاره فـدانوا لهـم بالطاعـة والقربـات . فماهي حقيقة هذه الآلهة ؟ الصفة الغالبة عليها هي العجـز الكامـل، هـي آلهـة عـاجزة عن نصر أنفسها، ممن يعمـد إلـى إتلافهـا أو إهانتهـا. ولا هـي مؤيـدة مـن خـالق الكون. فكيف يؤلّهون أصـناما، ويطمعـون منهـا أن تسـارع بنصـرهم عنـد الشـدائد، وهي لا تستطيع نصر أنفسها ولا تصحبها قوة من الله .

44-بل متعنا هؤلاء وآباءهم ...أفهم الغالبون.

إضراب ينتقل به التصوير مما ذكر في الآية السابقة إلى بسـط سـبب آخـر توهمـوا بـه استمرار ما هم فيه من نعمـة . ذلـك أن الله لـم يعـاجلهم ولا آبـاءهم بالعقوبـة وسـلْب الخيرات، وأمهلهم ممتعين استدراجا لهم، حتى طالت حيـاتهم وهـم يتقلبـون فـي نعـم الرحمن. فكان هذا سببا آخر في استكبارهم واطمئنانهم. أبلغـتْ بهـم الغفلـة عـن التأمـل في سنن الله في الخليقة، فلم يـدركوا أن قـدر الله يـأتي علـى المتمـردين مـن سـكان الأرض، فينتهي أمرهم إلى الهلاك، وذهاب ما عمروه. وأنهـم بعـد مـا كـانوا وسـطا

بقوتهم ومستواهم الحضاري ينظر إليهم نظرة مهابة، يحولهم إلى طرف يسرع إليه السقوط، ويذوب كأنه لم يكن. فهل يستطيعون أن يغلبوا الحق، أو أن يوقفوا مد الإسلام ؟ كلا سيهزمون كما هزمت الجماعات المتمردة من قبلهم .

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الصم : غير المنتفعين بالإنذار كأنهم لا يسمعون.

الدعاء : الدعوة إلى الله.

المس : اتصال بظاهر الجسم.

نفحة : قدر القليل.

الويل :حلول الشر .

الوضع: حط الشيء في مكان.

القسط : العدل.

المثقال :ما يماثل شيئا في الثقل .

الخردل : حب دقيق لنوع من النبات

بيان المعنى الاجمالي :

واجهْهُم يا محمد وقل لهم: مهمتي قاصرة على إنذاركم بما تلقّيْتُه من وحي من ربي حتى تقلعوا عما أنتم عليه من الشرك والفساد. واعلم أنهم تبعا لما صمموا عليه من العناد، وضعهم كوضع الصم الذين لا يدركون الأصوات، فلا تحزن عليهم. وإنه عندما يحسون بأول العذاب يستيقظون قائلين، متحسرين: إنا كنا ظالمين بالشرك. يعترفون بأنهم جديرون بما سلط عليهم من العذاب.

إنه في يوم القيامة نحاسب كل فرد حسابا دقيقا. يوزن كل عمل صغيرا كان أو كبيرا، من الخير أو الشر، ويقوم العدل الإلهي الذي لا جور فيه ولا ظلم. ويقتنع كل محاسب بما يظهر في حسابه، ذلك أن كل ما قدمه في حياته يظهر ولو كان ضئيلا كحبة الخردل أو السمسم. وكفى الله الناس بعدله وشمول علمه بالأعمال فلا يتطلعون إلى حاسب آخر.

بيان المعنى العام:

45- قل إنما أنذركم بالوحي ...ما ينذرون.

تقوية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليواجه عناد المشـركين بتنفيـذ أمـر ربـه، قـل لهم قولا يقطع لجاجهم وما يقدمونـه مـن مقترحـات لا يقصـدون منهـا الاقتنـاع بمـا أنزل عليك : دوري قاصـر علـى إنـذاركم بواسـطة الـوحي المنـزل علـي مـن الله، والمصير الذي سيحل بكم إن واصلتم الإعـراض . وليسـت مهمتـي أن أسـعى لإجابـة اقتراحاتكم النابعة من عنادكم.

ثم التفت الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسـلم مطمئنـا لـه ومؤانسـا : إن بيـان مـا أنزلناه إليك من الـوحي، وطـرد الشـبهات، وعـرض مـا يترصـد المعرضـين مـن العذاب الدنيوي والأخروي، كل ذلـك لا ينفـع الـذين صـمموا علـى الـرفض، فهـم كالصم الذين تمر التموجات الصوتية داخـل آذانهـم فتجـدها معطلـة عـن التـأثر بهـا، ولا تنقلها إلى المناطق التي تدرك مدلولاتها.

46- ولئن مستهم نفحة ...إنا كنا ظالمين.

عرّفت الآية ما سيحل بهم يوم القيامة، فأول ما يعذبون بـه هـو مـا يـوقظهم إلـى مـا فرط منهم، والعاقبة التي لا يمكنهم معها التـدارك. ذلـك أنـه بمجـرد مـا يلحقهـم أول درجات العذاب ويحسون به، يسـتيقظون نـادمين قـائلين : ياويلنـا : متحسـرين بـأبلغ ما يكون التحسر لعدم القدرة على التدارك ، إنا كنا ظـالمين لأنفسـنا وللحقيقـة بمـا كنـا عليه من الشرك. والشرك ظلم عظيم.

47 – ونضع الموازين القسط ...وكفى بنا حاسبين.

أعقب القرآن مس العذاب الأول يوم القيامة بمحاسبة البشر في ذلك اليوم. وجسّم العدالة المطلقة التي يتم بها حساب كل فرد عما قدم، بأن الله يضع الموازين العادلة تزن الأعمال خيرها وشرها. وذكر المفسرون الميزان على أنه ميزان دقيق له كفتان ولسان. وقد جروا في تصوره على ما هو شأن الموازين في حياتهم. والذي ترجح عندي أنه تصوير يجسم العدالة كما وضعوا على قصور العدالة ميزانا بكفتين وذلك:

أولا: أن شان يوم القيامة هو غير شأن الدنيا، وما يذكر في القرآن هو تقريب للناس حسب أعرافهم ومستواهم الحضاري.

ثانيا: أن هذا الميزان لا يوزن به شيء مادي، بل هـو لـوزن قيمـة الأفعـال ومـا فيهـا من خير أو شر، وتلك أمور معنوية، ممـا يقتضـي أن يكـون الميـزان يظهـر القيمـة المعنوية التي للشيء الموزون.

ثالثا: أنه في حياتنا الدنيا لنا ميـزان تـوزن بـه الحـرارة، وميـزان للضـغط الجـوي، وميزان لضبط ضغط الدم، ونحو ذلك، وليس شيء منها ذا كفتين ولسان.
فلنسر في فهم النص القرآني على أن الله يُعرّف تعريفـا دقيقـا قـيم الأعمـال التـي قـام بها البشر في دنياهم من خير أو شر، تعريفا يقتنع به الفاعل ولا يجد منفعا.
تقول الآية أن الله يُعرّف كل إنسان بقيمـة آثـار أعمالـه الخيـرة أو الشـريرة، ويكـون ذلك على نحو دقيق جدا وشامل لكل ما صدر عنه. حتـى إن العمـل التافـه يأخـذ حظـه من التقويم العام. وجسّم ذلك بأن العمل الضئيل التافـه كـوزن حبـة مـن الخـردل التـي هي كحب السمسم يظهر في الحساب. مما يـدل علـى ثلاثـة أمـور: أن الإحصـاء هـو إحصاء لا يضيع شيئا.
وأن الجزاء شامل للكبيرة، وحتى الصغيرة تظهـر متميـزة، ممـا لـم يكـن الإنسـان يلقي له بالا في حياته الدنيوية.
وأن العدل الكامل يسري على الجميع، مما يقتنع به كل فـرد مـن المحاسـبين أنـه لـم يُظلَمْ شيئا. وختمت الآية بـأن الله كفـى النـاس الحسـاب العـادل فـلا يتطلعـون إلـى حاسب آخر يقوم بالعدل كما يقوم به سبحانه. فعلـى كـل إنسـان أن يحـذر مـا يسـخط ربه، وأن يجتهد فيما يلقى به حسن الجزاء .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفرقان : كل ما يفرق به بين الحق والباطل

الضياء : أصله النور، والمقصود به العلم والهدى.

ذكرا: يحرك أذهانهم.

الإشفاق : أشد الخشية.

مبارك : شامل لأنواع الخير

بيان المعنى الإجمالي :

ما لهؤلاء المشركين يبادرون بتكذيب رسول الله صلى الله عليـه وسـلم فيمـا يـدعو إليـه ويحذر منه؟ أليس لهم في بعثة موسـى وهـارون مصـحوبين بـالتوراة مـا يقـوم علـى أنها سنة الله في عنايته بالبشرية؟ إن التوراة هـي الكتـاب الفـارق بـين صـواب العقيـدة

وبين فسادها، فقد أضاءت وذكّـرت المتقـين فحمـتهم مـن الغفلـة والنسـيان بواسـطة نصوصها المكتوبة مما جعلها مرجعا لهم يجدون فيهـا هـدى الله. للمتقـين: هـم الـذين يخشون ربهم، فحضور العقيدة في قلوبهم تحصـيهم مـن الوقـوع فـي الإثـم والرذيلـة، سواء أكانوا في ملأ من الناس أم كانوا وحدهم لا يطلـع علـيهم أحـد مـن البشـر. وهـم مع ذلك حذرون أشـد الحـذر مـن الحسـاب الـذي لا يغـادر صـغيرة ولا كبيـرة إلا أحصاها ويجازي عليها.

وجريا على فضل الله في عنايته بالبشر، أمـامكم اليـوم هـذا القـرآن الجـامع للبركـات من صلاح الدنيا وصـلاح الآخـرة .عجبـا لكـم ! أتنكـرون بركاتـه وهـي حاضـرة تشاهدون آثارها ؟

بيان المعنى العام :

48-50: ولقد آتينا موسى ....أفأنتم له منكرون.

تتنزل الآيات الثلاث منزلة الاستدلال على صدق الرسول، وتحقـق مـا أخبـر بـه مـن الغيب. بتنظيره بما هو مقطوع بـه مـن أن الله أوصـل إلـى موسـى وهـارون عليهمـا السلام الفرقان: التوراة المتضـمنة للعقيـدة التـي تكشـف عـن زيـف العقائـد الفاسـدة الأخرى، وتقيم دعائم العقيدة الصـحيحة الداعيـة للتوحيـد، وتضـبط التشـريع الممكّـن للأمة من التوحد في علاقاتها الاجتماعية وفي متنوع أوجـه النشـاط فـي الحيـاة. وهـي مع كونها فارقة هي ترسل بأشـعة النـور الموضـح للطريـق الهـادي إلـى مـا يحقـق النجاح في الدارين، فالمعتمد على التوراة قبـل أن تحـرف، يكـون علـى بصـيرة فـي سعيه، واضحا في نفسه الطريق الذي يسلكه. ولما كـان نـص التـوراة مكتوبـا، كانـت نصوصها مذكرة للذين حلت التقوى قلوبهم. فهـم يرجعـون إليـه ليهتـدوا بـه، ولـيمكن من التقوى في قلوبهم. ومَن هم هؤلاء المتقون الذين يصـل انتفـاعهم بـالتوراة إلـى هـذا المستوى ؟ هم الذين حلت الخشية والخـوف الشـديد مـن سـخط ربهـم فـي خلـواتهم، فهم يراقبون الله في سرهم وفي الظروف التي يكونون فيهـا غـائبين عـن رقابـة عيـون الناس. وحل فيهم الإشفاق والخوف الشديد من أهوال يـوم القيامـة، فهـم يجتهـدون فـي الإعداد لذلك اليوم.

وهذا القرآن هو الحلقة الأخيرة في سلسلة وحي الله، أنزلـه علـى محمـد حالـة كونـه جامعا لضروب الخير، من توجيـه متبعيـه إلـى مـا يحقـق لهـم العـزة فـي الـدنيا، وراحة الضمير، ويربط البشر برباط يمكن لوحـدتهم، ويجعـل مجـتمعهم نظيفـا آمنـا، ويهديهم إلى ما يسعدهم في آخرتهم.

وإذا كان القرآن على هذه المزايا فإنّــه مــن المنكــر أن يعرضــوا عنــه، فتوجــه لهــم بسؤال ينكر عليهم موقفهم منه ورفضهم لمضامينه.

• وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ۝ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝

بيان معاني الألفاظ :

الرشد : الهدى والرأي الحق.

التماثيل : جمع تمثال، الأصنام التي لا حقيقة لها وهي تمثل شيئا آخر موهوما.

عاكفون : ملازمون لعبادتهم.

اللاعبين : المازحين.

بيان المعنى الإجمالي :

نوه الله بإبراهيم عليه السلام في سلسلة الرسل الذين آتــاهم رشــده، فقــد حقــق القــرآن أن الله مكنه من الهداية التي وضحت له طريــق الحــق واســتقامة التفكيــرين مــن قبــل موسى، وهو أهل لذلك، لأن الله يعلم النفس الزكيــة التــي كــان يحملهــا إبــراهيم بــين جنبيه. واذكر الظرف الذي قال فيــه إبــراهيم لأبيــه وقومــه، وقــد وجــدهم ملازمــين لعبادة منحوتات من خشب وغيرها يعبدونها، فقــال لهــم: مــا حقيقــة هــذه المنحوتــات الممثلة لأشياء، التي أنتم ملازمون لعبادتها ؟ لم يجــدوا إلا جوابــا واحــدا: أنهــم قلــدوا آباءهم في عبادتها. وإذ فرّغهم من كل أساس منطقــي قــال لهــم : إنكــم أنــتم وآبــاؤكم من قبلكم منغمسون في الضلال الواضح الذي لا شبهة فيه.

لشدة تعلقهم بالأصنام سألوه أهو جادٌّ في كلامه أو هــو يمــزح ؟ فــرد علــيهم ردا مبكّتــا لهم، ربكم هــو رب الســماوات والأرض، فــأنتم تعلمــون أنــه لا دخــل لآلهــتكم فــي خلقها، ولا فرق بينكم وبينها. فالله وحده هو الــذي أبــدعها، وأنــا مــوقن بــذلك شــاهد عليه. ثم أقسم عليه السلام أنــه ســيحطم تلــك الأصــنام عنــدما يعــودون إلــى بيــوتهم، ويجدها وحدها بدون حارس يقوم عليها.

بيان المعنى العام :

51- ولقد آتينا إبراهيم .....وكنا به عالمين.

أعقب القرآن التذكير بما أوتيه موسى وهارون اللذين كانــت شــريعتهما مــا تــزال قائمــة مبنية على ما اقتنع به اليهود من كتــاب التــوراة المنــزل عليــه . وذلــك معلــوم أيضــا عند العرب، إذ كانوا مخالطين لهم في جزيرة العــرب. أعقــب ذلــك بالتــذكير بالحــديث عن إبراهيم عليه الســلام، لأنــه وإن كانــت صــحفه قــد اندرســت إلا أن كثيــرا مــن العرب يعتقدون أنهم على دين إبراهيم، وتقوم الكعبة في مكــة واصــلة لهــم بهــذا النبــي الكريم. إذ هو الذي بناها بيتا للتوحيــد .افتــتح بالتأكيــد علــى مزيتــه العظمــى : أن الله آتاه رشدا تاما وهداية واضحة، ويزيده بيانا ما جاء فــي الآيــات التاليــة، حتــى أصــبح الرشد كأنه خاصا به بإضافته إليــه . وقولــه تعــالى مــن قبــل إبــراز لسـنة الله فــي تواصل رشده لرسله وإيماء إلى أن موسى وهــارون ســارا علــى مــنهج إبــراهيم ﷺ. ثم نوه القرآن بإبراهيم بإظهار أن مــا أوتيــه مــن رشــد كــان جــديرا بــه، إذ أن الله العالم بالخفايا وبحقائق النفوس علم صفاء قلبه، وحسن طويته، وأنه أهل لما آتاه.

52- إذ قال لأبيه ...التي أنتم لها عاكفون.

ربط معظم المفسرين هذه الآية بقوله " آتينا" وعلى هــذا الــربط اخــتص إيتــاءه الرشــد بقوله : ما هذه التماثيل ... والذي ترجح عنــدي أن قولــه " إذ قــال " مــرتبط بمقــدر " واذكر" ليكون الرشد الذي آتاه الله لإبراهيم ليس خاصا بهــذا الظــرف، بــل هــو رشــد مصاحب له ومن ذلك قوله : ما هذه التماثيل ...

من هداية الله واستقامة تفكيره، أنه لما نظــر فــي حــال أســرته التــي يسـيرها أبــوه، وتتبع ما عليه قومه في تصورهم للكون، رفــض مــا هــم عليــه مــن إســناد التصــرف فيه إلى الأصنام التي كانت من حجارة ومن خشــب ومــن مــواد أخــرى تمثــل أشــياء من بشر أو حيوانات. وبلــوا علــى ذلــك ملازمــتهم عبــادة التماثيــل والتقــرب إليهــا. رفض إبراهيم ذلك ولفت أنظارهم ليتأملوا في حقيقــة مــاهم عليــه، فســألهم : أخبرونــي ما حقيقة هذه التماثيل التي أنتم ملازمون لعبادتها والتقرب إليها؟

53-قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين.

لم يجدوا إلا جوابا واحــدا أنهــم مقلــدون لآبــائهم، الــذين كــانوا يعبــدونها، فتبعــوا آباءهم في تقديسها، وليس لهم رأي في ذلك.

54- قال بل ربكم رب السماوات ...على ذلكم من الشاهدين.

بعد أن فرّغهم من كل أساس حقيق بالاعتماد عليه في عبادتهم، وهز ما تواطؤوا عليه باعترافهم أن مبناه تقليد آبائهم فقط ؛ أصبحت حجته عليهم صادمة لمعتقداتهم ومحطمة لها منطقيا، فصرح لهم بأنهم انغمسوا في الضلال، وأن ضلالهم لا يحتاج لإقامة الدليل عليه فهو بين التهافت . يشتركون في ذلك مع آبائهم الذين رضوا بتقليدهم .

55- قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين .

صدموا بالرد الحازم لإبراهيم عليه السلام، ولم يجدوا إلا أن يستفهموه عن كلامه: هل هو جادٌ معبر عما يعتقد أنه الحق، أو حمله المزاح على ذلك. فأطلقوا اللعب على الكلام غير الجاد الصادر من الإنسان . لأنه بناء على ما استقر في عقائدهم وألفوه، واجتمعوا عليه، لا يتصور أن يستهين أحد بالآلهة المعبودة، إلا أن يكون على طريق المزاح المرفوض.

56- قال بل ربكم رب السماوات ...وأنا على ذلكم من الشاهدين.

ردّ عليهم مضربا عن كلامهم وما قدموه من الاحتمال، قائلا: ربكم الذي تولى خلقكم ووالى عليكم ألطافه حتى بلغتم المستوى الذي أنتم عليه، هو الذي أبدع السماوات والأرض وأحاطها بحسن تدبيره وقدر فيها مقاديرها. وأنا شاهد مقر بذلك، وليس لآلهتكم أي دور في نظام هذا الكون. إنني في زمرة الذين تيقنوا وشهدوا أن الخالق المبدع هو الله وحده. فأضاف إبراهيم إلى حجته الأولى حجة ثانية منزوعة من كتاب الكون، مؤكدة بأنه مدرك لها شاهد بما تيقنه.

57-وتالله لأكيدن أصنامكم ....مدبرين .

وإذ خلخل عقيدتهم بما ينادي به كتاب الكون من تفرد الله بالإبداع، وأن آلهتهم بمنأى عن أن يكون لها أي دور، انتقل عليه السلام من مخاطبتهم بما يقتضي تغيير ما هم عليه من المنكر في عبادة الأصنام، انتقل إلى تغييره وإعلاء الحق بالقوة، فشدّ عزمه في اتخاذ هذه الخطوة بالقسم بالله أنه سيدبر أمره لتحطيم أصنامهم، عندما تسنح الفرصة، بعودتهم إلى منازلهم وتركهم الأصنام منفردة .

فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا

يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

جذاذا: قطعا صغيرة .

نكسوا: النكس قلب الشيء من وضعه الأصلي إلى ما يناقضه.

أف : تدل على ضجر المتكلم لرفضه كلام الطرف الآخر .

بيان المعنى الإجمالي :

برًا بقسمه تقدم إبراهيم عليه السلام، فحطم الأصنام لما خلى المكان من العبّاد والسدنة. وأبقى على كبيرهم، رجاء أن يعودوا إليه يسألونه فيتبينون من صمته وعجزه بطلان ما هم عليه . بمجرد ما اطلع قومه على المشهد الذي تتناثر فيه فتات الأصنام، ثارت ثائرتهم وتساءلوا من الذي تجرأ على هذا؟ وحكموا عليه بأنه ظالم يستحق جزاء الظالمين . وتقدمت جماعة كانوا سمعوا إبراهيم وهو يتوعد فشهدوا: أنهم سمعوا فتى قوي البنية نشيطا يتوعد الآلهة يدعى: إبراهيم. وإذ انحصرت الظنون فيه قرروا أن يستنطقوه أمام الناس ليشهدوا عليه . وتم لهم ما أرادوا فجيء بإبراهيم وسألوه: هل أنت الذي حطمت الآلهة يا إبراهيم؟ أنكر أن يكون هو الذي يتحمل تبعة تحطيم الأصنام، وقدم لهم فرضا ذهلوا عنه. وهو أن يكون الصنم الأكبر هو الذي فعل ذلك، وتثبتوا فاسألوهم إن كانوا ينطقون لتسمعوا منهم . ارتجوا من هذا الفرض، ورجعوا إلى التأمل في كلام إبراهيم، رجوعا أدى بهم إلى الاعتراف أولا بأنهم هم الظالمون بعبادة الأصنام . وبعد زمن ليس بالطويل تغلب على قواهم العقلية ما ألفوه من تقديس الأصنام، وأعانهم الشيطان على المضي في هذه السبيل، فتوجهوا إلى إبراهيم منكرين عليه حجته: أنت عالم بأن الأصنام لا تنطق فكيف تطلب منا أن نسألهم عمن قام بالتحطيم. وإذ قد بدا تهافتهم كر عليهم بالإنكار أن يعبدوا ما لا ينطق وبالتالي هو عاجز عن النفع والضر . واحتقرهم واحتقر آلهتهم كشأن الإنسان عندما يؤذيه شيء من القاذورات، فيقول " أف" وأنكر عليهم في صيغة سؤال كيف انحدروا إلى مستوى من لا يعقل .

بيان المعنى العام :

58- فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون.

برّ إبراهيم بقسمه، فبمجرد رجوعهم إلى بيوتهم وخلوّ المكان من البشر، حطم الأصنام ونقض هياكلها وجعلها قطعا صغيرة مفتتة، وأبقى على كبير الأصنام. ومن هذا يتبين لنا دقة التعبير القرآني في قوله تعالى :" لأكيدن أصنامكم " إذ كان ما قام به عليه السلام عملا مدبّرا، وليس رد فعل غاضب. وفيه أيضا تعليم لمن يقوم بتغيير المنكر أن يكون قصده تحقيق الخير وإزالة الشر، وأن الحكمة تقود أعماله وتوجهه. كان من حكمة إبراهيم أنه لم يحطم كبير الأصنام، وإن كانت ظاهرة الإذلال تدعو لذلك، فدبّر الإبقاء عليه ليكون موقظا لهم من الضلال، فإبقاء الصنم الأكبر سليما داعية لهم ليعودوا إليه يسألونه. فيتبيّنَ لهم من سؤالهم أنه عاجز عن الإجابة كما كان عاجزا عن حماية أتباعه من الأصنام، فتسقط منظومة عقيدتهم في آلهتهم وقدراتهم التي عليها التزموا بعبادتها.

59-قالوا من فعل هذا ...لمن الظالمين.

يبدو المشهد مبرزا لقوم إبراهيم وهم ينظرون إلى حطام الآلهة متناثرا في المعبد. وهم يتساءلون ليعرفوا من تجرأ عليها، وحكموا عليه أنه من الفريق الظالم المتجاوز للحدود . والظالم جدير بأن ينال جزاء ظلمه.

60- قالوا سمعنا....يقال له إبراهيم .

يتقدم فريق كان قد استمع لتوعد إبراهيم وقسمه على كيد الأصنام، وأدلى بشهادته فقالوا: سمعنا فتى قوي البنية ظاهر النشاط يتوعدهم يدعى: إبراهيم.

61-قالوا فأتوا به...لعلهم يشهدون.

كان رجعهم الأول بعد أن قوي الظن بأن فاعل ذلك إبراهيمُ عليه السلام، أن يستقدموه، وأن يقرروه أمام الناس ليشهدوا على إقراره، وليكون ما يحكمون به عليه الجزاء العادل عن ظلمه في زعمهم.

62- قالوا أأنت فعلت... يا إبراهيم.

تمّ لهم ما أرادوا وحضر إبراهيم عليه السلام، وسألوه قائلين: هل أنت الذي فعلت هذا الفعل الشنيع بآلهتنا يا إبراهيم ؟

63-قال بل فعله كبيرهم...كانوا ينطقون.

مؤدى افتتاح جوابه بكلمة " بل " أنه ينفي عن نفسه هذا الفعل، وينبههم إلى أن التهمة ينبغي أن توجه إلى الصنم الأكبر، إذ بقاؤه سليما قرينة تدل على أنه هو الذي قام بهذا الفعل الغاضب، كراهة منه أن يشاركوه في الألوهية ويعبدوه

ويتقرب إليهم كما يتقرب إليه . وفي هذا الجواب لفت نظرهم من طرف خفي إلى أن الألوهية تنافي الشركة. قوموا بسؤال حطام الآلهة والصنم الأكبر ليخبروكم إن كانوا قادرين على النطق. واستشكل الناظرون في الآية قضية: هي كيف يخبر إبراهيم خبرا مخالفا للحقيقة نافيا عن نفسه ما فعله، وهو الذي آتاه الله رشده ورفعه إلى أرقى مقام يبلغه بشر إلى مقام النبوة السامي ؟ وأجاب بعضهم أنها كذبة يترتب عليها اهتداء قومه، فهي كذبة في ذات الله. الصلاح فيها أضعاف الإخبار بما يخالف الواقع. وعمل آخرون على التأويل . والذي ترجح عندي أن الكلام بتمامه وأن بقية الكلام مؤذن بأن إبراهيم لم يقصد مغالطتهم ولا أن يوقعهم في الخطأ وإنما قصد إلى هز عقولهم هزا جعلهم يراجعون أنفسهم في عبادتهم للأصنام.

64- فرجعوا إلى أنفسهم ...أنتم الظالمون .

توضح الآية نجاح إبراهيم عليه السلام الذي صدمهم كلامه صدما أعادهم إلى التأمل وإدراك الحقيقة. رجع كل واحد إلى التعمق في كلام إبراهيم، وانهار ما ترسخ في نفوسهم، بل نقضوه ناسبين الظلم إلى أنفسهم باتخاذ الآلهة معبودة من دون الله.

65- ثم نكسوا على رؤوسهم ... ينطقون.

تنازع في باطنهم قوة حجة إبراهيم مع ما ألفوه فترسّخ بفعل التقليد والعادة، فتغلبت قوة العادة على قوة الفكر. وجسم القرآن انقلابهم هذا بالشخص الذي استقام سائرا على رجليه، فانقلب رأسه إلى أسفل ورجلاه من فوق. وتحولوا من النظر الفكري إلى العناد والمكابرة، فقالوا لإبراهيم: إنك على علم بأن الأصنام لا تنطق. فما أردت بقولك إلا التنصل من جريمتك.

67/66- قال أفتعبدون ...أفلا تعقلون.

باغتهم إبراهيم بما يترتب على اعترافهم بعدم قدرة الأصنام على النطق، إذ من مستتبعات العجز عن الإفصاح أنه لا وجه لعبادتهم. إذ كيف يعبدون ما لا ينفع ولا يضر، إذ النفع والضر مقرونان بالقدرة على الإفصاح. ومن لا يفصح معدوم العلم والإرادة والقدرة. ثم أظهر إبراهيم الضّجر من مكابرتهم وطريقتهم في الحوار التي لا تخضع لمنطق. وحقّرهم وحقر آلهتهم بما تدل عليه كلمة "أف" التي تقال عند المستقذرات من الأشياء، فتجسّم المعاني وتطلق عليها. وأنهى كلامه بسؤال ينكر عليهم المستوى الذي انحدروا إليه، مستوى من فقد عقله.

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73)

بيان معاني الألفاظ:

حرقوه : تحريقا بالغا لا حياة بعده.

الأخسرين : جمع الأخسر، والمقصود به الخائبين .

باركنا فيها : أكثرنا خيراتها.

النافلة : الزيادة غير الموعودة .

أئمة : جمع إمام، وهو المقتدى به.

يهدون : يزكون نفوس الناس، ويصلحونها.

بيان المعنى الإجمالي :

امتلأوا غيضا وقرروا أن يُنزلوا بــه أشــد العــذاب . ولا عــذاب أشــد إيلامـــا، وأبلــغ إهلاكا من الإحراق بالنار، فقرروا أن يلقوه في النـــار حيـــا يعــذب ثــم ينقلــب رمـــادا. وحرضوا على التنفيذ بأن هذا هو الحكم الذي ينتصــر للآلهــة ممـــا فعلــه بهــم إبــراهيم. ودبّروا في خفية كل ما يمكنهم من التنفيذ، ورموا به فعـــلا فـــي النـــار. ويعلـــو المشـــهد الإرادة العليا لله سبحانه فيأذن النـــار أن تغيـــر طبيعتهـــا وتنقلـــب بـــردا يناســـب طبيعـــة إبراهيم فيخرج مـــن النـــار ومـــن البـــرد ســـالما دون أن يلحقـــه أي أذى. وخـــابوا فـــي تدبيرهم وانتصر الحق. ثم عذبوا بما لم يفصله القرآن.

وقدّر الله بعد ذلك من الأسباب التي انتقل بها إلـــى أرض بركـــة وخيـــر لكـــل مـــن نزلهـــا من البشر، يصحبه في سفره زوجه سارة وابن أخيـــه لـــوط. وفـــي مقامـــه الجديـــد أنعـــم الله عليه بولادة إسحق، الذي عاش في رعايتـــه إلـــى أن تـــزوج وأنجـــب يعقـــوب فكـــان زيادة على ما سأله إبراهيم" رب هب لي من الصالحين ".

مضت هذه الأسرة الطيبة في مقامهـــا الجديـــد، ميزتهـــا الصـــلاح والبعـــد عـــن الإثـــم. وقدر الله أن يكون أفرادها قادة يتـــبعهم النـــاس، يـــدعونهم بمـــا يوحيـــه الله إلـــيهم مـــن الأمر بفعل الخير والابتعاد عـــن الشـــر . وأداء الصـــلوات علـــى أكمـــل وجـــه، وبـــذل

الزكاة عن طيب نفس. وكانت المسْحة الغالبة عليهم، ظاهرة التعلق بالله وحده، يعبدونه ويفردونه بذلك ولا يشركون به أحدا.

بيان المعنى العام :

68- قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين.

أبهتهم إبراهيم وقطع عليهم كل حجة وعرّاهم من كل سند معقول في عبادة الآلهة، وأن المعبود بحق هو الله. وشأن الضّلال المستبدين إذا أعوزهم المنطق، وفقدوا الحجة أن يعتمدوا على القوة المادية والبطش الظالم. وكلما تخلخلت قوتهم ضاعفوا ظلمهم، فاجتمعت كلمتهم على إنزال أفظع عذاب به، وهو تحريقه تحريقا يتلفه ولا يبقى له أثرا في الوجود. والتحريق يدل على شدة حقدهم على إبراهيم، إذ هو يجمع بين الإيلام الشديد والإهلاك الماحق. وكانوا مدفوعين بالذود عن آلهتهم التي زيّفها إبراهيم. وفي قوله تعالى " إن كنتم فاعلين " ما يدل على التحريض لنفي التردد في التنفيذ. أي إن كنتم تذودون عن آلهتكم التي حطمها وأهانها وعن سخريته من ديننا ودين آبائنا.

69- قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم.

في هذا المشهد الرهيب والنار تشتعل وقد شمر الزبانية عن أيديهم ليلقوا إبراهيم في النار اللاهبة، وجمع المشركين يشهدون ما يظنون أنه سيشفي صدورهم . يحضرون إبراهيم ويلقونه في النار. ويُسقط في أيديهم ويخرج إبراهيم سالما لم يصب بأي أذى، لأن الذي خلق النار وجعل في طبيعتها الإحراق تجلّى وأذن إذنه المطاع، قلنا: يا نار كوني بردا وسلاما. إن الذي أعطاها طبيعة إحراق ما يقترب منها هو الذي سلبها ما أعطاها، فأذن أن تنقلب إلى الضد إلى برد لا يهلك بزمهريره، ولكنه برد فيه لطف وسلام على إبراهيم.

70-وأرادوا به...الأسفلين.

أخذوا كل الاحتياطات، وضربوا وجوه الرأي التي تمكنهم من إحراق إبراهيم، وسدوا المنافذ التي يمكن أن ينفلت منها. وعينُ الله ترقبهم، وتحُوط العناية إبراهيم، فينجلي المشهد عن خيبتهم خيبة ألجمتهم عن تدبير أمر آخر، وغُلبوا وانقلبوا صاغرين. وكانوا الفريق الخاسر بما سلطه الله عليهم من العذاب الذي لم يفصل في القرآن نوعه.

71- ونجيناه ولوطا....فيها للعالمين .

يسدل الستار عن محنة إبراهيم مع قومه، وقد نجاه ربه من النار التي أوقدوها لإحراقه. وآمن به ابن أخيه لوط عليه السلام، فهاجر من بلد قومه. وخرج إبراهيم بزوجه سارة وابن أخيه. وقصدا الأرض التي أكثر الله خيراتها وطيب هواءها، وجعل الحياة فيها ميسورة لكل من أقام فيها من البشر. وهذه الأرض اختلف المفسرون في تعيينها من فلسطين، إلى مكة، إلى الشام، إلى العراق. والذي يهمنا هو أن عناية الله صاحبته فكان يتحول من مرتبة إلى مرتبة أعلى وأوفر خيرا.

72- ووهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا صالحين .

في هذه البيئة الجديدة يتم الله على إبراهيم نعمته، فيولد له على كبر سنه من زوجه سارة الرسول الكريم " إسحق" ثم تستمر به الحياة حتى يرى ولد ولده "يعقوب " يبلغ مبلغ الرجال . فكان يعقوب زيادة في الخير . وهذا على أحد التأويلين . ويرى فريق من المفسرين أن إبراهيم سأل الله الولد فرزقه إسماعيل ثم رزقه إسحق فكان إسحق نافلة وزيادة في الخير، وكذلك يعقوب، اللذين من نسلهما الشعب اليهودي .

إن فضل الله بتيسير الإنجاب هو فضل عظيم، يدركه حق إدراكه العقيم من الناس. وفوق ذلك أن تكون الذرية طيبة لها مقام رفيع في الصلاح والخير يقتدي بها الناس، مما تتضاعف به المنة. وقد أكرم الله إبراهيم فجعل إسحق ويعقوب رجلين صالحين

73-وجعلناهم أئمة...وكانوا لنا عابدين .

وقد بلغت هذه الأسرة الكريمة من إبراهيم وولده وحفيده، قمة الصلاح إذ تجاوز الصلاح ذواتهم فكانوا قادة للبشر يقتفون سلوكهم، ويتعلمون من الوحي الذي يتنزل عليهم، ما تتزكى به النفوس ويثبّت الإيمان في القلوب . ومع تأثر الناس بالإصلاح النفسي والعقدي يبلغونهم وحي الله بفعل الخيرات، وأداء الصلاة على أكمل وجه مما يعمق الصلاح الباطني، والتطوع بالزكاة عن طيب نفس، وحب في المجتمع لتتمكن الصلات بين الطبقات، ويجتث دواعي الحسد. والسمة الخاصة بهم أنهم كانوا ملازمين لعبادة الله .

ملاحظة: في قصة إبراهيم تأنيس لرسول الله ﷺ، وبشارة بأن ما منّ الله به على إبراهيم سيجري عليه مثل تلك المنن . فقريش لا تستطيع أن تؤذيه إذاية تمنعه من إبلاغ ما أنزل إليه، وأنه سينتقل من مكة إلى دار تكون أسعد له في ما يستقبله من أمره. وأن هدايته سيحرص البشر على الأخذ بها عقيدة وأدبا وسلوكا وأحكاما.

وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحكم : الحكمة والنبوة.

العلم : علم الشريعة .

الخبائث : الأعمال الشنيعة القبيحة.

الكرب : شدة حزن النفس.

نصرناه من القوم : حميناه منهم.

بيان المعنى الإجمالي :

كما امتن الله على سيدنا إبراهيم تـولى بفضـله سـيدنا لوطـا، فآتـاه الله الحكمـة فـي أقواله وأفعاله، وأنزل عليه التشريع الضـابط للعلاقـات الاجتماعيـة وللطريـق المنجـي في الحياتين . ونجاه من أهل القرية التي ألفـت فعـل القبـيح الخبيـث، وشـهد الله فـيهم وهو العليم بالبواطن أنهم قوم فسـدوا تجـاوزوا الحـدود العقليـة والفطريـة. وأواه إلـى مظلة رحمته لما كان عليه من الصلاح في نفسه وسلوكه .

وكذلك كان الأمر مع سيدنا نوح، فإنـه لمـا يـئس مـن اهتـداء قومـه، دعـا ربـه أن يستأصلهم ولا يبقى أحدا منهم ولا مـن ذريـتهم، فاسـتجاب الله لدعائـه، نجـاه وأهلـه المؤمنين من الهول العظيم الذي لم ينج منه أحد . وحمـاه مـن القـوم المكـذبين بآيـات الله، المعاندين للحق. الـذين تأصـل السـوء فـي نفوسـهم وفسـدوا، فكـان جـزاؤهم العادل أن أغرقهم جميعا.

بيان المعنى العام :

74- ولوطا آتيناه حكما...قوم سوء فاسقين.

عطف القرآن الحديث عن سيدنا لوط عليه السـلام علـى قصـة إبـراهيم إذا كانـا فـي زمن واحد، وكان بينهما تواصل، آمن بـه وهـاجر معـه قطعـا لكـل صـلة بـأرض

المشركين، وسكن بعد هجرته قرية غير بعيدة عـن المكـان الـذي نـزل فيـه إبـراهيم، هي المؤتفكة. من أرض الشام .

حقق القـرآن أن الله اصـطفى لوطـا، وآتـاه الحكمـة فـي رأيـه وأقوالـه، والنبـوة المرتبطة بالوحي. هذا الوحي الشامل للتشـريع المحـدد للحقـوق والواجبـات والعلاقـات الاجتماعية، وهو المراد بالعلم. وهـذا الإثبـات القرآنـي لمزايـا لـوط ينفـي مفتريـات التوراة عنه، وما رموه به من الفعل السـاقط الـذي يتنـافى مـع الحكمـة والقيـام علـى التشريع .

بعث لوط في قوم فاسقين خارجين عن حـدود الأخـلاق وعمـا تقتضـيه طبيعـة التكـاثر البشري، كان في قريـة تستسـيغ العمـل الخبيـث المنكـر، وواصـلوا حيـاتهم علـى اللواط حتى غدا شأنا لهـم غيـر مرفـوض بحكـم الإلـف والعـادة، وترسـخ السـوء والفساد في سلوكهم، فعبر القرآن عـن تأصـل الفسـاد فـيهم بـأنهم كـانوا قـوم سـوء ومنكر، خارجين عن حدود الطبيعة والفطـرة، فقـدوا كـل القـيم وتسـفلوا إلـى حـد بعيد.

75- وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين.

ومع إنجائه من القوم الفاسقين وتكريمه بإنزال الـوحي عليـه، الـوحي الجـامع للعقيـدة والتشريع، أدخله الله تحت سحائب رحمتـه التـي لا مطمـح لمـن أوتيهـا فـي سـعادة فوقها، وعلل ذلك بأن طويّته وعمله بلغـا حـدا مـن الصـفاء والاسـتقامة يسـرا لهـا الدخول في مظلة الرحمة وكان من القوم الصالحين .

76/77- ونوحا إذ نادى...فأغرقناهم أجمعين .

تجري سنة الله مع رسله على طريق واحد، فهـو ناصـرهم بتأييـد مـن عنـده، فمـن قبل إبراهيم ولوط كانـت عنايـة الله بسـيدنا نـوح أول رسـول حملـه الله أمانـة دعـوة قومه إلى عبادة الله. بذل نـوح كـل مـا مكنـه الله منـه مـن الحكمـة والصـبر علـى المواصلة، وإقامة الحجة على الحـق الـذي جـاء بـه، إلـى أن يـئس مـن اسـتجابة قومه، فتوجه إلى الله وقد ضاقت به سبل النجاح فـي إخـراج قومـه مـن الشـرك إلـى الإيمان أن يهلكهم، فاستجاب الله لدعائه، ونجـاه وأهلـه المـؤمنين مـن أن يحـل بهـم الكرب والبلاء العظيم. وأي كرب هو؟ هو الماء النازل مـن السـماء المنبعـث مـن كـل مكان من الأرض الذي يعلو ويعلو حتى بلغ قمم الجبال، الآخـذ بكـل قـائم علـى رجليـه يغمره ويحبس عليه أنفاسه ثم يطفو جثة هامدة. وحمـى الله نوحـا ممـا دبـره لـه قومـه من الإذاية، القـوم الـذين كانـت سـمتهم التكـذيب بمـا عـرض علـيهم مـن الأدلـة

والمعجزات. إنهم كانوا قوما فاسدين، فكـان تنفيـذ التقـدير الإلهـي فـيهم باستئصـالهم غرقا لم يفلت منهم أحد.

وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

نفشت: دخلته ليلا وأفسدته.

حكما وعلما : حكمة النبوة وعمق في الفهم .

لبوس : ما يلبس مما يحمي به المحارب نفسه.

الإحصان : الوقاية والحماية.

البأس : الحرب .

بيان المعنى الإجمالي :

كشفت هذه الآية عـن تعلـيم المـؤمنين قيمـة الاجتهـاد ومنزلـة النباهـة فـي معالجـة الأمور. كان داود عليه السلام نبيا وملكا وقاضيا . ترافـع لديـه خصـمان أحـدهما كـان قائما على زروع لجماعة، وكان الآخـر راعيـا لقـوم آخـرين .دخلـت غـنم الراعـي على المزارع ليلا فأفسـدتها .رأى داود أن مـن حـق صـاحب الأرض أن يتملـك الغـنم مقابل الفساد الذي أحدثته، والظاهر أن قيمة إفسـادها غيـر بعيـد عـن قيمتهـا . ولمـا خرج الخصمان من عنـده لقيهمـا ابنـه سـليمان عليـه السـلام، وأخبـراه بقضـيتهما وبحكم داود والده. فكان رده: إني لو كنت الحاكم لحكمـت حكمـا آخـر. لمـا سـمع داود المقالة دعا ولده، واستفسره عن رأيه، فقـال : أرى أن تسـلم الغـنم لصـاحب الـزرع سنة ينتفع بـدرها وصـوفها ونسـلها، وأن تسـلم المـزارع لصـاحب الغـنم يحرثهـا ويزرعها عاما فإذا عادت المزارع لما كانـت عليـه، يأخـذ عنـد ذلـك صـاحب الغـنم غنمه ويرد على صاحب الأرض مزارعه. فاستحسن داود حكـم ابنـه وقضـى بـه . مـا كان حكمهما غائبا عن علم الله، ولكن ترك القضـية تجـري فـي مسـارها ليكـون منـه عبرة، ونوّه بفطنة سليمان. حقـق أن كـلا مـن داود وسـليمان قـد آتاهمـا الله الحكـم وعلم النبوة، وبذلك فإن من اجتهد وكان في الأمـر اجتهـاد أفضـل، فالمجتهـد الـذي بذل جهده معترف بفضله . وقيمة البشـرية فـي الخـروج مـن التقليـد الأعمـى إلـى

الاجتهاد البصير . وداود على حظ عظيم من التكـريم فقـد سـخر الله الجبـال والطيـور لتؤنسه في تسبيحه، فيحس بتسبيحها معه .وقد تم ذلك فالله لا يعجزه شيء .
وكذلك علّمه الله كيف يصنع من الحديد حلقا خفيفـة الـوزن ثـم يصـل بينهـا فـي دقـة تلبسونها في حـروبكم فتكـون وقايـة لكـم مـن ضـربات السـيوف وطعنـات النبـال والسهام. استيقظوا وكونوا شاكرين لنعم الله عليكم.

بيان المعنى العام :

79/78- وداود وسليمان...وكنا فاعلين.

واصل القرآن ذكر الموحى إليهم من بني إسـرائيل بعـد موسـى وهـارون. فنـوه بـداود وسليمان عليهما السلام، وكل واحد منهما أوتـي النبـوة، وبلـغ الله إليـه الـوحي الـذي يرتبط في أصوله بشريعة موسى عليه السلام. فكانا نبيين لا رسولين.
تفيد الآيـة : أن داود عليـه السـلام كـان ملكـا نبيـا، يتـولى بنفسـه القضـاء بـين المتخاصمين من رعيته . فكان من أمره أنه جلس يومـا للقضـاء فـدخل عليـه رجـلان: أحدهما قائم علـى زرع جماعـة مـن النـاس أو كـرمهم، والآخـر راع لغـنم جماعـة أخرى. يشكو القائم على الزرع أن غنم الراعي دخلت لـيلا إلـى الـزرع فأفسـدته. قلّـب داود الرأي، فترجح عنده أن الغنم تعدت علـى الـزرع فيسـتحق أن يتملكهـا صـاحب الزرع تعويضا عما خسره. وبسـاط القضـية يـدل علـى أن القيمـة متقاربـة . فكـان عادلا في حكمه وهو ما يقتضيه الظـاهر. خـرج الخصـمان مـن عنـد داود فلقيـا ابنـه سليمان عند الباب، فسألهما عن قضيتهما وبـم حُكـم عليهمـا، فـأخبراه . عنـدها قـال سليمان لو كنت القاضي لحكمت عليكما بغير هذا. بلغ الخبـر داود فـدعا ابنـه وقـال لـه بم كنت تحكم ؟ قال :يأخذ صاحب الغـنم الأرض فيقـوم عليهـا سـنة حتـى تعـود كمـا كانت، ويأخذ صاحب الزرع الغنم يقوم عليهـا وينتفـع بنسـلها ودرهـا وصـوفها إلـى تمام السنة. ثم يدفع كل منهما المـال لصـاحبه عنـد الأجـل. أعجـب داود بحكـم ولـده سليمان وسر الوالد أيما سرور بتوفيق ولده على حداثـة سـنه، وحكـم برأيـه . وعقّـب القرآن على هذه القضية بأن الله كان شاهدا لما حكما بـه، وهـو الـذي لا يعـزب عـن علمه شيء، وأراد أن يمضي الأمر إلى نهايته ليكون جامعا لعبر كثيرة منها:
أولا: إذ بتنويهه بهما وبأن كلا منهما كان علـى حـظ مـن العلـم والحكمـة مـا يعطـي تقديرا للعالم المجتهد الذي يبذل جهده للتعرف على ما يظـن أنـه الحـق، وأنـه إذا كـان حاكما فحكم بما ترجح عنده لا يسأل عما حكم به، ولـو احتمـل الأمـر حكمـا مخالفـا لما ظنه.

ثانيا: أن الصواب لا يتبع السـن، ولا المنزلـة الاجتماعيـة. ففـي هـذه القضـية كـان الوالد داود هو الملك والقاضي، وسليمان ما يزال يافعا ولـيس لـه مـن الحكـم شـيء . وعلى هذا يكون التقدير في الإسلام تابعا للحق لا للسن ولا للسلطان.

ثالثا: أن هذا الحكم وقد صدر في وقت يكـاد يكـون واحـدا، علـى اتجـاهين مختلفـين ولم يكن عن وحي، يثبت مـا يرضـاه الله للبشـر: أن يجتهـدوا ويجعلـوا رائـدهم فـي اجتهادهم العدل والحق .

رابعا : أن الخطأ عن اجتهاد ونظر لا ينزل بالمخطئ ولا يحـط مـن شـأنه فقـد بقـي داود على سلطانه مؤيدا بالوحي. وفي كل ذلك من عبر تهدي البشر.

سجل القرآن عقب قصة القضاء، مـا خـص الله بـه داود مـن الفضـل. كـان داود إذا سبح الله ونزهه أحسّ بأنه فـي موكـب مـن التسـبيح والتقـديس، وتبـين لـه صـوت ينطلق من الجبال الراسية، ومـن الطيـور فـي الجـو . إنـه صـوت مرتـل للتسـبيح والتمجيد لله الخلاق العظيم، ولكن البشـر لـم يرزقـوا القـدرة علـى إدراك مـا يصـدر عن تلكم الكائنات قال تعـالى (وإن مـن شـيء إلا يسـبح بحمـده ولكـن لا تفقهـون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا)[1] فما كـان لبشـر أن يحـس بتسـبيحة الكـون ويـأنس لتلكم الجمادت في ترنيمتها السـرمدية، ولكـن الله خـص داود بإحساسـه لغـة تجـاوب الجبال والطيور وهو يسبح .

80- وعلمناه صنعة لبوس ....فهل أنتم شاكرون .

أردفت هذه الآية مزية لداود على البشر أفـادوا منهـا قرونـا متتابعـة، أسـند الله لنفسـه أنه علمه تجويد صناعة الحديد، فأخرج منه دروعـا واقيـة للجسـم مـن آلات الحـرب : السيوف والرماح والنبال. وبعد أن كانـت الـدروع عبـارة عـن صـفائح حديديـة ثقيلـة تقيد حركات المقاتل، ولا يستطيع حملها مـع آلات الحـرب إلا الأشـداء الأقويـاء. أعـان الله داود فعوض الصفائح بحلق خفيفة الوزن واقية للجسـم ونسـج منهـا الـدروع. وأخـذ هذه الصناعة بعده البشر في أنحاء الأرض وحمت أجسـادهم إلـى أن تـم صـنع البـارود الفتاك. يبدو من هذه الآية شرف تجويد الصناعة والعناية بهـا، فهـي تعلـيم إلهـي لنبـي كريم. ومن أسباب تأخر العالم الإسلامي تهـوين قيمـة الصـناعة حتـى أصـبح الصـانع المُجوِّد له مرتبة الدون، وإن كان المقدمون محتـاجين إلـى معرفتـه وفنـه. وهـو مـن اختلال سلم القيم في المجتمعات غير الواعية .

[1] سورة الإسراء آية 40

وتختم الآية بالتحريض على التأمل في نعـم الله علـيكم، تـأملا يفـرض علـيكم شـكر تلكم النعم. وصيغ ذلك في صورة السؤال ليكون به التنبيه أتم.

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

عاصفة : قوية، شديدة الهبوب .

بأمره : حسب رغبته.

بيان المعنى الإجمالي :

سخر الله لسليمان ما لم يمكّن منه أحدا .سخر لـه الـريح تسـعد سـفنه فـتأتيها علـى أوفق نحو تطلبه من قوة أو ضعف، ومن اتجـاه ممـا يضـمن لهـا السـلامة والوضـع المواتي لها لتبلغ بما تحمله الأرض المباركـة التـي يسـكنها. وهـذا التقـدير هـو تـابع لعلمنا المحيط بكل شيء. كما سخر له الجـن والشـياطين يقومـون بخدمتـه، يغوصـون في أعماق البحار يستخرجون اللآلـئ والمرجـان، وينجـزون لـه الإنجـازات الرائقـة. وقد مكنه الله منهم فطوعهم له دون أن يؤذوا أحدا أو أن يتمردوا.

بيان المعنى العام :

81- ولسليمان الريح ...بكل شيء عالمين.

هذه الآية وُفّق في بيان المَراد منها الشيخ محمد الطـاهر بـن عاشـور رحمـه الله توفيقـا اختص به، فأنا أتابع فهمه قائلا: أن الله سخر الـريح تحقـق لسـليمان مـا يكـون أوفـق له في حياته وتـدبير أمـر مملكتـه، فـي حروبـه وغزواتـه، أو فـي حركـة سـفنه التجارية عبر البحر صادرة من الشام أو عائدة إليه . وهو مـا جـاء فـي سـورة سـبأ : (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) [1].

ووصفت الريح بكونها قوية الهبوب في هذه الآيـة ووصـفت بأنهـا رخـاء فـي سـورة ص (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء)[2] وهو ما يلتـئم مـع قولـه فـي هـذه الآيـة تجري بأمره، أي على ما يلائمه في تدبير أموره . ففـرق بـين أن يكـون هـو راكبـا

[1] سورة سبأ، آية 12

[2] سورة ص، آية 35

للبحر، وبين أن تكون المراكب حاملة للسلع. وفـرق بـين السـلع التـي تتطلـب سـرعة نقلها، وبين السلع التي تتطلب الهدوء في تحويلها.

وختمت الآية بما يحقـق مضـمونها: أن الله الـذي سـخر الـريح لسـليمان، لا يخفـى عليه شيء، مكن سليمان من ذلك ليكون أعـون لـه علـى عمـارة الكـون ونشـر كلمـة الحق، ولأن ما طبع عليه من صلاح يجعلـه يسـير الـريح إلـى الخيـر . وهـو العلـيم متى يكون سير الريح أنفع إذا كانت قوية أو رخاء. وهـو العلـيم بالغايـات التـي تترتـب على الأفعال.

82- ومن الشياطين ..لهم حافظين .

هذه قضية من قضايا الغيب، ذكـر القـرآن أن الله سـخر الجـن والشـياطين لسـليمان، وطوّعهم لتنفيذ أوامره، ويتأتى للجن والشياطين مـا لا يتـأتى للبشـر . إنـه كمـا جـاء في الآية لهم قدرة على الغوص في أعماق البحـار ليسـتخرجوا اللؤلـؤ والمرجـان. كمـا لهم مهارة ينجزون بها أنواعا أخرى كما جاء في سورة سـبأ ((يعملـون لـه مـا يشـاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابي وقـدور راسـيات)[1] وجمـع الله لسـليمان بـين عمل البشر وعمل الجن مع اختلاط بعضهم بـبعض، يسّـر لـه ذلـك بتطـويعهم للعمـل دون أن يؤذوا أحدا أو أن يتمردوا عن أوامره. وهـو معنـى وكنـا لهـم حـافظين، مـن التعدي على من يعمل معهم من النـاس، ومـن التمـرد علـى أوامـره. وناحيـة الغيـب تتمثل في الكيفية التي تم له بها ذلك.

۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

المس: الإصابة الخفيفة .

الضر : ما ألم الإنسان من سوء في بدنه أو أهله أو ماله.

الكشف : الإزالة السريعة.

بيان المعنى الإجمالي:

---

[1] سورة سبأ آية 13

أعطى الله النبوة والحكمة لأيوب عليـه السـلام، وبـرزت آثارهمـا فـي ذلـك الظـرف الذي أحاطت به المصائب فتوجه إلى ربه فـي صـبر جميـل وحيـاء عارضـا وضـعه: رب إني مسني الضر ، وأنت أعلم بحالي، أنـت أرحـم الـراحمين لا تـوازي أي رحمـة رحمتك. إثر هذا التضرع الخاشع عجّـل بشـفائه شـفاء لـم يتـرك أثـرا مـن سـقمه، وعوّضه عن أولاده الذين مـاتوا ضـعفهم. وذلـك تحقيقـا للرحمـة التـي ذكرهـا فـي ابتهاله فشملته الرحمة الصادرة عن الفيض الإلهـي. وليتناقلـه العابـدون فيتـذكرون مـا حصل لأيوب من البلاء ومن النجاة .

بيان المعنى العام :

83- وأيوب إذ نادى ...وأنت أرحم الراحمين.

وآتينا أيوب النبوة التي بـرزت آثارهـا فـي الظـرف الـذي توجـه بالنـداء إلـى ربـه مستشعرا عظيم فضله وقربه مناديـا : إنـي مسـني الضـر وأنـت أرحـم الـراحمين . يذكر المفسرون أن أيـوب عليـه السـلام آتـاه الله المـال الـوفير والذريـة الصـالحة والهناء في حياته العائلية. وتصرّف القدر المحتوم فـافتقر بعـد غنـى، واسـتوحش بعـد أنس إذ مات جميع أولاده، ومرض بعد صـحة وقـوة. فتلقـى أيـوب كـل ذلـك بصـبر جعله مضرب المثل للصبر الجميل الذي لا شكاية معـه . فكـان الرجـل الصـابر علـى البلواء، الراضي بالقضاء، لم يزده ضره إلا تعلقـا بربـه وحسـن رجـاء فـي فضـله . وبلغ حياؤه من ربه أنه عرض ما تجمع عليه مـن البلايـا بقولـه رب إن مسـني الضـر ، دون أن يفصله، واستحيى أن يـدعو كشـفه اعتمـادا علـى أنـه سـبحانه أعلـم بحالـه، وظهر صبره في عرضه إذ قال: مسـني الضـر ، والمـس يعبـر بـه عـن الإصـابة الخفيفة، مع أنه ضره كان قاسيا . واكتفـى بـالتعريض عـن التصـريح بالـدعاء فقـال: وأنت أرحم الراحمين. والله هو الموصوف بكونه أرحـم الـراحمين. نعـم إنـه لا يمكـن أن تقارن أي رحمة برحمة الله لأمرين: سعة الرحمة الإلهيـة التـي شـملت كـل شـيء، ورحمته تابعة لكماله لا لنفع حقيقي أو معنوي، وهو ما لا يتوفر في رحمة غيره.

84-فاستجبنا له ... وذكرى للعابدين.

حقق الله ما استحيى من الدعاء به صـريحا، شـفاه مـن سـقمه، فكـأن السـقم كـان يغشّيه فذهب عنه كما يرفع الغطاء دون أن يترك أثـرا، وعـوّض لـه مـن مـات مـن ولده مضاعفا .وكل ذلك من آثار الرحمة الصـادرة مـن الفـيض الإلهـي . وليكـون مـا حصل لأيوب فيه ذكرى يتناقلها البشر من بعده، تبهـت الآيـة إلـى مـا يحصـل عـن

الصبر والالتجاء مع الإخلاص إلــى الله مــن تنــزل الرحمــات علــى المــؤمنين الــذين جمعوا بين صفاء الإيمان والإخلاص في العبادة.

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ

بيان معاني الألفاظ :

ذو الكفل : الوفي بالنصيب الذي تعهد به.

النون : الحوت .

نقدر عليه : يحتمل أن لن تضيق عليه، ويحتمل لن نؤاخذه.

استجاب : أجاب إجابة قوية مؤكدة.

بيان المعنى الإجمالي :

ثلاثة من الأنبياء نوه الله بهم يشتركون مع سـيدنا أيـوب فـي خلـق الصـبر الجميـل، هم إسماعيل أبو العرب صبر وقبل تنفيذ رؤيا أبيـه أن يذبحـه ولـم يفـر ولـم يمـانع، وإدريس وذو الكفل، ولم يفصل القـرآن شـيئا مـن صـبرهم الـذي بلغـوا فيـه غايـة بعيـدة، وأن الله شـملهم برحمتـه، وأدخلهـم فـي زمـرة المرحـومين مـن عبـاده الصالحين.

واذكر يونس صاحب النون الذي ابتلعه الحوت، في ذلـك الظـرف الـذي فـارق مكـان بعثته غاضبا أشد الغضب من قومه الذين رفضـوا دعوتـه، ظانـا أن الله سـيحوله إلـى قوم آخرين يؤمنون بما جاء به، خـرج دون أن يسـتأذن ربـه. فسـلط الله عليـه حوتـا وهو في البحر فابتلعه. ولم يفقد الرجاء في الفضـل الإلهـي وقـد أطبقـت عليـه ظلمـة جوف الحوت وظلمة قاع البحر وظلمة الليل، فنادى بـإخلاص كامـل لـم تشـبه شـائبة معترفا بأنه لا إله يكشف الكرب ويجيب المضـطر، ويفـتح أبـواب الرجـاء، إلا أنـت يا الله، فكن لي في كربي، إني معترف بأني كنت مـن الظـالمين بعجلتـي فـاغفر لـي تقصيري . أكد القرآن أنه أجاب دعاءه، وكشف عنـه ضـره، ونجـاه مـن الغـم الـذي أحاط به. وعلى ذلكم النحو نتصرف بقدرتنا وفضلنا فننجي المؤمنين من كربهم .

بيان المعنى العام:

86/85-وإسماعيل وإدريس...إنهم من الصالحين .

ألحقت هذه الآية ثلاثة مــن الأنبيــاء لــم يفصــل القــرآن فيهــا التعريــف بهــم، إلا أن رابطتهم بأيوب هي الصبر الذي بلغوا فيه غايات بعيــدة . فــأثنى الله علــيهم بعمــق هــذا الخلق فيهم ، مما يدعو المــؤمنين لاتبــاع مــنهجهم فــي الصــبر ليرتقعــوا بــه إلــى مقامات ترضي الله. وقد ذكر القــرآن أن إســماعيل بــن إبــراهيم صــبر لتنفيــذ رؤيــا والده بذبحه، وصبر علــى الســكنى بــواد غيــر ذي زرع .وأمــا صــبر إدريــس وذي الكفل فعمدة المفسرين فيه ما روته التوراة. أعرضــت عنــه، والمُتَــيقّنُ هــو أن حظهــم من الصبر كان عظيما اعتمادا على هــذه الآيــة. وأن الله شــملهم برحمتــه وجعلهــم مــن الزمرة المرحومة برحمته الخاصة، جزاء ما هم عليه من صلاح.

87 - وذا النون إذ ذهب...وكذلك ننجي المؤمنين .

تتحدث الآية عن قصة يونس بن متى ﷺ وذكره القرآن خمس مرات. أربعة مواضع باسمه، ومرة واحدة هي هذه (بلقبه : ذي النون) ومعنى ذي النون صاحب الحوت، لتفرده بإنجاء الله له من الحوت بعد أن ابتلعه، فكان بينه وبين الحوت صلة بها تمت نسبته.

يقول الله لنبيه: واذكر للاعتبار ما تم ليونس ذي النــون. فقــد خــرج مــن مكــان إقامتــه وقد امتلأ غضبا علــى قومــه .فكلمــة مغاضــبا مــأخوذة مــن الغضــب علــى صــيغة المفاعلة التي تقتضي تشاركا بين اثنين، كما تقــول تقاتــل إذا كــان القتــال مــن كليهمــا، وكذلك تشارك وتعاون ...، وعلى أن المعنى علــى المفاعلــة مــن جــانبين ذهــب ابــن عباس ﷺ ، أي إن قومه أغضبوه بإعراضــهم، وهــو غاضــب علــيهم مــن رفضــهم الهداية التي دعاهم إليها. كما يحتمل أنــه لــم يُــراع إلا غضــبه الشــديد علــيهم فعبــر بصيغة المفاعلة كشفا عن شدة غضبه . وذهب الشــيخ ابــن عاشــور إلــى أن المقصــود تشبيه وضعه النفسي عند خروجه بوضع الغاضب علــى قومــه. وعلــى جميــع التقــادير فإن يونس عليه السلام لم يُقِمْ في مكان دعوته وخــرج غيــر راض قطعــا عــنهم لعــدم إيمانهم ، وهو وضع يغضب منه الرســول، الحــريص علــى إيمــان قومــه لإخــراجهم من الكفر . وإحساسُه بذلك إحساسٌ قوي فعبر عنه ب "مغاضبا"

إذن خرج من مكان الدعوة وابتعد عــن قومــه اســتجابة لمــا خطــر لــه إلــى درجــة الاقتناع : أن قومه ميؤوس من اهتدائهم. خرج ولــم يســتأذن ربــه الــذي أرســله وهــو أعلم بما قابله به قومه. وظــن أن الأرض واســعة، وأن الله لــن يضــيق عليــه بقصــره على هؤلاء المعاندين. وأنه إن لم يفلح فــي هدايــة قومــه ســيجد قومــا آخــرين يهــديهم ويصلح عقيدتهم وتصورهم، ويُكوِّنُ منهم أمــة مؤمنــة صــالحة. حملــه الحــرص علــى اتخاذ هذه الخطوة، وإن كانت هذه البارقة التي اقتنــع بهــا بارقــة مضــللة؛ إذ أن الــذي

خلق الأقوام كلهم تخيره لإصلاح القوم الذين بعثه فيهم دون غيرهم من الأقوام. ذلك أن بعثة المرسلين قبل محمد ﷺ كانت بعثة خاصة، وتفرد خاتم الأنبياء بالبعثة العامة: (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا)[1] وهذا هو المعنى الذي ترجح عندي. ويمكن أن يكون المعنى أن يونس ظن أن الله لا يحكم عليه حكما فيه مؤاخذة بخروجه عن قومه. وهو اجتهاد أخطأ فيه. وكما سيأتينا في سورة الصافات أن الحوت ابتلعه وهو في البحر، وقد أطبقت عليه الظلمات ظلمة قعر البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت، وهي حالة ميؤوس من النجاة منها، إلا أن يونس كان واثقا من أنه لا عسير على القدرة الإلهية، فاستغاث ربه استغاثة صدرت عن نفس تعلقت بالفضل الإلهي ولم يخالطها في ذلك الظرف أي تصور ولا إحساس إلا إحساس القرب والرجاء، نادى في تلكم الظلمات لا إله يكشف الكرب وييسر العسير، ويغفر الذنب، إلا أنت يا رب، ثم جرد نفسه محاسبا لها معترفا بخطئها، مخاطبا بقوله : إني كنت من الذين ظلموا أنفسهم. فاستعجلت أمرا كان لي فيه أناة، وكان الواجب علي أن أنتظر الإذن من الله الذي بعثني.

صرح القرآن بأن الله أجاب تضرعه وقبل توبته قبولا عفا عن تقصيره وعجلته، ونجاه من الكرب الذي أحاط به، وما استقر في باطنه من الغم الشديد. فقلب سواد غمه إلى تفاؤل وإشراق وانتظار للخير من رب العالمين. وعلى هذا النحو من الغوث السريع والمستجيب لدعاء المؤمنين، ننجيهم من الكربات ونفتح لهم أبواب الفضل والرجاء . ونفتح لهم في المستقبل فوق ما يتوقعون . وفي ذلك تعريض بكفار قريش الذين ضيقوا على المؤمنين، وظنوا أنهم واقعون تحت سيطرتهم، إن تصوراتهم تصورات كاذبة، وأن الله سينصر المؤمنين فتكون لهم الغلبة في النهاية.

وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾

بيان معاني الألفاظ :

[1] سورة الأعراف آية 158

لا تذرني فردا : ارزقني نسلا.

الرغب : الرجاء في تحصيل مطلوب .

الرهب : الخوف من العقاب .

الخشوع : مظهر التذلل على الأعضاء تبعا لتذلل القلب.

بيان المعنى الإجمالي :

أحسّ زكرياء بتقدم سنه، وتألم إذ لم يكن له ولد يــأنس بــه فــي حياتــه، ويخلفــه فــي علمه ودينه بعد وفاته. دعا ربه دعوة الواثــق المضــطر أن يرزقــه ولــدا يرثــه، ومــن صفات الله أنه خير الوارثين. فحقق الله له ما طلبــه، ووهــب لــه ولــدا صــالحا، هــو يحيى من زوجه التي أصلح ما كان فيها من خلل يعوقها عن الإنجاب.

إن ما تفضلت به على رسلي وأنبيائي المذكورين في هــذه الســورة، كــان كفــاء إقبــالهم في حب لتنفيذ ما أريده مــنهم، هــم يلازمــون فعــل الخيــر ويبتعــدون عــن الشــرور، ويواصلون الدعاء، وقد عمرت نفوسهم بالرجــاء فيمــا عنــد الله، واستحضــروا الخــوف من بطشه، وكان الخشوع ظاهرا وباطنا صفة ملازمة لهم .

واذكر مريم منوها بعفافها. فهي التي حافظــت علــى طهارتهــا ولــم يتصــل بهــا ذكــر. وأن الله قد اختارها لتكون مظهرا لعظيم قدرتــه. فنشــر فــي كيانهــا القــوة التــي تكــون بها الحياة (الروح) ليحل في جنينها، فإذا كانــت الخليــة الأولــى للإنســان مكونــة مــن البييضة واللقاح، فإنه في حمــل مــريم حلــت الــروح فــي البييضــة بتكــوين إلهــي . فكانت مريم معجزة، كذلك كان تكون ابنها، كــل واحــد منهمــا كــان معجــزة مناديــة بقدرة الله العليم الحكيم الذي لا يعجزه شيء.

بيان المعنى العام :

89- وزكريا إذ نادى...وأنت خير الوارثين.

واذكر النبي زكرياء في ذلك الظــرف وقــد تقــدمت بــه الســن، وتضــاعف إحساســه بالأسى أن لا يكون له ولد يرث عنه علمــه وأخلاقــه ودينــه، فنــادى ربــه داعيــا : أن لا يتركه وحيدا ليس له من صلبه مــن ينضــم إليــه، و يــأنس بــه فــي شــؤون الــدنيا والآخرة . وقدم بين يدي دعائه ما يرجى به الإجابة مــن حســن الثنــاء علــى الله، فإنــه خير الوارثين. فإذا كان الولد يرث عن أبيه أخلاقــه ومالــه ومــا يــدين بــه، فــإن ذلــك الميراث سينقطع بعد أمد، إذ يلحق الفرع الزوال كما لحــق الأصــل، بينمــا رجــوع مــا عند الإنسان إلى الله رجــوع لا يلحقــه الفنــاء، ويترتــب عليــه مــن الجــزاء مــا لا

يستطيع الولد تحقيقه لوالده، فيكون انتفاع المورِّث بما تركـه مـن الخيـر ممـا اختص به الله .

90-فاستجبنا له ...وكانوا لنا خاشعين .

هذا الدعاء الصادر من زكرياء جمع بـين الإخـلاص والوثـوق فـي فضـل الله الـذي هو رشح الاعتماد عليه مع طرح ما جرت عليـه العـادة . دعـا ربـه وقـد تقـدمت بـه السن، وكانت امرأته عاقرا، لكن قوة إيمانه انطلقـت بـه إلـى التوجـه إلـى الله رغـم ذلك مستشعرا أنه الفاعل المختار الذي لا يعجزه شيء.

فبمجرد ما دعا تقبل الله دعاءه، ويسر لـه أن تحمـل زوجتـه بيحيـى، فحـول امرأتـه من عقيم لا تلد إلى قبولها للحمـل، وأصـلح مـا كـان فيهـا مـن خلـل يعوقهـا عـن الإنجاب .

تتابع في هذه السورة عرض ما مـن الله بـه علـى أنبيائـه ورسـله : موسـى وهـارون وإبراهيم ولوط، وإسحق ويعقـوب، ونـوح، وداود وسـليمان، وأيـوب، وإسـماعيل وإدريس، وذي الكفل، وذي النون، وزكريـاء . ثـم أظهـر فـي ختـام هـذه الآيـة –90– ربط ما تفضل به عليهم من تأييد واسـتجابة الـدعاء، وتحقيـق المطالـب، ربطـه بحرصهم على فعل الخيرات، ومقـتهم للشـر، وداومهـم علـى ذلـك، وتعلقهـم بـالله يلجؤون إليه راغبين فيما عنده من خزائن الفضـل الـذي لا يحـد ولا ينفـد .مـع رهبـة من طردهم عن تلكم الخزائن. أي مستشـعرين أن مـا هـم عليـه مـن عنايـة وتيسـير مرده إلى ما خصهم الله به من نعم، فهم حـذرون أن يتـركهم لنفوسـهم فيهلكـوا، ولـذا رافقهم الخشوع في حياتهم والتذلل ظاهرا وباطنا لرب العزة الفعال لما يريد.

91-والتي أحصنت فرجها...آية للعالمين.

عطف القرآن على سلسـلة النبيـين والمرسـلين مـريم البتـول عليهـا السـلام . ولـم تذكرها الآية بالاسم، وإنما ذكرتها بصفتها تسـفيها لمـا رماهـا بـه اليهـود، فبشـهادة الله العالم بالظواهر والأسرار هي التي عفت فمنعت فرجهـا مـن الزنـا ولـم يقربهـا أي إنسان . واختارها الله لتكون مظهرا للقـدرة الإلهيـة التـي لا يعجزهـا خـرق العـادات. لتكون مع ابنها آية مـن آيـات الله الدالـة علـى أن الأسـباب الطبيعيـة لا تقيـد الإرادة الإلهية ولا تقف حائلا دون تنفيذ ما تعلقـت بـه. وعبـر القـرآن عـن الحادثـة الخارقـة للعادة بقوله: **فنفخنا فيها من روحنا** – وهو تقريـب لمـا تـم علـى أنـه إنجـاز لطيـف كنفخ الهواء من الفم لا يشاهد ولا يكـاد يسـمع، سـرى فـي كيانهـا تلـك القـوة التـي

تنتشر بها الحياة (من روحنا) وأضاف الروح لذاته العلية تشريفا لذلك الحاصل الذي به سرت الحياة في عيسى عن طريق أمه .

ولما ثبت يقينا بشهادة الله أن حمل مريم بعيسى كان خارقا للعادة، فإنه تبعا لذلك كان عيسى المولود من أم وبدون أب، ومريم التي حملت، كانت عفيفة لم يقربها ذكر، ولا اختلطت ببيضتها بحيوان منوي . كان كل منهما آية دالة على أن القدرة الإلهية تتصرف كما تشاء في الكون . فيكون من هذه الحادثة ما يزيد المؤمنين قوة ووضوحا في تصورهم للكمال الإلهي الذي لا يخضع للأسباب الظاهرة.

إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

أمتكم : ملتكم ودينكم.

تقطعوا : تفرقوا.

أمرهم : حالهم في الدين والعقيدة.

لا كفران لسعيه :لا يحرم جزاء عمله الصالح.

حرام: ممنوع.

أهلكناها : قدرنا إهلاكها وسحقها.

بيان المعنى الإجمالي :

مما أوحى الله به لرسله الذين تتابع ذكرهم في هذه السورة، وفي غيرها قول الله لهم قولا أمروا بتبليغه لأتباعهم حاصله : إن هذه الأمة التي تنتسبون إليها وتتفقون معها على عقيدة واحدة، ومنهج سلوكي صالح، هو ما يربطكم بمن سبقكم من الأمم التي استجابت لدعوة الرسل . وإني أنا الله الواحد لا إله غيري ولا رب سواي أنا ربكم فأفردوني بالعبادة ولا تشركوا بي شيئا.

إنه وإن كان أمر المرسلين واحدا، يدعون إلى رب واحد وقيم واحدة، فإن المبعوث إليهم كان موقفهم من رسالات السماء، أنهم اختلفوا وسلك كل واحد من المختلفين على الرسل طريقا بعيدا عن غيره . إنهم سيعودون إلينا جميعا لنحكم فيهم حكمنا العادل. وعقب هذا الرجوع بتفصيل اختلاف المآلات . فمن جمع بين

الإيمان الصادق والعمل الصالح، يتولى الله جزاءه عـن كـل مـا قـدم لا يضـيع منـه شيء . وثقه له كتابة لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا تم إحصاؤها.
حرام ومرفوض أن يتحقق لكـل قريـة أراد الله إهلاكهـا لتكـذيبها بالبعـث، أن يتحقـق لها ما تتمناه من عدم الرجوع إلى الله. فهي راجعـة إليـه مسلط عليهـا مـا سـبق مـن الوعيد.

بيان المعنى العام :

92- إن هذه أمتكم...وأنا ربكم فاعبدون.

انعطفت هذه الآية على موكب المرسلين جميعا الـذين تتـابعوا فـي الآيـات السـابقة فقـد خاطبهم الله خطابا موحدا لهم نابعا مما كـان قـد وجـه لكـل واحـد مـنهم عنـد نـزول الشريعة عليه. فقد اقترن بالوحي التشريعي إليـه قـول الله لـه : إن أمـتكم التـي كلفـتم بحمل الشريعة إليها وهدايتها إلى العقيدة القويمـة والسـلوك الراشـد هـي أمـة واحـدة لا اختلاف بينها في المقومات الأساسـية للتصـور فـي العقيـدة والسـلوك الصـالح فـي الحياة . فالآية مقـررة أن الرسـل الـذين تتـابعوا حـاملون لـوحي الله عبـر القـرون، أمرهم واحد في توحيد الله، وأمرهم واحـد فـي إفـراده بالعبـادة، وهدايـة النـاس لمـا تكون به حياتهم الدنيا أصلح وأقوم.
ويصح أن تكون الآية خطابا لأمة القرآن، يذكرهم ربهم بـأن مـا جـاء بـه محمـد ومـا ورد على لسان المرسلين الذين سـبقوه هـو نـابع مـن منبـع واحـد لا اخـتلاف فيـه. وهوما يزيد المؤمنين تعلقا بما أنزل إليهم، إذ هـم علـى نفـس المـنهج الـذي سـبق أن هدى إليه الأمم السابقة .
وعطف مقررا ما يقتضيه ذلك مـن وحـدة الـرب، وأنـه رب جميـع النـاس لا إلـه غيره ولا رب سواه، مما يحتم على كـل إنسـان أن يفـرده بالعبـادة الشـاملة للتقـرب إليه بالطاعة، وتنفيذ أوامره والابتعاد عن نواهيه .

93- وتقطعوا أمرهم...راجعون .

إن دعوة الرسل الواحدة المستجيبة للفطـرة الموحـدة لله، كـان موقـف المـدعوين إليهـا مختلفا . كل فرقة اتخذت منهجا مغايرا لمـا اطمأنـت إليـه غيرهـا مـن الفـرق، آمـن بعضهم بما جاءه من الله، وأعرض آخرون وتوزعـوا فلكـل مجموعـة معبـود وقـيمٌ ، وتصورٌ للحيـاة، فعـوض أن يكـون الـدين موجـب اتحـاد، جعلـوه سـببا للافتـراق والنزاع. إنهم سيعودون إلينا لنقضـي بيـنهم، ونجـزيهم عمـا قـدموا، وقـد ارتفعـت المعاذير بإرسال الرسل الذين كانت أصول دعوتهم واحدة.

94-فمن يعمل من الصالحات...وإنا له كاتبون .

أسرع القرآن ببث الطمأنينة في قلوب المـؤمنين بعـد إعـلان أنـه لا ينفلـت أي إنسـان من نيل جزائه في اليوم الذي يرجع فيه إلـى الله ليوفيـه حسـابه." كـل إلينـا راجعـون" فصرح بأن من يجمع بين العمـل الصـالح حسـب المعـايير الشـرعية، وبـين الإيمـان بالله واحدا أحدا بيده الأمر، ويثق بكل مـا جـاء بـه الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم وحيا من عند الله، وأن السعادة في الالتزام به وطاعته، سـيجزيه عمـا قـدم مـن خيـر، ولا يضيع عليه شيء مما اجتهد فيه وأنجزه، وهو معنى لا كفران لسعيه.

في هذا الربط بين الإيمان والعمـل تصـوير للمـنهج الـذي أقـام الله عليـه بنـاء ديـن الإسلام. فالعمل المقطوع عن الإيمـان كالشـجرة المقطوعـة الجـذور، مصـيرها إلـى الذبول ثم إلى الموت؛ والإيمان هـو الـذي يثبـت العمـل فيسـبغ عليـه حقيقـة الخيـر ويفصل بينه وبين الشر ويعطيه صفتي الثبات والدوام.

وأكّد تحقق هذا الجزاء الذي سيلقاه المؤمن الصالح الفاعـل للخيـر يـوم القيامـة، بـأن الله وثّقه له توثيقا مكتوبا لا ينسى منـه صـغير ولا كبيـر. كتبـه الحفظـة واسـتقر فـي علمه سبحانه .

95- وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون.

افتتحت الآية بتجسـيم النفـي معبـرا عنـه بقولـه: حـرام. والحـرام ممنـوع ومنفـي، ومرفوض أيضا. إن نسج الآية يواجه ذهن السامع بأنـه لا يمكـن أن يتصـور. فمـا هـو هذا الممنوع على كل أهـل قريـة قـدّر الله إهلاكهـا ؟ إن قولـه: وحـرام علـى قريـة متصل بقوله تعالى: كل إلينا راجعـون . والمشـركون ينفـون البعـث، إنهـم يرفضـون ما أفادته الآية السابقة أنهـم راجعـون إلـى الله، واقتنعـوا بـأن الحيـاة الـدنيا لا حيـاة بعدها. فيكون المعنى : ممنوع وحرام ومنفـي علـى أهـل كـل قريـة أراد الله إهلاكهـا لتكذيبها بالبعث، أن يتحقق ما اعتقدوه :أنهـم لا يرجعـون إلـى الله . بمـا يكـون معـه المعنى: أنهم راجعون إلى الله لا محالة، بما يتبـع ذلـك مـن محاسـبتهم علـى كفـرهم. ثم تنفيذ الوعيد الذي ستفصله الآيات اللاحقة . وهذه سنة الله مع الأمم السابقة .

حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

فتحت: حصل لهم مخرج من منفذ كان مسدودا.

ياجوج وماجوج : قبيلتان عدد أفرادها كثير كثرة مهولة .

حدب : مرتفع من الأرض .

ينسلون: يسرعون إسراع الذئاب.

شخوص البصر : عدم تحرك العين والجفن.

الحصب : المحصوب أي المقذوف. وقرأه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وأبي ابن كعب وغيرهما حطب، أي ما توقد به النار.

الزفير : النفس يخرج من أقصى الرئتين بسبب الغم.

بيان المعنى الإجمالي :

سيستمرون على إنكار البعث، حتى إذا خرج الموتى من قبورهم، وهم كثرة كاثرة كأنهم ياجوج وماجوج، وهم فزعون مسرعون كقطعان الذئاب لا يوقف زحفهم الروابي والجبال . واقترب الحساب، وأيقن المحشورون بذلك فبهتوا واستقرت عيونهم فهي لا تتحرك. وأيقن الذين كفروا بالجزاء الموعود، وعادوا إلى أنفسهم قائلين: ياويلنا، لقد كنا غافلين عما حذرنا منه المرسلون، ثم تعمقوا في وضعهم فانتهوا إلى الاعتراف بأنهم كانوا ثابتين على ظلم الحق وظلم أنفسهم . وأنهم سيلقون الجزاء العادل.

ثم توجه لهم الخطاب فيقال لهم: إنكم وما كنتم تقدسونه وتعبدونه، الكل يقذف به في جهنم فتكونون وقودا لها. تقذفون هناك. وإمعانا في النكاية بهم وإذلالا لهم ينبهون إلى غبائهم باتخاذها آلهة فيقال لهم: لو كانت هذه الأصنام آلهة ما دخلوا جهنم ولحموا أنفسهم من مهانة العذاب. ويتسلط عليهم العذاب تسلطا سرمديا فهم خالدون فيه. تتحبس أنفاسهم في صدورهم ثم تنبعث منها زفيرا، شأن من اشتد عليه الغم .وفقدوا السمع مع ذلك فهم صم في انعزال تام عن سماع استغاثة من معهم فضلا عن مواساته .

بيان المعنى العام :

96-حتى إذا فتحت ياجوج وماجوج ...ينسلون.

افتتحت الآية بكلمة "حتى" التي تفيد استئناف الكلام وابتداءه، مع ربط بالكلام السابق. وإذا كانت الآية 95 أفادت أن إصرار المشركين على التكذيب بالبعث متمكن منهم، فإنه سوف ينكشف الأمر انكشافا محسوسا، لا يستطيع أحد إنكاره وذلك عند خروج البشر كلهم يوم البعث مسرعين إلى الموقف كأنهم لكثرتهم يأجوج ومأجوج . فتكون الآية نظير قوله تعالى: (يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر)[1]. وقوله: فتحت يأجوج ومأجوج، تجسيم لكثرة البشر المبعوثين للحشر. ورُشّح هذا التجسيم بكلمة فُتِّحت المفيدة أن البشر كانوا مغيبين في قبورهم، فتنفتح لكل نفس طريقة للخروج، فيخرجون إجابة للداعي مسرعين إسراع الذئب في سيره. وقرئ من كل جدث والجدث هو القبر. وهذه القراءة مما رجح عندي المحمل الذي حملت عليه الآية.

وذهب كثير من المفسرين إلى أن الآية تتحدث عن أمارة من أمارات الساعة، وهي خروج يأجوج ومأجوج من وراء السد الذي ضربه عليهم ذو القرنين، وهم لكثرتهم وفسادهم كقطعان الذئاب المفسدة المهلكة، من كل حدب ينسلون، لا يوقف زحفهم الروابي ولا الجبال . فيعم الفساد الأرض لتغلبهم عليها، ويكون ذلك إيذانا بقرب انتهاء العالم.

97- واقترب الوعد الحق ...بل كنا ظالمين .

تؤكد الآية أنه قد اقترب الوعد الحق. والوعد الحق في القرآن أطلق في آيات عديدة على الحساب والجزاء. من ذلك ما جاء في سورة الأعراف : فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا [2]. وفي سورة التوبة :وعد الله المنافقين نار جهنم خالدين فيها[3] وفي سورة الأحقاف : وعد الصدق الذي كانوا يوعدون[4] وفي سورة يونس : ألا إن وعد الله حق[5] . وفي سورة الحج : النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير[6] .

فيكون معنى الآية أن بعثهم مسرعين إلى أرض المحشر يعقبه الحساب، ويبدو لكل مبعوث ماله ويزول التردد والشك . ويا لهول ما يرى كلُّ كافر ويعلم. فعبرت الآية عن شدة انزعاجهم بأن أبصارهم لشدة الهول تكون ثابتة لا تتحرك شأن المبهوت تجمد عينه مكانها .

---

[1] سورة القمر آية 7

[2] سورة الاعراف آية 44

[3] سورة التوبة ، آية 66.

[4] سورة الأحقاف ، آية 16

[5] سورة يونس، آية 55

[6] سورة الحج ، آية 72.

ثم يعودون إلى أنفسهم إثر الدهشة الأولى قائلين: يـا ويلنـا، كلمـة فـزع مـن العـذاب المحقق الوارد. وينكشف غطاء العناد الـذي لـزمهم فـي الـدنيا فيصـرحون بـأنهم قـد مضوا سادرين، غافلين غير متأملين فيما بلغهم مـن النذر التـي حـذرتهم مـن هـذا الموقف. ثم يتحولون عن اعترافهم بالغفلـة إلـى الإقـرار بـأنهم استمروا فـي حيـاتهم الدنيا على ظلم الحقيقة وظلم أنفسهم. وفي ما صور به المشـهد مـا يـدل دلالـة واضـحة على اقتناع المعذبين بأن ما سيحل بهم جزاء عدل لا ظلم فيه.

98-إنكم وما تعبدون...أنتم لها واردون .

المشهد التالي إنزال العذاب بهـم فـي جهـنم؛ فأفـادت الآيـة أن الكـافرين ومـا كـانوا يعبدونه من دون الله يقذف الله بهم فـي جهـنم، وقـرئ حطـب أي إنهـم فـي آن واحـد معذبون بالنار وهم يضاعفون توقدها مـادة لضـرامها. ويتوجـه إلـيهم الخطـاب إذلالـا لهم وجمعا بينهم وبين آلهتهم التي كـانوا يعتـزون بهـا، ويتـذللون لهـا ويجـدون فيهـا سندهم، أنتم المستكبرون وآلهتكم داخلون الآن في جهنم.

99-لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون.

وزيادة في النكاية بهم وتعذيبهم نفسيا، يوجه لهم خطـابُ إذلالٍ يقـول لهـم: لـو كانـت هذه المقذوفات في جهنم التي كنتم تعبدونها، لو كانـت حقـا آلهـة لـدافعوا عـن أنفسـهم وما دخلوا النار. وإتماما للمقصود ختمت الآية بخلود العابدين والمعبودين في النار.

100- لهم فيها زفير...لا يسمعون.

هؤلاء المعذبون من الكفرة في جهنم يحـيط بهـم الإحسـاس بـالغم والكـرب، فتخـرج أنفاسهم المحصورة من أعماق صدورهم زفيـرا. ويحرمـون مـن حاسـة السـمع كمـا جاء في قوله تعالى :(ونحشرهم يـوم القيامـة علـى وجـوههم عميـا وبكمـا وصـما مأواهم جهنم)[1] فهم معزولون عن الإحساس باستغاثة أهـل النـار الـذين كـانوا يؤلفـون معهم وحدة الضلال في الدنيا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

[1] سورة الإسراء آية 97

بيان معاني الألفاظ :

سبقت : تقررت منذ الأزل.

الحسنى : الحالة الحسنة في الدين والسلوك.

حسيسها : الصوت المدرك بالسمع .

الشهوة : شوق النفس إلى ما يلائمها.

الفزع : ما تنفر منه النفس وتنزعج.

التلقي : التعرض للكرامة.

بيان المعنى الإجمالي:

على نقيض ما وصف به جزاء الكافرين، تصـرح الآيـات بـأن الله محقـق للـذين قـدر لهم منذ الأزل الهداية فـي العقيـدة والعمـل البعـد عـن جهـنم، بعـدا لاتصـل إلـيهم أصواتها المفزعة، فضلا عن حرها ومنظرها. وهـم خالـدون فـي النعـيم الـذي يحقـق لهم كل ما يمكن أن تتعلق به الشهوة، المشبع لجميـع الغرائـز، وللنعـيم العقلـي. كمـا يجدون من ملائكة الرحمـة مـا يقـذف فـي قلـوبهم الطمأنينـة عنـدما يخرجـون مـن قبورهم، والناس فزعون من المصير والمآل، فتتلقـاهم الملائكـة بقولهـا : هـذا اليـوم يوم تقر فيه أعينكم وتسعدون بتحقيق ما وعدتكم به رسلكم.

بيان المعنى العام :

101- إن الذين سبقت لهم منا...عنها مبعدون.

تقدم في الآية -92- أن كل البشر يعودون إلى ربهـم ليلقـوا جـزاءهم بعـد أن اختلفـت مذاهبهم اختلافا كبيرا. وعقب ذلك بـأن المـؤمنين الـذين يعملـون الصـالحات يجـزون على كل كبيرة وصغيرة مما قدموه. وتتابعت الآيـات بعـد ذلـك مفصـلة الوعيـد الـذي سيسلط على الكافرين من الآية 94 إلـى آيـة 99. بعـد ذلـك انعطـف الكـلام مكمـلا وضع المؤمنين الصالحين، وهم الذين كتـب الله لهـم منـذ الأزل الهدايـة إلـى العقيـدة الحسنة الموحدة لله، والسـلوك المرضـي، فجمعهـم مشـيرا إلـيهم لتميـزهم "أولئـك " ليطمئنهم بأنهم عن جهنم مبعدون، محفوظون بحفظ الله. ثم فصل هذه الوقاية

102- لا يسمعون حسيسها...خالدون .

لا يسمعون صوت جهنم، مؤكد لقوله عنهـا مبعـدون . ذلـك أن الصـوت يـدرك عـن بعد أكثر من حرها، فإذا انتفى إدراك صوت اضـطرامها وقبـيح رائحتهـا، أفـاد ذلـك تحصينهم من كل أنـواع الإذايـة المختصـة بهـا. وعقـب النفـي بإثبـات الضـد أنهـم منعمون بمباهج من الفضل الذي يشبع كل ما تتوق له النفس بصفة باقية لا تنقطع.

103- لا يحزنهم الفزع ....كنتم توعدون.

افادت الآية أن الذين كتب الله لهم الحسنى يلقون حسن العاقبة حتى قبل دخولهم الجنة . فبمجرد ما يخرجون من قبورهم، والمبعوثون على فزع شديد من المآل، كما جاء ذلك في قوله تعالى :(ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله)[1] يكون الذين سبقت لهم الحسنى داخلين تحت قوله إلا من شاء الله . فلا يحل بقلوبهم الجزع والخوف من المآل. ذلك أن ملائكة الرحمة تتعرض لهم قائلة لهم : هذا يوم الكرامة والجزاء الحسن الذي كنتم توعدون به في الدنيا على لسان رسلكم .

يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ

بيان معاني الألفاظ :

نطوي : طوى الشيء لف بعضه على بعض.

السجل : يطلق على كاتب الورقة، كما يطلق على الورقة التي يكتب فيها.

بدأنا: أنشأنا على غير مثال.

الزبور : المكتوب، أطلق على كتاب داود .

بيان المعنى الإجمالي :

كل شيء مقدر في علم الله. إنه سيعيد المخلوقات بعد فنائها كما أنشأها أول مرة، وأبطل ما يحيله المشركون من بعث البشر بعد موتهم، فأثبت أنهم سيعودون جميعا إلى ربهم. وسيأتي اليوم الذي تتحول فيه هيئة السماء التي كانت كواكبها منتظمة كل في مكانه إلى تراكم كشأن الصحيفة التي طويت على ما هو مكتوب فيها. والإعادة شأنها كشأن الخلق الأول، فكما أنشأ الله الخلق على غير مثال سابق، فإنه لا يعجزه أن يعيده. إن هذه الإعادة أمر ثابت وهي وعد من الله والله لا يخلف الميعاد إذ لا يحول بينه وبين قدرته ما يمنع نفاذ ما يريده.

يخبر القرآن أن الله سجل في كتاب داود عليه السلام بعد أن ذكّر الناس بفعل الصالحات ووعد وأوعد، سجل حقيقة ثابتة : أن الأرض يسيرها ويبسط عليها

[1] سورة النمل اية 87

سلطانه عباد الله الصالحين للخلافة بـالتزام العبـادة وتطبيـق السـنن التـي جعلهـا الله سببا للنصر. إن في هذا البيان ما يبلـغ بـأتم تبليـغ القـوم الـذين كـان قـوام تفكيـرهم عبادة الله واستحضار صلتهم به في كل أمر .

بيان المعنى العام :

104- يوم نطوي السماء كطي السجل ...كنا فاعلين .

افتتحت الآية بالظرف الزماني يوم، وهو يـوم خـاص يطـوي فيـه الله القـادر السـماء طيا يذهب بانتظامها ومكان أجرامها. ثـم قُرِّبـتْ الصـورة بأنهـا كحالـة الكاتـب الـذي يطوي الصحيفة بعد أن يكتبها. ويحتمل المعنـى كمـا تطـوى الصـحيفة علـى مـا هـو مكتوب ومسجل فيها. وفي هذه الصورة من الإعجاز البيـاني مـا يـبهج الإحسـاس بهـذه الصورة المعبرة عن تقريب إحداث الكون على نظام، ثم نقـض ذلـك النظـام فـي يسـر عجيب. فخلق السماء وما يعمُرها من كواكب منتظمة ثـم فـي يسـر كمـا يخـط الكاتـب الصحيفة. لكل كلمة موقعها وارتباطها بغيرها ودورها فـي أداء مـا قصـد منهـا فيثبـت كل ماخط فيها، ثم هو بعد إكمال ما يقصده مما سـجل يأخـذ الصـحيفة فيطويهـا علـى ما تحتويه . وهي بعد أن كانت منشورة تتميز كل كلمـة بموقعهـا تنقلـب إلـى متـراكم، ثم يعيدها إلى وضعها متى أراد. وهذا التمثيـل مقصـود بـه تقريـب أمـر البعـث، وأن الإعادة على ما كان عليه الخلق الأول أمر معقـول لا إحالـة فيـه. وفـي ذلـك رد لمـا احتج به الكفار من أن تفتت الأجسام يحيل إعادتها. وأكدت الآيـة أمـر البعـث بأنـه كمـا تم الخلق والإحداث على غير مثال، فكذلك تتم إعادته لما كـان عليـه، وهـذا وعـد مـن الله، والله لا يخلف الميعـاد، وأنـه سـبحانه فاعـل ذلـك لامحالـة لانتفـاء أي قـدرة تحول بينه وبين مراده، فقدرته تعالى لا يعجزها شيء.

105- ولقد كتبنا...عبادي الصالحون.

النص يحتمل أن أرض الجنة يرثها عباد الله الصالحون، فتكون الآية متصلة بالآيات 103/101- كما تحتمل أن الله سيمكن لهذا الدين وتنتشر أعلامه في آفاق أرض الله ويتمكن المؤمنون من تسييرها حسب شرع الله. أو أنه وعد للمؤمنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم :أن الله سيمكنهم من أرض مكة التي عذبوا فيها وأوذوا . ويكون معنى الآية : أن الله وثّق في كتاب داود عليه السلام " الزبور" بالتنصيص على أن الله سيحقق للمؤمنين الصالحين أسباب النصر فيعلو سلطانهم على الأرض . فهو وعد للخليقة جاء في كتاب داود من الكتب السابقة قبل القرآن . وتأكد هذا الوعد في القرآن في سورة النور .قال تعالى : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين

من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم)[1] وتحدد الآية أن هذا الوعد قد جاء عقب التذكير والوعظ حثا على الاستقامة ، بما يفيد أن الالتزام بشرع الله سبب للسعادتين الدنيوية والأخروية. ومن هذا الالتزام اليقظة لسنن الله في النصر والهزيمة والقوة والضعف، فعباد الله الذين شرفوا بنسبتهم إليه، ليسوا المتواكلين، لكنهم الذين تعلقوا بالله فأقاموا شرعه، وأخذوا بأسباب القوة من الوحدة وحسن القيام على عمارة الأرض، والتعمق في العلم، والتمسك بالقيم الخلقية، هؤلاء هم الذين لهم الجدارة بإرث أرض الله. تتسع فتوحاتهم وتنتشر بمقدار ما يحافظون على وصفهم بالصلاح الشامل.

106- إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين .

إن شأن هذا الوعد أنه يبلغ إلى أعماق الضمير، ويستقر في عقل الذين وصلوا أنفسهم بالله فتألف منهم قوم ملتزمون بعبادة الله، يجدون في كل حركة، وفي كل فعل، وفي كل علاقة، وفي كل تدبير، ما يجعلهم يستحضرون أنهم في عبادة لله فتنقاد مشاعرهم إلى ما يرضي الله حبا في الطاعة، وثباتا على السلوك الراشد .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

آذنتكم : أعلمتكم محذرا .

على سواء : على نسبة واحدة تتساوون فيها.

فتنة : الفتنة اختلال الأحوال المفضي لما فيه مضرة

بيان المعنى الإجمالي :

أنت يا محمد مقصور على الرحمة في خلقك وفي طبيعتك، وفيما أوحي إليك من تشريع قرآنا وسنة، في أحوال الشدة والرخاء تصحبك الرحمة، وتفيض في سلوكك وفي علاقاتك بالناس وبالكون كله .

---

[1] سورة النور، آية 55

اصدع بهذه الحقيقة التي هـــي قــوام دينــك والتـــي انحصـــر فيهـــا الإســـلام باعتبارهـــا المنطلق لكل ما أوحيناه إليك: إنه لا إله لكم إلا إله واحـــد لا شـــريك لـــه. كونـــوا واعـــين لهذا، إن ذلك مما تقتضيه الفطرة ويحتمه العقل، فهـل أقلعـتم عـن شـرككم، ودخلـتم في دين الإسلام ؟

إن رفضوا دعوتك، وأقاموا على ما هم عليه مـن الشـرك، فقـل لهـم : إنــي أعلمكـم محذرا كل فرد منكم ما سيسلط عليه من العــذاب . وإن ســألوك عــن وقــت حلــول مــا أوعدهم الله به، فليكن جوابك إن ربي لم يعلمني بإنجــازه أو بتــأخيره، وأنــا ملتــزم بمــا يوحى إلي. تفرد ربي بعلم المغيبات، فهو يعلم الجهر مـن أقــوالكم كعلمــه بمــا تكتمــون في صدوركم .ولست أدري هل إن ربي قدر تــأخيره ، ليكــون فــي هــذا التــأخير مــا يمهلكم لتمتنعوا في الانحراف والضلال والتلهي بمتعكم المؤذنة بالزوال عن قريب.

وقل ختاما قولا قاطعــا لجــدلهم متوجهــا بالــدعاء : رب أنجـز حكمــك المؤيـد للحــق القاطع لدابر الشرك . وقل : ربنا الرحمن الــذي نــدعوه ونــؤمن بــه هــو الــذي نطلــب منه وحده العون على محق ما تصفونه بألسنتكم من المفتريات والتضليل .

بيان المعنى العام :

107 - وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين .

هذه الآية خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللعــالم كلــه، مؤذنــة بمــا طبعــه الله عليــه من الرحمة، وهي الظاهرة التشريعية في الدين الــذي أمــر بتبليغــه، فالرحمــة منتشــرة في تفاريع التشريعات كما هي أساس ومقصــد يقينــي بــه تــدرك النصــوص الــواردة، وهي الموجهة للفهم والتطبيق . وهي الميزة التــي ادخرهــا الله لرســوله فكــان الإســلام دينه دين الفطرة الذي يلائم الطبيعة البشرية، فــلا يعكــس تطلعاتهــا ولا ينحــرف بهــا، ولا يسير بهــا فــي طريــق التســاهل المنحــل، ولا فــي مســالك العســر والصــعوبة المرهقة. قلع من تصورات البشــر الطبقيــة والتفاضــل بالنســب، ونــادى بــأن النــاس سواسية كأسنان المشط، يتفاضلون بما يجتهدون فيه للقــرب مــن الخيــر والابتعــاد عــن الشر. فوجد بذلك كل فرد مــن أفــراد البشــر مكانتــه فــي الكــون. يعلــو فــي قيمتــه الإنسانية بجهده وخلقه وصلاحه. فباب السمو مفتوح لكــل فــرد، بــل هــو مــدعو إلــى الرقي وعدم الرضى بالمنزلــة الــدون . حــرر الإنســان مــن التقليــد، ومــن الإكــراه، ومن الظلم والاستبداد. وأنت إذا نظرت إلى التشريع المثبــت فــي القــرآن والســنة فــي الأبواب الكبــرى: العبــادات، والمعــاملات، والســلوك، تجــد الرحمــة منبثــة فــي عمومها وفي الأحوال الخاصــة. فالصــلاة مــثلا رحمــة للإنســان يتســامى بهــا إلــى

الاتصال بالله فينشرح صدره، ويتعمق حبــه للخيــر ومقتــه للشــر، إن الصــلاة تنهــى عن الفحشاء والمنكر. وكلما أحاطت بــه مشــقة أســعفه التشــريع بمــا يرفعهــا .فمــثلا عادم الماء والخائف من استعماله مرضا، أو زيادتــه يتحــول فرضــه إلــى التـيمم. فــإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا[1]- وكذلك الصيام ومــا فيــه مــن تيســير. فمــن كــان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخــر[2]. والحــج شــرط وجوبــه الاســتطاعة ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا [3]- وبصــفة عامــة فــإن التيســير مقصــد يقيني من مقاصد الشريعة تولى الشيخ محمد الطــاهر ابــن عاشــور تحليلــه فــي كتــاب المقاصد.

وحتى في الحرب نجد الإسلام رحمــة يمنــع المجاهــد مــن التعــدي علــى المســالمين الذين لا يشهرون عليــه الحــرب. وعنــد الانتصــار يحــرم النكايــة والقتــل الجمــاعي وحرق الزروع والأشجار والحيوانات، وقهر المهــزوم علــى تبــديل دينــه، أو إذلالــه. ولا يغرنك ما يتبجح به الغرب من احترامــه لحقــوق الإنســان. إن النكــال الــذي ســلط على العراقيين والتعدي على حرماتهم الجســدية وعلــى أعراضــهم، ومــا يســتمر إلــى اليوم في قوانتنامو، والطــائرات التــي تحصــد رؤوس الأفغــانيين حتــى فــي حفــلات أعراسهم. وما قامت بــه الــدول الاســتعمارية عنــد احتلالهــا للأوطــان، وردود الفعــل البالغة أشد ما يتصور من العنــف والنكــال ممــا قابلــت بــه حركــات التحريــر، ففــي الجزائر وحدها قتل المستعمرون الطغاة مليونا ونصــفا مــن الرجــال والنســاء والأطفــال والشــيوخ. والانحيــاز للإســرائيليين فــي فلســطين يشــردون أصــحاب الأرض، ويمنعونهم من جميع حقوقهم ويفرضون علــيهم الحصــار القاتــل والمــذل، ويحرمــونهم من مقومات العيش ومن مقومــات الدولــة ومــن الــوطن. ويحمــى الظلــم الإســرائيلي مدعيا أنها الدولة الديموقراطية في المنطقة. إن العالم اليــوم فــي أشــد الحاجــة للإســلام، لرحمته الشاملة التي تعم الكائنات كلها، لإنقــاذه مــن هــذه الحضــارة المتوحشــة التــي تلوثت فيها القيم وانتكست فيها المبادئ وســاد قــانون الغــاب. الحــق فــي رأي القــوي. والأغلبية هي الأغلبية الساحقة .

---

[1] المائدة آية 7

[2] سورة البقرة آية 184

[3] سورة آل عمران 97

فأنت حيثما قلبت نظرك، وتعمقت في سيرة الرسول صـــلى الله عليـــه وســـلم وفـــي ديـــن الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكا وجدت الرحمـــة شـــائعة تلمـــس القلـــوب والعلاقـــات فـــي الأسرة وفي المجتمع، وفي الكون كله، في السلم وفي الحرب.

108-قل إنما يوحى إلي ...فهل أنتم مسلمون.

تعتبر هذه الآية فذلكة لما بسط في السورة كلهـــا، وإعـــلان للقطـــب الـــذي يـــدور عليـــه كل ما جاء فيها. قل لهم يا محمد: إن الوحي الذي أتلقـــاه مـــن ربـــي محصـــور ومنطلـــق ويعود إلى الحقيقة الكبرى: أن إلهكـــم واحـــد لا يمكـــن أن يشـــاركه أحـــد فـــي ألوهيتـــه .وهو ما يفيد أن كل ما أوحي إلى النبي ﷺ يخدم هذه الحقيقـــة التـــي هـــي مفتـــاح الهـــدى والمرجع الذي يقام عليه بناء الـــدين الإســـلامي. فـــي أمـــور العقيـــدة والتشـــريع. وهـــذه الحقيقة تقرها الفطرة السليمة، ويحكم بها العقـــل. إنـــه لـــيس لكـــم أي حجـــة ولا شـــبهة تعاكس الوحدانية، فقد آن الأوان أن تســـلموا وجـــوهكم لله وأن تعترفـــوا لـــه بالوحدانيـــة. فما لكم لم تسلموا حتى الآن.

109 - فإن تولوا فقل ...أم بعيد ما توعدون.

ثمّ التحريض على رفض الشرك ودعوتهم ليدخلوا في الإســـلام. فـــإن هـــم تمـــادوا علـــى الشرك ولم ينصاعوا للوحدانية، وتولـــوا معرضـــين عـــن دعائـــك لهـــم، فتحـــول مـــن البيان إلى الإنذار، وقل لهم: إنـــي أعلمكـــم جميعـــا محـــذرا لكـــم، يبلـــغ هـــذا الإعـــلام المحذّر كل فرد منكم على مرتبة ســـواء بمـــا يترصـــدكم مـــن عـــذاب الـــدنيا والآخـــرة . ولا تسألوني متى ينفذ الوعيد، ذلـــك أن الله لـــم يطلعنـــي علـــى وقـــت تســـليطه علـــيكم. يحتمل أن يكون ميعاده قريبا ويحتمل أن يكون بعيدا.

110-إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون .

إنه سبحانه واسع العلم يستوي علمه بما تظهرونـــه مـــن أقـــوالكم، وبمـــا تكتمونـــه منهـــا في صدوركم ولا تنطقون به . أمرني أن أعلمكم بمـــا قـــدره لكـــم فـــي مســـتقبل أمـــركم، ولم يعلمني بأجله . فهو وحده المتفرد بالعلم المطلـــق الشـــامل. ومـــا كـــان لـــي أن أتزيـــد أو أنقص شيئا مما أوحاه إلي .

111 - وإن أدري لعله...إلى حين .

وكما تفرد الله بالعلم المحيط، فإنه هو الحكـــيم الكامـــل فـــي حكمتـــه، فـــإن عجـــل لكـــم العذاب فهو من عدله وحكمتـــه، وإن أخـــره فهـــو أيضـــا مـــن عدلـــه وحكمتـــه . فلعـــل تأخير العذاب عنكم هو إمهال لكم لتنغمسوا في الفتنـــة، فيكـــون مـــا يقضـــي بـــه علـــيكم

واضح المطابقة بين تمردكم وعقوبتكم. ويكون في إمهالكم ما تتمكنون من الانتفاع بما بين أيديكم من منافع الدنيا. إلى أمد قصير.

112- قل رب احكم بالحق....المستعان على ما تصفون.

تختم السورة بأمر النبي ﷺ أن يعلن للناس جميعا يقينه الأيقن بأنه على الحق، وأن الذين رفضوا دعوته سائرون في طريق الباطل والضلال. ولذلك أمره بأن يتوجه بالدعاء إلى ربه. مضمون هذا الدعاء :رب احكم بيننا وبين المعاندين حكما ملتبسا بالحق، حكما يظهر الدين ويهزم الكافرين ويخضد شوكتهم، ويفرق كلمتهم، ويذل كبرياءهم، حتى يعلو الحق الذي كلفتني إبلاغه والدعوة إليه. إن في هذه الخاتمة ما يرشد المؤمنين للالتجاء إلى الله إذا ضاقت بهم السبل، وتمرد الباطل واستشرى فساده ؛ إن الدعاء مظهر من قوة العزيمة في نفس الداعي، وعمق الإيمان الواثق بأن الله مع المؤمنين ينصرهم ويثبتهم ويمهد لهم الأسباب الموفقة للنجح والنصر.

وربنا الذي شرفنا بالانتساب إليه، هو الرافض لكم كما رفضتم توحيده، هو الرحمن الذي نفيتم هذا الاسم الشريف عنه، هو الذي نطلب منه وحده العون ولا نستعين بغيره على إبطال ما تصفونه بألسنتكم من الافتراء عليه ومن الكيد للإسلام.

أكملت تفسير سورة الأنبياء ظهر يوم الثلاثاء 15 رجب 1433- 5جوان2011 نسأله سبحانه وهو ولي الحمد أن يتقبل مني ما هداني إليه من إبلاغ معاني كتابه، وأن يعينني على إكماله.

ســورة الحج

هذا هو الاسم الذي اتفق القراء والمفسرون علـى تسـمية السـورة بـه. ووجـه تسـميتها بسورة الحج: أن الله ذكر فيها أمره لإبراهيم ﷺ بالـدعوة إلـى حـج بيـت الله الحـرام، وذكر بعض مناسكه، وما فيه من المنافع والفضائل حثا عليه وتنويها به.

والراجح أنها نزلت في فترات عديدة، وأوضـاع مختلفـة. يقـول القرطبـي: وهـي مـن أعاجيب السّـور، نزلـت لـيلا ونهـارا، وسـفرا وحضـرا، مكيـا ومـدنيا، سـلميا وحربيا، ناسخا ومنسوخا. محكما ومتشـابها. - ج12ص-1- ولا يتعـين مـا هـو منهـا مكي ولا ما هو مدني. وعنـد البقـاعي وابـن النـديم أنهـا نزلـت بعـد النـور وقبـل المنافقون. وهما سورتان مدنيتان .فلعلهما اقتنعا بـأن معظـم السـورة نـزل فـي المدينـة بين هاتين السورتين. فألحقا الأقلّ بـالأكثر. ولـذا عـدت فـي روايـة جـابر بـن زيـد الخامسة والمائة. وهي السورة الثانية والعشرون حسب ترتيب المصحف الشريف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الزلزلة : اهتزاز عنيف فـي ناحيـة مـن الأرض، علـى نسـبة قوتـه تتهـدم المبـاني وربما ابتلعت الأرض بعض ما كان على سطحها .

الساعة : شاع استعمالها في القرآن على وقت فناء الدنيا.

العظيم : قوي شديد.

الذهول : نسيان ما شأنه أن لا ينسى.

المجادلة : المخاصمة والمحاجة بالباطل.

يتبع كل شيطان: ينقاد لوسوسة كل شيطان.

مريد : بلغ الغاية في التضليل، فتجرد من الخير إلى الشر .

كتب: ثبت ولزم.

تولاه : اتخذه نصيرا.

بيان المعنى الإجمالي :

ينادي القرآن الناس ليستعدوا بـالتقوى التـي تكـون حصـنا لهـم مـن أهـوال زلـزال الأرض عند ساعة انتهاء الكون. إنـه يـأتي علـى جميـع مكونـات الأرض، فيخلخلهـا ويفسدها. إنه شيء يفوق الوصـف فاحـذروا أهوالـه بتقـوى ربكـم، بـالتزام طاعتـه، والابتعاد عن عصيانه . ثم إن القرآن جسم أهول زلـزال السـاعة بعـرض مظـاهر تـدل على ما وراءها. يبلغ الهول بالمرضعة التـي ضـمت وليـدها إلـى صـدرها وقـد الـتقم ثديها وهي تنظر إليه حانية، فبقيـام السـاعة يـذوب كـل ذلـك الإحسـاس والحـرص وتذهل أن وليدها على صدرها. وكل امرأة حامل تسـقط جنينهـا لضـعف أجهزتهـا عـن تحمل الزلزال. بل إن كل من تتصور منه الرؤيـة يشـاهد النـاس وقـد فقـدوا قـدراتهم العقلية كأنهم سكارى وليسوا بسكارى. ولكن عـذاب الله المصـاحب لقيـام السـاعة شـديد على الأنفس فوق الطاقة العادية لهم.

كان الناس إثر هذا التحذير البليغ، على صنفين: صـنف رجـع إلـى ربـه وسـار فـي طريق الخير والصلاح. وصنف أخذ يغـالط ويحـتج علـى باطلـه مـن إنكـاره للقـدرة الإلهية والبعث والجـزاء ، ويخـدع بفصـاحته المغفلـين، متبعـا كـل شـيطان شـديد الخبث يوسوس لـه مـن الجـن والإنـس. أوجـب الله، تبعـا لطبيعـة ذلـك الشـيطان الشريرة، أن كل من يسلك ما زينه، فإنه يسير بـه فـي طريـق الضـلال ويحبـب لـه الشر فيألفه، حتى يظن نفسه سائرا فـي طريـق الهـدى، فيجـد النهايـة التـي تبتلعـه عذاب جهنم المستعرة نارها.

بيان المعنى العام،

1-يا أيها الناس اتقوا...شيء عظيم.

نداء من الله رب النـاس ينـبههم ويـوقظهم مـن غفلـتهم. ويـدعوهم إلـى الاسـتعداد بتحصين أنفسهم من أهوال يوم القيامة. يـأمرهم بـالتقوى والخـوف منـه الخـوف الـذي يزيدهم قربا منه بطاعته فيما أمر، وترك ما نهـى عنـه، والحـذر مـن الشـبهات التـي يطوع بها الشيطان الإنسان للوقوع في الخطيئة.

والتقوى في هذه الفاتحة ارتبطت بلفظ الرب، بما يوحي إليه لفظ الرب من الرفق والعناية بمخلوقاته. فتقوى الله تتحقق باستحضار الإنسان أنه على صلة بالله لا تنقطع، وأنه قريب منه يرقبه، فيستحيي من التهاون بما أمر به، ومن اقتحام ما نهى عنه، ويبتعد عن الشبهات، فمن وقع في الشبهات وقع في الحرام . والضبط الجامع لمفهوم التقوى بينته الآية 177 من سورة البقرة، فلتراجع.

ناسب تعليق التحذير بكلمة " ربكم" أن يقرنه بالسبب الداعي للتقوى فقال: إن زلزلة الساعة شيء عظيم. فالارتجاج العميق الذي يحدث في الكون المضاف للساعة، وقت فناء الكون، عندما تُزَلْزَلُ الأرض زلزالها الذي ينفذ إلى جميع أجزائها فيخلخلها، ويفسد انتظامها. ان هذا الزلزال وإن كان لم يحدث بعد، إلا أن صورته في علم الله محددة واضحة، ولذا عبر عنه بقوله "شيء" إذ الأصل أن كلمة الشيء لا تطلق على المعدوم. استحضر القرآن الزلزال المخرب لنظام العالم بأنه لا يمكن أن يعرف إلا بأنه شيء عظيم، تتجاوز حقيقته المدمرة والمرعبة كل تصوير فتقصر عنه العبارة.

ويمكن حمل الزلزال على بعض أهوال يوم القيامة المفزعة التي لا ينجو منها إلا المؤمنون المتقون.

2-يوم ترونها تذهل كل مرضعة... عذاب الله شديد.

واصل القرآن الكشف عن أهوال هذا اليوم، إن كل من تمكن منه الرؤية سيشاهد آثار الدمار الذي يتجاوز الوصف، كما يسمع الأصوات المصاحبة للزلزال. ومن المظاهر المعبرة عن ضخامة ذلك أن كل من هي بصدد إرضاع وليدها وقد احتضنته والتقم ثديها، وهذا من أبلغ صور الامتزاج والحنان، في وقت الزلزال تذهل عن رضيعها، إذ يبلغ تأثير هول المشهد أنه يستولي على مداركها فتشغل عن أشد الناس تعلقا به وشفقة عليه .وإذا كان الذهول يحصل من المرضعة عن رضيعها فجميع العلائق الأخرى لا يُبقى الهلع لها أي أثر.

ثم جسم المشهد من ناحية تأثيره على القوى، فبين أنه أقوى من قدرات الإنسان فالحامل ترتج ارتجاجا تسقط به حملها، وإذا كان علوق الحمل بالأم علوقا شديدا يمتزج برحمها، فغير ذلك مما يمكله الإنسان أولى بالضياع من دون شعور به.

ثم عمم القرآن مبالغة في تجسيم الأهوال، أن كل الناس تأخذهم الأهوال فينصرفون عن أنفسهم، انصرافا يفقدهم تصور كل ما حولهم تصورا صحيحا، هم كمن أخذ الخمر بعقله فأخرجه من تصور الواقع كما هو إلى تصورات خيالية. إنه في ظاهرهم سكارى، ولكنهم غير واقعين تحت تأثير الخمر بل هم في فزع من عذاب

الله بالزلزال في الدنيا إن حملنا الساعة على آخر زمـان الحيـاة الـدنيا، أو مـن عـذاب الله يوم القيامة وقد بدت مقدمات المآل المرعب للمحشورين الظالمين.

3-ومن الناس من يجادل...شيطان مريد.

بعد هذا الكشف الذي يهدف إلى إيقاظ الناس من غفلـتهم ليقبلـوا علـى ربهـم، استيقظ فريق، وفريق آخر جعل همه في تضـليل النـاس، وتركيـب الحجـج الموهومـة التـي تخدع العقل، ويغطي باطلها ببيانٍ لفظي خاوٍ يـذهل السـامع الغـرّ ؛ فيشـكك فـي قـدرة الله على البعث، وقيام الناس من قبورهم. ومن عيبه أنـه جاهـل لا يسـتند إلـى معرفـة ويقين، وهو ليس بمجتهد ولكنه مقلد لكل شيطان مـن الإنـس أو الجـن، يوسـوس لـه فتميل نفسه إلى تلك الوسوسة الباطلة فيعتقدها.

4-كتب عليه أنه من تولاه ...إلى عذاب السعير.

كشفت الآية عن حقيقة المتبـوع: الشـيطان المريـد مـن ناحيـة تـأثيره فـيمن يتبعـه. فحققت أن الشيطان، قد وجب عليه تبعا لطبيعته المبنيـة علـى الفسـاد وعلـى الضـلال، أنه أي الشيطان يأخذ من حالفه وانتصر به، فيصـرف كـل مكـره فـي إضـلال ذلـك التابع، فيزين له الباطل ويؤلف بينه وبينـه حتـى يرتضـيه، ويقلـب سـلم القـيم فـي نظره فيتصور الحـق بـاطلا والباطـل حقـا، فيسـلك بـه طريـق الفسـاد متوهمـا أن الشيطان يهديه . ولكن أي هداية ؟هي هداية إلى المآل الخاسـر، يصـل بـه إلـى عـذاب السعير . وهي صدمة أبرزها القرآن فـي صـورة الـتهكم، مـن كـان يأمـل أن يفـوز بالنجح فإذا هو ملقى في عذاب جهنم المستعرة نارها .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝

بيان معاني الألفاظ :

أجل مسمى: أجل معين.

أرذل العمر : الهرم والخرف.

هامدة : جافة لا نبات فيها.

اهتزت : تحركت

ربت : ارتفعت.

الزوج : الصنف.

بهيج : السار للنظر.

الحق : الثابت الذي لا مراء فيه

بيان المعنى الإجمالي :

استبعد المشركون البعث مقدرين صعوبة إحياء الأجساد بعد أن تحولت إلى تراب، فناداهم ليوقظهم إلى حقيقة هي تحت أبصارهم، أن أصل خلقة الإنسان هي من تحول مواد الأرض عبر هضم منتجاتها من الزروع والبقول واللحوم والألبان، ودخولها في كل جهاز من أجهزة الجسم، مما تولد منه الخلية الأولى للإنسان "النطفة " ثم تكاثرت الخلايا ملتحمة وتعلقت بجدار الرحم فكانت منها العلقة، ونمت العلقة، وتحولت إلى مضغة خطط فيها جميع خصائص ذلك الإنسان وإن كانت غير واضحة، وفي ظاهرها لا تختلف مضغة عن مضغة فتبدو وكأنها قطعة من لحم لا اختصاص فيها. فعبر عنها بأنها غير مخلقة. عرضنا عليكم هذا التفصيل لنبين لكم مظاهر قدرتنا. ثم بعد ذلك يبقى هذا الكائن في الرحم الذي يحتضنه ويمده بالوريد السُّرّى يتغذى منه وينمو من دم الأم إلى الأجل المحدد لخروجه من ذلكم المحضن في شكل إنسان طفل. وينمو الطفل شيئا فشيئا حتى تبلغ قواه العقلية والجسمية كمالها، وهو لا يملك من أمره شيئا بل يتبع ما قدر له في الأزل، قد يسرع إليه الموت وقد يرخى له في أجله، وقد يصل إلى الوهن في الجسم والخرف في العقل، فتمّحي قدراته العقلية وما اختزنه فيها .

ثم لفتت الآية الأنظار إلى وجه الأرض في حال استيلاء الجفاف عليها والتحجر، يبدو أنها لا حراك بها. وفي اللحظة التي قدرها الباري سبحانه ينزل الماء من السماء، فإذا هي تتحرك بما ينساب بين أجزاء تربتها من الماء، وما ما ينفلق من الحبوب التي تضرب بعروقها إلى بالباطن وترفع رأسها إلى الهواء والشمس، فتتنوع الثمار والحبوب. وإذا وجه الأرض وقد كسي ببساط مختلف الألوان يبهج النفوس. فسبحان الله أحسن الخالقين.

وبهذا العرض الذي لفتت به الآية الأنظـار لتجـاوز المظهـر إلـى دلالاتـه ومـا وراءه، تعلمون أن الله هو الإله الحق الفاعل في الكون، وأن مـا يدعونـه مـن دونـه زائـف لا حقيقة له ولا تأثير. وأنه سبحانه لما ظهرت قدرتـه فـي إحيـاء الـذات البشـرية بعـد أن دخل في تكوينها العناصـر الأرضـية الميتـة، وإحيـاء الأرض بعـد موتهـا. فقدرتـه عامة شاملة، ومنها نفاذ إرادته في الوقت المحـدد لإفنـاء العـالم، ثـم بعـث الأمـوات جميعهم من قبورهم ليخرجوا للحشر ثم الحساب والجزاء.

بيان المعنى العام :

5-ياأيها الناس إن كنتم في ريب...من كل زوج بهيج.

بعد أن حذر القرآن ونبه، وكشف عن أهـوال السـاعة، وفضـح المشـككين وعـراهم، واصل دعوة الناس لجعل البعـث داخـلا فـي حسـابهم وهـم يباشـرون نشـاطهم فـي الحياة. فأقام من الأدلة المسـتمدة مـن الواقـع التـي يفضـي التأمـل فيهـا إلـى اليقـين بالبعث. افتتحت الآية بنداء الناس، والغالـب فـي الاسـتعمال القرآنـي أن خطـاب "يـا أيها الناس" موجه للمشركين. فالآية تخاطـب المشـركين الـذين يُجْهِـدون أنفسـهم فـي إنكار البعث الذي يكدر عليهم لهوهم وشـهواتهم وتجـاوزاتهم. إن الـذي يلجـم الشـهوات عن المضي إلى أبعد مدى، هو الشعور بالبعـث والحسـاب، وإن الـذي يكـبح انطـلاق القوة الغضبية ويحول بينها وبـين التعـدي بـالقول والفعـل هـو الإيمـان بالبعـث، وإن الذي يرافق الإنسان فيقرب بينه وبـين الفضـيلة هـو الإيمـان بالبعـث . فيكـاد يكـون الإيمان بالبعث سائقا لكل لخير ومانعـا مـن كـل شـر. ومـع أن القصـد الغالـب فـي الاستعمال القرآني بيا أيها الناس، المشركين، إلا أنه لا مـانع مـن حمـل النـداء علـى أنه لفت أنظار الناس جميعـا مـؤمنهم وكـافرهم لمظـاهر القـدرة والإحكـام فـي خلـق الإنسان. فلنتتبع هذا العرض الذي لا يعلـم حقيقتـه بصـفة مفصـلة ومعللـة إلا الخـلاق العليم.

أولا: أنكر المشركون والكفرة البعث، وكانـت محـاجتهم مبنيـة علـى أن بعـث النـاس بعد تحلل أجسامهم وانـدماجها فـي التـراب غيـر مقبـول ولا ممكـن. فرفـع القـرآن شبهتهم بلفت أنظارهم إلى ذواتهـم . كـل إنسـان بـالنظر إلـى خلقـه الأول أو بـالنظر لنموه، هو مجموعة من عناصر من التراب. فمـا كـان للحيـوان المنـوي ولا للبييضـة أن يوجد أي واحد منهما لولا العناصر التـي دخلـت فـي تكوينهمـا مـن الغـذاء الـذي اختلط بأجهزة الأبوين. سواء أكان ذلـك ممـا أنبتتـه الأرض أو رعتـه الأنعـام فتحـول إلى لحوم وألبـان، أو مـا اصـطادته الطيـور، أو حيوانـات البحـر. وعـرف اليـوم

بالتحليل مجموعة العناصر الأرضية من حديد ونحاس وفسفور وكبريت واليود وماء وغير ذلك التي هي مكونات كل ذات بشرية. إن هذه العناصر التي تتمثلها الأجهزة البشرية وتحولها إلى مختلف الصور حتى الحيوان المنوي والبييضة هي من الأرض. كشف العلم التجريبي عن بعض هذه الحقائق، التي أخبر بها القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، والصادر عمن وسع علمه كل شيء، في بيئة ومجتمع ليس بها مدرسة ولا معهد علمي ولا مختبر ولا جامعة ولا فرق بحث علمي، مما ينادي بصدق المنزّل عليه القرآن، وبأن الخلق من التراب ظاهرة تتكرر في كل لحظة من عمر الكون ملايين المرات. ولكن الجهل هو الذي غطّى عن إدراكها، فنشأ عنه إنكار تحول التراب إلى مكون من مكونات الحياة.

ذهب كثير من المفسرين إلى أن قوله تعالى: من تراب - يشير إلى خلق آدم باعتبار أنه أصل البشر. ولكن الاستدلال بذلك لا يتم إلا على من يؤمن بأن الله خلق آدم من تراب، فهو فرع التصديق بالقرآن. والمنكرون للبعث منكرون للنبوة وللوحي فلا تقوم به الحجة عليهم. أمّا دمغُهم بحقيقة أن عناصر التراب تدخل في تكوين الإنسان منذ بدايته وفي تطوره ونموه، فباعتبار أنه واقع وحقيقة علمية قررتها التجربة، يصدمهم ولا يتوقف صدقه على الإذعان له.

وبهذا يكون ما صدق الآية : إن كنتم في شك من إمكان البعث، فاعلموا أنه ممكن إمكانا مساويا لخلقكم من تراب الذي يحدث فيكم منذ بداية وجودكم وفي كل لحظة من لحظات حياتكم.

وقد أثبت العلم أنه خط في رأس الخلية، البرنامج الدقيق الضابط لكل جزئية من جزئيات التكون الفردي من الناحيتين المادية والنفسية: وهي الخريطة المعبر عنها بالجينوم، تاريخ ظهورها والنحو الذي تظهر عليه. حتى عدد شعرات أهدابه ولونها وقوتها أو ضعفها وتاريخ سقوط كل واحدة منها. وجميع الصور التي تكون عليها. وهكذا في كتاب محكم أحكمه الخالق العليم .

ثانيا : أن التراب الذي هو أصل الخلق المادي، لم يصل إلى مستوى الخلية الأولى إلا بعد أن مر بمراحل، من هضم ما تولد منه ثم توزيعه على كل جهاز من أجهزة الجسم لتأخذ منه ما هي في حاجة إليه، كالمبيض عند المرأة الذي تفرز منه في كل دورة بييضة أو أكثر، والأجهزة المعقدة للمني الذي يحتوي ما يفرزه الرجل على عدد كبير جدا من الحيوانات الذكرية، فيلتحم أحدها بالبييضة ويلقحها، فتتكون من ذلك خلية تامة التكوين من ستة وأربعين كروموزوما، نصفها من البييضة ونصفها الآخر من الحيوان المنوي. ثم تنمو بالانقسام وتأخذ طريقها عبر

قناة فالوب لتعلق بالرحم .وهذه هـي النطفـة التـي أصـلها خليـة واحـدة حيـة، ثـم تكاثرت إلى خلايا متناسقة تكون وحدة متلاصقة .

ثالثا: تعلق المجموعة الأولى مـن الخلايـا بجـدار الـرحم، فيـأنس بهـا ولا يرفضـها ويمدها بالغذاء فتنمو في ذلك المحضن.

رابعا: تنمو العلقة بالتكاثر والانقسام المتواصـل إلـى أن تتكـون منهـا قطعـة طولهـا ما بين اثني عشر وبين أربعة عشر. عبـر عنهـا القـرآن بالمضـغة تجسيما لتقـديرها بما يمكن أن يمضغ مثلها. هي في بداية الطور إن نظرت إلـى مـا خـط فيهـا ممـا هـو كامن في الجينوم البشري وهي تتطـور حسـب المسـار الثابـت مـن أول يـوم، فهـي مخلقة أي لها ميزاتها وخصائصها الخلقية المتفـردة التـي تتقـوم بهـا كـل ذات بشـرية. ولذا عبر عنها القرآن بقوله: مخلقة.

وإن نظرت إلى ظاهرها، تجدها لا تنبئ عـن خصـائص خلقيـة بمـا تختلـف بـه ذات عن ذات أخرى فهي غير مخلقة .وهو معنى قوله تعالى: مخلقة وغير مخلقة .

يقف القرآن في هذا المقطع ليذكر بأن القصد: هو أن نبـين لكـم مـا خفـي علـيكم مـن مظاهر القدرة والتصرف الحكيم الذي يتجاوز مستواكم المعرفي.

خامسا: بعد هذا الطور ينمـو الجنـين وتـزداد علاقتـه قـوة بـالأم، ويظهـر الوريـد السري الذي يتغذى بواسطته من دم الأم المؤكسد. وهـذه مرحلـة تتواصـل إلـى الأجـل الذي قدره سبحانه لبقائه في بطن الأم. الغالب أنه نحـو تسـعة أشـهر، وقـد يـنقص أو يزيد .

سادسا : تلك الأطوار المتتابعة التي بلغت بالجنين وقت انفصـاله عـن أمـه، ينفـذ فيـه إثر ذلك التقدير الإلهي فيخرجه من محضـنه الـذي أواه المـدة المقـدرة فـي علـم الله .

هو طفل في أول مراحل الحياة المستقلة يتفاعل مع الهواء والبيئة التي تحيط به.

إن بين الطفولة الباكرة التي لا يسـتقل فيهـا المولـود بـأمور حياتـه إلا مـا كـان مـن الفطرة كاستنشاق الهواء، والتقام الثدي، والحركة الضـعيفة، وبـين بلوغـه قمـة قوتـه البدنية والنفسية والعقليـة المعبـر عنهـا ببلـوغ الأشـد مراحـل وتطـورات وتجـارب وتربية أحاطتها ألطاف إلهية، وذلك هو الغاية مـن خلـق الإنسـان ليقـوم برسـالته فـي الكون الذي استُخلف فيـه، وليحقـق العمـران فـي أرض الله. وفـي ذلـك إيمـاء إلـى مسؤولية الإنسان وتكليفه الذي هو غايـة الخلـق، والـذي لا تظهـر اثـاره إلا بالبعـث بعد الموت . ذلك أن الحكمة الإلهية اقتضت أن لا يكـون الإنسـان مُلْجـأ بإدراكـه حتمـا نتائج أفعاله بمجرد ما يقوم بها، بل يمضـي فـي الحيـاة، ولكـل فـرد نصـيبه مـن

الاستقامة أو الضلال، دون أن تظهر اثار فعل الخير وجوبا، ولا اثار فعل الشر حتما، والبعث هو المُظهر للمسؤولية التي هي شرف الإنسان في الوجود .

وأردف القرآن ما يدل على التصرف الإلهي، فأبان أن تلكم الأطوار التي يمر بها الوليد إلى بلوغه كمال قوته ليست حتمية، ولكن التقدير الإلهي السابق في علم الله ينفذ فيبلغ البعض ذلك المستوى، وقد يموت في مرحلة من مراحل نموه، وقد يتجاوز القوة وينحدر إلى الضعف شيئا فشيئا إلى أن يصل إلى أرذل العمر، فيخسر شيئا فشيئا قواه البدنية، وقواه العقلية، وما تزال الذاكرة تضعف ويتساقط منها ما كان مخطوطا فيها، حتى تنقلب إلى صفحة بيضاء كأنها لم تعلم شيئا. فيخرج من طور التكليف الشريف إلى طور أقرب ما يكون إلى الحيوانية. وقد كان النبي ﷺ يستعيذ من بلوغ أرذل العمر. روى البخاري بسنده إلى سعد بن أبي وقاص ﷺ (كان يأمر بهؤلاء الخمس ويخبرهن عن النبي ﷺ: اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر)[1]

إن مراحل وجود الإنسان بناء وهدم، وحياة وموت، تنفعل بهما أجهزته دون علم ولا إرادة منه. كل ذلك يقوم شاهدا على خضوعه للتدبير الإلهي، وعلى كون البعث حقيقة لا ينبغي أن يشك فيها. فظهر بهذه السلسلة في التقلبات التي لفتت إليها الآية خضوع الإنسان للقدرة الإلهية من ناحية، وإمكانية البعث من ناحية أخرى، فقامت دليلا محققا لقوله تعالى في فاتحتها: **وإن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم.....**

ثم قرن القرآن الدليل الأول على البعث المستند إلى تطورات خلق الإنسان، وكثير من المراحل لم يكشف العلم عن حقيقتها وقت نزول الوحي، قرن ذلك بما هو ظاهر للناس جميعا، وهو النظر في الأرض. فخاطب كل من تصح منه الرؤية في وقت نزول الآية ليلفت الانتباه إلى مشهد يراه كل مبصر، ويغفل كثير منهم عن دلالات ما يبصره، فيقف عند حد الإحساس الحيواني، ولا ينطلق بقواه العقلية إلى ما وراء ما يبصره. المشهد المتكرر هو وضع الأرض في حالتين:

الحالة الأولى: الأرض جرداء جفت كل رطوبة كانت تخللتها من قبل فالتحمت التربة ببعضها وأصبحت يابسة متحجرة لا يرى أثر للحياة على سطحها.

---

[1] فتح الباري ج 13ص433

الحالة الثانية: هي الأرض ذاتها، وقد ساق الله بفضله إليها سحبا درت عليها بالماء الذي رواها فنفذ إلى باطنها وتخلل التربة وحبات الرمل، فعلا سطحها، وتحركت بمسالك الماء الذي جرى في باطنها، ثم أخذت النباتات تكسو سطحها بمختلف الأصناف والأنواع، الجامعة بين النفع للأحياء وبين جمال المنظر.

6-،7-ذلك بأن الله هو الحق ...يبعث من في القبور.

تنعطف الآية على كل ما تقدم مبرزة وجه دلالته على البعث. أتى بالأداة الرابطة: اسم الإشارة " ذلك "ليستحضر التالي كل ما تقدم من قوله: "يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث" إلى قوله: "زوج بهيج " ما أحكمته يد القدرة فجعلته يسير في نسق لا يلحقه اختلال من أطوار الإنسان ومن التحول في سطح الأرض بعد نزول الماء .كل ذلك يقوم دليلا مثبتا أن الله هو الإله الحق وأن كل من نسبت له الألوهية زائف لا حقيقة له. إنه لا ألوهية لمن لا تخضع له الكائنات فيوجدها حسب تقدير محكم، ويطورها حسب تقدير محكم، ويهدمها كذلك. وقد ظهرت آثار ألوهيته سبحانه في خلق الإنسان وتطوره في مراحله، وفي إحياء الأرض بعد جدبها، وتزيينها بمتنوع النباتات. وإذا كانت قدرته سبحانه قد أشرقت في تحول المادة الميتة المتمثلة في العناصر الأرضية شيئا فشيئا إلى إنسان، وفي قدرته على إحياء الأرض الميتة فإن ذلك يقوم شاهدا على أنه سيحيي الموتى لثلاثة أمور:

أولا : أن الله أخبر بذلك وقوله صدق.

ثانيا: أننا شاهدنا الإنسان يكتمل شيئا فشيئا ثم يتراجع إلى الوهن فالاضمحلال، وخلق الإنسان الأول لما أدخل الجنة كان فيه استعدادا لمواصلة طريقه في الحياة. وأنه لما أخرج من الجنة وكتبت له حياة أرضية تنتهي بالموت والفناء، فإنه من المعقول أن يجبر هذا النقص الذي لحقه ببعثه في حياة متواصلة.

ثالثا: أن شرف الإنسان يبدو في تميزه بكونه مكلفا مسؤولا، ولما كانت آثار المسؤولية لا تظهر دائما في الحياة الدنيا، فإنه يكون البعث والجزاء مكملا للتكليف. إذ تكليف بلا حساب عبث.

و كما أحيى العناصر الأرضية بدخولها في تكون العناصر التي تكونت منها النطفة وما تبعها، وكما أحيى الأرض الميتة، فإن ذلك دليل على أنه لا يعجزه إحياء الأموات بعد موتهم. وهو دليل أيضا على كمال القدرة التي لا يعجزها شيء. فأنت إذا تأملت في العناصر الأرضية وكيف توزعت في جسم الإنسان ليأخذ كل جزء مهما ضؤل ما يحتاج إليه من تلكم العناصر، ثم كيف ينمو ويأخذ شكله الخاص به دون أن يستطيع تغيير أي شيء في المسار الذي قدره رب العالمين، كل ذلك

وغيره مما يقوم شاهدا مناديا بأن الله على كل شيء قدير . ومن كمال قدرته أن فناء العالم المعبر عنه بالساعة بيده، موقت بأجل لا يتأخر ولا يتقدم، أخبر أنه سيتحقق تحققا لا شك فيه ولا ريب. وأن أمر الساعة وحلولها هو لغاية قدرها رب العزة ليبعث كل الأموات ليخرجوا إلى المحشر ثم إلى الحساب فالجزاء.....

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

الكتاب المنير: الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل.

المنير : المظهر للحق كالمصباح .

ثاني عطفه : لاويا جانبه، تمثيل للتكبر والخيلاء .

سبيل الله: دينه.

خزي الدنيا : الإهانة.

قدمت يداك : ما قمت به في حياتك الدنيا.

يعبد الله على حرف : تمثيل لعدم الثبات وفقدان الطمأنينة.

الفتنة : اضطراب الحال .

الخسران : أصله نقصان رأس المال.

مبين : غير خاف.

بيان المعنى الاجمالي :

ما أقامته الآية من حجج وبيان، كان أثره في الناس مختلفا. فمنهم من اهتدى، ومنهم من انتصب مجادلا نافيا ما لله من سلطان ومحاسبة للناس عن أعمالهم يوم القيامة. يجادل وهو متصف بالجهل مبتعد عن طريق الهداية، وليس له كتاب يضيء الحقيقة ويكشفها يرجع إليه، فهو سائر في ظلمات من الجهل والغواية

منقطع عن وحي الله . ومن ملامحه أنـه قـد أبطـره الكبـر والاسـتعلاء، فهـو يمشـي منحرفا عن الناس لا ينظر إليهم. همه أن يخرج بأتباعـه مـن الهـدى إلـى الضـلال. إن ما يترصده: أن الله قدر له المهانة والذل في الحياة الدنيا، وقـدر لـه فـي الآخـرة عـذاب جهنم يحترق بنارها، نكاية فيـه يقـال لـه : ذلـك العـذاب العظـيم هـو مـا أعددتـه لآخرتك بعملك. وهو جزاء عادل فإن الله لا يظلم الناس مثقال ذرة إذ هم عبيده.

ونمط آخر من الذين لم يدخل الإيمان في قلـوبهم دخـولا يكسـبهم الطمأنينـة ويسـتندون إليه في جميع أحوالهم، واعتبـروا الإسـلام تجربـة مربوطـة بنتائجهـا القريبـة، هـم يسيرون فيـه متقلقـين غيـر ثـابتين، فـإن تجحـت أمـورهم الاقتصـادية واسـتقامت صحتهم، وتتابعت علـيهم الخيـرات اعتبـروا دخـولهم فـي الإسـلام تجربـة ناجحـة واطمأنت نفوسهم بـه . وفـي المقابـل إن اضـطربت أحـوالهم فكسـدت تجـارتهم، أو أصيبوا في صحتهم أو في ذريـتهم تطيـروا بالإسـلام واعتبـروا دخـولهم فيـه جالـب تعاسة، فأصبح وضعهم كمن انكب على وجهه فتوقـف عـن السـير وأحـاط بـه اليـأس وعمي عليه ما هو أمامه . أتلف الخيـر الـذي تحصـل عليـه بالإيمـان . خسـر خيـر الدنيا وخير الآخرة. ومـن خسـرهما فخسـرانه أبـين خسـران لا يخفـى علـى أحـد. وتُعمّق الآية قبح الوضع الذي انتهى إليـه، أن ينـادي ويسـتغيث بأصـنام، عـوض أن يستغيث بالقـادر الفاعـل الله رب العـالمين، مـع أنهـا لا تسـتطيع ضـره ولا نفعـه. وعندما يتسفل الإنسان فيصل إلى هذا الحد يكون ضـل ضـلالا كبيـرا. عجـب لـه هـو يدعو من يلحقه منه الضر بصفة أقرب من لحاق النفـع . ومـن ينتصـر بمـن لا يلحقـه منه إلا الضر فقد انتصر بأسوأ نصير، وعاشر أسوأ خليل.

بيان المعنى العام :

8- ومن الناس من يجادل...ولا كتاب منير.

بعد أن لفت القرآن الأنظار إلى ما يدل عليـه خلـق الإنسـان والتصـرف فـي مراحـل تطوره، وإحياء الأرض بعـد موتهـا، وبـين وأزال الريـب، وقطـع مـع الشـبهات التي تغطي على الحقيقة، كشف إثر ذلـك أن النـاس فـي انتفـاعهم مـن ذلكـم البيـان كانوا على قسمين :

أ-بعضهم أخذ يصوغ كلاما يدفع به ما اسـتبان مـن الحـق، محـاولا اسـتبعاد البعـث بل نفيه وإقناع الأتباع باسـتحالته ليواصـلوا تحكمهـم فـيهم وتكثيـر صـف الرافضـين للإسلام. هم يجادلون في حقيقة الألوهيـة المتصـفة بالقـدرة علـى كـل شـيء. إنهـم لا يستندون إلى علم ثابت، كلامهم مناقض لمقتضـيات العقـل. ولا هـو مصـبوغ بصـبغة

الهداية إلى طريق الرشد بل هو موغل في الضلال، ولا هو يعتمد كتاب شريعة منزل من عند الله ينير الحق ويُقنعُ به، ويساعد على سلوكه.
ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية تفضح بعض رؤوس الكفر وقادة الضلال في العهد المكي كالنضر بن الحارث وأبي جهل والأخنس بن شريق وهي خاصة لهم . والأصح أنها تتناول هؤلاء تناولا أوليا، وتتناول كل من هم على شاكلتهم في عهد النبوة وما يتلوه. وعدد غير قليل ممن أبهرتم الحضارة المادية ممن كان آباؤهم ينتسبون إلى الإسلام، تجد الآية تنطبق عليهم.

9- ثاني عطفه ليضل ..عذاب الحريق.

واصلت هذه الآية عرض ملامح بعض الناس المجادلين بغير حق، فذكرت من هيأتهم الخارجية ما يعبر عما شُحنت به نفوسهم من كبر، وثني العطف ميل الجانب في السعي تكبرا وخيلاء، فهو لا يواجه الآخرين بالنظر إليهم، ويمر معرضا عنهم .
إنه يجادل قاصدا إضلال الناس، والخروج بهم من المنهج الواضح الذي يفيدهم طمأنينة وإدراكا للحق، إلى الشك والرفض وفوضى الحياة والعلاقات. ومن الإيمان إلى الكفر، ومن السبيل المبلغ لرضوان الله، إلى ما يقطع الصلة به ويلقي به في الضياع.

10- ذلك بما قدمت يداك...بظلام للعبيد.

ويأتي الوعيد الذي هم أحرياء به، وعيد سيتحقق في الدنيا وفي الآخرة . أما في الدنيا فستنقلب أوضاعهم إلى منازل الهوان والذلة .وذلك بانتصار الإسلام وانفراط الناس من حولهم، وظهور بطلان جدلهم. وبالنسبة لرؤوس الشرك المكيين من أسرهم وقتلهم كما تم يوم بدر. وأما في الآخرة فسيلقون جميعا أشد عذاب، عذاب الاحتراق بالنار. ويقال لهم نكاية فيهم: ذلك العذاب العظيم في جهنم قد قدمتم له بسعيكم وأعددتموه لأنفسكم، فخذوا ما قدمتم وتقبلوا ما أعددتم. وعبر بقوله:" ما قدمت يداك" تجسيما للعدل الإلهي فيهم، فهم أعدوا هذا الجزاء بما اكتسبوه في الدنيا من التضليل والجدال بالباطل.
و ينعطف على كل ما تقدم التذكير بحقيقة: أن البشر كلهم عبيد الله مملوكون له، لا يرضى لهم الكفر ولا الضلال. فهو لا يظلمهم ولو مثقال ذرة. ولما كان سبحانه مالكا لهم، مصرحا بأنهم عبيده، نفى ظلمهم على صيغة المبالغة – ظلام – إذ أقل الظلم على مملوكيه منفي بصيغة المبالغة .

11-ومن الناس من يجادل ....الخسران المبين

ب – نمط آخر من الناس، هؤلاء لا يجادلون، لكـنهم دخلـوا فـي الإسـلام ليخضـعوا تجربتهم إلى ما يكشف عنه المستقبل، مقدرين أنه إن اسـتقامت لهـم أمـور دنيـاهم فقـد أصابوا الدين الحق، وإن أصـيبوا فـي أبـدانهم أو أمـوالهم أو أهلـيهم تطيـروا بالـدين الإسلامي وجعلوه سبب البلايا التي أصيبوا بهـا. هـم غيـر ثـابتين ولا مطمئنـين مـثلهم كمثل الذي يمشي على طـرف شـيء مرتفـع (علـى حـرف) فهـو متهـيء للسـقوط والخروج عن خط المسار الذي يتبعه.

ثم فصلت الآية وضع هذا السائر على حرف: أنه يعتبر دخوله في الإسلام صفقة في سوق الحياة، فإن استقام البدن، ونفقت التجارة، ودر الضرع، وتكاثرت المواشي، ورُزِقَ الأولاد والأموال. ثبت على الدين ورأى فيه مؤشر خير، وربط بين الخير الذي لحقه في الدنيا وبين دخوله في الإسلام. وأما إن أصيب في ماله أوفي بدنه أو في عشيرته، ربط ذلك بانتمائه إلى الإسلام الذي كان حسب تصوره سببا في غضب الآلهة التي كان يعبدها ويطلب منها النصر والعون، وأنها خذلته لما انشق عنها. وعبرت الآية عن الوضع الذي آل إليه إثر هذا التصور، بأن شأنه شأن الذي كان يسير قائما فخر على وجهه فلا هو يستطيع السير ولا هو تتضح له رؤية ما يستقبله. ثم أبرز القرآن ماله بأنه ضاع منه خير الدنيا ولا يجد ثوابا في الآخرة ينفعه. ومن فاته خير الدنيا والآخرة معا فخسرانه أوضح خسران وأشهره. وتلفه أعظم تلف .

12- يدعو من دون الله...الضلال البعيد.

يزيد القرآن في تشويه صورته، أنه لمـا أضـاع حظـه مـن خيـري الـدنيا والآخـرة منقلبا على وجهه، أخذ يدعو ويستغيث الأصنام التـي كـان يعبـدها، ومـا أشـد غبـاءه فإن الأصنام التي يستغيث بها عاجزة عن ضـره كمـا هـي عـاجزة عـن نفعـه. وقـدم الضر في الآية على النفع، لأنه مـا تحـول لاسترضـاء الآلهـة إلا لأنـه تـوهم أن مـا أصابه من ضر كان بسبب غضبها عليه، فـداعي التحـول للاسـتغاثة بالأصـنام بصـفة أولية هو ما أصابه من ضر فلذلك قدم. ذلك الوضـع الـذي انقلـب عليـه هـو الضـلال البالغ الغاية القصوى منه.

13- يدعو لمن ضره...العشير.

ثم تعمقت الآية كاشفة عن الحاصل لمـن يعبـد الأصـنام فحققـت: أنـه يـدعو وينـادي مستغيثا بمن ضَرُّه أقرب حصولا من نفعه، ممـا يفضـي إلـى أنـه لا يحصـل منـه إلا الضر الأقرب. و بيان ذلك أن المستغيث بالأصنام.

أولا أهلك عقله، بتعلقه بالأوثان التي كل قيمتها ما ألصـقه بهـا خيالـه، وهـي عـاجزة عن حفظ نفسها فضلا عن التأثير فـي غيرهـا أو الـتحكم فـي الكـون بـدفع مفسـدة أو جلب مصلحة .

وثانيا: أنه علق رجاءه بمـا لا يتصـور أن يأتيـه منـه دفـع ضـر ولا جلـب خيـر، فكانت آماله آمالا ضائعة فكان الضر أقرب بل لا واقع غيره.

و تختم الآية بتصويره بصورة العاجز الضـائع المتخـبط فـي الحبـال التـي أوثـق بهـا نفسه، لا يصفه من ينظر إليـه إلا بقولـه: إنـه أحـاط نفسـه بأسـوأ نصـير، وأسـوأ معاشر وخليل.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

السبب: الحبل.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه الآية تبشر المؤمنين الجامعين بـين العقيـدة الصـحيحة والعمـل الصـالح، بعـد أن ذكر القرآن أنماطا من الهـالكين ومـآلاتهم، تبشـرهم بـأن عـاقبتهم هـي الجنـة التـي تتخللها الأنهار الجارية. لطف بهم وأعـانهم علـى بلـوغ الفـوز، بمـا يسـر لهـم .والله يحقق إرادته لا راد لما قدر وأراد.

و من وصل به تفكيره إلى اليأس من نصـر الله لرسـوله فـي الـدنيا والآخـرة، وامـتلأ صدره غيظا على نفسه بإسراعه في إعلان إسلامه، فهـذا لـيس لـه دواء للخـروج مـن يأسه وشفاء غيظه إلا أن يمد حبلا إلى أرفع نقطة في السـماء ثـم يتـدلى فيـه ويقطعـه ليتهشم أو يجعل الحبل في عنقه يختنق بـه ثـم يتـدلى فتتقطـع أنفاسـه، شـأنه شـأن اليائسين. ومبالغة في التهكم من سخفه يقول القرآن: فلينظر بعـد ذلـك هـل يزيـل هـذا التدبير غيظه ؟

وعلى هذا النحو من البيان لأنماط النـاس فـي مقابلـة الـدعوة، أنزلنـا آيـات القـرآن واضحة بينة، وأن الله يسعد من يريـد هدايتـه فيشـرح صـدره للإيمـان ويعينـه علـى فعل الخير.

ثم إن الطوائف المختلفة من البشر، مـن المـؤمنين برسـالة محمـد ﷺ ، ومـن اليهـود، ومن الصابئين، ومن النصارى، ومـن المجـوس، ومـن المشـركين، الكـل سـيقفون يوم القيامة للحساب، فيفصل سبحانه بينهم بـالحق. فالمسـلمون ومـن كـان علـى الـدين الذي جاءه من عند الله قبل أن ينسخ، يدخلون الجنـة دار الكرامـة، ومـن عانـد الحـق وتعصب يلقى جزاءه. والله مطلع على خفايا الصدور، ولا يظلم ربك أحدا.

بيان المعنى العام :

14- إن الله يدخل الذين آمنوا ...إن الله يفعل ما يريد .

جرت هذه الآية على طريقة القرآن بـالجمع بـين البشـارة والنـذارة والوعـد والوعيـد .فإذا كانت الآيات السابقة تعرضت لأنماط من النـاس ممـن كفـر، وممـن لـم يسـتقر الإيمان في نفسه وكان متربصا ما يأتيه مـن ضـر أو خيـر، فـإن هـذه الآيـة أكـدت عاقبة من جمع بين الإيمان الخالص، وظهرت آثار ذلك فـي سـلوكه فكـان عملـه عمـلا صالحا بمقاييس شرع الله . من جمع ذلك فإن الله سـيدخله يـوم القيامـة جنـات تتخللهـا الأنهار. والله يحقق إرادته لا يعترضه في تنفيذ مـراده صـعوبة . فقـد أحـاط مـن أراد له الخير بألطاف في عقله وروحه وفي محيطه، فـاتبع سـبيل الهـدى وفـاز بكرامـة الله يوم القيامة، فهو في الدنيا والآخرة محاط بإرادة الله.

15- من كان يظن...ما يغيظ

افتتحت هذه الآية بتحديد ملامح صنف من النـاس، وصـفتهم الآيـة أنهـم ظنـوا أن الله لا ينصرهم ولا يهيء لهم أسباب الخير فـي الـدنيا التـي منهـا سـعة الـرزق، وأنـه لا يمكنهم من النعيم الذي وصفه القرآن في آيـات كثيـرة، وأقربهـا الآيـة السـابقة. إنهـم بهـذا التحديـد كـافرون، لقولـه تعـالى: (**إنـه لا ييـأس مـن روح الله إلا القـوم الكافرون**)[1] وهم نمط خـاص أظهـروا الإسـلام، وكـانوا عنـد دخـولهم فـي الـدين منتظرين أن تحسم الأمور في أقـرب وقـت، وأن ينتصـر الإسـلام انتصـارا يقضـي على كل أثر للكفر. فهم ما دخلوا في الإسـلام حبـا فيـه، ولكـن ليكونـوا مـع الفريـق الغالب، الشيء الذي يحقق لهم أطماعهم. ولمّا لـم يحسـم الأمـر حسـبما يصـوره لهـم استعجالهم، واسـتبطأوا انتصـار المسـلمين، تـرجح عنـدهم أن أمـر الإسـلام إلـى

---

[1] سورة يوسف اية87

زوال، وأنه لا تكون له الغلبة في الصراع الدائر بينه وبين الشرك الفاشي في المجتمع المكي. وأيضا لا يكون لمتبعيه أي حظ في الآخرة، لأنهم لا يؤمنون بالبعث. هذا إذا أرجعنا الضمير في قوله تعالى: "أن لن ينصره" إلى الإسلام. كما يمكن أن يعود الضمير إلى رسول الله فيكون المعنى: أنه فريق ترجح عنده أن الله لا يؤيد محمدا بالنصر في الدنيا، وليس له أي حظ في الآخرة لعدم إيمانهم به. ويصح أن يعود الضمير " أن لن ينصره" إلى صاحب هذا الظن الداخل في الإسلام الذي استبطأ النصر استبطاء حمله على ظن أنه اتبع الطريق الخاسر، وأنه أهلك نفسه باتباع الإسلام، وأنه لا حظ له في الدنيا مع هذا الدين، وأنه لا حظ له في الآخرة لعدم إيمانه بحلولها.

هذا النمط عالجه القرآن بطريقة تهكمية، يقول لهم: إن امتلأتم غيظا على محمد أو على الإسلام، أو حسرة بلغت حد الغيظ على أنفسكم، فإن خلاصكم من ذلك أن تأخذوا حبلا تطولون فيه ما شئتم، ابلغوا به إلى السماء، ثم اربطوا أنفسكم بأعلاه ثم اقطعوه، فتتهشموا على الأرض أو اختنقوا به فيقطع أنفاسكم وتستريحوا وقد فسر القطع بالخنق، يقول الخليل: وقطع الرجل إذا اختنق بحبل أو نحوه. ولا يذهب غيظكم إلا ذاك، شأنكم كشأن اليائسين الذين ينتحرون بربط الحبل في أعناقهم.

ومبالغة في تشهير سخفه، وتنزيلا للتهكم به يقول القرآن: إنه بعد أن ينفذ هذا التدبير لينظر هل ذهب غيظه واستراح ؟

16- وكذلك أنزلناه...من يريد.

وعلى هذا النحو من التوضيح المفصل لأحوال المؤمنين والكافرين بمختلف أنماطهم التي سبقت في السورة، أنزلنا القرآن آيات بينات بالغة حد الإعجاز، داعية للتدبر في مضامينها التي تمكن الناظرين فيها من آفاق لا ينقطع مددها. ومع ذلك فإن الله سبحانه يهدي بكتابه وبتلكم الآيات من يريد هدايته، فييسر له من الظروف ومن صفاء القريحة ومن الألطاف ما يبلغ به وضوح المنهج والعون على الالتزام به عملا وتطبيقا .

17-إن الذين آمنوا....على كل شيء شهيد.

بعد أن بينت الآيات السابقة أنماطا من المناوئين للإسلام، وخُتِمَ العرض بأن القرآن أنزله رب العزة وبه البيان الشافي، وأن الله لا يسعد بألطافه إلا من أراد له الهداية. عقب ذلك بمسح شمل أكثر المجموعات المتدينة من المؤمنين الصادقين الذين تمسكوا بالإسلام وثبتوا عليه، إلى المشركين الذين وقفوا في وجه الدعوة حسبما فصل كثير منه قبل هذه الآية.

ذكرت الآية ست مجموعات من البشر مختلفة في دينها: 1) المؤمنون بالدين الإسلامي 2) المؤمنون المتبعون للدين اليهودي -3) المتبعون لدين الصابئة -4)المتبعون للدين المسيحي- 5) المتبعون للمجوسية (وهؤلاء مؤمنون بالله)- 6) المشركون - وعقبت عرضهم إجمالا بأن الله سيبعثهم ليوم القيامة : يوم الفصل، اليوم الذي تتكشف فيه الحقيقة ويلقى كل فريق جزاءه بناء على صلاح عقيدته وعمله، أو انحرافه عن الحق واتباعه طرق الضلال .إن الله مطلع على كل شيء من الماديات أو ما تنطوي عليه النفوس وما تعتقده العقول .

ولا شك أن المبعوثين من اليهود ومن الصابئة ومن النصارى ومن المجوس بعضهم كان على هدى قبل أن يدخل التحريف دياناتهم، وبعضهم غيروا الدين النازل إليهم وتعصبوا لما هم عليه، واستمروا على ذلك، ولم ينتفع أخلافهم من الحق الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ، وكابروا وواصلوا تعصبهم على الإسلام، يقول الله لنبيه : اثبت على ما أنت عليه وسأفصل بين الجميع فصلاً يتبين كل ضال ضلالته يوم القيامة، حتى يجد أن ما قدّر له من جزاء، هو جزاء عادل ناله بما قدم في الدنيا.

وفي هذه الآية ذكرت خمس ديانات: 1) المؤمنين التابعين لدين الإسلام الذي ختم به الله رسالته إلى بني ادم ونسخ ما قبله-2) الذين تمسكوا بالدين الذي أنزل على موسى وهم الذين هادوا -3) الصابئين وهم الذي تبعوا سيدنا يحيى وكفروا بكل الأنبياء بعده . وقد حققنا شيئا من دين الصابئة في الآية69 من سورة المائدة -4)النصارى المتبعين للدين الذي أنزل على سيدنا عيسى عليه السلام -5) المجوس. المذكور عند المفسرين أن المجوس قوم من عبدة النار، وأنهم يؤلهون إله النور وإله الظلمة، وبناء على ما ذكروه يكونون مشركين. وقد توقفت في هذا التعريف لدين المجوس، وذلك لأمور:

أولا: إن الله عطف الديانات وهي مختلفة كما يقتضيه العطف إذ لا يعطف الشيء على مثله، وخص الذين أشركوا وعطفهم على المجوس مما يقتضي أن المجوس غير مشركين إذ لو كانوا مشركين لأغنى ذكر المشركين عن ذكرهم.

ثانيا : ما أخرجه مالك في الموطأ: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذكر المجوس، فقال : ما أدري كيف أصنع في أمرهم ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف : أشهد لسمعت رسول ﷺ يقول : سنوا بهم سنة أهل الكتاب[1] .

فلما كان تصرف المسلمين مع البلاد المفتوحة يختلف باختلاف عقيدة البلاد المفتوحة، فيكتفى من أهل الكتاب بالجزية وتتكفل الدولة الإسلامية بحمايتهم،

[1] الموطأ ح 756ج 1 ص374جامع الترمذي ج3 ص241ح 1586-

وتمكنيهم من إقامة شعائرهم. وأن الشرك والإسلام لا يلتقيان في بلاد الإسلام. دل هذا على أن النبي ﷺ لم يعتبرهم مشركين وأجرى عليهم أحكام أهل الكتاب.

ثالثا: ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة يحدث: قال النبي ﷺ : ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه[1]. - فجعل النبي ﷺ التأثير على الصبي بإدخاله في دين المجوسية عديلا لتأثير اليهود والنصارى على أولادهم، مما يدل على أنه دين موحد.

لقد أثبتت الدراسات الحديثة: أن الديانة المجوسية هي الديانة الزرادشتية نسبة إلى زرادشت الذي يثبت له أتباعه النبوة، وأنه هو الذي فصّل تصور العقيدة المجوسية وسلوك أتباعها. وأنها من أقدم الديانات الموحدة. يضرب تاريخها إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة. وكتابهم دُوّن بعد زرادشت بمدة طويلة، وضاع وجدد. وهذا مما يتبعه حتما عدم بقائه على النحو الذي ظهر به أول الأمر.

يعتقد المجوس بوجود إله واحد أزلي هو (أهورا ما زدا) بمعنى الإله الحكيم . وهو خالق الكون وينيل الخير ولا يأتي منه الشر.

أسس زرادشت ديانته على إيمانه بالقوة الشافية: العمل الصالح. واعتبر الشمس والنار رموز الزرادشتية. فالنار مقدسة باعتبارها تمثيل عن نور أو حكمة، ولذا يحرص الزرادشتيون على بقاء النار مشتعلة في معابدهم. وهذا هو المدخل الذي جعل التصور السائد عنهم أنهم يعبدون النار.

يبلغ عدد أتباع هذه الديانة اليوم بين 124,000- وبين 190,000 - وهم منتشرون في سوريا، والعراق، وكردستان، وإيران، وفي آسيا الوسطى. وخاصة بمدينة بلخ بأفغانستان وفي باكستان وأميركا الشمالية.

إن التحقيق الذي كشفت عنه الدراسات الحديثة يقوم شاهدا على أن السنة كالقرآن من عند الله، فقد كانت الدقة في التعبير كالدقة في المضمون في الحديث عن المجوس، على خلاف العقيدة السائدة عند معظم العلماء من أن المجوس قوم مشركون، ووقعوا تبعا لذلك في صعوبة. وتبين أنهم غير مشركين وأن عطفهم على أصحاب الديانات الموحدة هو الحق. وصدق الله: **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** [2]-

---

[1] فتح الباري ج 3ص464- وإكمال الإكمال ج7 ص 91

[2] سورة فصلت آية 53

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (18)

بيان معاني الألفاظ:

ألم تر : ألم تعلم .

يسجد: السجود يشمل السجود الحقيقي بوضع الجبهة على الأرض، والمجازي بمعنى الخضوع.

كثير حق عليه العذاب : لم يسجد.

يهن الله : يذله الله.

بيان المعنى الاجمالي :

انتبهوا واعلموا أن الله تخضع له جميع الكائنات، قدر لها مسارها وتطوراتها وآجالها فهي سائرة في الخط الذي قدره لها سبحانه. كل من في السماوات مما هو معلوم وما هو مجهول، وكذلك كل من في الأرض من كائنات، والشمس التي يستمد منها سكان الأرض جانب غير قليل من مقومات بقائهم، وكذلك النجوم والجبال الراسيات والأشجار والدواب، كلها خاضعة لتدبيره. وأما الإنسان فقد أراد الله أن يكون مختارا مكلفا، فكثير منهم علموا حق مولاهم فسجدوا له متقربين راجين رضاه، وكثير أعرضوا فحق عليهم العذاب. ومن ينحرف عن مسيرة الكون فينفصل عن الله هو مهين ذليل بإرادة الله، ومن أهانه لا يجد مكرما له. إن الله هو وحده الفاعل المختار في الكون.

بيان المعنى العام :

18-ألم تر أن الله يسجد له...يفعل ما يشاء.

بهذا الاستفهام الإنكاري المخاطب به كل من يصح منه العلم يوقظ القرآن جميع التالين لكتابه، ليكونوا على ذكر من هذه الحقيقة: إن الكون كله بما خلق الله فيه يسجد لله: كل ما حوته السماوات من الكواكب والمجرات التي لا يعلم ضخامتها إلا خالقها، عدُّوا أبعاد ما بينها بالسنوات الضوئية، وما تحويه من الكائنات التي لا نعلم عن حقيقتها شيئا، كعالم الملائكة .وكذلك ما حوته الأرض من الكائنات الضخمة والتافهة التي لا يرى بعضها إلا بالمجهر الإلكتروني، ومما لا يزال مغطى تحت ستار الخفاء إلى اليوم . وما نشاهده من الشمس والقمر والنجوم، وما

على الأرض من جبال راسيات، وما تنبته من الأشجار التي ثبتت قرونا وما كان منها ما يزال في فتوته، وما ينتقل ويدب على وجه الأرض أوبين طبقاتها؛ هذا الحشد الهائل كله خاضع للتسيير المحكم كما جاء في جواب سيدنا موسى لفرعون، قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى [1]، فهي خاضعة للباري لا تخرج عن المسار الذي حدده لها.

وتميز الإنسان من بين الكائنات، إذ مكنه من الاختيار الذي كان من آثاره أن كثيرا من الناس يسجدون لله عن إرادة وتفكير وتعلق برضوانه، وأن كثيرا منهم امتنعوا من السجود فحق عليهم العذاب. هم نشاز في موكب الكون، لفظهم الكون، ومن قطع صلته بالله فقد ذهب عنه مصدر العز، فسلط عليه الهوان والذل. ومن لم يشمله الله بعزه لا تجد له مكرما. تعالى ربنا فهو الفاعل لما يشاء ويريد .

و قوله تعالى : (ما يشاء) موضع سجود مجمع عليه .

• هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الاختصام : المجادلة والخصومة بين طرفين.

التقطيع : جعلت لهم بتقدير كما يفصل الثوب على صاحبه.

الحميم : شديد الحرارة.

---

[1] سورة طـه آية 50

الإصهار : الإذابة بالنار أو بحر الشمس.

المقامع : جمع مقمعة ما يرد به بعنف.

تحلى : لبس الحلي.

أساور: أسورة كثيرة وهي ما يتحلى به في المعاصم.

الحميد: المحمود كثيرا، اسم الله تعالى.

يصدون : يمنعون.

سبيل الله: الإسلام.

العاكف : المستقر.

الباد: ساكن البادية .

الإلحاد : الانحراف عن الحق.

بظلم : ملتبسا بظلم.

بيان المعنى الإجمالي :

يستحضر القرآن فريق المؤمنين وهم يدافعون من أجل التعريف بالله بالحجة والبرهان، والمخالفون لهم وهم يدافعون عن كفرهم. ويبين عاقبة كل فريق.

أما المخالفون فإنه يُفصّل لكل واحد منهم كسوة من النار على مقاسه فتحيط بكل جزء من أجزاء بدنه، ويضاف إلى ذلك أن سيلا شديد الحر يصب فوق رؤوسهم فينفذ إلى أمعائهم وجلودهم فيحرقها لتعود من جديد، لتتلقى نفس العذاب وهكذا. وكلما اشتد عليهم الكرب والغم حاولوا الخروج من النار فتتلقاهم ملائكة العذاب بمطارق من حديد تعيدهم إلى منازلهم في جهنم، ثم إذلالا لهم تقول لهم: ذوقوا العذاب الحارق مع أنه مسلط عليهم .

وأما المؤمنون فإن الله يدخلهم بإذنه العالي جنات تتخللها الأنهار، هذا هو مأواهم. وأما في ذواتهم فسيحل عليهم ألوان من التكريم والنعيم منها أنهم يجدون في أيديهم أجمل ما يتحلى به معصم: أساور ذهبية مرصعة باللؤلؤ، ولا يتوقف في هذا بأن شأن الرجال أن لا يرغبوا في لبس الأساور، لا يذهب بكم الظن إلى أن مقاييس الآخرة هي مقاييس الدنيا هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن أصحاب الثراء اليوم يلبسون في أيديهم ساعات ذهبية مرصعة عالية القيمة، وفيها يتنافسون. ويلبسون أجمل اللباس وأفضله من الحرير. وينعم عليهم فوق ذلك بمستوى رفيع من التفكير والتعبير، لا يلحقهم خطأ، فهم على صراط الله المحمود. وأكمل سعادة الإنسان أن يصفو عقله إلى هذا الحد.

ثم تعرض القرآن لفريق من الكافرين جمعوا لرفضـهم للإسـلام، أنهـم يمنعـون النـاس من الإيمان بشـتى الطـرق، كمـا يمنعـونهم مـن العبـادة بالمسـجد الحـرام. إن هـذا المسجد ليس ملكا لهم ولآبائهم، ولكنه ملـك لله، وهـو الـذي جعلـه للنـاس جميعـا لا يتميز فيه المقيم بمكة عن ساكن البادية أو الـوارد مـن أصـقاع الأرض. هـو المكـان الذي تشعر فيه البشرية بالمساواة الكاملة. ومن يريد أن يلحـد فيـه ويخـرج عـن سـواء السبيل في عقيدته أو فـي قولـه أو فـي فعلـه، تتضـاعف عقوبتـه ويسـلط الله عليـه العذاب المؤلم جدا.

بيان المعنى العام :

19←20- هذا خصمان اختصموا...ما في بطونهم والجلود.

جاءت هذه الآية في فاتحتها وفي مضـمونها وفـي صـياغتها مستحضـرة كـأن التـالي يشاهد ما ورد فيها.

افتتحت باسم الإشارة: **هذان**. فمـن المشـار إليـه ؟روى الإمامـان البخـاري ومسـلم: أن هذه الآية في الفريقين اللذين تقدما للمبارزة يوم بدر، مـن المـؤمنين: حمـزة وعلـي بـن أبي طالب، وعبيدة بن الحرث رضي الله عـنهم، ومـن المشـركين عتبـة وشـيبة ابنـا ربيعة والوليد بن عتبة . وكان أبـو ذر رضـي الله عنـه يقسـم أن الآيـة نزلـت فـيهم. وعلى هذا تكون الآية مدنية.

والأولى حمل الآية على تقابل فريق المؤمنين وفريـق المخـالفين لهـم فـي عهـد النبـوة وفي جميع الأعصار. ويدخل في ذلك دخولا أوليـا مـا رواه البخـاري ومسـلم. ومعنـى الاختصام المجادلة في حقيقة الربوبية، فـالمؤمنون يتصـورون ويصـورون ربهـم بمـا يليق به من الوحدانية وصفات الكمال، ومخـالفوهم بـين موحـد فـي الظـاهر ومشـرك باطنا، وبين مشرك ظاهرا وباطنا. الذين قـال الله فـيهم: **ومـا يـؤمن أكثـرهم بـالله إلا وهم مشركون** [1]– وهذه الخصام يشمل الحجـاج بالأدلـة والبـراهين، ويشـمل الخصـام بالجهاد. والحامل على هـذا الخصـام اقـتلاع الأوهـام الباطلـة التـي أضـلت النـاس وأبعدتهم عن طريق الهدى، وحرفت الشرائع المنزلـة مـن رب العـالمين. وهـذا الأمـر الذي استحضرته الآية وإن كان معلوما حاضرا فـي ذهـن المـؤمنين يمارسـونه بصـفة متواصلة، إلا أن الآية تهدف الى بيان نـوع الجـزاء المعـد لهـؤلاء الـذين يخاصـمون بالباطل. راعى القرآن فـي عرضـه أن يكـون مجسّـما كأنـه مشـاهد ليتسـاوق اسـم الإشارة في الأول مع الصورة المفصلة.

---

[1] سورة يوسف آية 106

تتمثل تلكم الصورة في صنوف العذاب المادي والنفسي.
أولا: تفصل على مقاييسهم ثياب من نار تحيط بكل جزء من أجزاء أجسامهم، فيأخذ كل منها حظه من آلام الاحتراق.
ثانيا : يضاف إلى النار المشتعلة المحيطة بهم أن يسلط على رؤوسهم، والرأس مجمع الإحساس، سائل أشد ما يكون حرارة، ينفذ إلى أمعائهم فيذيبها ثم تعود إلى حالتها الأولى، فتتقبل عارضا جديدا من الحميم وهكذا.

21←22، ولهم مقامع من حديد...عذاب الحريق.

ثالثا: أن العذاب النازل بهم لا يعطل مداركهم، بل يستولي عليهم الغم من وضعهم، فتسول لهم نفوسهم الخروج من جهنم ويسعون لبلوغ أطرافها، وإذا بمقامع من حديد تردهم على أدبارهم.
رابعا : إذلالهم بعد دحرهم بمقامع الحديد، فيقال لهم نكاية فيهم : ذوقوا العذاب الحارق، في الوقت الذي هم فيه يذوقونه.

23←24، إن الله يدخل الذين آمنوا...إلى صراط الحميد.

في مقابل الصنف الأول الذين جسمت الآية السابقة صنوف ما يلقونه من العذاب والإهانة، ذكرت هذه الآية جزاء المؤمنين الصالحين. ومن بديع النسج القرآني أنها لم تُعطَفْ عليها لفظا فلم يقل القرآن: والذين آمنوا وعملوا الصالحات يدخلهم، رعاية للانفصال بين الفريقين وبُعْد ما بينهما، ففصلا لفظا كما فصلا مضمونا. فالذين جمعوا بين الإيمان كما بينه رسول الله ﷺ، وقرنوا إيمانهم بالعمل على ما ضبطه شرع الله، جزاؤهم أن الله يدخلهم يوم القيامة جنات تتخللها الأنهار الجارية بما يقارنها من خصب ورونق وجمال. هذه منازلهم. ومن ناحية أخرى هم يلقون في الجنة ضروبا من الكرامة والنعيم، منها أن الله يحلي أيديهم بأساور عديدة متنوعة من الذهب واللؤلؤ. ولا تظنوا أن الرجال لما كانوا لا يلبسون الأساور في الدنيا فكيف يُنْعم الله عليهم بما لا يرغبون فيه ؟ وجوابا عن ذلك فإنه مما ينبغي أن يكون حاضرا في ذهن التالي لكتاب الله أن شؤون الآخرة غير شؤون الدنيا هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن أصحاب الثراء والمرفهين يتغالون اليوم في اتخاذ ساعات مرصعة عالية القيمة يلبسونها في أيديهم، والمصانع السويسرية تفننت في هذا وأخرجت للسوق ساعات بالغة حدا كبيرا من الإتقان والجمال يلبسها الرجال. كما يجعل لباسهم من الحرير الذي هو أرفع لباس وألينه وأجمله. وفوق كل ذلك يهديهم الله إلى الكلام الطيب، فتكون لذتهم العقلية بالغة درجة عالية فلا يسمعون

لغوا ولا ينطقون بسخف. ويقتلع جذور الانحـراف مـن نفوسـهم. ضـمن لهـم أنهـم لا يفكرون ولا يتجهون إلا إلـى الطريـق المسـتقيم المحمـود المقـرب دومـا مـن ربهـم المستحق للحمد على ما أنعـم. والمؤكـد أن أرقـى نعمـة يـنعم بهـا الإنسـان اسـتقامة تفكيره وانكشاف الحق عنده انكشافا لا يخالطه غبش. ولـيس مـن الـلازم أن يقابـل كـل عذاب ومهانة بالنسبة للكافرين بمـا يضـاده مـن النعـيم. بـل إنـي أفهـم الآيـة علـى الصورة العامة للعذاب والمهانة مـن ناحيـة، والتكـريم والإعـزاز مـن ناحيـة أخـرى. ولمثل هذا فليعمل العاملون. رزقني الله وإياكم رضوانه وهدايته إلى صراط الحميد.

25 - إن الذين كفروا ويصدون...من عذاب أليم.

عود للتشويه بمشركي مكة الذين كفروا بما أنـزل علـى محمـد، والتزمـوا منـع النـاس من الدخول فـي الإسـلام، ومحضـوا نشـاطهم ومـا أوتـوه مـن الحظـوظ الدنيويـة للحيلولة بين الناس وبين دخـولهم فـي ديـن الله. إن هـؤلاء الـذين كفـروا ويواصـلون المنع من الدخول في الإسلام، ويمنعون من يريـد التقـرب إلـى الله فـي بيتـه المسـجد الحرام، لهم عذاب أليم.

إن المسجد الحرام ليس ملكا لهم، وما اكتسـب قدسـيته مـنهم، ولكنـه اسـتمد منزلتـه من جعل إلهي، فكل الناس فيه سواء لا فضـل لسـكان مكـة علـى غيـرهم مـن أهـل البادية أو من أطراف العـالم. فهـو بيـت لله يقصـده للعبـادة فيـه، البشـرُ المؤمنـون جميعا. ولا يوجد مكان تشعر فيه البشرية بالمسـاواة الكاملـة كالمسـجد الحـرام. وبهـذا كان المسجد الحرام أول خط فـي المسـاواة، ولا يبلـغ أي تشـريع ولا دسـتور بصـفة حقيقية وكاملة هذا المستوى المقرر من الله للمسجد الحرام.

ثم إن الآية أعلنت ما حصن به الله هـذه المسـاواة مـن ناحيـة حـق العبـادة فيـه لكـل الناس، وبين تطهيره من الانحـراف عـن المـنهج السـوي المفـرد لله بالعبـادة وعـدم الإشراك به، وهو أعظـم الظلـم، أو ارتكـاب المعاصـي، إذ تعظـم جريـرة المعصـية بقدسية المكان. فالباء في قوله: بإلحاد تؤكد الارتبـاط، مـن يـرد فيـه إلحـادا ملتبسـا بظلم، ولا يكون إلا كذلك، يكون جزاؤه عذابا أليما.

ينقل ابن عطية عن ابن مسعود أنه يقول: فلعظـم حرمـة المكـان توعـد الله علـى نيـة السيئة فيه، ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسـب بـذلك إلا فـي مكـة. وذهـب حبيـب بن أبي وثاب إلى أن الحُكرة بمكة مـن الإلحـاد بظلـم. فليحـذر الحجـاج والعمـار مـن التساهل في ذلكم المكان المقدس، وليجتهـدوا فـي العبـادة، فبلـوغهم المسـجد الحـرام منة من الله وفضـل، فليستشـعروا دومـا قيمـة هـذه النعمـة ولا يضـيعوا التعـرض لأبواب الخير المفتوحة لهم.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

بوأنا ..مكان: بينا له مكان البيت ليتخذه مرجعا يرجع إليه.

تطهير البيت : تنزيهه عن كل خبث.

الطائفون : الساعون حول البيت عبادة لله .

القائمون : فسر بالقائمين للصلاة، وفسر بالداعين.

الركع السجود :المؤدون للصلاة بالركوع والسجود.

أذن : ادع الناس ونادهم رافعا صوتك.

رجالا: مشاة.

الضامر : ضمور البطن عدم تدليه.

الفج : الطريق بين جبلين.

العميق : البعيد.

ليشهدوا : ليحضروا فيحصلوا.

البائس: الفقير المحتاج.

يقضوا تفثهم : يقطعوا ما اتصل بأبدانهم مما يزال من الدرن والأظافر والشعر.

العتيق : المحرر غير المملوك للناس . الضارب في القدم .

بين المعنى الإجمالي :

و اذكر يا محمد ذلك الظرف الخاص الذي بين الله فيه لإبراهيم عليه السلام المكان الذي يرتضيه لبناء بيته في الأرض. إن هذا البيت يقترن به أن تخلص يا إبراهيم في توحيد الله ولا تشرك بربك أحدا. واجعل هذا البيت طاهرا من الشرك ومن البدع التي يسولها الشيطان للإنسان المبنية على تصورات لا أساس لها، ومن الأنجاس. لينعم فيها الطائفون حوله بعبادة الله، ليجد المصلون القائمون الراكعون الساجدون

بينة تساعدهم على تأملاتهم وحسن العبادة. وارفـــع صـــوتك مناديـــا فـــي النـــاس: حجـــوا يا عباد الله فقد فرض الله عليكم الحج. إنـــه سيســـتجيب لـــك مـــن يـــأتي ماشـــيا، ومـــن بعدت به الشقة راكبا علـــى وســـائل النقـــل القـــادرة علـــى إبلاغـــه بيـــت الله، يتتبعـــون الطرق البعيدة بين الجبال ليبلغـــوا بيتـــي. إنهـــم سيشـــهدون فـــي جـــوار البيـــت منـــافع متنوعة لهم، ويتمتعون بذكر اسم الله على ما يذبحونـــه وينحرونـــه مـــن الأنعـــام. أذنـــت لكم أن تأكلوا مما تقدمونه من النسك، وأطعموا منه البؤساء الفقراء.

ثم أزيلوا ما علـــق بأبـــدانكم مـــن درن الغبـــار والعـــرق، والشـــعر الزائـــد والأظـــافر. وأوفوا بما التزمتم به من نذور قربـــات، وطوفـــوا بالبيـــت الـــذي حررتـــه فلـــيس لأحـــد عليه سلطان .

بيان المعنى العام :

26- وإذ بوأنا لإبراهيم ...و الركع السجود.

الآية متصلة بسابقتها التي نصت علـــى بعـــض خصـــائص المســـجد الحـــرام ومزايـــاه. واذكر محييا هذا الزمن الخاص الذي أذنت فيه لإبـــراهيم عليـــه الســـلام أن يبنـــي البيـــت في المكان الذي تخيرته لذلك وعرفتـــه بـــه وجعلتـــه مرجعـــا لـــه يرجـــع إليـــه، فبوأنـــا بمعنى بينا له مكان البيت كما ذكره الزجاج وهو مـــا نـــص عليـــه أبـــو زيـــد: التبـــوء أن يعلم الرجلُ الرجل على المكان الذي أعجبـــه لينـــزل بـــه (تـــاج العـــروس ج1 ص155). واللام تدل على إكرام إبراهيم بهـــذا التكليـــف لأن موقـــع إبـــراهيم موقـــع المفعـــول الأول لبوأنا، أي أعطينا إبراهيم.

إن هذه الهداية والإذن لسيدنا إبراهيم عليه السلام ليبني البيـــت فـــي المكـــان الـــذي تخيـــره رب العالمين، وهو الذي خلق الأرض ويعلم أسرار خلقه، مـــا كـــان يقصـــد مـــن ذلـــك أن يبني بيتًا مأوى له، وإنما هو بيت شـــرفه الله وأكرمـــه وفضـــله علـــى بقـــاع الأرض كلها، على خلاف بين فقهـــاء المســـلمين أيهـــا أشـــرف قبـــر الرســـول ﷺ أو الكعبـــة ؟ فسر القرآن ذلك بكلمة [أن] أي مـــا يتبـــع هـــذا الإذن، مـــن توحيـــد الله توحيـــدا يبلـــغ اقصى حد من الوضوح والنقاء بحيث لا يخالطه أي شـــرك. ومـــن العنايـــة التامـــة التـــي تجعله على مـــر الأعصـــار مطهـــرا مـــن الأدنـــاس العقديـــة كالشـــرك، ومطهـــرا مـــن الانحراف في طريق العبادة كالبدع، ومطهرا مـــن الأنجـــاس والـــدماء. ليكـــون وضـــعه أكمل وضع للذين يطوفون حوله تقربا لـــرب البيـــت. وكـــذلك للمصـــلين الـــذين يجمعـــون في صلاتهم بين القيام والركوع والسجود. وهي الصلاة في الإسلام.

27- وأذن في الناس بالحج ...من كل فج عميق.

بني البيت عونا للبشر على تركيز التوحيد في أرواحهم وقلوبهم، ولذلك أمر الله إبراهيم عليه السلام أن ينادي في الناس وأن يدعوهم إلى حج البيت الذي أذن الله له ببنائه ليكون مجمعا للمؤمنين يخلصون حوله في العبادة. فكل من زاره تتجدد طاقاته الإيمانية ويزداد اندماجا في جامعة الإيمان. وبشّر الله إبراهيم بأنه مكن حب البيت في قلوب المؤمنين، إنهم سيأتونك مستجيبين لندائك ساعين مشاة، وراكبين على الرواحل المضمرة التي لم تتذلّ بطونها بما يجعلها أقدر على السرعة وعلى مواصلة السير. وتفيد الآية كثرة قصاد البيت من الراجلين ومعظمهم من الأماكن غير البعيدة عن المسجد الحرام، ومن أطراف الدنيا الذين يبلّغهم البيت خيولهم ورواحلهم. وحقق الله لإبراهيم وعده ببعثة سيدنا محمد ﷺ، فما يزال الوافدون على المسجد الحرام تتضاعف أعدادهم، وكلما وسّع القائمون على المسجد الحرام في مساحاته كان إقبال المؤمنين أضعاف المتوقّع. وهو ما يشير إلى أن قوله تعالى: يأتوك، هو وعد محقق بما غرسه في قلوب المؤمنين من الأشواق للبيت الحرام.

28- ليشهدوا منافع لهم...البائس الفقير.

إنه مع شحنة الإيمان، يتم في هذه الاجتماع السنوي حول البيت حصولهم على منافع عديدة: منافع سياسية، ومنافع علمية، ومنافع روحية، ومنافع مادية لأهل مكة وللوافدين بما يتجمع في أسواق مكة من السلع التي تستجيب لمتنوع الاحتياجات والأذواق. وعطف مخصصا ما يتيسر لهم من ذكر اسم الله على ما يقدمونه من هدايا في الأيام المعلومات لهم، شاكرين الله على ما رزقهم من متنوع الأنعام من شياه ومعز وبقر وإبل. إن ذبحها أو نحرها تقربا لله لا يمنعكم من الأكل من لحومها، فما قرره المشركون من حرمة الأكل من الهدايا غير صحيح، فاجمعوا بين الأكل والتصدق بإطعام البؤساء الفقراء الذين لا تبلغ أيديهم أكل اللحم في سائر أيام السنة.

29-ثم ليقضوا تفثهم ...بالبيت العتيق.

ثم، فوق ذلك عليهم أن يعودوا إلى أنفسهم فينظفوا أبدانهم مما لصق بها من غبار وعرق وما نبت من شعر زائد في الأماكن التي من الفطرة إزالته. ومن نذر منهم نذرا ملتزما به طاعة لله فليتم نذره وليوف به، وليقوموا بالطواف حول البيت الذي لم يجعل الله لأحد عليه سلطانا، فهو محرر من تسلط الناس عليه. وإنه لأول بيت وضع للناس.

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحرمات : جمع حُرْمة، ما يجب احترامه .

الرجس : الخبيث المستقذر معنى أو حسا.

قول الزور: القول المخالف للواقع.

خر : سقط.

تخطفه : أخذ الشيء بسرعة.

سحيق: بعيد.

شعائر الله : الشعيرة المعلم الواضح. وفي اصطلاح القرآن مناسك الحج .

الأجل المسمى : وقت نحرها بمنى.

المحل : المكان الذي تنحر فيه.

بيان المعنى الإجمالي :

نؤكد لكم ما سبق ما شرع في الحج وما اختص به المسجد الحرام، ومن يعظم ما أوجب الله احترامه وعدم انتهاكه من البيت والأشهر الحرم والمحرمين وغير ذلك، يتحقق أنه سيجد عند ربه جزاء هو خير له مما قدم. فطهروا أنفسكم مجتنبين الخبائث والمستقذرات المعنوية والحسية. اجتنبوا خبث الشرك بالله، واجتنبوا الكلام المخالف للواقع. وبذلك تكونون حنفاء سالكين الطريق السوي الذي شرعه الله بعيدين عن الشرك. إن الشرك فظيع جدًا، فمثل من أشرك بالله كمن كان سابحا في السماء فسقط سقوطا متسارعا تحطم به كيانه وأصبح قطعا تتنازعها الطيور وتلتهمها في حواصلها. أو كمن تسلطت عليه ريح عاتية فرمت به في مكان قصي يعالج غربته وتيهه ويأسه. ومن تحل الهداية في قلبه فيُعظّم ما جعله الله من شعائر الحج كالطواف بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة، وتخصيص الهدايا بالطعن

في سنامها الأيمن لتكون معروفة بأنها نذرت للنحر في الحج، وغير ذلك فإن تعظيمه ذلك يعمق التقوى في قلبه . أذنت لكم أن تنتفعوا عند الحاجة بركوب البدن وبلبانها إلى أن تبلغ الأجل المسمى، وهو نحرها. ثم تنتهي المناسك إلى البيت العتيق فيطوف به الحاج طواف الإفاضة ويتحلل بذلك التحلل الأكبر.

بيان المعنى العام :

30- ذلك ومن يعظم شعائر الله ...واجتنبوا قول الزور.

تفتح الآية بطريقة بلاغية تجمع بين أمرين: تثبيت ما سبق: ذلك بيان، والإيذان بالانتقال إلى مضامين جديدة ينبه السامع إليها. أدت كلمة " ذلك " الأمرين معا . واتصلت الآية بسابقتها التي نصت على بعض مزايا المسجد الحرام، وتم التنبيه إلى أن ما شرعه الله لإبراهيم عليه السلام من أمور الحج وتنزيه المسجد الحرام وكون الناس فيه سواء، إلى آخر ما تضمنته الآيات السابقة، هو من حرمات الله التي يجب أن لا تنتهك . إن الله رقيب على ما حدده، ومن يعظم ذلك ويستحضر ماله من حرمة فقد فاز بمقابل، هو خير له عند ربه، الذي يضاعف لمن يشاء ما يشاء.

وامتن سبحانه على المخاطبين بما أحله من الأنعام، فلم يحرم عليهم الأكل منها والانتفاع بما تنتجه من ألبان وأصواف ووبر إبطالا لما شرعه أهل الجاهلية من تحريم الانتفاع بالهدايا. واستثنى مما أحله ما أنزل تحريمه في سورة الأنعام وفي سورة النحل. وإذا كانت الحلّيّة هي الأصل والإذن هو الغالب وما استثني محصور فاشكروا الله على ما يسره لكم، وكونوا يقظين فاجتنبوا المستقذرات التي تؤثر في متناولها خسة وانحرافا، ويدخل في هذه المستقذرات دخولا أوليا، الأوثان، ذلك أن رضا الإنسان بعبادة وثن نسف لقيمته الإنسانية وتلويث نافذ إلى عقله وأحاسيسه وقيمه . واجتنبوا أيضا التصريح بما هو مخالف للواقع سواء في ذلك ما كان من باب الشهادة أو من باب الإخبار ، لأن قول الزور تضليل للمخاطب وإيقاع له في الغلط.

31- حنفاء لله غير مشركين به...في مكان سحيق.

إنه إذا اجتنبتم ذلك تكونوا حنفاء لله أي مستقيمين على طريقه. إذا قدرنا معنى حنفاء، مستقيمين، وأما إن قدرناه مائلين فيكون المعنى منحرفين عن مسالك الجاهلية ملتزمين طريقا غير طريقهم، هو طريق الله.

ثم جسمت الآية خطر الإشراك وفظاعته على الإنسان، فمثلت من يخرج من الفطرة إلى الإشراك بالله بمن كان في صفاء السماء سابحا فهوى من سموه إلى

الأرض فتحطم وتناولت الطيور قطعه فـي حواصـلها، أو أخذتـه ريـح عاتيـة فرمـت به في مكان بعيد أشد البعد فاغترب منقطعـا. إن هـذه الصـورة إذا فصـلناها نجـد فيهـا دقة في التشبيه عالية، فالإيمان هو بمنزلة من كـان فـي السـماء الرفيعـة، والإشـراك بمنزلة من سقط من منزلته تلك سـقوطا حطمـه قطعـا، فشـتت الضـلالات والأهـواء عقله. أو الذي كان مقيما وسط أهله وذويه، فـإذا ريـح عاتيـة تأخـذه فتهـوي بـه فـي مكان بعيد أشد ما يكون البعد فهو تائه، هذه الـريح هـي كالشـياطين التـي حولتـه مـن الأنس الحاصل بصلته بالله، إلى الغربة عنه .

32- ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنه من تقوى القلوب.

نؤكد لكم ما سبق فاثبتوا عليه، واعلموا أن من يعظم مـا جعلـه الله مـن شـعائره، فـإن قلبه تثبت فيـه التقـوى وتتعمـق. وشـعائر الله تشـمل الصـفا والمـروة اللتـين شـرع الطواف بينهما وتشمل مواقف الحج من عرفة ومنـى والمشـعر الحـرام، كمـا تشـمل الهدايا التي يطعن الحاج في سنامها فيسيل منها دم يكون علامـة علـى أنهـا ممـا خـص للتقرب به ونذرت للهدي .

33-لكم فيها منافع ...إلى البيت العتيق.

الذي عليه مالك والشافعي أن الحاج ينتفع بهديـه مـن ركـوب ولـبن إذا احتـاج لـذلك، وأنه لا يحرم عليه بنذره للنحر أي شيء من منافعـه، قـد روى مالـك فـي الموطـأ أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يسوق بدنـة فقـال : اركبهـا، فقـال يـا رسـول الله :إنهـا بدنة، فقال :اركبها ويلك في الثانية أو الثالثـة .- ح1106 -كمـا روى عـن هشـام بـن عروة عن أبيه عروة بن الزبير رضـي الله عنهمـا أن أبـاه قـال:، إذا اضـطررت إلـى بدنتك فاركبها ركوبا غير فادح، وإذا اضطررت إلـى لبنهـا فاشـرب بعـد مـا يـروى فصيلها، فإذا نحرتها فـانحر فصـيلها معهـا -ح1111- ثـم إن مناسـك الحـج التـي تعظيمها من تقوى القلوب تنتهـي إلـى البيـت فيطـوف بـه الحـاج طـواف الإفاضـة، وبهذا يتحلل التحلل الأكبر .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا

صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأمة : أهل الدين الذين اشتركوا في اتباعه.

المنسك : الذبح وإراقة الدم تقربا لله.

أسلموا: انقادوا إليه الانقياد التام.

المخبت: المتواضع

الوجل : الخوف.

البدن : جمع بدنة، الضخم من الإبل.

شعائر الله :معلمة بشعار تعرف به أنها من الهدايا.

خير: نفع.

صواف: جمع صافة إذا انتظمت في وقوفها ولم تكن متداخلة.

وجبت جنوبها: سقطت على الأرض وفارقتها الحياة.

القانع : السائل بتذلل، وقيل العكس.

المعتر: المعترض للعطاء بدون سؤال.

نال الشيء: أحرزه وأصابه.

بيان المعنى الإجمالي :

هي سنة الله في جميع الأديان، أنه شرع لكل أمة من الأمم التي ارسل إليها رسولا، شرع لهم مكانا واحدا يتقربون فيه بذبائحهم، يذكرون عند ذبحها اسم الله مفردين له بالألوهية، فهو الذي تفضل عليهم بما رزقهم من الأنعام . وأمر ﷺ أن يبشر المؤمنين الذين يتميزون بالصفات الأربع التالية: الذين ترتعش قلوبهم كلما ذكر اسم الجلالة خوفا منه، وهم يصبرون على الأذى في سبيل نصرة دينه والتمسك به، والذين يقيمون الصلاة فيأتون بها تامة الأركان مستحضرين وقوفهم بين يدي الله لمناجاته، والذين ينفقون أموالهم مساعدة للمحاويج وإسهاما فيما ترقى به الأمة الإسلامية .

ثم خاطبهم ليحيي فيهم التأمل في البدن "الإبل المسمنة "التي تكوّن مقوما من حياة العربي، فقد جعلها الله مع كل المرافق التي تحصل بها من شعائر الحج ومظاهره، جمعت لكم فيها ضروبا من الخير، فلا تفصلوها عن خالقها، وعند نحرها اذكروا اسم الله عليها وهي منتظمة معدة للنحر. وبمجرد ما تسقط على الأرض وتفارق الحياة، لا يحرم عليكم أن تأكلوا منها، ومن المرغب فيه أن تطعموا من لحمها من يطلب منكم شيئا منها، وكذلك من حضر ولم يطلب. تأملوا فإنه على هذا النحو من التسخير والتنظيم سخرناها لكم على عظم أجسامها وقوة أبدانها، لعل التأمل يصل بكم إلى شكر الله على نعمه. واعلموا أني لما أمرتكم بتقديم الهدايا فإن الله لا يصله شيء من لحومها ولامن دمائها، ولكن الذي يصل إلى الله فيتقبله هو حاصل التقوى الذي رفعه حسن قصدكم. وعلى هذا النحو من التسخير سخرنا لكم الأنعام لتتيقظوا لنعمه فتكبروا الله عند إرادتكم ذبحها أو نحرها. ومن عمل العمل فأحسنه فليبشر بما أعده الله من القبول والنعيم.

بيان المعنى العام :

34-35، ولكل أمّة جعلنا منسكا ....ومما رزقناهم ينفقون.

إن الديانات التي بلّغتْ البشرية على لسان رسل الله قد تختلف في بعض الجزئيات، ولكنها متحدة في الأصول العامة. فكل أهل دين أمروا بأن يتخذوا مكانا واحدا يتقربون فيه بذبح الأنعام. ولما كان التقرب إنما هو لله الواحد فلكل أمة منسك واحد، يتقربون فيه للرزّاق الذي رزقهم بهيمة الأنعام، وذللها لهم وبارك في نسلها. كما وحد بين جميع الديانات بإلزامهم أن يذكروا اسم الله عند الذبح أو النحر ليبرزوا قولا ما استقر في قلوبهم من الاعتراف بفضل الله على ما رزقهم من الأنعام. وقد قرر المشركون لآلهتهم مناسك عديدة يذبحون عندها، فأبطل القرآن ما قرروه وأثبت أن المنسك واحد لإله واحد. كما يفيده تنكير لفظ منسك. ولما ثبت أن الإله واحد، فإنه يتحتم عليكم أن تُسلموا له وأن تنقادوا لما يشرعه لكم من فعل أو ترك بما يشمل كل واحد من أعمال الحج.

وكما أمر النبي ﷺ بأن يؤكد أمر التوحيد وما ينبني عليه في النسك، أمر بأن يبشر المؤمنين فيفتح لهم باب الأمل في فضل الله وسعة رحمته، وتخير القرآن من وصف المؤمنين وصف " المخبتين " والإخبات معناه التواضع والتذلل لله، والإيمان ينافي التكبر، ذلك أن المؤمن يشعر في كل لحظة من لحظات حياته أنه

غير مستغن عن رعاية الله في توفيقه وفي الألطاف التي تحيط به وأنه لا مصيبة عليه أعظم من أن يتركه الله لنفسه. وأبرز هذا التواضع في صفات أربع :
أولا: أنه إذا ذكر اسم الجلالة " الله" ارتعش قلبه وتحركت مشاعره فسمت إلى الاتصال بعزته، واهتزت أشواقه إلى خالقه. وتملكه الخوف من رفض ربه له.
ثانيا: أنه صابر على ما يصيبه من الأذى في سبيل الإسلام، ونشر كلمة الله في العالم. كما أنه صابر صبرا يختلف عن صبر غيره كقول الشاعر:

وتجلدي للشامتين أريهمو *** أني لريب الموت لا أتزعزع .

فالمؤمن المخبت تقوم في باطنه حقيقة نافذة لتقديراته : أن ما حصل هو من تقدير الله، وأن تحول الواقع في المستقبل هو بعون الله، فلا ينزعج لمكروه، كما لا تبطره النعمة فلا يشمخ بتوفرها وتتابعها.
ثالثا: أنه يقيم الصلاة التي ارتبط بها ارتباطا يكون به في شوق لإقامتها وأدائها على أتم وجه، وفاء بأركانها واستحضارا لصلته بالمعبود في القيام والركوع والسجود.
رابعا: أنه صاحب نفس سمحة بالمال، يتصرف فيه على أنه ما حصّل على ما بلغه منه إلا برزق من الله يسّره له، يسعف به المحتاجين، ويسهم به فيما يرقي الأمة.

36- والبدن جعلناها لكم ...لعلكم تشكرون.

البدن جمع بدنة، وأكثر ما تطلق على الإبل التي سمنت، يقول ابن الأثير المال في الأصل ما يملك من الذهب والفضة، ثم أطلق على كل ما يقتنى ويملك من الأعيان، وأكثر ما يطلق عند العرب على الإبل لأنها كانت أكثر أموالهم[1] وبما أن الإبل كانت أعز مال عند العرب توجه القرآن لهم بالخطاب لينبههم إلى أن الله قد جعلها شعيرة من شعائر الله، تعويضا لما يترخص به من أعمال الحج، ويتقرب بنحرها، وأنها عندما تسير في الموسم وأثار الدم في سنامها تزيد الموكب بهجة وجلالا. فأضاف أنه جعلها شعيرة معلنة للحج مظهرة له، كما أنها من الخير فينتفع الناس والفقراء خاصة بلحمها ولبنها وجلدها وما علق عليها من النعال والثياب. ويحصل لكم الثواب بنحرها .وذكّر الحُجاج بأن يذكروا اسم الله عليها عند نحرها، حالة كونها مصطفة لا متداخلة. وفي مسلم أن النبي ﷺ نحر بيده ثلاثا وستين بدنة، جعل يطعنها بحربة في يده، ثم أعطى الحربة عليا كرم الله وجهه فنحر ما بقي، وكانت مائة. ثم أرشدهم إلى الانتفاع بها بمجرد ما تفارق الحياة وتسقط على

---

[1] تاج العروس ج30ص428

الأرض. وجاء الأكل بصيغة الأمر قال تعالى: فكلوا منها. والظاهر أن الأمر للندب إبطالا لما جرى عليه أمر الجاهلية من تحريم الأكل من الهدايا. وتفصيل حكم الأكل من لحوم الهدي واختلاف الأئمة فيه محله كتب الفقه. ثم أمرهم أن يطعموا منها من تعرض طالبا منهم تمكينه شيئا من اللحم، كما يطعمون من حضر ولم يطلب. وهو اختلاف في مدلول كلمة القانع إذ حملها بعضهم على من يبدي المسكنة ويطلب، وحمل آخرون "المعتر" على من حضر وتعفف عن المسألة مع فقره.

وعلى هذا النحو الذي تشاهدونه من التسخير، إذ يستطيع حتى الغلام أن يقودها ويحملها ما شاء من الأثقال، وتخضع لكم للنحر على ضخامة أجسامها، تم ذلك بترتيب منا، ونزعنا من طبيعتها النفار والتوحش. وساعدتكم على قطع الصحاري المترامية الأطراف، على ذلكم النحو الذي عليكم أن تتأملوا فيه ليصل بكم إلى شكر المنعم على نعمه، ولمزيد من التيقظ لحكمة الله في الخلق.

37- لن ينال الله لحومها...وبشر المحسنين.

القرآن حريص على تنبيه الناس ليبعدوا كل شائبة شرك. فقد كان أهل الجاهلية وكثير من الأمم يعملون ما يدل على أن الآلهة ترغب في التقرب إليها بالدماء واللحوم وكانوا يلطخون الكعبة بالدماء. فصرحت الآية :أن الله سبحانه وتعالى لا ينتفع ولا يصل إليه وصولا ماديا من الهدايا أي شيء، لا الدماء ولا اللحوم . ولكن الذي يصعد إلى الله فيتقبله ويكتبه لصاحبه ويجزيه عنه، هو التقوى هو السمو الروحي. عندما يقوم المؤمن بالمناسك ويقدم ما يقدم من الهدايا تعبيرا عن خضوعه لله وتطبيقا لشرعه، وأملا أن لا يرفض حسن قصده، فهذا هو الذي يصل إلى الله. وأعاد التذكير بتسخير الأنعام للناس، وأنه لولا ما أقام عليه الكون من نظام ما تيسر للإنسان التصرف على النحو الذي يتصرف به. وكل من تفتح عقله بتأمله في ذلكم النظام المحكم يعلن معتقدا ومكبرا لله عز وجل. يُكبِّر الله على كمال صنعه، يكبر الله على تسخيره ما سخر له، ويكبر الله عندما يجد أنه أقوى من وساوس الشيطان فاهتدى إلى ما يرضي الله، ويكبر الله عندما يأخذ واحدة مما ملكه من النعم للذبح أو النحر. وبهذا الربط واليقظة يكون من المحسنين فأمر الله نبيه ﷺ أن يبشر المحسنين بالقبول لصالح أعمالهم.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ

مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الخوان : صيغة مبالغة في الخون والغدر.

هدمت: نُقضت وقُوضت.

الصوامع : ج صومعة. كانت مختصة قبل الإسلام برهبان النصارى وعباد الصابئين

البيع: ج بيعة، البناء المخصص لعبادة النصارى.

صلوات : يقصد بها الأماكن المخصصة لعبادة اليهود.

العزيز : الذي لا يمكن التسلط عليه. ولا يعترض على ما يريد.

بيان المعنى الإجمالي :

من البشارة التي ختمت بها الآية السابقة، أن الله حقق للمؤمنين أنه يدافع عنهم مكر الكفرة، لأنه يحبهم ويبغض كل خوان للأمانة التي حملها، وأولئك بكفرهم قد غدروا وخانوا. وتبعت البشارة أن أذن الله لهم في قتال عدوهم بعد أن كانوا مأمورين بالصبر على أذاه. ويثيرهم للجهاد من ناحيتين:

أولاهما: أنهم قد ظُلموا، ومن شأن المظلوم أن تثور فيه داعية الانتصاف ممن ظلمه.

وثانيتهما: أن الله لا يسلمهم في معركتهم مع الشرك إلى أنفسهم، بل إنه سيرعاهم ويمهد له أسباب النصر. والله لا يعجزه ذلك فهو عظيم القدرة على كل شيء.

صدر الإذن من رب العزة أن يقاتل المؤمنون الذين تسلّطوا عليهم من المشركين الطغاة، فأخرجوهم من ديارهم التي هي لهم، ونشأوا فيها ظلما وعدوانا، وبدون أن يكون لهم أي مبرر، إلا أمر واحد وهو توحيدهم لله وقولهم ربنا هو الله الواحد الأحد. إنه لولا أن الله ثبت المؤمنين على جهاد المشركين والدفاع عن التوحيد وعن الصوامع التي يلجأ إليها رهبان النصارى غالبا فحموها من الهدم، وكذلك أماكن عبادة النصارى البيع، وأماكن عبادة اليهود، والمساجد المتخذة لعبادة الله والخضوع له، لولا تلك الهداية الإلهية للدفاع عن الحق وتثبيته لتغلب الشرك ومحى نور الإيمان. فاعلموا أن واجبكم هو الجهاد للدفاع نصرا لدين الله. إن الله يعدكم أنه ناصر من ينصر دينه. كيف لا وهو القوي الذي لا يلحقه ضعف، العزيز الذي لا يغلب،، ولا رادّ لحكمه.

بيان المعنى العام :

38-إن الله يدافع عن الذين آمنوا...كل خوان كفور.

تصريح بنوع من أنواع البشارة التي ختمت بهـا الآيـة السـابقة. هـدف هـذه البشـارة أن تقوّي عزائم الذين امنوا علـى مقاومـة صـولات الكفـر، فـإن الله القـوي الـذي لا يغلب يدافع عنكم، ومن كان الله ناصره فله الغلبـة. إن مـا تشـاهدونه مـن كثـرة لعـدد الكافرين، وما تجمع تحت أيديهم من قـوة، وتسـلطهم علـى البيـت الحـرام والمناسـك دون معارض، كل ذلك لا يصمد شيء منه أمام قـوتكم التـي تسـتمدونها مـن الله الـذي يدبر الأمور، فقد قـدر لكـم الغلبـة والنصـر. وممـا يزيـدكم طمأنينـة أن الله يـبغض أعداءكم .إنه إذا كان يدافع عـنكم تبعـا لإيمـانكم، فإنـه يـبغض أعـداءكم ولا يحـبهم ويحبط مكرهم لأنهم خانوا الأمانة التي عُهِدَ بها إليهم مـن عبادتـه وعـدم الإشـراك بـه، فهو سبحانه لا يحب الخائنين ولا الكافرين.

39-أذن للذين يقاتلون بأنهم ...لقدير.

طمأنت الآية السابقة الذين امنوا: أن الله يدافع عـنهم ويـبغض أعـداءهم. وتحقيـق ذلـك لا يتم بخـرق سـنن الله فـي النصـر والهزيمـة، ولكـن علـى المـؤمنين أن يقومـوا بواجبهم لنشر كلمة الله وإعلائها في الكون. ولـذلك حمّلهـم القيـام بقتـال أعـدائهم، وأن يواجهوهم بالقوة التي تكسر شوكتهم، وتمكن للحرية في الدعوة إلى العقيدة الحق.
كان المؤمنون في مكة يُـؤْذَوْن بمتنـوع الإذايـات ويتسـلط علـيهم المشـركون، وكلمـا عادوا لرسول الله ﷺ يشـكون مـا لحقهـم مـن الإذايـة، أمـرهم بالتحمـل والصـبر، وذلك من الحكمة التي طبعها الله عليه، إذا لـو أذن لهـم فـي الانتصـاف ممـن آذاهـم في بداية أمر الدعوة، لتمالأ المشركون علـى المسـلمين، وكانـت إذايـتهم أشـد وربمـا ضربوا الدعوة الضربة القاضية . فلما تكـون المجتمـع الإسـلامي فـي المدينـة أذن الله للمسلمين في القتـال، وعلـل حصـول الإذن، بـأنهم ظلمـوا ومـن حـق المظلـوم أن ينتصف من ظالمه. ويقرن القـرآن هـذا الإذن بتقويـة عـزائمهم حتـى لا يخشـوا مـن عدم تكافؤ القوى، وأن الشرك وإن كان ما يزال قويـا متكبـرا متجبـرا، فيعـدهم وعـدا ثابتا: إن الله، الـذي لا يعجـزه شـيء، قـادر علـى تمكيـنهم مـن النصـر، بتكثيـر عددهم، وإنزال السكينة في قلـوبهم، وإفسـاد خطـط عـدوهم .وروي عـن أبـي بكـر الصديق رضي الله عنه أنه قال : لما سمعت هذه الاية علمت أنه سيكون قتال.

40- الذين أخرجوا من ديارهم...إن الله لقوي عزيز.

تفتح الآية ببيان الظلم الذي سلط على المؤمنين: ألجأوهم إلى الخروج من ديارهم التي ولدوا فيها، والمنازل التي نشأوا فيها، وفصلوا بينهم وبين الأماكن التي ارتبطوا بها وارتبطت بهم، فهم إن غادروها كانوا مغتربين يشتد حنينهم إليها. إن بقاء الإنسان في المكان الذي ارتبطت به أسرته حسب الأعراف والتقاليد حق فطري تتبعه حريته في ذاته وفي عقيدته وفي ماله، فتسلط المشركين على المؤمنين بإخراجهم من مكة رفضا لتدينهم بالإسلام، هو ظلم لم يوجد له أي مبرر، إلا أن هؤلاء المؤمنين يعتقدون ويصرحون بأن ربهم هو الله، وهذا يفيد نفي جميع المبررات، لأن هذه العقيدة توجب استقرارهم في أرضهم لا إخراجهم منها . وشأن العصابات الصهيونية اليهودية اليوم في إخراج أهل فلسطين من ديارهم هو كشأن مشركي مكة مع المؤمنين ومع رسول الله ﷺ.

ثم حرضت الآية المؤمنين على الاستعداد للقتال ومباشرته بقوة وعدم تردد، بتفصيل سنة الله التي جرى عليها أمر العالم قرونا. أنه ما انتصر الإيمان على الشرك وبقي على الأرض له معابده وأتباعه إلا بسبب قيام المؤمنين بالدفاع عن دينهم وعن أماكن العبادة التي تضمن استمرار الدين في المجتمعات. وهذا المعنى العام نتبينه بمتابعة نظم الآية.

يقول الله تعالى: **ولولا دفاع..... لهدمت صوامع......كثيرا** . بقيت الصوامع قائمة ولم تهدم، يلجأ إليها الرهبان للتفرغ لعبادة الله، وبقيت البيع تستقطب النصارى وتجمعهم لمواصلة القيام بطقوسهم الدينية، واستمرت الأماكن المخصصة للصلاة عند اليهود، (وإن كان المقصود بالصلوات وطريقة قراءة هذه الكلمة قد اختلف فيها المفسرون والقراء اختلافا كبيرا) وكشأننا في التفسير نقتصر في الأعم الغالب على وجه واحد من الوجوه المحتملة. وبقيت المساجد تؤدي دورها في عبادة الله . ثم ذلك بفضل ما أثار له قلوب المؤمنين للدفاع عنها، والقيام في وجه الشرك الباغي. إن هذا المدد الإلهي الدافع الذي طوع له قلوب المؤمنين للجهاد لبقاء التوحيد ومحاربة المشركين هو الذي حمى من الهدم وتواصل به الحق وعبادة الله وحده. وثقوا بأن الله ينصركم، لأنه من سننه التي لم تتخلف في الماضي، ولا تتخلف معكم، أنه من ينصر دين الله ينصره الله ويهيئ له أسباب الغلبة. هذا وعد لا مرية فيه محقق، لأن الله متفرد بالقوة التي لا يلحقها ضعف، وهو العزيز الذي لا يتسلط عليه أحد ولا يخضع لإرادة أي كان.

ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

مكناهم : جعلنا لهم سلطانا.

العاقبة: الخاتمة.

امليت : أمهلت.

أخذتهم :القدرة عليهم بإهلاكهم .

النكير : الإنكار المتولد عن الزجر القوي

بيان المعنى الاجمالي :

إن الذين تكفل الله بنصرهم، بما يمكّن لسلطانهم، هم الذين جمعوا بين صفات ثلاث بها يتقوم مجتمعهم ويتميز .يقيمون الصلاة التي تطهرهم وتزكيهم، ويؤتون الزكاة الرافعة لأسباب الشقاق والحسد، ويحرصون على نظافة المجتمع فلا يتغاضون عن منكر ولا يقصرون في الأمر بالخير والدعوة إليه .

لا تبتئس يا محمد من إصرار قومك على تكذيبك، فمن سبقك من المرسلين كان هذا موقف أقوامهم معهم. فقوم نوح كذبوا رسولهم، وكذلك عاد مع هود، وصالح مع ثمود، وإبراهيم مع قومه، ولوط مع قومه الفاسقين، وشعيب مع أهل مدين، وكذّب القبط موسى. وجرى الأمر معهم جميعا على طريقة واحدة: أنني لا أعاجل بالعقوبة، بل أمهلهم إلى الوقت المحدد، فأمسك به في لحظة واحدة لا يفلت منهم أحد، فتعجبوا من الطريقة التي تم بها إنكاري عليهم .

بيان المعنى العام :

41- الذين إن مكناهم في الأرض...ولله عاقبة الأمور.

تأكيد للوعد السابق وبيان لقوله تعالى:(**ولينصرن الله من ينصره**) فالذين ينصرون دين الله، وتولى الله وعدهم بتأييده لهم على أعدائهم، وهزم من يحول بينهم وبين نشر كلمة الله، هم الذين إن أعانهم فمكن لسلطانهم في أرض الله، لم يلههم ذلك عن الوفاء بما التزموا به مما يميزهم بالصفات المنبعثة من داعية الإيمان الثابت في

قلوبهم، الذي من أجله قاموا بالجهاد، وفتحت لهم أطـراف الـبلاد. وذكـرت الآيـة مـن صفاتهم ثلاث صفات:

1) إقامة الصلاة الدالة على أن صـلتهم بـالله صـلة قويـة لا يلهـيهم عنهـا أي شـيء. والصلاة هي الرابطة الجامعة بين العباد وربهم وبين بعضهم وبعض.
2) إيتاء الزكاة، وبذلها دون أن تبقى الـنفس متعلقـة بمـا بـذلت، وهـي شـعور مـن المزكي بأن سعادته منقوصة إذا كـان إخوانـه فـي خصاصـة. وبهـا يلـتحم المجتمـع ويقضي على الحسد المنبعث في معظم أحواله عن تعالي الواجد على المحروم.
3) سمو المجتمع الذي مكن الله لسلطانه فـي الأرض سـموا يربطـه بالفضـيلة ارتباطـا يجعله يشمئز من الرذيلة ويقضي على أول ظهور لهـا. وينشـر الفضـيلة ويـدعو لهـا، وبذلك يتيسر للمجتمع فعل الخير.

كونوا واثقين إذا أنـتم التـزمتم بهـذه الصـفات، أن النصـر يصـحبكم، وأن سـلطانكم يتواصل مع الزمن، فإن المال هو لله وبيده، وجميع مـا يحـدث فـي الكـون هـو فـي النهاية لله وحده.

42-44وإن يكذبوك فقد كذبت...فكيف كان نكير.

أنس الله نبيه، وذكره بسننه في الأمـم الماضـية الـذين عارضـوا رسـلهم وكـذبوهم، يقول الله لنبيه لا تأس من صمود الكـافرين لمـاهم عليـه مـن الشـرك ومقـاومتهم لمـا تدعوهم إليه من الخير والاستقامة، فهذه هي العـادة التـي جـرت مـع مـن قبلـك مـن رسلي. فمن قبل قومك كذب قوم نوح رسولهم الـذي بقـي فـيهم ألـف سـنة إلا خمسـين عاما يدعوهم إلى التوحيد إلى أن بلغ بـه اليـأس مـن إصـلاحهم، وكـذلك قـوم عـاد، وثمود الذين بعث الله فيهم صالحا، وكذلك قوم سـيدنا إبـراهيم الـذين أرادوا بـه كيـدا، وقوم لوط وعظيم جراءتهم علـى رسـولهم وعلـى الملائكـة، وقـوم شـعيب أصـحاب مدين، وكذلك كذب القبط موسى ﵇.

كل أولئك واجهوا رسـلهم بالتكـذيب، ونصـبوا العراقيـل فـي وجـه دعـواتهم، ومـا عاجلت العقوبة لواحد منهم، بل أمهلتهم إمهالا يقطع حجـتهم حتـى ظنـوا أنهـم آمنـون مما أوعدهم به رسلهم، وتشبثوا بالكفر وأصروا على الشـرك. ثـم بعـد ذلـك أخـذتهم كأنهم كانوا فارين من قبضتي، فإذا هم في لحظة يحاط بهـم مـن جميـع جهـاتهم. إنـه لما حل وقت تسليط العقوبة عليهم، لم يفلت أي واحـد مـن نيـل جزائـه. فتعجبـوا مـن الطريقة التي نفذت فيها إنكاري علـيهم الإنكـار المـاحق لهـم. فلتنتظـر قـريش إنكـار ربك عليهم على ذلك النحو العجيب.

فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

كأين : كثيرا ما .

خاوية: خالية.

المصير : المرجع.

المشيد: محكم البناء.

بيان المعنى الإجمالي :

كثير من أهل القرى الظالمة بالكفر والعناد، نفذنا فيها وعيدنا فأهلكناها، فخربت مساكنهم بضربة واحدة سقطت السقوف ثم انهارت عليها الجدران، ولم يبق منهم من يفلح الأرض فالآبار أصبحت معطلة، والقصور العالية الفخمة بدون ساكن.

ما لهم لم يتعظوا بما يحصل لهم من مشاهد الأسفار! كأنهم لم يخرجوا من أرضهم، كأنهم ينتقلون وليس لهم قلوب يعقلون بها ما وراء المشاهد، ويعتبرون بما وقع فيعدّلون تفكيرهم وسلوكهم حسب ما يقتضيه النظر في تاريخ الأقوام التي مراوبها من الآثار والأخبار. كأنهم صم لم يسمعوا. والعمى ليس في تعطل حاسة العين، ولكن العمى الحق هو عمى القلب الذي لا يزيد تصوره عن التصور الحاصل للأنعام، فتكون عقولهم مقفلة لا تدرك.

يسخر الكفار من الوعيد فيعرضون على رسول الله ﷺ أن يعجل لهم ما أوعدهم بهم من العذاب، ورد عليهم القرآن بأمرين :

أولهما: أن الذي أوعدهم ليس محمدا وإنما هو الله القادر الذي لا يخلف وعده لعدم موجب للإخلاف .

وثانيهما: أن استبطاءهم نزول العذاب مبني على تقديرهم للزمن المرتبط بعمرهم القصير، وبالنسبة للذات الإلهية المحيطة بالماضي والحاضر والمستقبل تتضاءل الأبعاد الزمنية فيوم عند ربك كألف سنة مما تعدون وتحسبون.

ومما يقوم شاهدا على غفلتهم في تصورهم أن تأخير العذاب دليل على انتفائه. في تاريخ البشرية عدد كثير من أهالي القرى المكذبة، لم أعاجلها بالعقوبة، ثم لما حل أجل أخذها، أطبقنا عليها ولم يفلت منها أحد. فإن المآل لي وحدي لا يشاركني فيه أحد.

بيان المعنى العام :

45- فكأين من قرية أهلكناها ..وقصر مشيد.

صرحت الآية السابقة أن الله يمهل الكافرين إلى الأجل الذي قدره ثم يأخذهم ولا يفلتون من عقابه. وأكد في هذه الآية أن ذلك لم يقتصر على أمم الرسل المذكورين، بل هي سنته مع المكذبين جميعا، فإن أهل القرى الذين ظلموا بشركهم، وتكذيبهم لأنبيائهم استكبارا عن قبول الحق، وهم كثُر تتابعوا في التاريخ، سلّطنا عليهم ما يستحقونه من عذاب واستأصلناهم من الوجود، فمساكنهم التي كانوا يأوون إليها ويعتقدون في حصانتها، تحولت إلى أنقاض سقطت سقوفها ثم وقعت الجدران عليها، وامتد الخراب من المباني إلى الحقول والمزارع، فالآبار التي كانت يستقى منها لرواء الأرض تعطلت لفقدان أهلها، وكم من قصر مشيد كان ينادي بناؤه بالعظمة والقوة أصبح خاليا بعد إهلاك أهله ! وعبرت الآية عن سرعة تنفيذ الوعيد وقوته. بأن إهلاكها كان كشيء تافه أخذ أخذة واحدة . إن مصير الكائنات كلها إلى مبدعها الذي أحدثها رب العالمين. وهذا المشهد المتكرر المفصلة صورته تدعو كل ذي عقل إلى التحصن منه بالإيمان والاستقامة.

46-أفلم يسيروا في الأرض...القلوب التي في الصدور .

توبيخ مع تعجب، إن الأرض التي يسّرها الله ليسير البشر في مسالكها، ويتم الاتصال بينهم وبين البلدان التي يدخلونها، ويتبادلون مع أهلها المصالح والأخبار، وما تعمر به أرجاء الأرض من آثار تدل على كثير مما حصل للأجيال التي انقضت. كانت الأسفار تمثل العمود الفقري لقبيلة قريش عليها يقوم اقتصادها، الأمر الذي أوقفهم على كثير من أخبار الأمم التي عمرت الأرض ومالاتها، إنه من العجب أن لا يفيدوا مما وقفوا عليه من تلكم الأسفار مما يكون لهم به عبرة. إنهم بتضييعهم للعبر التي هي تابع ضروري للسفر، كأنهم لم يسافروا ولم ينتقلوا

من أرضهم. ذلك أن السير في الأرض إذا لم يستفد منه السائر ما وراء المشاهد الحسية يكون كأنه فاقد للعقل، يستوي مع الحيوان الذي يقف على ما تنقله له حواسه ولا يكشف ما وراء المحسوس الذي هو من نشاط العقل. تنقل لهم آذانهم الأخبار، وتعرفهم بما تم لمن سبق ممن كان قبلهم، كأنهم سمعوا أصواتا لم تنفذ إلى عقولهم وتحركها للتأمل فيها، كأنهم صم، الآلة موجودة ونفعها معدوم. ثم حولت الآية طريقة العرض والتعجب إلى تقرير حقيقة موقظة، تقلب الظواهر الخادعة وتدعو إلى ما هو فعل مؤثر. إن عمى الأبصار الحقيقي ليس في عدم إدراك المبصرات، وتعطل حاسة العين عن القيام بوظيفتها، ولكن العمى الحقيقي عندما يرتسم في الدماغ الصورة الحقيقية فتلقى عقلا مقفلا أعمى لا يدرك ما وراء المبصر.

وفي إسناد الإدراك للقلوب لا يقصد القرآن إلى القلب الذي يضخ الدم في العروق وينبض لتغذية كل أجزاء الجسم، وإنما يقصد إلى القوة التي بها يتم الإدراك "العقل" إذ وصف القلوب بقوله يعقلون. ولاشك أن العقل لا يؤدي وظائفه إلا إذا كان الدم الذي يضخه القلب يصل إليه بانتظام .

47- ويستعجلونك ...مما تعدون.

تقدم في الآية 44 فأمليت لهم ثم أخذتهم. وقلنا في تفسير الآية أن الله يمهل تسليط العذاب على الكافرين إلى الأجل الذي سبق أن حدده. وكان المشركون رافضين رفضا قاطعا لعقيدة البعث والحساب. وتعبيرا عن رفضهم يواجهون الرسول ﷺ بطلبهم تعجيل العذاب الذي هددهم به، استهزاء واستبعادا. وكان جوابهم من الله المالك للأمور بقوله : إن الذي وعدكم العذاب ليس محمدا وإنما هو الله الذي لا يعترض تنفيذ ما أوعد أي معترض، ولا يتحول علمه ولا يتغير، إذ علمه سبحانه بالمستقبل كعلمه بالحاضر والماضي. ومن ناحية أخرى فإن أعماركم القصيرة هي التي خيلت لكم أن العذاب لو كان حقا لنفذ، لأن الزمن بالنسبة لله الأبدي الأزلي شيء آخر، فيوم عند ربك يساوي ألف سنة بحسابكم. فما تقدرونه بعيدا بمقياس الزمن، هو في الحقيقة غير ذلك.

48- وكأين من قرية ...وإلي المصير.

مما يدل على غفلة المكذبين بالوعيد المستدلين على عدم وقوعه بتأخير تنفيذه، أن الله أملى وأمهل في تاريخ البشرية، أمما كثيرة ولم يعاجلها بالعقوبة بمجرد ظلمها، ثم لما حل الأجل الذي قدره أهلكها. فلينظروا فيما لفتت إليه الآية السابقة من الآثار

الدالة على ذلك. إنه إليّ وحدي مصائر النـــاس، لا يخـــرج أحـــد مـــنهم عـــن قبضـــتي. فتكون هذه الخاتمة محققة لمضمون ما قرر في الآية.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

النذير : المحذر من شر متوقع.

المبين : الفصيح. الواضح الحجة.

مغفرة : عدم مؤاخذة بما فرط منهم قبل الإيمان من الشرك وما يتبعه من ضلالات.

رزق كريم: عطاء يجمع بين الوفرة وخلوه مما يكدر .

المعاجز : السابق الذي يعمل على تعجيز مسايره عن اللحاق به.

الرسول : المبعوث من الله ليبلغ شريعة.

النبي : من أوحى الله له ما يصلح به أمر قوم بحملهم على ما سبق من هدايته.

الإلقاء : الوسوسة.

الذين في قلوبهم مرض : المترددون المتشككون.

القاسية قلوبهم : المصممون على الكفر .

الشقاق : الخلاف.

البعيد: البالغ حدا قويا.

الذين أوتوا العلم : المؤمنون بما جاء على لسان رسل الله .

الإخبات : الاطمئنان والخشوع.

بيان المعنى الاجمالي :

أعلنها للناس حقيقة مدوية، قل للمشركين ليس لي إلا وصف واحد، هو أني أنذركم ما يترصدكم من شر، أعرفكم به صريحا واضحا. ثم إن الناس من نذارتي على فريقين :

فريق آمن وصلح عمله فـذر الله لهم مغفرة ذنوبهم التي ارتكبوها قبل إيمانهم، وسينشر لهم من رزقه ما يكسبهم الطمأنينة في الحياة الدنيا، والسعة مع الكرامة يوم القيامة.

و فريق محض جهده وضاعف تصميمه ليغالب النور الذي جئت به ويصد الناس عنه، إن أولئك سيكونون مع الجحيم يوم القيامة شيئا واحدا.

على هذا النحو بنى الله نظام الكون. فجميع من تقدمك من الأنبياء والمرسلين، كانوا يتمنون عند اتصالهم الأول بالوحي أن يهدي الله بهم الناس بما يصلح حياتهم الدنيوية والأخروية. وذلك مما يغيض الشيطان الذي يسعى للحيلولة بين البشر والاهتداء فإذا هو يعمل كل أساليب مكره وإغواته في قلوب الذين تمنى المرسلون والأنبياء إصلاحهم. ويقوم صراع بين الحق الهادي، وبين وساوس الشيطان المضللة. وتتوالى الآيات، والمبعوثون يزيحون الشبهات ويظهرون الطريق المنجي، حتى يعلو ما جاؤوا به من الوحي، وتخسأ ضلالات الشيطان فتنهزم. وبتتابع البيان والوحي وجهود المبعوثين، يتم تقرير ما جاء من الله. والله متصف بالعلم التام والحكمة، فلا يغيب عنه شيء مما وسوست به الشياطين، وهو المتصرف التصرف الذي يُعلي به الحق.

إنه قدر الله الذي بنى عليه أمر الكون في صراع الشر للخير. فجعل ما يبثه الشيطان يفتتن به فريقان: الذين ترددت قلوبهم واضطربت بما خلخلها من الشكوك، والذين قست قلوبهم قسوة كانت بها في حجاب دافع لكل نور وارد . وكلا الفريقين ظالم للحق ظالم لنفسه، فهما منغمسان في العناد انغماسا عظيما.

ومن ناحية أخرى جعل ما يتلقاه المؤمنون من علم الرسل وتتابع الآيات والبيان الرافع للشبهات ما يطمئنهم بأن ما جئت به هو الحق الوارد عليك من ربك فيستقر الإيمان في قلوبهم، وتخشع ظواهرهم وبواطنهم عندما يجدون أنفسهم في ظلال الإيمان الرخية الوارفة. وإن الله بفضله ورحمته يضيف إلى الهداية التي وردت على لسان رسله تيسير الألطاف التي يثبت بها المؤمنين على الصراط المستقيم المبلغ لرضوان الله من أقرب طريق.

بيان المعنى العام :

48- قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين.

تفتح الآية مؤيدة لرسول الله ﷺ، على أن ما سيخاطب بـه المشـركين، هـو أمـر مـن الله :"قل" فهو يبلغه منفذا لأمر ربه، أمر بـأن يبلـغ المشـركين وأن ينـاديهم بيـا أيهـا الناس لإيقاظهم من غفلتهم، وليعلمهم أنه نذير لهم، ينبـئهم أنهـم علـى بـاب مـن شـر سيحيط بهم، وأن نذارته ليست بالتورية ولا بـالكلام المـؤول، ولكنـه ينـذرهم بفصـاحة قول ووضوح فـي المضـمون. وهـو رد لشـغبهم ومـا يتصـورونه مـن أن تكـذيبهم ومطاعنهم، وإذاية المسلمين، ستنتهي به إلى التسـليم واليـأس . قـل لهـم مـا أنـا إلا نذير فصيح القول واضح الحجة .

50-+51: فالذين آمنوا وعملوا...أولئك أصحاب الجحيم .

ترتب عن إنذاره ﷺ أن المنذرين كانوا على فرقتين:

الأولى: الذين صدقوا بما أنذرهم واتبعوا ما أنزل عليـه مـن ربـه، واعتقـدوا بوحدانيـة الله، ثم قرنوا إلى الإيمان رقابتهم لسلوكهم والتـزامهم بالأعمـال الصـالحة والبعـد عـن كل ما نهى الله عنه. اختص هؤلاء بأن الله سـيغفر لهـم مـا فـرط مـنهم قبـل إيمـانهم، من الشرك ومن الأعمال القبيحة التـي مـا كـان الشـرك يصـدهم عنهـا. ومـع ذلـك سيرزقهم الله ما يجمع بين الرضا النفسي والطمأنينـة القلبيـة، وخيـرات الـدنيا التـي لا يخالطها اللهث وفقدان القناعـة، وخيـرات الآخـرة التـي لا يشـاركهم فيهـا الكفـرة، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

الثانية : الذين بذلوا كل جهودهم، ودبروا أشـد أسـاليب المكـر، ليصـلوا إلـى تعجيـز الرسول ومغالبته حتى يضيقوا عليه الخناق ويحولوا بينـه وبـين النـاس، وبـين النـاس ودينه ؛ تجمعهم الآية برباط واحد وتشـير إلـيهم إشـارة لا ينفلـت منهـا أحـد مـنهم، هم سيمتزجون بجحيم جهنم امتزاجا، كـأن نـار الجحـيم لا تكـون إلا بهـم، وأنهـم لا يكونون إلا مع الجحيم. بما تفيده كلمة الصحبة من الملازمة.

52-وما أرسلنا قبلك من رسول ...والله عليم حكيم.

سجلت الآية السابقة ما كان يعانيه النبـي ﷺ مـن مقاومـة المشـركين لمـا يبلغـه ممـا أنزل عليه من ربه، وجسـم مقـاومتهم بـأنهم يتحركـون مسـرعين فـي كـل وجهـة ليعاجزوا . ولا شك أن هذه الحركيـة المضـللة كانـت ترهـق النبـي ﷺ، فعقّـب ذلـك بهذه الآية ليسليه ويثبته. تمت صياغة الآية علـى صـورة التـذكير بسـنة مـن سـنن الله التي جرت على كل من تحمـل وحيـا مـن الله، مـن الرسـل الـذين جـاؤوا بـديانات وتشريعات يتألف منها مـنهج خـاص بهـم كنـوح وإبـراهيم وموسـى وعيسـى علـيهم السلام . وكذلك من الأنبياء المنحصرة مهمتهم في إحياء شـريعة سـابقة أتـى بهـا أحـد

المرسلين، وهم كُثُرٌ في بني إسرائيل، أو لإصلاح قومه بتجديد ما هو مستقر من مجموعة من الحق في شرائع سابقة.

يجتمع النبي والرسول في أن كلا منهما موحى إليه مكلف بإصلاح البشر، ويختص الرسول بأن شريعته تكوِّن وحدة خاصة به، والنبي شريعته تجديد لما سبق أن أوحى الله به إلى رسول قبله.

أفادت الآية أن جميع الأنبياء والمرسلين ما وجدوا الطريق ممهدا لينفذوا إلى أرواح أقوامهم وإلى عقولهم بما كان معهم من صريح الحق، واستقامته مع قوانين العقل والفطرة. لا تسل عن السعادة الغامرة التي كانوا يحسون بها عندما اتصلوا بالخيط الأول من الوحي، لقد كانت كل أمانيهم أن ينفذوا إلى المجتمع فيقيموا العلاقات فيه على أساس التوحيد والعدل والصلاح. ولا فرق في امتلاء قلوبهم بهذه الأمنية، بين سابقهم ولاحقهم، هم على مرتبة سواء في هذا. فقوله تعالى **إلا إذا تمنى** معمول تمنى مقدر: أي تمنى الرسول والنبي هداية قومه بقبولهم لما جاءه من الله في العقيدة والسلوك والعلاقات الاجتماعية.

والشيطان الذي عزم على عداوة بني آدم بإضلالهم وإفساد عقائدهم وعلائقهم الاجتماعية، ومعاكسة الأنبياء والمرسلين، يزعجه اهتداء البشر، فيسعى بكل ما أوتي من مكر وخبث فيوسوس بالشرور والآثام، ويحرك وسوسته المضللة الحاجبة للهداية عن النفاذ إلى العقول والأرواح. ويلقي الشبه والمطاعن، ويصرف بالتالي العقول عن الانفتاح على الصواب والخضوع للبرهان.

يؤكد القرآن مثبتا لرسوله، أن القوة الشيطانية لا تصمد أمام قوة النور الهادي الذي معه، فإن الله ينسخ ما يلقيه الشيطان من شبه وضلالات، وما يحركه من شهوات، وتتوالى آياته وبيانه على لسان رسله فيفضح ما يلقيه الشيطان، ويعريه من الغطاء الساتر للحق ويهزمه في النهاية .

إن الطريقة التي يجري عليها التقويم في دحض وساوس الشيطان، تتم بإحكام الله لآياته وتقرير مضامينها في عقول المؤمنين، فيكرر البيان بمتنوع الأساليب. وكلما لون الشيطان خبثه لتحريف المنهج، قابلته الآيات الصريحة والقوية تزيل آثاره مقررة لما نزل. وهو معنى ثم يحكم الله آياته. فهي معاناة موصولة للرسول تنتهي بزوال ما لبس به الشيطان. والله سبحانه عليم بما يلقيه الشيطان في النفوس من الأوهام والأباطيل، عليم بما يصلحها، ومع سعة علمه سبحانه هو حكيم في هدايته للعالمين، تنهار أمام حكمته أباطيل الشر .

53 - ليجعل ما يلقي الشيطان ....لفي شقاق بعيد.

إن تلكم الفتن من جانب، وسعي الرسل للإصلاح من جانب آخر، لم يكن مغالبة من الشر الشيطاني للخير الإلهي، ولكن هو قدرُهُ سبحانه الذي بنى عليه الكون. فقد قدّر ببالغ حكمته أن تكون الحياة الدنيا دار ابتلاء يصطرع فيها الخير والشر.

أولا –هو نظام رتب فيه جعل ما يوسوس به الشيطان، يستهوي به النفوس الضعيفة المترددة ليفتنها فيغشي على البصائر، ويعطل العقول بما يستولي عليها من ضلالاته التي تصرفهم عن التأمل في حقائق المشاهد الكونية والآيات الربانية ويلهيهم بالشبهات التي تغمسهم في التردد والحيرة. وتأثير الشيطان في هذا النوع من البشر يجد فيه نوازع تثيره للتغلب عليها فيعطلها. كما ينفذ بسهولة إلى نفوس الذين قست قلوبهم فهي مصمتة لا تلين، صممت على الرفض، وعلى العناد وجعلت من رفضها ذاك حجابا صفيقا يمنع أي شعاع من الإيمان أن يخالط أرواحهم.

ويصدر الحكم على الفريقين: إنهما منغمسان في الخلاف والعداوة، انغماسا ذهب إلى أقصى غاياته. ولذلك لا تجد في سلوكهم وأرجاعهم ولو ذرة من الخير .

54- وليعلم الذين أوتوا العلم ...إلى صراط مستقيم.

وثانيا: هو نظام رتب فيه على بعثة رسله، وما أيدهم به من الأدلة والبراهين العقلية، وما تتابع على لسانهم من إقامة الحجج وإزاحة الشبهات، ومجادلة أهل الباطل، ونسخه لما يلقيه الشيطان بظهور عماية الصادين عن الإيمان، ما يبلغ المؤمنين الذين استقر في عقولهم علوم الوحي برد اليقين، وأن ما أنزله الله عليك هو الحق الأصفي الوارد عليك من ربك الذي تولاك بهدايته. فتتركز الطمأنينة في مشاعرهم ويحل الإيمان الرضي فيها . فتخشع القلوب لتجد أعظم لذة وأزكاها وهي في جوار ربها تحت وارف الظل الظليل لهدايته.

وتؤكد الآية في خاتمتها على فضل الله : أنه بعد أن يرسل رسله بالهدى ودين الحق، يخص المؤمنين بتيسرهم إلى الاهتداء، ويحيطهم بالألطاف المثبتة لهم على اتباع الحق اتباعا لا يحيدون عنه ولا يلتوي بهم المسلك ويحقق لهم الفوز بالسعادة.

وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا

فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

مرية : شك وريبة .

الساعة : يوم القيامة.

يوم عقيم : يوم حرب يستأصلهم.

مهين : مذل.

الرزق الحسن : العطاء الذي يرضي صاحبه الرضى التام .

بيان المعنى الإجمالي :

رغم ما توالى على أسماع المشركين من الآيات والحجج الواضحة والإنذار، فإن قلوبهم المريضة بالشك لا تسلم منه، يصحبهم ذلك إلى يوم البعث الذي يأتيهم بغتة أو إلى يوم استئصالهم في الحرب الذي هو آخر أيام حياتهم ولا يوم بعده.

إن يوم القيامة يعلو فيه الحكم الفاصل من رب العزة بين جميع الفرق التي كانت تتنازع الدعوى أنها على حق. أما الذين جمعوا إلى الإيمان الالتزام والتطبيق للأعمال الصالحة، فمآلهم الاستقرار في جنات جامعة لضروب النعيم . وأما الذين جمعوا بين الكفر بآيات الله وتكذيب الرسل فيما بلغوهم عن الله، فأولئك مؤهلون للعذاب المذل لهم، وسينفذ فيهم.

ثم نوه القرآن بالمهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم وموطنهم، وخرجوا مفضلين صحبة رسول الله ﷺ، الممكّنة من ثباتهم على الطريق الذي يرضي رب العالمين، وأقاموا على ذلك إلى أن استشهدوا أو ماتوا. وصرحت بما كتبه الله لهم من الجزاء: إن الله سيمكنهم من ضروب فضله البالغ درجة الكمال، وواسع عطائه ما يملأ نفوسهم رضا. كيف لا والله هو الرزاق الذي لا ينقص من ملكه شيء ولا يمن مستكثرا. بكل تأكيد سيسلك بهم مداخل العز الذي يرضيهم فلا يكون لهم مطمح وراءه. إن الله عليم بما صدر منهم في حياتهم يصحب علمه الدقيق، حلمه الذي يعفو عن السيئات فيخلص تلكم النفوس من جميع النقائص، ثم يضاعف الحسنات.

بيان المعنى العام :

56- ولا يزال الذين كفروا...عذاب يوم عقيم.

رغم ما أيد به الله رسوله من الحجج والآيات، وما أعلنه ﷺ من التحذير من وسوسة الشيطان المضللة، فإن الذين كفروا من مشركي مكة سيستمر شكهم في رسالتك، وتتواصل ريبتهم في صدقك، لا يخرجهم من حيرتهم إلا أحد أمرين: مثولهم بين يدي الله يوم القيامة، اليوم الذي يأتي مباغتا فتنكشف فيه الحقائق ويزول كل شك وريب، . أو يوم يقضى عليهم في حرب تستأصلهم فلا يعيشون يوما بعدها . ينتهي وجودهم وينتهي شكهم .

56←57، الملك يومئذ لله ...هي عذاب مهين.

عَنَتْ الآية السابقة الجزاء بقيام الساعة، وتابعت هذه الآية تفصيل بعض أمر يوم القيامة. فالأمر الأول الذي عنيت بإبرازه: أن الملك في ذلك اليوم يختص به الله سبحانه، فهو وحده المتصرف، وهو وحده الحاكم بالحق، وهو وحده المنفذ لما يحكم به. يعلن حكمه بين الطوائف المختلفة التي كانت تُروِّج من الشبه ما تقوي به وجهة نظرها. فيبطل جميع تلك الشبه الباطلة، ويثبت الحق والحق واحد.

حكمه النافذ: أن الذين آمنوا بما أنزله على رسوله، وطوعوا قدراتهم لتطبيق ما أمروا به فالتزموا في حياتهم الأعمال المتصفة بالخير والصلاح، يستقرون في الجنات الشاملة لضروب النعيم التي تطمح إليها النفوس. وأن الذين واصلوا ثباتهم على جحد الحق ومعاكسة الدين، وكان موقفهم من الآيات الدالة على صدق المرسلين، أن كذبوا بها ورفضوها واتهموا الرسل بالتزييف؛ أولئك يسلط عليهم العذاب المذل وهم أهل له .

58←59، والذين هاجروا في سبيل الله...وإن الله لعليم حليم .

نوهت الآية بفريق من المؤمنين لهم مزية أُوتُوها من فضل الله لا يشاركهم فيها غيرهم ؛ هم الذين تركوا أهاليهم وأملاكهم، وموطنهم بما لهم فيه من علاقات بيئية وإنسانية صحبتهم من يوم ولادتهم، تركوا كل ذلك وخرجوا مفضلين صحبة رسول الله الله ﷺ إلى المدينة المنورة. هاجروا مفضلين قربهم من رسول الله ليواصلوا مسيرتهم في الطريق الذي يزيدهم قربا من الله؛ ثم بعد ذلك ثبتوا على اختيارهم ذاك، إلى أن ضموا إلى شرف الهجرة شرف الموت في الجهاد لنصرة الدين، أو إلى أن توفاهم الله وماتوا على الإيمان والهجرة. أسند الطبري إلى سلمان بن عامر الضبي قال : كان فضالة الأنصاري بجزيرة رودس أميرا على أرباع الجيش، فخرج بجنازتي رجلين، أحدهما قتيل والآخر متوفى، فرأى ميل

الناس مع جنازة القتيل، فقال :أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل وتفضلونه، فوالذي نفسي بيده ما أبالي في أي حفرتيهما بعثت، اقرأوا قول الله تعالى: **والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا .**

والله ذو الفضل العظيم، تكفل بأن يفيض عليهم من واسع عطائه العطاء الذي يملأ نفوسهم غبطة، فلا يبقى لها متعلق بشيء، وتمتلئ رضى بما أوتيت، وسيدخلهم من مداخل العز ليستقروا في منازل العز المحقق لكل ما يطمحون إليه.

وبكل تأكيد فإن الله هو العليم الحليم. هو عليم بكل ما صدر منهم، وعلمه الذي لا يغيب عنه شيء، يصحبه صفة حلمه التي تضاعف الحسنات وتعفو عن السيئات، ولا تناقش المؤمنين في الحساب، فمن نوقش الحساب لا يسلم.

• ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإيلاج : الإدخال.

الحق : الصدق الذي لا زيف فيه.

الكبير : الكامل القدرة.

بيان المعنى الإجمالي :

تنعطف الآية على مضامين الآيات السابقة لتثبتها، وتنتقل بالمخاطب إلى مضمون جديد، هو قاعدة في تحديد قانون العقوبة للبادئ بالظلم. إن المظلوم قد لحقته الإذاية من ظالمه، وفوق ذلك تسلط عليه الظلم دون سبب .فالظالم باغ مجاوز للحدود. فإذا قام المظلوم بردع ظالمه بمثل ما ناله منه من أذى ولم يزد على ذلك، فإنه موعود بأن الله سينصره على ظالمه، وسيرعى الله سبحانه دفاعه عن نفسه، لأن البادي أظلم، والله الكامل يعفو ويغفر.

ومظاهر التصرف في نظام الكون تنادي بأن الله وحده هو المدبر لأمره، يأتي النهار على الليل فيندمج فيه شيئا فشيئا حتى ينزع ظلامه، ويندمج الليل في النهار حتى يذهب نوره، والله هو المتصرف في تقلب الظاهرتين لا يخفى عليه شيء، فتصرفه أكمل تصرف ونظامه أتم نظام.

إن ذلكم التصرف الحكيم النافذ تم بسبب أن الله هو الإلـه الحـق الـذي انقـادت لـه كـل الكائنـات، وأن الآلهـة التـي تـدعونها أيهـا المشـركون مـن دون الله انحصـر فيهـا الباطل، فهي زائفة ليس لهـا أي وزن ولا تـأثير. إن الله وحـده هـو صـاحب الجـلال والكمال، القادر الذي تخضع له جميع الكائنات.

بيان المعنى العام :

60- ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به...لعفو غفور.

ذلك، افتتحت الآية باسم الإشارة "ذلك" لتثبيت ما تقـدم فـي الآيـات السـابقة، ولإعـداد المخاطب لمضمون ما سيرد عليه بعد. وهو أمر مهم قدمتـه الآيـة كقاعـدة فـي التعامـل مراعية أن عدم عفو المظلوم عمن ظلمه، وعقـاب الظـالم بمثـل مـا صـدر منـه فـي العنف لا ينزل بمرتبـة غيـر العـافي إلـى سـخط الله عليـه، بـل بـالعكس فـإن الله سينصره قطعا على من ابتدأه بالظلم. وأنت إذا تعمقت فـي عمـل المبـادر بـالظلم تجـده باغيا متجاوزا لما ينبغي أن تكون عليه العلاقـات بـين النـاس. فالبـادئ بـالظلم إذايتـه من اعتدائه ظلما، ومن كونه كسر العلاقة التي كـان مـن واجبـه أن يراعيهـا، وأثـار المظلوم، فيكون بذلك مستحقا لعقوبة أشـد مـن قـدر الإذايـة التـي ابتـدأ بهـا .ولكـن المسلم الذي لطف الإسلام من أرجاعه إذا اقتصر على رد الظلـم بمثلـه فإنـه يكـون قـد تنازل عن شيء من حقه، وحرضته الآية أن يكتفـي بمثـل الإذايـة التـي نالتـه، لأن الله وهو الكامل متصف بالعفو والمغفرة . والآية تشـير إلـى الوضـع الـذي كـان عليـه المسلمون في أول أمرهم، وتسلط المشركين عليهم بسـلبهم حـريتهم فـي مـا ارتضـوه من عقيدة وعبادة وسلوك، وأن الله سـيهيئ لهـم الأسـباب التـي يـردون بهـا عاديـة الكفار، ويحقق لهم النصر.

61-ذلك بأن الله يولج الليل في النهار...وأن الله سميع بصير.

إن ذلك الوعد بالنصر على ظلم المشركين هو جار على سنن الله في الخليقة. فانظروا إلى تعاقب الليل والنهار، تأملوا في تلكم الظاهرة التي تتجدد كل يوم أمام أنظاركم، كيف يدخل الله الليل في النهار، فما يزال يغطي ضوء النهار ظلمة الليل حتى يجلي الكون ويذهب بالظلمة، وينهزم الظلام. وعلى ذلك النحو يتصرف الله في الفئتين المتقابلتين فئة الذين يعملون على حجب أنوار الإيمان، ويسعون لإبقاء الناس في ظلام الشرك، أن الله يقوي أشعة الحق شيئا فشيئا حتى يهزم الشرك وأهله.

وفي التنصيص على تقابل إيلاج الليل في النهـار فتـذهب ظلمتـه، وإيـلاج النهـار فـي الليل حتى يذهب ضوؤه، إبـراز للقـدرة التـي تتصـرف فـي الكـون حسـب الحكمـة

والتقدير السابق، فلا يغتر المشركون بما تهيـأ لهـم مـن صـولات، فـإن الله لا يخفـى عليه شيء من أمرهم، يسمع كل مـا يصـدر عـنهم، وينكشـف لـه تمـام الانكشـاف، ويرتب عليه ما يريد أن يريد أن يرتبه في أجله الذي قدره له.

62-ذلك بأن الله هو الحق...العلي الكبير.

ذلك التصرف الحكيم الشامل مرتبط بأن الله هو الحـق الـذي تنفـذ إرادتـه فـي الكـون وفي البشر، فهو الذي ينصر أوليـاءه، ويجـري علـيهم نعمـه المُرْضـية، وينفـذ مـا أوعد بـه المشـركين والمعانـدين. فليطمـئن المؤمنـون بـأنهم تمسـكوا بـالله المتفـرد بخصائص الألوهية جميعها فهو الإله الحق .

وبالمقابل فإن الـذين تـدعونهم أيهـا المشـركون، وتتقربـون إلـيهم وترجـون مـنهم العون، انحصر الباطل فيهم. فكأنه لا باطل إلا ما تعبدونه.

إن الله هو العلي الأعلى لا يسمو إلى جلال مقامـه أي كـائن، وأنـه القـادر الـذي تنفـذ قدرته في كل أمر . مما يؤكد زيف آلهتهم وعجزها.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (63) لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (64) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (65) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ (66)

بيان معاني الألفاظ :

تصبح : تصير .

لطيف : المحكم للأمور برفق.

خبير : عليم بحاجاتهم .

سخر : جعل ما كان عصيا سهل الانتفاع به بدون ممانعة.

بيان المعنى الإجمالي :

ألم تبصر أيها الإنسان ما يتكرر على ناظرك من أعمـال القـدرة الإلهيـة بـإنزال المـاء من السماء، ثم ما يرتب عليه من إكسـاء وجـه الأرض بسـاطا أخضـر، ينتهـي إلـى حصول أقوات البشر والأنعـام. إن تجميـع الظـروف الملائمـة التـي بهـا يـتم إنـزال

المطر ثم تقبل الأرض لتلك المياه وما يحدث فيها مــن تفــاعلات، يــدلك ذلــك علــى أن الله يُحكم تصرفه في الأمور برفق، وهو الخبير بكل مرحلة وما يتلوها.

وهو المتفرد بملك كل كبيرة وصغيرة فــي الكــون ســمائه وأرضــه، لا مالــك ســواه، ثبت له الملك لذاته لا معين له هو الغني عــن كــل مســاعدة، وهــو المســتحق للحمــد والثناء على حكمته ونعمه.

انتبهوا ولا تغفلوا عن ظاهرة تطويع الله لكــم الأرض ومــا عليهــا مــن حيــوان ونبــات وجماد، وما حوته في بطنهــا مــن معــادن وخيــرات. فــبعض الحيوانــات ركــب فــي طبعها الانقياد للإنسان وخدمته، وبعضها فتح لــه عقلــه فــأدرك خصائصــها وقوانينهــا فمكنه بذلك من الانتفــاع بهــا وقضــاء مصــالحه وإخضــاعها لإرادتــه .وكمــا ســخر اليابسة فقد سخر البحر، فهداه إلى صنع الفلك، وإلــى قــوانين الــدفع والقــوة المحركــة فإذا هي تخترق البحــار بمــا ضــبطه ســبحانه. وعمّــر الســماء بالكواكــب والمجــرات وقدر بينها من الجاذبية التي تمسك كل كوكب وكــل مجــرة فــي المســار الــذي تســير فيه دون أن تصطدم بغيرها أو أن تهــوي علــى الأرض، إلا فــي الوقــت الــذي يريــد ذلك، وعندها لا راد لما قضــى بــه. والله ســبحانه رؤوف بعبــاده يســر لهــم حيــاتهم على وجه الأرض ورحمهم بما جمع لهم من ألطافه وعونه.

وفوق كل تلكم المظاهر التي لفــت لهــا الأنظــار لتــوقن بــأن الله هــو الحــق، هومــا جرى على كل إنسان. إنه كان معــدوما، فأحيــاه الله، ولا ســبيل إلــى ادعــاء تــدخل قدرة أخرى في الإحياء. وأنه يتصرف فيــه فيســلبه الحيــاة ويميتــه فــي اللحظــة التــي قدرها. ومن أحيا ثم أمات قادر بالضرورة علــى إعــادة الحيــاة، ولكــن الكفــر يحجــب الحق عن العقل ويعمي البصيرة.

بيان المعنى العام :

63- ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء...خبير.

افتتحت الآية بسؤال إنكاري لإثارة المدارك للتأمل، وتجــاوُز مــا توجبــه الرتابــة مــن الغفلة. وهو سؤال موجه إلى كل مــن تصــح منــه الرؤيــة، باعتبــار أن ذلــك مظهــر كوني سار متكرر. متعلَّق الرؤية هو إنزال المــاء مــن الســماء. إنــه لا يحــدث ذلــك إلا بعد تحقق ظروف عديدة لا يمكن أن تتآلف إلا بإرادة وقــدرة. فكثيــرا مــا تتلبــد الســحب وترعد السماء ويخترق البرق أرجاءها، ثم تهــب ريــح فتمــزق الســحاب ويتلاشــى ولا تنزل قطرة على الأرض العطشى.

ولا يقتصر التدبير المحكم الهادي إلى تعميق الإيمـان فـي الـنفس علـى إنـزال المطـر، بل ينضاف إلى ذلك ما قدر من أحـداث تتلـوه، هـو تحـول الأرض الجـرداء اليابسـة المغبرة إلى بساط أخضر، من النبات الذي يكون قوتا للبشر والأنعام.

روي عن عكرمة مولى ابن عباس أنه قال :هـذا لا يكـون إلا بمكـة وتهامـة. يعنـي أن اخضرار الأرض عقب نزول المطر لا يكـون إلا بهـذين المكـانين، وأمـا بقيـة بقـاع الأرض فإن انتشار الخضرة يتم بعد مدة. وقـال القاضـي أبـو محمـد بـن عطيـة أنـه شاهد هذه الظاهرة في السوس الأقصى قال : نزل المطـر لـيلا بعـد قحـط، وأصـبحت تلك الأرض الرملة التي نسفتها الرياح قد اخضرت بنبات ضعيف دقيق [1].

إن من تأمل في ذلك يتعمق اقتناعه، بأن الله يحكم تصـرفه فـي الكائنـات فتبلـغ تمـام ما أراده لها برفق تترتب كل مرحلة علـى مرحلـة سـابقة دون اخـتلال. وهـو الـذي لا يخفى عليه أي جزئية في مراحل التواصل الذي يتم به الإيجاد.

64 - له ما في السماوات ...الغني الحميد .

لما لفتت الآية السابقة الأبصار إلى التعمـق فـي ظـاهرة نـزول المطـر مـن السـماء، وما ترتب عليه من خلق النبات، أكملت هذه الآية ملحظـا آخـر هـو دخـول ذلـك فـي ملك الله . فهو سبحانه خالق وهو مالك لكل ما فـي السـماوات ومـا فـي الأرض، التـي منها السحب والمياه والأرض والنبات.

وتفرُّدُ الله بالملك هو تفرد لا يشاركه في صفته تلك أحـد، فهـو الغنـي بذاتـه، يحـدث ما يحدث ويرتب مـا يرتـب دون حاجـة لعـون، وفـي ذلـك تعـريض بزيـف آلهـة المشركين فهي لا تستغني في ذاتها عن صـانع ينحتهـا، وعـن قومـة ينفضـون عنهـا الغبار ويرفعونها إن سقطت.

وغناه سبحانه يحـرك القلـوب والعقـول بالتسـبيح بحمـده والثنـاء علـى كمالـه. ولا يستحق الحمد الكامل سواه.

65 - ألم تر أن الله سخر لكم ...لرؤوف رحيم.

لفتٌ آخر للأنظار حتى لا يمر عليها المشـهد وهـي غافلـة عنـه، يسـر الله كـل مـا أودعه من الكائنات الأرضية فطوّعها للإنسان، يـتحكم فيهـا ويسـوقها إلـى مـا ينفعـه، سواء في ذلك الحيوانات أو الجمـادات. بنـى طبيعـة بعضـها علـى الانقيـاد للإنسـان، وقبولها لتنفيذ ما يريده منها سواء أكانت أبدانها ضـخمة تفـوق قوتهـا قوتـه، أو كانـت ضئيلة تنفلت من حواسه. وما كانت منهـا متوحشـة تفـر منـه. عرفـه علـى قوانينهـا

---

[1] المحرر الوجيز ج10ص314/315

ونواميسها، فتمكن من التسلط عليها لتحقق لـه أغراضـه، كـالكلاب المعلمـة والبـزاة وإخضاع الوحوش الكاسرة لمروضيها . وكـذلك الجمـادات بمعرفتـه لقوانينهـا، اقتـدر الإنسان على تطويعها أيضـا فـتمكن مـن حسـن الاسـتخلاف فـي الأرض وتعميرهـا. وكما تم ذلك في اليابسة تم في البحار، ألهمه قـوانين الـدفع المـائي فبنـى السـفن التـي ما يزال يجود فيها حتى بلغت اليوم منشـآت ضـخمة تجـوب البحـار بأثقـال عظيمـة، مرتفعة أبراجها جامعة لمتنوع ما يريده الإنسان منهـا فـي السـلم والحـرب. كـل ذلـك بأمره سبحانه أي بما أودع في الماء من دفع على مقادير دقيقـة، ومـا فـتح إليـه عقـل الإنسان من النفاذ إلى القوانين التي أنشـأ بهـا المحركـات والطاقـة، ومعرفـات الاتجـاه واحتياطات السلامة. فتبارك الله أحسن الخالقين.

ثم إنك إن نظرت إلى السماء وما عمـرت مـن كواكـب ومجـرات لا يعلـم عـددها ولا ثقلها إلا خالقها، تسبح في الفضاء الكـوني المترامـي الأطـراف، قـدر بينهـا جاذبيـة مقدرة تقديرا لا زيد فيه ولا نقـص، تعلـو الأرض ولا مـانع لأي منهـا مـن السـقوط والارتطام بالأرض إلا ذلك الإحكام فـي تسـييرها وفـي جاذبيتهـا، وفـي علاقـة كـل كوكب بغيره، وفي علاقة كل مجرة بغيرها من المجرات التـي تـم قيـاس بعـض أبعـاد منها، بعد التقـدم العلمـي بالسـنوات الضـوئية. ومـا هـو محجـوب تثبتـه القـوانين الحسابية ويستعصي عن كشف كل مكنوناتـه . إن جرمـا مـن تلكـم الأجـرام السـماوية لو اختلت جاذبيته فخرج عن مسـاره وارتطـم بـالأرض لتهشـمت وتنـاثرت أجزاؤهـا كما تتناثر حبات الرمان عند ارتطام الرمانة باليابسة. مـن الـذي يحفـظ ذلكـم التـوازن؟ لا يحفظه إلا أمر واحد، هو الأمر الإلهي المنظم النظام الشامل.

إن الله موصوف بالرأفة بعبـاده يسـر لهـم الحيـاة علـى وجـه الأرض، ويسـر لهـم الانتفاع بما فيها من خيرات، ويسـر لهـم التعـرف علـى كثيـر مـن قـوانين الكـون وأسراره، ودفع الضر عنهم. ورحمهـم بضُـرُوب الرحمـة التـي شـملتهم فـي حـال انتباههم وفي حال غفلتهم، في حال اسـتقامتهم، وفـي حـال انحـرافهم، ولـم يعـاجلهم بالعقوبة وأمهلهم ليعودوا إليه فيقبل توبتهم. رحمته وسعت كل شيء.

66- وهو الذي أحياكم ...إن الإنسان لكفور.

أكدت الآية السابقة –62–أن الله هـو الحـق، وأن جميـع الآلهـة التـي يعبـدونها مـن دونه باطل وزيف. وأتبع تلكم الحقيقة بمـا ذكـره مـن تفـرده بالتصـرف فيمـا نصـت عليه الآيات التالية. ومن أعظم ما يقوم دليلا على أنه وحـده الإلـه الحـق، نفـخ الـروح في الإنسان التي بها تتحقّقُ الحياة. إنـه بـأدنى تأمـل يـدرك النـاظر أن الله هـو وحـده الذي أوجدنا أحياء، وأنـه يسـلب منـا الحيـاة متـى أراد، ولا يـدري أي فـرد متـى

سيموت، إذ الإماتة كالحياة بيده وحـده. هـذه التـأملات تقضـي بالعاقـل إلـى أن مـن أحيا ثم أمات قادر من باب أولى وأحرى أن يحيـي بعـد المـوت. وهـي إحـدى ركـائز العقيدة التي بعث بها المرسلون. ومع وضوح الأدلة علـى إمكـان البعـث، ومـا أقامـه الرسل من الآيات البينات على أنه واقع لا محالـة، فـإن الـذي منـع البشـر المكـذبين بالبعث، هو ما بنيت عليه عقولهم مـن الإصـرار علـى الانكـار ورفـض كـل بارقـة تنير السبيل. فالإنسان الكفور الجاحد هو الذي أصر على الرفض لهدايات الله.

لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ

بيان معاني الألفاظ :

المناسك : اسم مكان النسك بمعنى العبادة.

بيان المعنى الإجمالي :

كما يتصرف الله في الكون ذلكم التصرف، كذلك يهـدي كـل أمـة إلـى أمـاكن العبـادة وطرقها التي يرتضـيها. فـاقطع منازعتـك لهـم فـإنهم لا ينطلقـون إلا مـن التعصـب للباطل. لا تكترث بتشغيبهم وواصل دعوتك إلى الـدين الـذي أوحينـاه إليـك، فَأَفسِـدْ كل شبهة يضللون بها. وتيقَّنْ أنك مـتمكن مـن السـير علـى الطريـق السـالك المبلـغ للغاية من أخصر وجه. وإن واصلوا المجادلة فقل لهـم: إن الله يعلـم مخالفـة مـا تبدونـه لما هو في قلوبكم. والله سيظهر حكمه يـوم القيامـة فيتبـين الـذين كفـروا أنهـم كـانوا على باطل، وأنك متمكن من الهدى الذي جاء من ربك.

قد علمت أن الله يحيط علمه بمـا فـي السـماوات ومـا فـي الأرض مـن كائنـات ومـا يجري فيها من أحداث. وإحاطة علمه بذلك تقوم دلـيلا علـى علمـه بمـا كـانوا يرتبونـه في مجادلتك من غمط للحق، وانكشاف الغايات التي أضمروها.

إن علم الله بكل ذلك مثبت في كتـاب لا يزيـد ولا يـنقص ولا يقبـل التبـديل. وإحاطـة علم الله بما سيتحقق في مستقبل الأزمان وتوثيقـه فـي الكتـاب المحفـوظ عنـده، الـذي لا يتصور بأي صورة من كتب البشر، كل ذلك أمر يسير تحققه من القادر العليم.

بيان المعنى العام :

67- لكل أمة جعلنا منسكا...لعلى هدى مستقيم.

كما أن الله تفرد بالإحياء والإماتة ثـم البعـث، وأجـرى كـل ذلـك علـى مـا تقتضـيه الحكمة البالغة، فإنه سبحانه هو الذي هـدى كـل أمـة إلـى المكـان الـذي يعبـد فيـه، فالمنسك هو مكان العبادة الذي فضله الله لكل أمة ليتقربـوا إليـه بالعبـادة فيـه. ويطلـق المنسك أيضا على القربان كالهدايا والأضاحي.

إن الأماكن التي خصها الله بأداء عبادة الحج مـن الطـواف والسـعي وعرفـة والمشـعر الحرام ومنى هي مناسـك الحـج، كمـا أن الهـدايا وأحكامهـا مـن الأنـواع المقبولـة ومكان التقرب بها ووقته، هي من المناسك. وإذا كان الله قد أوقـف كـل أمـة علـى مـا يرتضيه منها في كل ذلك، فإنـه خـص أمـة محمـد بجعلهـا المحيية لشـريعة سـيدنا إبراهيم عليه السلام في الحج وما يتصل به.

وإذ تبين أن ما عرفه الله لنبيه من المناسك هـو الحـق الـوارد مـن الله، فـأعرض عـن تشغيبهم ولا يهُمّنك مكابرتهم فـي الحـق، ومـا ينسـبونه لأنفسـهم مـن كـونهم علـى شريعة إبراهيم التـي حرفوهـا فأفسـدوها. لا تكتـرث بمـا يروجـون ولا تمـارهم ولا تنازعهم . وهو كناية عن كون ما يقدمونـه مـن التنويـه بـآلهتهم سـاقط لا قيمـة لـه. واثبتْ على مواصلة الدعوة إلى الدين الذي أوحي إليك مـن ربـك، فـإن تركيـز الحـق لا يستغني عن المتابعة، وتجديد الأساليب المقنعة. بكل تأكيـد إنـك مـتمكن مـن الهـدى سائر في طريق يبلغ بسالكه الغايـة المحمـودة مـن أخصـر طريـق وأقربـه. ولا يجـد سالكه منعرجات توقفه وتبعث فيه الحيرة.

68- وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون.

إن واصـلوا التشـغيب، والمجادلـة بالباطـل، وأعمـاهم الإصـرار عـن الاعتـراف بصدق حججك، فأعرض عـنهم قـائلا : الله هـو العلـيم بمـا تخفيـه صـدوركم ومـا تحاولونه من طمـس الحـق وإعـلان الباطـل. وإذا كـان الله يعلـم تنـاقض ظـواهركم لبواطنكم فإنه سيجزيكم عما تقومون به من تضليل أتباعكم وترويج للكفر.

69-الله يحكم بينكم...فيه تختلفون.

أكدت هذه الآيـة مضـمون قولـه تعـالى " الله أعلـم بمـا تعملـون " فقـررت أن الله سيظهر حكمه العادل يـوم القيامـة، فيظهـر الحـق ظهـورا لا يبقـى معـه شـبهة ولا متعلق للكفرة المجادلين. يتبينون أن ما كانوا عليـه ومـا جهـدوا أنفسـهم لتثبيتـه ونشـره ليس له أدنى قيمة، ومتمسكهم أوهام مستندة إلى باطـل الخيـال. ويتبينـون أن مـا جـاء به الرسول ﷺ حق لا شبهة فيه مستمد من وحي الله.

70- ألم تعلم أن الله .... على الله يسير .

تثبت هذه الآية ما دلـت عليـه الآيـة السـابقة "الله يحكـم بينكم.." إن حكـم الله الـذي سيظهره يوم القيامة، هو مستند إلى علمه الشـامل الكامـل، لمـا فـي السـماوات ومـا في الأرض، وذكر السماوات محقق لعلمه بما انطـوى عليـه المعانـدون، الـذي يكـون العلم به أهون مما اشـتملت عليـه السـماوات. وصـيغت الآيـة علـى طريـق السـؤال المقرر والموقظ ، فمعنى ألم تعلم :إنك تعلـم مضـمون مـا سـيرد بعـد. وزادت الآيـة تقريرا وتثبيتا لعلم الله لما فـي السـماوات والأرض، بـأن كـل مـا حوتـه السـماوات والأرض من كائنات وما يجري فيهـا مـن تحـولات لا يحـدث لله علمـا، وإنمـا هـو ظهور لما سبق أن علمه وتم توثيقه في كتاب هو من الغيـب الـذي نعجـز عـن تفصـيل حقيقته، ونؤمن به على الصفة التي أثبتهـا الله، مـع التنزيـه عـن التجسـيم فـلا ورق ولا مداد، ولا هو خط مما هو معروف في دنيـا النـاس. بـل هـو أمـر مـن متعلقـات الذات الإلهية المنزهة عن شـبه الحـوادث. إن تحقـق ذلكـم التثبيـت فـي كتـاب قبـل وقوعه، تبعا لعلم الله الذي لا يتأثر بالزمان، هو بـالنظر لطبيعـة خلقـتكم عسـير جـدا، وأما بالنسبة إلى القادر العليم الحكيم، هـو أمـر ميسـور لاسـتواء الماضـي والحاضـر والمصير لديه.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ

بيان معاني الألفاظ :

السلطان : الحجة .

المنكر: الرفض المصحوب بالتغيض .

يسطون : يبطشون.

الاستنقاذ : مبالغة في الانقاذ.

ما قدروا الله حق قدره : ما عظموه حق تعظيمه.

بيان المعنى الإجمالي :

رغم ما تتابع من الوحي الهادي، ورغم البراهين اليقينية، فإن المشركين واصلوا عبادتهم للأصنام من دون الله. وما عضدوا أنفسهم بشرع، هو حجة قاطعة، منزل من عند الله، كما أن قانون العقل يخذلهم وليس لهم إلا أوهام. إنهم ظلموا الحقيقة وظلموا أنفسهم، وظلموا أتباعهم . والظالمون لا يجدون نصيرا ينصرهم. ويتضمن ذلك وعيدا بخذلانهم يوم القيامة.

ويصور القرآن الذين كفروا: أنهم عندما تتلى عليهم الآيات الواضحة البينة، يقابلونها بالرفض الكامل، وتمتلئ نفوسهم غيظا على التالين، ويبدو على وجوههم أمارات الإنكار والرفض والغضب والاستعداد للسوء. يبلغ بهم الاستكبار عن الحق أنهم قاربوا أن ينقضُّوا على التالين للآيات لينتقموا منهم. قل لهم يا محمد: أتريدون أن أعلمكم بما هو أشد شرا عليكم من هذه الآيات ؟ النار التي وعدها الله الذين كفروا لتحرق أجسامهم وتهينهم. وإن المصير إليها أسوأ مصير. ثم يدعو القرآن المشركين أو جميع البشر ليستعدوا للتأمل في المثل المعروض عليهم بكل انتباه ويقظة. حاصل هذا المثل: إن الذين تدعونهم من دون الله لقضاء حوائجكم ونصرتكم من الأصنام أو البشر المستكبرين، لن يستطيع أي واحد منهم أن يخلق ذبابا، ولو اجتمعوا كلهم لذلك لصاحبهم العجز أيضا. وأكثر من ذلك أن الذباب الضعيف الذي هم عاجزون عن خلقه، لو تسلط عليهم فمد خرطومه وسلبهم شيئا مما يظنون أنه ملكهم وأنهم المتصرفون فيه، فلن يستطيعوا أن يستردوا منه ما ذهب به. استوى المتعرض بمطالبه ومن علقت به الآمال فكلاهما ضعيف، الطالب معترف بعجزه، والمطلوب قام الدليل على عجزه.

إن منشأ الضلال أنهم ما عظموا الله التعظيم اللائق بجلاله وقدرته، إن الله هو المتفرد بالقوة التي لا تعاكس، الغالب لكل معاند .

بيان المعنى العام :

71 - ويعبدون من دون الله ...وما للظالمين من نصير .

تشويه لوضع المشركين، وتعجيب من حالهم. فإن ما تتابع من الدلائل، وما أقامه النبي ﷺ من قواطع الوحي وشواهد العقل والفطرة كان مما ينبغي أن يتبعه طرح الكافرين لعبادة الأصنام. ولكنهم واصلوا عبادتهم معرضين عن عبادة الله. ومن دواعي العجب أنهم، وهم يدّعون أن لهم حظا من حسن التدبير وقوة الإدراك، لم يستندوا في عبادة الأصنام إلى حجة ثابتة جاءتهم من عند الله، فكل ما عندهم

أوهام مردها إلى متابعة ما كان عليه آباؤهم. وتقليـدهم الغبـي للمـوتى الـذين سـبقوهم على ضلال. وكما كانوا فاقدين لأي سـند وحجـة مـن الـوحي الإلهـي، هـم كـذلك لا يستندون إلى ما يوجبه العلم من دلائل العقل والبراهين.
إنهم بهذا الضلال قد ظلموا أنفسـهم وظلمـوا الحقيقـة، وظلمـوا أتبـاعهم. ومـن كـان على هذا المستوى مـن الظلـم والضـلال، فـالظلم لا يعقبـه وجـود نصـير، وإنمـا يمحّض أصحابه إلى الخسران والضياع.

72- وإذا تتلى عليهم آياتنا ...وبئس المصير.

يتابع القرآن فضح المشركين، فبعد أن شنع عليهم إصرارهم على عبادة الأصنام، صرحت هذه الآية بنوع آخر من انحرافهم وضلالهم. إن إدراكهم قد اختل، فتجدهم إذا تليت عليهم آيات القرآن البينة الواضحة التي يشهد لها العقل، مع بلوغها أعلى درجات الفصاحة وحسن النظم، إنهم عوض أن يتأملوا ويأنسوا بها، ثم يطوعوا أنفسهم لمراجعة ما هم عليه ويتبعوا ما تدعوهم إليه ، يبلغ الغيظ من الكافرين أعلى مبلغ، فيظهر على سحنات وجوههم أمارات الرفض والغيظ والكراهية لما استمعوا إليه. ويكون مظهر وجوههم المقطّبة واضحا متبنا عما استقر في نفوسهم من أول وهلة. جسّمت الآية حنقهم بأنهم قاربوا أن ينقضّوا على التالين عليهم فيبطشوا بهم. هذا التحفز للشر بمجرد سماع الآيات البينات يدلك على مبلغ الفساد والإصرار الذي هم عليه.
إن وضعهم هذا الذي تتبّعه القرآن، فكون منه صـورة لا يرضـاها عاقـل وينفـر منهـا، بالغ في إبراز شناعتها. صوّرهم كأنهم تحفـزوا للـرد، فعطـل القـرآن ردهـم وبـاغتهم بإذن الرسول أن يقول لهم: أسألكم هل تريدون أن أعرفكم بما هـو أبلـغ شـرا مـن هـذا الذي رفضتموه وظهر اسـتعدادكم لاسـتعمال قـوتكم الزجريـة، وبلـغ مـنكم الغضـب أقصى مبلغـه؟ وأسـلوب السـؤال " أفـأنبئكم" هـو اسـتئذان تهكمـي بهـم، فتغـيّظهم واستعدادهم للانتقام والبطش لا يخيف المؤمنين . واسمعوا ما هـو أشـد شـرا مـن هـذه الآيات التي تتلى عليكم فأغاظتكم . النـار المحرقـة وعـد هـا الله الـذين كفـروا وعـدا ثابتا لا مثنوية فيه، ولا تجدون عنهـا محيـدا . وبـئس المصـير مصـيرهم، لا أسـوأ منه إذ يجمع بين العذاب والمهانة .

73- يا أيها الناس ضرب مثل ...ضعف الطالب والمطلوب.

نداء يحرك الناس ليقبلوا على مضمون النداء يتـأملون فيـه، ليستحضـروا كـل جزئيـة ويتعمقوا فيها، ويخرجوا من كل ذلـك بمـا تشـير إليـه الصـورة المحكمـة مـن هـذا الكلام الذي تمت صياغته على صورة المثل.

يا أيها الناس يحتمل النداء أن يكون موجها للمشركين، اتباعا للطريقة الغالبة في القرآن أنه يقصد من نداء الناس، نداء المشركين. كما يحتمل أنه نداء لجميع البشر مؤمنهم وكافرهم. وإن كان حمله على المشركين أولى ليتلاءم مع قوله بعد ذلك : "إن الذين تدعون من دون الله" والمخاطبون بكونهم يدعون من دون الله هم المشركون.

دعى الناس دعاء لائقا لعقولهم: أن المعروض عليهم مثل قوي يهز المشاعر ويفتح للاعتبار بابا. ولما كان المقصود الأول هو الاعتبار بالمثل لم يسم فاعله وبني الفعل للنائب "ضُرِبَ" وزاد تحريكا للمخاطبين بأمره أن يستمعوا لهذا المثل، أي أن يصرفوا حواسهم عن كل شيء إلا عن هذا المثل المتلو عليهم حتى يدركوا الغاية منه بكل أبعادها. فما هو هذا المثل الذي توجهت إليه العناية الإلهية لطفا بعباده ورحمة منه إليهم ؟

حاصل هذا المثل : إن الذين تطلبون منهم العون من دون الله، وقضاء الحاجات، وتنتظرون منهم أن يستجيبوا لكم فيسعفوكم بمطالبكم، سواء أكانوا أصناما، أم من البشر الذين بلغت بكم الغفلة أن عظمتموهم إلى أن ربطتم آمالكم بهم، هذا وضعهم: إنهم عجزة عن الخلق والإيجاد، هم عاجزون أن يخلقوا الذباب الضعيف، كل واحد منهم عاجز عن الخلق، ولو جمعوا قدراتهم وما تتصورون لهم من مهارات لكانوا على نفس المستوى من العجز. وأكثر من ذلك: إن ذلك الذباب الضعيف لو مد خرطومه فسلبهم شيئا قليلا لا يدركه البصر، فإنهم عاجزون عن استرداد ما تسلط عليه الذباب فنزعه منهم. على هذا النحو من التعميم أفهم الآية، وإن كان بعض المفسرين حملوها على أن المشركين كانوا يلطخون أصنامهم بأنواع من الطيب فتتجمع عليها الذباب وما تزال تنزع وتسلب، والأصنام عاجزة عن طردها أو استرداد ما سلبته.

فظهر أن حاصل هذا التمثيل أن شُبِّهَتْ الأصنام في مختلف صورها وأماكنها، وكذلك المتجبرون من البشر الذين تتعلق آمالهم بهم، شبه المجموع في عجزهم بهيئة ناس تعذر عليهم خلق الذباب الضعيف الخلقة. ولو فرض أن الذباب سلبهم شيئا تافها عجزوا بالمثل عن استنقاذ ما سلبهم.

وإذ تم عرض المثل ووضحت أبعاده وغاياته، عقب عليه القرآن بنظرة شاملة: هي خلاصة العرض والعبرة منه وتشمل أمرين:

أولا : ما أضعف الطالب، الإنسان الذي يعلق آماله بالأصنام، وما أضعف الأصنام التي لا تستطيع أن تخلق الذباب ولا أن تسترد منه ما سلبها، وما أضعف

المطلوب المتمثل في الأصنام والمستكبرين من البشر وهـذا الـذباب الحقيـر الـذي مـن خصائصه أنه من أقصر الحيوانات عمرا.

74- ما قدروا الله حق قدره...إن الله لقوي عزيز.

ثانيا: إن هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله آلهة وعلقوا آمالهم بهم، هم قوم فسد تفكيرهم، إذ لم يعظموا الله التعظيم الذي هو أهل له. فمن جراءتهم أنهم سووا بين خالق السماوات والأرض والموت والحياة وباعث الرسل، وبين العاجز عن خلق الذباب أو عن استنقاذ ما سلبه منهم. سووا القادر الذي لا تحد قدرته بحدود، بالعاجز عن أتفه الأشياء. وبكل تأكيد فإن الله وحده هو القوي الذي لا يستعصي عليه أي شيء، العزيز الغالب لكل معاند.

ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

تفلحون : تنالوا بغيتكم وتنجحوا.

جاهدوا في الله : قاتلوا أعداء المسلمين إعلاء لكلمة الله أو دفعا عنه.

حق جهاده : الجهاد الذي لا يشوبه تقصير.

الاجتباء : الاختيار.

الحرج : الضيق والعسر.

الملة : الدين والشريعة.

واعتصموا بالله : استمسكوا بالله.

المولى : السيد الذي يرعى صلاح عبده.

بيان المعنى الإجمالي :

كما كانت الهداية الإلهية أتم هداية، فكـذلك شـملت عنايـة الله القـائمين بتبليغهـا فكـانوا هم المختارين، فاصطفى من الملائكة الـذين كلفهـم بـإبلاغ الـوحي، واصـطفى مـن

البشر الذين عهد إليهم دعوة النـاس إلـى دينـه. واختيـارُه تعـالى هـو اختيـار مـن لا يخفى عليه شيء ولا تخدعه الظواهر. يستوي علمه بما سـبق مـنهم ومـا سـيقومون بـه في المستقبل. وكل ما يقع في الكون يعود إليه سبحانه ليجزي به.

ينادي المؤمنين بأن لا يتراخوا في القيـام بمـا فـرض علـيهم مـن الصـلوات، ومـن عبادته مستحضرين أنه هو الرب الذي يسر لهـم التوفيـق للعبـادة ومكـنهم منهـا، وأن يجعلوا بينهم وبين الفضيلة رابطة دائمـة، وأن يقيمـوا بيـنهم وبـين الشـر حجابـا مـن اليقظة حاسيا. إنه بذلك ترجون أن يتحقق لكم الفلاح.

إنكم أمة مختارة، عليكم أن تقوموا بالمهمة التـي أوكلـت إلـيكم مـن حمـل أمانـة هـذا الدين الخاتم. دافعوا عن دينكم، وانشروه، مجاهدين كـل مـن اعتـرض دعـوة الحـق، أو أراد الاعتداء عليكم. ليكن جهادكم في سـبيل هـذا المبـدأ الرفيـع مبـدأ نصـرة ديـن الله. تذكّروا أن الله لما أنزل عليكم دين الإسـلام وجعلكـم حملتـه، قـرن ذلـك بالتيسـير فلم يكلفكم ما هو عسير عليكم وما تجدون فيـه حرجـا، فكلمـا جـاء العسـر حضـرت الرخصة والتيسير. إنكـم علـى ملـة إبـراهيم ﷺ تجمعكـم بـه رابطـة قويـة، فهـو بالنسبة إليكم أيها المؤمنون أب، نظير أزواج النبي ﷺ هـن أمهـات لكـم. ارتضـى لكـم اسما قبل نزول القرآن وفيه، أنتم المسـلمون بهـذا سـماكم ربكـم. وربـط بيـنكم وبـين محمد ليكون شـاهدا علـيكم بالاسـتجابة لدعوتـه، وشـرّفكم بـأن جعلكـم الممسـكين بالميزان، الذي يوزن به مقدار ما عليه الأمم مـن الضـلال أو الرشـاد. لكـي لا يضـيع منكم هذا الميـزان حـافظوا علـى صـلاح بـواطنكم بإقامـة الصـلاة وإيتـاء الزكـاة والارتباط بحبل الله، الـذي قـربكم ولطـف بكـم وأحـاطكم بعنايتـه. إن تلكـم العنايـة صادرة من الله نعم المولى ونعم النصير. لا راعي غيره ولا ناصر سواه.

بيان المعنى العام :

75-الله يصطفي ..سميع بصير.

شنعت الآية 72 بموقف الكـافرين مـن الـذين يتلـون علـيهم آيـات الله. وممـا يؤكـد عنادهم واستكبارهم، أن هؤلاء التالين لآيـات الله هـم أكمـل المخلوقـات سـواء أكـانوا من الملائكة الذين تلقّوا الوحي فبلغوه للرسل، أو كـانوا مـن البشـر الـذين شـرفهم الله بإبلاغ هدايته . إن اختيارهم للمهام العالية التـي انتُـدبوا إليهـا هـو مـن الله. والله أعلـم حيث يجعل رسالاته (سورة الأنعام آيـة 124) يتأكـد فضـل اختيـاره واصـطفائه بـأن علمه محيط بكل شيء .ولـيس لأحـد سـواه أن يحـيط بحقـائق الأمـور وتتكشـف لـه الخفايا انكشاف الظواهر .

76-يعلم ما بين أيديهم .....ترجع الأمور .

ومع كون اختياره سبحانه هو أكمل اختيار، فإن ما يشغب به الكافرون لا يخفى شيء منه على الله. فتهددهم الآية بأن ما يكتمونه وما يعملون على إخفائه وستر سوء نواياهم لا يخفى على الله، فهو يعلم ما سيحصل منهم في المستقبل، ما بين أيديهم، كعلمه بما حصل منهم في الماضي ما خلفهم. ويمكن أن تفهم الآية على أن الاختيار الإلهي للملائكة والرسل هو اختيار حكيم، لأن الله يعلم ما سبق من الملائكة والرسل من أعمال ونوايا، ويعلم ما سيحصل منهم في المستقبل، فصفاؤهم صفاءً صحبهم من قبل وسيصحبهم في المستقبل .

و إلى الله وحده لا إلى أحد غيره يرجع الجزاء عن كل فعل ونية، ما كان منها صالحا خيرا وما كان منها قبيحا سيئا.

77-يا أيها الذين آمنوا ... لعلكم تفلحون .

توجه الخطاب إلى المؤمنين بعد أن استوفى تقريع الكافرين وفضح ما يدبرونه وشنع عليهم تحريفاتهم وسخافتهم في تأليه من هو أضعف من الذباب.

توجه الخطاب مناديا للمؤمنين بنداء التكريم، بوصف الإيمان، آمرا لهم بأن يلتزموا بأداء العبادات التي شرعها لهم.

وأول ما ذكّرهم به ليحافظوا عليه إقامة الصلاة، التي هي ركن الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن أضاعها فهو لما سواها أضيع. وهي العقد الواصل بين المرء وربه. وعبر عن المحافظة على أداء الصلوات بالأمر بالركوع والسجود؛ إذ هما الخاصية الظاهرة للصلاة. وبالمواظبة على الصلوات وإقامتها في أوقاتها على أكمل وجه تنشرح روح المؤمن للاتصال بربه، وتزكو أشواقه للعبادة، ولذلك عطف على إقامة الصلاة الأمر بالعبادة المشروعة من صيام وحج وذكر. وثلث بأن طلب منهم أن يفعلوا الخير. وهو أمر جامع للإقبال على ما ينفع الناس من زكاة وصدقات، وما يوثق الصلة بين أعضاء الأمة كصلة الرحم وإغاثة الملهوف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصالح السلوك المتمثل في مكارم الأخلاق.

إنكم إذا نفذتم ما أمرتكم به تكونون في وضع ترجون معه الفلاح، فرجاء الفلاح هو رجاء المؤمنين النجاح في حياتهم الدنيا والآخرة.

<u>ملاحظة:</u> اختلف الفقهاء، هل إن التالي إذا بلغ قوله تعالى: [لعلكم تفلحون] مطالب بالسجود؟ فالذي رجحه مالك وأبو حنيفة والثوري أنه ليس موضع سجدة، والذي رجحه الشافعي وأحمد وإسحق وكثير من الفقهاء أنه موضع سجدة.

78- وجاهدوا في الله حق جهاده...ونعم المصير.

بعد الآية الجامعة الداعية للقيام بما ضبطه الإسلام من واجبات وسلوك، عطف القرآن على ذلك الأمر بالقيام بتعميق المنهج في النفس بجهاد دواعي النفس والاسترخاء للشهوات، وبنشر الإسلام والقتال في سبيل إعلاء كلمته ممن يهاجم الأمة أو يعترض حرية الدعوة. أمروا أن يكون جهادهم خالصا لله لنصر دينه.

هو الله العزيز الجليل العليم، اختاركم أيها المؤمنون لتكونوا أمة محمد خاتم الرسل، ووالى عليكم تكريمه وفضله، فمن ذلك أنه يسر عليكم القيام بما فرضه عليكم، وكلما وجد العابد نفسه في ضيق، وعسُر عليه الامتثال يجد التشريع يسعفه بالتيسير. ثمّ عرف بمزية أخرى للإسلام، وهو أنه دين يلتقي في أصوله رسولان إبراهيم أبو الأنبياء، ومحمد ﷺ خاتمهم. ارتبط دين إبراهيم بالبيت الحرام، فكانت قبلة المسلمين في صلاتهم، وارتبطت مناسك الحج بمكة التي اختص إبراهيم بأنه أول من دعا الناس للحج، ثم أحيا ذلك محمد وبأنه كان حنيفا مائلا عن كل الطرق التي ضل الناس بسببها عن الصلة بالله على النحو الذي يرضاه، وكان محمد حنيفا أيضا. فالراجح عندي أنها أبوة الشريعة لا أبوة الدم والنسب.

هو الله العظيم الجليل العليم، شرفكم بأن سماكم " المسلمين " وكفاكم بذلك شرفا وامتيازا. ادخر لكم هذا الاسم من قبل نزول القرآن ثم أثبته لكم فيه، كقوله تعالى: (فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)[1]

تخيّركم لتكون صلتكم بمحمد صلة ثابتة، فهو الشاهد عليكم يوم القيامة: أنكم آمنتم به ونصرتموه. وكفى بشهادته مخلصا لكم من أهوال يوم القيامة. ثم شرفكم بأن جعل شهادتكم ماضية على غيركم من الأمم، لكم الوصاية على البشر جميعا بما حفظه لكم من موازين الحق والعدل والتصور الصحيح لمنزلة الإنسان في الكون. تشهدون على الأمم التي طواها التاريخ، وعلى ما هو حاضر إلى يوم الدين. تستندون في ذلك إلى ما أوحى الله لرسوله وبلغه إليكم، فكنتم بذلك عالمين بموقف الأمم من رسلهم، وشهادتكم مقبولة عند رب العزة، ولا يستطيع المشهود عليهم أن يطعنوا فيها.

هذه النعم التي تم التذكير بها من اختياركم، وتسميتكم المسلمين من قبل أن ينزل القرآن ومع نزوله، إلى شهادتكم على البشرية الشهادة المقبولة التي لا مطعن فيها، كل ذلك مما ينبغي أن يحرككم لشكر نعم ربكم عليكم. وشكره سبحانه يتم

[1] سورة آل عمران آية 64

بالقول، وبالعمل الـــذي منــه أداء الصـــلاة علـــى الوجـــه الأكمـــل الصـــلاة المســـتجمعة لأركانها وشروطها وآدابها، التي يسمو فيهـــا المصـــلي إلـــى استحضـــار نفســـه مناجيـــا لربه خاشعا متبتلا، وبإيتاء الزكاة طائعا بهـــا يجـــد فيهـــا لـــذة مســـاعدة إخوانـــه ورفـــع الخصاصة عنهم، وبالاستحضار الحـــي النـــابض بـــأن ملجـــأكم وقـــوتكم الحاميـــة هـــي رعاية ربكم لكم. إنه إذا انفلتم عنه لحظة فقـــدتم كـــل قـــوة وكـــل توجيـــه للقصـــد. إن الله هو وحده الذي يرعى عبيـــده ويحقـــق لهـــم مـــا يصـــلحهم. والله نعـــم المـــدبر لشـــؤونكم الناصر لكم. وبهذه الوصـــاية الجامعـــة ينعطـــف ختـــام الســـورة علـــى فاتحتهـــا. كانـــت الفاتحة " يا أيها النـاس اتقـــوا ربكـــم " وأتـــت الخاتمـــة مفصـــلة للتقـــوى مؤكـــدة علـــى ضرورة الالتزام بها لتحقيق الفلاح.

اللهم لك الحمد والشكر على ما أعنت ويسرت، فقـــد أكملـــت تفســـير ســـورة الحـــج يـــوم الجمعـــة 23شـــعبان 1433- 2012/7/13- أدعـــوه ضـــارعا أن ييســـر لـــي إكمالـــه، وأن ينفع به المـــؤمنين والمؤمنـــات وأن يجعلـــه خالصـــا لوجهـــه الكـــريم، وأن يتغمـــد والدي ومن علمني بواسع رحمته وجزيل فضله .

ســـــورة المـــؤمنون

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به السورة أخذا من فاتحتها ومما تلاها من الأيات التي حددت ملامح المؤمنين، ويسمونها أيضا سورة الفلاح أخذا من قوله: قد أفلح. وجرى على بعض الألسنة: سورة قد أفلح "

وهي سورة مكية، هي الثالثة والعشرون حسب ترتيب المصحف الشريف. وعدت السادسة والسبعين حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة "الطور" وقبل سورة الملك.

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفلاح : الفوز بالمطلوب، وصلاح الحال.

الخشوع: حالة تستقر في الروح تكون بها مستحضرة جلال الله وأنها بين يديه.

اللغو : سقط القول، والكلام الباطل.

الإعراض: الصد، أي عدم الإقبال على اللغو.

الحفظ : الصيانة.

اللوم : الإنكار على الغير ما صدر عنه مما لا يرضاه المنكر.

العادي : الظالم بتجاوزه الحد.

يرثون : يستحقون.

الفردوس : اسم من أسماء الجنة

بيان المعنى الاجمالي :

تأكيد من الله أن الفوز قد تحقق للذين عمر الإيمان قلوبهم. الذين من أخص صفاتهم أنهم مواظبون على أداء صلاتهم مستحضرون موقفهم بين يدي الله، خشعت بواطنهم وظواهرهم .والذين يمقتون سقط القول وباطله فمجالسهم وأحاديثهم مصبوغة بالجد. وهم حريصون على القيام بأداء الزكاة وإبلاغها لمن يستحقها.

و الصفة التالية المنوه بها الموجبة للفلاح، هي العفة فهم يحصنون فروجهم ويحفظونها من الزنا ونحوه، وصرحت الآية باستثناء الإشباع الجنسي بواسطة الزواج أو المملوكات، فإن ذلك مأذون فيه لا يلام فاعله. وأكدت الآية أن من تجاوز هذا الحد، الزواج والملك، يعتبر متجاوزا لما حدده الله معرضا للعقوبة.

وجمعت الآية التالية بين صفتين: حفظ الأمانة والوفاء بها، وحفظ العهد وعدم نقضه. فالمفلحون هم الذين لا يغفلون عن واجب حفظ الأمانة التي استودعها المؤمن عند المُؤمن، يحتفظون بها، لا يدخلون عليها أي تغيير، ويؤدونها لصاحبها بدون مماطلة. كما أنهم يراعون ما التزموا به، مراعاة من يوفي بما التزم حتى يكون الطرف الثاني مطمئنا للعلاقة.

و يعود القرآن منوها بالمحافظة على أداء الصلوات في أوقاتها، وأن المحافظ على أداء صلواته في أوقاتها من المفلحين. فتجمع صورة المفلحين، بين الذين حل الخشوع قولهم وظواهرهم وهم يؤدون صلواتهم، وبين المحافظين على القيام بالصلوات في أوقاتها ولا يغفلون عنها.

أشار القرآن في ختام عرضه لصفات المؤمنين المفلحين، مميزا لهم بأنهم يستحقون أفضل ميراث يوم القيامة، هو منزلة الفردوس في الجنة، وهم آمنون من الخروج منها، أو التحول عنها.

بيان المعنى العام :

1 -قد أفلح المؤمنون.

مع التأكيد الكامل نثبت أن المؤمنين قد فازوا بنيل ما كانوا يرجونه. قال ابن إسحق: المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا، ونجوا من شر ما هربوا. بايع المؤمنون رسول الله ﷺ ، وقد انشرحت صدورهم لما جاءهم من الوحي، وما نزل عليهم من القرآن، وتحولوا من اللهث وراء متع الحياة الدنيا إلى العناية بتحقيق القيم العليا التي جاءهم بها الدين فسمت أرواحهم إلى مرضاة الله، وبعد أن كانت الدنيا كل همهم ولا رابط يربط بين أجزائها، انتظمت عندهم في سلك مصدره رب العالمين، يشعرون بأنهم مؤتمنون على الخير والصلاح وحسن الاستخلاف في أرض الله . إنها مهمة ضخمة، هي الأمانة التي نوه بها

القرآن. ومن تربية القرآن أن المؤمن يحاسب نفسه، ويرى الكمال درجات كلما صعد درجا من السلم دعاه إيمانه ليسمو إلى الدرجات التالية، وكشف له ذلك عن مقدار تقصيره فيما سبق. فبادرت فاتحة السورة مطمئنة المؤمنين الصادقين إلى أنهم فازوا حقا برضوان من الله، رضوان يفتح لهم أبواب الجنة يوم القيامة، كما يمكنهم من العزة والسؤدد في الدنيا.

2- الذين هم في صلاتهم خاشعون.

يتلو الإيمان هذا الوصف الشريف الذي يعتبر الكوكب المشع في كيان الإنسان الذي يضيء له مسالك حياته . هو مركب من أمرين: الصلاة، والخشوع فيها. فالصلاة هي العبادة التي تنادي المؤمن بصفة متكررة كل يوم. فيستجيب للنداء وهو مقبل على نشاطه الدنيوي فتحيي فيه صلته بالله، فلا تتمرد غرائزه وحبه لمباهج الحياة ويُخضع سلطانها لسلطان داعي الرحمن.

والصلاة التي نوه بها القرآن ليست الحركات التي يؤديها المصلي، وهو لاه عنها متعلق قلبه بمغريات الحياة وهموم الدنيا، تحدثه نفسه فيسترسل معها، ولكن الصلاة التي شرعها الله طهارة للروح لتسمو إلى مناجاة ربها، لا تحقق غاياتها النبيلة إلا إذا صحبها الخشوع، الذي هو استحضار المؤمن أنه بين ربه يناجيه، وبمقدار ما يستحضر العابد عظمة المعبود يحل الخوف في مشاعره، وليس الخوف الذي يتبعه البعد، ولكنه الخوف الداعي إلى مزيد من القرب والشعور بالجلال . وهي معاني تعمر القلب وتظهر آثارها على الأعضاء فالخاشع لا يعبث ولا يلتفت ولا يشغله ما تنقله له الحواس. وبمقدار ما يراقب المصلي قلبه وهو يصلي بمقدار ما يسمو في مراتب الكمال . يقول الشاعر:

ألا في الصلاة الخير والفضل أجمع ***لأن بها الآراب (الأعضاء) لله تخضع
وأول فرض من شريعة ديننا *** وآخر ما يبقى إذا الدين يرفع
فمن قام للتكبير لا قته رحمة *** وكان كعبد باب مولاه يقرع
وصار لرب العرش حين صلاته *** نجيا فيا طوباه لو كان يخشع

3-والذين هم عن اللغو معرضون.

الصفة الثالثة للفائزين جدية الحياة، لا تسمع في مجالسهم سقط الكلام، فهم في ذواتهم لا ينزلون في حديثهم إلى مراتب السفهاء، وإذا طرق اللغو أسماعهم لا يسترسلون مع قائله ويعرضون عنه. وهذا مما يفيد أن الإيمان يسمو بأهله إلى مقامات رفيعة ويربيهم على الشهامة.

4- الصفة الرابعة: شعورهم بالتضامن مع المحاويج، الشعور الذي جعلهم يعطونهم الزكاة . وإنك لتجد القرآن يقرن كثيرا بين أداء الصلاة وإيتاء الزكاة، نظرا إلى أن الصلاة ترفع المستوى الإنساني فيبلغ المصلي الخاشع رتبة تقربه من ربه، يرى بها العائلة الإنسانية وحدة تجمعها العبودية لله. وتقرض مد يد العون من كل عضو منه لبقية الأعضاء. وفي التعبير هم للزكاة فاعلون جمال في التعبير، وتحقيق للقيام بها.

5-7«والذين هم لفروجهم حافظون ...فأولئك هم العادون»

الصفة الخامسة المنوه بها، هي العفة. فالمؤمنون هم الذين لا يدفعهم إشباع الشهوة الجنسية إلى فوضى الاتصالات، مجتمعهم نظيف من العلاقات الجنسية غير المشروعة، المهدمة للأسرة ما كان منها بين الرجل والمرأة وما كان منها بين الوالدين والأولاد. يستجيبون للفطرة ويقضون شهوتهم، ولا يعتبرون ذلك نزولا عن مراتب الرفعة. فالميزان أن الفوضى شر على الفرد وعلى الإنسانية، والرهبنة أيضا شر على الإنسانية، يبدو ذلك جليا بتقدير أثرها لو عممناها.

فالمؤمنون هم الذين يشبعون غريزتهم الجنسية بواسطة الرابطة التي أقرها الإسلام والتي لا تخرج عن نوعين: الاستمتاع بالزوج على ما ضبطه الإسلام من شروط وأحكام. والاستمتاع بالمملوكة التي أسرت في الحرب، على القانون السائد في العلاقات الدولية عند نزول الآية.

و مما ينبغي التنبيه إليه أن العلاقات في الحروب بين الدول يوم نزول القرآن وقرونا بعد ذلك، أنه يتم استرقاق الأسرى. ولا يقبل أن يسترق الأعداء أسرى المسلمين، والمسلمون لا يسترقون أسرى الأعداء. ولكن الإسلام فتح أبواب تحرير العبيد باعتبار ذلك قربة يتقرب بها المحرر إلى الله، وبجعل التحرير وسيلة التكفير عن اليمين، أو في القتل، أو في الظهار، أو بواسطة الوصية بالعتق بعد الموت، أو بالمكاتبة. فلما اتفقت دول العالم على وقف الاسترقاق وجد المسلمون في هذا الاتفاق ما يساير اتجاهه العام.

وصرحت الآية بالنظرة الإسلامية وإن كانت مفهومة من المقام: إن الإشباع الجنسي المشروع لا يلام صاحبه، بل جاء في السنة أن الذي يقضي شهوته في الحلال هو مأجور عند الله . كما صرحت الآية أن الاشباع الجنسي فيما عدا الزواج المستجمع للأركان والشروط ، والتسري، يعتبر في نظر الإسلام تعديا من فاعله على ما حرمه الله، وصاحبه معرض للعقاب. فشمل الزنا، واللواط، والعادة السرية، ومواقعة البهائم .

8-والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون.

جمعت الآية فضيلتين: أداء الأمانة – وحفظ العهد– وكل واحدة منهما مستتبعة للفلاح والفوز.

أما الأمانة فهي صفة تكشف عن الثقة السائدة في المجتمع. فشأن الإنسان إذا كان يملك شيئا يظن به ويخشى عليه الضياع او التعدي، وخاصة عند مغيبه أو زمن ضعفه بكبر أو مرض، أن يستودعه عند أخيه ليحفظه له. والغالب أن يكون الائتمان في السر يسلمه الأمانة بعيدا عن أعين الناس، ودون إشهاد. والمفلح هو الذي لا تحدثه نفسه بجحد ما اؤتمن عليه، ولا يماطل صاحبها، ولا ينقص منها، ولا يغير منها شيئا، فيردها على صاحبها كما أخذها. وجزاؤه أنه بهذا الوصف يكون من الفائزين المفلحين.

و أما حفظ العهد، فإنه يبين قيمته وخطره، أن الإنسان ينظم حياته، متجاوزا الحاضر إلى ما يستقبل، ولما كان الإنسان مدنيا بطبعه فترتيبه لحياته المستقبلية تكون بتوثيق التزاماته بغيره والتزامات غيره له، وبذلك تسير الحياة متطورة مستقيمة آمنة. فكل من التزم لغيره أمرا مشروعا بنى عليه الملتزَمُ له اختياراته وقراراته مسؤول عن تنفيذ ما التزم به. والوفاء بذلك دون تأثر بما يترتب عليه من فائدة للواعد المعاهد يسمو بالموفي بالعهد إلى مرتبة الفلاح. وإن تأثير الوفاء بالعهد يتجاوز العلاقة الثنائية إلى الآثار الإيجابية للأمة في علاقاتها الاقتصادية وفي نظرة الإكبار للإسلام وأهله.

وكما أن الزكاة أمانة في مال المزكي مسؤول عن إبلاغها لأصحاب الحق، كذلك ما أؤتمن عليه المؤمن من أخيه المؤمن ليحفظه له، وما التزم به من عهود؛ كل ذلك داخل تحت مظلة الأمانة، فظهرت المناسبة بين الزكاة وبين حفظ الأمانة والعهد.

9- والذين هم على صلاتهم يحافظون.

هذه الآية تختم الإطار الذي يشمل المفلحين الفائزين بإبراز المحافظة على الصلوات وعدم تضييعها.

إن الإنسان موزع بين إقباله على ما تقتضيه حياته المادية من اهتمامات وما يتبع ذلك من ضروب النشاط التي قد تستولى عليه فتنسيه صلته بربه، وتعتم على ذلكم الخيط النوراني الذي تسمو به روحه إلى خالقها، وبين داعي الله خالقه ليكون على صلة متجددة به، بما يحفظ توازنه النفسي والروحي.

فرض الله الصلاة محققة لذلكم التوازن؛ فكلما لَفَتَ المادة على الروح، وكلما زاد الشيطان من إغرائه للاندماج في مطالب الحياة وزينتها، يقوم داعي الصلاة يعيد للنفس توازنها وللروح الصفاء. فإذا حافظ المؤمن على أداء صلواته في أوقاتها أسعفه ربه باحتفاظه بتوازنه، وبالطمأنينة الراضية. وبذلك يكون من المفلحين.

10←11- أولئك هم الوارثون...هم فيها خالدون.

جمعتهم الأيات، ووضعتهم في إطار واحد مميزين مشيرة إليهم، محققة أنهم سيكونون المستحقين للميراث النفيس، وأي ميراث هو ؟ هو الفردوس، منزلة رفيعة من منازل الجنة. وهم في الجنة آمنون ببقائهم فيها لا يخرجون منها أبدا.

روى الترمذي بسنده إلى سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ: قد أفلح المؤمنون حتى ختم عشر آيات.

تمثل هذه الآيات البناء الإسلامي للروح والعمل الذي به يظهر النمط الإسلامي في تكوين الإنسان مميزا عن كل التشريعات والفلسفات الأخرى.

يتمثل البناء في القاعدة التي منها تفرعت عنها بقية الطوابق التي بها تم الهيكل العام. القاعدة هي الإيمان الذي ينساب إلى الروح والعقل والجوارح فيقيمها على منهجه. وهو الأساس الذي بدونه ينهار كل ما ركب بدونه. ويتلو هذه القاعدة القلب المستحضر لجلال الله الخاشع عند إقامة الصلاة فتحصل من ذلك كيفية في النفس تراقب الله في مختلف ضروب النشاط . ويسمو المؤمن المصلي الخاشع، فيتحكم في لسانه ويترفع عن باطل الكلام، ويحصن سمعه من الاسترسال في متابعة كلام السفهاء. ويتعمق إحساسه بصلته بإخوانه المؤمنين المحتاجين ويذهب من نفسه داء الأثرة والشح، فهو الفاعل للزكاة. وتبقى غريزة متمردة مفسدة للنسيج الاجتماعي قوية وعنيفة، هي الغريزة الجنسية، فيطوعها المؤمن المفلح لتقوم بوظيفتها في بقاء النوع، ويضبطها بحدود الشرع، ويبعد بها عن المستوى الحيواني الذي لا يهمه إلا لحظة الشبق. ثم المفلح هو ذلك الأمين الذي تحمد خصاله ويوثق به في القرب والبعد، فهو حافظ لما اؤتمن عليه من الأموال، حافظ لالتزاماته . ومن أهم الالتزامات الركن العملي الأول في الإسلام: الصلاة، فهو يقظ لنداء الله يرقبه ويقوم بأداء الصلوات في أوقاتها. وحقيق بهذه الصفات أن تكون الفرد الصالح الفالح، والأمة الراشدة القوية .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الخلق : الإنشاء والصنع.

السلالة : الشيء المسلول، المنتزع.

مكين : لا يقلع من مكانه.

بيان المعنى الإجمالي :

تعرض هذه الآية بناء الإيمان على النظر في تفرد الله بخلق الإنسان. وعلى ما في هذا الخلق من عجيب الصنع والحكمة. أصل خلقه وارد من خلاصة من الطين تحولت من عناصر الأرض إلى مما يتغذى منه الإنسان مباشرة وما تحول إلى لحم ولبن في الحيوان ليدخل الجميع في أجهزة الهضم، ثم تجري خلاصته دما يعطي لكل جهاز ما هو في حاجة إليه ليقوم بوظائفه. فتقوم الأجهزة الجنسية في الذكر بتكوين الحيوان المنوي، وتنمو البييضات وتخرج من مبيض الأنثى لتلقح بمني الذكر، وتندمج لتنغرس في جدار الرحم متمكنة منه يغذيها دم الأم فتنمو ويتحول النسيج إلى علقة ثم إلى قطعة صغيرة هي بالمقياس العادي كالمضغة من اللحم، ثم تأخذ الخلايا في التخصص فتكون الخلايا العظمية العظام، وتكون خلايا أخرى اللحم الذي يكسوها، وهكذا تتكون شيئا فشيئا أجهزة جسم الإنسان فيصبح خلقا آخر تتآلف فيه عناصر الروح والعقل والمشاعر والمادة. تبارك الله الذي خلق الإنسان هذا الخلق العجيب وخلق الكائنات كلها.

يوقظ القرآن الإنسان إلى أنه بعد تلك المراحل التي تبلغ به كمال نموه واقتداره على الخلافة في الأرض، سينتهي إلى الموت، وكما نشأ من الأرض سيعود إليها. وهي عودة سيبعث بعدها إلى الحياة ليلقى جزاءه، وهي بالنسبة للمؤمنين مرحلة الكمال التي لا يشوبها نقص.

بيان المعنى العام :

12←14، ولقد خلقنا الإنسان من سلالة ...فتبارك الله أحسن الخالقين،

يقوم خلق الإنسان شاهدا ودليلا على عظمة الله الخلاق العليم وعلى تفرده بالإنشاء، بكل تأكيد ما تصرف في الكون فخلق وأنشأ الإنسان إلا الله رب العالمين. ولقد خلقنا الإنسان. فإذا كانت السورة افتتحت بالتنويه بالمؤمنين الذين كتب لهم الفلاح والنجاح، فإن الدليل على قاعدة الإيمان تفصلها هذه الآية، الإيمان أولا بأن الله هو خالق الإنسان على طريقة محكمة تقوم كل مرحلة من مراحل الخلق منادية بتفرده بالخلق والتدبير. ويوقظ الإنسان بلفت نظره إلى مراحل التكوين الإنساني. انتزعت من الطين سلالة منها ابتدأ الخلق، تقودها في أطوارها العجيبة حكمة وتقدير بالغ. هو الطين الممثل لأجزاء الأرض يدخل في النبات والحيوان فيتغذى منه الإنسان ويتحول إلى دم يغذي كل جهاز من أجهزته ليقوم بوظيفته المقدرة له. يسري في الدماغ، وفي الجهاز التناسلي، في أجهزة الذكورة إلى أن يُفْرز مني من الرجل، وفي مبيض المرأة وفي رحمها، فتنفصل البييضة التي تكون مستعدة لقبول الحيوان المنوي الذي يندمج فيها، وتتحرك نحو جدار الرحم عبر قناة فالوب، فإذا بلغت مكانها استقرت فيه متمكنة منه. تنمو الخلية الأولى المتكونة من ستة وأربعين وحدة نصفها من لقاح الذكر ونصفها من بييضة المرأة، فتنمو بالانقسام وهي في طريقها حتى، تلتصق بجدار الرحم الذي يحتضنها ويمدها من دم الأم بما تواصل به نموها .وتحولُها من وضعها الأول إلى تطوراتها التالية يتم بخلق الله .ثم خلقنا النطفة علقة. ثم تتكاثر ملتحمة في نسيج مستعد إلى ظهور آثار التمايز فيه حتى تبلغ في نموها إلى مستوى مضغة من اللحم. وإثر ذلك يبدو آثار التمايز الذي كانت المضغة مستعدة له. فتتكون الخلايا الأولى للعظام، والخلايا التي ستكسو العظام باللحم.

هي مراحل متتابعة من التطور، خلق الله فيها الاستعداد للتحول الكبير المفضي إلى الانتقال من الحياة الحيوانية النامية، إلى الحياة الإنسانية العاقلة الجامعة بين المادة والروح والعقل والمشاعر. عبر القرآن عن ذلك بقوله: ثم أنشأناه خلقا آخر.

إنك إن تأملت في الجهاز العقلي، في الدماغ وما ينساب منه خلايا الإدراك والتعقل، وتوجيه كل جهاز من أجهزة الجسم ليستجيب الاستجابة الخاصة لكل مؤثر، ويبلغ كل إحساس، ويضبط كل رجع من الأرجاع، والنظام العام والخاص، إنك ستجد مجالات استقطبت جهود العلماء عبر القرون لكشف أسرارها، والتي كلما بلغت مستوى من الكشف، انفتحت أبواب أخرى تنادي بمزيد من التعمق ليجد الإنسان لذة كشف ما هو مجهول لديه، ولينعم بالتأمل في كمال الخلق الإلهي، وينشئ معتبرا ومعبرا عما استقر في نفسه بقوله: تبارك الله أحسن الخالقين . هو

الموصوف بالعظمة فيما قدره من خير للناس، وهو عظيم في خلق الإنسان وفي كل ما خلق .

15←16، ثم إنكم بعد ذلك....يوم القيامة تبعثون.

هذا الخلق العجيب، الذي ابتدأ ضعيفا من سلالة من طين، ثم تطور إلى أن أصبح الإنسان المكتمل الخلق، القوي بمداركه ليقوم بالخلافة في الأرض. قد يتملكه العُجب بقوته وذكائه، وتطويعه كثيرا من الكائنات لخيره، فيوقظه القرآن ويهزه ليرفع عنه حجاب الغفلة بواسطة أمر يتكرر على سمعه ونظره. هو الموت الذي يأتي على كل إنسان فيعود إلى نقطة البداية، كان معدوما وينتهي إلى العدم. وهذه الحقيقة يجب أن تفتح بصيرته على أمر آخر أهم، هو أنه كما خلق أولا سيعود إلى الحياة من جديد، هو البعث الذي يبلغ فيه المؤمنون مرتبة الفوز. فمراحل التطور التي كان ينتقل فيها من مرتبة إلى مرتبة أخرى، وهو في كل منها لا يخلص له وضعه بل هو مشوب بالنقص، إنه بعد البعث تبلغ النفس المؤمنة كمالها. وتتصل الآية بفاتحة السورة: قد أفلح المؤمنون....

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

الطرائق : جمع طريقة، وهي المسارات التي ينحصر فيها سير وحدات العالم العلوي.

عن الخلق غافلين : عنايتنا موفورة بالمخلوقات، في اتقان خلقهم، ومصالحهم وتطوراتهم.

بقدر: الضبط للكم والزمن.

أسكناه : اختزناه في الأرض اختزان قرار.

الجنة : القطعة المشجرة من الأرض .

الفواكه : جمع فاكهة وهو ما يتلذذ بأكله دون قصد اقتيات.

طور : جبل.

سيناء : سيناء هى المكان الذي به الطور.

الدهن : ما يطلى به الجسم من الخارج .

الصبغ : أصله ما يغير اللون وتوسع فيه للدلالة على الخبز عندما يغمس في الزيت

العبرة : الدليل .

تحملون : يشمل الركوب وحمل الأثقال.

بيان المعنى الاجمالي :

بكل تأكيد خلقنا سبع طرائق تسير فيها الأجرام السماوية سيرا منتظما لا يختل، فهي على عظم أجرامها وقوة اندفاعها فى سيرها لا يصطدم بعضها ببعض، وفوق ذلك في تقديرنا جعلناها مرتبطة بالإنسان وإن كان هو لا يدرك تلكم الأسرار.

و ظاهرة تتكرر على الكون: أنا وحدنا، أنزلنا من السماء ماء حددنا مكان نزوله ووقته والمقادير التي ينزل بها. ومن كمال الدقة في الصنع أنا جعلنا الأرض تقبل الكميات النازلة من الماء لتحتفظ بها في القشرة الظاهرة، أو تفتح له مسالك لينفذ إلى مخازن في جوفها تتكون منها العيون، أو يصل إليه الطالب بواسطة حفر الآبار. ولا تذهلوا فإن بقاء انتفاعكم بتلك الموارد المائية مرتبط بإرادتنا، فنحن قادرون على رفعه.

ثم إننا أنشأنا من الماء ومن حاصل امتزاجه بالأرض جنات لتتعموا بما تنبته من النخيل والأعناب والثمار المختلفة الألوان والأشكال والطعوم، وكثرنا في خصائص كل نوع منها. ومن تلك الجنات تحصلون على ما تأكلونه .وخص من بين ما تنبته الجنات بالتفصيل شجرة الزيتون، المكان الأول الذي نبتت فيه كان بجانب الطور الذي كلم الله فيه موسى من أرض الشام. حصلت فيها البركة بالجوار، وتعددت منافعها، فزيتها صالح للاستعمال الخارجي فتدهنون به أبداكم وترجلون شعوركم وتنتفعون به في كثير من مستحضرات التجميل. كما هو صالح للاستعمال الداخلي، فتغمسون فيه الخبز ليكون إداما لذيذا.

وبكل تأكيد تجدون في الأنعام عبرة ترشدكم لما يُمكّنُ اليقين بأن الله تفرد بالخلق وأجراه على نظام دقيق. تشربون مما تفرزه بطونها من ألبان سائغة للشاربين، ويسر لكم منافع كثيرة منها، وأحل لكم لحومها جامعة بين اللذة والقوت. كما سخرها لتركبوها ولحمل أثقالكم، كما تحملها السفن التي ألهم الله نوحا عليه السلام صنعها.

بيان المعنى العام :

17 -ولقد خلقنا فوقكم .... وما كنا عن الخلق غافلين.

بعد أن حرك القرآن عقل الإنسان ليتأمل في مراحل تطوره العجيبة، وما صحبها من لطف الله وبديع صنعه، حقق له بعض ما تحويه العوالم المحيطة بالأرض وما بنيت عليه من الدقة في الإنجاز، وضبط كل جزئية منها، لينضاف ذلك إلى أدلة خلق الإنسان، كما قال تعالى: (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس)[1] ليوقن أن الله وحده هو الخالق والمتصرف والمبدع ؛ فذكرت الآية أن الله خلق سبع طرائق.

الأقرب أن تفسر الطرائق بالمسارات التي تسير فيها المجرات بما تحويه من الأجرام السماوية التي لا يعلم كنهها وعددها على التفصيل إلا خالقها. يحصر القرآن تلكم المسارات في سبع رتبها ونظمها بحكمته، تتحرك فيها الكائنات العلوية بسرعة كبيرة جدا دون أن تصطدم ببعضها. ولا أستطيع أن أفصل القول في هذا أكثر مما يوحي به ظاهر الآية هذا. وكلما تقدم العلم وتهيأ له من وسائل الكشف ما يستطيع به الدخول إلى العوالم العلوية يدرك ضآلة قدراته العلمية والعقلية عن بلوغ النظرة المستوعبة، لما يجري في تلكم العوالم. فأقام الله سبحانه أسرار خلقها دليلا مستمرا متجددا على حكمته من ناحية، وعلى أن الحكيم لا يخلق الإنسان عبثا يفعل الخير أو الشر دون أن يرتب على عقيدته وسلوكه ما يتلاءم مع ما قدمه.

و حمل بعضهم الطرائق على ما يفيد أنها طبقات يعلو بعضها بعضا، كما فسرت بالمبسوطات. ويبدو لي أن التفسير الأول أقرب، لوضوح ارتباطه بالإنسان، الذي ختمت الآية بتحقيق أن هذه الطرائق مع ما في انتظامها من دقة الارتباط بينها، ما يضمن له استمرار وجودها إلى الأمد الذي قدر لها، مع ذلك راعى الخالق الحكيم ملاءمتها للبشر سواء في حياتهم الأولى أو في آخرتهم؛ كما جاء في قوله تعالى: (وفي السماء رزقكم وما توعدون)[2] فنفت الآية عن الله أن يكون عند خلقه للطرائق لم يشمل بحكمته البالغة ارتباطها بالإنسان: وما كنا عن الخلق غافلين.

18 - وأنزلنا من السماء ...لقادرون.

اندمج في الآية أمران مهمان . أحدهما المنة والفضل بإنزال الماء من السماء الذي ارتبطت به حياة الإنسان والأنعام والنبات وحتى الصناعات. وثانيهما إيقاظ الذهن

---

[1] سورة سبأ آية 57

[2] سورة الذاريات اية (22

إلى ما في إنزال الماء من الدلالة على كمال القدرة وإحكام الصنع. فاتفقت آية خلق الإنسان وخلق الطرائق السبع في السماء، مع هذه الآية على إظهار مشاهد من الخلق تحقق الإيمان الذي افتتحت به السورة: قد أفلح المؤمنون -

و قد تكون ظاهرة إنزال الماء من السماء، تبعا لتكرر مشهدها على الأبصار، تمر دون أن يقع الانتباه إلى ما تحويه تلكم الظاهرة من الترتيب والربط بين جوانب عديدة ومتباعدة جمعتها يد الحكمة الإلهية وبلغت بها غايتها. فمياه المحيطات والتبخر، وتجميع الأبخرة، والرياح التي تسوقها وتجمعها، والمقادير من الرطوبة، ومستوى والبرودة في الجو، وغير ذلك من الظواهر الطبيعية، والشحنات الكهربائية في السحب، واتجاه الرياح، وقوتها أو ضعفها، وقوانين تبسط في العلوم المرتبطة بتلك لظاهرة، كل ذلك مما يقوم شاهدا على تفرد الله بالخلق. ومن بديع التعبير: قوله تعالى: وأنزلنا بإسناد الإنزال إليه مع الحضور والعظمة ليوحي إلى المتأمل ما يجعله خاشعا أمام عظمة إنزال الماء من السماء، وأنه لا يتأتى من أحد غير الله الكامل.

وتضيف الآية إلى أن هذا الإنزال هو في زمانه ومكانه ومقاديره، يتم بحكمة تتحقق بها النعمة والفضل. وأنه لو سمح للمياه أن تنزل على الأرض متتابعة دون توقف لغرقت الكائنات وهلكت، وأن نفعه لا يتوقف على وقت إنزاله فإن الله قد جعل في القشرة الظاهرة من الأرض قابلية اختزان ما ينزل الماء لتروي به النباتات في أزمنة لاحقة. كما جعل في طبيعة الماء وطبيعة تركيب الطبقات الأرضية ما يستطيع به الماء النفاذ إلى الأعماق ليجد فيها مخازن يتجمع فيها، ثم ينبع على شكل عيون هي مصدر الأنهار، أو يتوصل إليه الإنسان بواسطة حفر الآبار. ثم إن النعمة لا تقف عند نزول الغيث من السماء، فعلى الإنسان أن يتذكر أمرا هاما، هو أن بقاء الماء يسعفه بعد نزوله لما يقيم حياته ويلبي حاجاته، هو من فضل الله عليه، إن المنزل من الماء قادر على أن يذهب بتلك المياه فلا يجد لها الطالب أثرا.

19-فأنشأنا لكم به...ومنها تأكلون .

يتفاعل الماء مع الأرض حسب القوانين التي أودعناها في التربة وفي الماء؛ فأنشأنا بذلك جنات: الأرض واحدة، والأشجار متنوعة في شكلها وثمارها ومذاقها. وصرحت الآية بالنخيل والأعناب والزيتون باعتبار أن ثمارها ينتفع بها إثر جنيها، وتدخر لينسحب خيرها على الإنسان فيما يستقبل. وحللت الآية المنة بأن مما ينبته

في هذه الجنات، ما يقتات به ويتفكه به كـالتمر والعنـب، ومنهـا مـا يتفكـه بـه فقـط كالكمثرى والتين واللوز. ومنها ما يقتات به كالزيتون.

وأنت إذا لا حظت تنوع الفواكه إلـى فصـائل متعـددة، ونظـرت فـي النـوع الواحـد واختلاف أفراده في الشـكل والمـذاق، تـدرك دقـة التعبيـر القرآنـي: فواكـه كثيـرة. كالبرتقال، والمشمش، والكمثرى، والتين، تجـد بـين وقـت النضـج اختلافـا، وبـين اللون والنكهة والرواء والطعم اختلافات كثيرة.

و تجمع المنة في كلمة: ومنها تـأكلون. فمـن الجنـات تصـلون إلـى مـا يقـيم بنيـتكم ويحفظ عليكم حياتكم.

20-وشجرة تخرج من ....وصبغ للآكلين.

صرحت الآية مفردة شـجرة الزيتـون، وأخرجنـا لكـم مـن الجنـات شـجرة، حـدد منابتها الأولى بأنها في طور سيناء. وطور سيناء هـو جبـل الطـور بصـحراء سـيناء، الجبل الذي تلقى عنـده موسـى ﷺ الـوحي الأول مـن الله، كمـا سـبق فـي سـورة الأعراف. وذكر المفسرون أن سيناء اسم شجر يكثـر هنـاك، وقيـل حجـارة خاصـة. وعناية القرآن بتحديد منبتهـا، قـد يكـون بـالنظر إلـى وجودهـا الأول علـى سـطح الأرض، أو إشارة إلى تعظيم شـأنها باتصـالها بالمكـان الـذي كلـم الله فيـه موسـى، وسيناء تقرأ بكسر السين وفتحها مع إسكان (الياء) وسينين.

ثم واصل القرآن عنايته بهذه الشجرة ففصـل: أنهـا تنبـت مـلا بسـة للـدهن والصـبغ، فثمارها مختلطة بالزيت الذي هديتم إلـى اتخـاذه دهنـا للأجسـام للتـداوي، ولترجيـل الشعر، ويدخل في كثير مـن مـراهم التجميـل. ومـع الاسـتعمال الخـارجي تتخذونـه صبغا، تغمسون فيه الخبز فيبدو كأنه صبغ به.

21- وإن لكم في الأنعام .... ومنها تأكلون.

عطفت هذه الآية على إنزال الماء من السـماء مظهـرة منـة أخـرى مـن الـنعم التـي قصد بها الكريم التفضل علـى خلقـه، ومتضـمنة أيضـا دلـيلا يسـند الأدلـة السـابقة المثبتة لقدرة الله وتفرده بالخلق، وإجراء ذلك على نظام دقيق مرتب في الأزل.

تتمثل هذه المنة في الأنعام، التي تطلـق علـى الإبـل والبقـر والشـاء والمعـز، يجـد المتأمل فيها عبرة تمكن اليقين بالحكمة البالغة التي تصـرف الله بهـا فـي الخلـق. ولفـت الأنظار بصفة خاصة إلى ما يجري في داخل أجهزتهـا مـن تفـاعلات، فتفـرز الألبـان صافية نقية تشربونها سـائغة مغذيـة لذيـذة. وتنتفعـون كـذلك منهـا بمنـافع متنوعـة

وكثيرة كما ينسج من الصوف والـوبر والشـعر، والجلـود التـي تتخـذ منهـا النعـال والخفاف والوطاء وصور أخرى كثيرة، وحتى الزبل لتسميد الأرض .

ونعمة عظيمة أخرى هي إحلال لحومها للأكل منها، وإلهام البشر طرقا كثيرة للطهي.

22- وعليها وعلى الفلك تحملون.

لفت القرآن الأنظار إلى منة تسـخير الإبـل للركـوب لقطـع المفـاوز ولحمـل الأثقـال على ظهورها، ويعبر عنها بسـفن الصـحراء، وأدمـج منـة ركـوب السـفن وحمـل الأثقال عليها، تمهيدا للحديث عن نوح عليه السلام أول صانع للسفن.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ (23) فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ (24) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ (25) قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ (26) فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (27) فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (28) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (29) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30)

بيان معاني الألفاظ:

الملأ: الرؤساء المقدمون الذين يرجع إليهم.

الجنة : نوع من الجنون.

التفضل : تكلف الفضل.

تربصوا : انتظروا.

بأعيننا: تحت رقابتنا فلا يدخل صنعك خلل.

ووحينا: في التصور الكامل للفلك.

اسلك : أدخل.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد أرسلنا نوحا ﷺ إلى قومه، الذين كانوا يعبدون آلهة أصناما يتقربون إليها؛ فكانت دعوته: يا قومي اعبدوا الله وحده فإنه لا يمكن أن يكون إلها إلا الله، وكل الآلهة من دونه زيوف لا حقيقة لها. ألا تخشون عذاب الله وتحصنون أنفسكم منه ؟

تقدم كبراء القوم بمجرد ما سمعوا دعوته لتفنيدها والرد عليها، بخمسة أوجه:

أولا: إن نوحا بشر يستوي معكم في خصائص البشرية، ومرتبة الرسالة لا تليق بالبشر.

ثانيا: أن الدافع الباطني لدعوته: أنه يريد منازل الرئاسة والتقدم عليكم، وأن تتبعوه.

ثالثا: أن الله لو أراد أن يبلغ رسالته إلى الناس فإن المعقول أن يكلف بذلك ملكا لا بشرا.

رابعا: هذه الدعوة لا تستند إلى قوة الماضي، فما بلغنا أنه سبق أن ادعى أحد من البشر أنه رسول من عند الله. وما وقع مثل هذا في عهد آبائنا.

خامسا: هذا الرجل مصاب بنوع من الجنون، ولا تتعجلوا الأمر. فإنه إما أن يشفى من جنونه فيقلع عما دعاكم إليه، وإما أن يتطور جنونه فينكشف أمره.

لقد صبر نوح، بعد أن واصل دعوته ليلا ونهارا، وأيقن أن تصميم قومه على الشرك بلغ بهم درجة العناد المتأصل، فدعا ربه أن يتولاه بنصره نصرا يقلع تأثيرهم الفاسد في قومه.

أوحى الله إليه أن عليه أن يصنع فلكا سفينة، وأن الله يهديه في عمله هذا فلا يلحقه أي خلل، وأن الله معه يرقبه ويسدده، وأنه سبحانه سيرسم في فكره صورة السفينة ووظائفها حتى يكون عمله محكما. فإذا أتممتها فإن أمارة إهلاك قومك الذين دعوت عليهم: أن الفرن ينبع منه الماء. وعند ذلك أدخل فيها من كل نوع من الأحياء زوجين ذكر وأنثى، وأدخل المؤمنين من أهلك، وأما الكافرين الذين سبق القدر بما سيلقونه فلا تأخذك بهم رأفة، تدفعك أن تطلب نجاتهم، فقد تم القضاء المبرم: سيبتلعهم الماء ويغرقون .

أرشد الله نوحا أن يتوجه إليه، عندما يتمكن مع من حمله معه في الفلك، أن يتوجه إليه بالحمد والثناء على ما تفضل به عليهم من إنجائهم من ظلم قومهم. وأن يلطف به و بهم في سيرهم حتى يدركوا منزلا مباركا، فيه ينزلون، فيعود بهم للأرض عمرانها.

مع التأكيد فإن قصة نوح قد اشتملت على عبر كثيرة، وآيات دالة على تفرد الله بالتقدير والتنفيذ. وأنه سبحانه يبتلي خلقه بالخير والشر لحكم تقصر مدارك البشر عن إدراك أسرارها.

بيان المعنى العام :

23- ولقد أرسلنا نوحا...أفلا تتقون.

تتابعت عناية الله بالناس ليهديهم إلى إفراده بالعبادة، فلفت أنظارهم أولا إلى ما في ذواتهم من الأدلة على ذلك، ثم ثنى بكتاب الكون وما فيه من عجائب الصنع وبالغ الحكمة والتقدير. ثم ثلث بعرض مواقف الأمم من رسلهم ومآل الرافضين لدعوة الرسل.

و لما كان نوح عليه السلام أول رسول إلى أهل الأرض، وهو أول من صنع الفلك، افتتح التذكير ببعثته، فقال مؤكدا: ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه، فهو يلتقي مع محمد عليه السلام في أن كلا منهما رسول، وأن قوم نوح لم يأتهم رسول منهم قبله، وكذلك العرب، وأن قوام دعوتهما إفراد الله بالعبادة (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره).فنوح يهز قومه إلى رفض الأصنام التي يعبدونها، فمرض عقيدتهم هو الشرك، وكذلك كان شأن قريش. ورتب نوح دعوتهم لإفراد الله بالعبادة سؤالا إنكاريا، ينكر عليهم غفلتهم، بعدم وقاية أنفسهم من عذاب الله، فأدمج في سؤاله تهديدهم بسوء العاقبة.

24-فقال الملأ الذين كفروا...في آبائنا الأولين.

بمجرد ما دعاهم نوح أسرعوا للرد عليه، فتقدم لذلك رؤساؤهم ووجهاؤهم الذين تأصل فيهم الكفر من قومه رافضين دعوته، منكرين أن يكون رسولا من عند الله، موجهين موقفهم بأن نوحا يستوي معهم في البشرية، الأمر الذي لا يقبل معه أن يكون واسطة بين الله وبين الناس. ثم أضافوا لاستبعاد صدقه، عاملا نفسانيا اختلقوه، وهو أن نوحا ما أتى بهذه الدعوة إلا ليحصل على منزلة القيادة التي حرم منها، فهي محاولة منه ليظهر فضله عليهم ويبرر اتباعهم له. ثم ركبوا على ذلك نقطة ثالثة، فنصبوا أنفسهم حاكمين على الله مقررين ما ينبغي أن يفعله إذا أراد إبلاغ هدايته، فقالوا لو شاء الله أن يحمل رسالته أحدا فإنه لا يختار لها إلا ملائكة .فهم قد حكموا على البشر بأنهم في المنزلة الدون لا يرقون إلى قبول الفيض الإلهي الراشد. وواصلوا دعم تكذيبهم بالحجة التي يعتمدها كل الذين أقفلوا عقولهم وركنوا إلى التقليد، أن ما عليه السابقون هو الحق، وما بلغهم أي خبر يفيد أن الله بعث بشرا في الأزمنة السابقة. فما جاء به نوح مرفوض لعدم استناده إلى أمر حصل عند الماضين. ومبالغة في التأثير دعموا تقليدهم الأعمى بربطه بالآباء الذين فطر البشر على متابعتهم (ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين)

25- إن هو إلا رجل ...حتى حين.

ولما عروا نوحا عليه السلام من كل المؤيدات وقدموا تصور دعوته، بكونه رسولا من عند الله، أنه أمر غير مقبول ولا معقول، أرادوا أن يجهزوا بالإجابة عن سؤال يمكن أن يثور، إذا كان ما قدمتم صحيحا فكيف تأتى لنوح أن يدعي الرسالة من عند الله ؟ فقالوا: إن به مسا من الجنون، لم يرموه بالجنون لأن فطنته وذكاءه وقوته في عرض حججه تدفع دعوى جنونه ولذلك قالوا به جنة أي نوع من الجنون كما نقول اليوم : جنون العظمة .يعنون والله أعلم أنه استولى عليه حب القيادة والتفضل على قومه، فما زال ذلك يتفاعل في نفسه حتى أصبح ضربا من الجنون قاده إلى ادعاء الرسالة. فانتظروا قليلا فسينكشف أمره، إما أن يشفى فيقلع عما دعاكم إليه، وإما أن يتضاعف اختلاله فينكشف أمره ويفتضح.

26- قال رب انصرني بما كذبون.

بلغ نوح درجة اليأس من تواصل مد الإيمان في قومه، وقد أخبره الله بذلك كما نصت عليه الآية (وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون)[1] – فكان شأنه شأن الذين تتضاعف ثقتهم في الله كلما اشتد بهم الكرب. فدعا ربه أن ينزل عليه نصره. والنصر الذي طلبه هو استئصال الكافرين. لأنه لا مطمع له في إيمان أي واحد منهم بعد أن استنفد كل قواه الفكرية والتعبيرية والإقناعية، وبعد كشف الله له على أن تصميمهم لا أمل في نقضه.

27- فأوحينا إليه أن اصنع...إنهم مغرقون.

استجاب الله دعاء نوح، فأمره أن يصنع فلكا: سفينة، وطمأنه على أن ما يصنعه سيؤدي الغرض منه، ذلك أن الله سيرقبه وهو يتقدم في إنجاز بناء السفينة فلا يلحقه الخطأ، يكون موفقا التوفيق الكامل في الصنع، كما أن التصور الكامل لهيكل السفينة وما ينبغي أن يتوفر فيها سيسعفه الوحي بذلك، فضمن له التوفيق في التصور، وطريقة التطبيق. وامض في عملك إلى أن يحين الوقت المقدر لإهلاكهم، وتظهر لك العلامة في فوران الماء من الفرن. فإذا ظهرت لك أمارة تنفيذ الوعيد فيهم، فأدخل في الفلك الذي أتممته، من كل نوع من الأنواع زوجين ذكر وأنثى، وأدخل أهلك المؤمنين، ولا تدخل الكافرين منهم الذين سبق حكم الله عليهم بالإهلاك. وأرشده أن لا يرق لأحد خلفه وراءه ولم يدخله معه في سفينة النجاة، لأن الحكم المقدر النافذ الذي لا مرد له، قد حكم عليه بالغرق.

---

[1] سورة هود آية 36

28-فإذا استويت أنت ...نجانا من القوم الظالمين.

تعليم من الله لنوح، وهداية للمؤمنين، بينت الآية ما ينبغي للمؤمن أن يقوم به عندما يشهد نعمة الله تحل به، وينزل فضله عليه.

إذا تمكنت أنت ومن تحملهم معك من الاستقرار في السفينة، ورأيت المياه تغمر قمم الجبال، فقل: الحمد لله، والثناء على الله، فهو الذي نجانا من القوم الظالمين. نجانا من كفرهم ومن إذايتهم، ومن صدهم الشديد عن الإيمان. وقد تقدم لنا في سورة الفاتحة الشحنة العظيمة من الاعتراف في قول: الحمد لله رب العالمين. وأن على المؤمن أن لا يغفل عن الثناء على ربه في كل حين وخاصة عندما يجد الفرج بعد الشدة واليسر بعد الضيق.

29- وقل رب أنزلني ....وأنت خير المنزلين.

وفي هذه الآية يذكر القرآن ما علمه الباري لنوح من الدعاء، بعد أن قضي الأمر، وهلك الكافرون، قل: رب أنزلني منزلا مباركا ، يكثر فيه الخير، ويتضاعف الانتاج، ويسلم العباد الذين هم معه، والأزواج من الحيوان والنبات، حتى تعود العمارة إلى الأرض. فإنك سبحانك أنت العليم وحدك بظواهر الأمور وبواطنها وتحولاتها. لا يشاركك أحد في معرفة أفضل المنازل المحققة لدعائي.

30-إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين.

إن فيما عرض عليكم في قصة نوح عليه السلام أيات كثيرة، وعبر متعددة تفيد المتأمل فيها يقينا بحسن التقدير والتصرف الإلهي في الكون. منها :

-إجابة الله لدعاء نوح، فليحذر من دعاهم النبي محمد ﷺ إلى الإيمان فأعرضوا، أن عاقبتهم لا تخرج عن سنن الله في معاملة الكافرين المكذبين لرسل الله .

-أن الذي خلق اليابسة قادر على أن يغمرها بالماء، وأن ينجي من يشاء من عباده. ويهلك من يشاء.

- أن فيها إيماء للبعث، فإن هلاك الكائنات كلها أعقبه عودة الحياة وعمارة الكون بالتكاثر البشري، وبمختلف أنواع النباتات والحيوانات.

وأؤكد أني أنا الله المتحكم في الكون أبتلي بالخير كما أبتلي بالشر. لا يعترض أحد على تقديري لعجز عقول الناس عن إدراك سر القدر.

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (34) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (35) * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (38) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (39) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (40) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (41)

بيان معاني الألفاظ :

القرن : الأمة من الناس.

أترفناهم : بسطنا لهم الأرزاق.

اللقاء : هو لقاء الإنسان بربه يوم الحساب .

هيهات: اسم فعل بمعنى بَعُدَ، مثل صَهْ بمعنى اسكت.

افترى : كذب كذبا مفضوحا لا شبهة له فيه.

أخذتهم : أهلكتهم.

الصيحة : صوت الصاعقة.

غثاء : ما يجمعه السيل من الأعواد اليابسة والورق ويترَاكم فوق سطحه.

بيان المعنى الإجمالي :

تعلقت إرادة الله بعد إنجاء نوح ومن معه أن يبارك فيهم ويتكاثروا، وأنشأ سبحانه أمما تعرض القرآن لواحدة منها، الظاهر أنهم قوم ثمود. كان من أمرها أنها انحرفت ونسيت عقيدة التوحيد التي ثبتها نوح، وشريعته التي أقام عليها المجتمع. فأرسل الله لهم رسولا منهم نشأ فيهم يعرفون فضله وصدقه وخلقه الرفيع. دعاهم أول ما دعاهم إلى إفراد الله بالعبادة وطرح الآلهة التي كانوا يعبدونها من دونه. وحرضهم على التوحيد وأن عليهم أن يتقوا الله الذي خلقهم ولا يشركوا به شيئا.

وكما هو شأن المرسلين مع أقوامهم، أن الذين يرفضون دعوة الحق ويتقدمون للمواجهة، هم أكابر القوم الذين يخشون على مكتسباتهم أن تضيع، فصمموا على الكفر وعلى التكذيب بالبعث، واستهواهم المضي على حياة الترف والانغماس في الشهوات؛ وعملوا على تضليل الدهماء من أتباعهم بأن الرسول هو بشر يستوون

معه في خصائصه البشرية فلا فضل له عليهم، يأكل كما يأكلون ويشرب كما يشربون ومعنى هذا أنه تجري عليه جميع الأعراض البشرية، ورضاهم باتباع من هو مثلهم وطاعته سيفضي بهم إلى الخسران الواضح .

ما هو الأمر الذي يعدكم به ؟ هو يعدكم أنكم ستخرجون إلى الحياة وتعودون كما كنتم من قبل، بعد أن تحللتم وتحولتم إلى تراب وعظام. إن ما يدعوكم إليه ويعدكم به أمر بعيد وبعيد جدا.

فما هي الحقيقة ؟ إن الحقيقة: أنه لا توجد حياة بعد حياتنا الدنيا هذه. هي السنة التي جرى عليها أمر الإنسان في القديم والحديث والماضي والحاضر والمستقبل، نموت وننجب من يحيا بعدنا ليموت بعد أن ينجب، وهكذا. ولا حياة غير هذه الحياة ولا نبعث بعد أن نموت. ويبقى سؤال ربما يشكك في أقوال الملأ، وهو أن الرسول نشأ فيهم وهو معروف بالصدق والاستقامة والكمال . فطردا لهذا الخاطر قالوا: إنه قد اختلق من عنده ما أبلغكم إياه، ونحن تبينا ذلك تبينا كاملا فلا نؤمن أبدا بما يدعو إليه . وصدق الأتباع رؤساءهم وصمموا على الكفر كما صمموا. وإذ بلغ الأمر هذا الحد من العناد دعا الرسول ربه أن ينصره باستئصال المكذبين. استجاب له ربه وأعلمه أن كلمة العذاب حقت عليهم، وسينفذ ذلك قريبا في وقت الصباح. فأهلكوا بصيحة مزقت كيانهم، فلم يمر الصباح حتى كانوا ركاما فتاتا كحال غثاء السيل يطفو على السطح ويضيع على جنباته. ذهبوا غير مأسوف عليهم ولا يذكرون بخير.

بيان المعنى العام :

31-34، ثم أنشأنا من بعدهم ...إنكم إذا لخاسرون.

على هذا النحو تمت إرادة الله، فإنه بعد أن استأصل قوم نوح، وعم الطوفان اليابسة، ونجا نوح ومن معه، بسط الله للناجين أسباب التكاثر، وحماهم من الأوبئة، وانتشر العمران. ومن الأمم التي تناسلت منهم هذه الأمة التي تعرض لها القرآن في هذه السورة ولم يعينها، ورجح الطبري وغيره أنها أمة ثمود. رجح تلك أمران : أحدهما أن أمة ثمود هي التي أهلكت بالصيحة، وثانيهما أن العذاب سلط عليهم في الصباح، وهو ما يأتلف ما جاء في سورة الحجر : **فأخذتهم الصيحة مصبحين**[1] .

---

[1] سورة الحجر اية 83

ذكرت الآية من أمرهم أن رسولهم كان منهم وليس واردا عليهم غير منسوب إليهم. وخاطبهم بما خاطب نوح قومه. وتولى اعتراض دعوته وتكذيبه أكابر القوم الذين جمعوا بين التصميم على الكفر، والتكذيب بالنشر والحشر وبيوم القيامة، وبين البسط في الرزق، فكانت حياتهم حياة الرفاهية المترفة. وشأن الترف أنه يفسد الفطرة ويغطي على منافذ الروح فتظلم وتتعلق بالمادة. ولذا اعتمدوا في إبعاد الناس عنه بقولهم: إنه بشر مثلكم تستوون معه ولا يفضل عليكم، هو يأكل كما تأكلون ويشرب كما تشربون. أثاروا الجانب المادي الذي استولى عليهم، واعتقدوا تبعا لذلك أنه ليس وراءه شيء آخر يتفاضل به البشر. هم غافلون عما يتميز به الإنسان، الروح التي تنفذ إلى المدارك العالية وتسمو بالإنسان إلى مرتبة تقربه من مرتبة الملائكة، وبالروح وشفافيتها يتفاضل البشر. نجد في الرتبة العالية المرسلين والأنبياء وفي الرتبة الدنيا المنغمسين في الطين والمادة. ولما كان الملأ من الصنف الثاني انعكس عندهم سلم القيم، فقصروا الفوز أو الخسران على الجانب المادي وحده، ولذا قالوا لقومهم إنكم إن اتبعتم رجلا مثلكم ليس من الأغنياء المترفين وأطعتموه ومكنتموه من قيادتكم، فإن صفقتكم معه ستكون خسارة تامة .

35- أيعدكم أنكم ....لمخرجون.

استفهام فيه انكار وتعجيب، انتقلوا من إنكار رسالته إلى إنكار ما تضمنته من أن الناس سيبعثون من قبورهم، ويخرجون أحياء على الصورة التي كانوا عليها قبل موتهم . وهذا من تضليل أكابر القوم، يثيرون الأتباع ليتأملوا في مضمون الرسالة، وقدموه على أنه أمر مستبعد غير مقبول، بل هو جدير بأن يكون محل السخرية والاستهزاء: أن يبعثوا أحياء بعد أن تتفتت أجسامهم وتنقلب ترابا. وكرر أنكم مرتين لطول الكلام من الناحية اللفظية، وللإثارة من الناحية المعنوية بمواجهتهم بالخطاب المؤكد. ومخرجون: مخرجون على هيئاتكم التي أنتم عليها للجزاء.

36- هيهات هيهات لما توعدون.

هيهات كررت مرتين وهذا هو الغالب في استعمالها في العربية أنها تكرر مرتين، وقد تكرر ثلاثا. وهي كلمة مبنية على الفتح يقصد منها التعبير عن بعد ما يتلوها. فيكون المعنى بعد بعدا كبيرا ما توعدون من البعث بعد الموت.

37- إن هي إلا حياتنا ...وما نحن بمبعوثين .

وإذ نفوا ما وعدهم به من البعث ، قصدوا إلى إثبات ما يناقضه فقالوا: لا حياة إلا الحياة التي نحياها هذه، الحياة القريبة التي تجري على كل فرد .ثم فصلوا بأنها حياة يعقبها موت، أي إن الموجودين اليوم سوف يموتون ويخلفهم من بعدهم قوم آخرون يجري عليهم ما جرى علينا، وهكذا تستمر الحياة، وليس بعد هذه الحياة حياة أخرى نبعث لها بعد الموت.

38-إن هو إلا رجل ... وما نحن له بمؤمنين.

وحتى يؤثروا في الدهماء الذين يتبعونهم خلصوا إلى بيان حقيقة ما جاء به الرسول حتى يحولوا بينهم وبين ما جاء به فقالوا: هو ليس رسولا ولكنه رجل كذاب، كذب على الله كذبا مفضوحا لا شبهة له فيه (افترى).ونحن الذين لنا من التجربة والنفاذ إلى حقائق الأمور لا نؤمن بما قال ولا نتبعه. فإياكم أن تنخدعوا.

39-قال رب انصرني بما كذبون.

وعلى سنة المرسلين إذا ضاق بهم الأمر، وبلغوا درجة اليأس من عناد مخاطبيهم المصممين على الكفر، وعلى التأثير في الأتباع بما يصدهم عن الإيمان، كما ورد في قصة نوح قبل هذا، أنهم يلتجئون إلى الله طالبين النصر الذي يمحق الكفر وأهله .

40- قال عما قليل ليصبحن نادمين.

استجاب الله لدعاء رسوله، وأعلمه أنه سيحل بهم العذاب قريبا وأنه لا يمهلهم، وأنهم حين يرون بوادر العذاب في الصباح يتضاعف عذابهم بندمهم على ما صدر منهم من التكذيب، ولا ينفعهم الندم بل يجمع الله لهم بين الاستئصال، والحرج النفسي، والشعور بالخزي عما قدموا.

41- فأخذتهم الصيحة...فبعدا للقوم الظالمين.

لم يمهلوا طويلا، إذ أعقب الله دعاء الرسول بالتعجيل بالانتقام منهم بصيحة قوية تجاوزت شدتها طاقاتهم وأهلكتهم في لحظة. إن ما سلط عليهم من العذاب كان هو ما يستحقونه جزاء وفاقا لكفرهم وتكذيبهم رسول الله، فلا اعتداء عليهم فيه (بالحق) ثم وصف تأثير الصيحة فيهم أنهم انقلبوا إلى ركام، أشبه ما يكون بما يحمله السيل من الأوراق والأقذار والأعواد التي تعلو سطحه (غثاء)

إنهم بعد أن أهلكوا ومزقوا من الصيحة، وذهب كل ما كان يعتزون به من قوة ويطاولون به الحق، هتف هاتف باحتقارهم وإظهار الشماتة بهم، عبر عنه القرآن بقوله: فبعدا للقوم الظالمين. فإن كلمة بعدا وإن كانت تستعمل في العربية للدعاء

بالهلاك، إلا أنهم بعد أن أهلكوا خرج اللفظ عن معناه الأصلي ليدل على أن الموقف منهم بعد استئصالهم موقف استراحت البشرية منهم، بسبب ظلمهم وفسادهم فقد ذهبوا غير مأسوف عليهم ولا يذكرون بخير .

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

قرونا آخرين : أمما أخرى .

تترى : يأتي رسول ثم يأتي رسول آخر بعد مهلة من الزمن .

أتبعنا بعضهم بعضا : تتابع إهلاك المكذبين على نحو واحد.

أحاديث : جمع أحدوثة، يتحدث الناس من بعدهم بما أصابهم.

الآيات : المعجزات المؤيدة للرسول.

السلطان المبين : الحجة الواضحة .

ملئه : أهل مجلسه وأعوانه وعلماء الدين عنده.

آويناهما : أسكناهما وأنزلناهما.

الربوة : المرتفع من الأرض.

قرار : صالحة للاستقرار فيها.

المعين : الماء الجاري.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد قبول دعاء الرسول على الأمة التي تمردت عليه حتى يئس من هدايتها وتم إهلاكها، أنشأ الله أمما أخرى. لكل أمة من تلك الأمم أجل محدد، يبين لهم

الرسول ويثبت ما يدعو إليه بالبراهين والحجج، حتى إذا يئس من هدايتهم يسلط الله عليهم عذابه في الوقت المقدر فلا يتقدم العذاب ولا يتأخر عن وقته. وجرت سنته سبحانه أنه يبعث رسله بصفة متتابعة، يأتي الرسول ويبلغ ويجتهد لإقناع المبعوث إليهم بالحق الذي جاء به من عند الله، وأن إغراء الشيطان بالضلال واتباع المبعوث إليهم لتضليله، ينتهي بهم إلى رفض الدعوة وتكذيب الرسول فيستأصلهم الله بعقابه، ويتحدث الناس عنهم بما آلوا إليه. يذهبون غير مأسوف عليهم وقد استراحت البشرية منهم.

و بعد فترة من الزمان مقدرة عند الله بعث الله موسى وأخاه هارون مؤيدين بالمعجزات الظاهرة ابتداء من العصا وتحولاتها العجيبة وتأثيراتها القوية وخروج يده بيضاء نقية إذا أدخلها في جيبه، والآيات السبع الأخرى المذكورة في سورة الأعراف. ومؤيدين كذلك بظهور الحجة وقوة البراهين. أمرهما أن يتوجها إلى فرعون والملأ الذين يأتمرون بأمره المقربين منه. ثارت في نفوسهم جرثومة الكبر والتعاظم التي تمكنت منهم حتى غدا الكبر لهم طبعا. وصرحوا مستنكرين أن يؤمنوا برسالتهما، مع أنهما يستويان معهما في البشرية، بل إنهما أرفع مقاما اجتماعيا، إذ بنو إسرائيل خدم وعبيد للقبط . وصمموا على تكذيبهما فانضموا إلى الذين قدر الله إهلاكهم.

إن الله آتى موسى عليه السلام التوراة، الكتاب المثبت للتشريع، والمرجع الذي كان على اليهود أن يحفظوه وأن يعودوا إليه. إنهم يرجون من القيام عليه وتطبيق ما جاء فيه أن يحققوا لأنفسهم الهداية التي تبعدهم عن الضلال.

تعلقت إرادة الله أن يجعل في عيسى عليه السلام وأمه معجزة ظاهرة. فما حملت قبله ولا بعده أنثى وأنجبت دون اتصال جنسي بينها وبين ذكر من جنسها. وصحبتهما عناية الله فأسكنهما على مرتفع من الأرض توفرت فيه الخصوبة ويطيب فيه القرار، وتجري فيه المياه العذبة.

بيان المعنى العام :

42- ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين.

تحقيقا لما أراده الله من عمارة الأرض، قدرأته كلما أهلك قوما لتكذيبهم وكفرهم وفسادهم فسادا يحول بينهم وبين شرف الخلافة، يخلق الله أمة أخرى تخلف الأمة الهالكة .

43-ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون.

ولكل أمة من تلكم الأمم أجل محدد، يمهلهم الله ولا يهملهم، فإذا صمموا على الكفر، والعناد، ورفض التوحيد والهدى، يسلط عليهم عذابه في أجله، فلا يستعجل بهم، ولا يؤخره عن أجله الذي حدده.

44- ثم أرسلنا رسلنا ....فبعدا لقوم لا يؤمنون.

يبعث الله لكل أمة من الأمم المتعاقبة على عمارة الكون رسولا يقيم فيهم، ويجتهد لإقناعهم بالحقيقة التي جاء بها من عند الله، وليقلعوا عن الشرك والظلم والفساد، ويحقق لهم أنه مرسل من عند الله. وتتابع الرسل على هذا النحو. يأتي الرسول في الوقت الذي يغشى فيه الباطل والشرك على الحق والتوحيد، وتختلط فيه السبل، فيجتهد في أداء ما أوكل إليه، ويكون همه استقامة البشر على التوحيد وعلى السلوك الصالح. ويجد الصدود من أكابر القوم والمترفين منهم الذين يؤثرون في الدهماء ليعرضوا عن الدعوة، وبعد أن يستنفد كل ما أوتيه من وسائل الإقناع وييأس من هدايتهم، يسلط الله عقابه على المعاندين المكذبين . فتنضم كل أمة حق عليها كلمة العذاب إلى سلسلة المكذبين الهالكين. ويكون استئصال كل أمة عبرة للناس يتحدثون بما أصابهم وبما انتهى إليه أمرهم. فالرسل لا يأتون مجموعين ولا متعاقبين، ولكن يأتي الرسول فيقوم بوظيفته، وينتهي الأمر بهلاك المعاندين، ثم بعد فترة يأتي رسول آخر لقوم وضعهم العقدي والسلوكي كوضع المهلكين وينتهي أمرهم بمثل ما انتهى إليه سابقوهم، فهذا معنى رسلنا تترى ... ويلحقهم بعد إهلاكهم، احتقارهم والنظر إليهم نظرة المستراح منهم غير المأسوف عليهم لأنهم كانوا قوما غير مؤمنين. فاتحدت النظرة إليهم بعد هلاكهم بين هذه الآية والآية السابقة فبعدا للقوم الظالمين. والكفر وعدم الإيمان ظلم للحقيقة المطلقة وللعلاقات الكونية. إن الشرك لظلم عظيم.

45- ثم أرسلنا موسى.....و سلطان مبين.

تتابعت الرسل على حسب ما وصفته الآية السابقة. يأتي الرسول ثم بعد فترة من الزمن يأتي رسول آخر، وتجري سنة الله في القوم المكذبين. ثم بعد ذلكم الزمن البعيد في تاريخ البشرية تعلقت الإرادة الإلهية بتكليف رجلين بالرسالة يتعاونان على إصلاح أمر المجتمع الذي بعثا إليه، أرسل الله موسى وأخاه هارون بعد مدة مؤيدين بالمعجزات التي صحبتهما مع بداية الدعوة. فكانت العصا التي تتقلب، بين كونها عصا تحقق لحاملها أغراضا كثيرة كما قال موسى ﷺ : (هي عصاي

أتوكا عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى ...)[1] وبين ما أودع الله فيها من خصائص معجزة لموسى بانقلابها حية تسعى، وبالتهامها لكل ما أعده السحرة من حبال وعصي، ثم عودتها إلى وضعها الأول. ثم بعد ذلك بانشقاق البحر وبتفجر الماء من الصخرة إثر ضربه لها، مما ذكره القرآن في آيات عديدة. وخروج يده بيضاء نقية بعد أن يدخلها في جيبه مع أنه عليه السلام كان أسمر اللون، ومع المعجزات المحسوسة أيده الله بصفاء في عقله واستقامة في تفكيره، وحضور في البديهة، وهو السلطان المبين.

46- إلى فرعون وملئه ...وكانوا قوما عالين .

أرسلهما الله أولا إلى فرعون وأهل مشورته ورؤساء إدارته التنفيذيين؛ كان موقفهم الإعراض عن دعوة موسى وأخيه، حملهم على الإسراع بالرفض استكبارهم، وظنهم أنهم أعلى من أن يعرفوا بحقيقة من الحقائق، أو أن يرشدوا إلى منهج غير المنهج الذي ساروا عليه في حياتهم، وقد تمكن منهم الكبر حتى صار طبعا لهم .

47-فقالوا أنؤمن ....لنا عابدون.

فصلت الآية كبرهم بعرضها ما بادروا إليه إثر دعوتهم إلى التوحيد والتخلية بين موسى وقومه، على أن ذلك أمر إلهي، عليهم أن يستجيبوا له ويطبقوه. كان ردهم تكذيب موسى وأخيه فيما أثبتاه أنهما مرسلان من عند الله، برروا تكذيبهم بأنهما من الجنس البشري لا مزية لهما ترفعهما إلى مستوى الإخبار عن الله. وضلوا في اعتقادهم أن البشر متساوون تساويا ينفي كل فرق يتبعه أن يرتفع أحدهم إلى تلقي الوحي من الله وتحمل رسالته. إن البشر وإن اتحدوا في القدر المشترك بينهم في الإنسانية إلا أنهم في الجانب العقلي والروحي متفاوتون تفاوتا كبيرا. ثم أضافوا إلى وهم المساواة المطلقة أن قوم موسى وأخيه كانوا عبيدا خدما للقبط، فكيف ينقلب العبيد التابعون إلى قادة متبوعين؟ وهذه الإضافة هي نابعة من استكبارهم وتطبعهم على العلو. أنكروا أن يكون موسى وأخوه مرسلين من ناحيتين: مساواتهم لهما في البشرية، وكونهم أفضل منهما اجتماعيا.

48- فكذبوهما فكانوا من المهلكين.

صرحت هذه الآية بعاقبة التكذيب التي هي مآل كل المكذبين لرسل الله في تاريخ البشرية: أن الله أهلك فرعون وملأه واستأصلهم بغرقهم في البحر ولم ينج منهم

---

[1] طه آية18

أحد. وفي ذلك تحريض للمشركين على قبول الرسالة المحمدية وإنقاذ أنفسهم من الدمار الماحق إن هم واصلوا العناد والمكابرة.

49- ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون.

بكل تأكيد مكنا موسى من الكتاب المفصل للشريعة التي جاء بها موسى ليكون مرجعا لبني إسرائيل يهتدون بهداه، وهو التوراة. ودور كتب الله أنها تكون جامعة لكلمة المرسل إليهم. إنه إذا رجعوا إلى ذلك الكتاب محكمين له فيما يشكل عليهم يرجون أن يهتدوا إلى الحق ويرتفع بينهم الخلاف.

50-وجعلنا ابن مريم وأمه...ذات قرار ومعين .

يتابع القرآن عرض عناية الله برسله التي من مظاهرها تأييده لهم بالمعجزات ووضوح الحجة، وإهلاك المكذبين. وآخر رسول قبل محمد ﷺ هو عيسى عليه السلام، الذي كانت معجزته أولا في ذاته. فنوه بأمره من هذه الناحية لتفرده بها وليرد على اليهود الذين غمزوا في نسبه وفي طهارة أمه، فجمع بين الوالدة والمولود، وحقق أن الله أراد أن تكون المعجزة في عيسى وأمه، إذ لم يقع في تاريخ البشرية أن حملت أنثى بدون اتصال جنسي بينها وبين ذكر. وحققت الآية أن عناية الله تواصلت بعد الحمل إلى الوضع، فتخير الله لها المكان الذي تضع فيه وليدها بعيدة عن أعين الرقباء، والذي هو من ناحية ثانية بيئة صالحة مرتفعة، نقي هواؤها، مظللة بالنخيل الذي يسر لهما من رطبها القوت والتفكه، ويجري فيها نبع ماء يرويهما ويؤنسهما بخريره.

وقد اجتهد المفسرون لتقديم فروض لتعيين هذه الربوة: غوطة دمشق، بيت المقدس، مصر، الرملة من أرض فلسطين، بيت لحم. وعلى المنهج الذي سرنا عليه فإن النص القرآني لما لم يعين المكان بالاسم على التحديد، فإنا لا نتجاوز ما جرى عليه، خاصة وأن الآيات السابقة كلها انبنت على لفت الأنظار إلى الوقائع دون اعتناء بربطها بمحددات معينة. ثم أرسلنا رسلنا تترى-أنشأنا من بعدهم قوما آخرين- أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين- دون تفصيل لا للآيات ولا للسلطان. ولقد آتينا موسى الكتاب - ولم ينص على اسمه. وعلى هذا النسق - ربوة - فتعيينها لا يزيد النص وضوحا ولا حاجة تدعو إليه ليتم الاعتبار .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا

كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

تقطعوا: تفرقوا على نحل كثيرة.

أمرهم :أمور دينهم.

زبرا: جمع زبور، أصله الكتاب الجامع لأمور الديانة.

حزب : كل جماعة تشاكلت رؤاهم وأعمالهم .

فرحون : راضون مسرورن.

ذرهم : اتركهم.

غمرتهم: ما عمهم من الضلال حتى غرقوا فيه.

الإمداد : التمكين من العطاء والمدد.

تسارع لهم : نعجل لهم.

بيان المعنى الإجمالي :

إذن صادر من الله لرسله دال على عنايته بهم وإرشادهم إلى ما يتناسب مع مستواهم الإنساني الرفيع، أذن لهم أن يأكلوا من طيبات ما خلقه الله في الأرض ولا يتبعوا الخبيث ولا المستقذر ولا ما هو محرم. وأن يجتهدوا في القيام بالأعمال الصالحة، وأعلمهم أنه يرقب أيضا أعمالهم بما يشعر أنهم مجزيون عن كل ما يفعلونه من صالح الأعمال في حياتهم . وأعلم سبحانه رسله بالجامع النفيس بينهم، أن دينهم واحد، هم يردون من مورد الحق فشرائعهم واحدة تهدي إلى الصراط المستقيم. ومع وحدة العقيدة والتشريع في أصوله، أني أنا الله ربكم جميعا فقوموا بما تقضيه الخلافة في الأرض من صلاح العقيدة والسلوك، فطبقوا شريعتي بما تحصنون به أنفسكم في الحاضر والمصير.

لم ينتفع كثير من الأمم بالتحذير، ومزقوا المنهج الواحد وقطعوه إلى قطع متنافرة اتباعا لأهوائهم، فكان كل فريق يأخذ بما تراكم من أباطيل، ويتعصبون لها تعصبا يشغلهم عن النظر أو نقد الذات. حرفت التوراة وحرف الإنجيل وضاعت شريعة المرسلين السابقين، وعبدت الأصنام، وبرروا ذلك بأنها تقربهم من الله. والعجب منهم أنهم راضون عن أنفسهم فرحون بما هم عليه من مخالفة للعقل والوحي.

اتركهم وما اختاروه لأنفسهم، غارقين في ضلالاتهم، فلن يهملوا طويلا، وإنما هو الأجل المحدد الذي يلقون فيه جزاءهم.

ما أشد غباءهم، أيظنون أن ما مكنتهم منه من أموال ووفرة في الأولاد والعدد، هو دليل رضا مني عليهم وتعجيل لما يسرهم ؟ هم مخطئون غير شاعرين بأن ذلك استدراج لهم لتقوم عليهم الحجة، ويلقون في مصيرهم جزاء ما قدموه.

بيان المعنى العام :

51- يا أيها الرسل كلوا من الطيبات...إني بما تعملون عليم.

ما جاء في الآية السابقة من أن الله يسر لعيسى وأمه منزلا يتوفر فيه الغذاء والماء. وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين. أكملته هذه الآية بما يدل على أن الله أذن لكل من رسله أن يأكل مما وفره الله على الأرض من الطيبات، وفي ذلك جمع بين أمرين: أحدهما الرد على الكفرة المكذبين الذين رأوا في بشرية الرسل وأخذهم حظهم من الطيبات منافاة للرسالة، فأفصحت الآية عن كونهم يأكلون بداعي الفطرة وبإذن من ربهم . وثانيهما أنهم لما جبلوا عليه من كمالات يتخيرون الطيب من الطعام البعيد عن الاستقذار وعن الخبث في ذاته وفي طريقة تحصيله. كما صح عن النبي ﷺ أنه أمسك عن أكل لحم الضب، فلما سئل أهو محرم؟ قال: لا- ولكني أجدني أعافه

وتشير الآية إلى أن الكمل من البشر يقصدون من القوت الاستعانة به على العمل الصالح الذي يفيد الناس ويفيد صاحبه. وبهذا القصد ينقلب الأكل عبادة مأجورا عليها . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: إني بما تعملون بصير. فمراقبته لأعمالهم تتضمن وعدا بالثواب لأنها أعمال صالحة.

52- وإن هذه أمتكم أمة...وأنا ربكم فاتقون.

عطفت الآية على ما سبقها من إبراز بشرية الرسل في أفقها العالي بقصدهم إلى الأكل من الطيبات وحدها، ومحض نشاطهم إلى صالح الأعمال، وأنهم في رعاية ربهم يجزيهم عما قدموا من حسنات. وبلغت العناية بهم أن ربط بينهم تحت تلكم الرعاية رعاية الرب الذي فتح لهم الحقيقة المنجية في الدنيا والآخرة. إنه وإن اختلفت الشرائع في بعض الأحكام إلا أنها جميعا واحدة في العقيدة، والسمو بالإنسان سموا يساعده على حسن الاستخلاف في الأرض. يرحمهم ويعنى بالمربوبين جميعهم، فكل الرسل من نوح ومن جاء بعده إلى محمد ممن قص علينا القرآن أخبارهم أو طواها، الله ربهم جميعا، هذه الحقيقة يجب أن تكون مركوزة في ضمائرهم حية في قلوبهم، وهم مكلفون بأن يُذكرُوا بها أممهم، وهي ربوبية يطلب من البشر أن يحققوا بها الصلاح في الكون عقيدة وسلوكا. مما يفرض

عليهم أن يستحضروا خشيته فيما يأتون ويذرون. وهو معنى التقوى. وبهذا تكون آية هذه السورة أوسع دلالة من سورة الأنبياء الذي جاء فيها: وأنا ربكم فاعبدون.

53-فتقطعوا أمرهم بينهم ...بما لديهم فرحون.

بلغ الرسل المنهج الذي يسير بالبشر في الطريق المستقيم الواحد في جميع الأعصار، المتفق مع فطرتهم، الموصولة مضامينه في تكامل لا تجد بينها تناقض ولا تنافر، ولكن البشر قطعوا هذا الانسجام في حقيقة ما يتدينون به، وفي علاقاتهم ببعضهم تبعا لذلك. فحل بينهم العداء والتعصب، وبلغ اختلافهم في أديانهم أن تراكم من خيالاتهم مناهج كأنها كتب منزلة "زبرا" وأصبح كل فريق منهم مسرورا بضلالاته متعلقا بها، معجبا برأيه لا ينتظر منه أن ينقد ذاته أو يهتدي، ويعادي كل من خالفه، مزقوا وحدتهم قطعا سار كل واحد منهم بقطعته الممزقة التي لا غناء لها . بدلوا كتب الله، واتخذوا من دونه آلهة.

54-فذرهم في غمرتهم حتى حين.

والقوم الذين أرسل إليهم محمد ﷺ، نموذج من الأقوام الفرحين بما لديهم. اتركهم يا محمد وقد أطبقت عليهم ضلالاتهم فغرقوا فيها، شأنهم شأن من أخذه قاع البحر وهو يحسب أنه يسبح فيه. استولت عليهم مباهج الحياة وماهم فيه من زهرة الدنيا فغرقوا في المادة التي أعمتهم عن التفطن لداعي الحق. إنهم مأخوذون في الوقت المقدر لهم أخذا لا انفلات لهم منه.

55-،56، أيحسبون أنما نمدهم به ...بل لا يشعرون.

استفهام ينكر عليهم ظنهم أن ما هم عليه من السعة في الرزق، ومن وفرة في الذرية والعدد، ومن ضروب الرفاهية، مما ألهاهم عن النظر فيما لفت إليه الرسول ﷺ أنظارهم، ظنهم أني مكرم لهم معجل لهم بالخيرات، راض عنهم، هم مخطئون خطأ كبيرا، إن ما مكناهم منه من الخيرات ومتع الحياة الدنيا ليس تعجيلا لهم بالمكرمات كما ظنوا، بل هم لا يشعرون بحكمة ذلك، فإني أستدرجهم من حيث لا يعلمون ليُطبق عليهم الوعيد المحتوم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى

غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإشفاق: التوقع البالغ للمكروه مما يثير الحذر منه.

آيات ربهم : الدلائل التي تضمنها القرآن، وما هو منبث في الكون .

يؤتون ما آتوا: يبذلون المال صدقات وصلات، عن طيب نفس .

وجلة :خائفة.

سابقون : متنافسون في الإكثار من أعمال الخير.

كتاب: سجل جامع.

لدينا : محفوظ عن التغيير.

المترفون : المرفهون المسرفون الذين أبطرتهم النعمة.

الجأر : يصرخون من شدة ألم العذاب صراخا كصراخ البقر .

النكوص : الرجوع من حيث أتى، بمعنى الفرار.

مستكبرين : معرضين عنه استكبارا.

سامرا : تشغلون أحاديثكم في اجتماعاتكم الليلية.

تهجرون : من الهجر وهو السب والكلام السيء.

بيان المعنى الإجمالي :

في مقابل الذين قطعوا دينهم متحزبين معرضين، فصلت الآيات الخمس ملامح المرضي عنهم فذكرت من خصائصهم أن علمهم بمقامهم من رب العزة يجعلهم على حذر شديد من غضبه ورفضه. وأنهم آمنوا إيمانا، حصل لهم منه برد اليقين بالأدلة الواردة في القرآن والمنبثة في الكون. والذين يوحدون الله توحيدا ينفي كل شائبة شرك. والذين يقدمون ما آتاهم الله من أموال طائعة بها نفوسهم ينفقونها في وجوه الخير، ومع هذا هم خائفون أن لا يتقبلها الله منهم، فلا يجدون أثرها عندما يبعثون بين يديه. سحبت عليهم الآية الشهادة التالية: أنهم يبادرون بفعل الخيرات ويتسابقون في الإكثار منها.

ومن رحمة الله بعباده أنه لم يكلف الممزقين للدين شيئا فوق طاقتهم، كما أنه يعذر المتقين الذين تقصر بهم إمكاناتهم عن بلوغ المراتب العالية. وقد حفظ الله كل ما يصدر عن البشر تقيهم وفاجرهم، ولا يظلم الممزقين لدينهم وهو عادل فيما يسلطه عليهم من عذاب جزاء انحرافاتهم، كما يوفي المتقين أجرهم ويعذرهم إن هم قصروا تبعا لقدراتهم.

إن الذين مزقوا دينهم غارقون في الضلالات التي اخترعوها فلا يشعرون بما في القرآن من هداية ولا بما عليه المؤمنون من صالح العقيدة والعمل. وهم ثابتون على أعمالهم الفاسدة مستمرون في الضلال. وأي غاية يهدفون إلى بلوغها ؟

الذي سيظهر في الوجود أننا عندما نأخذ المسرفين المترفين قسرا من معاقلهم ونسلط عليهم عذابنا الذي يستأصلهم، تجد الأتباع يرفعون أصواتهم بالعويل كما تخور البقر. إن بكاءهم وعويلهم لا ينفعهم يوم تسليط العذاب، فإن الاستغاثة لا أثر لها في هذا اليوم.

ثم إبلاغا في النكال بهم يذكرهم ويوبخهم بتذكيره بمواقفهم من القرآن، فقد كان الرسول ﷺ يتلو عليهم آياته، ويشرح لهم مواعظه، وكنتم تفرون من سماع كلامه، والتأمل فيه. وتعرضون عن تذكيره، وضعكم كوضع من أقبل ثم تراجع حذرا مما لاح له. قام في نفوسكم مارد الاستكبار فحجب بصائركم عما تضمنه من حكمة ورشاد، وأخذتموه كملهاة تسمرون في اجتماعاتكم الليلية بسبه وبالكلام القبيح الساقط.

بيان المعنى العام

57←61، إن الذين هم من خشية ربهم ....وهم لها سابقون.

أتبعت هذه الآيات مفصلة الصورة المرضية للذين اهتدوا بهداية المرسلين وطبقوا ما جاءهم من عند الله، في مقابل الذين تقطعوا أمرهم بينهم. وذلك حسب المنهج القرآني في المقابلة بين الخير والشر.

فصلت هذه الآيات الخمس ملامح المرضي عنهم الملتزمون بهداية المرسلين:

أولا. الذين هم مشفقون على أنفسهم أن يحل بهم غضب الله، فاستحضارهم لما تقتضيه العبودية من الطاعة حاضر في مشاعرهم، هم خائفون من أن يكونوا مقصرين في جنب الله.

ثانيا .إن هذا الإشفاق مرتبط بإيمانهم القوي والواضح بالدلائل والآيات التي عرضها القرآن لتثبيت ما جاء به .

ثالثا. هم موحدون التوحيد الذي يفرد الله سبحانه بالألوهية والتصرف، دون شائبة شرك أو غبش في التصور.

رابعا: هم الذين تطهرت نفوسهم من الشح، فهم يقدمون أموالهم مواساة لإخوانهم بالصدقات والهدايا، والنفقات في سبيل الله وفي حماية البيضة، تَطَوُّعَ بها أنفسهم ولا يتعلقون بما أنفقوا، مستشعرين أن ما حصل في أيديهم من أموال أتاهم من فضل ربهم. كل همهم أن يتقبل الله عملهم، خائفون أن يكون حظهم منقوصا يوم يعودون إلى ربهم أن لا يُحظوا بمنازل القرب والرضوان. يقول الحسن البصري: هم الذين يفعلون ما يفعلون من البر ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عقاب الله.

خامسا: جمعتهم الآية 62- فأشارت إليهم مفردة مستحضرة، فسحبت عليهم الوصف الذي هو خلاصة الموصولات، أن خاصيتهم أنهم يبادرون إلى فعل الخيرات، لا يبطئون بإنجازها، ويتنافسون في الإكثار منها .

62-ولا نكلف نفسا ...وهم لا يظلمون.

أوعد القرآن في الآيات السابقة المقطعين للدين الممزقين لنسيجه، ووعد المتقين المستحضرين دوما لجلال الله في قلوبهم. وفي هذه الآية بيان لحقيقة رحمة الله بعباده. فهو سبحانه، وإن كان لا يسأل عما يفعل، فقد لطف بعباده فلم يكلفهم إلا ما يستطيعون الإتيان به بدون حرج، وكلما ضعف الإنسان عن الوفاء بما طلبه منه أسعفه بالتيسير .

والله يعلم قدرات البشر ونواياهم، وقد سجل كل ما يقومون به، وما يقصدون إليه في سجل جامع لا يضيع منه شيء. هو سجل يكشف عما قدموه، يمكن أن يكون ذلك بالصوت، كما يمكن أن يكون بالدلالة الواضحة المساوية للنطق.

والله لا يظلم المتعصبين المقطعين للدين، فما ينزله من عقابهم هو جزاؤهم عن انحرافهم وفسادهم، كما لا ينقص من أجور المتقين شيئا، وإن نزلت مراتبهم في الصلاح تبعا لضعف فيهم.

63- بل قلوبهم في غمرة ....هم لها عاملون.

انتقال لمزيد التسجيل والتشنيع على الذين مزقوا دينهم. إن قلوبهم غارقة فيما تراكم عليها من الضلالات التي اخترعوها وتحزبوا لها وتمسكوا بها، مما جعلهم لا يشعرون بما في القرآن من هداية، ولا بما عليه المؤمنون من استقامة كما فصلتها الآيات السابقة، ولا بالكتاب المحصي لأعمالهم المحفوظ عند الله. فقوله تعالى " من هذا" شامل لما ذكرناه.

و هم فوق ذلك اختصوا بأعمال مخالفة للقران ولأعمال الذين يخشون ربهم، فهم سالكون منهجا مغايرا لمنهج المؤمنين ولما يدعو إليه القرآن. وهم ثابتون على ذلك لا يتوقع منهم إقلاع أو رجوع للحق.

64- حتى إذا أخذنا...إذا هم يجأرون.

افتتحت الآية بكلمة " حتى" وحتى في هذا المقام ليست رابطة للكلام السابق على أن ما بعدها غاية لقوله: "بل لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون" ولكنها بداية كلام، قصد تقريعه على الكلام السابق. فلا تدل على أن قلوبهم في غمرة إلى الوقت الذي يؤخذ فيه مترفوهم . ولكن المقصود تهديدهم بالعذاب المحتوم الذي لا مخلص لهم منه.

وقد يكون تخصيص تسليط الأخذ بالعذاب على المترفين المنعمين المسرفين، لأنهم حلوا مركز القيادة من الأتباع من الدهماء، فانحرفوا بهم وأضلوهم .

وقوله تعالى: إذا هم يجارون، الظاهر من نسق الكلام أن الذين يصيحون من ألم العذاب الذي أخذ به المترفون، هم غير المعذبين، لأن المعذبين قد أهلكهم العذاب فلا يتصور منهم جؤار. ولكن الذين يقيمون المآتم ويندبون الموتى الهالكون هم الباقين. وهذا التهديد المصور لما سيحدث، يمكن انطباقه على ما وقع للمشركين في غزوة بدر، فإن قريشا بكت أبطالها وقادتها الذين ضمهم قليب بدر، ورثوهم بالأشعار، وناحوا عليهم .

65- لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون.

يقال لهم وهم يندبون حظهم ويبكون على المهلكين من سادتهم: إن استغاثتكم ونواحكم لا يستجاب له ولا يتبعه عودتهم إليكم، فقد نفذ فيهم الوعيد وبذلك استوى رفع أصواتكم بالاستغاثة ورضوخكم رضوخ الاستسلام لما حل بكم. إن يوم إهلاكهم يوم تم عزل كل من يظن أن له قوة عن التأثير، والتأثير والتنفيذ لله وحده. فلا تجدون نصيرا ينصركم.

66- قد كانت آياتي ...على أعقابكم تنكصون.

أفادت الآية تقريعهم على ما كانوا يواجهون به النبي ﷺ، وعلى موقفهم مما يتلوه عليهم من آيات القرآن؛ وذلك ليثير فيهم مشاعر الندامة والأسى على ما صدر منهم، وهم الآن بصدد لقاء نتائج ما قدموا.

وجسمت الآية موقفهم الرافض، بأنهم كالفار الراجع من حيث أتى. فالعقب هو مؤخر الرجل، فإذا كان الماشي مقبلا كانت حركته بمقدم رجله، وإذا قصد إلى

عكس حالته الأولى كان سيره متجها إلى جهة أعقابــه. والنكــوص الرجــوع مــن حيــث أتى، كأن ما يتلى عليكم خطر تحذرونه، أو مكروه تتقونه وتفرون منه.

67- مستكبرين به سامرا تهجرون.

إن الداء الذي أضلهم والفساد الذي أعمى بصائرهم عــن الحــق، هــو الاســتكبار، هــو ظنهم أن مقامهم الاجتماعي، وما أوتوه من مال وبنــين، لا يليــق بهــم مــع مــا أوتــوه أن يستمعوا لآيات القرآن، وللمــواعظ التــي تخللتــه، فيكــون معنــى: مســتكبرين بــه معرضين عن القــرآن اســتكبارا. كمــا يحتمــل أن تكــون كلمــة مســتكبرين أشــربت معنى ساخرين بالقرآن.

وأضافوا إلى الإعراض والاستهزاء بما أنزل إلــيهم مــن ربهــم، أنهــم كــانوا يتنــاولون القرآن بالطعن، والدين بالســخرية وفــاحش القــول فــي أســمارهم، ولا يتعففــون عــن القول القبيح انتهاكا لحرمته، وترويضا لأتباعهم ليقفوا مواقف السفهاء من الإسلام

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ

بيان معاني الألفاظ :

لم يدبروا القول : لم ينظروا بعقولهم فيه نظر التأمل.

الجنة : الاختلاط العقلي، نسبوه إلى تأثير الجن.

اتبع الحق : وافق الحق.

الهوى: شهوة ومحبة لما يلائم غرض صاحبه مما لا يخضع لقيم الحق .

خرج :القليل من العطاء .

الخراج: الكثير من العطاء. ويحتمل أن يراد به في الآية الثواب.

ناكبون : معرضون.

لبيان المعنى الإجمالي :

تتبعت الآيات الاحتمالات التي جعلت قريشا يكفرون بالإسلام، فنسقها في صورة أسئلة إنكارية.

الاحتمال الأول: أ لأنهم أغلقوا عقولهم عن التدبر في القرآن العربي الفصيح المتضمن لكل ما تقتضيه الفطرة ويدعو إليه النظر العقلي؟

الاحتمال الثاني : أ لأنهم عاكفون على التقليد فعقولهم محجوبة بحجاب اتباع الآباء؟

الاحتمال الثالث: أ لأنهم جهلوا رسولهم وأخلاقه وكمالاته، أهو غريب عنهم لم يعرفوه ولم يختبروه في شبابه وكهولته فأنكروه ؟

الاحتمال الرابع: أ لأنهم يقولون إنه أصيب باختلال عقلي ؟ وهذا رمي بالباطل الواضح، فإن الكمالات التي دعا إليها، والمبادئ التي أقام عليها الأدلة، والتصور المتكامل للفرد والمجتمع مما لا يمكن أن يرمى الرسول معه بالجنون.

كل ما قالوه باطل وزيف. لأن الرسول جاءهم بالحق الذي لا شبهة فيه عقيدة وشريعة وسلوكا. ولكن الفساد كامن في ذواتهم فتجد أكثرهم يكرهون الحق، والبعض الذي كان له من استقامة تفكيره ما يجعله يفرق بين الحق والباطل، هو واقع تحت تأثير الأكثرية لا يستطيع إظهار مخالفته لهم.

إن رفضهم للحق نشأ عن عاطفة مريضة، لم يتأملوا في القرآن ولكن كرهوه . والكراهة والحب اتباع للهوى لا لصارم العقل الذي يزن ويقوّم بالحقائق لا بالخيالات . والهوى لا يقود صاحبه إلا إلى الضلال، ولو توافق الحق الذي بني عليه أمر الكون مع أهوائهم وشهواتهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن.

إن مبنى كفرهم، أن الله أنزل عليهم ما يحيي الحق الذي جاء على لسان المرسلين في قلوبهم وعقولهم ويذكرهم به، ويرفعهم إلى مستوى القيادة، فقابلوا تلكم النعم بالإعراض عنها، وعدم التأمل فيها.

هل إن المشركين أعرضوا عن التأمل فيما بلغتهم لأنك طلبت منهم مالا ؟ وهذا أمر منتفي قطعا. إنك موقن أن ما يرزقك الله من ثواب وتكريم، وما ييسّره لك من رزق يغنيك عما في أيديهم، فالله هو الرزاق الذي لا تفنى خزائنه ولا يمن بما يعطي.

بكل تأكيد، إنك يا محمد تدعوهم إلى أن يتبعوا الطريق السالك المستقيم الذي يبلغهم قصدهم من أقرب الوجوه وأصلحها. ولكن الذين لا يقرون بالبعث، وقصروا نظرهم على الحياة الدنيا ومباهجها، قد انحرفوا عن الصراط السالك فهم إلى الضياع صائرون.

بيان المعنى العام :

68- أفلم يدبروا القول ...آباءهم الأولين .

تتبع القرآن الاحتمالات التي حجبت قريشا عن الإيمان، وجعلتهم يصدون عن الإسلام ويبالغون في رفضه.

الاحتمال الأول: أنه ما وقع منهم ذلك إلا لأنهم لم يعملوا عقولهم في القرآن، وهو أمر عجيب منهم، جدير بأن ينكر عليهم . ذلك أن القرآن خاطبهم بلسان عربي مبين وهم أهل لسان، ومضامينه تدعو لما يرفع منزلة الإنسان ويسمو به، ويوحد بين البشر، ويقطع دابر الشر. إن عدم قبولهم لا مبرر له إلا أنهم أغلقوا عقولهم عن التأمل فيه. كحل النعامة التي لغبائها تردم رأسها في التراب إذا أطبق عليها الصيادون، ظانة أن الخطر ابتعد عنها لما كانت لا تراهم .

الاحتمال الثاني: أن الرسول محمدا ﷺ قد جاءهم بأمر غير معروف من ابائهم، وهم لعكوفهم على التقليد لا يقبلون إلا ما كان عليه آباؤهم، كما قال تعالى: أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون [1]– فتفيد الآية تهكما بمستواهم العقلي الضيق. فالاستفهام المقدر بعد [أم] إنكاري تهكمي.

كما يحتمل النص أن يكون معناه مالهم أنكروا رسالة محمد ﷺ ؟ أ لأنه قد جاءهم بما لا يعرفه آباؤهم، مع أن هذه سنة المرسلين فإن الله لا يبعث رسولا إلا ليقيم الناس على الحق بعد الضلال الذي ترسخ فيهم.

69- أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون.

الاحتمال الثالث المخالف للواقع: أهم يجهلون خصال رسولهم، كأنه غريب عنهم لم يخبروا أخلاقه وفضائله واستقامته، فيعذرون في إنكارهم لما أتى به ؟ مع أن الواقع أنه كان ملقبا عندهم بالأمين، وكان على خلق عظيم. وأنه ليس بساحر ولا شاعر ولا جربوا عليه كذبا.

70-أم يقولون به جنة...للحق كارهون.

الاحتمال الرابع: أضاقت بهم سبل تبرير الإنكار والرفض، فادعوا زورا وبهتانا أنه قد جن وأصيب بخلل عقلي من مس الجن وروجوا هذه المقالة ؟ وكما جاء في قوله تعالى: أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة [2]– لو أعطوا عقولهم ما رموه بالجنون، فهو كلام جرى على ألسنتهم وهم لا يعتقدونه ولكن للتشويه.

---

[1] سورة البقرة آية 170

[2] سورة الأعراف آية184

ثم إن القرآن بضربة واحدة أبطل كل الاحتمالات السابقة بكلمة " بل" فكل التصورات التي حالت بينهم وبين قبول الإسلام زائفة. فالحق الذي لا زيف فيه، ولا باطل ولا منافاة بينه وبين الواقع، هو ما جاء به محمد ﷺ. ما كان من العقيدة كالوحدانية والبعث والحساب والجزاء، وما كان من التشريع الضامن للعدالة بين البشر، مما يقيم المجتمعات على الأمن والتعاون، وما كان من الأخلاق التي بها يسمو الإنسان في إنسانيته.

و لكنهم لإلفهم للفساد والانحراف، وإقامتهم على البغي والحسد والتعدي والشرك، تجد أكثرهم كارهين للحق لمنافاته لما طبعوا أنفسهم عليه. ومن إنصاف القرآن أنه أسند كراهية الحق لأكثرهم، لأن بعضهم كان على حظ من الحكمة، وقد ظهر ذلك في أشعارهم وكثير من أمثالهم. ولكن هؤلاء كانوا لا يستطيعون أن يظهروا خلاف ما عليه كبراؤهم فيصانعونهم على ما هم عليه خوفا أو تملقا.

71-ولو اتبع الحق أهواءهم...فهم عن ذكرهم معرضون.

أبرزت الآية ما يترتب على فرض أن يكون الحق هو ما يوافق شهواتهم، ولا يخضع لمعايير العقل والعدل. إن الكون مبني على نظام دقيق لا يحيط بجزئياته وتحولاته العقل البشري والقدرات الفكرية الإنسانية . إنه لو كان الكون يجري على مقتضى شهواتهم المتقلبة، وعلى علمهم المحدود الذي لا يستطيع أن يلم بكل ما حدث في الماضي وما يحدث في المستقبل، فإن النتيجة أن يفسد بناء الكون، تفسد السماوات والأرض وما حوته. ويفسد البناء الاجتماعي للبشرية.

سأل أبو حيان التوحيدي أبا علي مسكويه عن الإشكالية التالية فقال: لماذا يكون الشخص حكيما، ذا بصيرة واضحة، وعقل راجح، يعود إليه الناس فيصدرون عن رأيه، ويجدون في ما يهديهم إليه نجحهم، ولكنه إن نظر في أمر نفسه لا يصحبه التوفيق كما صحبه عندما ينظر في أمر غيره . فأجاب: إنه عندما ينظر في أمر غيره ينظر إن كان حكيما بما يهدي إليه العقل، أما إن نظر في أمر نفسه فإن عواطفه وشهواته يكون لها حظ في الحكم [1].

إن نظام هذا الكون هو نظام بالغ الدقة، مقام على أصول العدل، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت. فلو تبع أهواء الناس المتقلبة المتغيرة لذهب النظام وحلت الفوضى محله، والفوضى فساد. ويقول زهير:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد *** ذا عفة فلعلة لا يظلم

---

[1] الهوامل والشوامل ص144

فلو قامت علاقات البشر على الظلم لعم الهرج والقتال وفسدت المجتمعات وتعطل الإنجاز، ولاستأثر الأقوياء بالخير وسحقوا من دونهم. وكل قوي صائر إلى ضعف، فلا ينقطع التغالب والخصام.

بل أتيناهم بذكرهم - إضراب وإبطال لاتباع الحق أهواءهم لم نجعل الحق تابعا لأهوائهم لأنه لا فراغ حتى تحل فيه شهواتهم وأهواؤهم. ولكن أبلغناهم ما يذكرهم بما جاء به المرسلون السابقون الذي نسوه بسبب إلفهم للتراكمات التي غطت على الحق وأقامت الشهوات والتخيلات الباطلة مقامه. كما أن هذا القرآن سيرفع ذكرهم في العالمين. ما كان للعرب ذكر في العالم، وما كانت لهم وحدة تفرض احترامهم، وما كانت لهم حضارة مدنية لغلبة حياة البداوة عليهم، فلما جاء القرآن رفعهم إلى مستوى حمل الرسالة التي يقصر عن رفيع مستواها أي فلسفة أو تنظيم مدني، وفرض القرآن تصورا متكاملا للوجود وللعلاقات بين الإنسان والكون، وبين الإنسان والإنسان. وبالقرآن أصبح للعرب منزلة في الفكر الإنساني، فارتفع المسلمون بالقرآن وبما سنه الإسلام من تشريعات وآداب إلى مستوى القيادة التي حملوها قرونا، ثم إنهم لما تخلوا عن تشريعهم وعن ناصع عقيدتهم، وعن آدابهم السلوكية، خمد ذكرهم، وأصبحوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين .

إن البلية التي حلت بهم بعد أن أنزلنا إليهم هذا الذكر، هي الإعراض عن التدبر فيه، والتشدد في هذا الرفض والإعراض.

72- أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين.

يواصل القرآن عرض الاحتمالات التي يمكن أن يتخذها المعرضون عن الإسلام تعلة لإعراضهم. أنفروا من الإسلام لأنك فرضت عليهم مالا [إتاوة] يدفعونه لك لقاء هدايتهم ؟ إنه من المعلوم أن النبي ﷺ وأهل بيته، حرامٌ عليهم الأكل من الصدقات. وقد أكد القرآن في آيات عديدة أن النبي ﷺ ما كلفهم أن يدفعوا له مالا ولو كان قليلا. إن ما يرجوه لقاء تحمل أعباء الرسالة، ومواجهة المعاندين هو الثواب والرضوان من الله، وهو خير من كل متاع الدنيا. والمال بيد الله يرزقه من يشاء، وهو الرزاق الذي لا يمنُّ بما يعطيه .

73←74، وإنك لتدعوهم...عن الصراط لناكبون.

بعد أن رفع كل الشبه التي يمكن أن يتعلقوا بها لرفض الدين، صرح بالخير الذي جاءهم به محمد ﷺ . إنك تدعوهم إلى الطريق الموصل للسعادة والأمن والطمأنينة والنجاح في الدنيا والآخرة، إنك تخرجهم من الحيرة والضياع برسمك لهم الطريق الواضح المستقيم الذي لا

عوج له، الذي يصل سالكه إلى غايته التي تبرز واضحة من أول الأمر. ولكن الذين كذبوا بالبعث، قصروا همهم على الحياة الدنيا فانقطعت عنهم الرؤية إلى الحياة الأبدية الخالدة، فهم بذلك قد انحرفوا عن الصراط المستقيم وتاهوا في متشابك نواعي الشهوة والهوى، وكلاهما متقلب، ومنقطع، وغير مستمر.

• وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

لجوا: استمروا في الخصام.

الطغيان : الكبر المبالغ فيه

يعمهون : يترددون في الضلالة .

الاستكانة : الخضوع مع تذلل.

التضرع : الدعاء بتذلل.

المبلس :الذي نزل به شر ويئس من زواله.

الإنشاء: الاختراع والإيجاد.

ذرأ : بث وخلق .

بيان المعنى الاجمالي :

يكشف القرآن عن قسوة قلوب المشركين، فقلوبهم لا تلين، ولو رحمهم الله وعطف عليهم، وكشف ما أصابهم من ضر في الأنفس والأموال، فإنهم يواصلون طغيانهم، وتطبق عليهم الحيرة والتردد في ضلالاتهم. وبالفعل فإن الله أخذهم من المأمن الذي كانوا يظنون أنه يحميهم وسلط عليهم عذابه بالقحط والجوع إثر دعائه ﷺ : اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف، وشاهدوا عجزهم وضعفهم ومع ذلك لم يخضعوا لربهم ولم يتضرعوا إليه ليرفع ما حل بهم .

إن الغاية التي سيبلغونها أن الله يفتح عليهم بابا من العذاب، شدته فوق تصوراتهم، فيطبق عليهم اليأس. ومع التهديد والتوبيخ يدعو القرآن البشر ليتأملوا في نعم الله

عليهم وألطافه المتداركة، ليقلعوا عن الشرك ويستقيموا في سلوكهم. فلينظر كل فرد في نفسه، فمن الذي اخترع حاسة السمع وقوانين الصوت، ومن الذي اخترع حاسة البصر وقوانين الرؤية، ومن الذي مكن الإنسان من القدرة على النطق والتفكير ؟ ولكن الذين يدركون تلكم النعم ويقدرونها حق قدرها وتنطلق ألسنتهم وقلوبهم بشكر الله على نعمه عددهم قليل بالمقارنة مع الكافرين. وهو سبحانه المتفرد بخلقكم على وجه الأرض وتيسير حياتكم عليها . إن هذا التنظيم المحكم والأسرار العجيبة تقوم شاهدا على أن الحياة الدنيا مرحلة يتلوها الجزاء عما قدم كل إنسان حتى لا يستوي الخبيث والطيب، إذ استواؤهما مناف للحكمة. وقد تبين لكم أن الحكمة ظاهرة في الوجود كله.

بيان المعنى العام :

75- ولو رحمناهم...في طغيانهم يعمهون .

هذه الآية تكشف عن القساوة المتأصلة في كفار قريش، فلو فرض أن الله تفضل عليهم برحمته، فكشف ما أصابهم من السوء في أبدانهم أو في أموالهم أو في ذريتهم، وسحب عليهم عافيته، فإنهم لا يقابلون ذلكم الفضل بشكره، ولكن بالعكس يستمرون في كبريائهم ويواصلون طغيانهم على من هو أضعف منهم، لقد أطبقت عليهم ضلالاتهم فهم متحيرون لا يدرون الجهة التي تنقذهم منها .

76- ولقد أخذناهم بالعذاب...وما يتضرعون.

في الآية تسلية للنبي ﷺ ، بإظهار أن رفض قريش للدعوة، واستمرارهم على الشرك، ما حصل ذلك لقصور في المجهود الذي يبذله النبي ﷺ ، ولكن للقسوة الشديدة في قلوبهم. يدلك على هذا أن الله سلط عليهم العذاب بالجوع، لما دعا عليهم النبي ﷺ : اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف. وتقبل الله دعاءه، وأصاب قريشا من القحط ومن الشدة ما كاد يسحقهم. إن شأن الإنسان أن يراجع نفسه إذا ابتلي بأمر شديد، ولكنهم واصلوا كبرياءهم وغطرستهم، ولم يخضعوا لله المتصرف فيهم خضوع من يلتجئ إليه، ولم يتضرعوا إليه بدعائه كشف الضر متذللين إليه، وقد ظهر عجزهم، وبانت آثار القدرة المطلقة لله رب العالمين .

77- حتى إذا فتحنا عليهم ...إذا هم فيه مبلسون.

الغاية التي هم صائرون إليها :أن الله يفتح عليهم بابا يفجأهم بما ينهال عليهم من العذاب الشديد . جسمت الآية وضعهم بقوم كانوا محصنين في بيت مغلق بباب، وفجأة يفتح الباب ليظهر من ورائه العدو المهدد لهم ولا يجدون قدرة على رده.

فيطبق عليهم اليأس الذي لا أمل معه. ويحتمل أن يكون العذاب هو ما حل بهم من الجوع أو ما يترصدهم يوم القيامة.

78- وهو الذي أنشأكم وجعل لكم....قليلا ما تشكرون.

مهمة الرسول ﷺ أن ينشر دين الله الموحد للبشر، السالك بهم إلى ما يمكنهم من الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة. ولذا جمع القرآن بين البيان الذي ينتهي بالمتأملين فيه إلى التمسك به واعتقاده، وبين البشارة المرغبة فيما يتبع الالتزام به من خير، وبين التهديد بالعقاب لمن صد عنه وعاند. ولذلك تجد آيات القرآن تنتقل من طريقة إلى طريقة أخرى حتى يشمل التأثير به أكبر عدد من الموجّه إليهم الخطاب.

وعلى هذا المنهج انتقل القرآن من التهديد والتوبيخ إلى عرض ما أفاضه على البشر من نعم توجب إفراده بالعبادة والالتزام بالسلوك المستقيم.

إن الذي اخترع القوة السمعية الناقلة للأصوات، والمميزة بينها، والتي بها يتم التواصل بين البشر وتبادل المنافع وعقد العقود. إن الذي اخترع السمع وضبط له قوانينه هو الله رب العالمين. ولو تعلقت إرادته بتعطيل السمع لتعطل ذلكم التواصل وما يترتب عليه من خير. والأصنام التي تعبدونها عاجزة عن ذلك، فكيف تعبدونها؟ وكذلك الأمر في حاسة البصر، وفي قوة الإدراك، والنطق والعقل. هي نعم كثيرة وجليلة، تشمل البشر جميعا، ولكن عدد الذين يتفطنون إلى تلكم النعم ويقدرونها حق قدرها وتنطلق ألسنتهم بشكر مسديها، قليل بالمقارنة مع الغافلين عنها الذاهلين عن فضل الله العظيم . قال تعالى: (وقليل من عبادي الشكور)[1] وفي الآية إيقاظ للناس ليشكروا فضل ربهم عليهم.

79- وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون.

كذلك نعمة الحياة ونعمة التكاثر، ونعمة ملاءمة الأرض لوضع الإنسان، إذ يعيش على سطحها في يسر ودون مشقة منهكة. سواء أنظرت إلى الجاذبية بينها وبين ما عليها، أو إلى الغلاف الجوي المحيط بها، أو إلى وضعها بين بقية الكواكب، تجد في ذلك نعما لا تحصى، وتنظيما بالغ الدقة مما ينفي الخلق العبثي لا إلى غاية، فالتأمل في كل ذلك يفضي بالناظر إلى أن الإنسان لا بد أن يحاسب على ما عمل، وأن لا يستوي الخبيث والطيب . ولما كانت الحياة الدنيا ليست دار جزاء،

---

[1] سورة سبأ آية 13

كما نشاهد أن الشر قد يستشري وينتصر على الخير، فلذا كان قيام الناس لرب العالمين ليجزيهم أمرا يقتضيه المنطق وقوانين العقل.

وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

أساطير : جمع أسطورة، الخبر الكاذب الذي يكسى صفة الواقع.

ملكوت : الملك الكامل الذي يتبعه التصرف في الدقيق والجليل منه .

بيده : بقدرته .

يجير : يغيث ويمنع من الأذى.

بيان المعنى الإجمالي :

حقيقةٌ واقعة ماثلة أمام أنظار البشر جميعهم، إن الله هو المتفرد بالتصرف في إنشاء الحياة وفي سلبها، وكذلك في التأثير بتعاقب الزمان بين الليل والنهار، ما للأحداث تمر على أنظاركم فلا تتدبروا فيها أليست لكم عقول!

هم لا يعقلون لأنهم عطلوا ملكاتهم، واعتمدوا التقليد لمقالات الأسلاف، وما قال الأسلاف ؟ قالوا: إنه إذا متنا وتحللت أجسامنا واختلطت بالتراب وتفرق هيكلنا العظمي، فمن غير المقبول أن نعود إلى الحياة من جديد. لقد سمعنا هذا الوعد ومات من مات ولم يعد أحدمنهم إلى الحياة، ومنْ قبلنا وُعِد آباؤنا هذا ولم يتبعه بعث، فما هذه الدعوة إلا أسطورة كاذبة لا أساس لها تروج منذ زمن بعيد .

ثم تابع القرآن الأسئلة الملجئة لهم ليعترفوا بتفرد الله بالألوهية.

السؤال الأول: قل من يملك الأرض وما فيها ومن عليها إن كان لكم حظ من العلم؟ لا يجدون إلا جوابا واحدا وهي أنها ملك لله. فأصنامهم التي يعبدونها مكونة من أجزاء من الأرض. وينكر عليهم أن لا يفضي بهم التذكر والتأمل في هذه الحقيقة لاطراح معبوداتهم المزيفة .

السؤال الثاني: ارتق معهم في السؤال وقل لهم من الذي نظم أمر السماوات والعرش المهيمن عليها؟ إنهم لا يجدون أيضا إلا جوابا واحدا، هي لله يتصرف وحده فيها، فقل لهم موبخا: أفلا تتقون غضب الله وعقابه باتخاذكم شركاء له ؟

السؤال الثالث: ترقّ معهم في السؤال فقل لهم :من تفرد بالتصرف الكامل والملك الشامل لكل شيء في هذا الوجود، وهو يغيث ويحمي، ولا يستطيع أحد أن يحمي من قدر الانتقام منه، إن كان لكم حظ من العلم ؟ سيقولون متبتين :أن ذلك لله. واسألهم سؤال تعجب وإنكار، كيف يروج عليكم ما يخيله لكم أئمة الكفر كما يروج السحرة على من استولوا على أخيلتهم ؟

لا يمكن أن تروج التخييلات التي يروجها أئمة الكفر، لأن الله قد أتاهم بالحق الواضح ، إنهم لكاذبون في دعواهم أن القرآن أساطير الأولين.

بيان المعنى العام :

80-وهو الذي يحيي...أفلا تعقلون.

يواصل القرآن لفت الأنظار إلى تفرد الله بالتصرف. ففصّل ما يشير إليه قوله وهو الذي ذرأكم في الأرض، أنه سبحانه وحده هو الذي ينشئ في الكائن الحياة ، وهو الذي يسلبها عنه فيعقب الموت الحياة . وهذه ظاهرة تتكرر في الوجود . ولا يمكن نكرانها، وبقدرته يعقب الليل النهار، ويعقب النهار الليل في دورة منتظمة لا اختلال فيها. ومن بديع النسج القرآني تعقيب الموت والحياة بالليل والنهار، ففي الليل تسكن الكائنات، فهي الموتة الصغرى، وفي النهار يتحرك الكون فهو بعث جديد له . إن هذه الأدلة البينة الظاهرة يقرّها العقل ولا يقبل المنطق إلا بها. فما للمشركين معرضون عن التوحيد. أسلبوا العقل، والمنطق، فترتسم عندهم المظاهر غير مرتبطة بالعقل.

81←83- بل قالوا مثل ...إلا أساطير الأولين.

بل إضراب يفيد نفي كونهم يعقلون، بعرض ما يعتقدونه ويروجونه مما يؤكد أنهم لا يتمتعون باستقلال عقلي، هم مقلدون لما صدر عن أسلافهم من الأمم المشركين يعيدون مقالتهم . ماذا قال أسلافهم ؟ قالوا متسائلين سؤال إنكار، أئذا متنا وفارقنا

الحياة، وتحللت أجسامنا فاختلطت بالتراب، وتفرق الهيكل العظمي فانتثرت عظامنا، أيمكن والحالة هذه أن نعود إلى الحياة من جديد ونبعث؟ إنه تصور بعيد وغير مقبول فقد وعدنا الرسول بهذه الحياة، كما وُعد آباؤنا وسلفنا من قبلنا. هذا الوعد لا يعدو أن يكون من أنواع الأساطير الكاذبة، التي راجت وتروج للتلهي ولا أصل لها.

84←85-قل لمن الأرض...أفلا تذكرون.

قل لهم يا محمد ملجئا لهم ليعترفوا بما لا يستطيعون إنكاره، أو المغالطة فيه، قل لهم: من يملك الأرض التي تعيشون على ظهرها، ومن يملك ما حوته من خيرات إن كان لكم نصيب من العلم ؟ أجيبوني. ويعجل القرآن بالجواب الذي لا جواب غيره، سيقولون هي لله وحده. وإذ اعترفوا فما لهم لا يتدبرون ولماذا لم تتفطن عقولهم إلى أن آلهتهم مزيفة لا حقيقة لها .

86←87- قل من رب السماوات...قل أفلا تتقون.

ثم ترقّ مع المشركين في عرض الأسئلة الملجئة لهم. اسألهم يا محمد: من رب السماوات السبع، من الذي يدبر أمرها ويرتب أوضاعها ويحفظها، كما يشير إلى ذلك كلمة " رب"؟ ومن رب العرش العظيم الذي هو أعظم من السماوات والأرض ويهيمن عليها جميعا ؟ إنه ليس لهذا السؤال إلا جواب واحد، هي مملوكة لله يتصرف فيها بحكمته ويضبط أمورها بقدرته. وإذ أُلجئوا فاعترفوا بأنه هو الله المتصرف وحده فيها، فقل لهم: ما لكم لا تتقون الله فتحذروا عقابه وتسارعوا إلى تنفيذ ما أمركم به ؟

88←89- قل من بيده ملكوت....فأنى تسحرون.

وترقى القرآن في السؤال ليبكتهم، اسألهم يا محمد :من الذي شمل ملكه وتصرفه كل شيء في السماء أو في الأرض، في الحاضر وفي المستقبل، من أوجد وأفنى وأعطى ومنع، من الذي خضعت كل الكائنات لإرادته وقدرته ؟ هذا هو معنى الملكوت أي الملك الكامل، المقترن بالتصرف الشامل .

وهو الذي يغيث من استغاث به، ويمنعه من أن يلحقه أذى لعزته. وهو من ناحية أخرى إذا أراد تسليط عقاب على أي كائن، فإنه لا يستطيع أحد أن يمنع من أراد عقابه. وألحق بهذا السؤال قوله: "إن كنتم تعلمون " حث لهم ليتدبروا هذا الأمر الخفي. فإن الأدلة كثيرة ولكن انغماسهم في الكفر قد يحجبهم عن معرفة ذلك، فحرضهم على التدبر في سلطان الله الشامل.

إذا كان مضمون هذا السؤال وما يقتضيه من الجواب : أن الله وحده هو المتفرد بذلك، فالعجب منكم أن يروج عليكم الباطل أو أن تفعل في مشاعركم التخييلات التي يؤثر بها أئمة الكفر فيكم تأثير السحر .

90- بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون.

نفي وإبطال لأن يكونوا مسحورين، باعتبار أن الذي أتاهم من عند الله هو الحق الناصع الذي لا شبهة ولا مخالفة للواقع. وبكل تأكيد إنهم كاذبون في دعواهم أن القرآن أساطير الأولين.

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

بيان معاني الألفاظ،

لذهب : لاختص واستقل.

سبحان الله : تنزه الله .

تعالى : ارتفع وعظم.

همزات الشياطين : كتحريك القوة الغضبية التي يتبعها رد الفعل العنيف .

بيان المعنى الاجمالي ،

أوهام عششت في عقول الجاهليين، فنسبوا لله الملائكة على أنها بنات له، وذهب بعضهم إلى أن عيسى ابن لله، نفى القرآن نفيا قاطعا أن ينسب أي كائن لله على أنه ولد له. كما أثبتوا له شركاء، فنفت الآية أن يكون لله شريك في ألوهيته. ثم بين أن هذه العقيد مناقضة لمقتضيات العقل. إنه لو فرض أن مع الله إلها آخر فمؤدى ذلك اختصاص كل إله بما خلق، ولا يقدر أي منهم على التدخل فيما خلق غيره، فيفضي إلى عجز الإله عن التصرف، والإله لا يكون إلا كامل القدرة قدرة عامة وشاملة لجميع الكائنات، ففرض إله ممنوع من التصرف مناقض عقلا لمفهوم

الألوهية . وإذا كان أحدهم أقدر من غيره فمؤدى هذا الفرض أن البقية خاضعون له فيكون وحده الإله. تنزه الله عن أن يكون له ولد أو شريك.

إن علم الله يشمل كل شيء، يعلم المشاهد كما يعلم ما هو مغيب عن الأنظار. فالله أرفع وأعظم من أن يكون له شريك.

ثم لقن القرآن النبي ﷺ أن يدعو ربه بنجاته من العذاب الذي سيسلطه على المشركين، وأن لا يكون مع القوم الظالمين عندما تحل بهم النقمة. وهذا وإن كان أمر لاشك فيه إلا أنه تعليم للبشرية جميعا أن يكونوا على حذر وخوف من سلطان الله.

وتسليط العذاب على المشركين بحيث يرى النبي ﷺ ما سيحل بهم وهو في منجاة من العذاب هو من صنع القادر على كل شيء، فهو وإن كان أمرا مستقبليا إلا أنه محقق لا شك فيه.

ثم أرشد رسوله أن لا يقابل السيئة بالسيئة، بل بالطريقة التي هي أحسن، تاركا له الاجتهاد في تحديد رجعه حسب ما يحقق الصلاح. وهدد المؤنين لرسوله بأن الله لا يخفى عليه شيء لا من نواياهم ولا من أفعالهم السيئة، على معنى أنهم سيلقون جزاءهم العادل.

أرشد الله نبيه أن يقول داعيا متحصنا بقوة الله وتأييده ليحميه من تأثير الشياطين في القوة الغضبية مما يثير داعية الانتقام من المؤذين، وكذلك الاستعاذة بقوته من أن يقتربوا منه لأن حضورهم وهم أهل الشر لا يأتي منه خير .والشياطين يحتمل أن يكون المراد منهم شياطين الجن، كما يحتمل أن يكون المقصود شياطين الإنس.

بيان المعنى العام :

91- ما اتخذ الله من ولد .....سبحان الله عما يصفون.

بعد أن ألجأهم بتعاقب الأسئلة إلى الاعتراف بالخالق، وتفرده بالتدبير والتصرف في الكون، انتقل القرآن لعرض الحقائق التي ضل فيها المشركون، فأثبت الحق ونفى ما يروجونه من ضلالات وأباطيل، وأيد تلكم الحقائق بالبرهان. الحقيقة الأولى أن الله واحد ليس له ولد. وفي هذا رد لما يعتقده بعض العرب من أن الملائكة بنات الله، يشاركونه في التصرف . وفيه رد على ما يروجه المسيحيون من أن عيسى ابن لله. ولنفي الضلالتين نفى عن الله الولد ؛ وكلمة الولد تصدق على الذكر والأنثى. فلا الملائكة الإناث على زعمهم، ولا عيسى ابن مريم، بينهم وبين الله صلة الوالدية.

والحقيقة الثانية أنه لا يوجد مع الله إله آخر، فهو الواحد الأحد .

إن انتفاء أن يكون مع الله إله آخر قضية يحكم بها العقل، ذلك أنه لوكان مع الله إله آخر فإن التصورات العقلية تنحصر في الفروض الآتية :

الفرض الأول: أن يستقل كل إله بنوع من الخلق، أو بقسم من المخلوقات المتنوعة، فعلى هذا الفرض يستقل واحد بخلق الحيوانات مثلا، والآخر بخلق البشر، وثالث بخلق السماوات، وهكذا. وعلى هذا الفرض يكون كل إله هو المتصرف في ملكوته، ولا يتدخل أي إله فيما هو من خصائص الإله الآخر. وهذا يفضي إلى الاستحالة .لأن فرض كونه إلها يقتضي أن يكون مختلفا عما هو تحت سيطرته، إذ ما هو تحت سلطانه، هو ممكن ما بلغ مرتبة الوجود إلا بفعل الخالق الذي لا يعقل أن يستوي معه في مستوى الوجود، أي إن المخلوق يكون جائز الوجود، والخالق لا يكون إلا واجب الوجود . وإذا فرض أنه واجب الوجود فإن هذا المستوى يتبعه أن يكون تصرفه لا يحد بحدود، والنوع الذي تفرد به خالق غيره يمنعه من التصرف في ميدان الإله الآخر، فيفضي أيضا إلى أن يكون عاجزا عن التصرف، والعجز نقصان، واعتقاد الألوهية التي معناها الكمال المطلق، والتزام العجز تناقض . وذلك ما يفهم من قوله تعالى: " إذا لذهب كل إله بما خلق" وعندما يعجز غيره عن التدخل في نطاق مخلوقات الإله الآخر. فإن هذا يتبعه أن يعم العجز جميعهم.

الفرض الثاني: أن يعلو أحدهم على بقية الآلهة، ويكون هو الأقدر، وغيره لا يستطيع أن يتحرك إلا بإذنه وتحت سلطانه، وعندئذ فإن الإله القوي المتصرف هو الحقيق بالألوهية، وكل الآلهة الأخرى زائفة لا حقيقة لها. فثبت أن الإله لا يكون إلا واحدا.

وتقرر الآية تبعا لذلك أنه يجب تنزيه الله تنزيها مطلقا عن كل ما يصفه به المشركون، فإنها صفات تفضي إلى النقص والعجز، والله هو الكامل الكمال المطلق.

92- عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون.

إن الله متصف بالعلم الذي لا يغيب عنه أي شيء موجود مشاهد، ولا يجهل ما كان مضمرا سيحدث في المستقبل، إذ العلم الإلهي علم ذاتي لا يحتاج في حصوله إلى المشاهدة. وبناء على هذا فإنه يتأكد أن الإله لو كان متعددا فإنه لا بد أن يكون كل واحد عالما بما خلق غيره، فإذا علم الإله ما خلقه غيره، فإن تساووا عجز كل واحد عن التدخل في ملكوت غيره، وإن كان أحدهم أعظم ورضخ غيره له فلا يكون غيره إلها. فتعالى الله وتنزه عن أن يكون له شريك

93-←94-قل رب إما تريني ما يوعدون... فلا تجعلني في القوم الظالمين.

لقّن الله نبيه أن يتوجه إليه بالدعاء لينجيه من العذاب الذي سيحل بالظلمة. وفي هذا التلقين إشارة إلى أن حلول العذاب بالمشركين غير بعيد، وأن النبي ﷺ سيشهد العذاب عندما ينزل بهم، وفيه أيضا إشارة إلى أن تصحبه الخشية والحذر من غضب الله ليرتفع في مقام العبودية ويتضاعف أجره، وفي هذا ما يوقظ المؤمنين إلى الدعاء بحسن الخاتمة .

95-وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون.

حقق الله لرسوله أنه سبحانه قادر على أن يريه عذابهم، ، وإن كان هذا الظاهر ضروريا ومعلوما إلا أن ما تفيده الآية هو أمر وراء ذلك. إذ يفيد النص أن النبي صلى الله عليه سيشهد عذابهم وهو في أمن، كما يفيد أن العذاب لا يكون سماويا عاما، كالعذاب النازل بقوم لوط وثمود، فإن الله أبعد لوطا وصالحا عن موطن العذاب، بينما العذاب الذي أوعد الله به المشركين سيكون غير سماوي، يسلطه الله على رؤوس الشرك المتجبرين المستكبرين، ويراه النبي ﷺ كما وقع يوم بدر .

96- ادفع بالتي هي أحسن ...بما يصفون.

تولى الله رسوله فبلغ به المستوى الأرفع في حسن التعامل، أمره أن يدفع الإساءة التي طبع عليها الكافرون من الغلظة، وسوء الأدب بالطريقة التي هي أحسن، وأن لا يجاريهم في إساءاتهم المتنوعة والمتكررة. وأن يتسع صدره الشريف لما يصدر عنهم ولا يضيق بهم، ضيقا يسبب له الكمد. فهو أرفع من أن يتأثر بسفاهتهم. وهو إرشاد للمؤمنين كي يتأسوا برسولهم .ومن ناحية أخرى فإن في ربط رد الفعل المتسامح بالتي هي أحسن، وعدم تحديده ما يترك مجالا لتنويعه بالاجتهاد حسب الطريقة التي تكون محققة للغاية منه.

وختم الآية بقوله : "نحن أعلم بما يصفون " تهديد للمشركين الذين يؤذون رسول الله بأن الله مطلع على ما يقومون به وما يصفون به رسوله، مما ينبئ بأنه سيجزيهم. يقول ابن عطية : اشتغل أنت بهذا، وكلّ تعذيبهم والنقمة منهم إلينا .

97-←98-وقل رب أعوذ بك ...أن يحضرون.

يوالي القرآن رعاية الله لرسوله فيأمره أن يتحصن بقوته وأن يحفظه، من أن يغضب من أذى المشركين فيصدر منه حدة من عنف لفظي أو مادي، مما لا يتناسب مع مقامه الرفيع ومستواه الخلقي العظيم . فإن الإنسان قد تهزه سورات الغضب ولا يملك نفسه فيها، فأمره أن يطلب منه العون في هذه الحالات التي قد

يتزلق إليها لولا حفظ الله ورعايته. والدعاء هنا موثق للإجابة .وهل المقصود بالشياطين شياطين الجن الذين يحركون داعية الغضب . أو شياطين الإنس الذين يثيرون بسفههم .وفي سورة الناس تعليم للاستعاذة من شياطين الإنس والجن. ومع الاستعاذة من همزهم أمر بالاستعاذة أن يقتربوا منه، إذ يتبع قربهم حصول الأذى منهم لما جبلوا عليه من الشر.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

فيما تركت : عالم الدنيا.

كلا: ردع للسامع ليعلم إبطال طلبة الكافر .

ورائهم : ما يصيب المرء وهو غير متوقع لأن يصيبه.

البرزخ : الحاجز بين مكانين، والمراد به هنا مقام الأموات إلى يوم البعث.

الصور : أصله البوق الذي إذا نفخ فيه وسمع صوته الجند أسرعوا لأخذ مراكزهم في جبهة القتال.

اللفح : إصابة النار بالوهج والإحراق.

الكلوح : تقلص الشفتين وظهور الأسنان .

بيان المعنى الإجمالي :

انتقل القرآن لبيان وضع الكافرين إثر الحياة الدنيا. فأول ما أثبته أن الكافر عند مفارقة الروح للجسد، وقد كشف الغطاء وبدا له ما سيلقاه، أنه يجأر إلى ربه أن يعيده للحياة الدنيا رجاء أن يغير عقيدته وسلوكه فيعمل العمل الصالح في الدنيا التي

يعود إليها . نفى القرآن نفيا قاطعا أن يستجاب له، وذلك لأن ما صدر منه لا يبلغ المستوى الذي يتحقق عند عودته للدنيا، فهي كلمات تطق بها لسانه ولم تتصل بقلبه وعزيمته. وسيبقى طيلة المدة التي بين موته ويوم القيامة منتظرا لتنفيذ الوعيد فيه، في البرزخ القبر أو ما رتبه الله لتجميع الأرواح، وسينكشف له فيه مآله.
ويعرض القرآن وضع المشركين يوم القيامة. انقطعت الصلات التي كانوا يجدونها سندا عند الشدائد، فلا نسب ولا صداقة، كل واحد همه في ذاته فلا سؤال بينهم.
ويقابل القرآن بين عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين، فيعبر عن الصالحين بأن حسناتهم تغلب سيئاتهم في المقدار، فيكون جزاؤهم إعلان نجاحهم، وأما الكافرون فلا يجدون أي عمل من أعمالهم التي ظاهرها أنها خيّرة، لا يجدون منها شيئا فقد أصبحت هباء منثورا. هم قد خسروا أنفسهم وكيانهم تلتهمهم جهنم، لا يخرجون منها أبدا. تشوي وجوههم النار، فتتقلص شفاههم عن أسنانهم في صورة بشعة كما يشاهد في رأس الكبش عندما يتعرض للنار لإزالة ما عليه من شعر.
ثم يسألهم المولى سؤال إنكار وتوبيخ فيقول لهم: ألم يكن الرسول يتلو عليكم اياتي من القرآن واضحة بينة، فكان موقفكم منها التكذيب ؟ ويعتذرون عن إعراضهم بأن الشقاء غلب على اختيارنا، ونعترف أن الضلال كان متمكنا منا. ثم يمكن الله أنفسهم من أن تسول لهم سؤال ربهم أن يخرجهم من جهنم ليعيشوا حياة الصلاح، وإن عدنا لما كنا عليه فنكون قد أصبحنا نمثل الظلم المطلق.

بيان المعنى العام :

100/99 - حتى إذا جاء أحدهم ....إلى يوم يبعثون.

انتقال إلى وصف ما يلقاه الكافرون في الآخرة بعد أن وصف ما يلقون في الدنيا.
ابتدأه بأول مراحل الخروج من الحياة الدنيا، وهو وقت مفارقة الروح الجسد؛ يدعو الكافر في هذا الظرف ربه بقوله :ارجعون إلى الحياة الدنيا، مما يدل على أن ما يبدو له من مصيره يحمله على التوجه بهذا الطلب .وخطاب الجمع موجه إلى الله تعظيما لجلاله. وعلل ذلك برجائه أن يتحول عن حياة الضلالة إلى الحياة المستقيمة على الصراط المستقيم، فيقلع عن الشر ويمحض أفعاله إلى الخير، ويطرد ما كان يعتقده . فهو في هذا الظرف معترف بفساد ما كان عليه، آمل أن يتقبل ربه دعاءه فيعيده إلى الدنيا التي تركها ليصلح ما فرط فيه لما كان حيا .
ويأتي الجواب من رب العزة صارما قاطعا: "كلا" مقررا أن لا وجه لاستجابة طلبه. إن طلبه هذا وإن كان قد أخرجه في صورة المعترف بذنبه العازم على الإسلام والعمل الصالح، إلا أن الحقيقة أن ذلك لا يعدو أن يكون كلاما صدر من

لسانه لا أثر له في المستقبل. وهو كلام مقطوع عن العزيمة، يردده اللسان ولا عمق له في النفس. يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله: هذا الكلام يجري مجرى المثل، وهو من مبتكرات القرآن.

ثم يأتي بعد موتهم حاجز عبر عنه بالبرزخ. واختلف في المراد بالبرزخ، فقيل القبر أي إنهم ما كثون إلى يوم البعث، وفسر بأنه عالم بين الدنيا والآخرة تستقر فيه الأرواح، وينكشف لها فيه مآلها. فهم ماكثون في مستقرهم بعد الموت لا يعودون إلى الدنيا، يتواصل إلى يوم القيامة .

101 - فإذا نفخ في الصور ...ولا يتساءلون.

ثم تثنى بذكر مشاهد عودة الأرواح إلى أجسامها يوم القيامة، وجسم هذه العودة التي يُبعث فيها البشر جميعا من قبورهم. بأن صوّرهم كالجند الذين يكونون مخلدين إلى الراحة، فبمجرد ما يسمعون صوت البوق الداعي إلى النفير، يسرعون إلى مراكزهم في جبهة القتال. وروي أن إسرافيل ينفخ في بوق ليس من أبواق الحياة الدنيا، ولكنه بمجرد ما يحدث فيه، ما عبر عنه بالنفخ، تعود الأرواح إلى أجسامها. ومن خصائص هذا المشهد أن يشتد الهول حتى لا يلتفت أحد إلى ما يربطه بغيره من القرابة أو الصداقة تقطعت الصلات، لا ينفع في ذلك اليوم ما كانت تجري عليه الحياة الدنيا من التناصر والتعاون والنجدة بالقرابة وغيرها .

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عما يبدو من الاختلاف بين قوله تعالى في هذه الآية : فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون- وبين قوله تعالى : وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون [1]. فأجاب بأن الآية النافية للتساؤل هي عقب النفخة الأولى التي يصعق فيها من في السماوات والأرض إلا من شاء الله. وأما المثبتة للتساؤل فهي عند النفخة الثانية.

102 - فمن ثقلت موازينه ...هم المفلحون.

يتوزع البشر إلى صنفين :

قسم كثرت حسناتهم وقلت سيئاتهم .عبر عن ذلك بثقل الميزان . وذلك بضابط هو من شؤون الآخرة، فليس هناك ميزان له كفتان ولسان، يظهر ميل الثقل إلى أحد الجانبين . لقد ظهرت موازين للحرارة وموازين لضغط الطقس، وموازين لصفاء اللبن من الغش، وموازين لقوة العظام، بل ظهرت موازين إلكترونية بالغة الدقة والحساسية لضبط الثقل .

---

[1] سورة الصافات آية 27

103 - ومن خفت موازينه...في جهنم خالدون.

وقسم خفت موازين حسناتهم، ذلك أن كل عمل لم يستند إلى عقيدة صحيحة ونية سليمة هو عمل لا قيمة له ولا وزن، قال تعالى : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا)[1] فكل ما عملوه في حياتهم الدنيا مما ظاهره الخير، هو عمل محبط لا ثواب له . وأعلن القرآن عن عاقبتهم أنهم خسروا أنفسهم . إن شأن الخسارة أن ترد على مال التاجر فينقص عن أصله، أما خسارة المشركين فهي منصبة على ذواتهم تأتي على كيانهم، فتلتهمهم جهنم ولا يخرجون منها أبدا.

104 - تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون.

تحرق نار جهنم وجوههم، والوجه مجمع الحواس فالإحساس بالآلام فيه أشد، وقد قبحت صورهم فهم كالحون تتقلص شفاههم العليا والسفلى عن أسنانهم كما يشاهد في رؤوس الكباش عندما تشوى بالنار لحرق ما عليها شعر .

105 -ألم تكن آياتي ...بها تكذبون.

يتوجه إليهم الخطاب في صورة سؤال إنكاري مقرعا لهم. ألم يكن الرسول ﷺ يتلو عليكم آياتي من القرآن المنزل عليه تفضي بالمتأملين فيها إلى اليقين بصدقه ؟ ولكنكم أعرضتم عن التأمل فيها وكذبتم ما لا شبهة فيه.

106 -قالوا ربنا غلبت... وكنا قوما ضالين .

كان جوابهم جواب الندم والحسرة في الوقت الذي لا ينفع فيه ندم، ولا توبة مقبولة، قالوا ربنا استولى علينا شقاؤنا، نفرتنا من طريق السعادة. وقد تمكنت الضلالة منا.

107 -ربنا أخرجنا منها....إنا ظالمون.

وأضافوا متضرعين لله أن يأذن بإخراجهم من جهنم، ليعيشوا حياة الإيمان والاستقامة، ونعترف مقدما أنا إن عدنا لما كنا عليه من الكفر وعمل السيئات، فإنا نكون قد أصبحنا نمثل الظلم المطلق الشامل .

قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ

---

[1] سورة الفرقان آية 23

هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

اخسأوا: كلمة تدل على الزجر والإذلال .

سخريا : موضع استهزاء .

الفوز : النجاة من هلكة إلى نعمة .

بيان المعنى الاجمالي :

أفادت الآية أن الله يزجرهم زجرا مهينا، كونوا أذلاء في جهنم ولا تكلموني. هذا جزاء معاملتكم لفريق من عبادي الصالحين، ما أضروكم ولكنهم كانوا يتوجهون إلي معلنين إيمانهم يدعونني أن أغفر لهم ذنوبهم وأن أدخلهم في رحمتي التي لا تعادلها رحمة ؛ كنتم تسخرون منهم حتى ألهاكم الاستهزاء بهم ومعاكستهم عن التدبر فيما أنزلت، بل كنتم تضحكون منهم لهدم عزتهم. إني جزيتهم اليوم بسبب صبرهم على إذايتكم أني قدرت أن يكونوا هم الفائزين بالجنة .

ويقال للمشركين كم عدد السنين التي قضيتموها بعد خروج الروح منكم، فيجيبون: لم تطل مدة بقائنا إلا يوما، ثم يدققون بل بعض يوم، ثم يختلط عليهم الأمر فيقولون :اسألوا من يحسن الحساب فما ندري كم لبثنا .فيقال لهم : كانت المدة قصيرة لو كان لكم علم بحقائق الأمور . مضى عليهم قرون لم يشعروا بها إذ بعثوا على هيئاتهم يوم فارقوا الحياة الدنيا .

إن جرثومة ضلالكم أنكم ظننتم أن الله الحكيم خلقكم عبثا، تختارون وتفعلون ما تشاؤون، ثم تكون النتيجة واحدة سواء اخترتم الخير أو الشر، والإيمان أو الكفر، مما لا يتناسب مع الحكمة الإلهية .

بيان المعنى العام :

108- قال اخسؤوا فيه ولا تكلمون.

بعد أن تضرعوا بما يفتح لهم باب الرجاء في الاستجابة، يأتي الجواب القامع من رب العزة : اخسؤوا زجرا لهم وتيئيسا من أن يسمع لتضرعهم أو يستجاب لدعائهم . وكثيرا ما يزجر بهذه الكلمة الكلاب . وقمع الرجاء إذا قارنه زجر، يتبعه

عذاب نفسي شديد للرد مع الإهانة. ونهاهم أن يكلموه أو أن يسألوه. فهم في منزلة من الحقارة لا يقبل معها أن يخاطبوا رب العزة.

109←111- إنه كان فريق من عبادي ...هم الفائزون.

لله أن يفعل ما يشاء، ولكنه الحكيم فلا يصدر عنه إلا ما يوافق الحكمة البالغة .فإنه لما زجر أهل جهنم بعد تضرعهم، علل ذلك بما صدر منهم ، فإنهم يوم كانوا في ظنهم أعزة، عاملوا المستضعفين من المؤمنين معاملة الاستهزاء والاحتقار . لقد كان فريق من المؤمنين الذين يصرحون بما ثبت في قلوبهم من الإيمان بالله ورسوله وبما جاء به، وهم على وجل يدعون ربهم أن يتولى ستر ذنوبهم وإزالة آثارها، وأن يدخلهم في رحمته التي بها تطمئن القلوب ويحصل الرضا معترفين أنه لا رحمة تعدل ربهم ؛ كان تضرعهم على هذا النحو ولم تكن لهم شوكة تدفع بالمهابة في قلوب الكافرين، وليست لهم قبيلة عزيزة تحميهم، كان من صنيع الكافرين أنهم كانوا يستهزئون بما هم عليه من الإيمان والتقوى . وشغلوا بذلك واستولت عليهم السخرية بهم حتى نسوا ذكر الله والتدبر في آياته. وصحب سخريتهم التعبير المؤذي بالضحك منهم . فكان الجزاء بقوله تعالى: اخسؤوا فيها ولا تكلمون، جزاء عادلا لاستكبارهم واستهزائهم وإذايتهم للمستضعفين من أصحاب رسول الله ﷺ .

تنكيلا بالكافرين المستهزئين، وتكريما للمستضعفين ماديا، الأقوياء روحيا ونفسيا، صدر هذا الإعلام الذي أعلنه الله بقوله : إني توليت جزاءهم بسبب صبرهم على إذايتكم والسخرية بهم، وثباتهم على الإيمان .وما هو جزاؤهم ؟ جزاؤهم أنهم هم الذين نجوا من الهلاك وحلت عليهم النعمة وذلك بدخولهم الجنة، كما جاء في قوله تعالى : (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز)[1]

112←113-قال كم لبثتم ... فاسأل العادين.

سجلت الآية سؤالا يلقى على المجرمين . أما وقت إلقاء السؤال عليهم فاختلف فيه المفسرون، فرأى بعضهم أنه سؤال لهم في عرصات القيامة، وقيل عند البعث من قبورهم، وقيل عندما يكونون في النار .

والذي أستروحه أنه نوع آخر من عقابهم على استهزائهم بالمؤمنين، بإظهار جهلهم الفاضح على رؤوس الملأ، فيكون هذا السؤال واقعا في عرصات القيامة. يسألهم ربهم أو الملك الموكل بعذابهم: كم لبثتم في القبور، وما هو الأمد الذي

---

[1] سورة ال عمران اية 185

مضى عليكم وأنتم في البرزخ؟ ويتحيرون في الجواب فيترددون بين أن يكون مضى عليهم يوم واحد، ثم يظهرون أنفسهم بمظهر من يتعلق بالتدقيق، فيعطفون أو بعض يوم، ثم يتبرؤون من الدقة فيحيلون الجواب على من عني بحساب ذلك . ذلك أنهم ينظرون إلى أجسامهم فيجدونها كما كانت في آخر لحظة من الحياة الدنيا ويختلط عليهم الأمر بما اقترنت به هذه الظاهرة من مشهد القيامة.

114- قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون.

كانت إجابتهم مثيرة للاستهزاء بهم، إذ أرادوا إظهار أنفسهم بأنهم على حظ من الدقة، ، وإمعانا في فضح جهلهم عقب كلامهم: نعم إن لبثتم إلا زمنا قليلا بالنسبة لعلم الله ولكنه في حقيقة الأمر قرون متطاولة، ورغم ذلك فلما تعلقت القدرة الإلهية بإخراجكم كيوم موتكم، تم ذلك دون أن تتفطنوا .

115-أفحسبتم أنما ...لا ترجعون.

إن منشأ ضلالكم ما عشش في عقولكم من ظنكم: أن الله خلقكم عبثا لا لغاية، مع أنه سبحانه عرّف من أول يوم ملائكته لما أراد خلق آدم أنه جاعل في الأرض خليفة مسؤولا عن عمارة الكون وعن تصرفه فيما استخلف فيه .فلو كان الخلق لأجل الخلق بدون غاية لكان الخلق عبثا . لأن شأن العبث أن لا يرسم العابث غاية لعمله، ولا يعمل على تحقيقها. ولأن البشر جبلوا على الاختيار لا على الاضطرار، ومنهم من يختار عمل الخير، ومنهم من يختار الشر. وما كانت طبيعة الحياة اقتران العمل بجزائه في الحين، فيُعمرُ الأشرار في الدنيا وقد أفسدوا فيها ومضوا دون عقاب. ويقوم الأخيار بالعمل الصالح وقد يقعون تحت ظلم الأشرار ويخرجون من الحياة دون أن يلقى الأخيار جزاء ما فعلوه، ودون أن يلقى الأشرار جزاءهم. فيستوي بذلك الخير والشر في النهاية. والتسوية بين الحسن والقبيح لا تصدر من حكيم وإنما تصدر من عابث لا يدري ما يفعل. فكان رجوع الجميع إلى الله ليحكم فيهم بما قدموا هو المحقق للحكمة النافي للعبث.

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

تعالى :بلغ في علوه الكمال المطلق.

الكريم : العرش الجامع لصفات الكمال مما لا يوجد في غيره .

بيان المعنى الإجمالي :

إن السمو الإلهي سمو كامل، فهو الملك الحق، وما سواه ممن يدعي الملك ملكه ظاهري وباطل، إذ لا يعلم أي ملك سواه كل ما يتعلق بملكه ولا يستطيع أن يصرف بنفسه كل شؤونه .فهو المتفرد بالألوهية رب العرش الكريم .

ولذا فإن كل من يدعي لله شريكا، ولا تكون هذه الدعوى إلا باطلة ولا يقوم عليها أي دليل، يكون قد أتى بأعظم ظلم، وسيتولى ربه حسابه، وكل الكافرين بعيدون عن الفلاح، حقت عليهم الخسارة والضياع .

قل يا محمد متضرعا طالبا من ربك أن يغفر ويرحم وتوجه إليه مباشرة قائلا : أنت خير الراحمين، ترحم بصفتك الذاتية الرحمة العامة .

بيان المعنى العام :

116- فتعالى الله الملك ....رب العرش الكريم .

ارتفع الله في كمالاته فهو الرفيع المتعالي عن كل نقص . وهو الملك الحق وكل ملك سواه ملكه باطل تبعا لما يشوبه من نقص ، ان تصرف الله في ملكه يتم بإرادته وقدرته بدون استعانة، وكل الملوك صالحهم ومسيئهم العادل منهم والظالم ملكهم منقوص يخفى على الملك من بواطن ملكه ما لا يستطيع أن يكشفه ولو توسع في أعوانه . وكل ملك هو في الحقيقة مملوك لله ينهي ملكه متى يشاء سبحانه.

لا يستحق أحد أن يكون إلها سواه، وهو الذي يدبر أمر العرش المغيب الذي لا يعلم كنهه إلا ربه الذي أنشأه وصوره، هذا العرش الموصوف بكونه كريما مستوفيا للفضائل التي من شأنها أن تكون فيه .

117- ومن يدع مع الله ...إنه لا يفلح الكافرون.

فإذا كان الله هو المتفرد بالملك الكامل، فإن من يدعو مع الله إلها آخر مثبتا للشركة، وهذا الادعاء لا يكون إلا مستندا للهوى والضلالات، ولا يمكن أن يقوم على برهان أو دليل، يكون قد أتى بأعظم ظلم يمكن وجوده، ولذا فإن عقوبته عند ربه وحساب مدعيه لا يعلم قسوته وشدته إلا ربه . وفي التعبير بربه زيادة تشنيع على المشرك بأنه قابل الإحسان بالجحود والنكران . ثم حقق ذلك بأنه بعيد عن الفلاح، مغرق في الخسران وهذا هو شأن الكافرين. وتتعطف خاتمة السورة على فاتحتها على طريق التقابل. فإذا كانت فاتحة السورة "قد أفلح المؤمنون" أتت خاتمتها بالتنصيص على عدم فلاح الكافرين.

118 - وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين.

إرشاد وتذكير لنبيه ﷺ أن يدعو ربه بأن يحقق المغفرة والرحمة، ولم يذكر في الآية متعلق المغفرة والرحمة ، فقدره بعضهم اغفر لي وارحمني، وقدره بعضهم على التعميم مفوضا الأمر إلى كرمه ليشمل كل المؤهلين لذلك، ويترجح عندي الوجه الثاني تبعا لختم الآية بقوله " وأنت خير الراحمين " فالذي تشمل رحمته ومغفرته جميع المؤهلين لذلك حقيق بأن يكون خير الراحمين ولا يمكن أن يتصور هذا لغير الرحمن الرحيم.

أكملت بحمد الله وحسن عونه تفسير هذه السورة وقد قطعني المرض أياما عدة عن العمل، أشكره على ما من به علي من ألطافه. وقد بلغت ختامها اليوم الأربعاء 25 شوال 1433–12سبتمبر 2012 على الساعة العاشرة والنصف صباحا نسأله سبحانه العون وحسن الخاتمة.

ســـورة النّـــور

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وفي كتب السنة، ووجه تسميتها بذلك ما جاء في الآية 35 " الله نور السماوات والأرض. وهي سورة مدنية بإجماع أهل العلم تواصل نزولها سنوات. ورتبتها الرابعة والعشرون حسب ترتيب المصحف الشريف، وحسب تاريخ النزول المائة. نزلت بعد سورة النصر وقبل سورة الحج.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (1) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (2) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (3)

بيان معاني الألفاظ :

سورة : جزء معين من القرآن معلوم بدايته ونهايته وعدد آياته.

فرضناها: أوجبنا أخذ ما جاء فيها عقيدة وعملا وتصورا للحقائق المنبثة فيها.

الزنا: يتحقق الزنا بالجماع من المكلف مع الطوع بدون عقد ولا شبهة.

ولا تأخذكم بهما رأفة : لا تستولي على مشاعركم الرأفة فتعرضوا عن إقامة الحد.

الرأفة : أرق الرحمة.

بيان المعنى الإجمالي :

نوه القرآن بسورة النور تنويها خاصا، فصرح بأن الله أنزلها، وأنه فرض الأخذ بما جاء فيها. وأنه تخير أن تكون آياتها بينة واضحة، لكي يكون التالي لها يقظا لما تضمنته.

يجب جلد كل زانية وكل زان مائة جلدة، وذلك لفظاعة الزنا وآثاره المدمرة على الأفراد والمجتمعات. أقيموا الحد عليهما وإياكم أن تضعفوا بعامل الرأفة، فإن الأمر

هو انتهــاك لــدين الله، ولســتم أرأف بعبــاد الله مــن الله. وزاد فــي التحــريض بربطــه بالإيمان بالله واليوم الآخر. ولا يقام الحد فــي ســر وفــي الخفــاء، بــل يتحــتم إعلانــه بحضور جماعة من المؤمنين ليتقلوا مــا شــاهدوا فيرتــدع النــاس عــن الإقــدام علــى الزنا.

وإمعانا في التنفير من الزنا وتقبيحه، ذكر القــرآن أن المقــيم علــى الزنــا لا يتــزوج إلا بزانية أو مشركة، للتوافق بينهمــا فــي القــيم وكــذلك الزانيــة المقيمــة علــى الزنــا لا يتزوجها إلا زان أو مشرك. وذلك محرم على المــؤمنين. فالإقــدام علــى الاقتــران ممــن هو مقيم على الزنا غير تائب منه، حرام على المؤمنين.

بيان المعنى العام :

-1- سورة أنزلناها... لعلكم تذكرون.

هذه سورة، نوه الله بها ليقبل المسلمون على وعي مــا جــاء فيهــا مــن تعلــيم وأحكــام. ذكر الله بأنها منزلة من عنده، إنــه وإن كــان القــرآن كلــه منــزلا مــن عنــد الله، إلا أن في التذكير بذلك ما يشير إلى تشــريف هــذه الســورة والــدعوة للتــدبر والحفــاظ علــى تطبيق ووعي ما جاء فيها من أحكام وهداية. وذلــك يشــير إلــى أن كــل آيــات الســورة محكمة لم ينسخ منها شيء. وتأكد التنويه بهــا بقولــه: **وفرضــناها**، أي ألزمنــاكم الأخــذ بما فصلته آياتها على حسب ما يليق بكل آيــة مــن آياتهــا، فالأخــذ بقولــه تعــالى: " **الله نور السماوات والأرض** " أخذ للتصــور العقــدي . وقولــه: " **والــذين كفــروا أعمــالهم كسراب بقيعة** " التحذير من عاقبة الكفر في إحباط الأعمال.

وواصل التنويه بها بأنه سبحانه أنزل مــن عنــده فــي هــذه الســورة آيــات واضــحة لا إشكال فيها. يتبعها أن يحصل لكم الرجاء في الانتفــاع بهــا وتــذكر مــا يمكــن أن يغيــب عن حضوره بالذهن حضورا متميزا.

2- الزانية والزاني فاجلدوا...طائفة من المؤمنين.

كل زانية وكل زان بكر، لم يتــزوج زواجــا، لحقــه الــدخول قبــل زنــاه، تــم الجمــاع بينهما، بدون عقد نكاح، ولا شبهة، ولا إكراه، يجب أن يقام عليه الحد الآتي بيانه.

وتقديم القرآن الزانية على الزاني على خلاف الترتيــب فــي قولــه والســارق والســارقة، هو من بديع التعبير القرآني فالزنــا لا يــتم إلا إذا ســاعدت الأنثــى بقبولهــا لــه، ولأن رفض المجتمعات لزنا الإناث أشد. بخلاف السرقة فإن الجسارة في الذكور أشد.

والزنا محرم من الكبائر ،وذلك لما يحدثه من فساد كبيــر فــي المجتمــع ، بمــا يمكــن أن يتبعه من اختلاط الأنساب، وإلحاق العار بــالمزني بهــا وبأســرتها ، وانتشــار الأمــراض

التناسلية، ومعظم أسباب انتشار مرض(السيدا) "فقـد المناعـة" مسـبب عـن الزنـا .ولـذا كانت عقوبته بالنسبة للبكر ذكرا كان أو أنثى، جلد مرتكبه مائـة جلـدة بسـير مـن جلـد ليس جديدا يابسـا، ولا متهريـا بالاسـتعمال لا يـؤلم. ولا يضـرب الوجـه ولا الفـرج ولا المقاتل .

والمخاطب بقوله تعـالى: **فاجلـدوا** " مـن يتـولى أمـر المسـلمين، إذ إقامـة الحـدود موكولة لولي الأمر أو من يعهد به إليه .

ويؤكد القرآن على إقامة الحد عند وجـوب إقامتـه، فينهـى عـن التراخـي فـي إقامتـه عليهما كما جاء في الآية بسبب استيلاء الرحمـة، فيضـعف مقيمـه عـن إقامتـه أصـلا أو ينقص منه أو يضرب بما لا يؤثر. والرأفة وإن كانـت خلقـا رفيعـا تـدل علـى رقـة في النفس وحب للناس، ومشاركة لهـم فـي آلامهـم، إلا أنهـا إن كانـت الرأفـة معطلـة لشرع الله فهي رأفة منهي عنهـا، علـى المـؤمن أن يتشـجع ويمضـي حكـم الله. إن الله أرأف بعباده من بعضهم ببعض. **إن الله بالناس لرءوف رحيم.**[1]

وتحريضا على إقامة الحد ربطـه بمـا لا يقبـل المـؤمن أن ينسـحب عليـه ، إن كنـتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فلا تتراخوا فـي إقامتـه . فعـدم الإيمـان بـالله، وتوقـع عـدم الحساب يوم الآخر من موجبات الهـلاك والعيـاذ بـالله. وهـو نظيـر قـول القائـل: إن كنت شجاعا فتقدم، تهييج للمخاطب.

وحد الزنا يقام علنا لا سرًا. فعلى ولـي تنفيـذه أن يُحْضِـر عنـد إقامتـه مـن يشـهده ويتحدث به ليكون ذلك زاجرا لبقية الناس من الوقـوع فـي الزنـا. ولا يقـام حـد الزنـا إلا إذا ثبت ثبوتا معتبرا شرعا، إما بإقرار مرتكب الزنـا، وإمـا بشـهادة أربعـة اتحـدوا زمانا ومكانا في رؤية عمليـة الجمـاع مكشـوفة. فلـو شـهدوا أنهـم شـاهدوهما تحـت لحاف غير مكشوفين، فلا يحدان بل يؤدبان بما لا يصل إلى الحد.

3- الزاني لا ينكح إلا زانية...وحرم ذلك على المؤمنين.

ذكر معظم المفسرين أن هذه الآيـة نزلـت علـى سـبب يوضـح المقصـود منهـا. روى ابو داود والترمذي: أنه كان رجل مسلم صالح قـوي البنيـة يقـال لـه مرثـد بـن أبـي مرثد الغنوي، كان يخرج إلى مكة يحمل، مـن يمكنـه تخليصـه مـن أسـرى المسـلمين عند المشركين، إلى المدينة المنورة. وكانت "عنـاق" امـرأة بغـيٌ بمكـة خليلـة لـه فـي جاهليته، فعرضت عليه أن يبيت عندها عندما قدم لمكة لفـك أسـير، مسـلم. فقـال لهـا: حرم الله الزنا .فنادت عناق: يا أهل الخيام !هـذا الرجـل يحمـل أسـراكم. وتمكـن مـن

---

[1] سورة البقرة اية143

التخفي من الذين قدموا لأسره، ثم أخذ الأسير الذي وعده بأن يفكه وقدم به المدينة، ثم سأل رسول الله ﷺ أن ينكح عناق، فلم يردّ عليه حتى نزلت هذه الآية[1].

الذي فهمه الحذاق: أن بناء الآية رتب على مقدمة منفرة، وعلى التصريح بحكم. فقوله تعالى: في فاتحتها أن من لم يكن عفيفا، وتعود الزنا في جاهليته، ثم أسلم، وأراد التزوج من متعودة على الزنا لم تتب منه لأنها لم تؤمن، يكون قد سلك نفسه في مستوى أهل الدعارة، والسلوك المتحلل من غير المؤمنين. وبعد هذا التنفير والتقبيح صرح بالحكم : أن الإقامة على الزنا محرّمٌ على المؤمنين . والمقيم على الزنا والمقيمة على الزنا سواء، وقدم الزاني في الذكر على الزانية لأن سبب النزول كما تقدم، رغبة رجل في زواج متعودة على الزنا.

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

يرمون : ينسبون فعل الزنا.

المحصنات :العفيفات اللاتي لم يثبت عليهن الزنا.

أبدا: الزمن المستقبل كله.

تابوا: أقلعوا وندموا وعزموا على عدم العودة.

فاسقون : خارجون عن طاعة الله.

اللعن : الإبعاد بتحقير.

ويدرأ عنها العذاب :ينفي عنها الحد.

---

[1] روح المعاني ج18ص76

بيان المعنى الإجمالي :

من رمى مؤمنة أو مؤمنا من أهل العفة بالزنـــا ، فـــالحكم أنـــه يوقـــف فـــإن أيـــد مقالتـــه بشهادة أربعة عدول شاهدوا بـــأعينهم العمليـــة الجنســـية الفاضـــحة واضـــحةً، لا ريـــب فيها، قبل قوله. وأما إن عجز عن تأييده بمـــا يتجمـــع منـــه أربعـــةَ شـــهداء علـــى النحـــو الذي قدمناه، فإنه يحد بضربه بســـوط غيـــر مـــرتخ ولا شـــديد ثمـــانين جلـــدة. ويعتبـــر كاذبا ولو شهد ثلاثة عدول يحدون أيضا. ومـــع إقامـــة الحـــد عليـــه يعـــد فاســـقا لا تقبـــل شهادته ما دام حيا إلا إذا أظهر توبته، وأصلح عملـــه مقلعـــا عـــن الكـــلام فـــي أعـــراض الناس. والتائبون تقبل شهادتهم، فإن الله وهو الكامل الكمال المطلق غفور رحيم.

ثم تعرض القرآن إلى الفصل في قضية مزعجة متصلة بالقـــذف. وهـــي مـــا هـــي الحكـــم إذا وجد الزوج زانيا في حالة وقاع مع امرأته ؟ الغيـــرة الفطريـــة، ودفاعـــه عـــن شـــرفه مما يفرض عليه أن لا يقبل ولا يسكت عمـــا رأى. وآيـــة القـــذف تهـــدده بالجلـــد إن هـــو تحدث بما رأى. عالج القرآن هذه المصيبة التي وقعـــت فـــي عهـــد رســـول الله ﷺ والتـــي حدثت بعد.

الزوج المصدوم يرفع أمره إلى القضاء ، وتدعى المرأة فـــإن أقـــرت بالزنـــا أقـــيم عليهـــا الحد ؛ وإن أنكرت حلف الزوج أربع أيمان كما جـــاء فـــي الآيـــة: أشـــهد بـــالله الـــذي لا إله الا هو أني رأيتها تزني مع رجل كـــالمرود فـــي المكحلـــة، ثـــم بعـــد ذلـــك يخـــتم: أن لعنة الله تحل عليه إن كان من الكاذبين عليها.

فإذا حلف الأيمان ارتفع عنه حد القذف، وتُوقـــفُ امرأتـــه لتحلـــف أيمانـــا أربعـــة: تشـــهد بالله الذي لا إله إلا هو أنه كاذب وما زنـــت، وتخـــتم بعـــد تـــذكيرها بعقـــاب الآخـــرة: أن غضب الله عليها إن كان زوجها من الصادقين. فـــإذا تلاعنـــا علـــى هـــذا النحـــو ، فـــرق القاضي بينهما وحرّم كل واحد منهما علـــى الآخـــر ، ولا يحـــل لهمـــا أن ينشـــئا زواجـــا جديدا بينهما ولو طال الزمان بعد لعانهما.

وللزوج أن يلاعن إذا تيقن من أن امرأته غير حامل، ولم يجامعهـــا بعـــد ذلـــك ثـــم تبـــين بعد تلك أنها حامل. وتكون الأيمان بنفـــي الولـــد منـــه، ومـــن المـــرأة بعكـــس ذلـــك. وإذا أتما أيمان اللعان انتفى نسب الحمل من الزوج، وانتسب إلى أمه.

و امتن الله على الأمة الإسلامية ببعثة محمد ﷺ الـــذي كـــان لحكمتـــه الـــدور الكبيـــر فـــي إصلاح البناء الاجتماعي والفكري، وبمراعاتـــه للتيســـير فـــي التشـــريع، وبرفقـــه بالأمـــة بعدم تعجيل العقوبة على المذنبين وقبول التوبـــة. وذلـــك تحقيـــق لمـــا هـــو مـــن صـــفات الكمال فيه سبحانه من أنه التواب الحكيم.

بيان المعنى العام :

4- والذين يرمون أزواجهم ...أولئك هم الفاسقون.

افتتحت هذه الآية باسم الموصول "الذين" الخـاص بجمـع المـذكر، والحكـم واحـد مـع الإناث. فلا فرق بين كـون القـاذف رجـلا أو امـرأة. والمحصـنات، وإن كـان جمعـا للمحصنة الأنثى العفيفة التي لم يثبت عليهـا الزنـا، إلا أن الحكـم ينسـحب علـى مـن يقذف الرجال .

أفاد صدر الآية أن من ينسب الزنـا لعفيـف أو عفيفـة، وعَبّـر عـن ذلـك بـالرمي لأن شأن الرمي أن يكون بما يـؤذي، ومـن أشـد أنـواع الإذايـة هتـك أعـراض أصـحاب العفة. فكان اختيار كلمة الرمي لتشير إلى ذلك من البيان الرفيع للقرآن.

من يرمي غيره بالزنا يوقف إلى أن يـأتي بأربعـة عـدول يشـهدون أنهـم رأوا العمليـة الجنسية بين الزانيين واضحة ظاهرة غير مستورة، جمـاع تـام لا ملاعبـة .فـإن عجـز القاذف عن تأييد رميه بأربعة شهداء وهو بـالطبع لـيس واحـدا مـنهم، فالواجـب علـى ولي الأمر أن يجلده ثمانين جلدة ويكون بذلك كاذبا فيما صرح به.

ومع جلد القاذف الذي لم يؤيد نفسه بشهادة أربعـة، يعتبـر فاسـقا لا تقبـل شـهادته فـي المستقبل. هو غير مأمون ولا مصدّق عند القضاء إذ تكذيبـه يتبعـه الاسـترابة فـي كـل ما يشهد به في المستقبل. وأغلظت الآية في وصـفه بالفسـق فجعلـت الفسـق منحصـرا فيه لشناعة هتكه عرض غيره.

5- إلا الذين تابوا...فإن الله غفور رحيم.

واستثنت الآية من أظهر توبته بالإقلاع والندم والعـزم علـى عـدم العـودة. فتحـول مـن حال هتك الأعراض إلى مستوى الصـلاح. فمـن تـاب تقبـل شـهادته. والتوبـة تغفـر الذنوب، والله غفور رحيم .فـارفعوا بالتوبـة السـخط علـى المحـدودين. واختلـف هـل يشترط تكذيبه نفسه مع ذلك لتقبل شهادته. والتوبة لا تؤثر في إسقاط الحد.

6-7، والذين يرمون أزواجهم...إن كان من الكاذبين.

قد تهتز مؤسسة الأسرة اهتزازا قويا: يـدّعي الـزوج أنـه رأى رجـلا يجـامع امرأتـه، ولندقق أن موضوع الآية في مشاهدة الزوج رجلا في حالـة وقـاع مـع امرأتـه، بمعنـى أنه لو وجده في فراش الزوجية فقط أو وجـده عاريـا فـي بيتـه فهـذا غيـر موضـوع الآية. إذا كانت الحالـة تلـك فهـي مصـيبة حلـت بـه، ولا يرضـى أي زوج، يحتـرم نفسه، وبما فطر عليه الرجال من غيرة، أن تخونه زوجتـه وتتخـذ خلـيلا مـن ورائـه . وحرّم الإسلام قتل النفس بأي تعلة مـن الـتعلات، علـى عكـس مـا كـان عليـه أهـل

الجاهلية من تمكين الزوج من قتل الزاني في المكان الذي ضبط فيه. ومن ناحية أخرى هو لا يقدر أن يأتي بأربعة شهداء، إذ يكون الزاني قد فر بجلده قبل جمعهم. ولو طبق عليه حكم الآية السابقة يكون بين أمرين جلد ظهره، أو قبول التعدي عليه. وكلاهما بعيد عن العدالة. وقد وقع مثل هذه الحادثة في عهد رسول الله ﷺ، وسأله صاحب النازلة فنزل إثرها الحكم العادل التالي الذ ي أوجد حلا لذلك .

أ-تسأل المرأة ، فإن أقرت بالزنا أقيم عليها حد الزنا. وإن أنكرت وكذبت زوجها فيما يدعيه ، ولم يأت زوجها بأربعة شهداء، فإن القاضي يأمره أن يحلف اليمين التالية أربع مرات متواليات، يقام كل يمين مقام شاهد .ويقول: أشهد بالله لرأيتها تزني ورأيت فرج الزاني في فرجها كالمرود في المكحلة وما وطئتها بعد رؤيتي وإني لمن الصادقين في قولي هذا، ثم يتبع ذلك بقوله في الخامسة: علي لعنة الله إن كنت من الكاذبين. فإذا أتم ذلك سقط عنه الحد، وانقلبت المطالبة على امرأته. وإن نكل وأبى الحلف على ذلك النحو، عد كاذبا قاذفا لامرأته ويحد حد القذف.

7-8، ويدرأ عنها العذاب ...إنه لمن الكاذبين.

ب - إذا حلف الزوج الأيمان الأربعة وأتمها بلعن نفسه إن كان من الكاذبين ، يعرض على المرأة أن تحلف أربعة أيمان تقول في كل يمين منها: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنا . ثم تقول في الخامسة: وعلي غضب الله إن كان من الصادقين. فإن أبت أن تحلف حدت حد الزنا .

جـ ـ وكما يلاعن الرجل زوجته إذا رآها في حال اتصال جنسي واضح مكشوف فكذلك للزوج أن يلاعن زوجته إذا كان قد تحقق من براءة رحمها، واعتزلها بعد ذلك فلم يتصل بها جنسيا، حتى ظهر أنها حامل. أي إنه متيقن أن الحمل ليس منه، والقاعدة أن الولد للفراش، يلتحق الحمل بنسب الزوج. فللزوج في هذه الحالة أيضا أن يرفع أمره للقضاء، ويحلف عند القاضي أربعة أيمان: أشهد بالله إن هذا الحمل ليس مني وأني من الصادقين في نفيه، ويختم لعن نفسه إن كان من الكاذبين. فإذا أتم أيمانه وُقفت امرأته إما لتعترف أن الحمل ليس منه فتحد حد الزنا، وإما أن تحلف الأيمان الأربعة أشهد بالله إن هذا لحمل منه وإنه لمن الكاذبين وتخمس بقولها: غضب الله عليها إن كان من الصادقين .

د- إذا تم التلاعن وحلفت المرأة الأيمان بعد الزوج، فرق الحاكم بينهما، ولا يحل لهما استئناف زواج جديد بينهما أبدا. وينتفي نسب الولد إلى الزوج، ويبقى منتسبا إلى أمه.

ملاحظة:

بالتأمل في تشريع الملاعنة يتبين لنا زيادة على ما تضمنته الآيات من أحكام ، التوفيق الذي صحب النبي ﷺ في تربية المؤمنين على التحكم في أعصابهم في المواقف الحرجة، وإخراجهم من حياة الجاهلية المحكمة للعواطف، والأرجاع العنيفة ، إلى حياة مدنية رفيعة يقوم فيها القضاء، والقضاء وحده، في فصل المنازعات على مختلف مستوياتها. إن الصدمة التي تحدث في نفس الزوج إذا شاهد فعلا ذلكم المنظر القبيح الذي تَرْعدُ حتى من تخيله النفوس الأبية ، ومع ذلك هو يضبط نفسه ويرفع أمره إلى القضاء، هو مستوى رفيع يمثل مجتمعا تحول تحولا جذريا في ظرف وجيز من جاهلية كانت تأخذ ما تظنه حقا لها بالقوة ولا ترى في ذلك حرجا، إلى أمة مؤمنة تحكم دينها وعقلها في حياتها. وإني أحقق أن هذا المستوى من التربية الناجحة لم يحدث في تاريخ الإنسانية إلا على يد رسول الله ﷺ.

10 - ولولا فضل الله عليكم...تواب حكيم.

ولولا فضل عليكم ببعثة محمد ﷺ وما أوتيه من الحكمة والخلق العظيم ، وبما تابع عليكم إنزاله من التشريع الهادي، الذي تحول بكم شيئا فشيئا حتى بلغتم ذلكم المستوى الحضاري الرفيع، ولولا رحمته سبحانه بكم فلم يصدمكم التشريع فيقلب حياتكم بقوة، ولم يشدد عليكم بل كان الرفق والتيسير مرعيا، ما بلغتم ذلكم المستوى الحضاري الرفيع، وما كان البناء الجامع للأمة الإسلامية بمثل تلكم الصلابة والقوة والنجاح. وهذا نابع مما اتصف به سبحانه من صفات الكمال ، فهو التواب على المذنبين الذين لا يعجل بمؤاخذتهم ، لكن يمهلهم ويذكرهم بوحيه ليعودوا إلى الصراط المستقيم، ومن ذلك قبول توبة القاذف، وكل ذلك صادر من نبع الرحمة التي وسعت كل شيء، وأعظمها بعثة النبي الهادي ﷺ.

هذا وإن أحكام اللعان التفصيلية هي من اختصاص الفقهاء الذين حرروا القول فيها وذكروا ما هو مجمع عليه من الأحكام وما هو مختلف فيه، تطلب من مظانها والله أعلم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ

مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإفك: الكذب الذي لا شبهة فيه.

عصبة : الجماعة من عشرة إلى أربعين .

الشر: المعصية بالكذب والقذف.

الكبر : أشد الشيء ومعظمه.

الإثم :الذنب.

أفضتم: أكثرتم القول فيه.

البهتان: الخبر الكاذب الباطل الذي يصدم السامع.

يعظكم : الوعظ الكلام الذي يقصد منه أن يتجنب المخاطب ما يضره في دينه أو خلقه.

يحبون : تتعلق نفوسهم ويرضون.

أن تشيع الفاحشة : أن تنتشر وتشتهر الفعلة الشنيعة.

بيان المعنى الإجمالي :

كان المؤمنون يقظين مستعدين لما كان يتهدد الدولة الإسلامية الناشئة من كيد الشرك وغيظه. وفي هذه الآيات كانت المعاول المخربة من الداخل. صورة الحادثة مفصلة في بيان المعنى العام. لقد كانت عصبة من سكان المدينة رأس الفتنة زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، وزمرته من المعادين للإسلام المتسترين بأنهم من

المؤمنين، وقليل من المؤمنين، جمع بينهم الافتراء والكذب والإفك، فاختلقوا مطعنا في عفاف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فنشروا قالة السوء، وتحدثوا بها في مجالسهم، وألحقوا برسول الله ﷺ الأذى والغم والكمد . وكذلك بأم المؤمنين ووالديها وبأسرتها وبالصحابة الذين كانوا يفدون رسول الله ﷺ بأرواحهم. ظن الصحابة أن القدر ابتلاهم بشر، فبشرهم القرآن أن ما حدث ليس شرا ولكنه يحقق في باطنه خيرا كثيرا شأن الألطاف الإلهية التي يمنحها الله لأمة محمد الصادقة في الالتزام بما جاء به. إذ افتضح المنافقون وحل عليها الخزي ، وتم بهذه الحادثة من التربية والتشريع ومن تبرئة أم المؤمنين بالقرآن ما يبقى سائرا مع الأمة الإسلامية أبد الدهر. وحقق القرآن أن كل من أسهم في حديث الإفك يتحمل إثم هذا الافتراء، أما زعيمهم فله عذاب عظيم لا يرجى له توبة ولا عفو. ثم توالت الآيات توبخ الذين انساقوا لحديث الإفك بطرق مختلفة يؤدبهم ويشرع للمؤمنين الطريقة التي يواجهون بها مثل هذه الحالات. لولا- كان الواجب عليكم بمجرد سماعكم له أن ترفضوه وأن لا يتحول ظنكم في أنفسكم من الخير إلى الشر، إذ الإيمان وحّد بينكم، فظنكم السوء في إخوانكم هو ظن سوء في ذواتكم، كان عليكم بما قام من شواهد نفيه أن لا تظنوا إلا الخير. ثم تصرحون بقولكم: ما تناقلته ألسنة الفجرة واعتداؤهم على أم المؤمنين رضي الله عنها: بهتان واضح. ما هذه الغفلة التي تبعها التلاعب بمقاييس نقد الأخبار ، إن الرمي بالزنا لا ينظر فيه، ولا يوجب التثبت فيه، إلا إذا أقيم عليه أربعة شهداء، وهم لم يفعلوا. فالله يعلم أنهم كاذبون . واعلموا أن ما وقعتم فيه من إذاية الرسول وأهله ،وصحابته، موجب للعقاب العظيم، لكن فضل الله عليكم ورحمته التي تشملكم في الدنيا والآخرة أنقذتكم مما تهيأتم له.

و يواصل توبيخهم بتصوير خوضهم في الإفك، وإسراعهم لنشره، بأنهم ما تلقوا الخبر بأسماعهم، ولكن تلقوه بألسنتهم التي أخذت تتحدث وتنشر ما لا علم لهم بأحقيته، وتظنون أن الخوض في ذك أمر هين لا خطر له. إنكم مخطئون فهو في علم الله منكر عظيم. ثم يضيف النص القرآني توبيخا، هلاً كان موقفكم بمجرد ما وصلكم أن تقولوا: إنه لا يوجد ما يسوغ لنا أن نتكلم بهذا الإفك، نبرأ لك ربنا منه، تنزهت ربنا. هذا الكلام كذب فاضح يصدمنا صدمة كبيرة .

ثم يثني القرآن بأن الله يريد أن يوقظكم ويحرك أرواحكم لتستقيموا ولا تعودوا لمثل ما وقع منكم إلى أبد الآبدين. ومع ذلك يبين لكم الآيات الدالة على المنهج الصالح. وما جاءكم من الله هو الحكمة البالغة من الله العليم الحكيم.

ثم يكشف القرآن عن النفسية الخبيثة للذين يجدون في إشاعة الفاحشة وترويجها، في المجتمع الإسلامي، ما يرضي نفسياتهم المريضة، ويهددهم بأن الله أعد لهم عذابا أليما في الدنيا بكشف أمرهم ولقاء جزائهم ،وفي الآخرة بخسران العاقبة. إن الله الذي نبهكم وبين لكم وهداكم بشرعه وتربيته، هو العليم بحقائق الأمور ومآلاتها، أما أنتم فعلمُكم محدود قاصر كأنه لا علم .

ويمتن على المؤمنين منة مبطنة بلوم بأنه لولا فضل الله ورحمته لأصابكم جراء تراخيكم صورا من البلاء يذهب فيها الخيال كل مذهب وذلك لأن الله رؤوف بعباده رحيم بهم.

بيان المعنى العام :

نزلت هذه الآيات العشر مجموعة وتلاها النبي ﷺ في بيته إثر نزولها عليه. وهي تسجل فترة أليمة تطاول فيها المنافقون وبعض المغرورين إلى بيت النبوة، أزعجوا رسول الله ﷺ وزوجه الطاهرة أم المؤمنين عائشة، وأباها الصديق المذكور بالصاحب في القرآن، وكثيرا من المؤمنين اليقظين الصالحين. روى البخاري ومسلم ومعظم المحدثين هذه الحادثة بما يلقي الضوء على ما تناولته الآيات. ونظرا لطول الحديث وخاصة في رواية الإمام مسلم، المستند إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، والتزامي بالاختصار غير المخل في عملي هذا، ونظرا إلى أن تلخيص الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله كان تلخيصا جيدا، فأنا أقتفي أثره، وأنقل ما يقرب مما ذكره في تفسيره.

لما قفل النبي ﷺ من غزوة بني المصطلق في السنة الخامسة من الهجرة، ونزل ليلا على مرحلة من المدينة، آذن بالرحيل آخر الليل .وقد اصطحب في غزوته تلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. فلما علمت بذلك خرجت من هودجها، وابتعدت من الجيش لقضاء شأنها، كما هو شأن النساء قبل الترحل .فلما رجعت إلى رحلها افتقدت عقدا من جزع ظفار (نوع من العقيق خطوطه متوازية مستديرة ومختلفة الألوان، تتخذ منه النساء حليا) كان في صدرها ، فرجعت عن طريقها تبحث عنه، فحبسها طلبه وقتا، خاصة والظلمة مخيمة، ولما وجدته رجعت إلى منطلقها، فوجدت الجيش قد ارتحل وحملوا هودجها فارغا .ولم يشعروا بذلك لأنها كما تقول: كانت خفيفة اللحم. فلما لم تجد أحدا من المسلمين بقيت في مكانها انتظارا منها أن يعودوا إليها عندما يتبينون أنها ليست في الهودج، فأخذها النوم. وكان من ترتيب النبي ﷺ أنه كلف صفوان بن المعطل السلمي (من بني سليم) بحراسة ساقة

الجيش (مؤخر الجيش) فلما تيقن ابتعاد الجيش وأمن عليه من غدر العدو، ركب راحلته ليلتحق بالجيش. فلما بلغ الموضع الذي كان به الجيش بصُر بسواد إنسان، علم أنها عائشة إذ كان قد رآها من قبل أن ينزل الحجاب، فأخذ يسترجع ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. واستيقظت عائشة بصوت استرجاعه، فأدنى منها ناقته وأناخها فركبتها عائشة وأخذ يقودها حتى لحق بالجيش وقد ارتفع النهار. وكان عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين في الجيش فقال : والله ما نجت منه ولا نجا منها . فراج قوله على حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش أخت زينب أم المؤمنين. حملتها الغيرة لأختها، وساعد عبد الله بن أبي على ترويج الخبر طائفة من المنافقين أصحابه. وانتابت الحمى أم المؤمنين عائشة شهرا إثر رجوعها إلى المدينة. وما سمعت رضي الله عنها بحديث الإفك إلا بعد أن برئت. وقد ضاعف ألمها أنها ما وجدت في فترة مرضها ما كانت تجده من لطف رسول الله ﷺ بها. وثقلت وطأة الإفك عليها وعلى رسول الله وعلى أسرتها. إلى أن أنزل الله براءتها قرآنا يتلى في هذه الآيات ففرج الله بفضله الكربة والغم الشديدين . فلنعد متتبعين الآيات.

11- إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم....له عذاب عظيم .

إن المنافقين الذين حملوا الكذبة التي اختلقوها وروجوها، هم جماعة قليلة (عصبة سوء) حقيرة ليس لقولها وزن ولا يعتد بكلامها بجانب الأمة الإسلامية التي كانت حول النبي ﷺ ، وكان لها من صفاء إيمانها وعمق تحليلها ما رفضت به خبر الإفك. روي أن أبا أيوب الأنصاري ﷺ لما بلغه خبر الإفك قال لامرأته : ألا ترين ما يقال؟ فقالت له: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله ﷺ سوءا؟ قال: لا. قالت: ولو كنتُ أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله ﷺ. فعائشة خير مني، وصفوان خير منك. قال: نعم . ووصفتهم الآية بأنهم منكم، على التوزيع معظمهم منافقون يساكنونكم في المدينة، ويعاملونكم وتعاملونهم، وقليل من المؤمنين الذين في تحدثهم بما روجه المنافقون قد انحدروا إلى مستوى القذف الذي جعلت الآية السابقة الفسق منحصرا فيهم.

تأثر الصحابة في مجتمع المدينة الفاضلة، وانزعجوا أن يتحدث الناس بالإفك، وأن يؤذى رسول الله وزوجه وأسرتها التي هي أقرب الأسر إليه، وحسبوا أن ما وقع شر حل بهم ،وكيف لا يحسبونه شرا، وقد انغمس بعضهم في الفسق، وتمكن المنافقون من إحداث ثغرة في البناء الإسلامي المتماسك النقي انفى القرآن أن يكون

ذلك شرا بل هو خير. فقد أخذ المسلمون من خبر الإفك تربية صالحة فيما يعرض لهم في حياتهم المستقبلية، والطريقة التي يواجهون مثل هذه الحادثة الممزقة للأسر المحاولة للنيل من الشرفاء. وأن الله أنزل من القرآن الذي يتلى ما رفع به أم المؤمنين إلى مقام الطهر الذي لا يعلم صفاءه الحق إلا الله. ويغيض المنافقين الذين كانوا ينتظرون أن يعقب ترويجهم للإفك أن تنحل الروابط المتينة في بيت النبوة وما يتصل به ، فانقلب الأذى عليهم ولولا فضل عائشة التي عفت عن القاذفين لحُدُّوا . وروي أنهم حدوا حد القذف. ومع ذلك فالأحكام والتربية مما يبين وجه الخيرية فيما تم.

إن الذي كان ضالعا في اختلاق الإفك وترويجه في مجتمع المدينة، ويدعو عصابة النفاق لنشره عبد الله بن أبي بن سلول المنافق الذي احترق قلبه حسدا على رسول الله ﷺ، إذ كان يستعد قبل الهجرة أن يعقد له سكان المدينة الرئاسة عليهم ، فلما قدم النبي ﷺ سقط ما كان يأمله. ووعيده بأنه سيلقى عذابا عظيما في الآخرة ، يتبين بأنه سيموت كافرا منا فقا لا يهتدي للتوبة .

12- لولا إذ سمعتموه ...و قالوا هذا إفك مبين.

إن المنهج الذي بذل فيه النبي ﷺ جهده ليقيم تفكيركم عليه، وإن ما نزل من القرآن قبل الهجرة وبعدها فصاغكم صياغة رفيعة، سمت بكم عن تلقف الأخبار وتصديقها، والرباط الإيماني الذي جعل كل مؤمن أخا لأخيه المؤمن لا يرضى له إلا ما يرضاه لنفسه ، كل ذلك تراخت آثاره. لقد كان من مقتضياته أن تقابلوا ما راج بالتكذيب والرفض . كان الواجب بمجرد ما سمعتم الخبر أن لا يظن مؤمن بأخيه ولا مؤمنة بأختها إلا خيرا. وعبر بأنفسهم نظرا إلى أن ما يؤذي أخاك يؤذيك. لما ذا لم يكن ردكم: هذا كذب وبهتان واضح بمجرد ما سمعتم ؟ وفي ذلك من التوبيخ ما هو واضح.

13- لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء...هم الكاذبون.

عودة لترسيخ التربية الإسلامية في نفوس المؤمنين، لولا :هلا، لماذا عندما سمعتم قالة السوء وحديث الإفك، لماذا لم تكن منكم المبادرة إلى نفيه بالظن الحسن في المؤمنين والمؤمنات. وفي ذلك تكرار للتوبيخ على المسارعة ومخالفة ما ينبغي أن يحصل في ذهن المؤمن إذا سمع مطعنا في أخيه المؤمن، وهو أن يظن به خيرا، فإذا لم يجد في الكلام مستندا، ولا يتناسب مع ما عرف عن المتحدث من فضل أن يسارع بنفيه ويقول: هذا خبر واضح أنه كذب. ومن هذه الآية يستفاد حكم جديد،

هو أن على المؤمن أن يصرح بلسانه نافيا ما اتّهم به أخوه، فيجمع بين الإنكار القلبي والإنكار باللسان.

تضيف هذه الآية توبيخا آخر على التسرع وحصول الظن أو الشك عند البعض، وتقرر طريقة مواجهة الخبر. فكل خبر لا يتأيد بمؤيده مرفوض، وخاصة ما يتعلق بالجنس ،فإن المجتمعات المنحلة يكثر بين رجالها ونسائها الحديث عن الجنس واتهام الآخرين، وفي ذلك خطر كبير، إذ شيوع ذلك في المجتمع يضعف إنكار السامع ، ويوهّن حصانة الرجال والنساء من ارتكاب الفاحشة، بل يطوع من لم تكن العفة فيه متأصلة لذلك . فقطعت الآية بأن رمْي فرد بالزنا مرفوض أساسا ،إلا إذا قام عليه أربعة شهداء .وإذ لم يأت أصحاب الإفك بذلك فهم كاذبون يقينا، لأن الله علم كذبهم، وعلمه سبحانه لا يخالف الواقع، فهو العليم بالخفايا.

14- ولولا فضل الله عليكم ...فيه عذاب عظيم .

إن الذي منع العذاب العظيم أن ينزل بكم، هو فضل الله ورحمته بكم ، هذا الفضل، وتلكم الرحمة مما كتبه الله لكم في الدنيا والآخرة. وكما سارع فضله وشملت رحمته من وقع في الإفك فرقّت عائشة رضي الله عنها، وأسقطت المطالبة بحد القذف، ورحم المؤمنين الذين وقعوا في الإفك بإلهامهم الندم والتوبة وقبولها، فهو كذلك صاحب الفضل عليكم في الآخرة. ونحن في دنيانا لا يغيب عنا فضل الله ورحمته، تارة نشعر بذلك وتارة نغفل، وهو من ضعفنا. جعلني الله وإياكم من الشاكرين لفضله بالقول والفعل، المشمولين برحمته في الدنيا والآخرة.

15- إذ تلقونه بألسنتكم ...وهو عند الله عظيم .

إمعانا في توبيخهم جسّمت الآية أمر الإفك وصورته الصورة التي تجعل أصحابه يشعرون بالخزي من مبادرتهم للخوض فيه . صوّرتهم الآية بمن يتلقى الخبر فلا يمر بسمعه ولا يحيله على عقله لينقده، وينزلق سريعا إلى لسانه ليتحدث به. لقد هبطتم عن مستواكم الإنساني فتكلمت ألسنتكم بما هو غير مستند إلى علم صادر عن التفكير، وكما قال الشاعر الحكيم:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما *** جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ثم أضاف إلى توبيخهم أنكم لم تزنوا ما يترتب على ما تحدثتم به، وظننتم أن الكلام في السر ونشر الحديث في المجالس الخاصة أمر هيّنٌ لا خطر له. كيف يكون تقديركم بهذا المستوى ، وقد آذيتم رسول الله ، ووقعتم في عرض أمكم، واتهمتم صحابيا مجاهدا، ولوثتم بيت الصاحب الكريم أول من آمن برسول الله وصحبه في

هجرته، وكان فضله على هذا الدين فضلا لم يبلغــه أحــد مــن الصــحابة. وذلــك منكــر عظيم تزلزل له الجبال في علم الله الذي يزن الأمور بحقائقها.

16- ولولا إذ سمعتموه قلتم ....هذا بهتان عظيم .

يواصل القرآن تقريعهم ويبين الموقف الذي كان عليهم أن يتخذوه. هلا بادرتم بمجرد سماعكم بالقول: لا يوجد أي شيء يسمح لنا بأن نتحدث بحديث الإفك، فنحن نرفض سماعه، وأنتم المتحدثون تخرس ألسنتكم عن الخوض فيه. بل أن تتعجبوا وتظهروا ذلك بقولكم سبحان الله ! تنزه ربنا عن كل نقص فهو المؤيد لرسوله الحافظ له ، ونحن نبرأ من ذلك .ثم تصرحون بقولكم : هذا الذي تحدثتم به اختلاق وكذب لا شبهة فيه، ولا يقبله العقل. هو بهتان عظيم في ذاته وفيما تعلق به كما بيناه في الآية السابقة.

17-يعظكم الله أن تعودوا لمثله... والله عليم حكيم .

إن ما بسطته الآيات السابقة فــي قضــية الإفــك، ومــا تخللهــا مــن أحكــام وتوجيــه وتربية، يهدف إلى أن يحرك قلوبكم وعقــولكم، فتقبلــوا علــى الخيــر المــنهج الرشــيد، وتبتعدوا عما يضــركم ويلقــي الفتنــة بيــنكم. ممــا يترتــب عليــه أن تكونــوا يقظــين متذكرين لما نبهتكم إليه، فلا تقعوا في المستقبل في مثل مــا وقعــتم فيــه . ثــم يضــاعف القرآن تحريكهم لعدم العودة بقوله: إن كنتم مــؤمنين . فهــو شــرط لا يقصــد منــه أنكــم إن لم تكونوا مؤمنين فلا عليكم أن تعــودوا. ولكــن هــو مــن بليــغ التأكيــد، إذ الإيمــان أعز شيء على هذه الأمة، فكل من عاد سيضيع إيمانه.

و بذلك فإن الله قد أتم لكم البيان والتوضيح لخطر مــا صــدر، ولعاقبتــه وأدبكــم أفضــل تأديب وأكمله. وهو العليم بما يصلح النفوس ويقيم الأمــم علــى المــنهج الســوي، الحكــيم في كل ما يفعله ويأمر به.

19- إن الذين يحبون أن تشيع...وأنتم لا تعلمون.

إن الذين فسدت نفوسهم فأضمروا السوء بحبهم شــيوع الفاحشــة وانتشــارها بــين الــذين آمنوا، هؤلاء الذين ينظرون إلى المجتمــع الطــاهر النظيــف الــذي صــاغه الرســول ﷺ وبلغ به مستوى رفيعا، فيغيظهم ذلك ويعملــون علــى أن ينــزل إلــى حمــأة القــذارة وأن تنتشر فيه الفاحشة بــالقول الــذي يطــوّع النفــوس للفعــل. هــؤلاء الخبثــاء المريضــة نفوسهم، الذين يرضون بالفساد ويأنسون بظهــور الحــديث عــن الفاحشــة، عــاقبهم الله بالعذاب الأليم في الدنيا بإقامة حد القذف عليهم، وبعذاب النار يوم القيامة.

ويمتنُّ على المؤمنين بأن الله يعلــم مــا يخفــى علــى البشــر، فــأمور الــنفس وطــرق التأثير فيها، وتقويمها بالإصلاح لتؤدي رسالتها على خيــر الوجــوه وتــنجح وتفــوز هــو

مستوى لا يصل إلى غاية مداه علم البشـر النـاقص. فقـد تـو لاكم الله بهـدايتكم بعلمــه، ولم يتركم لنفوسكم التي تقصر علميا عن إدراك كل ما يصلح النفوس.

20- ولولا فضل الله ...رؤوف رحيم.

تذكير للمرة الثالثة خلال الآيات العشر بفضل الله ورحمتــه، وأنهــم لــو يــدركهم فضــله ورحمته، ولم يذكر الجواب ليقدره المؤمن في كــل مقــام حسـبما يقتضــيه. ينظــر فــي فضل الله ورحمته في النظرة الكلية لجميــع أمــور الــدنيا، وفــي مشــاهد الآخــرة، كمــا يستحضر ذلك في الجزئيــات التــي تعــرض لــه، فيكــون جوابــه لنفسـه أنــه ســيلقى الخسران إذا خلّيَ لنفسه. ومــا هــذا الإسـعاد بــالعون إلا لأنـــه ســبحانه رؤوف بعبــاده رحيم بهم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (21) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (22) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (23) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25) ﴾

بين معاني الألفاظ :

خطوات :جمع خطوة وهي ما بين القدمين عند المشي.

الفحشاء : كل فعل أو قول قبيح.

المنكر : ما تنكره الشريعة وترفضه الفطرة السليمة.

ما زكى : ما اهتدى ولا أسلم.

لا يأتل : الحلف وأكثر ما ورد فيه اليمين على الترك

الفضل : الكمال الديني.

السعة : الغنى المالي .

الغافلات : اللاتي لا علم لهن بما رمين به.

دينهم : جزاؤهم .

الحق : العادل.

بيان المعنى الإجمالي :

تذكير للمؤمنين كي يتيقظــوا لوسوســة الشـيطان المضــللة، ويحــذروا أن ينزلقــوا إلــى متابعة المنهج الذي يدعوهم إليه، وأن ينقادوا للسـير فــي الطريــق الــذي يرســمه لهــم. كونوا حــذرين منــه، فإنــه لا يــدعوكم إلا إلــى اتبــاع القبــيح مــن القــول والعمــل ، المرفوض والمنكر من المستقيمين ومن الفطرة السـليمة. إن الله لطيــف بكــم، ولــولا مــا خصكم به من بعثة الرسول ﷺ فيكم، وما أنــزل علــيكم مــن وحيــه، مــا اهتــدى أحــد منكم، ولا خالط الإسلام روحه. إنه لا تتحقق لأحــد الاســتقامة والاهتــداء أبــدا إلا لمــن شاء أن يزكيه. إن الله لا يخفى عليه شيء مــن همســات ألســنتكم، ولا مــا يجــري فــي قلوبكم ولا ما تقومون به من أعمال.

كما ذكر المؤمنين الصالحين الأغنياء الذين وســع الله علــيهم فــي الــرزق، أن لا يســبقوا بالأيمان لحرمان من كان ينال من ســماحتهم، وخاصــة إذا كانــت تــربطهم بهــم قرابــة وهم فقراء، لهم مزية المهاجرين. على المؤمن أن يكــون ســمحا يعفــو، ولا يُبقــي فــي نفسه حقدا لمن أخطأ معــه. ألســتم تحبــون أن يغفــر الله لكــم ذنــوبكم ، فاقتبســوا فــي أخلاقكم من الكمالات الإلهية

إن الذين ينطوون على نفسيات سيئة فيرمون العفيفات اللاتي لم يدر بخلدهن الزنا، الطاهرات بالإيمان، كتبت عليهم اللعنة في الدنيا، بما يفضحهم الله، وما يترتب على ذلك من احتقار الناس لهم، وقطع صلاتهم بهم، وحدَّهمْ ، وفي الآخرة في جهنم التي سيلقون فيها عذابا عظيما . إنه في هذا اليوم لا يستطيعون مراوغة ولا إنكارا، يُنطق الله بقدرته ألسنتهم التي كانوا يتحدثون بها في الإفك، وكذلك أيديهم التي كانوا يشيرون بها إشارة الاستهزاء والتعيير، وأرجلهم التي كانوا ينتقلون بها إلى مجالس الطعن في عفة الآخرين. إنه في هذا اليوم يوفيهم الله جزاءهم كاملا غير منقوص، مع العدل الذي لا ظلم فيه، فيعلمون أن الله هو الحق الذي لا يظلم ولا يخفى عليه شيء الذي لا أول له ولا يلحقه عدم.

بيان المعنى العام :

21- يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا ...والله سميع عليم .

دعت الآية بوصف الإيمان، إشــارة إلــى أن مضــمونها مــن مقتضــيات الإيمــان ليــتم الحرص على مراعاته. لا تسيروا في المــنهج الــذي يــدعوكم إليــه الشــيطان، جسّــمت

الآية الاتباع الغبي لوسوسة الشيطان، بالسائر على خطـى مـن يقـوده، غيـر منتبـه ولا عالم بما ينتهي إليه. على من يتبع منهج الشيطان وما يوسـوس بـه أن يكـون يقظـا إلـى أن الشيطان لا يدله إلا على ما هو قبيح سيء ترفضـه الفطـرة والشـرع والـرأي العـام للمؤمنين. الشيطان الذي بلغ من وقاحتـه وخبثـه أن خاطـب رب العـزة بقولـه : (قـال رب بما أغـويتني لأزيـنن لهـم فـي الأرض ولأغـوينهم أجمعـين إلا عبـادك مـنهم المخلصـين)[1]

هما منهجان متقابلان : المـنهج الإلهـي ، ومـنهج الشـيطان ، وإنـه لـولا فضـل الله عليكم بإرساله محمدا ﷺ، وبالطافه التي أحاطت بكـم فـي مسـيرتكم فـي الحيـاة، ولـولا رحمته التي وسعت كل شيء، لولا ذلك مـا آمـن مـنكم أحـد، ولا كـان راشـدا لا فـي عقيدته ولافي سلوكه. إن ما أنـتم عليـه مـن الاسـتقامة هـو مـن فضـل الله بالهدايـة، وبرحمته بقبول التوبة وعدم تعجيل العقوبة. واعلمـوا أن الله سـميع لا يخفـى عليـه مـا تتحدثون به في السر، وهو العليم بنواياكم الخيرة أو الخبيثـة. وفـي هـذه الخاتمـة وعـدٌ للصالحين وتهديد للفجرة والكافرين.

22- ولا يأتل أولو الفضل ...والله غفور رحيم .

هذه الآية متصلة بحديث الإفك. كان أبو بكر الصـديق السـمح الكـريم ينفـق علـى ابـن خالته مسطح المطلبي ،وكان من فقراء المهـاجرين، فلمـا علـم بسـقوطه مـع العُصـبة التي نشرت قالة السوء، أقسم أن يقطع ما كـان يسـاعده بـه. رغـم أنـه اعتـذر وقـال: إنما كنت أغشى مجلس حسان فأسمع ولا أقول، فقال له أبـو بكـر رضـي الله عنـه: لقـد ضحكت، وشاركت فيما قيل، ومر على يمينه فنزلت.

ترشد الآية أصحاب الفضل والمستوى الخلقي الرفيـع، ومـن آتـاهم الله مـن الثـروة مـا يزيد عن حاجاتهم، أن لا يستعجلوا ويحرموا بأيمـانهم، مـن تعـودوا النيـل مـن نـوالهم إذا آذوهم، خاصة إذا كان يجمعهم بهم قرابة تؤكـد البـرّ بهـم، مـع الفقـر والخصاصـة وكونهم من المهاجرين في سبيل نصرة الدين؛ الأمر الذي لهـم بـه فضـل لا ينكـر فـي تقوية صف المسلمين .

ثم أمرتهم الآية بالعفو، والصفح بـأن يطهـروا نفوسـهم مـن الحقـد. وحرضـهم علـى التسامي عن فلتات إخوانهم، بهذا السـؤال المثيـر لكـوامن الأمـل فـي فضـل الله عنـد المؤمنين :ألا تحبون أن يغفر الله لكـم، فـاغفروا لمـن دونكـم. روي عـن أبـي بكـر

---

[1] سورة الحجر آية 40/93

رضي الله عنه أنه لما سمع هذا السؤال المحرك قــال:(إنــي للحـبُّ أن يغفـر الله لــي) ورجع لمساعدة مسطح.

وهذه الآية وإن نزلت على سبب خــاص، هــي عامــة للمــؤمنين فــي جميــع الأعصـــار باعتبار أن مضمونها هو المنهج الذي يطلــب الله مــن المــؤمنين أن يســيروا عليــه فــي علاقاتهم مع من آذاهــم مــن إخــوانهم. إذ أن مقابلــة الإذايــة بالإذايــة مزرعــة للحقـد ومواصلة للخصام.

وهذه الآية ترشد إلى أن من أقسم يمينــا، الحنــث فيهــا أفضــل، أن يكفــر عــن يمينــه ويفعل الذي هو خير.

وختمت الآية بتحقيــق مضــمونها: إن الله غفــور رحــيم، وصــفات الله تمثــل الكمــال المطلق ، فليتخلّق المؤمنون بتلكم الكمالات على المستوى الذي هو في طوقهم.

23-24: إن الذين يرمون المحصنات...بما كانوا يعملون.

تتعلق هاتان الآيتان بما نزل قبلهما فــي الإفــك. تشــهران بالــذين صــفتهم المميــزة لهــم أنهم يؤذون العفيفات بما هن في غفلة عنه، إيماء إلى أنه لم يقــع مــنهن مــا رمــين بــه. إذ لا يوصف الفاعل للشيء بأنه غافل عنه ؛ ثم يتوعدهم بــأن اللعنــة تصــب علــيهم فــي الدنيا والآخرة، ففي الدنيا هم مبعدون عــن مرتبــة العدالــة والثقــة فيمــا يشــهدون بــه، وبالإنكار عليهم فيما وقعوا فيه من الفســق، وعــدم مخــالطتهم، وتعرضــهم لإقامــة حــد القذف. وأما لعنهم في الآخرة فهو الوعيد الشــديد بــأنهم لا مطمــع لهــم فــي رحمــة الله. وبذلك تُطبِقُ عليهم جهــنم ولا يجــدون عنهــا محيصــا. فيســلّط علــيهم فيهــا العــذاب العظيم. وذلك فــي اليــوم الــذي يُفضــحون، فتشــهد علــيهم ألســنتهم بمــا رمــوا بــه المؤمنات الغافلات، وتشهد علــيهم أيــديهم بمــا كــانوا يشــيرون بهــا إلــى المقــذوفات للمساعدة على ترويج ما افتــروه، وتشــهد علــيهم أرجلهــم التــي كــانوا بهــا يســعون، ويتحركون، وينتقلون إلى المجالس التي ينتهكون فيها الأعراض بالقذف.

25- إنهم سيعلمون علم اليقين الذي لا يدخله شك ولا ارتياب، يعلمون علما حاضرا لا تتطرق إليه غفلة ولا نسيان: أن الله هو الحق، الواجب الوجود الذي لم يسبق وجوده عدم ولا يلحقه عدم ، وهذا من الأمور الثابتة التي كانوا في شك منها في الدنيا بما عبدوه من أصنام. وأنه المتفرد بهذا الاسم لا يشاركه فيه غيره. وفيه إيماء إلى زيف معبوداتهم . المبين: الذي تحققت ألوهيته ثابتة لا غبش فيها ولا تساؤل ، ولا ريب .تظهر قدرته المتصرفة فيهم ظهورا بينا لا يتقلبون في منازل القيامة ومشاهدها إلا عن أمره. وتسلب منهم الإرادة والقدرة، وتتجلى القدرة الإلهية والتسيير بأجلى مظهر وأتمه.

ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الخبيث: خسيس النفس فاسدها.

الطيب: عكس الخبيث رفيع السجايا والملكات، المترفع عن الدون.

تستأنسوا : تطلبوا إذا كان صاحب البيت مستعدا للأنس بكم.

أزكى لكم : أفضل من الإذن عن كراهية.

فيها متاع : فيها نفع لكم .

بيان المعنى الإجمالي :

ركز الله في فطر البشر أنه لا يتم التلاؤم بين الزوج وزوجه إلا إذا تحقق التوافق بينهما في القيم وفي الطيب أو الخبث، فالخبيثة تلتئم مع من كان خبيثا مثلها، والطاهرة الطيبة تلتئم مع من كان طاهرا طيبا. ورسول الله ﷺ وأزواجه يمثلون قمة الطهر والطيب، فتكون هذه القاعدة المنغرسة في الفطرة شاهدا آخر على كذب المفترين، ويشهد الله أنهم مبرؤون مما قاله أهل النفاق بألسنتهم ، ولا يرقى الإفك إلى ما فوق الكلام. ونكاية في أهل النفاق صرحت الآية بأن الله كتب لهم المغفرة، والجزاء بالرزق الكريم في الآخرة.

ثم دعا القرآن المؤمنين أن يطلبوا الإذن إذا أرادوا دخول بيت يسكنه غيرهم. وأن يصحبوا الاستئذان بالسلام على أهل البيت تحية الإسلام: السلام عليكم، أتأذنون أن أدخل عليكم ؟ إن التزامكم بهذا التشريع يحصل لكم منه الخير، ويبعد عنكم الإذاية. تأملوا في ذلك فإنكم ترجون بذلك أن تتعمّقوا في الأسرار التي هدتكم إليها الآية ، فلا تغفلوا عن العمل بها. ثم فصل لرفع أي إيهام بأنه إذا استأذنتم فلم تسمعوا جوابا لخلو البيت من أهله، فارجعوا ولا تدخلوا بيوت غيركم الخاصة إلا بإذن صريح.

إن الالتزام بهذا التشريع هو خير لكم في الحاضر والمـآل، فـلا تُثقلـوا بمـا يرخـي الصلات، وتتأبون بتطبيقكم لشرع ربكم.

أما البيوت التي لم تتخذ سكنا يأوي إليها أصـحابها، المـأذون إذنـا عامـا فـي دخولهـا، كالفنادق والإدارات، ومواطن الاستراحة، فإنه يجوز الـدخول إليهـا لينتفـع الـداخل بمـا أعدت له. وكونوا متيقنين أن الله يعلـم نوايـاكم، ومطلـع علـى مقاصـدكم، سـواء مـا أخفيتموه، وما أعلنتموه، فلا تتخذوا الإذن من صاحب البيـت أو مـا رفـع فيـه الحـرج ، وسيلة لما لا يحل كقصد الاطلاع على العـورات والحـديث بهـا، أو التجسـس والإعـداد للخيانة. فإن الله يجزي كل عامل بما قصد .

بيان المعنى العام :

26- الخبيثات للخبيثين ...مغفرة ورزق كريم .

من عجيب صنع الله فـي الاجتمـاع البشـري، أنـه يقـرب بـين الصـالحين أصـحاب النفوس الزكية، ويقرن بين أهل السـوء وأصـحاب النفـوس الخسيسـة. فتلتـئم النفـوس الطيبة الطاهرة بأمثالها، وتلتئم النفوس الخبيثـة السـاقطة بأمثالهـا. ويتنـافر مـا تعـاكس منها. إنه حسبما جرت عليه سنن الكون أن يكون البيـت الـذي جمـع أفضـل خلـق الله وأكرمهم نفسا، وأطهرهم سجايا، وأعظمهـم خلقـا محمـد ﷺ ، أن تكـون زوجـه التـي خُطيت بصادق حبه الذي تواصل إلى آخر لحظـة مـن حياتـه الشـريفة ،كمـا قالـت : توفي النبي ﷺ بين صدري ونحري ،أن تكون مـن أطهـر النـاس خلقـا وأبعـدهم عـن الريبة .

في عرض هذه القاعدة السائرة في الخليقة ما ينفـي مـا جـاء فـي حـديث الإفـك، وأن كل ما في الأمر هو أقوال لا حقيقة لهـا، فهـم مبـرؤون ممـا يقولـه الخبثـاء شـهد الله بالبراءة. ويحققها أن الله وهو العليم بكـل شـيء أعـد لهـم مغفـرة ورزقـا نفيسـا فـي الجنة. وهو ما يثبت لهم طهارة العرض، وحسن السلوك، ورضا الله عنهم.

27- يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا...لعلكم تذكرون.

هذه دعوة بوصف الإيمان تحرك المعتـز بدينـه ليحـرص علـى تطبيقهـا والعمـل بمـا جاء فيها. إنها من الآيات الكثيرة التي تربي المـؤمنين علـى السـلوك الحضـاري الـذي يرعى حرمة البيت الذي يتخذه المؤمن سكنا يأوي إليه ليجـد فيـه راحتـه غيـر معـرض لإزعاج، فلا يتحفظ من أعين من لم يكـن مـن أهلـه، لا فـي لباسـه، ولا فـي هيئتـه. فلصاحب البيت حرمة خاصة عندما يأوي إلى بيتـه .وللبيـت أسـرار لا يحـل الاطـلاع

عليها إلا برضا صاحبه. اعتنى القرآن بتربيــة المــؤمنين وأوضــح لهــم منهجــا يمكــن في سلامة الصّلات بينهم.

شرعت الآيــة الاســتئذان لمــن يريــد أن يــدخل بيــت أخيــه المــؤمن. ويكــون ذلــك بالاستئناس، يطلب الزائر من صــاحب البيــت أن يــأذن لــه بــدخول البيــت إذا كــان لا يجد في ذلك حرجا، ولا يستوحش ولا يســتثقل، بمــا يــدل علــى أن كــلا منهمــا غيــر كاره لذلك الاتصال. ثم بالتسليم فيقــول: الســلام علــيكم، تحيــة الإســلام. قــال الشــيخ محمد بن أبي زيد رضي الله عنه: الاستئذان واجب، فــلا تــدخلْ بيتــا فيــه أحــد حتــى تستأذن ثلاثا فإن أُذن لك وإلا رجعــت. وروى البخــاري ومســلم واللفــظ للبخــاري عــن أبي سعيد الخدري قال : كنت في مجلس من مجــالس الأنصــار ، إذ جــاء أبــو موســى الأشعري ، كأنه مذعور .فقال : استأذنت علــى عمــر ثلاثــا فلــم يــؤذن لــي فرجعــت .قال ما منعك ؟قلت استأذنت ثلاثا فلــم يــؤذن لــي فرجعــت .وقــال رســول الله ﷺ: إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجعْ. فقال :والله لتقيمنّ عليــه بينــة .أمــنكمْ مــن أحــد سمعه من النبي ﷺ؟ فقال أبي بــن كعــب والله لا يقــوم معــك إلا أصــغر القــوم، فكنــت أصغرَ القوم، فقمت معه، فأخبرت عمر: أن النبي ﷺ قال: ذلك [1].

ولما كان الاستئذان يقتضي جوابــا بالإيجــاب، أو الــرفض. فمــن الطبيعــي أنــه إذا أذن صاحب البيت فذاك، وإن لم يأذن بعد الثلاث بــأن ســكت أو صــرح بأنــه غيــر مســتعد لقبول الزائر فليرجع. ورفعت الآيــة مــا يمكــن أن يحــدث فــي نفــس المســتأذن مــن الكراهية لموقف أخيه، فقال تعالى ذلك الرجوع عند عــدم الإذن هــو أفضــل وخيــر لكــم من أن تثقلوا على صاحب البيت، أو تطّلعــوا علــى مــا يكــره الاطــلاع عليــه. ولمــا كان الحق في الإذن أو عدم الإذن هو لصاحب البيــت وجعــل الاســتئذان لمعرفــة ذلــك، فمن الطبيعي أن لا يجد المستأذنُ حرجا من الرفض. وفــي ذلــك مــا يحصــل بــه لكــم رجاء في التدبر في هذه التربية الإسلامية، فتقبّلوا على تطبيقها راضين.

28- فإن لم تجدوا فيها أحدا...بما تعملون عليم.

يصرح القرآن مفصلا، أنكم إذا لم تجدوا في البيت أحدا، فــلا تــدخلوا البيــت فــي غيبــة أهله، بمعنى أن لا يذهب بكــم الظــن أن النهــي خــاص بمــا إذا كــان صــاحب البيــت موجودا ويكره أن يقبل الزائر غير متأهب لقبوله. بــل للبيــوت حرمتهــا كــان أصــحابها فيها أو لم يكونوا فيها.

[1] فتح الباري ج13ص265/264

والله بما تعملون عليم. عليكم أن تحققوا وتعملـوا بالتربيـة التـي أمـرتكم بهـا ظـاهرا وباطنا، فلا تلحُوا ولا تثقلوا، ولا تتحايلوا بمحاولة كشـف سـر البيـت بطـرق ملتويـة ، أو التنصُّتِ على ساكنيها، إن ما أمـرتم بـه هـو المـنهج الصـالح فـي العلاقـات بـين الناس .

تطبيق : ولما كانت معظم البيـوت مجهـزة بالهـاتف، ثـم إن معظـم النـاس يحملـون هواتف جوالة، فإن تطبيق الآية فـي عصـرنا الحاضـر قـد يكـون بمخاطبـة صـاحب البيت واستئذانه مقدما، وعدم التحرج إذا اعتذر عن عدم قبول المستأذن.

29-ليس عليكم جناح ....ما تبدون وما تكتمون .

لما كان الاستئذان واجبا، وأن ذلـك تـابع لحـق صـاحب البيـت كـي تكـون أسـراره محفوظة، وأن يكون متهيئا لا يزعجه قبول المسـتأذن، وأنـه لا يجـوز اقتحـام بيتـه إن كان غائبا عنه. وفـي المقابـل فإنـه إذا كـان البيـت غيـر معـد للسـكنى، كالفنـادق والمكتبات، والإدارات الدولية وغيرها، ومنـازل الراحـة المباحـة للعمـوم، ونحـو ذلـك فإنه لا إثم على المؤمن أن يدخل هذه البيـوت بغيـر اسـتئذان. وقـد كـان فـي المدينـة بيوت بناها أصحاب البر يدخلها أصحاب الحاجـات ويضـعون فيهـا سـلعهم وأشـياءهم، أو يتظللون فيها من وهـج الشـمس. فكلمـا كـان البيـت غيـر مقصـود بـه السـكنى، ووضْعُهُ أن يدخله الناس بغير استئذان فإنه لا إثم على داخله.

و تختم الآية بالتنبيه أن يستحضر المؤمن الداخل لغيـر بيتـه سـواء أكـان دخولـه بعـد الاستئذان أو بدونه، أن الله يعلم ما يسره ومـا يعلنـه، يعلـم قصـده الخيّـر أو الشـرّير. فالإذن لا يرفع المؤاخذة عـن الـداخل إذا كـان قصـده سـيئا كحـب الاطـلاع علـى العورات والحديث بها، أو الاستعداد للسرقة ونحو ذلـك، أو عمـل علـى التحايـل علـى القيود التي ضبطت بها الآية الدخول.

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ

ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

بيان معاني الألفاظ:

غض البصر : صرف البصر عن مواصلة التحديق وتثبيت النظر.

الزينة : ما يحصل به الحسن والجمال.

وليضربن بخمرهن : ليشددن خمرهن على جيوبهن فلا تظهر الرقبة.

الجيوب : مدخل الرأس من القميص.

الضرب : إيقاع المشي بشدة.

الإربة: الحاجة إلى النكاح.

لم يظهروا: لم يطلعوا عليها اطلاع شهوة، أي ما قبل سن المراهقة .

بيان المعنى الاجمالي :

عنيت الآيتان بدعوة المؤمنين إلى ما يقيم بناءهم الاجتماعي على الطهر والعفة. أمرت الرجال أن لا يشبعوا النظر في جسم المرأة التي لا تربطهم بها صلة قرابة أو نسب. وأن يقمعوا دافع الشهوة الجنسية فيحفظوا فروجهم من الاستمتاع والزنا. إن رقابتهم هذه تسمو مطهرة لنفوسهم . وعلى نفس المستوى عنيت الآية بالنساء. وطلب من المرأة أيضا أن لا تظهر مواطن الزينة المثيرة للغريزة الجنسية، وهي بالنسبة للزينة الخلقية ما عدا الوجه والكفين ونصف الذراع والقدمين، وكذلك بالنسبة للزينة الاصطناعية لها أن تكتحل، وأن تكون يدها مخضبة وأن تلبس الخاتم والسوار. وكذلك على المرأة أن تستر شعرها ورقبتها وأذنيها عن غير المحارم. أما الرجال الذين يجوز لها أن تظهر زينتها أمامهم فهم: الزوج الذي يحل له النظر إلى جميع بدن زوجه. وقد ذكر في الآية قصد الاستيعاب. وكذلك ما عدا العورة بالنسبة للمحارم الذين عددت منهم الآية الأب وإن علا ، والأبناء ، وأبناءهم وإن نزلوا أي ابن ابن الابن، وابن الزوج من غيرها ، والأخ الشقيق أو للأب أو للأم ، وكذلك أبناؤهم وإن نزلوا، وأبناء الأخت ، وكذلك المرأة مع المرأة إن كانت مسلمة فبإجماع، وإن كانت كتابية فعلى الصحيح. وكذلك عبد المرأة، والخدم العبيد الذين يترددون على البيت وغريزتهم الجنسية معطلة، وكذلك الطفل في سن ما قبل المراهقة. ونهت الآية المرأة أن تقصد إلى إثارة الغريزة الجنسية لدى الرجال بغنجها أو تبخترها أو تضييق الملابس بما يضغط على جسدها فيزيد الخيال في

تصورها فتنة. ومثّلت بما تفعله بعض النساء في عصر النبوة بضرب الأرض برجلها تحرك ما تلبسه من الحلي حركة داعية، أو تبالغ في وقع الأقدام على الأرض.

وفي الختام طلبت من المؤمنين والمؤمنات أن تكون اليقظة وتخليص نفوسهم مما علق بها من الإثارات مصاحبة لهم، وذلك بالتوبة إلى الله فبها يرجون الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة.

بيان المعنى العام :

30- قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم...خبير بما يصنعون.

إن عناية الإسلام بإصلاح البشر، وتكوين المجتمع النظيف المعتدل الذي لا يقمع دواعي الفطرة، ولا يهمل نوازع الشهوة تستبد بالإنسان فتجعل حركاته مدفوعة بتلك الدواعي. كان من حكمته أنه عني بالوقاية. فكما ذكر في الآية السابقة الاستئذان، بالتأكيد على حرمة البيت وأسراره، ألحقت هذه الآية أدبا جديدا وقائيا أيضا، قد يكون متصلا بالاستئذان، وقد يكون غير مرتبط به. فإذا دخل المؤمن بيت أخيه فليحفظ بصره من إشباع النظر وتحديقه في نساء البيت. وكذلك الأمر إذا انكشف له شيء من الأنثى غير زوجه. عليه أن يصرف بصره عن مواصلة التثبت في اللحم والمفاتن. ولما كان الإسلام لا يقيم حدا فاصلا عازلا بين الإناث والذكور، ويسمح بالتعاون بينهما، فإنه يقي هذا التعاون من أن يتحول إلى الافتتان والتعلق المفضي إلى الاتصال الجنسي المحرم، فإن العين أول داعية إلى الإثم. ولذا أمر المؤمنون أن يغضوا من أبصارهم، ومن الدقة في القرآن أن كان الأمر بغض بعض البصر كما تفيده كلمة " من"، فإن النظرة الأولى لا بد منها تبعا للتعاون بين الجنسين. ولذا لم يأمروا بغض البصر تماما حتى لا يروا شيئا من الأنثى، ولم يعتبر النظر حراما في جميع مراتبه، ولكن أمروا أن لا يسترسلوا في النظر الداعي إلى الإشباع.

يقول أحمد شوقي رحمه الله:

نظرة فابتسامة فسلام*** فكلام فموعد فلقاء

وهكذا يأخذ الشيطان من منطلق النظر المتثبت، في عقد سلسلة مترابطة متطورة من مرحلة إلى أخرى إلى أن يطوع الناظر إلى الخطيئة. ولذا عطفت الآية الأمر بحفظ الفروج بسترها عن الأعين ومن الزنا ومن الاستمتاع المحرم. ووضح لهم أن ما جاء في هذه الآية من التشريع هو أطهر لمشاعرهم، وأبلغ ضمانا لعدم تلوثها

بالشهوة وبطائف الشيطان . وأكد عليهم أن يطبقوا شرعه هذا، لأن الذي تولى تربيتهم وهدايتهم إليه هو وحده الخبير بما يزكي النفوس ويقيمها على الفطرة النظيفة.

31- وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن....لعلكم تفلحون.

إن إيقاظ الرقابة الداخلية على الطهر والعفة، وإن الحرص على تكوين مجتمع نظيف من الفساد والتحلل، هو مقصد أساس في الإسلام. وبناء على هذا المقصد اليقيني لم يقتصر القرآن على دعوة الرجال إلى غض البصر ، وإن كان كل خطاب بصيغة المؤمنين يعم المؤمنات، بل وجه الخطاب مباشرة للمؤمنات أيضا آمرا لهن بأن يغضضن من أبصارهن، ويحفظن فروجهن، على النحو الذي أمر به الرجال.

وتحقيقا لذلك قطع باب الإغراء الذي قد يستولي على الناظر فينساق إلى الخطيئة، إذا ما بدت مخايل التساهل من الأنثى .فأمرن أن يخفين زينتهن التي تضاعف من وسامتهن مضاعفة مثيرة للغرائز .واستثنى ما لابد لهن من إظهاره، ويقعن في حرج لو أمرن بإخفائه.

لقد منح الله المرأة رقة هي في جنسها على تفاوت في فضل الله عليهن. ولا شك أن وجه المرأة جمع نصيبا وافرا من مقومات الجمال: العيون والحواجب والشفاه والخدود. وهي من الجمال الخلقي الذي لو أمرها بستره عن أعين الناس لوقعت في حرج، وتعطلت عن قضاء شؤونها. فللمرأة أن تكشف وجهها. خاصة وهي تكشفه في الصلاة وفي الحج. وما جعل عليكم في الدين من حرج. والمرأة مفطورة على حبها لتكون وسيمة، وأن تضيف إلى جمالها الخلقي جمالا مصطنعا. كأحمر الشفاه، وتطلي خديها بلون وردي يظهرهما بلون الشباب الصافي. فهذه الزينة زينة لافتة للأنظار تثير في الجنس الاخر خفي الشهوة. فليس للمرأة أن تتزين على هذا النحو مع غير من استثنته الآية. ومن ذلك الكحل وقد اختلف فيه العلماء، والذي ترجح عندي أن الكحل العادي لا حرج فيه، ولكنه تطور في زماننا هذا إلى ما يقيم الأهداب فيجعلها كالسهام، بما يخيل للرائي سعة في الحدقة وجاذبية قوية. وهذا النوع يترجح عندي أنه ليس للمرأة أن تتزين به مع غير من استثنته الآية على ما سيأتينا.

وكذلك للمرأة أن تظهر كفيها، وذهب بعض العلماء إلى جواز كشف نصف الذراع. ويترجح عندي هذا القول، إذ أن كثيرا من نساء الريف يقمن بالأعمال الفلاحية ، وحتى في الحضر فمنهن التاجرة والعاملة، فستر نصف الذراع يوقعهن في حرج .

واختلف في كشف القدمين ومن الصعب الجزم بحرمته. ومن الزينة التي تعنى بها النساء اللباس. واللباس الشرعي هو الساتر لجميع بدن المرأة ما عدا الوجه والكفين وأطراف القدمين على ما ذكرناه. وتعتني المرأة بلباسها عناية زائدة على الستر فتتخير الألوان، وتطرز ثيابها، واختصت موهوبات بالتفنن في خياطة اللباس. والمعول على جوازه مع غير الزوج وما عطف عليه: أن لا يكون اللباس كاشفا ولا ضاغطا على الجسم يصوره تصويرا قد يستوي مع العري. ولا أن يكون رقيقا لاهي به مستورة ولاهي عارية. أما الشعر والرقبة والأذنان، فقد أُمِرْنَ أن يغطي خمار الرأس الشعر والرقبة والأذنين، وذلك بأن لا تترك أطراف الخمار مسدولة إلى قفاها أو مسترسلة على منكبيها، بل تجمع طرفي الخمار في فتحة العنق فتستر بذلك الأذنين والرقبة وأعالي الصدر. وفي التعبير بالضرب ما يفيد تمكين وضعه في الجيب.

- ثم أكدت الآية النهي عن إبداء زينتهن ورتب على التأكيد بيان المستثنيات التي يباح للمرأة فيها إظهار زينتها.

- ابتدأت الآية بمن الأصل فيه أن يحل له النظر إلى جميع بدن المرأة ، وليس بينهما عورة يتحتم سترها وهو الزوج [البعل] مادامت العلاقة الزوجية قائمة بينهما.

- البنت مع والدها وجدها. فيحل لها إبداء الزينة كالصدر والرقبة والساق والمعصم. وعلى هذا النحو تجري بقية المستثنيات.

- أصول الزوج الأب والجد.
- أبناء المرأة وأبناؤهم.
- ابن الزوج من غيرها وأبناؤهم.
- إخوة المرأة كانوا أشقاء أو لأب أو لأم، وكذلك أبناؤهم.
- أبناء الأخت وأبناؤهم.
- المرأة مع المرأة التي لا يجمعها بها نسب ولا صهر.
- الرقيق المملوك للمرأة .

- التابعون بشرطين: التردد على البيت، وأن تكون رغبتهم الجنسية معطلة، فهما شرطان كثرة الاتصال بالبيت للمساعدة والخدمة، وفقدان الرغبة الجنسية. كالمجبوب والشيخ الهرم، والخصي على قول.

- الطفل قبل سن المراهقة ، الذي لم تتطور فيه الغريزة الجنسية لترغبه في الاطلاع على عورات النساء .

والآية لم تذكر حكم العم والخال، وحكمهما كبقية المحارم للمرأة، أنه لا يحرم عليها إظهار زينتها أمامهما. ولما كان يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، فالذكور الذين بينهم وبين المرأة صلة تحرمها عليهم حكمهم حكم القرابات بالصهر والنسب.

ومما ينبغي التنبيه له: أن زوج الأخت أجنبي عنها، وكذلك عم الزوج وخاله. وبالجملة كل من يحل له الزواج بالمرأة لو انحلت رابطة الزوجية.

كما نهت الآية المرأة أن تقوم بما يحرك الشهوة الجنسية عند الرجال الأجانب عنها. ونصت الآية على صورة من صور الإثارة، فقد كانت بعض النساء في العهد النبوي يضعن الخلاخل في أرجلهن. وكانت امرأة مرت وفي ساقيها خلخال رصعته بجزع ، فضربت برجليها على الأرض ضربة فيها غنج أثارت من سمعها فروي أنها نزلت الآية عند ذلك، إذ بذلك يصور الشيطان تلك الماشية بما يشاء الخيال أن يتصور. فكان هذا النص مفيدا أنه يحرم على المرأة أن تقوم بما يثير الغرائز وإن سترت زينتها. فالعفيفة لا تكون إلا حييّة، تنشط في الحياة تبعا لما أوتيته من نباهة وذكاء، وتفرض احترامها بمزاياها الخلقيّة، وتحصن نفسها من أن تكون غرضا للعيون، أو أن تكون وسامتها رأس مالها.

وختمت الآية بالدعوة إلى التوبة عما يفرط من الرجل أو المرأة في حال الغفلة، كاللمم والتصورات المسترسلة التي ينشط الشيطان ليواصل الإنسان حديث النفس فيحرك الداعية لقوة الغريزة الجنسية فيه، هذه الغريزة التي بها يتواصل عمران الكون بالإنجاب. وهي أيضا أساس بناء الأسرة السعيدة إن أشبعت بالحلال وبالالتزام بأدب القرآن. مناديا المؤمنين بوصف الإيمان ليأملوا فلاحهم وفوزهم في الدنيا والآخرة بالاستقامة والتوبة.

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن

يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةٗ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأيامى : جمع أيم : المرأة غير المتزوجة بكرا أو ثيبا، وحقق بعضهم أنها تطلق على الذكر غير المتزوج أيضا.

واسع : واسع إحسانه، عظيم فضله.

وليستعفف: وليجتهد في العفة.

الكتاب : العقد الذي يتم بين العبد ومالكه، يتم بموجبه أن يلتزم العبد بدفع مقدار مالي في آجال محددة، ثم يخرج حرا إذا وفى بما التزم به.

البغاء: اتخاذ الزنى حرفة للتكسب.

المثل : النظير والمشابه.

الموعظة : التعريف بمواقع الزلل للانتهاء من اقتراف أمثالها.

بيان المعنى الإجمالي :

يدعو القرآن الأولياء لمساعدة غير المتزوجين على الزواج طلبا للعفة، وإذا كانوا صالحين فمساعدة الصاحين يربو ثوابها، وإن كانوا غير ذلك فمساعدتهم للخروج بهم مما يمكن أن تفضي له العزوبة متأكد. ولا يكنْ الفقر تعلة لعدم التزوج ،إن الأمل في فضل الله أن يوسع على الأسرة الفقيرة ويغنيها بعد عُدم. ذلك أن من صفته سبحانه أنه واسع الفضل، عليم بأحوال الناس .

ويرشد القرآن الذين تعذر عليهم تحصين أنفسهم بالزواج بالعزم الصادق على العفة، وأن لا يفقدوا الأمل في فضل الذي سيوسع عليهم، فإنه سبحا نه قادر على ذلك ، وهو لا يخيّب رجاء من رجاه.

ثم تعرض القرآن إلى وضع اجتماعي، حاصله أن المجتمع كان يتركب من أحرار وعبيد ، وقد جاء الإسلام برفع المستوى البشري، فكان مما شرعه : أن أمر مالك العبد أو الأمة، إن ظن أن مملوكه يرغب في الكتابة وكان صالحا لا يتخذ العقد ذريعة للتهرب من الخدمة بعض الوقت، بأن يعقد مع مملوكه عقدا يطلقه للعمل، ويقدم لمالكه أقساطا متفقا عليها في آجال محددة، فإذا وفى المملوك بما التزمه خرج حرا. ثم ندب المالكين وبقية المؤمنين أن لا يبخلوا على المكاتبين بالعون المالي حتى لا يعجزوا عن الوفاء.

وبجانب هذا التشريع السامي، كــان الجــاهليون يستســيغون أن يكــره المالــك مملوكتــه على عرض جسدها وبيع الاستمتاع به من الزناة، ويفــوز هــو بالمقابــل المــادي .وهــو أمر مقرف استساغوه تغليبا للمال على القــيم والعفــة. وممــا يزيــده بشــاعة أن بعــض الفتيات كن مكرهــات علــى ذلــك يــرغبن فــي الصــون والعفــة. ووعــد الله الفتيــات المكرهات على البغاء، بــأن الله يغفــر لهــن مــا أكــرهن عليــه، لأن الله غفــور، وأنــه سيجعل لهن مخرجا فهو الرحيم.

وامتن الله على المؤمنين بمــا أنزلــه مــن تشــريع بواســطة آيــات بلغــت مــن البيــان والوضوح والتأثير المبلغ الــذي تمــت بــه صــياغة المجتمــع الإســلامي علــى الطهــر والسمو. وقرر تلكم القيم ونقشها في قلوب المــؤمنين بمــا عرضــه مــن الأوضــاع التــي كانت عليها الأمم الســابقة والمــالات التــي انتهــت إليهــا، ليتخــذوا مــن ذلــك عبــرة وموعظة تحمي المتقين الذين يراقبون صلتهم بربهم، من الوقوع فيما وقعوا فيه.

بيان المعنى العام :

32- وأنكحوا الأيامى منكم ....والله واسع عليم .

يواصل القرآن تشريع ما يُمكِّنُ للطهــر والعفــة فــي المجتمــع الإســلامي، فــإن الشــبق للأيم غير المتزوج والأيمة غير المتزوجة، قد يكــون مــدخلا للشــيطان، فــأمر الأوليــاء أن ييسروا زواج من هم إلى نظــرهم مــن المســلمين والمســلمات. هــذا إذا كــان مــن تحت نظرهم صالحين على حظ من العفاف والتقــوى. وأمــا إن لــم يكونــوا علــى هــذا المستوى فإن السعي لتزويجهم اكد قطعا لدابر الزنا.

والذي فهمه الحذاق من المفسرين أنه يجــب فــي حــدود القــدرة، تــزويجهم إذا خشــي الولي وقوع منظوره فيما يضره في دينه، وإلا فهو مندوب إليه.

إن كثيرا ممن حرضت الآية على تزويجهم، قد يتعللون بــالفقر، ســواء أكــان ذلــك مــن الزوج أم من الخاطب الذي يُرَدُّ إذا لم يكــن غنيــا، ففتحــت الآيــة الأمــال فــي تحــول الفقير إلى وضع يكون فيه قادرا علــى إعالــة زوجــه. وهــو وعــد كــريم منــه تبــارك وتعالى بإغناء الفقراء المتزوجين طلبا لرضــاه واعتصــاما مــن عصــيانه. قــال عمــر بن الخطاب رضي الله: عجبي ممــن لا يطلــب الغنــى بالنكــاح، وقــد قــال تعــال: (إن يكونوا فقراء يغنهم الله مــن فضــله) وحقــق هــذا الرجــاء بــأن الله واســع النعمــة والفضل، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها. وهو العلــيم يُمكِّــن مــن فضــله حســب مــا يقتضيه علمه الذي لا يغيب عنه شيء.

33-وليستعفف الذين لا يجدون...غفور رحيم .

وسّع الإسلام أبواب الحرية، ومن ذلك ما أمرت به هــذه الآيــة مــالكي العبيــد والإمــاء أن يستجيبوا لطلب عبيدهم مكاتبتهم. والمكاتبة عقــد مكتــوب، يــتم بــين المالــك والعبــد، يلتزم فيه المملوك بدفع مقدار محدّد عند كــل أجــل مضــبوط (يســمى نجــوم الكتابــة) فإذا وفّى المملوك بما التزمه خرج حرا .

فإذا رغب المملوك في عقد الكتابــة مــن مالكــه، فالمالــك مــأمور بالاســتجابة لطلبــه، وعلقه بتيقن المالك أن في المملوك خيرا، أي إذا اطمــأن إلــى أنــه يبتغــي مــن الكتابــة الوفاء بما التزم به والتحــرر، لا أن يتخــذ العقــد وســيلة للتنصــل مــن واجــب العمــل للمالك ، بأن يأخذ تلك الفترة التي يــدعي أنــه يجمــع فيهــا مــال الكتابــة ليســقط حــق المالك فيما هو واجب عليه من الخدمة، ويقضيها في البطالة، دون أن يحقق حريته.

وطلب من المالكين أن يساعدوا عبيدهم بالتنقيص ممــا التزمــوا بــه ليتحــرروا. ويمكــن أن يكون الخطاب موجها للمؤمنين جميعا بمســاعدة المكــاتبين حتــى مــن مــال الزكــاة. إذ أن من مصارفها "وفي الرقاب" وإضــافة المــال إلــى الله تصــريح بحقيقــة الأمــر ، فإن المال مال الله ، آتاه من فضله من شاء مــن عبيــده. وفــي التــذكير بــذلك تحــريض على المساعدة .

-كان العبيد يمثلون فصيلة من المجتمــع ،وشــمول الإســلام اقتضــى أن يحــدد وضــع المملوكين ويبين حقوقهم ، ويرشد إلى طريقة التعامل معهم .

جاء الشطر الأول من هذه الآية يحث المســلمين علــى مكاتبــة مــن يملكــون ليتحــرروا من الرق، وهو أحد الأبواب الكثيرة التي فتحها الإســلام للتحريــر، حتــى تكــون إنســانية الإنسان كاملة حسب ما قدره سبحانه من تكريمه.

شرعه قربة بدون سبب إلا الرغبة فــي الحريــة، وبأســباب كثيــرة منهــا الحنــث فــي اليمين وكفارة الفطر في رمضــان، وفــي كفــارة الظهــار، وفــي كفــارة القتــل، وهــو مصرف من مصارف الزكاة.

وقد كان الجاهليون يضــطهدون الأرقــاء، ويعــاملونهم معاملــة الحيــوان، ومــن بعــدهم الأميركيــون فــيمن اختطفــوهم واعتبــروهم عبيــدا، وبــأرواحهم وبســواعدهم عمــروا أرض أميركا، واستولوا على خيراتها.

إنه في مقابل الوجه الإنســاني الرفيــع بــالأمر علــى المكاتبــة وعــون المكاتــب ليفــوز بحريته، كان في المقابل وجه كالح استســاغه العــرف الجــاهلي. كــان أصــحاب الثــراء يشترون الإماء، ثم يجبر مملوكته على الزنى، ويتخــذ لهــذا الغــرض بيتــا يقــيم عليــه راية تعرّف الراغبين في الجنس بمقابل ليقضــوا فيهــا شــهواتهم الآثمــة ، يعــرف باســم الماخور .والمال الحاصل يذهب به المالــك. وقــد ســجلت كتــب الســيرة مــثلا أســماء

ستة من الإماء اللاتي كان عبدالله بن أبي بن سلول يكرههن على البغاء. ولا يذهبن بكم الظن أن البشرية اليوم عوفيت من هذا، وأن الحرية شملت الناس أجمعين. ففي عالمنا ذي الوجهين ، تنشط عصابات منظمة وقوية جدا، تتنقل حتى بأسطولها الجوي، تجمع الغواني وتبيع أجسادهن للزناة بمبالغ مالية خيالية تتبع ثراء الزاني ووسامة البغي.

إذن نهى القرآن عن إكراه الإماء على البغاء بعرض أجسادهن للرجال بمقابل مالي ليغنم مالكها، من بيع الاستمتاع بجسدها، المال القذر، هي صورة يتقزز منها من له أدنى حد من الشرف. وليتم تقديم الصورة المنحطة أضاف القرآن قوله " إن أردن تحصنا " فهذا الإلحاق يرمي إلى زيادة تشويه الصورة، أن تكون المملوكة تبغض بيع الاستمتاع بجسدها بالمال وتتعلق بالعفة، ولكن الفظ الغليظ الجافي مالكها يكرهها على الخطيئة. إن من يكرههن قد تسفل فأصبح لا يتعلق إلا بالمال متاع الحياة الدنيا الزائل، إنه قطع مشاعره بالقيم، فهو لا يتحرك إلا ابتغاء المادة الجانب الذي يشاركه فيه بقية الحيوانات. والمملوكة أسمى من مالكها .

والمملوكة المسكينة المغلوبة على أمرها التي لا تستطيع إنقاذ نفسها ،التي تكره الخطيئة ، قد من الله بأنه يغفر لها ذنبها، إذ هو سبحانه المتصف بالمغفرة الشاملة والرحمة الواسعة، وعسى أن يجعل لها من كربتها فرجا ومخرجا.

34- ولقد أنزلنا إليكم آيات ...وموعظة للمتقين.

ما عرضته الآية الأخيرة من انحدار المستوى الإنساني إلى إكراه المملوكة العفيفة على البغاء، ليحصل مالكها على المال القذر من الخنا، لم يكن أمرا مرفوضا من المجتمع الجاهلي، بدليل أن عددا غير قليل من كبرائهم كانوا يفعلونه ،ويضيفون إلى ثرواتهم مال البغاء ويكرهون فتياتهم عليه. فناسب أن يذكر المؤمنين بالخير والنعمة والتفكير الصحيح ، والبناء الاجتماعي النظيف الذي أقامه الإسلام في عقولهم وضمائرهم، ويسّر لهم الاقتناع به بما أنزله من الآيات القرآنية البينة الواضحة التي لا لبس فيها ولا غبش ولا تأويل .وبما عرضه من أحوال الأمم السابقة ومآلاتها، ليتخذوا صور سلوكهم وما انتهوا إليه موعظة تحرك عقول المتقين وعواطفهم إلى السلوك المستقيم .

۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا

شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

النور : الإشراق والضياء. ومن هذا الاسم الجامد تم الاشتقاق، أنار، واستنار.

مشكاة : كوة في الجدار غير نافذة.

المصباح: الجهاز الذي يوقد فيه الزيت للإنارة .

كوكب دري: كوكب ساطع النور كأنه درة، وهو الزّهرة.

مباركة : جامعة بين خيرات كثيرة.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه الآية تفسر إخراج المادة من العدم إلى الوجـود، وتشـكيلها علـى النحـو الـذي تـم تشكيلها عليه، من السماوات بمـا تحويـه عوالمهـا مـن أبعـاد ومـن خصـائص ومـن قوانين، غاية القوة العقلية التعرف على ما هو في طوقها معرفتـه مـن ذلـك. فمـا كانـت هذه العوالم لتخرج من العدم المطلق إلى الوجود الواضح إلا تبعـا لمـا عبـر عنـه بنـور الإيجاد الإلهي لها. وكذلك الأرض وما عليهـا، الأرض الـذي اسـتخلف فيهـا الإنسـان، هذا الإنسان الذي وإن وهب العقل الذي انبثق مـن نـور الإيجـاد الإلهـي أيضـا، إلا أن طاقاته تقعد به عن إدراك حقيقة علاقاته بخالقـه وبـالكون وعـن التقـدير الصـائب لمـا يترتب على سلوكه في الكون، وعن معرفة ما سـيؤول إليـه، إلا بفضـل مـا شـع مـن نور الهداية الإلهية على لسان رسله . فكل ما وجد مـن المـادة وترتيبهـا أو مـن العقـل وقدراته، أو من الهداية إلى السلام، تحقق بفضل النور الإلهي.

ولتقريب قوة هذا النـور وسـريانه ولطفـه ضـرب القـرآن لـه مثلـا يوضـحه لعقـل الإنسان. إن مثل هذا النور كمثل كوة ظهرهـا غيـر نافـذ وضـع فيهـا مصـباح، فهـي بوضعها هذا يتجمع فيها ضوء المصـباح ولا ينتشـر انتشـارا يضـعفه، هـذا المصـباح داخل زجاجة بلغت من الصفاء والإشعاع صورة ما تدركـه العـين مـثلا مـن مشـاهدتها لكوكب الزهرة أكثر الكواكب التي تقر فيها العـين لمعانـا وصـفاء، ثـم إن هـذا المـادة التي يتوقد منها ضوء المصباح مادة عجيبة فريدة، هـو زيـت شـجرة الزيتـون، ليسـت زيتونة كبقية الزياتين، هي شـجرة فريـدة بعيـدة عـن الأطـراف الشـرقية والغربيـة، تحتل وسط المحيط الذي نبتت فيـه، يكـاد تبعـا لـذلك أن يبلـغ زيتهـا مـن الإشـراق والصفاء أن يصدر منه النور قبل أن تمسه النـار .هـي طبقـات مـن الأنـوار متداخلـة

مضاعفة الإشعاع، لا يتعطل نفاذهــا. ولكــن الهدايــة لهــذا النــور بيــد مصـــدر النـــور، يهدي به من يشاء، ويمنعه عمــن يشــاء فيبقــى فــي ديــاجير الظلمـــة تائهــا. إن هـــذه الأمثال يضربها الله للناس ليسمو بمداركهم إلـــى المســـتوى الـــذي يمكـــنهم مـــن وضـــوح الأسرار. والله عليم العلم الكامل يضع الأمور في مواضعها.

بيان المعنى العام :

35- الله نور السماوات والأرض...والله بكل شيء عليم .

أقدم لهذه الآية بنقل نصين بلغ كاتباهما مـــن الإحســـاس بهـــا مبلغـــا ســـما إلـــى درجـــات عالية من التوفيق:

أولهما لسيد قطب رحمه الله، يقول:

وما يكاد النص العجيب يتجلى حتى يفـيض النـــور الهـــادئ الوضــــيء. فيغمـــر الكـــون كله ، ويفيض على المشاعر والجوارح، وينسكب فـــي الحنايـــا والجـــوانح، وحتـــى يســـبح الكون كله في فيض النور الباهر، وحتـــى تعانقـــه وترشـــفه العيـــون والبصـــائر ، وحتـــى تنزاح الحجب، وتشـــف القلـــوب ، وتـــرف الأرواح ، ويســـبح كـــل شـــيء فـــي الفـــيض الغامر، ويتطهر كل شيء في بحر النور، ويتجرد كـــل شـــيء مـــن كثافتـــه وثقلـــه، فـــإذا هو انطلاق ورفرفة، ولقاء ومعرفة، وامتزاج وألفـــة، وفـــرح وحبـــور. وإذا الكـــون كلـــه بما فيه ومَنْ فيه نور طليقٌ من القيود والحـــدود ، وتتصـــل فيـــه الســـماوات بـــالأرض، والأحيـــاء بالجمـــاد، والبعيـــد بالقريـــب، وتلتقـــي فيـــه الشـــعاب والـــدروب، والطوايـــا والظواهر، والحواس والقلوب.[1]

فسيد قطب رحمه الله اندمج في ظلال الآية فنفذ إحساســـه بهـــا علـــى كيانـــه كلـــه فعبـــر عن ذلك أجمل تعبير في لوحة فنية رائعة.

وثانيهما للإمام حجة الإسلام الغزالي في رسالته مشكاة الأنوار يقول :

النور هو الظاهر الذي به كل ظهـــور، أي الـــذي تتكشـــف بـــه الأشـــياء وتنكشـــف لـــه، وتنكشف منه، وهو النور الحقيقي وليس فوقـــه نـــور، جعـــل اســـمه تعـــالى النـــور دالا على التنزه من العدم، وعلى إخراج الأشياء كلها من ظلمـــة العـــدم إلـــى ظهـــور الوجـــود فآل إلى ما يستلزمه اسم النـــور مـــن معـــاني الإظهـــار والتبيـــين فـــي الخلـــق والإرشـــاد والتشريع. فالإمام الغزالي رحمه الله تعمق في مفهـــوم الآيـــة فـــي إطـــار الأدلـــة اليقينيـــة فجلاها. وقد يكون ما فسر به الآية مبنيا على ما ذكره. فلنتابع الآية خطوة خطوة:

---

[1] في ظلال القرآن ج 18 ص104

الله نور السماوات والأرض- ما أوكد عليه ليكون حاضرا في عقل التالي لكتاب الله : أن الله منزه التنزيه الكامل عن كونه سادة أو عرضا، أو أن يمثل بما يخطر في تصورات البشر، فكل ما علق ببالك فالله مخالف لذلك.

و بناء على هذه الحقيقة اليقينية فالإخبار عن الله بكونه نورا هو إطلاق مجازي. يجري عليه الاستعمال العربي لتقريب ما يريد المتكلم أن يصوره، كقول الشاعر مثلا يريد أن يجعل المخاطب يحس بما جمعته محبوبته من الوسامة بقوله :

بدت قمرا ومالت خوط بان *** وفاحت عنبرا ورنت غزالا

وتبعا لذلك تفهم من قوله: الله نور السماوات والأرض :أن الكون كله سماواته وأرضه أخرجه الله من العدم، وأظهره بخلقه فأصبح بذلك قابلا لأن يُدرك وتظهر عليه آثار الوجود. إن ما ظهر وما سيظهر في العوالم من دقيق الأشياء ومن عظيمها، كل ذلك اكتسب الظهور الحقيقي أو الكامن، من اللحظة التي قال الله للكون: كن، فظهر على النحو الذي قدره في سابق علمه.

وكذلك ما ركب في الإنسان من قوى العقل والإدراك ليتفاعل مع ذلكم الظهور في السماوات والأرض فيتجلى له حسب القدرات التي أودعها فيه، هو خروج به من عدم التعقل والإحساس والشعور إلى الفعل، الذي هو النور الذي تحولت به الأشياء عنده إلى ما هي عليه فتفاعل معها.

والله نور السماوات والأرض ومن فيها: باعتبار أن الهداية التي تجعل الإنسان يخرج من ظلام النفي، أو الشك والحيرة، في بدايته ومنتهاه ،إلى صورة واضحة مشرقة، تكتسب منها روحه الطمأنينة، هو أيضا من النور الذي نتقبله من هدايات المرسلين الذين أرسلهم الله ومن العلماء.

والله نور السماوات والأرض بالنظر إلى إظهار ما يترتب على الأفعال من صلاح أو فساد ومن خير أوشر، أظهره بتشريعه وبإرشاده.

إن هذه المعاني دقيقة سامية فلذلك قربها للناس بالتمثيل الآتي الذي نتبع ما ركب منه جزءا جزءا، سائلين من فضله ورحمته أن يهدينا رشدنا في فهم كتابه.

سرى هذا النور في النواحي الأربعة المذكورة في لطف بالغ، ونفاذ لا يمكن أن يجد معاكسة، فهو كالنور البارز من مصباح في مشكاة، وهي الكوة غير النافذة في الجدار. وبهذا التحديد يكون مصدر النور مساعدا على قوة التوضيح.

ثم استحضر المصباح بإعادة ذكره ليبرز أنه مقوم أساس في التمثيل، فأجرى عليه الخصائص التالية. أنه موضوع في زجاجة بما تلقيه من ظلال الشفافية والصفاء

لانطلاق النور بدون أي معوق. والزجاج يصفو إلــى درجــة أنــه يكــون مشــعا بذاتــه، وينعكس الضوء على جنباته فيزداد توهجــا، كــالأنواع البالغــة أعلــى درجــات الصــفاء من البلور.

وكذلك استحضر الزجاجة لنفس الغــرض، فأتبعهــا بأنهــا كالكوكــب الــدري، والكوكــب هو النجم الساطع النور. وحمله كثير من المفسرين علــى أنــه كوكــب الزهــرة المتميــزة عن بقية الكواكب بسطوع نورها وصفاء لونها وبياضه.

يوقد من شجرة مباركة، يمد وقوده الذي يشتعل بــه ليقــوى لهبــه زيــت مســتخرج مــن شجرة، هي زيتونــة. والزيــت وإن كــان يســتخرج مــن نباتــات عــدة، إلا أن أصــفى الأنواع وأنسبها للإسراج زيت الزيتون. ونوّه بهذه الشــجرة، بــأن الله بــارك فيهــا فكــل ما تركبت منه ينتفع به، وهو الأفضل فــي نوعــه، حتــى إن حطــب الزيتــون إذا حــول إلى فحم يفضل بقية أنواع الفحم. وأضاف مــا ينــوه بهــذه الزيــت المعتصــر مــن ثمــر زيتونة، أنها وسط لا شــرقية ولا غربيــة. فهمهــا بعضــهم علــى أنهــا لا فــي شــرق الأرض ولا في غربها ولكنها بين الطــرفين أي فــي بــلاد الشــام. ولعــل الأولــى أنهــا ليست في الطرف الشرقي من مجموعة الأشــجار، ولا هــي فــي الطــرف الغربــي، بــل هي في قلب ما يحف بها من أشــجار. فكانــت بــذلك فــي محــل العنايــة بهــا أكثــر، وبعدها عن الانتهاك والتعدي أتم. فلا تتناولهــا الحيوانــات بقضــم لــذن فروعهــا. ومــن المعروف عند الفلاحين أن شجرة الزيتون تتسمم أغصــانها إثــر قضــمها مــن الشــياه، مما يؤثر على الشجرة، فتتأثر ثمارها، وكذلك الزيــت المســتخرج منهــا تبعــا لــذلك.

ويواصل القرآن تحسيس التالي بصفاء هذا الزيــت، هــو زيــت آخــر عجيــب مشــرق بذاته يكاد الضوء يشع من مادته، وينفجــر منــه النــور قبــل أن تمســه النــار. وتحــرك الآية التالي حتى لا يضيع في ما تــوارد علــى المثــل مــن تــدقيقات، فتصــرح بــأن النور قد توهج وانعكس شعاعه من جميع النــواحي، فــلا تســتطيع أن تربطــه بالمشــكاة فقط، ولا بالمصباح، ولا بالزجاجة التــي كأنهــا كوكــب دري، ولا بالزيــت البــالغ مــن الصفاء مبلغا فريدا حتى إنه يكاد يضيء بمادته. ولكنه نــور علــى نــور تناصــرت فــي توهجه تلك الخواص المتجمعة. ويتركك القــرآن منغمســا فــي إشــراق عجيــب يتجــاوز الحس إلى ما وراءه من التصورات السامية التي ســرى بهــا النــور فــي المــادة والعقــل والروح والمدارك.

ثم ينتهي مصرحا بهذه الجمل الثلاث المحققة لما جــاء فــي العــرض التمثيلــي، والــذي يتبعه سؤال : إنه بما لهذا النور مــن قــوة وصــفاء وإشــعاع لا يمكــن أن لا يحــس بــه وبآثاره العقل. وبما له من نفاذ إلــى المعقــول والمحســوس، فمــا لــبعض النــاس لــم

يحسوا به، ولم يهتدوا بهديه، وتركوه وراءهــم ظهريــا ؟ فيكــون الجــواب فــي الجملــة الأولى إن النور الفاعل هو ذاته الذي يقدر لــه رب العــزة النفــاذ فيهــدي مــن يشــاء الله هدايته ،أو يعطل البعض عن إدراكــه فتتحــبس مداركــه ويحجــب عقلــه فيمــر مــرور الأعمى الذي لا يكون عماه نافيا للإشراق والنور.

و الجملة الثانية: أنه إضافة إلى تحقق هذا النــور وســريانه فــي الوجــود كلــه، يتفضــل الله على البشر بضرب المثل له حتى يرفــع عــن عقــولهم الحجــاب، فيهتــدي مــن لــم يطبع على قلبه.

و لا تبحثوا عن السر في اهتداء البعض، وانصــراف الــبعض، فــإن الله المتصــرف فــي هذا الكون هو المتفرد بالعلم الكامل قد وضع الأشياء في مواضعها.

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

أذن :أمر وقضى، فمكّن.

الغدو : الوقت المعتاد لخروج الناس أول النهار من البيوت لقضاء شؤونهم.

الآصال : جمع أصيل وهو آخر النهار.

السراب: صورة يتوهم للبصر أنها مــاء يتحــرك فــوق ســطح الأراضــي عنــد اشــتداد الحر.

قيعة : أرض منبسطة .

وفاه حسابه : أعطاه جزاء كفره كاملا.

لجي : بحر عميق جدا.

بيان المعنى الإجمالي :

إن النور المشع الصافي الذي انبثق عنه الكون فخرج من العدم إلى الوجود، وفاض على أرواح وعقول من كتبت لهم السعادة، فاهتدوا به، وحرم منه الأشقياء فغرقوا في الظلمات، قد أبرز له القرآن نموذجين:

النموذج الأول: من شاء الله هدايته، فانطبع عقله وروحه بالنور. ودقق القرآن عارضا تفاصيل هذا النموذج :هم رجال ينزهون الله ويذكرون اسمه، في بيوت الله: المساجد التي أذن الله أن ترفع فرفعت أبنيتها وطهرت من الأدناس، وطيبت رائحتها، لتكون خالصة لوجهه. يبرز فيها التنزيه لجلاله على أتم صورة، هم رجال يواصلون تسبيح الله في الصباح والمساء، تعلقت قلوبهم بجلاله فهم في تسبيحة متواصلة، لا تقطعها تجارة ولا بيع ، يقيمون صلواتهم على الوجه الذي شرعه ، ويؤتون زكاة أموالهم طائعة بها نفوسهم، ومع ذلك هم مستحضرون لليوم العظيم الذي تضطرب فيه القلوب والأبصار ؛ خائفون أن يحرمهم الله فضله ورضاه. ينتهي الأمر بهذا النموذج، إلى أن الله سيجزيهم عن أفضل الأعمال التي قاموا بها ويتجاوز عن تقصيرهم، ثم يتفضل عليهم بمنازل هي من فيض كرمه وجوده. إن الله يرزق من يشاء رزقا لا حد له ولا يدخل تحت الحساب ، بل هو فيض يتجاوز الوصف .

النموذج الثاني: الذين صمموا على الكفر ورفض الهداية، هؤلاء جمعوا إلى ضلال الكفر إحباط أعمالهم، حتى ما كانت صورته صورة عمل صالح. ينسف الله أعمالهم، فلا يبقى لها أثر ينتفعون به، فهي لا تعدو مستوى الخيال، هي أشبه ما يكون بالسراب الذي يترجرج في عين الناظر على أرض منبسطة شديدة الحرارة، يطمع بأن ما يراه ماء يطفئ عطشه، وبعد أن يحدد مكانه ويجري نحوه ليروي لهب ظمئه لا يجد ماء، بل يجد من يأخذه أخذا شديدا يشل حركاته وينفذ فيه إرادته .وهكذا تنتهي أعمال الكفار بسبب كفرهم إلى هباء لا قيمة له ، ويجدون يوم القيامة أنفسهم في قبضة الله الذي يوفي كل واحد منهم حسابه العادل . والله يحاسب في سرعة يجتمع فيها قيمة الأعمال السابقة والجزاء عليها في لحظة واحدة.

ومثل آخر ينطبق على من حرم نور الهداية يفصله القرآن: إن المعرض عن الإيمان المصمم على الكفر ،وضعه كوضع من أطبقت عليه الظلمات كأشد ما يكون الظلام، هو كالوالج في بحر عميق جدا تتحرك طبقاته، كل طبقة فوقها طبقة

أخرى بأمواج تعلو وتعلو، وتغطي السماء سحب كثيفـة تحجـب كـل نـور تبعـث بـه الأجرام السماوية من شـمس أو قمـر أو نجـوم. ظلمـات تنوعـت فتجمعـت وتراكمـت حتى إن الوالج فيه لا يرى يده التي هي أقرب الأشياء إليه .

هكذا يكون الكفر حجابا صفيقا يتراكم على الـنفس فيحجـب عنهـا نـور الهدايـة. ومـن يحرمه الله النور بسبب تصميمه علـى الكفـر لا يمكـن أن ينفـذ أي شـعاع ينيـر عقلـه وروحه ، فهو مغرق في الظلمات ، تطبق عليه الحيرة والقلق.

بيان المعنى العام :

36-38: في بيوت أذن الله أن ترفع...من يشاء بغير حساب .

حقق القرآن في آية النور أن الله يهدي لنـوره مـن يشـاء، فتـابع الحـديث عـن هـؤلاء المهديين، فذكر منهم نموذجا: هم الـذين يسـبحونه وينزهونـه فـي تسـبيحة موصـولة في بيوت أذن الله أن ترفع .وأجرى عليهم من الأوصـاف، ومـا أعـد لهـم مـن حسـن الجزاء ما يثير الرغبة في الالتحاق بهم.

فقوله تعالى في بيوت متعلق بقوله "يسـبح " نعـم، إنـه وإن كـان التسـبيح والتنزيـه لله ينقي الروح من شوائب المادة ويصفيها، إلا أنه إذا كان ذلـك فـي المسـاجد فإنـه يكـون أقوى تأثيرا وأعظم أثرا فـي المشـاعر. روى أنـس بـن مالـك رضـي الله عنـه عـن رسول الله ﷺ أنه قـال :مـن أحـب الله عـز وجـل فليحبنـي ، ومـن أحبنـي فليحـب أصحابي، ومن أحب أصحابي فليحب القرآن، ومـن أحـب القـرآن فليحـب المسـاجد ، فإنها أفنية الله [أبنيته] أذن الله فر فعهـا، وبـارك فيهـا ميمونـة ميمـونٌ أهلُهـا محفـوظ أهلها، هم في صلاتهم والله عـز وجـل فـي حـوائجهم هـم فـي مسـاجدهم والله مـن ورائهم.[1]

وبهذا تكون آية النور وآية المساجد هذه قد جرت كل واحـدة منهمـا علـى نسـق واحـد في العناية بالتفاصيل.

هذه البيوت أذن الله فـي بنائهـا وتطهيرهـا، فهـي مرفوعـة بـإذن الله، حسـا بالبنـاء، ومرفوعة معنى بتطهيرها من اللغو ومن كل مـا يسـتقذر، مـأمور بتطييبهـا للمصـلين، هي مواطن الذكر المصفي للروح. على داخلهـا أن يكـون علـى أحسـن وضـع نظافـة ولباسا. يا بني آدم خذوا زينـتكم عنـد كـل مسـجد[2] وتتضـاعف قيمـة هـذه البيـوت

---

[1] الجامع لأحكام القرآن ج12ص266

[2] سورة الأعراف آية 31

(المساجد) باهتمام القائمين فيها، بما هم عليه من تجـرد للاتصـال بـذلكم النـور الهـادي في الآية السابقة.

هم يسبحون الله في الغدو (الصباح) والآصال (آخـر النهـار) والـذي أفهمـه مـن الآيـة ليس تخصيص هذين الوقتين، ولكن ينساب التسبيح مـن قلـوبهم وأفـواههم فـي جميـع الأوقات، لأنه المناسب لما تم من التنويه بهم ، هـذا التنويـه الـذي سـما بـه أصـحاب النبي ﷺ فكانوا به هـداة البشـرية إلـى يـوم الـدين ؛ قـرنهم خيـر القـرون . إنهـم ينغمسون في التسبيح انغماسا لا يلفتهم عن جلالـه وجمالـه شـؤون التجـارة ولا البيـع . وليس معنى هذا أنهم لزموا المسـاجد وتركـوا النشـاط فـي تنميـة ثـرواتهم، لا ! إنهـم كانوا موفقين في تجارتهم يسر الله لعدد غير قليل مـنهم جمْـع ثـروات واسـعة سـمحوا بأوفر نصيب منها في تأييد الدين وتجهيـز جيـوش المسـلمين ، ومسـاعدة المحتـاجين . رضي الله عنهم وأرضـاهم. إذا حضـر وقـتُ الصـلاة أقاموهـا علـى خيـر الوجـوه خاشعة قلوبهم. هم حريصون على أداء زكـاة أمـوالهم، تطهـرت نفوسـهم مـن الشـح. وهم مع ذلك خائفون وجلون أن يقصـيهم ربهـم عـن مقامـات القبـول والرحمـة، فهـم يبذلون أقصى جهودهم ليكون ذكرهم وعبـادتهم خالصـة لوجهـه، مستحضـرين أهـوال يوم القيامة ،ذلك اليوم الذي تتقلب فيه القلـوب والأبصـار ، تضـطرب كمـا يقـول ابـن عطية: القلوب والأبصار فيه مضطربة قلقة متقلبة مـن طمـع فـي النجـاة إلـى طمـع، ومن حذر هلاك إلى حذر، ومن نظر في هول إلى النظر في الآخر .

إن ذلك التسبيح المعمر للروح، وإقام الصلاة وإيتـاء الزكـاة، وذلـك الوجـل ووضـوح الاستحضار لجلال الله، والخوف الإيجـابي الميسـر للاسـتقامة، كـل ذلـك كـان سـببا للجزاء المتميز المقدر على أحسن الأعمـال ، ثـم مضـاعفة الأجـر . وهـذا مـا أكـده القرآن في غير ما آية، قال تعالى: من جـاء بالحسـنة فلـه عشـر أمثالهـا[1]. ولا تسـأل عن رزق الله وعن عظيم فضله، فإن كرمـه يتجـاوز كـل تقـدير وكـل تحديـد. وهـذا وإن كان مقصـودا بـه قصـدا أوليـا أصـحاب رسـول الله ﷺ ، فإنـه يتنـاول جميـع المؤمنين الذين ساروا على هـديهم واتبعـوا سـبيلهم ، نسـأله سـبحانه أن يجعلنـا مـنهم ومعهم يوم القيامة ،بفضله وكرمه .

38- والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ...و الله سريع الحساب

عرضت هذه الآية النموذج الآخر، وهم الذين حُرمـوا الهدايـة التـي يصـرفها الله عمـن يشاء، تبعا لعلمه وعدله .وتابعت تفاصيل هذا النموذج علـى النسـق الـذي جـرى عليـه

[1] سورة الأنعام آية 160

القرآن في هــذا المقطــع، المفتــتح بقولــه تعــالى : الله نــور الســموات والأرض.(35) إلى نهاية (39).

ومن إعجاز القرآن أنــه لــم يلتــزم مقابلــة التعبيــر فــي النمــوذج الأول بــالتعبير فــي النموذج الثاني، ففي النموذج الأول افتــتح بــربط مــن هــداهم الله بالمســاجد الــذين هــم مقيمون فيها فعلاً أو تعلقا. وفي النموذج الثاني افتتحــه بالــذين كفــروا ليرتــب عليــه مــا استحقوا به الحرمان مــن الهدايــة. علــى أن الــذي حــرمهم مــن الهدايــة لنــوره هــو تصميمهم على الكفر " الذين كفروا " فانتظم الكــلام علــى خلــو أرواحهــم مــن الإيمــان، والذي سيصحب الصورة إلى نهايتها. فانتظم من التصوير القرآني:

أ- جماعة أبرز صفاتهم التي طبعت مداركهم، وبهــا يعرفــون هــي كفــرهم. فبــدت أرواحهم محجوبة عن الاتصال بالنور، إذ اختاروا أن لا يكون لها منفذ إليه.

ب- الكشف عن القيمة لأعمالهم التي أثر فيهــا الكفــر، فــإذا هــي، وإن كانــت فــي بعض الأحوال تتسم في ظاهرها بالخير والقبول، إلا أن الكفــر حطّمهــا ومحــق كــل مــا فيها من خير، وما يتبعه من صالح الجزاء.

ج - جسمت الآية تلكم الصورة بأنه أشبه ما يكــون بالســراب الــذي يبــدو للســائر فــي الصحراء وقد لفحته رياح السموم فجف ريقه واشــتد ظمــؤه، فيخدعــه بصــره بالســراب في أرض منبسطة ،يتموج في منتهى نظره كأنه بركة مــن مــاء، فيجــري نحــوه لاهثــا وقد حدد موقعه، حتى إذا بلغه لم يجد ماء، فواجه الحقيقــة أنــه مخــدوع وأنــه لا وجــود لما يطلبــه مــن ري. وهــذا شــأن الكــافرين قــد يقومــون بأعمــال ظاهرهــا صــالح، فيواســون المحــاويج ،ويطــوف المشــركون بالبيــت ويحجــون، ويكفلــون الأيتــام، ويجيرون بعض المستضعفين، ويطعمون الطعام ويتولــون ســقاية الحــاج، ونحــو ذلــك. ولكن أعمالهم تتبخر ولا أثر لها لصدورها عــن عقيــدة فاســدة، فهــم كمــا قــال تعــالى: وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا [1].

د- أن مصيبته تضاعفت بأمرين: الخيبــة ،و تيقنــه أن مــا كــان يصــوره لنفســه فــي الدنيا من أنه قادر على الانفلات من قبضة الله ، طــار ذلــك التصــور وواجــه الحقيقــة : أنه مأخوذ بكفره مجزي عنه بحساب عــادل لا ظلــم فيــه ، يُخــرس لســانه . فصــورته صورة البالغ لموقع السراب يجد عنده من يتســلط عليــه فيشــل حركاتــه ولا يجــد ملجــأ منه.

[1] سورة الفرقان آية 23

هـ - وتختم الصورة بإعلان حقيقة بقصر الخيال البشري عن تصور كيفيتها: هي أن الله يحاسب حسابا سريعا تظهر مبانيه ونتائجه في لحظة واحدة . والله سريع الحساب.

40- أو كظلمات في بحر لجي ...فما له من نور .

عرض لتمثيل آخر يقرب حال الكافر الذي ابتلعه كفره فحجبه عن أي شعاع من نور الهداية. فيصوره مجسما المشهد الذي طغت عليه الظلمة، فتعددت وتراكمت ، فهي ليست ظلمة واحدة ولكنها أنواع تكاثفت، هي ظلمة في قاع المحيط الذي يمنع أي شعاع أن ينفذ إليه لا من الشمس ولا من الكواكب، هو البحر اللجي العميق جدا، وطبقات من الحركة يعلو كل موج موج آخر. وتعظم الظلمة بسحاب قاتم فوق السطح .فأنت إذا أردت تفصيلها تجدها ظلمات متكاثفة ركب بعضها فوق بعض .
من آثار تلك الظلمات أن أقرب الأشياء للوالج فيه ، يده التي يحركها ويتناول بها الأشياء، يده تلك إذا حركها تحجبها الظلمة فلا يراها. فتفيد الآية أن الرؤية منتفية، وقدر بعض المفسرين أن الرؤية لم تتحقق إلا بعسر. والتقدير الأول أرشق وأنسب للمعنى العام.

إنه إذا منع الله ألطافه للإنسان فلم يجعل بينه وبين النور الذي تتم به الهداية سببا، فإنه يستحيل أن يكون له نور يضيء له طريق الاهتداء.

وبهذا تكون الآية تمثيلا لحالة الكافر، بأنه بتصميمه على رفض ما جاء عن الله على لسان رسوله ﷺ قد حجب نفسه عن قبول الهداية الإلهية ، وأطبقت عليه ظلمات الكفر، ومثله كمثل الوالج في أعماق المحيط البعيد قاعه، تتحرك أمواجه في العمق، فوق كل موج موج، وفوق السطح سحاب قاتم يزيد الظلمة شدة ، لا شعاع من نور يصل إليه حتى إنه لا يرى يده إذا حركها.

إن من حرمه الله نور الهداية الفاتحة لإدراك الحقيقة، لا تجد له مسلكا آخر يصل بينه وبين الحق فهو يتخبط في الظلمات.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا

فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ

بيان معاني الألفاظ :

صافات :ناشرات لأجنحتهن.

يزجي سحابا: يسوق السحاب.

يؤلف بينه : يضم بعضه إلى بعض.

ركاما: تكاثف السحب بعضها فوق بعض.

الودق : المطر .

الخلال : الفتوق.

جبال : سحب مثل الجبال.

لسنا: الضوء.

التقليب :تغيير هيئة إلى ضدها .

بيان المعنى الإجمالي :

استيقظوا وانتبهوا إلى هــذه الحقيقــة: إن كــل كــائن فــي السـماوات والأرض، يسـبح وينزه الله بلسان حاله أو مقاله. وهــو خاضــع للسـنن التــي خلــق كــل كــائن عليهــا، فالطير تعلو في الجو باسطة أجنحتهــا ولا تسـقط رغـم أنهــا أجسـام لهــا ثقـل. إن الله الذي ألهم كل الكائنــات تسـبيحه وتمجيـده لا يخفــى عليــه تسـبيح الكائنــات لجلالــه، وصلوات العقلاء ودعائهم .والله عليم بكل ما يفعلونه .

ذلك أن الله هو المتفرد بملــك السـماوات والأرض، لا يملــك أحــد غيــره شـيئا منهــا، وكما صدرت عنه بخلقها من عدم، فستعود إليه ليجْري فيها قضاءه العادل.

تنبهوا إلــى مــا تتكــرر مشــاهده علــى أبصــاركم: كيــف يسـير الله قطــع السـحاب المتناثرة، ليجمع بينها، ثم تتكاثف فترى الماء ينــزل مــن الفجــوات التــي ركــب عليهــا. وقد يعظم تكاثف السحب حتى تكون كالجبــال فينــزل منهــا البــرد الــذي يسـلطه علــى أماكن خاصة ويبعده عن أخرى تبعا لحكمته فــي التصــرف. وقــد يجــري فــي السـحب شحنات تبدو على شكل البرق شديدة السرعة قوية الضــياء تبلــغ مــن القــوة أنــه يكــاد يذهب ببصر الناظرين إليه. وظاهرة أخرى أن الله يحول الجــو مــن ظلمــة إلــى ضــياء، ومن ضياء إلى ظلمة: النهار والليل يتعاقبان علــى الكــون ويمتــد النهــار تــارة ويقصــر الليل ويحدث العكس. إن في كل ما عرضــه القــرآن فــي الآيــات الســابقة صــالح لأن

يكون مجالا للتدبر والاعتبار يزداد بــه الــذين آمنــوا إيمانــا. ويحــرم الكــافرين الــذين أغمضوا أبصارهم عن الآيات المتكررة.

بيان المعنى العام :

41- ألم تر أن الله يسبح له...والله عليم بما يفعلون.

افتتحت الآية بصيغة تثير الذهن وتوقظه "ألم تر" خوطب بهــا كــل مــن لــه عقــل لينتبــه إلى هذه الحقيقة السائرة في الكــون كلــه، هــي أن الله يســبح لــه مــن فــي الســماوات والأرض. وهو تسبيح متحد فــي غايتــه ، إذ كــل الكائنــات تمجــد المــولى ســبحانه ، فتسير مادامت موجودة على السنن التي أراد أن تسير عليهــا، فــلا الجمــاد يجــري علــى سنن الحيوان، ولا أي نوع من الحيوانــات يخــرج عــن خصائصــه التــي تميــزه. لقــد شاهدنا في عصرنا هذا أن محاولة الذين عملــوا علــى تحويــل غــذاء البقــر ممــا تنبتــه الأرض من عشب وحبوب فأضافوا إليه أجــزاء حيوانيــة فــي تركيبــة الغــذاء، انتهــت تجربتهم إلى فساد في التكوين، وأصيبت الأبقــار بمــرض جنــون البقــر الــذي يقضــي على الأنعام ويهدد صحة الإنسان .

إني أفهم من تسبيح الكون كله لله.

أولا :هو خضوعه للنواميس التي نظم سبحانه عليها الخلــق، فهــي تجــري إلــى غاياتهــا على النظام المحكم الذي أبدعها عليه خالقها، يشعر المــؤمن وهــو يســير فــي الكــون أن كل من حوله مرتبط بالله، ومرتبط ببقية أجــزاء الكــون، وهــذا الارتبــاط هــو تســبيحه وتنزيه لله بلسان الحال ينادي بتنزيه الله عن العبث، وعن الغفلة ،وعن النقص .

ثانيا: أن التعبير عن ذلكــم الإحســاس هــو مختلــف حســب طبيعــة الكائنــات، يــرى الجمهور أنه تسبيح حقيقي، ويرى الحســن البصــري أن تســبيحه هــو ظهــور الحكمــة فيه، تلكم الحكمة الداعية للعاقلين إلى تسبيح الله وتمجيده.

ثم يلفت القــرآن الأنظــار فــي ســرعة إلــى ظــاهرة تتكــرر علــى أبصــارهم دون أن يستيقظوا لعميق دلالتها، هي الطيور التي تعلو في الجــو باســطة أجنحتهــا ،كيــف تثبــت في الجو ، وتتحرر من جاذبية الأرض، ففي سنة الجاذبيــة المــؤثرة فــي كــل جســم لــه ثقل ، وتحرر الطيور من تلكم الجاذبية ما يفــتح البصــيرة إلــى الخلــق المحكــم والســنن التي عليها جرى الخلق .

"كل قد علم صلاته وتسبيحه" يصح فهم الآيــة أن الله علــم مــا يتقــرب إليــه كــل نــوع بلسان حاله، أو فعله ومقاله، فهو يعلــم تســبيح الكائنــات غيــر الناطقــة، ويعلــم تســبيح

الإنسان بدعائه وصلاته. كما يصـــح فهـم الآيـــة علـــى أن الله طبـــع كـل كــائن علـــى معرفة الطريقة التي يسبح بها الله أو يدعوه.

وعلم الله شامل لا يغيب عنه شيء، فهو العليم بالتســبيح والـــدعاء والصــــلاة، وبكــل مـــا يقوم به الكائن من عمل.

42- ولله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير.

تأتي النتيجة مصرّحا بها خاتمةَ لما تقدمها مؤكـــدة لــــه: لله وحــده، هـــو المتفـــرد ســبحانه بملك السماوات والأرض، هو الذي خلقها وهو الذي يتصـــرف فيهـــا بمـــا يجـــري عليهـــا من تطورات وتحولات. وكما صدرت عنه فهي تنتهي فـــي وجودهـــا إليـــه ليحقـــق فيهـــا ما اقتضته حكمته في الخلق والإفناء والبعث. وفي ذلك إيماء بالوعد والوعيد.

43- ألم تر أن الله يزجي سحابا... يذهب بالأبصار.

تلفت هذه الآية الأبصار للتأمل في الظاهرة التالية التي تتكرر في الكون ويراها الناس، ولكن تجاوز الحادثة إلى ما وراءها من حكمة قد يغفلون عنه. هذه الظاهرة: إن الله خلق السحاب قطعا متناثرة، يسوق بعضها إلى بعض وييسر انضمام تلك القطع متآلفة حتى تصير سحابا كثيفا، وبتقديره المحكم تتضاعف كثافة السحب ويتراكم بعضها فوق بعض، ثم يخلق في الجو ما يساعد تحول السحب إلى ماء ينزل من خلال السحب على الأرض ما يروي الأرض والإنسان والحيوان. وقد تتكاثف السحب تكاثفا أبلغ وأقوى حتى تكون كالجبال في كثرتها وعظمها فينزل منها بردا، قد يكون متجمدا يحدث فيما ينزل عليه من النبات والثمار أضرارا، عبر عن ذلك " يصيب" بصرف أماكن نزوله حسب تقديره ، فلا يعم الأرض ولكن يخص بضرره من قدر ذلك له . وقد يكون على شكل قطع من القطن له منافع خاصة. وقد تتخلل السحب الكثيفة ومضات برق شـــديد ضـــوؤه يكـــاد يســتولي علـــى الأبصـــار لسرعته وقوة ضيائه، فيذهب بها.

وفي الآيتـــين تحقيـــق لقولـــه تعـــالى: **ولله ملـــك الســـموات والأرض**. فجمـــع الســـحب وإنزال المطر منها علـــى تقـــدير عجيـــب، وإنـــزال البـــرد علـــى أمـــاكن دون أخـــرى، وسرعة البرق وقوة ضيائه مظـــاهر تنـــادي بـــأن الله وحـــده هـــو المالـــك للكـــون، وأنـــه يسبح له.

44- يقلب الله الليل والنهار...لأولي الأبصار.

إن التحول الذي يحدث كل يوم فيخرج الكون من النهـــار إلـــى الليـــل ، والتحـــولات فـــي الليل والنهار بين الطـــول والقصـــر ، قـــد لا يتأمـــل الإنســـان فـــي هـــذه الظـــاهرة مـــن التحولات تبعا لتكررها ورتابتها. وهي مع ما تقدم فـــي الآيـــات الســـابقة، مجـــال للعبـــرة

والتدبر، مما يصل بالمتأمل إلى اليقين الأيقـن أن الكـون يجـري علـى مـا أراده الله لـه يوم خلقه . ولكن الكفر يغشي علـى البصـائر فـلا تنتفـع حتـى بالمشـاهدات . وبهـذا يتحقق أن الإيمان نور، وأن الكفر ظلمة.

يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

دابة : كل ما دب على وجه الأرض.

الآيات البينات : تشمل آيات القرآن وآيات الله في كتاب الكون .

بيان المعنى الإجمالي :

سنة الله في الخلق مطردة لا استثناء فيها، إن كل نوع من أنواع الحيوانات التي تتحرك فوق الأرض، مخلوق من نوع من الماء الذي يحمل خصائص النوع. ثم إن التقدير المحكم الإلهي قد رتب أن الحركة الحيوانية متنوعة وأن كل حيوان تكون حركته مساعدة له على البقاء. فمن الحيوانات من يمشي على بطنه، ومنها من يمشي على رجلين كالإنسان والطيور، ومنهاما يمشي على أربع كما هو الحال في معظم الحيوانات البرية. نفذت فيها القدرة الإلهية الحكيمة ،ولا يخرج عن قدرة الله شيء .

إن الله أنزل آيات واضحة مـن القـرآن، ومممـا بثـه فـي كتـاب الكـون ولفـت إليـه الأنظار، لتتبين ما أشـكل، وبـدلالاتها يهتـدي مـن يشـاء الله هدايتـه ليسـلك الطريـق المستقيم الموصل للسعادة.

بيان المعنى العام :

45- والله خلق كل دابة من ماء...إن الله على كل شيء قدير.

تتابع الآيات موقظة لحس الإنسان وعقله، باعثـة فـي روحـه صـلته بالمبـدع الخـلاق العليم، فيحولنا القرآن من مشهد السحب المسـيرة فـي السـماء، المحملـة بالمـاء، إلـى أمر آخر أجرى عليه ناموس الخلق. هـو أمـر بعيـد عـن المسـتوى المعرفـي للنـاس وقت نزول القرآن، فيقرر أن كـل الحيوانـات التـي تـدب وتتحـرك فـي البـر أو فـي البحر أوجدها الله من ماء، تنوع ذلكـم المـاء إلـى أنـواع لا يعلـم عـددها إلا خالقهـا ،

ولكن ناموس التكوين يجري عليها جميعا، فمــن كــل نــوع مــن أنــواع المــاء الخــاص انبثقت الحياة النوعية. وكل نوع مــن أنــواع الحيوانــات تظهــر فيــه الحيــاة بالحركــة، فلذلك رصد القرآن تنقلها، فبعضها يمشي علــى بطنــه كــالزواحف والحيتــان، وبعضــها يمشي على رجلين كالإنسان والطيور، ومنها من يمشي علــى أربــع وهــو الغالــب علــى الحيوانات البرية. و لفتُ النظر إلــى هــذه النمــاذج لا يــدل علــى قصــرها علــى هــذه الثلاثة، بل ذلك أغلب خلق الحيوانات.

يخضع الخلق لمشيئته سبحانه، فهو الــذي قــدر أن يكــون النــازل مــن الســماء يــروي النبات والإنسان والحيوان، وهو الــذي قــدر أن يكــون كــل حيــوان مخلوقــا مــن مــاء خاص بنوعه. وهو الذي قدر أن يتطور الخلق الأول مــن مــاء إلــى صــور مــن الحيــاة الحيوانية أعطى لكل نوع مــا يتميــز بــه. إن ذلــك يشــهد بــأن قدرتــه ســبحانه قــدرة تتصرف في الكون كله كبيره وصغيره.

46- لقد أنزلنا آيات...إلى صراط مستقيم.

مما لا شك فيه أنا أنزلنا إليكم أدلة نيرة ســاطعة، واضــحة بينــة، مــن القــرآن الحكــيم، ومن مشاهد الكون الناطقة بتفــرد الله بــالخلق والتصــرف. تلكــم الأيــات التــي لا يــتم تأثيرها في العقول والأرواح إلا بالهداية التي يختص بها ســبحانه مــن يشــاء، فــيُمكن من أراد له السعادة من إدراك دلالاتها ، وينفعــل بهــا .وذلــك هــو الصــراط المســتقيم . وتنعطف خاتمة الأية على الأية 35" يهدي لنوره من يشاء" .

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

مذعنين : منقادين طائعين .

القلوب: العقول .

مرض: فساد الكفر .

ارتابوا: شكوا في حقيقة الإسلام.

يحيف: يظلم ويجور.

الطاعة : امتثال الأوامر واجتناب النواهي .

الخشية : الخوف من أن يكون قد قصر فيما عليه أن يقوم به.

التقوى : يقظة في النفس تجعل صاحبها حذرا من مخالفة التكاليف.

بيان المعنى الإجمالي :

تحقق أن الهداية بيد الله، فالمهتدون أشرقت قلوبهم بنور الإيمان يعبدون الله خائفين من رفض أعمالهم، سيجزيهم أحسن الجزاء. والكافرون تذهب أعمالهم هباء لا يجدون يوم القيامة، مما قدموا في حياتهم الدنيا شيئا ينفعهم. والمنافقون الذين يصرحون بأنهم مؤمنون يطيعون الله ورسوله، وهم كاذبون. ثم تجدهم بعد ذلك قد عادوا لما كانوا عليه من الكفر، فليس بينهم وبين الإيمان أي رابطة. ومن سماتهم أنهم إذا حدثت خصومة بينهم وبين غيرهم وعرض عليهم أن يفضُّوها بتحكيم قائد الجماعة رسول الله ﷺ قابلوا هذه الدعوة بالرفض، إذا كانوا ظالمين، مظهرين أنهم لا يثقون في حكمه. ولكنهم إذا كانوا يعلمون أنهم محقون أجابوا وتحاكموا إلى رسول الله ﷺ. فمقياسهم هو مصلحتهم . ما الذي جعل سلوكهم على هذا النحو الغريب ؟ الافتراضات ثلاثة: أولا -أن عقولهم وأرواحهم قد تمكن منها مرض الكفر ولم يتحولوا عنه.

ثانيا – أن ما ظهر من إيمانهم هو إيمان متقلقل لا ثبات له، فبمجرد أن خافوا على حظوظهم الدنيوية شكوا في الدين كله.

ثالثا- أن يكونوا قد توهموا أن الله في حكمه الذي أنزله، ورسوله ﷺ المبلغ له، يمكن أن يجور عليهم ويظلمهم.

كل هذه الفروض الثلاثة بعيدة عن الحقيقة، فبكل تأكيد قد تمكن الظلم من نفوسهم، حتى أصبحوا يعتقدون أن غيرهم على شاكلتهم من التعلق بالظلم.

يقابل هذه الصورة المنحرفة المترددة الرافضة، صورة أخرى هي من توابع أنوار الإيمان الذي استقر في العقول والأرواح ، ثقتهم تامة فيما أنزله الله من أحكام، وما يطبقه رسوله في الحياة ، فإذا ما دعوا إلى حكم الله على لسان رسوله يبادرون طائعين مصرحين بقبولهم للدعوة بما يساوي: سمعنا وأطعنا . وبناء على ذلك فقد تحقق لهم الفلاح في الدنيا والآخرة.

وقاعدة عامة : أن كل من يطيــع الله ورســوله، وتلازمــه الخشــية مــن الله فــي عقلــه وروحه ،ويُكوِّن لنفسه وقاية من رفض الله لــه بتطبيــق أوامــره واجتنــاب نواهيــه، إن هؤلاء هم الذين ضمنوا لأنفسهم الفوز في الدنيا والآخرة .

بيان المعنى العام :

47-ويقولون آمنا بالله وبالرسول...وما أولئك بالمؤمنين .

أثبتت الآية 35 " يهدي الله لنوره من يشــاء " أن نــور الهدايــة لا يجبــر النــاس علــى الإيمان، لكنه يهديهم، فتحدثت عن المهتــدين، ثــم تحــدثت عــن المعرضــين الرافضــين، وتعرضت هذه الآية إلى المنافقين فكشفت مــواقفهم التــي منهــا التنــاقض بــين أقــوالهم وما يظهرونه ، وبين ما يعتقدونه ويخفونه.

إنهم يعلنون، لخداع الجماعــة الإســلامية، قــائلين: آمنــا بــالله وبرســوله، ونعبــر عــن طاعتنا وقبولنا لما جاء به، وإذا مــا تحولــوا عــن المجــالس التــي جمعــتهم بــالمؤمنين ينقلبون إلى ضد ما كانوا صرحوا به. وهم على فريقين :

فريق آمنوا إيمانا ضعيفا لم ينفذ إلى عقولهم ولم يمــلأ مشــاعرهم ببــرد اليقــين، فارتــدوا مختفين بذلك بعد وقت .

وفريق مخادع من الأول، صرحوا بإيمانهم، وهــم يبطنــون الكفــر، ولــم يخــالط نــور الهداية عقولهم ولا أرواحهم.

كلا الفريقين ساقط عن مرتبة الإيمان، بعيد عــن النــور الهــادي، هــم غيــر مــؤمنين. إذ الإيمان لا يتبع ما تنطق به الأفواه فقط، ولكن مع ذلك ما استقر في العقل والروح.

48-وإذا دعوا إلى الله ورسوله...إذا فريق منهم معرضون.

يكشف حقيقتهم موقفهم إذا حلت بهم نازلــة تــدعو إلــى فصــلها بحكــم الإســلام، الــذي أنزله الله، ويعرف بــه ملزمــا رســوله ﷺ . فهــم إذا طلــب مــنهم أن يرفعــوا القضــية المختلف فيها إلى رسول الله ﷺ، ليحكم فيها بحكــم الله الــذي ضــبط الأحكــام ، وجعلهــا تنطبق على جميــع النــاس لا يتــأثر الحكــم بحــال المحكــوم عليــه زمانــا ومكانــا ولا بمستواه الاجتماعي ، تجد فريقا مــنهم، وهــم المبطلــون الــذين يوقنــون بــأن الحكــم لا يكون لفائدتهم ، تجدهم يبادرون بالإعراض عن التحــاكم إلــى الرســول صــلى الله عليــه وسلم ، لعلمهم مقدما أن الرسول ﷺ لا يحكم إلا بالحق ولا يحابي أحدا .

49- وإن يكن لهم الحق ....مذعنين.

وفي المقابل تجدهم إذا ظنوا أن الحكــم ســيكون لفائــدتهم لأنهــم محقــون، أقبلــوا علــى رسول الله مظهرين قبولهم وإذعانهم لما يحكم به.

50- أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا...هم الظالمون.

إن الصورة التي عرضتهم الآية عليها تستدعي كشف الأسباب الخفية التي جعلتهم على هذا النحو من التناقض. فعقب العرض بثلاثة فروض كلها تبين سوء طويتهم وفساد عقيدتهم، وبعدهم عن الإنصاف. إذ من غير المنطقي أن يكون قبولهم للحكم مرتبطا بمصالحهم وأهوائهم.

الفرض الأول: هل تمكن الكفر من عقولهم ولم يبرحها، هل إن عقولهم قد استحكم منها الكفر والعناد، ولم يدخل فيها من نور الإيمان أي شعاع هاد؟ فالمرض هو مرض الكفر وفساد العقيدة. فالفرض الأول أن المتحدث عنهم لم يحصل منهم الإيمان.

الفرض الثاني:" أم ارتابوا" أنهم آمنوا إيمانا متقلقلا غير ثابت، يهتز كلما خافوا على مصالحهم الدنيوية فيحل الشك محل الإيمان ، هم حريصون على ما يحفظ لهم حظوظهم الدنيوية ، وإذا لاح لهم أن باطلهم لا يروج على رسول الله ﷺ، شكوا في الإسلام ،ورفضوا تبعا لذلك ما عاهدوا عليه من الاحتكام لله ولرسوله .

الفرض الثالث: هل إنهم غير موقنين بعدالة الرسول ﷺ وعدالة الأحكام التي يحكم بها باعتبار أنها منزلة من عند الله ؟ على معنى أنهم يطعنون في كون الرسول مبعوثا من عند الله، وأن الأحكام الإسلامية هي ما أمر الله بتنفيذه في الكون. وإذا انتفى أن تكون المرجعية لأحكام الإسلام الوحي المنزل ، فهم يدعون أنهم يخافون أن تكون تلكم الأحكام فيها الظلم وعدم العدل والانصاف.

الحقيقة التي يجب الإعلان عنها: أن هؤلاء المنافقين قد تمكن الظلم من نفوسهم، فهم يقدرون، أن غيرهم على شاكلتهم في الظلم والفساد، فهم يقيسون الناس على ما يختلج في نفوسهم. والظلم مقصور عليهم .

51- إنما كان قول المؤمنين...وأولئك هم المفلحون.

في مقابلة موقف المنافقين المرضى عقولهم وأرواحهم بالنفاق، ينوه القرآن بموقف المؤمنين إذا عرض عليهم التحاكم لرسول الله ﷺ . إن ما يصدر عنهم بصفة تلقائية هو قولهم: سمعنا هذه الدعوة وأطعنا الله ورسوله فنحن مقبلون مطمئنين راضين بما يحكم فينا. وليس المقصود أنه لا يصدر عنهم إلا هذه الصيغة، لكن الذي يصدر عنهم هو ما يفهم منه عدم الإعراض، وقبول الحكم والرضا به مقدما تبعا لرسوخ الإيمان في قلوبهم.

ويقرر القرآن عاقبتهم: إنهم هم الذين اختصوا بالفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

52-ومن يطع الله ورسوله...فأولئك هم الفائزون.

كانت صياغة هذه الآية على شكل قاعدة تنطبق على الحياة انطباقا عاما. إن من يبادر بطاعة الله ورسوله قولا وعملا، ينشرح صدره وعقله لكل ما يأتيه عن الله ، ويجد الرضا في كل ما يسمعه ويراه من رسوله. ومن تعمق الإيمان في مشاعره فهو دائم الخشية والخوف من الله الخشية التي تدفعه دفعا لمزيد التقرب إليه ، فيحصن نفسه بلباس التقوى . إن كل الذين جمعوا هذه المزايا هم وحدهم الذين حققوا لأنفسهم الفوز في الآخرة بدخول الجنة كما جاء في قوله تعالى : (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز)[1] وكذلك في الدنيا بما يستقر في عقولهم من رضا وطمأنينة.

۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

أقسموا : حلفوا.

جهد : منتهى الطاقة .

البلاغ المبين : التبليغ الواضح الفصيح.

عملوا الصالحات: عملوا الأعمال التي شرعها لهم.

المعجز :الذي يجعل غيره عاجزا عن غلبه.

---

[1] سورة آل عمران آية 185

بيان المعنى الإجمالي :

جاء المنافقون يحلفون بأغلظ الأيمـــان ويكررونهـــا ، ويظهـــر علـــيهم التعـــب مـــن كثـــرة الترداد للأيمان، يعلمون النبي ﷺ أنهم يطيعونه في كل شـــيء حتـــى إنــــه لـــو أمـــرهم أن يخرجوا من ديارهم للقتال، أو أن يخرجوا مـــن أمـــوالهم وديـــارهم لاســـتجابوا. قـــل لهـــم يا محمد :لا تحملوا أنفسكم الأيمـــان، إنـــه لا يـــروج علـــي كـــذبكم، فـــالمطلوب مـــنكم الطاعة المعروفة التي هي قبول ما جاء من عنـــد الله راضـــية بهـــا نفوسـكم، ولا حاجـــة لي بأموالكم ولا بدياركم، وأنا أعرف مـــا تنطـــوي عليـــه نفوســكم ، فطـــاعتكم معروفـــة عندي تهكما بهم .يؤكـــد ذلـــك أن الله لا يخفـــى عليـــه شـــيء ممـــا تبطنونـــه وتقولـــون بألسنتكم خلافه.

قل لهم: الطاعة التي هي واجبة علـيكم: هـــي طاعـــة الله فيمـــا أمـــر بـــه ونهـــى عنـــه، وطاعة رسوله فيما بلغكم من التكاليف. فإن تتولـــوا وتعرضـــوا فقـــد قـــام الرســـول بمـــا هو مكلف به، وتتحملون أنتم تبعة عدم قيامكم بما كلفـــتم بـــه. واعلمـــوا أنكـــم إن تطيعـــوا رسوله تفوزوا بالهداية. ومهمة الرسول محصورة فـــي إبلاغكـــم مـــا تلقـــاه مـــن الـــوحي بصورة ترفع كل لبس وبدون أي غموض.

إن الهداية التي تحصل لكم بطاعته، يتصـــل بهـــا وعـــد كـــريم مـــن الله ســـيتحقق للـــذين جمعوا بين الإيمان النقي الواضح، وبين القيـــام بالأعمـــال الصـــالحة، التـــي تعـــم شـــاملة تطبيق كل ما أمر به الدين والانتهاء عما نهى عنه، فـــي شـــؤون العبـــادة وفـــي العلاقـــات الاجتماعية، وفي مقومات الدولة .فما تمحض للخير والقـــوة صـــلاح ، ومـــا خالطـــه شـــر هو فساد. ودعاهم إلى عبادته سبحانه عبادة لا يـــداخلها شـــرك خفـــي أو ظـــاهر . يعـــدهم أنهـــم إن طبقـــوا هـــذه المـــنهج فجـــرت عليـــه حيـــاتهم الاجتماعيـــة والخاصـــة، أن الله سيرفعهم إلى مرتبة الخلافة في الأرض، وظهـــور أمـــرهم، ومهابـــة النـــاس لهـــم. وهـــذه هي سنته تعالى جرى عليها أمر الأمم في التـــاريخ. ولينصـــرن ديـــنهم الـــذي آمنـــوا بـــه وشرفوا بأن كانوا حملته الناشرين له في الكـــون. إنـــه الـــدين الـــذي ارتضـــاه رب العـــزة لهذه الأمة، وارتضى أن يكـــون صـــحابة رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم القـــائمين عليه الداعين له الموضحين لأحكامـــه ومقاصـــده. كمـــا وعـــدهم أن يحـــول حـــالهم مـــن الخوف من بطش المشركين إلى مستقر الأمـــن فيـــزول الخـــوف، ويحـــل محلـــه الأمـــن. وهذا الوعد ينسحب على المؤمنين الذين يأتون بعدهم ويسلكون مسلكهم.

إن من أغواه الشيطان بعد ظهور الـــدين وانتصـــاره، أولئـــك الـــذين كملـــت فـــيهم صـــفة الفسق والخروج من الحق إلى الباطل.

ثم أمر القرآن المؤمنين ، بالحفاظ على ما يحقـق لهـم الوعـد مـن التمكـين والنصـر ، وذلك بالحفاظ على أداء الصلوات علـى أتـم وجـه مخلصـين لله ،وتمكـين المسـتحقين للزكاة من حقهم الذي فرضه الله في أموال الأغنيـاء، وبصـفة عامـة تطبيـق شـرع الله بطاعة رسوله في كل ما أمر به، والانتهاء عما نهى عنـه. إنـه بـذلك تكونـون راجـين لتنزل رحمات الله عليكم وألطافه.

لا تظنوا أن الكافرين سيفلتون من أخـذ الله لهـم وبطشـه بهـم، فـإنهم لا يقـدرون أن يعجزوا الله عن تنفيذ وعيده فـيهم. بـل إنهـم سيخسـرون الـدنيا بقهـرهم وهـزيمتهم، وسيكون مآلهم يوم القيامة عذاب جهنم ولا أسوأ مصيرا منه.

بيان المعنى العام :

53- وأقسموا بالله جهد...خبير بما تعملون.

عود إلى تسجيل ما صدر عن أهل النفاق، بعد أن نزلت فيهم الآية الفاضحة لما ينطوون عليه من رفض لتحكيم الرسول صلى الله عليه وسلم في النزاع الحادث الكاشفة عن سوء عقيدتهم وكفرهم. جاؤوا لرسول الله متقدمين بالحلف ، مبالغين فيه بالتكرار، وتخير أغلظ الأيمان حتى بدا عليهم التعب، تغريرا منهم ليوهموا أنهم صادقون في أيمانهم. فعلى أي شيء أقسموا؟ حلفوا أنهم مطيعون لما يأمرهم به رسول الله، حتى إنه لو أمرهم أن يخرجوا إلى الجهاد لاستجابوا، ولو أمرهم أن يخرجوا عن أموالهم وديارهم لفعلوا.

لقن الله نبيه الجواب الذي يجيبهم به جوابا يقطع عليهم ما زوّروه في نفوسهم، قل لهم: لا تتعبوا أنفسكم بالأيمان، ولا تعيدوا التمويه بالحلف، فإن إعادة الكذب لا ترفع عنه خسة الكذب ولا تخرجه إلى الصدق المقبول. ولا تقسموا لأنه لا حاجة إلى القسم فإن دخيلتكم معروفة عندي .

وقوله تعالى: "طاعة معروفة" لا تعيدوا القسم وتجهدوا أنفسكم فيه فطاعتكم معروفة عندي، تهكما بهم. ويحتمل أن يكون المعنى أنتم غير مطالبين باليمين طاعتكم معروفة عندي، على معنى أني أعرف عدم وقوعها، تهكما بهم أيضا.

يؤكد مضمون الجواب على جميع الاحتمالات، أن الله يعلم بواطن نياتكم وحقيقة أعمالكم ، تعالى سبحانه أن يغتر بتمويهاتكم.

54-قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول... .إلا البلاغ المبين.

تلقينٌ آخر من الله لرسـوله، قـل لهـم وأبلغهـم أمـرا: أطيعـوا الله وأطيعـوا رسـوله الطاعة الحقيقية التي يتبعها العزم على تنفيذ ما تـؤمرون بـه والرضـا بـذلك وهـو مـا يحقق ما ختمت به الآية السابقة: إن الله خبير بما تعملون.

ثم إنه بعد أن يقرع أسماعهم خطابك، فإنهم إن أعرضوا وتولوا ورجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والنفاق ، بعد سماع ما نزل عليك، فلا تهتم بموقفهم ولا يضرك إعراضهم، فقد أديت الواجب عليك وهو التبليغ، ويتحملون وحدهم وزر الإعراض والنفاق، ورفض الطاعة لما كلفوا به وعرفوه من لسانك. ويحرضهم القرآن على الطاعة وعدم العصيان، بأن في طاعة الرسول هدايتهم. والقاعدة التي بُني عليها تشريفك بمنصب الرسالة، أنك رسول من عندي لست ملزما إلا بأمر واحد هو تبليغ ما تتلقاه من الوحي تبليغا واضحا.

55- وعد الله الذين آمنوا...فأولئك هم الفاسقون.

تضمنت الآية السابقة وعدا بالهداية يحرض على الاستجابة " وإن تطيعوه تهتدوا" فثنّت هذه الآية بتفصيل هذا الوعد من ناحيتين:

الناحية الأولى :ما يتوقف على تحقق الوعد مما يقوم به من يرجو أن تشمله الهداية ، وقد احتضن ذلك الموعود به مقدما في قوله تعالى :الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، وختاما في قوله: يعبدونني لا يشركون بي شيئا.

الناحية الثانية: تفصيل الوعد في ثلاثة أمور: الاستخلاف – تمكين الدين – تحويل وضعهم من الخوف إلى الأمن.

فلنعد إلى بيان كل ناحية بتفصيل مقترن بالنص القرآني. فقد ربط القرآن تحقق الوعد مقدما بالوفاء بما يلي:

أ: الإيمان: النور الذي يقذفه الله في قلب الإنسان فيكون المجدُ الإلهي حاضرا في العقل والروح. ويحس به الإنسان أنه منسجم مع الكون كله، في مسيرة منطلقها أول يوم من أيام خلقه، وغايتها في الموقف بين يدي رب العالمين يوم القيامة.

ب: عمل الصالحات. مما يفيد أن الإسلام يقوم على العقيدة وعلى العمل معا، فلا يكفي لنيل الوعد مجرد الإيمان، بل لا بد أن يقترن بالعمل بما هو مطلوب من الإنسان في هذه الحياة الدنيا. وليس النشاط كيفما اتفق، ولكنه النشاط الصالح. ويشمل هذا اللفظ في عمومه جميع ما هو صالح حسب المعيار الديني الذي فرق تفريقا بينا بين الصلاح والفساد.

تشمل الصالحات استقامة الإنسان في سلوكه، في قيامه بالعبادة على الوجه المرضي ،وفي أداء دوره في الحياة وفيًا بالالتزامات المنوطة به ، في الأسرة، وفي المجتمع الموطن والوطن، وفي الأمة .ولكل فرد من الجماعة الإسلامية دوره الخاص به حسب مركزه الاجتماعي، فمسؤولية رئيس الدولة والمسيرين لأجهزة

الحكم، وممثلي الشعب في المجالس النيابية، والجيش بقادته وجنده، وأصحاب المهن العقلية والعضلية بمختلف اختصاصاتهم، كل واحد منهم بين طريق الهدى الذي يكون به عمله صالحا حسب المعيار الشرعي، وبين الفساد الذي يكون به العمل مختلا بعيدا عن العدل وعن الاستقامة، وكل عمل لا يراعي فيه صاحبه قاعدة الوحدة الإنسانية وعلاقتها بالخالق هو عمل فاسد، ويسمو العمل في قيمته بمقدار ما يراعي فيه العامل أن الله مطلع عليه، وبمقدار ما يراعي مصلحة إخوانه في الدين وفي الإنسانية.

وربطه ختاما بعبادته سبحانه ،عبادة خالصة من لوث الشرك .فنص صريحا على أن الذين يعبدون الله ويشركون به ،لا صلة بينهم وبين الهداية، ولا ينالهم شيء من الوعد. وفي وقت نزول الآية كان بعض العرب يتقربون إلى آلهتهم على أنها وسائط بينهم وبين الله.

ولنعد إلى الوعد المركب من الأمور الثلاثة.

أ- الاستخلاف في الأرض. إن الأرض لله يمكن منها من يشاء بما يحقق له التصرف في خيراتها عزيزا غير ذليل ولا تابع .وكما يتحقق الاستخلاف للأفراد فكذلك يتحقق للأمم. والآية تعد المسلمين أفرادا وأمة بتمكينهما من الحياة الشريفة. عانى المسلمون الأولون من ضيق أسباب العيش، وهم في قلة من العدد ومحدودية في العُدد والسلاح، كانوا على خوف من مكر المشركين، ومن مخططاتهم المتلاحقة للقضاء على الدين الإسلامي. فجاءت هذه الآية تملأ نفوسهم يقينا بأن العاقبة لهم، وأن ما يضيقون منه اليوم سيتحول إلى سعة في العيش، وإلى قوة تجلب إليهم الأنظار، وتنقلب نظرة الاحتقار إلى نظرة الإكبار. وتؤكد الآية تحقق هذا الوعد بأن ذلك هي سنة الله التي أجرى عليه تحولات البشر والأمم . على هذا كتبت صفحات التاريخ ، فمن أخذ بأسباب العزة واستقام جاءته الدنيا طائعة .

ب- إن ما يتبع حتما الاستخلاف المعتمد على الإيمان والأخذ بسنن النجاح ، هو انتشار الدين في الآفاق، وظهور سلطانه، سلطان الحق في العالم المحيط بهم. وتراجع أمر المنافقين الذين كانوا يتربصون بالمسلمين الهزيمة القاضية لينضموا إلى من كانوا يوالونهم في الخفاء. وتصل الآية تمكين الدين بإضافته "لهم" إن الدين هو دين الله، ولكن الآية تشير بذلك إلى أنهم حملته والمعرفون به قولا وسلوكا، والناشرون له، وأنه رضي لهم هذا الدين الخاتم وارتضاهم ليكونوا القائمين به.

وفي هذا تنويه بصحابة رسول الله ﷺ وبشارة لهم بتحقق الوعد. وينسحب ذلك على من سار سيرتهم.

جـ - كما أشرنا إليه سابقا، اضطهد المشركون المؤمنين في مكة، فكانوا يحذَرُونهم، ولما انتقلوا إلى المدينة كان المشركون يتآمرون عليهم ليضربوهم الضربة القاضية، واستولوا على أموالهم التي تركوها خلفهم في مكة. قال أبو العالية: (مكث رسول الله ﷺ عشر سنين بعد ما أوحي إليه خائفا هو وأصحابه، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة، وكانوا فيها خائفين يصبحون ويمسون في السلاح. فقال رجل: يا رسول الله أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال رسول الله: لاتغبُرون (لا تمكثون) إلا قليلا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيا ليس عليه حديدة) ونزلت هذه الآية. وقد حقق الله وعده، ففتح على رسوله مكة، وجاءت الوفود من أطراف الجزيرة العربية مبايعين على الإسلام والطاعة والدخول في دين الله. وتحوّل الخوف إلى أمن، وامتن الله على المؤمنين بذلك كما جاء في سورة قريش.

إن الشيطان يغري أولياءه بمتع الحياة الدنيا واستعجالها، فقد يستولي على عقول بعض الناس فيدفعهم إلى الخروج من الدين الإسلامي، والكفر بما أنزل على محمد، بعد ما قامت الآيات البينة على فوز المؤمنين في الدنيا والآخرة، إن هؤلاء هم الذين تحقق فيهم صفة الفسق الكامل، هم الخارجون عن الحق، فسدت دخائلهم وفسدت أعمالهم .

56-وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة...لعلكم ترحمون.

تفصيل للعبادة التى وردت فى الآية السابقة "يعبدونني" فصرح بجماع العبادة امرا بإقامة الصلاة عمود الدين، وإيتاء الزكاة مؤكدة اللحمة بين المؤمنين ، وبصفة جامعة الحرص على طاعة رسول الله في كل ما أمر به والانتهاء عما نهى عنه. إنه بتطبيقكم لهذه الأوامر في الحياة تكونون على رجاء أن يتفضل الله عليكم بأن ينزل عليكم رحماته، ويحيطكم بألطافه.

57-لا تحسبن الذين كفروا... ولبئس المصير.

نزلت الآية في الوقت الذي كان فيه للمشركين صولة وقوة. وكان المؤمنون يستبطئون تنفيذ الوعد، شأن المضطهد الذي لم تنشق له حجب الغيب ليرى نور الفرج، فطردت هذه الآية ما يحسبونه مستمرا من سطوة الكافرين، وأنهم لقوة بأسهم واتحادهم على باطلهم، أنهم يُعجِزون طالبهم فلا يقدر عليهم. بل إن مآلهم هو

إلى الهزيمة والضعف في الدنيا، وفي الآخرة هوعـذاب النـار فـي جهـنم، وتلـك أسـوأ عاقبة وأرذل مصير يصير إليه الإنسان.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الاستئذان : طلب الإذن في الدخول .

عورات : جمع عورة، ما يكره انكشافه.

بيان المعنى الاجمالي :

دعوة للمؤمنين بوصف الإيمان ليطبقوا هـذه التربيـة التـي تسـمو بمسـتواهم الإنسـاني الاجتماعي. وأن يحرصوا على هذا الأدب حتـى يكـون مرعيـا. هـذا الأدب: أن علـيهم أن يقوموا على تربيـة ممـاليكهم حتـى لا يـدخلوا علـيهم فـي أوقـات ثلاثـة إلا بعـد الاستئذان. ما قبل صلاة الفجر – وحـين يتخفـف الإنسـان مـن ثيـاب عملـه ليسـتريح بنوم الظهيرة – وعندما يقصد فراشه إلـى النـوم إثـر صـلاة العشـاء. وينسـحب هـذا الإرشاد على أطفالهم الذين لم يصلوا إلى سن البلوغ. أما فـي غيـر هـذه الأوقـات التـي من شأن الإنسان أن لا يكون متحفظـا فيهـا، فإنـه لا إثـم علـيكم فـي دخـولهم علـيكم بدون استئذان. ذلك أن علاقة الأطفال في سن الصـبا وعلاقـة المماليـك الموكـول إلـيهم القيام بالخدمة، مما يوجب أن يكـون التواصـل معهـم متكـررا، فهـم يـدخلون علـيكم وأنتم تدخلون عليهم، وما جعل الله عليكم من حـرج فـي الـدين. هـذه التعـاليم أنزلناهـا عليكم بينة واضحة في آيات الكتاب ، نزلت علـيكم مـن الله العلـيم بمـا يصـلحكم وهـو الحكيم إذ هو سبحانه الذي يعلم عواقب الأمور ولا يخفى عليه شيء من المآلات.

ثم إن أطفالكم إذا بلغوا سن التكليف، فـإن حكـم الاسـتئذان العـام الـذي ورد قبـل هـذه الآية هو الحكم فيهم، إنه يجري عليهم أحكام الكبار فـي الاسـتئذان. وعلـى هـذا النحـو من البيان يأتيكم البيان الواضح من الله. إن الله عليم حكيم .

بيان المعنى العام :

58، يا أيها الذين امنوا ليستأذنكم...والله عليم حكيم .

عنيت سورة النور في أياتها الأولى بتفصيل آداب وأحكام ترتبط بالآداب الاجتماعية ما يتعلق منها بالتزاور بين المؤمنين، فأرشدت إلى الاستئذان وعقبته بالستر والحياء. ثم استأنفت مرشدة إلى ما يتعلق بالاستئذان بين الأفراد الذين تتركب منهم العائلة. فأمرت المكلفين في العائلة أن يحرصوا على أن يستأذن كل من الأرقاء الذين كانوا يعيشون معهم في البيت، وشأن هؤلاء أن تكون الصلة بهم مستمرة تبعا لقيامهم بالخدمة. وكذلك الأطفال الذين لم يبلغوا سن التكليف، وشأن هؤلاء أن يكون دخولهم على الكبار متكررا. فخففت الآية في الاستئذان، وليس أمرهم كالأجانب الذين نزل فيهم: **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها**[1] وليس مرخصا لهم أن يدخلوا على الكبار في كل وقت بدون استئذان. فكان الإرشاد أن لا يدخلوا إلا بعد أن يؤذن لهم في ثلاث حالات:

الأولى: قبل صلاة الفجر في أواخر الليل، بعد أن يكون الصالحون قد فرغوا من قيام الليل، ومالوا إلى النوم قبل أذان الفجر.

الثانية: عندما يميل الراشد إلى الراحة في وقت الظهر، فيتخفف من ثياب العمل ، ويأوي إلى مضجعه .

الثالثة: بعد صلاة العشاء عندما يأوي إلى فراشه لينام .

هذه الأوقات الثلاثة، هي أوقات قد ينكشف فيها من جسم الإنسان ما لا يرضى صاحبه بانكشافه. وشأن البشر أن لا يكونوا متحفظين في هذه الأوقات الثلاثة، خاصة واستدعاء النوم يقتضي التخفف من الثياب، ومن ناحية أخرى فلصلة الزوجين في هذه الأوقات ما يحتم أن يكون سرهما محفوظا غير مطلع عليه من أحد. وحكم الاستئذان واحد بالنسبة للنساء والرجال.

أما في غير هذه الأوقات الثلاثة، فإنه لا يطلب لا من المماليك ولا من غير البالغين من أعضاء الأسرة أن يستأذنوا، لما في ذلك من الحرج، تبعا لحاجة الخدمة المتكررة للمماليك، واعتماد الأطفال على أوليائهم وكثرة الترداد عليهم ما داموا دون سن البلوغ. فالمماليك يدخلون بكثرة على مالكيهم، ويطوف بعضهم على بعض .

---

[1] سورة النور آية 27

على هذا النحو من البيان للحكم، وضبط الزمن الذي تظهـر فيـه الحكمـة مـن التشـريع، ومراعاة رفع الحرج عنكم، وقع بيان القـرآن فـي آياتـه للحكـم بيانـا كـاملا واضــحا. والله العليم بما يصلح أموركم ويـربيكم علـى الحيـاء والعفـة، كيـف لا وهـو المتفـرد بالحكمة البالغة.

59- وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم...والله عليم حكيم .

صرحت الآية إثر ذلك أن الحـد الفاصـل بـين الاسـتئذان المطلـق، وبـين تخصيصـه بالأوقات الثلاثة بالنسبة لأولاد العائلة الذين يحتضنهم بيـت واحـد، هـو بلـوغ الأطفـال ما يتحولون به من عمر الصبا الذي لا تكليـف فيـه، إلـى الوقـت الـذين يكونـون فيـه مخاطبين بخطاب التكليف . فعند ذلك ينسـحب علـيهم حكـم بقيـة الراشـدين إذا دخلـوا بيوتا غير بيوتهم أن يستأذنوا. ويَمُنُّ القرآن على المـؤمنين بأنـه علـى هـذا النحـو مـن البيان يخاطبكم رب العزة بآيات بينات لا غموض فيها. والله عليم حكيم .

وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

بيان معاني الألفاظ :

القواعد : جمع قاعد يطلق على المرأة التي بلغت سن اليأس من الحيض.

يضعن ثيابهن : ينزعن ثيابهن.

متبرجات: مظهرات زينتهن رغبة في لفت الأنظار إليهن.

يستعففن : يتعمق فيهن الشعور بالعفة فلا تختلف حالتهن في الكبر عن زمن الشباب.

الصديق : الصادق في المودة .

جميعا : المجتمعون.

أشتاتا: الأكل منفردا.

تحية : ما يقوله الداخل تأنيسا لمخاطبيه وتأمينا له ولطفا.

مباركة : فيها البركة ووفرة الخير.

طيبة : مقبولة من الناس .

بيان المعنى الإجمالي :

رخص القرآن في هذا النص للمرأة التي أيست من الإنجاب لكبر سنها وذهاب طراوة شبابها ،أن لا تدني جلبابها ولا تتحرج من كشف عنقها وأعالي صدرها، دون أن تبلغ درجة التبرج بإبراز ما يتبعه لفت النظر إليها. وينصحهن القرآن بالحفاظ على الستر على الوضع الذي كن عليه في عهد الشباب. والله سميع لما يحدّثن به أنفسهن، عليم بمقاصدهن. فليلتزمن الحياء والعفة. وكما نفى الإثم عن المرأة إذا وضعت جلبابها عند ما تكبر، فكذلك نفى الحرج والإثم عن الأعمى والأعرج والمريض الذين لا يستطيعون أن ينفذوا ما يطلب منهم على الوجه الذي يقوم به غير ذوي النقص. ونفى الحرج أيضا عن الأكل من الطعام المهيأ في البيوت بالنسبة لأحد الزوجين إذا لم يكن قرينه حاضرا، وبالنسبة للوالدين في بيوت أولادهم ، وللأولاد في بيوت والديهم ، ولذوي القرابة كبيوت الإخوان والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات ، وكذلك ما مُكّنتم منه بوكالة أو حراسة ، وكذلك بيوت أصدقائكم الذين توثّق بينكم وبينهم الود. إنه لا إثم عليكم أن تأكلوا من الطعام المهيأ في كل ما ذكر مجتمعين مع غيركم أو منفردين ما دام ذلك في حدود المعروف وعدم التجاوز. وذكّرهم بالأدب الذي جاء في آية الاستئذان: أن عليهم أن يسلموا على أهل تلك البيوت، وأنه لا يعتبر الود رافعا لأدب السلام. والسلام بقولهم: السلام عليكم. التحية التي فيها كثير من الخير والتي يأنس بها السامع ويطمئن . وعلى هذا النحو من البيان الواضح يبين لكم الآيات القرآنية،و يرجى منكم بالتأمل فيها أن تدركوا معقوليتها.

بيان المعنى العام :

60- والقواعد من النساء اللاتي ...سميع عليم .

ما تقدم من الأمر بالستر للنساء في الآية 31 القصدُ منه أن يكون المجتمع الإسلامي نظيفا في أخلاقه، تتحفظ فيه المسلمة من إغراء الرجال بما رزقت من وسامة وجمال. ورخصت هذه الآية للمرأة إذا جاوزت سن المحيض، وأيست من

الحمل، وتبع ذلك ذهاب نضارة الشباب المغرية، أنــه لا إثـم عليهــا إذا أزالــت جلبابهــا أو لبسته ولم تدنه من جيبها ليستر رقبتها وأعالي صــدرها. ولكــن الحــد الــذي لا يبــاح لهن تجاوزه، هو أن يكون هذا التخفف غير مقصــود بــه لفــت أنظــار الرجــال إلــيهن، فإذا قصد به ذلــك كــان حرامــا، وذلــك كطريقــة المشــي ، أو الأصــباغ، أو العطــور الصارخة ،أو الحلي النفيس الــذي تتبعــه الأبصــار، أو الثيــاب المتجــاوزة حــد الأناقــة المعتاد، ونحو ذلك. وقوله تعالى: اللاتي لا يرجــون نكاحــا: هــو وصــف كاشــف عــن مفهوم القواعد، أي اللاتــي لا يتــرقبن خُطّابــا ولا راغبــين فــي الــزواج مــنهن، فهــو تفسير لكلمة القواعد.

ثم أشار القرآن عليهن: أن التخفف رخصة، والتزامهن بالطريقــة التــي كــنّ عليهــا قبــل ذلك، هو أفضل لهن وخير من التخفف. وذكّرتْهُنّ الآيــة بــأن الله ســميع لمــا تحدثــه بــه أنفسهن وما يجري في سرهن من تحويل الرخصة من التيســير إلــى التحلــل. علــيم بمــا يقع منهن لا تخفى عليه خافية يجازي بالحق.

61- ليس على الأعمى حرج ...لعلكم تعقلون.

نفت الآية السابقة الحرج في الستر الواجــب عــن المــرأة إذا هــي تقــدمت فــي الســن وأيست من المحيض. فتابع القرآن رفع الحــرج عــن نظــائر، وضــعُهُمْ الصــحي يقعــد بهم عمن سلموا من النقص الذي حل بهم ، فنفــت الحــرج عــن العميــان فــي التكليــف الذي يرتبط بالبصر. كالخروج للجهاد، والحج إذا لم يجــد قائــدا، والصــلاة فــي المســجد كذلك. وكذلك الأعرج الذي لا يقدر علــى الكــر والفــر، أو الانتقــال فــي الطــرق غيــر المعبدة، وكذلك المريض الذي يمنعه مرضه مــن القيــام بــبعض مــا هــو مطالــب بــه باعتباره مكلفا، كالصلاة من قيام أو الصــوم ، أو الجهــاد . فهــؤلاء لا إثــم علــيهم فــي عدم قيامهم بما لا يقدرون عليه ، فما جعل الله علينا في الدين من حرج.

ثم تناولت الآية إرشادا لبعض الآداب الاجتماعيــة وتحديــدها تحديــدا ينفــي الإثــم عــن فاعلها، وإن كان العرف الجاهلي لا يرضاها. واعتنــت بموضــوع الأكــل . بينــت الآيــة أنه لا إثم على الإنسان أن يأكل مما هو فــي بيتــه، إن كــان قرينــه غائبــا فــلا تتحــرج المرأة من الأكل مما يحويه بيت الزوجية عنــد غيــاب الــزوج، وكــذلك العكــس، ومثلــه أكل الوالدين مما هو في بيوت أولادهم. وكذلك لا حــرج فــي أكــل الولــد مــن الطعــام المعروض في بيت أبويه وهما في حالة زواج أو فــراق ، أو مــن بيــوت إخوانــه أشــقاء أو لأب أو لأم ، أو مــن بيــوت أخواتــه إلا إذا كــن متزوجــات وتعلــق الملــك بحــق الزوج، وكذلك بيوت الأعمام ، وبيــوت العمــات كمــا نكــر فــي الأخــوات ، أو بيــوت

الأخوال، أو بيوت الخالات؛ ومثله ما مُكّنَ من التصرف فيه القائم عليه وسلمت له مفاتيحه، كالموكّل، والخازن ،والحافظ للحقل المثمر فلا إثم عليه في الأكل من ثمره بالمعروف. وكذلك الصديق الذي انعقدت بينه وبين صاحب البيت مودة. تتابعت أنواع الصلات التي اتحدت في الترخيص لها في الأكل، فأعيد نفي الإثم عنهم في الأكل تأكيدا للحكم الذي افتتحت به الآية، وأنه لا فرق بين أن يجتمعوا على الأكل، أو أن ينفردوا. وكل ذلك في الطعام المهيأ للأكل منه، لافي المخزون المغيب . وهذا إقرار من الشارع لبعض الأعراف الصحيحة، ونفيا للأعراف التي منها أن بعض العرب كانت لا تأكل أفرادا البتة. وكان بعض العرب إذا كان له ضيف لا يأكل ضيفه معه، ورأيت في بعض نواحي الصين أن الداعي لا يتناول شيئا من الطعام الذي أعده لضيوفه، مقدرا أن إكرام الضيف يوجب تخصيصه بكل الطعام. فالآية لا تقر أن تلك الأعراف واجبة التطبيق، وتقرر أن الإسلام لا يوجبها، وإن كان بعضها حسنا كالحرص على إشراك الآخرين في الطعام.

ثم ذكرهم بأدب السلام الذي نصت عليه آية الاستئذان "حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها" فذكرهم أن يسلموا عند دخول بيوت الذين تربطهم بهم رابطة القرابة أو الود، تنبيها على أن الروابط الجامعة لا تبرر التحلل من قيم الأدب. ومن بديع التعبير أن علق السلام ب " أنفسكم " إذ أن البساط هو قرب وثيق بين هؤلاء المذكورين في الآية، فكأنهم شيء واحد، وكأن المُسلِّم عندما يسلم هو يسلم على نفسه. وتحية موقعها، سلموا تحية ثابتة بأمر الله مشروعة من عنده. وهي السلام عليكم. هذه التحية التي رتبها الإسلام لتكون أول ما يبادر المؤمن عند لقاء غيره من المؤمنين، وتشتمل على تأنيس المخاطب وتأمينه إذا كان لا يعرفه، واللطف معه إذا تقدم بينهما اتصال، وقد جعل الله فيها البركة بما ينمو بالسلام من ود ويوفر من أخوة. وفي" السلام عليكم " أيضا طيب لما تتضمنه من دعاء بالسلامة وإعلان للمصافاة. وعلى هذا النحو من تفصيل وبيان ما يصلح أموركم ويقوي الروابط بينكم يبين الله لكم آياته القرآنية ليحصل لكم الرجاء في تعقل تلكم البينات، والنظر فيما يترتب عليها من خير المآلات .

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ

لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأمر : الشأن المهم.

الجامع : الذي من شأنه أن يجمع له الناس للتشاور أو التعلم.

يتسللون : يخرجون متخفين.

لواذا : يتستر بعضهم ببعض لئلا يتفطن إليهم .

يخالفون عن أمره : يصدون عن اتباع أمره .

الحذر: تجنب الشيء الذي تخشى عاقبته.

الفتنة : اضطراب حال الجماعة.

العذاب الأليم : القتل والهوان.

بيان المعنى الإجمالي :

تناول القرآن بعضا من آداب الاجتماعات العامة، فنوه بالمؤمنين بالله ورسوله الذين إذا حضروا اجتماعا بإمامة رسول الله، لازموا الأدب، فلا يخرجون منه إلا بعد الاستئذان. شهد الله بأنهم صادقون في إيمانهم. وتلكم المزية أمارة كونهم مؤمنين حقا. ولذلك فإذا استأذنك أحدهم لأمر عرض له، فأنت يا محمد تقدر الوضع فتأذن لمن شئت منهم تبعا لما هو أصلح ، واستغفر لمن أذنت له فحُرم ثواب حضور الاجتماع إلى نهايته . والله من صفاته الأزلية أنه غفور رحيم.

و عرّف المؤمنين أنهم لا خيرة لهم إذا دعاهم الرسول، فالواجب أن لا يتخلفوا عن الاجتماع إلا لضرورة، فليست دعوة الرسول كدعوة إخوانكم أنتم مخيرون في الاستجابة لها. كما أن عليهم أن يتأدبوا عندما يخاطبون رسول الله فلا يدعون باسمه، ولا بما هو مُوهِمٌ. ولا يدعونه من مكان بعيد صائحين، فإن ذلك لا يتناسب مع شرف مقامه الرفيع ﷺ.

ثم فضح المنافقين الذين يخرجون في أثناء الاجتماعـات العامــة متخفـين أشـد التخفـي، يتستر بعضهم ببعض. فحقق القران بـأتم تحقيـق أن الله لا يخفـى عليـه أمـرهم ، إنهـم إن استطاعوا أن يختفوا من عيون الحاضرين معهـم، فـإن الله لا يخفـى عليـه شـيء. فليحذروا ما سيسلطه عليهم مـن فتنـة، بـانفلات أمـرهم وشـيوع العـداوة والخـلاف بينهم، أو من عذاب أليم بالقتل والتشريد بأيدي المؤمنين.

تنبهوا فإن الله مالك الكون كله سماواته وأرضه ، يبلغ علمه كل دقيقة وعظيمة ،وما خفي في الصدور وما ظهر من الأعمال . وكل ما تم وجوده محفوظ، لا يضيع منه شيء فسيطلع كل فرد عما قدمه ليلقى جزاءه يوم القيامة. وعلم الله هو العلم الشامل الأزلي الأبدي.

بيان المعنى العام :

62- إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله...إن الله غفور رحيم .

قررت هذه السورة آدابا اجتماعية تقضي بـالمؤمنين إلـى الحيـاة المدنيـة التـي تسـمو بها الجماعة وتبعد عن جفاء البداوة.

و اعتنت هذه الآية بتقرير الأدب الذي يجـب أن يراعـى إذا دعـا الرسـول ﷺ المـؤمنين للاجتماع. وربطته بتحقـق الأصـل الأول الـذي هـو الإيمـان بـالله ورسـوله. ليكـون الأدب الذي أرشد إليه هو من مسـتتبعات ذلكـم الإيمـان . وقـد كـان النبـي ﷺ يـدعو المؤمنين للاجتماع بهم في الأمور المهمـة، سـواء أكـان الأمـر يتعلـق بتشـريع جديـد يبلغهم إياه ويوضحه لهم، أو ليشاورهم في أمر يهمهم مما يتعلق بالسلم أو الحرب.

وقد كـان المنـافقون يحضـرون هـذه الاجتماعـات، ويخرجـون منهـا دون اسـتئذان، يفعلون ذلك لما استقر في نفوسهم من كراهيـة لكـل مـا يعرضـه النبـي ﷺ ، وليـدخلوا الخلل في الاجتماع بما يوحي به الانصراف من تفاهـة موضـوع الاجتمـاع ،وأنـه ممـا لا يمكن أن يصبر عليه السـامع . قصـدهم التشـغيب والطعـن الخفـي. فلـذلك جعلـت الآية من سمة الإيمان بالله ورسوله: أن مـن حضـر لا يخـرج مـن الاجتمـاع إلا بعـد أن يطلب الإذن من رسول الله ﷺ . ومن هذه النقطـة يظهـر التلاقـي بـين هـذه الآيـة والآية السابقة؛ فإذا كانـت الآيـة السـابقة موضـوعها الاسـتئذان فـي الـدخول، فـإن موضوع هذه الاستئذان في الخروج والمغادرة.

نوهت هذه الآية بالمؤمنين بالله ورسوله، وعـذرت مـن حضـره، وهـو فـي الاجتمـاع ،حصل ما يدعوه للخروج، واستأذن النبـي ﷺ، وأوكلـت للنبـي صـلى الله عليـه وهـو رئيس الجماعة أن يسمح للمستأذن بـالخروج إذا قـدر أن المصـلحة العامـة لا تضـيع ، وأن الاجتماع لا يختل . وأرشـده الله أن يطلـب المغفـرة للمسـتأذنين الـذين أذن لهـم،

إيماء إلى أن تغليب الأمر الخاص على مواصلة حضور الاجتماع خلاف الأولى، والنبي ﷺ لا يدعو إلا إذا كان الاجتماع يتعلق بأمر مهم فيه مصلحة للجماعة والمستأذن واحد منهم. ومن ناحية أخرى فإن الإسلام يعز كل فرد من أعضاء الأمة، فخروج أحدهم وعدم مواصلة الاجتماع يعتبر ناحية سلبية. وطمأن المأذون لهم بأن الله من صفاته الأزلية الدائمة أنه غفور رحيم

63- لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم ...عذاب أليم.

اعتنت السورة بكثير من الآداب الاجتماعية التي تسير بهذه الأمة لتتبوأ مقعدها الحضاري، سواء من كان قبل دخوله في الجماعة الإسلامية من سكان المدن والقرى، أو من سكان البوادي والخيام. فبينت الآية في أولها أنه لا خيرة للمؤمن إذا بلغته دعوة النبي ﷺ ، فكما أنه إذا حضر لا يخرج من الاجتماع إلا بعد الاستئذان، فكذلك هو ملزم بالحضور إذا دُعي. وهو تقرير سياسي باعتبار أن ولي الأمر لا يستطيع أن يحقق للأمة أمنها ورفاهيتها إلا إذا حصل التعاون بينه وبين كل عضو من أعضاء الأمة، ولم يتراخ أي منهم عن تلبية ما هو مطلوب منه.

وتحتمل الآية وجها آخر، أن يستحضر المؤمنون مقام النبي ﷺ فلا يخاطبه إلا بما يليق بشريف مقامه، فلا ينادونه [يا محمد] ولا ب[يا ابن عبد المطلب] ولا بما فيه إيهام كقول المنافقين " راعنا " كما تقدم في سورة البقرة آية 104 – بل يدعونه بلطف وأدب وتقدير ، يا رسول الله ويا أبا القاسم. وأن لا ينادوه من بعيد برفع صوت.

ثم بعد هذا الاعتراض الوارد في أثناء الكلام، ليعرف بخصال المؤمنين في الاجتماعات، ويعذر أصحاب الحاجة منهم؛ تعود الآية لفضح المنافقين والتشهير بما يقومون به مما يظنون أنهم قد نجحوا في إخفائه.

بكل تأكيد، إن الله يعلم كل فردمن الذين يخرجون مبالغين في التخفي في حركاتهم، وبانحنائهم، حتى كأن خروجهم هو خروج شيء وانسلاله من شيء هو فيه، يتم إخراجه بحذر شديد. وهم يلوذون ببعضهم، أي يتستر بعضهم ببعض عند الخروج حتى لا يلمحهم بصر الناظرين.

هدد القرآن الذين يصدون الناس عما أمر به، وحذرهم عاقبة ما يقومون به من تلبيس وتشكيك، فأنذرهم بأن الله قادر على الإيقاع بهم إيقاعا لا يجدون منه انفكاكا ،إما باضطراب أحوالهم اضطرابا يفقدهم الأمن ، وينشر بينهم العداوة ويعجزهم عن التناصر . وإما بتسلط المؤمنين عليهم قتلا وتشريدا.

64- ألا إنّ للّه ما في السماوات...واللّه بكل شيء عليم .

تختم السورة بحرف الاستفتاح "ألا" وفي ذلك تنبيه لتحقق كل ما ورد فيها، والتأكيد على الاستجابة لأحكامها. بأن الله منزلها هو مالك كل ما تحويه السماوات والأرض. محقّق أنه يعلم أوضاعكم ،وما تنطوي عليه صدوركم ومقاصدكم التي تجري في بواطنكم، وأنه سبحانه سيعرفكم بها يوم تعرضون عليه ،مما ينبئ بأنه سيجازيكم عنها بالثواب للصالحين، والعذاب للكافرين والمنافقين والمجرمين . والله لا تخفى عليه صغيرة، ولا كبيرة، ولا أمر ظاهر ولا أمر خفي. علمه شامل منسحب على الماضي، متواصل إلى أبد الآبدين.

أتممت بحمد الله وحسن عونه ،وهو صاحب الفضل ،عليه توكلي واعتمادي، تفسير سورة النور صباح زوال يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة عام- 1433-الموافق للحادي عشر من شهر أكتوبر - 2012 – تقبل الله عملي وعفا عما كان فيه من تقصير أو قصور، ونفع به المؤمنين وأعانني على مواصلة ما محضت له حياتي من تيسير فهم كتابه للمؤمنين، ورحم الله والدي ومن علمني بواسع رحمته وجميل غفرانه .

ســـورة الفرقــان

هذا هو الاسم الذي عرفت بــه الســورة فــي المصــاحف وفــي كتــب الســنة. ووجــه تسميتها بذلك افتتاحها بلفــظ " الفرقــان " وهــي ســورة مكيــة. رتبتهــا حســب تــاريخ النزول الثانية والأربعون. نزلت بعد سورة يــس وقبــل ســورة فــاطر . وهــي الســورة الخامسة والعشرون حسب ترتيب المصحف.

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

تبارك : فعل اختص به الله ، عظمت خيراته ،وتحققت كمالاته .

الفرقان : القرآن.

العالمين : جميع المكلفين.
النذير : الموقظ والمحذر من شر يأتي.
الخلق : الإيجاد.
قدره : ضبط مقدما المقادير التي يكون عليها.
ضرا : إصابة بمكروه.
الإفك : الكلام الكاذب المختلق.
الظلم : الاعتداء.
الزور : الكذب المحسّن الذي يخيل لسامعه بذلك أنه صدق.
أساطير : ج أسطورة، القصة عن الماضين التي تختلط فيها الحقيقة بالخيال.
الأولين : التوراة والإنجيل.
اكتتبها : استنسخها .
تملى عليه : يعيد استماعها .
بكرة وأصيلا : أول النهار وآخره والمقصود بصفة متواصلة.

بيان المعنى الاجمالي :

كمالات الله لا تحصى وفضله لا يحد ، تبـارك سبحانه . ومـن خيراتـه التـي تفضـل بها على عبيده إنزاله للكتاب " القرآن " الفارق بـين الحـق والباطـل، واختيـاره محمـدا عبده لتبليغـه وبيانـه، وإقامـة الحجـة علـى مضـامينه. ولينـذر المبعـوث إلـيهم مـا يترصدهم من شر ليتخذوا وقاية لأنفسهم منه .

تفرد بملك السماوات والأرض وما تحويـه مـن كائنـات، وتنـزه أن يكـون لـه ولـد إذ الأبوة تنافي الملكية. ولا يتصرف معه أحد فـي ملكـه. خلـق كـل الكائنـات فأوجـدها من عدم. تظهر حكمته في كل ما خلق إذ لا يوجد مخلوق ظهـر صـدفة، بـل كـل كبيـر وصغير له قانونه الذي يسير عليه بمنتهى الضبط والإحكام.

والعجب من المشركين أنهم اتخذوا مـن دون الله آلهـة عبـدوها وتقربـوا إليهـا ، مـع أنها عاجزة عجزا مطلقا ، فلا هي خلقت شيئا ولا هي قـادرة علـى ذلـك ، إذ هـي فـي ذاتها نتيجة صنع عابديها الذين نحتوها . وهـي عـاجزة عـن دفـع الضـر عـن نفسـها أوعن نفعها ، وعجزها عن نفع عابديها أوضـح .وهـي فاقـدة لخاصـية الألوهيـة وهـي التصرف بالموت والحياة ، فلا هي تعطي حيـاة ولا تسـلبها. ولا هـي قـادرة أن تبعـث عابديها يوم النشور لتحاسبهم عن أعمالهم .

دفع المشركين كفرهم للتشكيك في صدق رسـول الله ﷺ ، فقـالوا: إن مـا يـدعوكم إليـه منحصر في كونه كذبا اختلقه هو، وساعده عليـه قـوم آخـرون. إن مقـالتهم هـذه ظلـم

كبيـــر لرســـول الله ولـــدين الله ، زوَّروهـــا وحســـنوها ليخيلـــوا للبســـطاء أنهـــا صـــدق. وأضافوا لتمويهاتهم، إن القرآن الذي يحتج به محمـــد هـــو مجموعـــة أســـاطير وقصـــص، طلب من العارفين أن يسجلوها له كتابة، لتعرض عليـــه صـــباح مســـاء بصـــفة متواصـــلة حتى يذيعها على أنها من عند الله. لقّن الله نبيـــه الجـــواب المفحـــم للمشـــركين قـــل لهـــم: إن الذي أنزل الفرقان، هو الذي لا يغيب عنه ســـر مـــن أســـرار الوجـــود مهمـــا خفـــي، ومنه سر القلوب، فلا يُمكّن من يكذب عليه مـــن مواصـــلة افترائـــه. ولـــم يعجـــل علـــيكم العقوبة لأنه سبحانه غفـــور رحـــيم ، فعســـى أن يفـــتح علـــى بصـــائر بعضـــكم ليكـــون نصيرا للدين ناشرا له.

وتبعا لغلظ حسهم واستيلاء المادة عليهم، سألوا متعجبين ما بـــال هـــذا الـــذي يـــدعي أنـــه رسول يأكل الطعام، ويسعى في الأسواق لتحصـــيل رزقـــه؛ علـــى أن الرســـول لا يكـــون من جنس البشر، إن كان من جنســـهم فتأييـــده بملـــك ضـــرورة. إن حســـهم متبلـــد، فمـــا يجري في الإنســـان مـــن روح وعقـــل يقـــوم شـــاهدا علـــى أن الإنســـان لـــيس مقـــادير مجموعة من المواد المحسوسة. قالوا: هلا أنزل عليـــه ربـــه ملكـــا يســـاعده فـــي إنـــذاره للناس من الشر الذي سيحل بهم إن لم يتبعوه، أو ينـــزل عليـــه كنـــزا مـــن الســـماء يغنيـــه عن السعي في تحصـــيل المـــال ، أو أن يحـــول لـــه جبـــال مكـــة إلـــى جنـــات تتخللهـــا الأنهار، تنتشر فيها مختلف الأشـــجار المحملـــة بمتنـــوع الثمـــار .ثـــم أضـــاف بعضـــهم فقالوا : نظرنا فتحقق عندنا أنه رجـــل استولى عليـــه الســـحر فاختلـــت مداركـــه. انظـــر إليهم وهم متحيرون فـــي غبـــائهم، مفضـــوحون بمـــا صـــوّروك بـــه، فضـــلوا الطريـــق وقطعوا ما بينهم وبين المعقـــول، فهـــم لا يســـتطيعون أن يســـيروا علـــى طريـــق يـــبلغهم الهدف المنجي.

بيان المعنى العام :

1-تبارك الذي نزل الفرقان ....للعالمين نذيرا.

افتتاح بديع فيه تمجيد لله تعالى ، فهو سبحانه الذي بفضـــله نـــال كـــل فـــرد مـــن النـــاس من الخيرات ما نال ، وتقرير لعظمتـــه وتفـــرده بالكمـــالات التـــي اختـــص بهـــا . وهـــو متضمن للثناء عليه. وأتبع هذا الفعـــل بمـــا يؤكـــد مضـــمونه ، وهـــو إنـــزال "الفرقـــان" القرآن. أطلق عليه فرقانا لأنه فرق بين الحـــق والباطـــل بصـــفة مســـتمرة، فكلمـــا تطـــور البشر وجدوا في القرآن ما يبين الطريـــق الســـوي، النـــاجح ســـالكه. ولأنـــه الحـــد الـــذي تحولت به البشرية من مذاهب مختلة وعقائـــد متداخلـــة، فاســـتقام لهـــا المـــنهج الكاشـــف عن الحق، المفنّد للباطل. ونوه بـــالمتلقي للفرقـــان مقربـــا لـــه بقولـــه: عبـــده، مكلفـــا لـــه

بمهمة عظيمة: أن يكون منبها، ومحذرا للمكلفين جميعهم من الإنس والجن، ممن كان حاضرا وقت نزول الآية ولمن يأتي بعدهم إلى أبد الآبدين، محذرا لهم من الشر الذي سيحل بهم إن هم لم يهتدوا بما يبلغه لهم مما أنزله الله عليه . فجمعت الآية بين تمجيد الله، والتنويه بالقرآن المنزل من عنده، والتنويه برسوله الذي سما به إلى أن جعله رسوله للعالمين جميعا. فأثبت له عموم الرسالة واستمرارها.

2-الذي له ملك السماوات والأرض...فقدره تقديرا.

أجرى القرآن على الذات الإلهية الممجدة أربع صفات:

أ-التفرد بملك السماوات والأرض. ويحقق تفرده بالملك إنزاله الفرقان، فإن المتفرد بالملك لا يتصور أن يهمل ملكه إهمالا يسرع إليه الفساد والاختلال. فإنزال الفرقان يحفظ للكون بقاءه، ويبين صلته بمالكه، الصلة التي لا تتكشف على وجهها الحق إلا بما أنزله.

ب – نفي كونه والدا. وهو نتيجة حتمية لملك السماوات والأرض، إذ المالك للسماوات والأرض وما تولد منهما وما فيهما، يستحيل أن يتخذ ولدا.و اتخاذ الولد يثبت أنه كان ناقصا قبل هذا الولد فأكمل نقصه به، وهو سخافة لأن الولد لابد أن يحمل صفات والده، ومنها استعداده لملك السماوات الأرض.

جـ – نفي الشريك. وإذا انتفى أن يكون له ولد يشاركه في الملك فمن باب أولى وأحرى أن لا يكون له شريك أصلا .

د – تفرده بالخلق .ولا تقصد الآية مجرد الإيجاد ، بل تثبت شيئا وراء ذلك ، هي أن الخلق لم يكن على طريق المصادفة يتحقق كيفما اتفق، بل إنه سبحانه خلق كل شيء على مقادير محددة، وقوانين مضبوطة، عليها يسير المخلوق، وعليها ينسجم مع بقية الكائنات، وبها يتم عمران السماوات والأرض كما هو مشاهد.

3- واتخذوا من دونه آلهة....ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

أثارت الآية العجب من عقيدة مشركي مكة، في اتخاذهم آلهة يعبدونها من دون الله، بعد ما كشف الوحي والبيان النبوي عن انفراد الله بالألوهية، وما أقامه من الأدلة المحطمة للشرك ، ومنها ما ذكر في صدر السورة. وتم التصريح بموجب العجب، ذلك أن الآلهة التي يعبدونها متصفة بالعجز الكامل، وعدم القدرة على التأثير، فلا هي تستطيع أن تخلق أي شيء ولو كان تافها، إذ هي لم تكتسب وجودها من ذاتها، وإنما خلقها الذين يعبدونها، وهو منتهى السخف. ومع ذلك فما اتخذوه من آلهة لا تستطيع أن تدفع الضر عن نفسها، ولا أن تجلب لها منفعة، وهذا كما أظهره

إبراهيم ﷺ لما حطم الآلهة، وأحـالهم علـى كبيـرهم .وإذا عجـزت عـن دفـع الضـر عن نفسها أو جلب النفع، فعجزها عن تحقيق ذلـك لعابـديها مـن بـاب أولـى وأحـرى. وخاصية الألوهية التفرد ببث الحيـاة فـي الكائنـات، وفـي سـلبها بـالموت. وآلهـتهم بعيدة كل البعد عن هذه الخاصية فهـي لا تقـدر لا علـى الإحيـاء ولا علـى الإماتـة ولا على بعث الأموات يوم القيامة. فبسطت الآية سُخفَهُم ومُوجِب التعجب منهم.

4-وقال الذين كفروا إن هذا... فقد جاؤوا ظلما وزورا.

ثم سجل القرآن الباطل الذي رموا به النبي ﷺ . ومقالاتهم صادرة عما استقر فيهم من الكفر " قال الذين كفروا" هذا الرجل الذي يبطل آلهتكم ويقدم لكم تصورا عقديا ومنهجا في الحياة يختلف عما أنتم عليه، لا يخرج كلامه عن كونه كذبا اختلقه، لا أساس له ولا مرجع يستند إليه. وقد انضم إليه أفراد آخرون، على ما رواه أصحاب السير أنهم عبيد لبعض القرشيين، من الفرس كانوا نصارى، فدخلوا في الدين الإسلامي .

ما أفسد ما افتروا ! هم قد عرضوا ما هـو ظلـم صـارخ واعتـدوا علـى مقـام النبـوة، ورفضوا الوحي الحق، وأشركوا بالله، والشـرك ظلـم عظـيم. وموّهـوا بـاطلهم تمويهـا وزينوه حتى خيلوه للبسطاء أنه صدق .

5- وقالوا أساطير الأولين ....بكرة وأصيلا.

ثم أضافوا لزورهم، أن القرآن الـذي يحـتج بـه محمـد إن هـو إلا مجموعـة قصـص مسجلة في الكتب السابقة التوراة والإنجيل؛ طلب محمـد مـن العـارفين بتلـك الكتـب أن تنقل إليه وتوثق، فهو يقرأها ويعيدها في جميع الأوقات.

6- قل أنزله الذي يعلم الغيب ...إنه كان غفورا رحيما.

يأتي الرد عليهم من الله، فيلقن نبيه اهتمامـا بنصـره ولتكـذيب افتـراءات المشـركين ، قل لهم يا محمد : إن الذي أنزل الفرقان، هـو الـذي لا تخفـى عليـه الأسـرار الكامنـة في السموات والأرض، ومنها السر المكتوم في الصـدور. ومـن مقتضـيات ذلـك أنـه لا يُمْهِلُ من يفتري عليه ليواصل الجراءة والكذب عليه . وأنـه إن لـم يعجـل لكـم العقوبـة في تكذيبكم وصدكم عن دينـه فلأنـه متصـف اتصـافا أزليـا أبـديا بـالغفران العظـيم، والرحمة الواسعة، رجاء أن يستفيق من قُدِّرت لـه الهدايـة مـنكم، ليتحـول إلـى نصـير لهذا الدين ناشر له. وهو ما تم فعلا.

7-وقالوا مال هذا الرسول ...فيكون معه نذيرا.

عرضت الآية لونا آخر من طعن المشركين. فقـد ضـموا إلـى طعـنهم فـي مضـمون الرسالة " إن هذا إلا إفك افتـراه...." طعـنهم فـي ذات الرسـول ﷺ . أبـرزوا طعـنهم

في صيغة التعجب التي تقتضي استبعاد أحقية المتعجب منــه. فقــالوا: إنــه يــدعي كونــه رسولا، فما باله يأكل الطعام، ويمشي في الأســـواق طلبــا للـــرزق؛ إن حالتــه لا تختلــف عن بقية الناس. اســتبعدوا أن تكـــون أحـــوال الرســـول المبعـــوث مـــن عنـــد الله تماثــل أحواله أحوال بقية البشر. روجوا هــذه المقالــة طعنــا فـــي صـــدقه وليصـــرفوا الـــدهماء عن الإسلام، ومتابعة الرسول فيما يخبر به عن الله.

إنه يمكننا أن نؤمن به لو أيــده الله ببعــث ملــك معــه يؤيــده فــي التحــذير مــن الشــر المرتقب ، فهلاّ بعث معه الله هذا الملك !

8- أو يلقى إليه كنزٌ ... إلا رجلا مسحورا.

ولما كانت القيم عندهم قيما مادية، وأنه كلمــا كـــان الشــخص أوفــر مـــالا كـــان مقامــه أرفع وتأثير كلامه أبلغ، اقترحوا: لو أن الله أنزل عليه كنــزا مــن الســماء يكفيــه نصــب العيش والسير في الطرقـــات. ومعلـــوم أن مكـــة بـــواد غيـــر ذي زرع، جبـــال بركانيـــة جرداء، لا سهول منبســطة ولا عيـــون جاريـــة، فـــاقترحوا أن يحـــول الله تلـــك الطبيعـــة إلى جنة تتخللها الأنهار، وتنتج مختلف الأقوات والثمار.

قدموا هذه الاقتراحات التي يدركون أنهـــا غيـــر عمليـــة، وقـــدّروا أنهـــا ربمـــا لا تـــروج على كثير من الناس، فاستنبط بعض الظـــالمين مـــنهم المتشـــددين فـــي معاكســـة الرســـول صلى الله عليه وسلم المقالة التالية : تنبهوا ولا تغفلوا، فـــأنتم مـــا تتبعـــون إلا رجـــلا نفــذ فيه عمل السحر ، وهـــم يعتقـــدون أن مـــن يتـــأثر بالســـحر يختـــل عقلـــه، وتضـــطرب مداركه. وقد عين المفسرون وكتـــاب الســـير أســـماء الـــذين قـــدموا هـــذه الافتراضـــات . وتعيين أسمائهم لا يضيف للواقع جديدا.

9- تصورهم الآية في صورة مجموعة متناقضـــة تتخـــبط، جـــديرة بـــأن تكـــون مجـــالا للنظر في غريب أحوالها وسخف تفكيرهـــا، انظـــر إليهـــا يـــا محمـــد وهـــي تتـــزل إلـــى دركات الحضيض في تفكيرها، ومنهجها فـــي الاحتجـــاج . كـــل مـــا قـــالوه فيـــك خيـــال مريض، انظر إليهم كيف لفقوا ما لفقوه، فتاهوا في الضلال، فهـــم أبعـــد مـــا يكـــون عـــن الاهتداء لطريق واضح يضمن لسالكه بلوغ الهدف الصالح.

تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا

مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

القصور : المباني الفخمة الواسعة.

الساعة : البعث من القبور وما يعقبه.

سعيرا : التهابا.

التغيظ : شدة الغيظ ، الغضب الشديد.

الزفير : صوت من احتبس نفسه فخرج منه بقوة.

ألقوا : قذفوا في جهنم قذف إهانة.

مقرنين : مقرنا بعضهم ببعض كشأن الأسرى في شدهم بوثاق واحد.

دعوا هنالك ثبورا : نادوا بأعلى صوتهم يا هلاكنا.

بيان المعنى الإجمالي :

كثرت خيرات الله وتجاوز فضله كل تصور، إنه سبحانه قادر لو تعلقت مشيئته، أن يمكنك مما هو خير مما عرضوه وما يتجاوز تصوراتهم الضيقة، قادر أن يجعل لك جنات تتخللها الأنهار، وتقوم فيها القصور الفاخرة .ولكن الله اصطفاك لتقوم بمهمة الرسالة وأنت تجاهد في الحياة، لتكون أسوة للمؤمنين .يعظم ثوابكم بجدكم في عمران الكون، وبجهادكم لنشركم للدين.

إن السبب الكامن الذي تبعه فسادهم، هو تكذيبهم بيوم القيامة وما يتبعه. وإني قد أعددت لمن كذّب بالساعة عذاب جهنم التي تستعر نارها. جهنم التي تقترن رؤيتها من أبعد الأمكنة بسماع اضطرام نارها وفرقعة وقودها. إنهم عندما يقذفون فيها قذف المهانة، موثق كل واحد منهم إلى مثله، في مكان ضيق جدا يزيد قرينه عليه ضغطا، إنهم في ذلك الظرف ينادون: يا هلاكنا! يطلبون أن يستريحوا ويهلكوا. ويجابون: عذابكم أبدي سرمدي، فكرروا دعاء الهلاك وأكثروا منه، ولكن لا يأتيكم.

بيان المعنى العام :

10 -تبارك الذي إن شاء ...ويجعل لك قصورا.

تبارك الله مالك السماوات والأرض مفيض النعم ، كثرت خيراته وفاضت آلاؤه على العالمين ، إنه لا يعجزه ولا ينقص من ملكه شيء إذا جعل لك ما هو خير مما

اقترحوه ، مما لا يخطر على بالهم ولا بلغت إليه معـرفتهم، مـن ذلـك أنـه يجعـل لـك جنات تتخللها الأنهار الجارية، ويقيم لك قصورا عظيمة.

إنه من الحكمة أن كان الرسول رجلا يعمـل ويكـد كمـا يكـد المؤمنـون، وأن لا يكـون مترفا يعيش عيشة الدعة والإسـراف فـي الجنـات والقصـور، وأن يكـون بـذلك مثـالا لأمته المجاهدة في الحياة القائمة بأمر الـدين ونشـره والـدفاع عنـه. فهـو بمـا أراده الله له خير قدوة للمؤمنين برسالته، فقراء كانوا أو أغنياء.

11- بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا.

ينتقل القـرآن مـن متابعـة أبـاطيلهم ويعلـن الجرثومـة التـي اسـتقرت فـي عقـولهم فأفسدتها، إنهم كذبوا بيوم القيامة وما يتلـوه مـن حيـاة أبديـة. وهـذه الحقيقـة يرفضـها الكفار رفضا كليا، وقدر الله أن يكـون جـزاء مـن كـذب بالبعـث والحسـاب والجـزاء نارا مستعرة يزداد لهيبها. كلما خبت زدناها سعيرا.

12- إذا رأتهم ..تغيظا وزفيرا.

عذاب جهنم المستعرة هو من أحوال الآخرة التي يقصر الفكر البشري عن تصوره التصور الكامل الكاشف. والقرآن يقرب شؤون الآخرة للبشر حسب قدراتهم العقلية واللغوية.

إذا رأتهم جهنم، وأحست بهم وهم ما يزالون بعيدين عنها، أو إذا رأوها هم من مكان بعيد جدا، وشأن البصر أن يدرك الأشياء من المسافات البعيدة التي لا يدرك السمع ما يجري فيها، ولكن البصر والسمع يتحد إدراكهما لقوة ما يصدر عن جهنم من دوي مهول عبر عنه القرآن بالتغيظ والزفير .والتغيظ وإن كان حالة لا تسمع إلا أنه مجسم للشدة، وقال النقاش الزفير صوت ممدود كصوت الحمار المرجع في نهيقه. وكل ذلك تقريب لسوء حالهم يوم القيامة وإحساسهم بعذاب جهنم قبل أن يدخلوها.

13-وإذا ألقوا منها....هنالك ثبورا.

بعد أن تزعجهم جهنم أشد الإزعاج من بعيد، يساقون علـى رغـم مـنهم إليهـا، ليقـذف بهم فيها قذف المهانة، ويُضيّق عليهم فيها، كل فرد منهم مقـرون إلـى مثلـه يضـيق بـه كما يضيق بمكانه. يستغيثون داعين أن يعجـل لهـم الهـلاك المبيـد ليسـتريحوا. دعـوا هنالك ثبورا.

14-لاتدعوا اليوم ...ثبورا كثيرا.

ويتلقّون الجواب عن ندائهم: لا تدعوا بـالهلاك مـرة واحـدة، ولكـن واصـلوا دعـاءكم وكرروه، فإنه عذاب أبدي لا يرفع عـنكم. فيجمـع الله علـيهم العـذاب الشـديد واليـأس من الفرج.

قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿15﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿16﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿17﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿18﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿19﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿20﴾

بيان معاني الألفاظ :

مسؤولا: تنفيذه محقق .

النسيان: الإعراض المتعمد.

الذكر : القرآن.

بورا: جمع بائر بمعنى هالك.

بيان المعنى الإجمالي :

قل للمشركين تهكما بهم: أيهما خير مالكم في جهنم التي وصفتُ شيئا من عذابها ومهانتها، أم جنة البقاء الأبدي التي وعدتها للمتقين، هي جزاؤهم تحببهم ويحبونها وهي المصير الذي ينتظرونه في شوق؟ أعددت لهم فيها كل ما يرغبون الحصول عليه، وهم خالدون فيها لا يتحولون عنها. تحقق الوعد مائة في المائة، كأنه وعد يطلبه الموعود فيستحقه بمجرد طلبه إياه.

واذكر يا محمد يوم نبعثهم من قبورهم وندفعهم إلى المحشر، يستوون في ذلك مع الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله، فيوقف المعبودون ونسألهم هل أنتم الذين أضللتم عبادي الذين أشركوا بي، ودعوتموهم لعبادتكم من دوني، أو هم وقعوا في الضلالة وتنكبوا طريق الحق باختيارهم ولم تؤثروا عليهم ؟ يجيبون بقولهم: ننزهك سبحانك أن يكون لك شريك، ولا يصح ولا يستقيم أن نعقد صلة بيننا وبين المشركين بحيث يكونون لنا تابعين. ولكن الفساد لحقهم من انغماسهم هم وآباؤهم في التنعم بما تفضلت عليهم، انغماسا أنساهم أنهم ما كانوا

ليحصلوا على ذلك النعيم لولا فضلك، فألهاهم عن التأمل في وحيك. ولأنه كان الهلاك والفساد مقوِّما من مُقوِّماتهم الأساسية. ويتوجه الخطاب للمشركين إثر ذلك؛ فضحتم فقد كذبكم من اتخذتموهم أربابا في أقوالكم، وهم لا يستطيعون أن يصرفوا عنكم ما يترصدكم من العذاب والخزي، ولا أن ينصروكم بشفاعة.

ثم رد القرآن ما اعترضوا به من أن الرسالة ينافيها أن يكون الرسول يأكل كما يأكل الناس ويمشي في أسواقهم، فأبان عن غبائهم، أو تعمدهم نكران الحقائق ؛ ذلك أنهم يعترفون بأنه قد سبق محمدا رسل، وأن هؤلاء الرسل كانوا بشرا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

والله أراد أن لا يمنع الكافرين من فتنة المؤمنين بما يسلطون عليهم من العذاب ومن التزييف. كما أن بعض المؤمنين كان فتنة للكافرين، إذ امتنع بعضهم من الدخول في دين الله لأن هذا الدين سبق أن اعتنقه كثير من المستضعفين، وهم تبعا لاستكبارهم لا يرضون أن يكونوا متساوين معهم.

أمر الله المؤمنين بأن يصبروا، وبشرهم بأن العاقبة لهم، لأنه سبحانه بصير بكل ما يجري في الحياة، وسيظهر في الكون آثار حكمته واقعا وزمنا.

بيان المعنى العام :

15- قل أذلك خير أم جنة الخلد...لهم جزاء ومصيرا.

اهتمام بمضمون الآية، لذلك أمر النبي ﷺ أن يصرح به. قل يا محمد للمشركين تهكما بهم: أيهما أفضل، جهنم التي كشفنا عما ينتظركم فيها من عذاب ومهانة، أم جنة الخلد التي لا يخشى داخلها انقضاء نعيمها، الجنة التي وعدها الله للمتقين وأعدها لهم جزاء تقواهم، إليها يصيرون، فهي تنتظرهم وهم ينتظرون دخولها، على عكس ما وصفت به جهنم من بغضها لداخليها وبغض داخليها لها؟

16- لهم فيها ما يشاءون ...وعدا مسؤولا.

ثم صرحت هذه الآية بكلمة جامعة، تذهب النفس في تصورها تدل عليه كل مذهب. استحقوا في الجنة أن يحصلوا على كل ما يشاؤون ويرغبون فيه. وقدم من ذلك، الخلود الأبدي في نعيمها، فارتفع ما يعكر على المنعَّم نعيمه، وهو خشيته من زواله، فنعيمهم لا أمد ينتهي إليه. هو وعد محقق حصوله لا ريب فيه، لأنه صادر من ربك، التزم به تفضلا منه على عباده. جسّمت الآية تحقق تنعمهم بما أعد لهم في الجنة، كأنه وعد يطلبه صاحبه فيستحقه. والحقيقة أنه لا شيء يجب على الله فالكل من فضله: الهداية والجزاء.

17-ويوم نحشرهم...أم هم ضلوا السبيل.

اذكر منذرا لهم يوم نبعثهم من قبورهم للمحشر، ونجمعهم فيه مع ما كانوا يعبدونه من دون الله، بما يشمل الأصنام، والملائكة، وعزيرا ،وعيسى؛ يوم يسأل الله المعبودين سؤال تقرير ليجيبوا عن أحد الشقين جوابا واضحا لا تتردد فيه. أإن ضلال الكفر والشرك الذي وقع فيه المحشورون من عبادي، كان مرتبا عن تأثيركم فيهم ، أم كان باختيارهم ، صادرا عن داعية ذاتية من تلقاء أنفسهم لا يد لكُمْ فيه؟

18 - قالوا سبحانك ما كان ....وكانوا قوما بورا.

علمٌ على تسبيح الله وتنزيهه من كل نقص، يستفتح به المتبرئ كلامه مبرزا تعجبه من القول الفظيع. يقدمه المعبودون من دون الله من العقلاء بين يدي كلامهم: فيقولون : إنه لا يتصور أن نتخذ عبادا يدينون لنا بالولاء والتبعية دونك ربنا ؛ أي ندرك تمام الإدراك أنك الله الذي تدين لك جميع الكائنات، فتكون تابعة لك مقرة بألوهيتك، وتبعا لذلك فإنه لا يصح ولا يستقيم بحال من الأحوال أن تكون صلتنا بأي مخلوق من مخلوقاتك، صلة التبعية لنا. تفضّلت علينا بالعصمة من الكبائر، ولا كبيرة أقبح وأسوأ من اتخاذ أحد من خلقك وليا لنا، ننصره وننضم إليه دونك. فهم يعلنون كذب من عبدهم ، وأنه تنصُّلٌ مفضوح من مسؤوليتهم ،ويقيمون بذلك الدليل على أنه لا يتصور أنهم كانوا راضين بذلك.

وإذا لم يكن سبب ضلال المشركين ما اقتروه من دعوتنا لهم لاتباعنا، فإنهم مسؤولون عن ضلالهم الذي بلغ من قبحه أنه لا يوجد متعلق لهم بالشرك إلا تنكرهم لفضلك عليهم وعلى ابائهم. فقد توالت نعمك عليهم وعلى آبائهم، فأعرضوا عن الذكر "القرآن" إعراض الناسي، والناسي لشيء لا يتأمل فيه وهو غائب عن استحضاره له. ولأنهم كانوا قوما هالكين في تفكيرهم وفي سلوكهم وبالتالي في المصير الذي هم آئلون إليه .

19 - فقد كذبوكم بما تقولون...عذابا كبيرا.

فُضحُوا بتكذيب الذين كانوا يعبدونهم، ويستندون إليهم بإعلان المعبودين أنه لا صلة بينهم وبينهم. فتوجه الخطاب إلى المشركين تبكيتا، لقد كذبكم في أقوالكم، الذين اتخذتموهم آلهة ، وأبطلوا دعواكم أنهم كانوا راضين بموالاتكم لهم وتبرأوا منكم. وهم معترفون مقرُّون أنهم لا يستطيعون أن يصرفوا عنكم العذاب، ولا أن ينصروكم بشفاعة أو يَقوُّوا جانبكم في هذا الموقف الصعب .

وأضاف لهذا التبكيت والتأييس المصور كأنه واقع عند نزول الآية ، التذكير بقاعدة العدل الإلهي: أنه من يظلم يجد جزاء ظلمه ، وأنتم قد فقدتم النصير والولي. وأنتم

ظالمون أسوأ ظلم. و مـن يظلـم مـنكم، نسـلط عليـه عـذابا كبيـرا يحـس بـه أبلـغ الإحساس.

20-وما أرسلنا قبلك من المرسلين...وكان ربك بصيرا.

يوالي القرآن الرد على المشركين وتبكيـتهم ،وإظهـار تصـوراتهم الخاطئـة، فقـد جـاء في الآية -7- استبعادهم أن يكـون محمـد رسـو لا لأنـه يأكـل الطعـام ويجـول فـي الأسواق ، وذلك في زعمهم ينفي أن يكـون رسـو لا. بينـت هـذه الآيـة فسـاد طعـنهم، بأنهم يعترفون أن الله أرسـل رسـلا قبـل محمـد، وأن هـؤلاء الرسـل كـانوا بشـرا؛ وبالطبع كانوا يأكلون الطعـام ويمشـون فـي الأسـواق لقضـاء مصـالحهم وللاتصـال بالأقوام الذين بعثوا لهدايتهم. فبان أن اعتراضهم هذا تشغيب لا أساس له .

لقد كان بعض المؤمنين فتنة للذين صمموا علـى الكفـر ، إذ قـدموا مبـررا لإعراضـهم: أن كثيرا من الذين سبقوا للإيمان ضعفة الناس الـذين ليسـت لهـم مكانـة اجتماعيـة فـي المجتمع القرشي الذي لا يقدر إلا القـوة الماديـة، كـبلال وصـهيب وآل ياسـر. كمـا أن بعض الكافرين الغلاظ كانوا يفتنون المؤمنين عن ديـنهم ويضـيقون إلـى التسـلط بـالقوة المادية، اختلاق الأباطيل . أمر النبـي ﷺ و المسـلمون أن يصـبروا علـى هـذه الفـتن، ويثبتوا على دينهم الذي من الله علـيهم بالاهتـداء إليـه. واعلمـوا أن الله لا يغيـب عنـه شيء، وأن لكل أمر أجله المقدر، فترقبوا النصر والتأييد.

۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الاستكبار : المبالغة في التكبر.

العتو : تجاوز الحد في الظلم .

حجرا محجورا : كلمة يقولها العربي إذا واجه عدوا له يخشى أن يقتله في الأشهر الحرم.

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن مُقترَحـا للـذين لا يرجـون أن يبعثـوا ليحاسـبوا، حاصـله: نحضـك يـا محمد أن تطلب من ربك أن ينزل علينـا ملائكتـه بدينـه، أو أن يخاطبنـا هـو مباشـرة. ما أشد وقاحتهم ! لقد عظُم كبرهم، وتجـاوزوا حـدهم، وظلمـوا ظلمـا كبيـرا، بتقـديمهم

هذا المقترح. نعم سيرون الملائكة، ولكنهم يوم يـرونهم سـيكون يـوم حـزن وأسـى لا يوم بشرى، وسيقولون بمجرد مـا يـرونهم هـذه الكلمـة التـي مـن عـادة العربـي أن يستعيذ بها عندما يرى ما يخيفه "حجرا محجورا" وأخبـر القـرآن أن الله قصـد إلـى مـا قاموا به من أعمال ظاهرها الخير ، فسحقها سحقا ، ذهبـت كـل آثارهـا. هـي كالهبـاء المتطاير في حزمة ضوئية نفذت من كوة فـي بيـت خافـت الضـياء . لا أثـر لهـا ولا وزن ، إذ لم تصدر عن عقيدة مؤمنة بالله

بيان المعنى العام :

21- وقال الذين لا يرجون لقاءنا...وعتوا عتوا كبيرا.

اعتنى القرآن بصفة خاصة في السور المكية بتسجيل اعتراضات المشركين، وتفنيد حججهم وإظهار باطلهم وتناقضهم؛ وجاءت هذه الآية من ذلكم النسق. إن الذين صفتهم المعرّفة بهم : أنهم لا يؤمنون منكرين أنهم سيوقفون لتحاسبهم ، قالوا: هلا أنزل الله علينا الملائكة لنؤمن بما جئت به ولا نجادل فيه . وهذا كلام متصل معنى بقولهم: مال هذا الرسول يأكل الطعام... قدموا البديل أن يتخير الله من ملائكته منْ يبعثه ليعرف الناس بالدين الذي يرتضيه. أو يتجلى لنا ربنا تجليا يخاطبنا مباشرة بدون واسطة. وعند ذلك نؤمن بهذا الدين الذي يصلنا عبر الملائكة أو مشافهة من الله .

العجب منهم، كيف بلغ بهم التكبـر الشـديد أن يعرفـوا الله العلـيم بأنـه كـان عليـه أن يتخير لرسالته ملائكة، أو أن يظهر لهم ويخاطبهم. لقد تجـاوزوا الحـد فـي الظلـم . هـم في آن واحد ظلموا الرسول فكذبوه، وظلموا ظلما صـارخا بسـؤالهم مـا لـيس هـم لـه أهل، بطلبهم أن يتحولوا عن طبيعتهم ليأخذوا عن الملائكة مباشرة أو عن الله.

22- يوم يرون الملائكة ...ويقولون حجرا محجورا.

ما أعظم جهلهم بالحقائق، وما أشـد غفلـتهم عنهـا! المشـركون الـذين طلبـوا أن يـروا الملائكة. أما علموا أنهم يوم يرون الملائكـة وسـيكون ذلـك يـوم القيامـة، تظهـر لهـم الحقيقة عارية، سيرونهم وقـد وُكّلـوا بعـذابهم، إنـه لا بشـارة لمـن أجـرم باسـتكباره وعتوه عندما يرى الملائكة، بل إنه سيستولي عليـه الحـزن وسيسـتعيذ مـنهم ، يتمنـى أن لو انصرفوا عنه، ويقول هذه الجملة التي من عـادة العـرب أن يسـتعيذوا بهـا ممـن يخشون بأسه في الأشهر الحرم "حجرا محجورا".

23- وقدمنا إلى ما عملوا...هباء منثورا.

ما كانت أعمال المشركين شرا مطلقـا، بـل كـانوا يـأتون بـبعض الأعمـال الصـالحة. كانوا يتولـون مـثلا سـقاية الحـاج، وإطعـام الطعـام، وإغاثـة الملهـوف، ويكرمـون

الضيف. وكان يطرق أسماعهم أن الله يجازي عن عمــل الخيــر، فظنــوا تبعــا لــذلك أن عاقبتهم آمنة بفضل ما قاموا من أعمال خيــرة. فــأعلن رب العــزة أنــه قصــد إلــى مــا قدموه مما حسبوا أنه يضمن لهم حســن العاقبــة، فســحقه ســحقا حتــى صــار كالهبــاء المنثور، وهو ما يرى من الأجزاء الدقيقة تتحــرك فــي الحزمــة الضــوئية التــي تــدخل من كوة بيت خافــت النــور. أي إن أعمــالهم لمــا صــدرت عــن عقيــدة كــافرة بــالله، وقطعت تبعا لذلك عن الله ولم ترتبط بالتقرب إليه، تحللــت مــن ذاتهــا ولــم يبــق منهــا شيء ينفع صاحبه.

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

مقيلا: الراحة بنوم القيلولة عند الظهيرة.

تشقق: تحدث فيها شروخ تفسد نظامها.

الغمام : السحب.

الحق : الخالص.

العض : الشد بالأسنان على الشيء.

ياويلتا : صيغة تحسر، بنداء الويل بسبب ما فوتوه على أنفسهم.

أضلني: سوّل لي الانصراف عن الحق.

الذكر : القرآن.

خذولا: ممعن في ترك نصرة المستنجد به .

المهجور :غير معتنى به. مبعدا مقصيا.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن فصل القرآن ما يلقاه المؤمنون مــن ضــروب التكــريم فــي الجنــة، ومــا يلقــاه المشركون من النكال والمهانة في جهــنم، قــارن بــين الحــالين وصــرح بــأن مســتقر أصحاب الجنة خير من مستقر أهل النار، تهكما بهم. ويضــيف أنهــم أحســن حــالا مــن

أهل جهنم عندما يستريحون في وقت الظهيرة. هذا الوقـت الـذي يتميـز فيـه المنعّمـون في الدنيا بتوفر أسباب الراحة والرفاهية.

و اذكر لهم اليوم الذي تحدث فيه شروخ فـي بنـاء السـماء، وتظهـر سـحب، وتتنـزل الملائكة تنزيلا حقيقيا. هو مشهد من مشاهد يوم القيامـة قرّبـه القـرآن حسـب المسـتوى الفكري والعادي للناس يوم التنزيـل، وإلا فـإن أمـور الآخـرة مختلفـة الاخـتلاف كلـه عن شؤون الدنيا وما يجري فيهـا. إنـه فـي هـذا اليـوم يتفـرد الله بالملـك الخـالص، بمعنى أن الناس كانوا يدعون لأنفسهم في الدنيا شـبهة ملـك، أمـا فـي هـذا اليـوم فـلا ملك لأحد إلا لله. ويكون يومـا شـديدا علـى الكـافرين إذ يـأتون للحسـاب مُعْـدمين لا يملكون ثوابا مدخرا.

في ذلك اليوم يعض الظالم عل يديه من شدة الأسف والأسى علـى مـا فـرط فـي الـدنيا، ويقول أسفا وحسرة: يا ليتني اتخذت مع الرسـول سـبيلا. متمنيـا أن يكـون قـد التـزم الطريق مع الرسول، الطريق الهادي إلـى الجنـة. ويواصـل تحسـره لاختيـاره خلـيلا فاسدا في الدنيا، عمل على تلبيس الحقيقة عليـه، فصـرفه عـن الطريـق المفضـي إلـى النجاة، إلى الطريق الذي ضاع فيه فلقة الضلال، ألهاه عـن التـدبر فـي القـرآن وهدايـة الرسول بعد أن كانت حاضرة قريبة منه. وهذا شـأن شـياطين الإنـس والجـن يخـذلون الناس فيوقعونهم في الخسران المبين.

يسجل القرآن أن النبي ﷺ توجه إلى ربه شاكيا موقـف قومـه مـن القـرآن، إنهـم قومـه الذي كان من واجبهم أن يلوذوا به ويسـمعوا لمـا يقـول، كـان مـوقفهم أن عملـوا كـل جهدهم ليكون القرآن مهجورا بينهم غير ملتفت إليه.

سلّى الله نبيه، بأن مـا لاقـاه هـو سـنة الله فـي المرسـلين قبلـه، أن كـل نبـي يقـوم المجرمون من قومه بمعاداتـه، وصـرف النـاس عـن هدايتـه. ويكفيـك أن ربـك هـو الهادي والنصير، مما يتضمن بشارة أن الله يُحوّل كثيرا منهم إلى الإيمان.

بيان المعنى العام :

24- أصحاب الجنة يومئذ ...وأحسن مقيلا .

في مقابل ما يلقاه المشركون في جهنم من العذاب والمهانة، يتميز أصحاب الجنة منعمين في قرار الكرامة. قد استقروا يوم القيامة في الجنة أكرم مقر على عكس مقر الكافرين في جهنم. ويصرح القرآن بأن الجنة خير من جهنم تهكما بهم. وأبرز من نعيم المكرمين بالجنة المعاكس لما عليه الكفرة، أنهم أحسن مقيلا، لتظهر المقابلة مع ما ذكرته الآية 13 وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا.

25- ويوم تشقق السماء...الملائكة تنزيلا.

ولمّا تعرض القرآن لتكريم الصالحين في نعيم الجنة يوم القيامة، وعذاب المشركين المكذبين بالبعث في جهنم، أضاف إلى ذلك عرض بعض مشاهد يوم القيامة مما يزرع المهابة والخوف من ذلك اليوم.

اذكر اليوم الذي تشقق السماء بالغمام؛ يُفْهَمُ المشهد على أن السماء تحدث فيها شقوق بسبب السحب، أو أن السماء تتشقق عن الغمام أي تبرز السحب. أودع الله في العوالم العلوية نظاما تسير عليه يحفظ لها بقاءها، ودور كل جزء منها في المجموعة الكونية مُقَدَّرٌ التقدير البالغ. أعلمت الآية أن السماوات يحصل فيها شروخ، وتظهر سحب، ويحدث عقب هذه الظواهر التي يختل فيها البناء العام للكون، إنزال الملائكة إنزالا حقيقيا "تنزيلا"، فيتحولون من مواقعهم التي كانوا يلازمونها في العالم العلوي، إلى مواقع جديدة يعينها لهم الخلاق العليم.

26-الملك يومئذ الحق...على الكافرين عسيرا.

في هذا اليوم ينفرد الله بالملك الحق الخالص، هو المالك وحده يوم الدين. ويبدو للعيان زيف ما كان يدعيه البشر من ملك ، قدموا معدمين للمحشر ، ليس لهم إلا ما قدموا من عمل . ومع تلكم الأهوال فإن الله يلطف بعباده الصالحين، ويكون يوما عسيرا على الكافرين ، لا يجدون فيه رحمة ولا فرجا .

27- ويوم يعض الظالم على يديه...مع الرسول سبيلا.

واذكر أيضا :أن في ذلك اليوم تستولي الندامة على كل ظالم مشرك، ويشتد أساه فيعض على يديه، لما تهيجت القوى العصبية في داخله، كما يصفق الخاسر بيديه، وكما تصحب الإشارة بالإصبع لاحتقار المخاطب ، وعض الأنامل عند الغيض قال تعالى: وعضوا عليكم الأنامل من الغيض سورة ال عمران اية119 ثم يخاطب نفسه خطاب من فوت الفرصة وأضاعها فخسر يقول : يا ليتني لازمت الطريق الذي سلكه الرسول فسلكته متبعا خطاه .

28-ياويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا.

وتتابع حسراته وقد واجه مصيره، ويتيقظ في نفسه تفريطه، زيادة في النكال به، فينادي من أعماق كيانه : يا ويلتا، يا سوء حالي، وهو تعبير عن التحسر والندامة البالغة ، ليتني لم أصادق فلانا، ولم أُقرّبْهُ مني، وأصافيه الود مطبّقا ما كان يشير به عليّ . يستحضر ما كان يجري بينه وبين خليله الذي كان يزين له الشرك، ويصده عن التأمل في كتاب الله ومضامين الدعوة الإسلامية، ويقويه على الصمود

في معاكسة الإسلام. وكلمة فلان تـدل علـى شـخص يحمـل علمـا (اسـمه الخـاص المعرف به "يرى المتكلم أن لا فائدة مـن تعيينـه. ونظـرا إلـى أن الآيـة تتنـاول كـل ظالم، وكل واحد له خليله الخاص، يكون مـن الدقـة فـي التعبيـر اختيـار لفـظ فـلان. وكل ظالم يذكر اسم خليله الذي كان يأنس به ويتبع ما يشـير بـه عليـه . ثـم يأخـذ فـي تعداد ما جره عليه من هلاك وخسران.

29-لقد أضلني ..للإنسان خذولا.

بكل تأكيد ما جنيت من صداقته إلا أنـه كـان يلـبس علـيّ الحقيقـة، ويصـرفني عـن الخير، وعن مواصلة التأمـل فـي الـذكر "القـرآن" الـذي وصـلني فيضـه، واسـتمعت لآياته، فقام سدا بيني وبينـه. ونقلنـي مـن طريـق الهدايـة إلـى الجنـة، إلـى طريـق الضلال المفضي إلى جهنم.

ويأتي القول الفصل من الله : إن من شأن الشيطان أنـه يخـذل صـاحبه أشـد الخـذلان. والشيطان يشمل شيطان الإنس المتمثل في خليل السـوء الـذي زيـن لـه التمـادي علـى الكفر، والإعراض عن القرآن وعن أضرب الهداية التـي كـان ينشـرها النبـي ﷺ فـي الناس. وكذلك شيطان الجن في وسوسـة إبلـيس الـذي تعهـد بـإغواء النـاس، وتـزيين الكفر وعبادة الأصنام.

30- وقال الرسول يارب إن قومي ...مهجورا.

صلة محمد ﷺ بربه صلة سمت إلى أعلى درجـات الإخـلاص والحـب. هـو مـع ربـه في أوقات الشدة وفي أوقات اليسـر والرخـاء، علـى حـد سـواء، يتوجـه لـه بالشـكر والعبادة ، ويلتجئ إلـى بابـه ليُسـعده بفـتح السـبيل الـذي يـذلل بـه الصـعاب التـي تعترضه، وخاصة في أعز شيء لديه وهو هداية النـاس للـدين الـذي ارتضـاه لهـم رب العالمين . سجل القرآن الشكوى التي توجه بها النبـي ﷺ إلـى ربـه لمـا قـال لـه : يـا رب ابتهالا ونداء ، نداء من ضاقت به السبل ، ولم يبـق لـه إلا الاسـتعانة بربـه الـذي عوّدهُ نصره وعدم إهماله ، يدعوه لنصره ويبـرأ لـه مـن تمـادي قومـه علـى الكفـر ، وخاصة موقفهم الرافض لهذا القـرآن العظـيم الـذي أبلغـتَهم آياتـه، وتلوتُهـا علـيهم ، وكشفتَ عن حقائقه، وقامتْ به المعجـزة المناديـة بصـدقه، عملـوا بكـل قـواهم علـى طمس تأثيره وصرف الناس عنه ، حتى انتهوا إلى هجره وعدم الالتفات إليه .

وتحتمل الآية أن يكون هذا التوجه منه ﷺ إلى ربـه يـوم القيامـة فيشـكو بعـض أفـراد أمته الذين تراخت صلتهم بالقرآن فكان مهجورا بيـنهم أو كـالمهجور. يقـول ابـن زيـد: هو تنبيه للمؤمنين على ملازمة المصـحف، وأن لا تكـون الغبـرة تعلـوه فـي البيـوت،

وتشتغل بغيره. وروى عن أنس حديث سنده ضعيف قال: من علق مصحفا ولم يتعاهده أتى يوم القيامة معلقا به، يقول: هذا اتخذني مهجورا اقض يا رب بيني وبينه .

31- وكذلك جعلنا لكل نبي...هاديا ونصيرا.

سمع الله شكوى رسوله وهو السميع العليم، فسلّاه بأن عليه أن لا يرهق نفسه بالأسف على قومه. إنه على هذا النحو كان موقف الأمم من رسلهم، كان المجرمون منهم أعداء لهم ، ومن طبع على الإجرام ، ومعاداة الفضيلة لا يعمل إلا على مقاومة الهداية ونشر الشر. ويكفيك أن الله هو الهادي للناس والنصير لجهادك. وفي هذه الخاتمة بشارة للنبي ﷺ أن الله سيفتح على قلوب كثير من قومه، الذين تولوا عنه اليوم ، فيهديهم إلى اتباعه وينقلبون بعد العداء إلى ناصرين لدين الله، مما يتضمن أمره بالتدرع بالصبر والمواصلة .

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا

بيان معاني الألفاظ :

لنثبت : لنبلغ فؤادك درجة اليقين الأيقن .

الفؤاد : العقل .

رتلناه: جعلناه حسن التأليف بين الدلالة.

التفسير : البيان والكشف عن المعنى.

بيان المعنى الإجمالي :

من الشبه التي ألقاها الذين كفروا قولهم: هلا أنزل القرآن مرة واحدة لا على هذه الطريقة من إنزاله مفرقا في كل مرة آية أو أكثر. وأجابهم القرآن بأن الله أنزله على الطريقة التي أنزل عليها لحكمة، هي أن يزيد عقل رسول الله وقلبه ثباتا بكثرة اتصاله بملك الوحي، ولأنها تثبت القرآن بصفة أفضل في نفسه. وقد جعلنا نظمه متناسقا رغم فواصل الزمن بين ما نزل من آيات السورة الواحدة.

إنهم مشاغبون لا يدفعهم إلى محاجتك وتقديم اعتراضاتهم إلا ما يلسقونه من شبه، وكن مطمئنا، فإني مؤيدك فكلما جاؤوك بشبهة دمغناها بالحق، وبما هو أحسن بيانا من بيانهم.

إن وقاحتهم سيجازون عنها، أنهم سيحشـــرون منكبـين علـــى وجـــوههم، يتقـــدمون علـــى هذا الوضع إلى أن يبلغوا مستقرهم في جهـنم . إنهـم لفـــي أســـوأ مكـــان، وإن الطريـــق الذي اتبعوه حتى بلغوا ذلكم المستقر لهو أضل السبيل.

بيان المعنى العام :

32- وقال الذين كفروا لولا ...ورتلناه ترتيلا.

بلغ بالمشركين العنـاد ومحاولـة صـد النـاس عـن القـرآن، أنهـم يتقـدمون بمتنـوع الاعتراضات، والتشغيب .و كلمـا قمعهـم التنزيـل وحطّـم تضـليلهم، اسـتنبطوا أمـرا جديدا، يظنون أنهم بذلك سيهدمون قـوة القـرآن وقدرتـه علـى الانتشـار فـي العقـول والقلوب. فممّا اعترضوا به أن قالوا: لو كان القـرآن منـزلا مـن عنـد الله، فـإن العقـل يوجب أن لا ينزله مفرقا، بل يبلغه جبريـل كتابـا كـاملا مجموعـا فـي زمـن واحـد. شُبْهَتَهُمْ أنه لما كان من عند الله وعلم الله لا يتجدد ، فهذا ممـا يؤكـد أن ينزلـه كمـا هـو موجد عنده ، أن ينزله مرة واحدة لا متتابعا في أزمان وظروف مختلفة.

على هذا النحو منجما أنزلناه، وذلك تبعا للحكمة التي غفلوا عنها التي منها:

أولا: أننا أردنا أن نجعل إنزاله متتابعا ،لكيلا يكون الاتصـال بينـك وبـين الـوحي عـن طريق جبريل منقطعا، بل كلما تنزل عليك في ظرف مـن الظـروف كـان ذلـك محييـا للاتصال بينك وبين الوحي، ويتكرر تلقيك لـه، وكلمـا تكـرر لقـاؤك مـع جبريـل زادك ذلك تثبيتا وتمكينا ، ذلك أن التلقي تسمو فيه القوى الروحيـة لتـتلاءم مـع ذلـك الظـرف

ثانيا: من ضروريات التعليم أن يكون متتابعا شـيئا فشـيئا، فيرسـخ فـي العقـل رسـوخا ما كان له أن يثبت لو ألقيت المعلومات مجتمعة.

ثالثا: أن الرسول ﷺ كان المرجع لأمته، يبـين لهـا بمناسـبة كـل مسـتجدٌ فـي الحيـاة المنهج الأمثل والطريـق الأفضـل، فكـان الـوحي يُتـزّل عليـه ليحقـق وفـاءه بتلـك المهمة. فلو نزل القرآن جملة واحدة، لما وجد فـي كـل ظـرف مـا يثبتـه ويكشـف لـه عن الحق في ذلك الظرف الخاص. وهـو مـا دون فيمـا عبّـر عنـه بأسـباب النـزول. ومن جهلهم تقديم هذا الاعتراض، ذلك أن كتـب الأنبيـاء السـابقين، ومـا بقـى موجـودا منها لم ينزل أيٌ منها جملة واحدة، فهذه سنة الله فيما ينزله على رسله.

ورتلناه، أي راعينا أن يكون مفرقا منسقا غيـر متـراكم ليـتم بـذلك الإعجـاز. إذ شـأن ما يؤلفه البشر، أنه إذا تباعدت أزمان ما بين الكـلام ظهـر عـدم الارتبـاط والفجـوة، أما القرآن فقد أنزلناه مفرقا على أزمنة، ومع هذا فأنـت إذا نظـرت إلـى السـورة كلهـا وربما نزلت في أزمة قد تكون متباعدة، تجد نسقها واحدا لا نشاز فيها ولا تقطّع .

33-و لا يأتونك بمثل ...وأحسن تفسيرا.

هذا رد عام يفيد أن كل معارضاتهم باطلة يكشف الله زيفها ، وبشارة للنبي صلى الله عليه وسلم ، أنه يبطل ما يقدمونه من أمثال، وشبه لا حقيقة لها . يبطلها بأن يوحي إليك، فيجيئك عن طريق جبريل الحق، الذي حاولوا تغطيته وطمسه. ويكون إبطال شبههم أحسن من العرض الذي صاغوا عليه شبههم ، العرض الذي بذلوا كل جهودهم فصاغوه صياغة جودوا فيها ما شاء لهم التجويد، فإذا جاء الرد عليهم زال ما كان في كلامهم من حسن ، كما سقط مضمون ما جاءوا به .

34-الذين يحشرون...وأضل سبيلا.

على إن وقاحة المشركين الذين ذكر القرآن صورا من مواجهتهم لرسول الله وللوحي المنزل بالتكذيب وتركيب الشبه ، استحقوا بذلك أن يحشروا يوم القيامة يمشون على وجوههم حتى يصلوا إلى مستقرهم في جهنم .تمت الصورة وارتسمت بهذا التعبير الدقيق فبلغت حدا :أن اصبحت حاضرة في النفس فأشير إليهم "أولئك" بأنهم في شر مكان وأقبح صورة ، تبعا لما اتخذوه من أشد الطرق ضلالا .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا (35) فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا (36) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (37) وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (38) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39) وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (40)

بيان معاني الألفاظ :

وزير: معاون لموسى في أداء مهمته .

التدمير : الإهلاك.

آية : دليلا واضحا على مصير المكذبين للرسل.

القرن : القوم المقترنون في زمن واحد، جمعه قرون.

التتبير: التفتيت و الإهلاك.

أمطرت مطر السوء :عذاب نزل عليهم من السماء في صورة حجارة من كبريت.

السوء : العذاب.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد آتينا موسى التــوراة، وأيــدناه بأخيــه هــارون ليكــون لــه مُعيناً ونصــيرا، وأمرناهما بــأن يتوجهــا إلــى فرعــون وقومــه المكــذبين بالأدلــة الواضــحة البينــة ، فبلغوهما ما أرسلتهما به، وأقاما علــيهم مــا ينفــي كــل شــبهة فــي صــدقهما، ولكــنهم كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا، وابتلعهم البحر، ولم ينج منهم أحد.

وكذلك فعلنا بقوم نوح لما كذبوا الرسل ، ونفوا أن يتخــذ الله رســولا مــن البشــر، فكــان مآلهم الغرق الذي لم يُبْقِ أحدا مــن المكــذبين. وهــذه هــي الطريقــة التــي نعامــل بهــا الظالمين. نسلط عليهم عذابا يحسون بألمه شديد الإحساس.

وكذلك أهلكنا قوم عاد وقوم ثمود وأصحاب الرس، وأممــا كثيــرة مضــت فــي التــاريخ بينها أزمنة متباعدة ،الذين رفضوا الاستجابة لهداية رسلهم. لقــد بينــا لهــم بيانــا يزيــل كل شبهة ويقرب كل بعيد ، فلما استولى علــيهم العنــاد فتتنــاهم تفتيتــا كوضــع البلــور المهشم. ومن العجيب أن قريشا تمر في ســفرها إلــى الشــام علــى قــرى قــوم لــوط ، ويرون الدمار الذي حل بقرية سدوم كبرى القــرى التــي أنــزل الله عليهــا حجــارة مــن كبريت ورماد، متتابعة من السماء كــالمطر. ســالهم ألــم يروهــا فيتعظــوا بهــا، وتكــون لهم مُوقظة لما يترصدهم من أن يحل بهم ما حــل بهــا ؟ولكــن الــذي حجــب بصــائرهم عن الاعتبــار: أنهــم كــانوا لا يرقبــون أن يبعــثهم الله ليحاســبهم عــن أعمــالهم يــوم النشور.

بيان المعنى العام :

قصص القرآن قد تأتي مفصلة، وقد تأتي لفترة مــن فتــرات الرســل، فتنبــه بمــا تقصــه على سنن الله في الكون، وتزجر المعانــدين بمــا يترصــدهم مــن ســوء العاقبــة الــذي سيحل بهم، كما حل بمــن قــبلهم. وتؤيــد المــؤمنين، وتثبّــت قلــوبهم علــى الصــمود ومواصلة الصبر. وقد يكون إعجاز القــرآن يقتضــي أن يعــرض القصــة فــي ومضــة خاطفة تلتقي فيها البداية والنهاية، لينذر المعاندين فلا يضــيع تــأملهم فــي ثنايــا القصــة، بل يهددهم بما يؤول إليه إعراضهم ســريعا، الــذي يــؤول بهــم إلــى مــا آل إليــه مــن قبلهم. وعلى هذا جاءت الآيات التالية.

35-ولقد آتينا موسى ....معه أخاه وزيرا.

من المؤكد أنا مكنا موسى من الكتاب المعتمد على وحينا. وهــو مــا نــزل علــى موســى عليه السلام يوم خاطبه ربه فــي الطــور، وتواصــل إنزالــه طيلــة فتــرة نبوتــه. ومــن الكتاب الوصايا العشر التي تلقاها يوم كانت بنو إسرائيل فــي التيــه. وفــي التــذكير بهــذا

من أول الأمر ما يدفع شغب المشركين فــي قــولهم: لــولا أنــزل عليــه القــرآن جملــة واحدة. فإن بين نزول الكتاب الذي أخبرت به هذه الآيــة لمــا كلفــه الله بتبليــغ مــا أمــر به إلى فرعون، وبين الوصـــايا العشــر فتــرة زمنيــة طويلــة، وكــل ذلــك مثبــت فــي التوراة.

وفي التذكير بجعل أخيه هارون معاونا مســاعدا لــه علــى القيــام بمهمــات الرســالة مــا يشير إلى الرد على المشركين لمــا قــالوا: لــولا أنــزل عليــه ملــك. فموســى ﷺ أُيــد بأخيه ، ولم يُؤيَّدْ بملك .

36- فقلنا اذهبا...فدمرناهم تدميرا.

أمرهما بأن يذهبا مبلغين ما أمــرا بتبليغــه إلــى القــوم الــذين يُعرِّفــون بــأنهم بــادروا وصمموا على التكذيب بآيات الله، فعجّــل الله عقــوبتهم بــالإهلاك المــدمر. وكمــا ذكرنــا في المفتتح أن نظم هــذه الآيــات لــيس التفصــيل، ولكــن فــي لمحــة خاطفــة يعــرف المشركين بمآلهم الذين سيكون على وزان مصير فرعون وملئه.

37 -وقوم نوح لما كذبوا...عذابا أليما.

يتابع عرض ما حاق بالمكذبين على نفس النســق الــذي عرضــت بــه قصــة موســى، فعطف على قوم موسى المدمّرين قــوم نــوح، كــان مصــيرهم واحــدا، بســبب تكــذيبهم للرسل. وقومُ نوح لم يكذبوا إلا نوحــا، ولكــن مقــالتهم تــدل علــى أنهــم لا يقبلــون أن يبعث الله بشرا رسولا: (ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم)[1].

هيأ الله لهم العذاب بسبب ظلمهم بالشرك الــذي هــو أعظــم الظلــم ، وبجــراءتهم علــى رسلهم . وهذا العذاب يشمل عذاب الدنيا، وقد تم بالغرق فــي قــوم نــوح، كمــا أخــذ بــه فرعون وأتباعه. ويفيد أنهم سيُعذّبون يــوم القيامــة أيضــا، العــذاب الألــيم الــذي يبلــغ الإحساس به أعلى درجات.

38-،39، وعادا وثمودا...وقرونا بين ذلك كثيرا.

علــى نفــس النســق هــددت الآيــة المشــركين، أن مصــيرهم كمصــير عــاد وثمــود وأصحاب الرس، ومصير أمم كثيرة بين نوح ومــن جــاء بعــده. أن الله دمــرهم تــدميرا أيضا. وأصحاب الرس: هم قوم تم تــدميرهم لتكــذيبهم رســولهم، هــذا مــا يــدل عليــه العطف على عاد وثمود. ويبقى السؤال من هم أصــحاب الــرس ؟ هــل هــو واد أهلكــوا فيه، أو هو بئر رموا فيه نبــيهم، أو هــو جانــب مــن بــلاد فــارس، أو هــو بئــر فــي أنطاكية؟ ذكرت له معان كثيرة. والــذي تــرجح عنــدي أن المخــاطبين بــالنص القرآنــي

[1] سورة المؤمنون آية 24

كان مصداقه معلومــا عنــدهم، وأن القــرآن هــددهم أن يكــون مــآلهم كمــآل أصــحاب الرس، وهم معروفون عندهم، ولما كانوا قوما هلكوا في التــاريخ ولــم يبــق مــن آثــارهم إلا ما تناقله الأخباريون عنهم، فلــذلك كثــرت الفــروض فــي تعيينــهم. ولا يهمنــا لفهــم النص القرآني تعيينهم.

وقرونا بين ذلك كثيرا – وبين تلك الأمــم التــي صــرحنا باســمها "قرونــا" أممــا كثيــرة أهلكناها. والقرآن لم يتعرض لها مفصّلة بل بالإشارة العامــة الدالــة علــى كثرتهــا وبُعْــد ما بينها في الأزمان. وهذا النص يدل على أن مــا يــذكره النســابون فــي كتــب الســيرة وفي كثير من كتب التفسير من ضبط سلســلة النســب لــبعض الأنبيــاء الضــاربين فــي آماد بعيدة، لا يطمأن إليه ، ومعظمه مأخوذ من التــوراة التــي لا نثــق بصــحة مــا ورد فيها لما دخلها من التغيير عبــر القــرون ، وضــياع الــنص الأصــلي المكتــوب باللغــة العبرانية القديمة التي لا يوجد اليوم من يعرفها.

ثم سجلت الآية عليهم أمرين :

أولهما: أن الله بيّنَ ما أنزله إلى كــل أمــة مــن الأمــم، فضــرب لهــا الأمثــال المقرّبــة للحقيقة البعيدة. ذلك أن المثل يتضــمن تشــبيه المعــاني، التــي ربمــا تستعصــي علــى بعض المخاطبين، بما هو قريب منهم حتى يتجلى المــراد وتتميــز دلالتــه بمــا ضــرب من مثل. فضرب المثل يدل على أنه راعى فــي خطــابهم مــا لا يعســر علــيهم إدراكــه مقربا له بضرب ما يشبهه ومقارنته به. وفي ذلــك تنبيــه لمشــركي مكــة أنهــم لا عــذر لهم في صدودهم عن قبول القرآن الذي يسر لهم إدراك مراميه بضرب الأمثال .

وثانيهما: هددهم بأن الأمم المذكورة بالنص والمشار إليها، قــد ســلط عليهــا مــن العقــاب ما فتتها تفتيتا" تبرنا تتبيرا"، أي سحقها سحقًا لم يُبْق لهم مقوما من مقومات الوجود.

40- ولقد أتوا على القرية ...كانوا لا يرجون نشورا.

ومن العجيب أن تجار قريش يمرون في طــريقهم إلــى الشــام علــى قــرى قــوم لــوط، ويشاهدون كيف تحولت إلى خراب. وأعظمها " ســدوم " أنــزل الله عليهــا مــن الســماء حجارة كبريتية تتباعت كالمطر. هو مطر العــذاب الــذي فتــتهم تفتيتــا كالزجــاج عنــدما يتحطم .ولكنهم لم ينتفعوا بتلكم المشاهد ، فصــدرت الآيــة علــى طريقــة التعجيــب مــن حالهم: أفلم يكونوا يرونها ؟إذ عــدم اعتبــارهم بالمشــهد جعلهــم كمــن لــم يــر الأثــر المحرك للاعتبار، فهو إنكار عليهم وتهديد لهم بأنــه ســيجري علــيهم مــا جــرى علــى سدوم. ثم انتقل البيان القرآني لإبراز ســبب عــدم اعتبــارهم : أنهــم كــانوا لا يؤمنــون بالبعث والنشور. وذلك هو الصارف لأبصارهم عــن التأمــل ولأذهــانهم عــن الاعتبــار.

فالذي قصُرَ ذهنه عـن تصـور البعـث والجـزاء لا يسـأل ولا يتأمـل فـي التحـولات والعواقب التي ترتبط بالمشاهد، ويختلط عليه الخير بالشر.

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

هزوًا: محل استهزاء وسخرية .

الصبر: الثبات على ما يشق عمله على النفس.

الوكيل : القائم على الأمر الناهض به .

بيان المعنى الإجمالي :

حارب رؤوس الكفر النبي ﷺ بجميـع الوسـائل ليحولـوا بـين الإسـلام ودخـول النـاس فيه. قاوموا بالحرب النفسية ، فمـن ذلـك أنـه إذا مـر علـى مجـامعهم أشـاروا إليـه باستهزاء قائلين: أهذا العبد البسيط هو من بعثـه الله رسـولا لـه ؟ لقـد كانـت لـه قـوة على الحجاج فقد كاد يبلغ مراده من إضلالنا عن عبـادة آلهتنـا، ولكنـا صـمدنا وصـبرنا على مقاومته حتى أنقذنا أنفسنا من خلابة لسانه، وبقينـا أوفيـاء لآلهتنـا. وجـوابهم عـن فساد تفكيرهم: أنهم سيعلمون يوم ينزل بهم العـذاب مـن السـائر فـي طريـق الهدايـة، ومن الذي أطبقت عليه الضلالة.

عجب من الذي صيّر هواه إلها معبودا؛ يتبـع فـي سـلوكه واختياراتـه مـا يمليـه عليـه الهوى، وتدعوه إليه شهواته. أفأنت تكون عليه فيما تعيـده إلـى سـلوك الرشـاد بعـد أن صمم على ذلك ؟ فلا تحزن عليهم .

أتظن أن أكثر المشركين ينتفعون بمـا يسـمعون، وتصـل آيـات القـرآن إلـى عقـولهم لتقيمها على ما يعود عليهم بالخير في الدنيا والآخـرة. لا ! هـم كالأنعـام التـي لا تعقـل ما تسمع، ولا تهتدي بالحجة والمنطق، بـل هـم أضـل مـن الأنعـام وأسـوأ حـالا. لأن الأنعام لم ترزق عقلا تفهم به وتتأمل ما يرد عليها مـن الآيـات البينـات، فلهـا عـذرها،

أما المشركون فهم قد عطلوا ما رزقهــم الله مــن قــوى عقليــة، وأصــموا آذانهــم عــن الاستماع إلى ما تبلغهم من الوحي الهادي.

بيان المعنى العام :

41-وإذا رأوك إن يتخذونك ...الذي بعث الله رسولا .

سجل القرآن ما كان يلقاه النبي ﷺ من أذى كفار قــريش ،ومنــه الحــرب النفســية ، فــإذا مر النبي ﷺ أمام مجمع من مجــامعهم ، رفعــوا أصــواتهم لإذايتــه والاســتهزاء بكــريم مقامه عند الله وعند المــؤمنين، مســتهزئين بــه، يتحــدثون فيمــا بيــنهم بمــا يُسْــمعُونه قائلين: أهذا المار أمامكم هو الذي بعثه الله رســولا يبلــغ كلامــه ؟ يلمزونــه بأنــه لعلــو أخلاقه يمر مر كــرام النفــوس الــذين طهــر الله قلــوبهم مــن الكبــر، ومظهــرهم مــن الخيلاء، لا يصعر خده للنــاس، ويخــالط الفقــراء والمستضــعفين. يــرون أن المســتحق لأن يكون رسولا، من كان علــى شــاكلة كبــرائهم المســتكبرين فــي الأرض المتعــالين عن الناس .

42 -إن كاد ليضلنا عن آلهتنا. ..من أضل سبيلا.

يقرنون إشارتهم إليه المحقــرة لشــأنه، بافتخــارهم بأنفســهم: أنهــم لقــوة بأســهم وشــدة شكيمتهم ثبتوا على عبادة أصنامهم. لقد قارب محمــد أن يضــلنا فيقطــع مــا بيننــا وبــين آلهتنا من صلات، ويُحوّلنا عنها، لكننا صمدنا، وصــبرنا علــى عبادتهــا رغــم تشــكيكه، ففوتنا عليه ما أراد أن يبلغه منا. يتولى القرآن الــرد علــيهم ، بمــا يشــير أولا إلــى أن تشددهم في الكفر أعمــى بصــيرتهم ، وحجــب عــنهم رؤيــة الحــق الواضــح، وأنهــم سيستمرون على ذلك ، إلى اليوم الــذي تتكشــف فيــه الحقيقــة الناصــعة، يــوم يــرون العذاب النازل عليهم الذي لا يستطيعون له مردا، فعنــد ذلــك يعلمــون مــن اتبــع طريــق الهداية المنجي، ومن اتبع طريق الضلال المردي .

43- أرأيت من اتخذ ... عليه وكيلا.

يخاطب القرآن محمدا صلى الله عليه وســلم فيقــول: أرأيــت، ســؤال تعجــب مــن أمــر قومه الذين كان شديد الحرص على هدايتهم. عجب أمر هــذا الــذي صــير إلهــه هــواه. الإله الذي لا بد أن يكون له من العظمــة والكمــال، مــا يســتحق بــه العبــادة ويوجــب التقرب، يجب أن يكون فوق العابد يحــتم كمالُــه الخضــوع لــه، ولكــن المعْــرض عــن دين الإسلام صيّر إلهه هوى نفسه؛ وما الهــوى إلا اســتجابة للغريــزة وتعطيــل للعقــل. أي جعل إلهه الشيء الذي يهوى عبادته دون تعقل. فــإذا أعجبــه مــا نحتــه مــن خشــب أو من رخام عبده واتخذه إلها. وإذا عرض له مــا يســتهويه أكثــر انتقــل إلــى عبادتــه.

ويحتمل أن يكون المعنى : أرأيت من اتخذ هواه إلهـا يطيعــه ، فهـو يسـير فـي حياتـه على اتباع الهوى والعواطف ودعوات الغريزة. والمراد مـن ألوهيـة الهـوى أنـه مطيـع له؛ والذي يتحكم في سلوكه، وفي علاقاته البشـرية هـو هـوى الـنفس، والعقـل مهـزوم أمام تمرد الشهوات ومطالب الغريزة .فالهوى شبيه بإلهـه بجـامع الطاعـة فـي كليهمـا. أتستطيع أن تكون وكيلا قائما على هـذا الـذي بلـغ مـن مسـايرته لشـهواته أن كانـت معبودته، أتستطيع أن تقف حائلا بينه وبـين مضـيه فـي طريقـه المنحـل. فهـو سـؤال إنكاري مساو للنفي: أي لا تستطيع ذلك.

44- وانتقل الكلام بواسطة "أم" ليجـري علـى نفـس الطريقـة قبلـه، سـؤال إنكـاري : أتظن وأنت تدعوهم، وتكرر دعوتـك، وتجهـد نفسـك لإقامـة الحجـج البينـة، وتلفـت أسماعهم إلى الآيات المحكمة في القرآن، أتحسـب أنهـم يسـمعون كلامـك، أو يفهمـون حديثك وما تريد أن تحرك به عقولهم ؟ لا شـيء يحصـل مـن وراء ذلـك؛ نعـم لهـم آذان ولكنها معطلة عن وظيفتها ، فلا تنفذ المسـموعات مـن خلالهـا إلـى العقـل الـذي يتأثر بها ويحللها. ومـن دقـة القـرآن أن نسـب هـذا التعطيـل لأكثـرهم، لأن مجتمـع الكفر كان بعضهم له من النباهة والقـدرة علـى التفكيـر مـا تتحـرك بـه قـواه العقليـة ،ولكن حظوظ الرئاسة وأنفـتهم مـن انقلابهـم تـابعين صـدتهم عـن الإيمـان؛ والحالـة المشنع بها هي حالة الدهماء الذين وصفهم القرآن بأنهم أشـبه مـا يكـون بالأنعـام التـي تسمع صوت من يسوقها فتستجيب له، بل إن هؤلاء أحـط مـن الأنعـام، لأن الأنعـام قـد تفهم من رعاتها ما يدفعها إلى التجمع أو ورود المـاء ونحـو ذلـك، وهـؤلاء لا ينتفعـون بشيء مما يقرع أسماعهم من الإرشاد والتبيين.

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

المد : البسط مثل مد اليد.

القبض: ضد البسط، النقص.

يسير: يحدث شيئا فشيئا.

لباسا: ساترا.

سباتا : كلمة تشير إلى معان عديدة، أقربها للنص الراحة.

أرسل : وجّه.

نشرا : تبسط السحب.

رحمته : المطر.

طهورا : بالغ أعلى حدود الطهارة، والصفاء.

بلدة : البلد .

الأناسي : البشر.

بيان المعنى الاجمالي :

انتبه لتكون واعيا لهذا المظهر المتجدد كل يوم، والذي قد يكون تكرره بصفة منتظمة يغطي ما فيه من عجائب الصنع. ألم تر يا محمد وكل من يمكن له أن يرى ببصره ويعي بفكره، الطريقة التي يتصرف بها الله فيمد الظل على البسيطة كل صباح بين الفجر وطلوع الشمس ،وانتبه إلى أن هذا الظل يسير مع قانون الكون فهو غير ساكن ولا ثابت ،هو فوق ذلك مرتبط بالشمس تحوله وتزيله ، ومن هذا الارتباط اكتشف الإنسان مقدار الدقة في التنظيم الكوني- وفوق ذلك أن نقصانه يعود به إلى تصرفنا فيه، فهو نتيجة حركة كوكب الأرض، يتم في لطف وفي يسر لا يحس به إلا البصر والفكر. فسبحان الله مدبر الكون ومجريه على نظام لا يختل. إن من ألطافه التي يسرها لكم، أنه جعل لكم الليل ساترا لما يحويه الكون فتأخذ الحواس في الهدوء وتتهيأ للنوم الذي يقطعها عن العالم الخارجي، فتأخذ حظها من الراحة، ليعود لها نشاطها من جديد في النهار ، وقد ارتفع لباس الليل، فتنتشر في الكون كما يبعث الموتى من قبورهم بعد غيابهم عن العالم .

واختص سبحانه بتوجيه الرياح لتبسط السحب بسطا يبشر بقرب رحمته، فيهيئها لنزول الماء منها، الماء الذي بلغ من النقاوة ومن الصلاح ومن الطهر أعلى الدرجات؛ يلائم مختلف طبائع البشر والحيوان والنبات. يحيي به الله البلد الميت الذي جرده المحل من كل ظاهرة حياة، فتسري بعد نزوله الحياة في جنباته بالنبات والحيوانات الراعية، والبشر العامل. تحصل لهم به السقيا مباشرة أو بما يختزن فينبع منه العيون وتجري به الأنهار، وتمتلئ منه السدود والصهاريج.

إن توزيع مياه السحب على الأرض يجري بقدر مـنْ منظـــمّ الكـون، وفــي ذلـك مـا يدعو الإنسان للتفكر، فوجود السحاب والرياح فقـط لا تنــزل بــه الأمطــار، بـل لا بـد من أن تتعلق الإرادة والقدرة الربانية بــذلك ؛ وإلا فكثيــرا مــا تنشــأ الســحب وتتحــرك الرياح فتمزقها ولا تبض ولو بقطرة من ماء . ولكــن كثيــرا مــن النــاس صــمموا علــى الكفر، وعزلوا ظواهر الكون عن الفاعل فيهــا، الــذي يجعــل الأســباب الظــاهرة منتجــة أو عقيمة.

بيان المعنى العام :

45←46: ألم تر إلى ربك ...قبضا يسيرا.

نعت الآية السابقة على الكافرين ضلالهم وعبــادتهم لشــهواتهم، وانحــرافهم عــن التــدبر في ما نزّل إليهم من الحق ،وأنهم بذلك ساووا الأنعــام بــل هــم أضــل، إذ لــم يسـتفيدوا من الإمكانات التي خصهم الله بها . وواصلت هذه الآية لفــت الأنظــار إلــى مظهــر مــن مظاهر الكون يفضي بالتأمل فيه إلى الإيمــان بــالله، وتخصيصــه بالعبــادة. وتلــك فــي ظاهرة الظل .

افتتحت الآية بلفت الأنظار وإثارة الانتباه لهذه الظاهرة التــي تتكــرر علــى الكــون كــل يوم في نظام لا يختل، فتحرك حوامد حواسنا التي نوّمها طــول الألفــة فغطــي علــى مــا فيها من عجيب التقدير. وقد جاءت صياغتها علــى طريقــة الســؤال الــذي يثيــر الــذهن ولا يتطلب جوابا. توجّه السؤال إلى النبي ﷺ أولا، ثــم لكــل مــن تصــح منــه الرؤيــة. وهي صالحة للرؤية البصرية باعتبــار أنهــا ظــاهرة مرئيــة، وصــالحة أيضــا للرؤيــة العلمية، بالنظر إلى مصدرها وهو " ربك " ألم تعلم. لتشــمل الغافــل تحريضــا لــه علــى النظر، وتشمل الجاحد منكرة عليه إهمال التأمل ، والموفــق ليتعمــق فيظفــر بتأكيــد بــرد اليقين ويزيد الله الذين آمنوا إيمانا. فما هي هذه الظاهرة ؟

يترجح عندي أن هذه الظاهرة حسب التعبيــر القرآنــي تسـجل وضــع الكــون مــا بــين طلوع الفجر، وشروق الشمس، عندما ينسحب علــى البســيطة ظــل مديــد عــام شــامل. هو مظهر الكون وقد تقشــعت الظلمــة الحاجبــة، وأخــذ البصــر يحــس بــالموجودات . وينبهك القرآن في رفق كرفق ظلال الصبح قبل طلــوع الشــمس، إلــى أن هــذا الوضــع ينسحب عليه القانون الذي أجرى عليه الباري سبحانه بنــاء الــدنيا : كــل شــيء يتحــرك حركة تفضي به إلى الزوال . إن الظل المديد لم يــرد الله أن يجعلــه خارجــا عــن ســنة الكون، باقيا على وضعه، ســاكنا لا يتحــول؛ بــل أراد أن يجعلــه متحركــا يســير إلــى الزوال. وكيف يتم ذلك ؟ إنه فوق ما تمثلــه الصــورة التــي تلــف الكــون كلــه ، نظــم

الخلاق العليم الشمس مــع الأرض تنظيمــا جعلهــا تأخــذ ذلــك الظــل فتحركــه حركــة مقدرة تقديرا دقيقا ، فإذا هــو يعطينــا ضــبطا للــزمن ، بنــى عليــه الفلكيــون الســاعة الشمسية " المزولة" البالغة من الدقــة أقصــى حــد. وظــاهرة أخــرى لا يــدعنا القــرآن نغفل عنها، هي أن تلكم الحركة وانقباض الظــل وغــزو أشــعة الشــمس لمســاحاته يــتم بيُسّر عجيب. إن تحرك الظل التابع لحركة الأرض كلها بانتقالهــا مــن موقــع إلــى آخــر بالنسبة للشمس، إن تصور الأرض بجبالها ومحيطاتهــا ومــا هــو علــى ســطحها، ومــا هو في باطنها ، كل ذلك يتحرك ليتحرك بحركته الظــل، ينبهنــا القــرآن أنــه رغــم أنــه تحول عظيم جدا ، فإنه يتم تحقيقه بيسر ، بحركة متتابعــة بــلا طفــرة، وبــدون اهتــزاز ولا ارتجاج. وانتبه إلى قوله تعــالى: اليَنــا، ومــا يشــير إليــه مــن أن التــدبير الإلهــي يتجدد مع كل لحظة ، تبارك الله مدبر الكون ومجريه على أتم نظام وأكمله .

47- وهو الذي جعل لكم....وجعل النهار نشورا.

يواصل القرآن لفت الأنظار لتتعمق في مظــاهر الكــون فــأتبع ظــاهرة الظــل بظــاهرة تقلب الكون بين الليل والنهار ، وما في كل منهما من نعمة ولطف بالإنسان.
تفرد الله بالتصرف المقدر لكل شيء ولآثاره ولعلاقتــه بغيــره. فهــو وحــده الــذي جعــل الليل ساترا، كأن الكون كله وما فيه يلبس لباســا يحجبــه عــن الأنظــار. وبهــذا الســتر الحاجب تجد الحواس راحتها من متابعة الموجودات، فتهــدأ بعــد نشــاط لازمهــا فتــرات النهار .فيتلو فترة ستر الكون بالليل إعــدادُ الإنســان لينقطــع شــعوره بمحيطــه، وأعقــب بحكيم تقديره ذلك بالنوم، وأبدع في التعبير عن أثــره بأنــه ســبات قــاطع للإنســان عمــا يجري حوله، وقاطع للإنسان عن اليقظة، الحالة التــي تشــبه المــوت، وهــو مــا تشــير الآية : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فــي منامهــا فيمســك التــي قضــى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مســمى إن فــي ذلــك لآيــات لقــوم يتفكــرون)[1]
وبنفس التقدير المحكم قابل سبحانه الانقطاع بالنوم الشــبيه بــالموت ،قابلــه ببعــث النيــام بتأثير ضوء النهار ،لينشطوا في الحياة ويسعوا في كون الله مــن جديــد .وفــي ذلــك مــا يبعث العاقل على التدبر في هذه الظاهرة التــي تقــرب لــه فهــم البعــث يــوم القيامــة ، واختيار كلمة النشور من بديع التعبير القرآني يقرب استحضار هذه العقيدة .

48-‹49، وهو الذي يرسل الرياح...وأناسي كثيرا.

من تقلبات الكون التي تفرد سبحانه بتسييرها ، ظــاهرة الريــاح التــي يحركهــا فتجــري حسبما حدده لها. هذه الحركة التي يحدثها سبحانه في الهــواء حســب قــوانين هــي مــن

---

[1] سورة الزمر آية42

عجيب صنعه أيضا، فيؤثر بها في تكوين السحب وتجميعهـا ، تنتهـي إلـى إنـزال المـاء من السماء ، إذا أراد ذلك . وخـص المـاء النـازل مـن السـماء بكونـه بالغـا أعلـى درجات الصفاء الذي يؤثر في غيره فيكسبه الطهارة بعـد القـذارة؛ ثـم هـو يـؤثر فـي الأرض فيختلط بها محييا بعد أن كانت ميتة قاحلة، بمـا ينبـت فيهـا مـن عشـب، ومـا يتبعه من انتشار الأنعام في أرجائها تحيا بمـا ترعـاه، فتنجـب وتتكـاثر. ثـم هـو سُـقيا للأنعام وللبشر التي رحمها بماء السماء لأنها خلقـه، ولا أرحـم بالعبـاد مـن خالقهـا. إن ذلك يقوم دليلا على تفرد الله بالتصرف فـي الكـون، وعلـى ربـط الظـواهر ببعضـها ليرتب عليها من الحوادث ما قـدره بحكمتـه أحسـن التقـدير. ومـن قطـرات الأمطـار جرت الأنهار العظيمة، واختزن باطن الأرض مـا اختزنـه، واحـتفظ الإنسـان بكميـات كبيرة في الصهاريج والسدود.

50- ولقد صرفناه بينهم...إلا كفورا.

هذه الرياح تثير السحب وتجري بها في السماء، فتـروي مكانـا وتنـأى بهـا عـن مكـان آخر ، اختص الله متشـئها بالتصـرف فيهـا. إن فـي ذلـك مـا يـوقظ البشـر إلـى أن الظواهر الكونية ليست فاعلـة وحـدها بـذاتها، ولا تترتـب عليهـا آثارهـا علـى أنهـا أسباب كاملة، لكن الذي يعطيها فاعليتها هو خالقها سـبحانه. تـرى السـماء وقـد تلبـدت بالسحب، وتحركت الريح تـؤذن بقـرب نـزول الغيـث، وإذا بـالريح تمـزق السـحب وتبقى الأرض عطشى ، وقد تلين السحب وتغـذيها برطوبـة جامعـة، فيتـدارك المطـر، ويعم الخير .إن هذا التصريف هو مثير للتـذكر والتـدبر، والتوجـه إلـى الله بالاسـتغفار ورد الأمر إليه والأمل في فضله ، في الحالـة الأولـى ، وشـكره علـى نعمتـه بـالقول والفعل. إن هذا الموقف العاقل رفضه أكثـر النـاس واختـاروا شـيئا واحـدا هـو الكفـر الشديد، ونسبة تلكم الظـواهر إلـى الطبيعـة التـي لاعقـل لهـا ولا إرادة، ولا صـورة واضحة في عقولهم . أخذ بهذا المفهوم للتصريف معظم المفسرين.

و ذهب ابن عباس رضي الله عنهمـا إلـى أن الضـمير فـي صـرفناه للقـرآن، وإن لـم يتقدم له ذكر لوضوح تعلقه بذلك. وهذا الفهم أولـى بـالقبول. وذلـك لأن كلمـة صـرّف مشددة الراء وردت خمس مرات في القرآن متعلقهـا القـرآن ولقـد صـرفنا فـي هـذا القرآن ليذكروا[1] - ووردت في هذه الآية متعلقهـا الضـمير "صـرفناه" فجعْـل الضـمير جاريا على نسق واحد مرادا به القـرآن أقـربُ. ومـن ناحيـة أخـرى فـإن هـذا الفهـم يجعل اتصال الآية بما بعدها لا إشكال فيه. فيكون معنـى صـرفناه بيـنهم، نوعنـا إيقـاظ

[1] سورة الإسراء 41

الناس بواسطة آيات القرآن، إلى مختلف المظاهر الكونية، والأدلة العقلية ليذكروا فيؤمنوا بأن الله واحد فاعل سبحانه لا شريك له، ولكن أكثر الناس امتنعوا من الالتفات إلى أي أمر، ولا إلى أي موقظ، إلا إلى شيء واحد هو الكفر، صمّمُوا عليه وأعرضوا عن غيره. كما ذهب ابن عباس إلى أن الكمية النازلة من السماء على الأرض واحدة لا تزيد ولا تنقص، وإنما يصرفها الله فيسقي بها من يشاء ويصرفها عمن يشاء، أو يذهب بها إلى الصحاري والبحار فلا ينتفع بها الناس إذا تعلقت إرادته بامتحانهم بالشدة .

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (51) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52) ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (53) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (55) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (57)

بيان معاني الألفاظ :

الطاعة : عمل المرء ما يطلب منه.

الجهاد : اسم يجمع بذل منتهى الطاقة لتحصيل أمر.

المرج : الخلط.

البحر : الماء الكثير العظيم.

العذب : الخالي من الملح .

الفرات : شديد العذوبة.

الأجاج : شديد الملوحة.

البرزخ : الحائل بين الشيئين .

حجر محجور: تنافر مفرط.

النسب : الرابطة بين الأب وما علا عنه وما نزل منه وما توسع على جانبيه.

الصهر : العلاقة بين الزوج وأسرة زوجه.

ظهيرا : معينا.

الأجر : الجزاء بالعوض عن العمل.

السبيل : الطريق .

بيان المعنى الإجمالي :

لقد اخترناك للمهمة العظيمة التي كلفناك بإبلاغها للبشرية جمعاء. فلا تهن واصبر على مواصلة الدعوة، فإن الحكمة كل الحكمة فيما اصطفيناك له، ولو بعثنا في كل قرية نذيرا يوقظهم لما اختلف الأمر. فاثبت، ولا تطع الكافرين فيما يحاولونه من مصانعتهم. إنك مؤيد بالقرآن فجاهدهم بآياته، وحقائقه، ونذره، حتى ينهار ما يستندون إليه من العادات، والتقاليد، وباطل العقيدة.

وتفرد الله بجعل البحار متجاورة مع الاختلاف الكبير بينها. أحدهما عذب شديد العذوبة ، والآخر ملح شديد الملوحة .و رتب ببالغ حكمته بينهما برزخا حاجزا يمنع تغلب أحدهما على الآخر، وأبقى على خصائصهما رغم التجاور والتنافر في طبيعتهما. وذلك مما يثبت تفرد الله بالتصرف في الكون.

وينقلنا القرآن من البحار الكبيرة ليرينا آثار قدرته فيما هو أعجب من ذلك، في الماء الذي خلق منه الإنسان، طوّرته يد القدرة الإلهية إلى أن أصبح منتجا لتنفس النوع البشري، وأضاف إلى ذلك أنه كوّن روابط من النسب والمصاهرة تألفت منها الأسرة، ثم المجتمع، ثم الأمة، مما ترتب عنه بناء صرح الحضارة الإنسانية. وما تم هذا التحول من الماء إلى المجتمع الإنساني بإنجازاته وترابطاته إلا بفضل ما أثرت به يد القدرة الإلهية. هذه القدرة التي تثبت صفة من صفات الله منذ الأزل.

أعرض الكافرون مع هذه الشواهد من ظواهر الكون، ومن البيان القرآني المعجز عن عبادة الله، وعبدوا أصناما من دونه، أخص صفاتها عجزها عن نفع عابديها إذا هم تقربوا إليها، وعن ضرهم إذا هم أعرضوا عنها .وبلغ الجحود بكل كافر أنه يقدم وينصر أعداء ربه ،الذين خلقهم ورزقهم ولطف بهم ، من البشر والأصنام.

يذكّر الله نبيه بما يؤنسه ويرفع عنه الحزن من إعراض قومه. يذكره بأنه ما كلف هداية الناس، وإنما مهمته منحصرة في تبشير المؤمنين ليثبتوا على ما اهتدوا إليه، وفي إنذار الكافرين سوء العاقبة ليقلعوا عن ضلالهم عقيدة وسلوكا.

قل لهم :إني لا أرقب من أي منكم أن يدفع لي أجرا عما أقوم به. إن كل سعادتي أن يهتدي الناس إلى اتباع الطريق الذي يرضي ربهم.

بيان المعنى العام :

51- ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا.

إذا كان القرآن كما خرجنا عليــه الآيــة الســابقة صـــالحا لهدايــة البشــرية جميعــا، وأن إعراض أكثر الناس عنه إنما كــان تبعــا لعنــادهم؛ فاصــبر ولا تضــجر مــن ذلــك. إن إفرادك بالرسالة هو الحكمة. فإنه لا يعجزنـــا أن نبعــث فـــي كــل بلــدة نــذيرا يعــرفهم ويحذرهم من سوء العاقبــة .علــى معنــى أن تصــميم الكفــار علــى رفــض الهدايــة لا يتغير لو تعدد المنذرون.

52- فلا تطع الكافرين...جهادا كبيرا.

اثبت على ما كلفناك به، ولا تطع الكافرين فيما يحــاولون جلبــك إليــه مــن مصــانعتهم، بعدم التعرض لآلهتهم، وما جروا عليه من العــادات الســيئة والأخــلاق الفاســدة كــالكبر والظلم واحتقار الفقراء. ولتكن عزيمتك أمضـــى مــن كيــدهم فــلا تهــن فــي مواصــلة الدعوة إلى ما جاءك مــن الحــق. وقــد أيــدناك بــالقرآن فجاهــدهم بأدلتــه وبحكمتــه، وقابلهم بقوارع نذره . اصــبر وكــرر علــى أســماعهم الــوحي الصــادق، حتــى يهتــز فيسقط ما استندوا إليه من العادات والتقاليد.

53- وهو الذي مرج البحرين...وحجرا محجورا..

من مظاهر التقدير العجيب الذي اختص به الله، ولا يســتطيع أحــد أن يــدعى لــه شــركا فيه، أنه سبحانه جاور في كثير من نــواحي الأرض بــين بحــرين أحــدهما عــذب شــديد العذوبة خال مــن الملــح، والآخــر شــديد الملوحــة. كلاهمــا مــاء، وكلاهمــا متصــل بالأرض. ثم إنه مع إعطائه الخصائص لكل منهما، جعــل بينهمــا حــاجزا يمنــع أحــدهما من التغلب على خصائص الآخر وتحويله إلى جنســه بــل يمضــيان فــي الوجــود هــذا عذب وهذا ملح، ينتفع الناس من كل منهما رغــم مــا بينهمــا مــن التنــافر. فمــن المــاء العذب يرتوي الإنسان والحيــوان والنبــات. والمــاء الملــح هــو الــذي يحفــظ للبحــار والمحيطات بقاءها دون أن يفسدها ما يقع فيها.

فتضم هذه الآية للآيات السابقة التي أبرزت تفــرد الله بالتصــرف فــي الكــون بالحكمــة، واجتثت الشرك من أصله، لما كانوا لا يستطيعون أن ينســبوا شــيئا مــن هــذه الظــواهر إلى آلهتهم. وعجزها ينفي ألوهيتها، إذ من التناقض الجمع بين الألوهية والعجز.

54- وهو الذي خلق...وكان ربك قديرا.

لا يزال القرآن يترقى لافتا الأنظار إلى ما في كتاب الكــون مــن آيــات مثبتــة لتفــرد الله بالألوهية والقدرة والحكمة. فنبه بهــذه الآيــة إلــى أن المــاء الــذي كــون منــه البحــار العذبة والملح ، كون منه ما هو أعجب وأسمى ، كــون الإنســان مــن نطفــة مــن مــاء ، فمن ماء الرجل وماء المرأة بما فــي كــل واحــد منهمــا مــن الخصــائص يقــدر الله أن

يحصل من تلاقيهما الإنسان . وفي لمح البصر تنقلنا الآيـة إلـى أطـوار نضـج النطفـة، فإذا تلك النطفة من الماء تقوم بإعـادة الرحلـة التـي انطلقـت منهـا ، فيصـبح الإنسـان منتجا لذرية جديدة تخلفه وتوا صـلُ عمـارة الكـون ، هـو أب وابـن وأخ وعـم وجـد، فهو نسب ، وهو في الآن نفسه صهر لعائلة أخـرى ينجـب مـع أنشـاهم وتتسـع العلاقـة بالمصاهرة . وبذلك تتكون الأسرة، ثـم المجتمـع بمختلـف درجاتـه، ثـم الأمـة التـي تواصل البناء الحضاري للإنسـانية. هـو هـرمُ الحضـارة، قاعدتـه الأولـى النطـف، وقمته ما يتولد عن الترابط الأسري ثم المجتمعـي مـن المنجـزات العمرانيـة الضـخمة. وأنت إذا تأملت ما بين المنطلـق "المـاء " ومـا أنتجتـه الحضـارة الإنسـانية المواصـلة للتجويد والسمو بمكتسباتها، لا تجد أبلغ تعبيـر عـن الإحسـاس الغـامر بـذلك إلا قولـه تعالى : وكان ربك قديرا .نعم هي القدرة التي تتصـرف تصـرف الحكمـة التـي نفـذتْ عمران الكون بالجنس البشري من الماء .

55 -ويعبدون من دون الله...على ربه ظهيرا.

تشنع الآية على الكفـرة انصـرافهم عـن عبـادة الله، وتـوجههُم إلـى الأصـنام. إنهـم يعبدونها ويتقربون إليها، وهـي لا تسـتطيع أن تـنفعهم ، فـلا يرجـى منهـا أي عـون على تحقيق مرغوب فيه، كما أنها لا تستطيع دفع أي مكروه عن عابديها .
والعجب من أمر كل كافر، أنك تجده ينصر الأصـنام علـى ربـه الـذي أحاطـه بألطافـه فبلغه المستوى الذي هو عليه.

56- وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا.

هذه الآية تبين حقيقة تقلع إنكـار الكـافرين ، وتـؤنس النبـي ﷺ فهـي تـذكره بالمنزلـة التي تخيره الله لها. هي مسؤولية دعوة الخلـق دعـوة عامـة، والنـاس علـى قسـمين : مؤمن وكافر. فهو ﷺ يبشر المؤمنين بالرضا فـي الحيـاة الـدنيا وبالجنـة يـوم القيامـة. وينذر الكافرين بالحيرة والقلق في الدنيا والعذاب المهـين فـي جهـنم يـوم القيامـة. هـي تؤنسه لأن الله الذي أرسله لم يحمّله الهداية الفعليـة للنـاس، وإنمـا حملـه الـبلاغ، وقـد قام بذلك أحسن قيام .

57- قل ما أسألكم عليه من أجر ...إلى ربه سبيلا

أعلنْ لهم قائلا: إني لا أطلب منكم جـزاء مـا محضـت لـه نشـاطي، وقصـرت عليـه تفكيري في الحياة. أنا لا أطلب ولا أرقب من أحـد مـنكم أن يقـدم لـي أجـرا. إن كـل همي، وما يسعدني في الحياة إلا شيء واحـد، أن تهتـدوا إلـى الطريـق الـذي يصـلكم بخالقكم، فتؤمنوا به، وتستقيموا في حياتكم على الوجه الذي يرضى عنه .

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

التوكل : الاعتماد.

سبح بحمد ربك: نزهه تنزيها مصاحبا للثناء عليه.

كفى: لا يحتاج لغيره.

الخبير : الدقيق علمه .

نفورا : فرارا وبُعدا.

بيان المعنى الإجمالي :

اعتمدْ الاعتماد كله على ربك الذي لا يغيب عنه شيء مـن أمـرك. فهـو الكامـل الـذي وجبت له الحياة الأبدية السرمدية، الحيـاة التـي لا يلحقهـا غفلـة ولا ذهـول. وواصـل في نفسك تنزيهه عن كل نقص قارنا ذلك بالثناء عليـه. ولا تحـزن مـن سـوء أعمـالهم، فإنهم في قبضة الله الذي لا يغيب عنه مـن أفعـالهم ولا مـن مقاصـدهم شـيء. وكفـاك ربك نصيرا. هو الذي تعلقت إرادته بخلق السـماوات والأرض خلقـا متـدرجا فـي سـتة أيام، ثم خلق العرش وأخضعه لجلاله ؛ هو الرحمان الـذي تقصـر اللغـة عـن تصـوير رحمته، فاسأل كـل مـن شـمله مـا يفيـده اسـم الرحمـان يخبـرك. إن عنـاد الكفـار وتصميمهم على الكفر جعلهم عندما دعـوتهم ليسـجدوا للرحمـان يتجـاهلون مـا يطلـق عليه هذا الاسم، فقالوا وما الرحمـان؟ ولـم يثبتـوا لـه حقيقـة إلا أمـر الرسـول لهـم بالسجود، وأنكروا أن يكون حقيقا بالسجود إليـه لمجـرد أمـر الرسـول لهـم ، وزادهـم هذا الأمر بعدا ونفورا .

بيان المعنى العام :

58- وتوكل على الحي ....وكفى به بذنوب عباده خبيرا.

مما أفادته الآيات السابقة كما بينـاه تسـلية النبـي ﷺ وتـذكيره بأنـه غيـر مسـؤول ولا يعتبر مقصّرا إذا أعرض عن الاهتداء به الكافرون. وأضـافت هـذه الآيـة إرشـاد النبـي ﷺ إلى ما يقويه ويسنده في أداء مهمته: أنْ يعتمـد علـى الله الحـي الـذي وجبـت لـه الحياة صفة أزلية أبديـة فـلا يلحقـه مـوت، ولا غفلـة، ولا ذهـول، ولا نـوم ،ولا أي

عارض من العــوارض التــي يفقــد المتوكــل رعايــة المتوكّــل عليــه. واقــرن توكلــك بتنزيهه عن كل نقص، والزم مع ذلك الثناء عليه، بمعنــى استحضــر مــا للــذات الإلهيــة من كمالات، وتذكر عطاياه الموصولة لك، وذلــك يقتضــي تسـبيحه وحمــده .والخطــاب موجه إلى النبي ﷺ ولكل إنسان أيضا.

وكن واثقا من أن الله عــالم بمــا يؤذيــك بــه الكــافرون ، وبمجــاوزاتهم وبآثــامهم ، لا يغيب عنه شيء مما اقترفوه . هم عبــاده خلقهــم، وهــو المــدبر الراعــي لتطــوراتهم ، هو يعلم ظواهرهم وما أضمروه في نفوســهم. وفــي هــذه الخاتمــة تهديــد للكــافرين أن الله سيعاقبهم على ما قدموا من شر.

59- الذي خلق السماوات والأرض...فاسأل به خبيرا.

هذه الآية من قوله تعالى "الذي خلق إلى العــرش" تؤكــد مــا جــاء فــي الآيــة 56 فــي سورة الأعراف . وقد بينــا هنــاك الطريقــة التــي نرضــاها فــى فهمهــا بــالجمع بــين الإيمان بما أثبتته ، ونفي كل تشبيه وتصــور تجسـيمي، وتفــويض المــراد الــدقيق منهــا إلى رب العالمين باعتبارها من المغيبات التي تتجــاوز قــدراتنا العقليــة. ووقــع التــذكير بها لتكون دليلا على أحقية التوكل على الله الذي ورد فــي الآيــة الســابقة: وتوكــل علــى الحي الذي لا يموت–

الرحمان– اسم من أسماء الله الحسنى، مــا كــان العــرب يطلقونــه علــى الــذات العليــة سبحانه. ويصح أن نجعله خبرا عن قوله: الــذي خلــق...، كمــا يصــح قطعــه عــن أول الآية، وجعله خبرا لمبتدأ مقدر: هــو الرحمــان. والتقــدير الثــاني أبلــغ إذ يفيــد تأكيــدا لحسن عاقبة التوكل المأمور به، باعتبار أنه هو الرحمن الــذي يتــولى مــن توكــل عليــه برحمته، فمن توكل عليه مطمــئن لإســعافه وتــدبيره. وإذا أردت أن تعــرف ســعة آفــاق رحمته، فإن البيان اللفظي يقصر عن تجلية رحمتــه علــى الوجــه الأتــم ،وأفضــل مــن البيان اللفظي، أن تسأل عنه أي فرد خبر رحمته، وســعد بهــا، يخبــرك خيــر المجــرب عن فيوض الرحمة والألطاف .

60 ،وإذاقيل لهم اسجدوا للرحمن ...وزادهم نفورا،

تسجل الآية موقف المشركين الرافض للســجود للــرحمن لمــا دعــاهم النبــي صــلى الله عليه وسلم إليه. وهو تسجيل يفيــد التعجــب مــن عنــادهم، ويشــنع بمــوقفهم، ذلــك أن النبي دعاهم إلى التقرب بالسجود للذي يتــولى رحمــتهم، التــي هــم فــي أمــس الحاجــة إليها لو تدبروا أوضاعهم. وقرنوا العناد بسؤالهم ســؤال المظهــر نفســه بمظهــر الجاهــل المستغرب، فقالوا: وما الرحمان؟ وهو إمعــان مــنهم فــي الصــدود، فــإن هــذا الأمــر

بالسجود ليس فاتحة الدعوة إلــى الله، بــل تكــرر علــى أســماعهم قاعــدة الإســلام فــي التوحيد وإفراد الله بالعبادة. وكان شــأنهم كشــأن المنكــر للحقيقــة عــن غبــاء ، ينــاقض نفسه عن قرب. فأضافوا ما يفضحهم بقــولهم: أنســجد لمــا تأمرنــا بالســجود إليــه، أي إنــا نــرفض الســجود لله. إن امتنــاعهم مــن الخضــوع لله متقــرر فــي ضــمائرهم ، ودعوتهم للسجود زادتهم امتناعا ونفورا .وذلك شأن المصممين على العناد .

** أجمع القراء على أن النبي ﷺ سن الســجود عنــد قراءتــه لقولــه تعــالى : **وزادهــم نفورا** وكان سفيان الثوري يقول : إلهي زدني لك خضوعا ما زاد أعداك نفورا.

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

البروج : المنازل التي قدرها الراصدون للشمس.

سراجا : السراج: الشمس.

خلفة: يخلف الليل النهار ، والنهار الليل.

يذكر : يتأمل في أدلة الدين.

الشكور: عرفان إحسان المحسن.

هونا : بلين ورفق. مما ينبئ عن تواضع الماشي .

اصرف عنا : أبعد عنا، ونجنا.

غراما: الهلاك المُلح الدائم.

مستقر : مكان الاستقرار.

مقام : مكان الإقامة.

الاسراف : تجاوز الحد.

الإقتار : عكس الإسراف .

قواما: العدل بين الطرفين.

بيان المعنى الإجمالي :

ما أكثر نعمه وما أعم خيراته، التي حُجِبَتْ عن الكافرين فقالوا: وما الرحمان؟ فهو الذي نظم عالم السماء تنظيما وزع فيه الكواكب على بروجها التي تسير فيها، وأثر بها على الأرض فانقسم العام إلى فصول، وتأثرت بذلك الثمار والزروع. وربط بين الشمس والحياة على وجه الأرض، وجعل القمر نورا. وتم كل ذلك بحكمة بعيدة عن المصادفة والفوضى. كما جعل سبحانه الليل والنهار يخلف كل منهما الآخر في دورة مستمرة، يتأثر بهما الإنسان بالتفكر في تلكم الظاهرة التي تفضي به إلى توحيد الله وعبادته، كما تفضي به إلى شكره على ذلكم التعاقب الذي يسعده على القيام بالنشاط ، ويمكنه من فرصة للراحة والاستجمام.

ثم أثنى القرآن على الذين شرفوا بكونهم عبيدا للرحمن فنوه بهم وأبرز ما اختصوا به من صفات فضل.

عباد الرحمان الذين تطهروا من الكفر والعناد، وأخلصوا دينهم لله، ملامحهم تأتي في هذه الآيات. غسلوا قلوبهم من الكبر، فمشيتهم عزة في غير تكبر وخيلاء، يترفعون عن إثارة السفهاء فلا ينحدرون إلى مستواهم الهابط في الخصام. ردهم على سفه السفهاء قولهم: سلاما. تمكنت التقوى من قلوبهم فلا يستقرون في مضاجعهم بالليل إلا قليلا ليقوموا متقربين بالتهجد في جوف الليل، يأنسون بالصلاة والسجود. عمرت قلوبهم عظمةُ الله فهم يخشون عذاب جهنم ، ويسألونه أن يصرف عنهم عذابها، العذاب الذي يلازم من وقع عليه فلا يجد منه فكاكا. فهم موقنون بأن رحمة ربهم هي المنقذة لهم من عذاب جهنم، وبذلك ظهر بصفة أجلى كونهم عباد الرحمان. تحقق التوازن في نفوسهم وفي أفعالهم، فإذا أنفقوا لم يسرفوا مبذرين، ولم يشحوا مقترين، ولكنهم لزموا الطريق القصد العدل الوسط، لا يميلون إلى أي طرف.

بيان المعنى العام :

61-تبارك الذي جعل ...وقمرا منيرا.

المجد والعظمة والفضل، والبركة والخير لله، الذي سير أمر السماوات على نظام لا يختل، فهي مستمرة على الترتيب الذي رتبه عليها. توصل البشر من ملاحظة البروج منازل الكواكب: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت، إلى ضبط الفصول، وارتبط

بها بروز المحاصيل الزراعية ونضجها. ثم تعمقوا فــي الملاحظــة، وكلمــا تقـدموا فــي كشف قانون من القوانين الكثيرة التي قام عليها بناء الســماوات، كــان مــا وصــلوا إليــه فاتحا لكشــوف جديــدة، خاضــعة جميعهــا للمعقــول والدقــة، والبعــد عــن الفوضــى والمصادفة. ثم لفتت الآية نظر المشاهدين إلى الشمس كأنهــا ســراج فــي الســماء تبعــث بنورها في الأرجاء المترامية ،وإلى القمر وهــو يضــيء الضــوء الهــادئ ممــا يــنعكس على صفحته من الأشعة .

إن السموات وما حوته من الكواكب الضخمة ، والشمس التي ارتبطت بها حياة الناس على كوكب الأرض ، والقمر المؤثر في المد والجزر، كل ذلك يشنع على الكافرين قولهم : وما الرحمن؟ فهل يقال للمتفرد بهذا التصرف، ولا يستطيع أحد سواه أن ينسب لنفسه ولو قليلا من هذا النظام ، أن يسأل عن ماهيته. ولكنه العناد والوقاحة.

62- وهو الذي جعل الليل والنهار...أو أراد شكورا.

كيف يسألون وما الرحمن ؟ مع أنه هو الذي يقلــب الليــل والنهــار، فيخلــف كــل منهمــا الآخر، وهو مما اختص به لا يشاركه فيــه غيــره. وتصــرفه هــذا فــي الكــون يحقــق أمرا آخر، هو تحريك الناظرين في نظامه ليكون فاتحــا لهــم بــاب التــذكر والتأمــل فــي الحكمة الإلهية ، وهذا التذكر يفضي إلى شكر الله علــى ألطافــه ، ومــا يســره للإنســان لينشط ويستجم مما يسعده بأداء دوره في الحياة معانا عليه .

63- وعباد الرحمن...قالوا سلاما.

بعد أن شنع القرآن على الكافرين تجــاهلهم للرحمــان، وأقــام مــن مشــاهد الكــون مــا اختص به من تسيير أمر السماوات ببروجهــا ، ومــن اخــتلاف الليــل والنهــار المــؤثر في الإنسان تذكرا وشكرانا. عطــف علــى ذلــك ملامــح عبــاد الرحمــان اهتمامــا بهــم وتنويها. شرّفوا بأمرين أولا: أنهــم عبــاد يشــعرون بمزيــة العبودية لله ويشــرف هــذه الرابطة، وثانيا: عبوديتهم للرحمن التي تجعلهم علــى خــط منــاقض للــذين قــالوا: ومــا الرحمن ؟ وذلك ما يــرجح أن المقصــود بهــم قصــدا أوليــا أصــحاب رســول الله ﷺ . وإن كان ذلك لا يمنع انسحاب الأوصــاف والجــزاء علــى مــن ســار ســيرتهم وتخلّــق بأخلاقهم من أعضاء الأمة الإسلامية. فماهي الأوصــاف التــي اعتبرهــا القــرآن مميــزة لهم ، يتأهلون ليكونوا منوها بهم مجزيين؟

أولا: الذين من صفتهم أنك لا تــرى مــنهم وهــم يســعون فــي الأرض مــا يــدل علــى الكبر. ولا لوثة من الخيلاء والاستعلاء، ولا شــيء مــن المســكنة والــذل. تــدل مشــيتهم على ما استقر في كيانهم من جد وحزم في تواضع.

ثانيا :أنهم يترفعون عن مجاراة السفهاء، هـم يـرون أن الأدب الـذي حصـل لهـم مـن الإسلام سما بمستواهم الإنساني، فهم لا ينحـدرون إلـى المسـتوى الهـابط الـذي عليـه الجاهلون الذين كثيرا ما يتعرضون للمسلمين بالإذايـة. إنهـم لحكمـتهم لا يثيـرهم بـذيء الكلام من الكفرة، ولا يصرفون ألسنتهم للرد عليهم بمثل مـا تجـرأوا بـه علـيهم ، كمـا هو شأن الجاهليين. وقد قال عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا *** فنجهل فوق جهل الجاهلينا

إن في ذلك تأجيجا للأحقاد، وإهـدارا للكرامـة إذ شـأن السـفهاء أن يبـالغوا فـي الـرد، قال تعالى : (ولا تسبوا الذين يـدعون مـن دون الله فيسـبوا الله عـدوا بغيـر علـم)[1] ويكون ردهم حسب الأدب القرآني : سلاما- وكلمة "سلام "بمـا تـدل عليـه مـن الأمـن، وعدم المكافأة بالشر، مما يغيض السفهاء .

بهاتين الصفتين صور القرآن عباد الرحمـان، وهـو يتعـاملون مـع النـاس وينشـطون في دروب الحياة. وقار وترفع عن منازل السفهاء.

64-والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما.

ثالثا: كشفت الآية عن شغلهم في الليـل، عنـدما يخلـد النـاس للنـوم. عبـاد الرحمـان يقضون جانبا من الليل متقربين إلى الله بالصـلاة. فهـم سـاجدون قـائمون. يجـدون فـي هدوء الليل داعيا للاتصال بربهم ،ولـذة فـي الانغمـاس فـي العبـادة ، فتنفـذ أسـرارها مطمئنة لأرواحهم، مصفية لمشاعرهم.

65←66، والذين يقولون ربنا اصرف عنا...ومقاما.

رابعا: إحساسهم بعظمة الله مما يجعلهم يحذرون عقابه.

هذا هو شأن المؤمنين، هم على خوف مـن رفـض الله لأعمـالهم، فهـم يجتهـدون فـي عبادتهم ، ويخلصون بها إلى الله الذي لا يقبل عملا ملوثـا غيـر نقـي، كمـا تقـدم لنـا في قوله تعالى: والذين يؤتون ما آتـوا وقـلوبهم وجلـة أنهـم إلـى ربهـم راجعـون[2]. فتفيد هذه الآية أنهم يدعون ربهـم أن يحمـيهم مـن عـذاب جهـنم ،ممـا يـدل علـى أن قلوبهم وجلة من الرفض لما قدموه من خيـر .يتأكـد موجـب هـذا الحـذر الشـديد بمـا علموه علم اليقـين، أن عـذاب جهـنم عـذاب لا مفـر منـه ولا منجـى إلا برحمـة الله وتقدير صرفه . ثم عقبت الآية وصـف عـذاب جهـنم بقولـه : إنهـا سـاءت مسـتقرا

---

[1] سورة الأنعام آية 108

[2] سورة المؤمنون آية60

ومقاما . هذا من كلام رب العزة: يحق لهم أن يطلبوا من ربهم أن يقيهم عذاب جهنم لأن القرار فيها أسوأ قرار . والإقامة فيها أسوأ إقامة.

يجمع بين هذه الآيات إقبالهم على عبادة الله في خلواتهم ، في جوف الليل ، **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ، وخشية نابعة من استحضارهم الواضح لعظمة الله، ونفاذ أحكامه في خلقه .

67- والذين إذا أنفقوا...وكان بين ذلك قواما.

خامسا: رشد التصرف فيما آتاهم الله من مال . وصفتهم الآية بأن همتهم تسمو إلى الإنفاق ، وأن الإنفاق متحقق منهم حسبما تدل عليه كلمة إذا .وهم ملتزمون في الإنفاق بما أدب به الإسلام معتنقيه. هم إذا أنفقوا لم يسرفوا، وابتعدوا عن التبذير الذي يدفع إليه الفخر، كما أنهم يحصنون أنفسهم من التقتير، وكان سلوكهم الوسط بينهما. إن الإنفاق يصطبغ برشح النفس، فإما أن تكون معتدلة، وإما أن تكون مائلة إلى طرف الإفراط أو التفريط. فالنفس المعتدلة لا يدفعها للبذل حب المديح، ولكن ما يقتضيه الحق المدرك بسلامة الفطرة. وإما أن تفقد هذا التوازن فتجد صاحبها إما مبذرا مسرفا يرى في إهلاك المال مكرمة وموجبا للمحمدة، وعلى هذا جرى العرب في أشعارهم ؛ وإما مسيكا يعبد المال يقتر على نفسه وعلى من يعولهم. وعباد الرحمن هم الذين استقر توازن الإنفاق في نفوسهم، لا يحجمون عن الإنفاق إذا كان حقا ، ولا يمسكون أيديهم عن البذل في غير سرف.

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾

بيان معاني الألفاظ :

الآثام : جزاء الإثم. العقاب .

بيان المعنى الإجمالي:

من صفات عباد الرحمان أنهم مبرؤون من المهالك الثلاث -أ- من أعظم الكبائر الإشراك بالله وانتظار النصر والتأييد من غيره. - ب - قتل النفس التي حصنها الله

وحرم التعدي عليها، بغير موجب مستند إلـــى شــرع الله. -جــــ - الزنــا يســتوي فـــي كونه فاحشة موبقة الذكر والأنثى. إن من يتلبس بواحــد مــن هــذه الثلاثـــة فإنـــه سيســلط عليه العقاب الـــذي كتبـــه الله، وسيضـــاعف عذابـــه بصـــور مـــن الإيـــلام مـــع المهانـــة والاحتقار والذل، ولا يخرج من جهنم إلى أبد الأبدين.

واعلموا أن الله يتفضل على من تاب فآمن وغير سلوكه من التهاون بما حرمه الله، إلى الاستقامة والانضباط والتزام الأعمال الصالحة، أنه سبحانه سيمحو سيئاته، بل فوق ذلك سيبدلها حسنات .وذلك ما يقتضيه كونه واسع المغفرة عظيم الرحمة. ومن تاب وعمل صالحا، توبته مقصود بها الله، والله أكرم من أن يرد من قصده تائبا مخلصا مطيعا.

بيان المعنى العام :

68-‹69، والذين لا يدعون مع الله...ويخلد فيه مهانا.

سادسا وسابعا وثامنا ثـــلاث موبقـــات، مـــن أقـــبح الـــذنوب وأكثرهـــا إفســـادا للمجتمـــع، وأقواها تخريبا لروح الإنسان ، ما تجتمع إلا فـــي المجتمعـــات التـــي انفصـــلت عـــن الله. ولا تستقر إلا في روح أقفرت من الخير وفسدت. وقلـــوب عبـــاد الـــرحمن مطهـــرة مـــن ذلك. وتمت صياغتها في صورة نفيها عن عباد الرحمان ثلاث "لاءات "مفادها:

1) نقاء عقولهم وقلوبهم من التعلق بـــأي إلـــه غيـــر الله. فـــلا يتعلقـــون تعلـــق الاعتمـــاد وانتظار العـــون، ولا يســـتغيثون، لا بالأصـــنام ولا بالبشـــر الأحيـــاء مـــنهم والأمـــوات، ولا يكون الهوى قائدهم في الحياة.

2)لا يقتلون النفس البشرية إلا بالحق. هذا الحق الذي يتبـــع حكمـــا عـــادلا، يصـــدر عـــن قضاء غير منحاز، ويُمكّنُ فيه المحال علـــى القضـــاء مـــن الـــدفاع المشـــروع، وبتشـــريع إلهي معلوم قبل الجريمة الموجبة للحكم بالقتل.

تهاون البشر بقيمة الحياة في كثير مـــن المجتمعـــات، ســـواء فـــي ذلـــك بتســـلط الحكـــام الظلمة الجبارين بواسطة قضاء يستجيب لهـــواهم، فقتلـــوا خصـــومهم السياســـيين بغطـــاء من يشاركهم الإثم من أعضاء المســـلطة القضـــائية الجـــائرة. وتهاونـــت بعـــض الأمهـــات الزانيات فقتلن ما ينجبنه من السفاح. وتهاونت بعـــض النســـاء فأســـرعن إلـــى الإجهـــاض لأسباب واهية مرفوضة شرعا وخلقا.

إن في وصف النفس "بالتي حرم الله " إظهار لأمـــر هـــام فـــي الإســـلام، هـــو أن مالـــك الحياة هو الله ، ولم يعط لأي كان الحق فـــي ســـلب الحيـــاة إلا فـــي حـــدود مـــا شـــرعه حفظا للحياة ؛ فقاتل النفس بغير حق متعد علـــى المقتـــول، ومتعـــد علـــى مـــا هـــو مـــن اختصاصات الذات العلية .

3) لا يشبعون شهوتهم الجنسية في الحرام. تشابكت آثار الزنـا السـيئة، إنـه تعـد علـى الجنين الذي ولد من سفاح ، يلتصق به طول حياته أنه ابـن زنـا، وتعـد علـى الأسـرة ، إذ هو عار يشمئز منه أقارب الأنثـى ، وأقـارب الـذكر إن كـانوا يعقلـون . وإذا كـان مع متزوجة فهو أشد نكرا وأعظم شناعة، وتختلط به الأنساب اختلاطا فوضويا .

أتبع التشنيع على مرتكب هذه الكبائر الثلاث بالتنصيص علـى جزائـه، بـأن مـن يفعـل هذه الموبقات الثلاث يسلّـط عليـه الجـزاء المقـدر، المتمثـل فـي مضـاعفة العـذاب، كلما عذب بنوع من العذاب جدد عليه عذاب أشد وأقسـى، وفـوق ذلـك هـو خالـد فـي العذاب لا يرجو تخفيفا ولا خروجا منه. وبجانب العـذاب الحسـي البـدني عـذاب نفسـي بما يسلط عليه من ضروب الإهانة والتحقير.

و الإشارة بقوله تعالى "ومن يفعل ذلـك" إلى الموبقات الـثلاث، فمـن يجمـع بينهـا هـو الموعود بذلك العقاب. وأما من ارتكـب ماعـدا الإشـراك فالأدلـة مـن القـرآن والسـنة متظافرة على أن أمره إلى الله يوم القيامة .

70- إلا من تاب وآمن...وكان الله غفورا رحيما.

هذا الاستثناء هو الذي ينادي به اسم الرحمان. فهو يخـرج مـن الخسـران يـوم القيامـة وتسليط العذاب المخلّد له في النار، كلّ مـن تـاب إلـى الله فـأقلع عـن الآثـام. التوبـة النابعة من الشعور بالاشمئزاز من الوضع الـذي كـان عليـه قبـل التوبـة. هـو النـادم على ما وقع فيه من شرك وقتل وزنـا. والعـازم عزمـا أكيـدا علـى أن لا يعـود إلـى قذارة الإثم الذي تلطـخ بـه. ولمـا كـان أحـد عناصـر الموبقـات الـثلاث الإشـراك، صرحت الآية بأن أول عنصر هو الإيمـان. إن مـن آمـن صـدقا يتحـول سـلوكه مـن الفساد إلى الصلاح، ومن العصيان إلـى الطاعـة، ومـن الشـر إلـى الخيـر. ووعـد الله من صدق إيمانهم وصلحت أعمالهم، فاستحضـرهم مميـزا لهـم بالإشـارة "أولئـك" بـأن الله سيبدل ما كتب في صحائفهم من سيئات، بحسـنات. يفهـم هـذا الوعـد علـى أسـاس أن الإنسان إذا تطهر من الشرك، ثم راقـب الله فيمـا بقـي مـن عمـره فاسـتقام، وعقـد بينه وبين الفضيلة رابطة ثابتة متواصـلة، فإنـه بـذلك يكـون قـد انضـم إلـى زمـرة الصالحين الأتقياء من عباد الرحمـان. ويؤهلـه الـرحمن بفضـله وعفـوه لنيـل مراتـب الأبرار ،فيحشره معهم ويتفضل عليه تبعا لإعراضه عمـا كـان يقـوم بـه مـن منكـرات خشية من الله ، أن يجعل قصده هذا موجبا لتحويـل سـيئاته حسـنات. قـال تعـالى: (إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين)[1] وأكد هـذا الفضـل نافيـا كـل تأويـل أو

---

[1] سورة هود آية 114

تخصيص بقوله: **وكان الله غفورا رحيمــا**. فــالمغفرة العظيمــة والرحمــة الواسـعة ممـا ثبت لله ثبوتا أزليا سرمديا.

71-ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا.

تأكيد للتوبة وترغيب في قرنها بالعمل الصالح، وافتتحـت الآيــة بكلمــة "**مــن**" الشــاملة لكل من تاب فعلا حسبما يقتضيه الفعل الماضي "**تاب**" وظـاهر الآيــة فيــه إشـكال، ذلـك أنه أخبر عن الذي تاب بأنه يتوب. ويرفع الإشكال إما بــأن المقصــود أنــه يتـوب توبـة خالصة "**لله**" وما ظنك بمــن يقصــد الكــريم الغفــور، فــإن توبتــه لا تكــون إلا مقبولــة مجزيا عنها.

ويحتمل أن من تاب صادقا وعمل صالحا، فإن يقظته لفعــل الخيــر تتجــدد ،الأمــر الــذي يحميه من العود إلى الإثم ، يتوب إلى الله متابا .

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77)

بيان معاني الألفاظ :

الزور: الباطل. وغلب استعماله في الكذب .

اللغو: الكلام العبث الذي لا خير فيه. وكل سقط من قول أو فعل.

مروا باللغو : مروا بأصحاب اللغو.

كراما: معرضين لا ينزلون إلى مستوى السفهاء.

الخرور : السقوط.

إمام : قدوة.

الغرفة : البيت المعتلي الذي يصعد إليه بدرج.

ما يعبأ : ما يبالي وما يهتم ، وما يكترث.

لزاما: لازما لا ينفك.

بيان المعنى الإجمالي :

واصل القرآن بيان ملامح عباد الرحمان. إنهـم لا يحضـرون مشـاهد الباطـل كـالرقص والفجور والغيبة ولا يشهدون شهادة كاذبـة. هـم يترفعـون عـن مجـاراة الفاسـقين فـي سقط أقوالهم وأفعالهم، وإذا مروا بهم لا ينحدرون إلـى مسـتواهم الهـابط خلقيـا. قلـوبهم مستعدة للتأثر بما يسمعونه من آيات الله، هم علـى خـلاف المشـركين الـذين إذا سـمعوا الآيات، أوتم لفت أنظارهم إليها أعرضوا كأنهم لم يسمعوا ولم يبصروا صم عمي.

وعباد الرحمن يدعون ربهم ضـارعين ، أن يهـدي أزواجهـم وذريـاتهم هدايـة يُسَـرُّون باستقامتهم وتقواهم ، ويسّر لنا الثبات على الخيـر حتـى نكـون قـدوة صـالحة للمتقـين الذين يخشون ربهم فيتأثرون بسلوكنا لبلوغ الدرجات الراقية من الصلاح.

إن الذين جمعوا تلكم الخصال يجزيهم الله بأن يكونـوا فـي المنـازل العاليـة فـي الجنـة بسبب صَبرهم على دواعي الشهوة، وصبرهم الذي يجعلهـم يثبتـون علـى ديـنهم رغـم إذاية المشركين وأعداء الدين . يسعدهم ربهم فـي الجنـة بتحيـة الملائكـة لهـم والتسـليم عليهم. هم لا يخشون انقطاع ما أنعم الله بـه علـيهم، إذ كتـب لهـم الخلـود فيهـا، بلـغ الاستقرار فيها غاية درجة الحسن.

قل يا محمد للمشركين الذين توهموا أن الله قد اعتنى بهم عناية خاصة، وأنهم لقيامهم على البيت ،ومساعدة الحجيج أهلٌ لذلك ، قل لهم إن الله لا يكترث بكم، وما بعث إليكم رسوله إلا ليدعوكم حسب ما قدره في الأزل من إرسال الرسل. وأنكم قابلتم فضله بالتكذيب والرفض، فسوف يكون تسليط العذاب عليكم أمرا لازما لا تجدون عنه محيدا.

بيان المعنى العام :

72- والذين لا يشهدون الزور...مروا كراما.

تاسعا: عباد الرحمـان، لا يحضـرون مجـالس الباطـل التـي يتعلـق بهـا المشـركون كمجالس اللهو والرقص، والغيبة، وأعيـاد المشـركين، وأمـاكن عبـادتهم. كمـا يحتمـل أن يكون المعنـى لا يشـهدون بـالزور. وإن صـادف أن مـروا علـى قـوم مشـتغلين بالسقط من الفعـل أو القـول، مـروا معرضـين عـنهم يتنزهـون عـن مشـاركتهم ولا يرضون ما هم عليه. ولما كانت الآيـة مكيـة ولـم يـؤذن للمـؤمنين فـي ذلـك الوقـت بتغيير المنكر، الذي أصبح الواجب على المـؤمن بعـد أن قامـت دولـة الإسـلام، أثنـى عليهم بأنهم يمرون على اللغو وقلوبهم منكرة له ومشاعرهم تمقتُ ما رأوه منهم .

73- والذين إذا ذكروا...صما وعميانا.

عاشرا: تلقّـفهم لآيات القرآن بالاهتمام بمضـامينها، والتأمـل فيمـا هـدت إليـه؛ وهـو وضع يختلف عن وضع المشركين الذين كـانوا إذا سـمعوا مـا أنـزل علـى الرسـول

أعرضوا عنه إعراضا كـاملا، حـالهم كحـال مـن سـقط علـى الأرض لا يسـمع ولا يبصر ، فلا آيات القرآن تنفـذ إلـى عقـولهم لتعطـيلهم وسـيلة الاسـتماع، ولا الآيـات الكونية التي يثيرهم للتأمل فيها تهـديهم، لأنهـم أعمـوا أبصـارهم عنهـا. شـأنهم شـأن النعامة التي أطبق عليها الصيادون تـدس رأسـها فـي التـراب توهمـا منهـا أنهـا لمـا حجبت بصرها عن الواقع، فإن الصيادين عموا عنها أيضا.

74- والذين يقولون ربنا... للمتقين إماما.

حادي عشر :ابتهالهم إلى الله بدعائـه أن تكـون حيـاتهم العائليـة حيـاة مسـتقرة تمـلأ نفسـهم رضـا وطمأنينـة، يـدعون الله أن تكـون أزواجهـم وذريـاتهم يسـيرون علـى الطريق المستقيم، فـي عقيـدتهم وفـي أعمـالهم، وفـي علاقـاتهم الأسـرية والبشـرية. ومعلوم أن كلمة الزوج تطلق على، بعل المـرأة، وعلـى امـرأة الرجـل. وكلمـة زوجـة غير فصيحة.

وأن يبلغوا في مراتب التقوى والصلاح الغاية التـي يكونـون بهـا قـدوة لغيـرهم. فهـم يدعون الله أن يواصل هدايتهم حتـى ينتقلـوا إلـى المراتـب العليـا التـي تؤثـر في غيرهم صلاحا فيقتدوا بهـم. وهـو عبـارة عـن حـب مسـتقر فـي نفوسـهم لانتشـار الفضيلة بين المؤمنين. و قرة العين تعبير مجازي أصـله سـكون العـين، فـإن العـين إذا رأت ما يسرها تواصل النظر إليه ولا تلتفت إلى غيره.

75-أولئك يجزون الغرفة .. ويلقون فيها تحية وسلاما.

بعد أن فصـلت الآيـات السـابقة ملامـح عبـاد الرحمـان تفصـيلا أوضـح شـريف خصالهم، فتميزوا تميّزا تهيأوا به إلى أن يشار إلـيهم غيـر مختلطـين بغيـرهم " أولئـك" سيتحقق لهم الجزاء التالي: انهـم يختصـون بـالغرف فـي الجنـة، هـذه الغـرف التـي وصفت في آية أخرى: لهم غرف من فوقها غرف مبنيـة تجـري مـن تحتهـا الأنهـار[1] ثم عرف ارتباط هذا الجزاء بما قدموه فـي الـدنيا، لأنهـم صـبروا ، فكانـت عـزائمهم تيسر عليهم التقوى وفعل الخيـر ، وهـي أقـوى مـن مغريـات الشـهوة ، ومـن إذايـة الكافرين.

إنها منازل الكرامة والأمـن والرضـوان. يلقـون الملائكـة فيشـنفون أسـماعهم بالتحيـة وبالسلام. ومن كمال الكرامة والنعيم أنهم واثقون بأن ما نالوه مـن نعـيم هـو نعـيم دائـم سرمدي، لا يلحقه نقص ولا انقطـاع. يعبـر عـن ذلكـم الجـزاء بتعبيـر واحـد جـامع يصوره أبلغ التصوير: حسن، بلغ غايـة الحسـن الاسـتقرار فيـه، لا يرغـب صـاحبه

---

[1] سورة الزمر آية 20

في التحول عنه إلى غيره. وطاب المقام فيــه. فكــل مــا يــبهج المقـيم فيــه مــن النعـيم متوفر. حسنت مستقرا ومقاما.

77- قل ما يعبأ بكم ربي ... فسوف يكون لزاما.

ختمت هذه الآيــةُ الســورةَ التــي تعــددت أغراضــها، واســتوفى فيهــا البيــان غايتَــه. وتضمنت أمر النبي ﷺ ليقول كلمة الختام ، قــل للكــافرين المعانــدين مــن قــريش: مــا يهتم الله ولا يكترث بخطابكم، وأن أمــركم تافــه لا قيمــة لــه بالنســبة لمــن ســيفتح الله على بصائرهم فيؤمنوا بهذا الدين وينصروه. لولا أنــه ســبحانه يــدعوكم للخيــر تحقيقــا لما كتبه على نفسه من بعث المرســلين لينبهــوا النــاس مــن ضــلالاتهم، ويقيمــوا لهــم طريق الحق، في العقيدة الصــحيحة والسـلوك الصــالح ، كمــا جــاء ذلــك فــي قولــه تعالى:(فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[1]

إنكم قابلتم فضله بإرسال محمد إليكم بتكذيبــه، فســوف يلــزمكم أثــرُ تكــذيبكم لزومــا لا فكاك لكم منه في الدنيا والآخرة، كما أوعــد بــه فــي الآيــة39والــذين كفــروا وكــذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. وقــد صــدق وعــده فــي الــدنيا بانتصــار المسلمين وهزيمة المشركين يــوم بــدر. ويــوم القيامــة ســيكون مصــيرهم إلــى جهــنم خالدين فيها أبدا يلزمهم عذابها.

نسأله سبحانه أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

أكملت بحمد الله وحسن عونه وله الفضــل تفســير ســورة الفرقــان يــوم الاثنــين 20ذي الحجة 1433- 5- نوفمبر 2012 أعانني ربي على إكماله.

---

[1] سورة البقرة الاية 38.

ســـورة الشّعـراء

هذا هو أشهر أسمائها ، ووجه تسميتها بـذلك أنهـا السـورة الوحيـدة فـي القـرآن التـي ذكر فيها كلمة " الشعراء" وسميت أيضا بسـورة " طسـم" أخـذا مـن فاتحتهـا. وجميـع آياتها مما نزل علـى رسـول الله ﷺ بمكـة علـى أشـهر الأقـوال. ورتبتهـا الخامسـة والعشرون حسـب ترتيـب المصـحف الشـريف. وعـدت السـابعة والأربعـين حسـب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة الواقعة وقبل سورة النمل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

بين معاني الألفاظ :

المبين: الظاهر الواضح.

باخع: من البخع، الذبح البالغ أقصى ما تصل إليه الآلة .

الخضوع: التواضع باطنا وظاهرا، والمقصود به الانقياد.

محدث: جديد.

الأنباء : جمع نبأ، الخبر عن الحدث العظيم.

زوج : نوع.

كريم : مرضي فيما يتعلق به من المنافع.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه الأحرف التي تتلى مقطعة، والتي افتتحت بهـا علـى هـذا النحـو كثيـر مـن سـور القرآن، تتحدى المشركين الذين يطعنون في القرآن أن يأتوا بمثله في إعجازه.

أشار القران إلى آيات هذا الكتاب الذي بلغ أقصى غايات البيان لمن كان قصده أن ينظر ويتأمل ولا يعاند. ولكن المصرّين على العناد كانوا كثيرين، وكان النبي ﷺ يحزن أشد الحزن من عدم إيمانهم وإصرارهم على الكفر. وأثّر فيه الحزن تأثيرا ربما يصل به إلى الهلاك، فسلاه ربه إشفاقا عليه من هذا الأسى الكبير. وذكره بأن مهمته تنحصر في دعوة الناس لقبول الإسلام ، أما اهتداؤهم فهو غير مسؤول عنه. وإنه لو شاء أن ينزل عليهم آية يخضعون لها وتقسرُهم على الإيمان لفعل. ولكنه سبحانه أراد أن يكون كل مكلف مختارا بين الإيمان والكفر، مسؤولا عن اختياره. صمّم المشركون على الكفر، فكلما جاءهم ذكر جديد من الرحمن قابلوه بالإعراض. استقر التكذيب في نفوسهم، وسيلقون جزاءهم حتما وستأتيهم الحقائق التي كانوا يكذبون بها ويستهزئون.

إنهم أغمضوا أبصارهم عن المشاهد التي تقيم لهم الدليل على تفرد الله بالخلق والتدبير. إن الأرض التي يعيشون على ظهرها قد أنبتنا فيها مختلف الأنواع من الزروع والأشجار، كل نوع له خصائصه ومنافعه .إن في ذلكم التنوع وفي الربط بينه وبين الإنسان لآيات تنادي بأن المتصرف هو الله الخلاق الحكيم ، ولكن أكثرهم صمموا على الكفر وحجبوا نور الإيمان من أن ينفذ إلى عقولهم. وإن ربك يا محمد لهو العزيز الذي يتحقق كل ما أراده، فإهلاك المكذبين لا يعجزه، وهو مع ذلك هو الرحيم بعباده ، فعسى أن يقلعوا عن الكفر وعساهم أن ينقلبوا جندا بنشر الإسلام ويدافع عنه أو أن يكون من ذريتهم من يحمل راية الإسلام .

بيان المعنى العام :

1-طسم

افتتحت السورة بهذه الحروف الثلاثة التي تتلى هكذا - طا- سين - ميم-والقول فيها نظير ما جاء في سورة البقرة .والأقرب هو أن الله تحدى المشركين، وهم أهل لسان وفصاحة، أن يأتوا بمثل هذا القران المركب من الحروف التي يفخرون بأنهم يطوعونها لمختلف أغراضهم وأنهم بلغوا في ذلك المقام العالي .

2-تلك آيات الكتب المبين

أشير بقوله" تلك" أولا إلى ايات القرآن الحاضرة في الأذهان، ثم بين المقصود بقوله: آيات القرآن. أيها العرب وأنتم تفخرون بقدراتكم على التصرف في اللغة تصرفا موفقا، هذه آيات القرآن أمامكم مركبة من الحروف التي هي مادة اللغة، أنزلنا بها الوحي، فائتوا بمثل هذه الآيات. إن عجزكم يقوم دليلا على أن هذا النظم

من عند الله، ودور محمد فيه لا يعدو إبلاغه لكم. وتميز مــع إعجــاز نظمــه بأنــه مبــين واضح ، دليل صدقه من ذاته، لا يمكن أن يجحده إلا مكابر .

3-لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين.

تحول الخطاب من مواجهة العرب إلــى الرســول ﷺ تأنيســا لــه، واشــفاقا عليــه. لقــد عانى النبي ﷺ من إعراض قومه عن الاستماع لما جــاءه مــن الــوحي، ومــن الإصــرار على مواصلة عبادة الأصنام، ومن تلفيق الاتهامات لــه. وقــد ســجل القــرآن ذلــك فــي كثير من المواطن. وكان حرصه علــى هــدايتهم أقــوى مــن صــدودهم. وكــان يأســف أشد الأسف ويحزن أن قومه لم يؤمنــوا وواصــلوا تمســكهم بمــا ورثــوه عــن آبــائهم. والرسول بشر يتأثر جســمه بعوامــل الحــزن العميــق والأســى البــالغ. والله قــد أعــده ليواصل التبليغ لهذا الــدين الخــاتم. فنبّهــه إشــفاقا عليــه: أن غمــه مــن عــدم إيمــانهم سيفضي به إلى الهلاك الكامل الشبيه بحال من يــذبح فيبلــغ بالسكين أقصــى مــا يمكــن أن تصل إليه. فلا يجعلْ للغم على قلبه سبيلا.

4- إن نشأ ننزل ... فظلت أعناقهم لها خاضعين.

مما يقويه على مغالبة الأوضاع الصعبة التي كــان يعانيهــا ﷺ فــي مكــة، تــذكيره بــأن الهداية إلى الحق ربطهــا الله بإعمــال الفكــر، والاجتهــاد لطــرد الشــبه، حتــى يصــل الناظر إلى الاقتناع، ويستقر برد اليقين في النفس. ولــم تجــر ســنته مــع رســله جميعــا أن يؤيدهم بآية مادية تنزل عليهم من السماء فينقــاد لهــا المبعــوث إلــيهم انقيــادا ملجئــا. إنه ما بُني الدين إلا على الاختيــار، ولا يســتحق المكلــف الثــواب أو العقــاب إلا علــى ما اختاره من عقيدة أو ســلوك. فتؤكــد الآيــة لرســوله أن الله لــو أراد أن ينــزل علــى قومه آية من السماء، تجبرهم على اعتناق الإسلام لفعــل. فإنــه لا يعجــزه شــيء. ولكــنّ سنته مضت على أن المبعوث إلــيهم غيــر مجبــرين علــى الإيمــان بمــا أنــزل إلــيهم. فليواصل الدعوة بنفس الجد والبيان، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

وخضوع الأعناق تعبير يجسم الخضوع والانقياد. فــإن شــأن الخاضــع أن يظهــر أثــر الخضوع عليه تطامنا، وينزل رأسه وتميل رقبته إلــى الأمــام . عكــس المعجــب بنفســه الواثق بقدرته، يعلو رأسه ويشمخ بأنفه.

5- وما يأتيهم من ذكر..كانوا عنه معرضين.

تأكيدا لتسليته عن موقف قومه من الوحي، عــرف الله نبيــه أن هــذا هــو شــأنهم الــذي يستمرون عليه. فكلما أتــاهم جديــد مــن القــرآن الــذي يــذكرهم ويرفــع شــأنهم فــي العالمين، إلا كان موقفهم منه نفس الموقــف: الإعــراض، وعــدم التأمــل فــي مضــمونه

جريا على ما ألفوه من العناد. وفي نسبة الذكر المنزل إلى الرحمان، تشنيع على الكافرين، إذ قابلوا ما يشير إليه اسم الرحمن من العناية واللطف بهم، بثباتهم على الإعراض والكفر.

6- فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون .

سجلت الآية أن ما استقر في نفوس المشركين هو التكذيب. وهو بيان لموجب إعراضهم الوارد في الآية السابقة. وشأن التكذيب أن يستند المكذب إلى حجة تنفي ما بلغهُ، ولكنهم ما رفضوه إلا عنادا وعملوا على طمس حقائقه بالاستهزاء به. أوعدهم القرآن إذ بلغوا هذا الحد من الطعن والمقاومة ، بأنهم سيعلمون إذا حق فيهم الوعيد في الدنيا أو في الآخرة، الأنباء التي كانوا يستهزئون بها .استهزأوا بالبعث، وبما فصله القرآن من أحوال يوم القيامة كشجرة الزقوم. إن الغلبة ستكون لدين الله.

7- أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم .

إظهار لكون تكذيبهم نتيجة حتمية لتصميمهم على غلق منافذ المعرفة، وعدم الالتفات إلى ما تزخر به الحياة من أدلة، منادية بالوحدانية لله الفاعل الحكيم في الكون. هل عمّت أبصارهم فلم يروا وجه الأرض التي يمشون فيها، ألم يلحظوا الأنواع الكثيرة المختلفة التي تخرج منها؟ لقد أنبتنا في الأرض من كل زوج كريم. أنبتنا فيها أنواعا مختلفة الألوان والأشكال والمذاق. وفي كل نوع من الخصائص ما يحقق النفع الخاص الذي خلق من أجله. الأرض واحدة واختلف ما تنتجه بين ما يصلح غذاء وما هو فاكهة وما هو دواء من الأسقام، وما تتغذى منه الحيوانات فإذا هو لحم ولبن وبيض، وكل نوع هو كريم في نوعه يحقق المنافع التي قدر الله بحكمته أن يخرجها من ذلك النوع.

8-9إن في ذلك لآيت...لهو العزيز الرحيم.

بكل تأكيد يفضي التأمل في كل نوع وتقصّي فوائده التي تظهر شيئا فشيئا، فتتجدد دلالاتها على أن صانعها حكيم محيط بكل شيء علما. في كل نوع آية تنادي بأنها من صنع الله. ولكن أكثر الناس المخاطبين وقت نزول الآية، لا يتأملون في دلالاتها، أقفلوا أبصارهم وبصائرهم، فحرموا الإيمان.

بكل تأكيد إن ربك الذي يرعاك هو المتفرد بالعزة ، فلو شاء تعجيل تدمير المشركين لفعل ، إذ لا يغلبه شيء، ومن حكمة القرآن أن صرح برحمته إثر التصريح بعزته. إن عزته قد اقترنت برحمته، مما يفيد أن عدم تعجيل حلول

العذاب ناظر إلى رحمته التي وسعت كـل شـيء، والتـي بفضـلها سـيهتدي كثيـر مـن المشركين وسيخلفهم من ذرياتهم من يعز الله بهم الإسلام.

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

يتقون: يحذرون.

يضيق صدري : يحصل لي من الكمد ما أحس به شدة الضغط على صدري.

انطلاق اللسان : يسر الإفصاح عما في الضمير.

بيان المعنى الإجمالي :

واذكر ذلك الظرف الذي نادى فيه ربـك موسـى فقـال لـه: اذهـب إلـى القـوم الـذين عرفوا بالظلم والاستبداد: قوم فرعون المسـتكبرين. عجيـب أمـرهم كيـف لا يتقـون الله ولا يخشون بأسه.

كان موسى، وهو في مقام المناجاة والقرب الشديد من الله، خائفا من عدم النجاح في مهمته التي كلف بها. فإن ما يعرفه عن فرعون وقومه، هو أنهم متمردون على الحق معاندون، فهو يخشى أن يبادروا بتكذيبه وعدم الاستماع لحججه، وأنه يخشى مع ذلك أن يضغطوا عليه فتَغُور الحجج ويضيق صدره بها، ويعجز تبعا لذلك عن التأثير في قوم فرعون. وطلب من ربه أن يؤيده بإرسال أخيه هارون، الخطيب الفصيح الواضح الحجة، معه. ومن ناحية أخرى كان يحذر أن يمسكه فرعون وينفذ فيه القتل، لأنه غادر مصر فارًا من درك فرعون الذين ائتمروا بقتله عقابا له على قتل القبطي.

طمأنه ربه ، بأنهم لا يقدرون على قتله. وأنه استجاب له فهـو مكلـف بـأن يـدعو أخـاه لتحمل عبء الرسالة معـه. فاذهبـا برسـالتي مؤيـدين بـالمعجزات، ومـع هـذا فـإني محيطكم بعنايتي أسمع كل ما يجري بينكما وبين فرعون.

اذهبا إلى فرعون وقولا له قـولا واضـحا فاصـلا: إنـا رسـولان مـن رب العـالمين، عليك أن تطيع ما نبلغك إياه، هو من رب العـالمين جميعـا، ولـيس لـك يـا فرعـون أي

شيء من أمر العــوالم، والألوهيــة لله وحــده. وإن الله يــأمرك أن تمكــن بنـــي إســرائيل من الخروج من مصر. وأن تحررهم من العبودية التي سلطتها عليهم.

بيان المعنى العام :

10 -11: وإذ نادى ربكـــ...ألا يتقون.

سجلت الآية السابقة -3- الحزن الكبير من إصرار قومــه علـى الكفـر الـذي أثـر فـي رسول الله ﷺ. وأن الله قد اعتنى به فسلاه بأنه غيــر مكلــف بــأن يهتـدي بــه المبعـوث إليهم.

ومواصلة لتسليته، عرض القرآن ما وقع لأنبياء الله مــع أقــوامهم. فابتــدأ بقصـــة موســى عليه السلام. اذكر يا محمد إذ نادى ربك موسى، فكلفــه بتحمــل تنفيـذ مضــمون الــوحي الذي سمعه من رب العالمين بدون واسـطة ملــك ولا بحــروف وكلمــات. وعــاه عقلــه تلقيا مباشرا من رب العزة. فهم موســى أن الله أمــره أن يتوجــه إلـــى القــوم الظــالمين. على أن الظلم أخص صفاتهم. لقد كان فرعون حاكمــا مســتبدا، ادعــى الألوهيــة فظلــم الحقيقة ظلما كبيرا، وظلم بني إسرائيل واســتعبدهم، وتعــدى علـــى كــرامتهم. واســتخف قومه فأطاعوه وعبدوه فوقعوا في ظلم الشرك. إن الشرك لظلم عظيم.

وقل لهم: ألا تتقون ربكم وتخشــون عقابــه وتحــذرون عاقبــة ظلمكــم؟ ففيــه تشــجيع لموسى بأن يواجههم غير هياب، منكرا عليهم عدم تقواهم.

12 -14: قال رب إني أخاف...فأخاف أن يقتلون.

وعى موسى ما أمره به ربــه، وأســعفته ســرعة خــاطره بتصــور ثقــل المهمــة ومــا يتبعها، وكان عُظْــم مــا يخشــاه أن يواجــه بالتكــذيب مــن فرعــون، كمــا هــو شــأن المستكبرين الذين يرفضون كل تشكيك في أحقيتهم بالسلطان المطلق.

و كما خشي من التكذيب خشي من الوضع الذي سيكون عليه وهو يواجه فرعون الطاغية، وهو المتجبر الذي جمع حوله حاشيته وزبانيته. إنه مأمور بمخاطبة فرعون بما يزعزع يقينياته وينسفها نسفا، فانضاف إلى خشيته من التكذيب أن يضيق صدره بما يتراكم فيه من الأدلة التي لا يستطيع أن يبرزها لانحباس في لسانه فلا يبلغ من البيان والوضوح ما يؤدي به الرسالة بنجاح. لذا طلب من ربه أن يؤيده ببعثة أخيه هارون الذي هو خطيب مفوه، أفصح منه لسانا، وأقدر على التأثير في مخاطبيه .

كما كان موسى مدركا، وهو في مقام المناجاة، أنــه قريــب مــن ربــه قربــا يُطْمِعُــه أن يستجيب لطلبه ويحميه. وكان الظرف الذي حُمّل فيه دعــوة فرعــون وقومــه، هــو يــوم رجوعه من مدين التي أوى إليها يــوم كــان مطــاردا مــن زبانيــة فرعــون بعــد قتلــه

للقبطي. فإذا رجع إليهم فإنه يخشـى أن يأخـذوه بمـا هـو مطالـب بـه قبـل أن يبلـغ الرسالة. فكشف عما في نفسـه مـن الخـوف أيضـا، أن يأخـذوه بـذنب القتـل الـذي ارتكبه، وفر قبل محاكمته. وموسـى يعلـم أن القـانون المطبـق فـي مصـر هـو قتـل القاتل. وهذا معنى قوله تعالى: ولهم علي ذنب فأخـاف أن يقتلـون. فخوفـه كـان مـن أن يحال بينه وبين تبليغ رسالة ربه بتسليط عقوبة القتل عليه.

15←17، قال كلا فاذهبا... أن أرسل معنا بني إسرائيل.

أفرغ الله في قلـب موسـى الطمأنينـة، وأزال مخاوفـه، وابتـدأ خطابـه بقولـه: كـلا- المفيدة النفي القاطع لكل أذى. ثم أوضـح المفـاد بقولـه: اذهبـا تصـحبكما آياتنـا التـي تزعزع فرعون وقومه، فلا يتجـرؤون علـى إذايـتكم. إنـي لا أهملكمـا وأنتمـا عنـده، فأنتما مرعيان، أستمع كل ما يجري بينكم وبين فرعـون. والآيـات التـي تصـحبهم هـي انقلاب العصا حية، وخروج يده من جيبه بيضاء نقية.

أزال الله ما ساوره من خوف، وأيده بهارون أخيه ، وطمأنه بأنه لا يهمله ولو لحظة، وأنه يرعاه ويسمع كل ما يجري بينه وبين فرعون، فناسب أن يأمرهما، وقد توفرت ظروف النجاح، بالتوجه إلى فرعون، وأن يواجهاه دون خوف بقولهما: إنا نخاطبك بوصفنا رسولين من رب العالمين. هي جملة واحدة، ولكنها تجمع تحديد مهمتهما، وأصول العقيدة والتصور للكون. أما مهمتهما فهما رسولان دورهما التبليغ عن الله. وأنهما لما كانا مبعوثين من الله فتصديقهما والعمل بما يبلغانه حتم لا خيار فيه. وأما أصول العقيدة فالله رب العالمين الواحد الأحد لا رب سواه، فدعوى فرعون الألوهية دعوى باطلة وليس له من الألوهية شيء. وأما التصور للكون، فإن الكون صدر بفضل عناية الله، التي صاحبت العوالم من مبدئها إلى أن بلغت ما هي عليه.

ثم إن الله يأمرك يا فرعون أن ترفع يدك عن بني إسرائيل، وأن تمكنهم من الخروج من مصر . بما يعنيه من التحرر من استعباد فرعون لهم .

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

التربية : كفالة الصبي وتدبير شؤونه.

الوليد : الطفل في طفولته الباكرة.

حكم : حكمة وعلم .

عبدت : اتخذتهم عبيدا، وأذللتهم.

بيان المعنى الإجمالي:

طوى القرآن تفصيل ما تم بين الـوحي لموســى، وبــين مواجهتــه لفرعــون. وعــرض علينا ما أجاب به فرعون موسى عليه السلام . قال لــه ممتنــا أولا: أذكــرك وأنــت تعلــم أنــك ربيت في نعمتنا منذ كنــت وليــدا فــي المهــد، وتواصــل فضــلنا عليــك فــي الســنين الموالية، فالوفاء يقتضي منك أن تكون شــاكرا لنعمنــا. وثانيــا تــذكر أنــك لمــا بلغــت أشدك اعتديت على القبطي أحد الذين كانوا في خدمتنا وقتلتــه. وثالثــا كنــت طيلــة ذلــك العهد كافرا حسب ما تعرضه علينا اليوم، وقتلك للقبطي دليل على ذلك.

انقض موسى على فرعون من نقطة الضــعف والزيــف فــي كلامــه، وعاجلــه بإبطــال كلامه فيها، وأثبت أنه ما كان كافرا، ولكنه كان مخطئا بقتل القبطــي. ثــم ثنــى بــأن مــا امتننت به عليه هو قلب للحقائق. فلا منة لــك علــيّ، وإنــي فــررت مــن مصــر لعــدم ثقتي في عدالتكم فخفت مــن ظلمكــم. وأن الله الــذي أدعــوكم لعبادتــه قبلنــي برحمتــه، وملأ قلبي حكمة وجعلني رسولا له أبلــغ مــا يــأمرني بتبليغــه. وأيُّ نعمــة لــك علــيّ وعلى قومي؟ لقد استعبدت بني إسرائيل وبلــغ مــن ظلمــك لهــم أن نفــذت قــرارك فــي قتل ذكرانهم، ولذلك ألقت بي أمي في اليم، ودخلت قصرك .

أمام هذا السيل من الحجج الدامغة المزعزعة قال لــه فرعــون: مــا رب العــالمين الــذي تدعو إليه ؟ إذ هو المفهوم الذي يقــوض كــل تصــوراته فــي الكــون. فأجابــه موســى بجواب يقطع عليه كل تردد ويحيله علــى المشــاهد المحســوس. أجابــه: رب العــالمين هو رب السماوات والأرض وما بينهما، الــذي أبــدعها ونظمهــا تنظيمــا لا خلــل فيــه، وواصل عنايته بها في كل لحظة فبقاؤها مرتبط بتلك العنايــة. فــإن كنــتم ترغبــون فــي حصول اليقين، فهذا الكون أمامكم يشهد بوجوده وحكمته في تصرفه.

بيان المعنى العام :

طوى القرآن تفصــيل الأحــداث التــي تمــت بــين تكليفــه بالرســالة، وبــين مخاطبتــه لفرعون: ذهب موسى وأخوه هارون إلــى فرعــون، ودخــلا عليــه، وأبلغــاه مــا أمــرا بإبلاغه. فكان رد فعل فرعون فيه دهاء ومكر .

18 ←19، قال ألم نربك فينا وليدا...وأنت من الكافرين.

1)خص رده بموسى باعتبار ما فهمه أن موسى هو الأصيل، وهارون معين له، فإذا حطم ما قدمه موسى فقد هزمهما معا بضربة واحدة –

2) اشتغل بالطعن في موسى لتحويل الجدل من مضمون الدعوة إلى ما يظنه هنات في تاريخ موسى، تنافي أن يكون صاحبها يحمل هداية.

3) واجهه بالمطعن الأول فوجه إليه سؤال تقرير ألم نربك فينا وليدا؟ نحن أولياء نعمتك ،ربيناك في نعيمنا وفي قصورنا منذ بواكير صباك. والوفاء يقتضي أن لا تتطاول على من رباك أو أن تأمره. يشير بذلك إلى قصة طرح أم موسى له في اليم والتقاطه ليُربّى في قصر فرعون.

4) وهو من تمام الوجه الثالث: أن نعمتنا عليك تجاوزت السنوات الأولى، فعشت يا موسى في نعيمنا سنين عديدة، الأمر الذي يحتم عليك أن تكون مقدرا لذلك، مطيعا لنا

5) ارتقى فرعون من الامتنان إلى التلويح بالتهديد بمؤاخذته على قتل القبطي الذي رُوي أنه كان طباخا في قصر فرعون . وقتلك إياه يدل على أنك كنت من الكافرين. رفض المفسرون هذه التهمة، التجأوا إلى التأويل :كنت من الكافرين بنعمتي لما اعتديت على أحد من خاصتي. أو أن المراد كافرا بديننا في الحال. أو وكنت من الكافرين بديننا بناء على قرائن دلت فرعون على أن موسى كافر بدينهم. وهي تأويلات يظهر فيها التمحل، وإغفال بعض من كلام فرعون. إن فرعون يؤاخذه لقتل القبطي، ويشنع عليه أنه فعل ما فعل لأنه وقت فعلته كان من الكافرين، أي إنه في ظن فرعون لم يكن على هدى شريعة من الشرائع، لاتفاق الشرائع على أنه لا يجوز الاعتداء على النفس البشرية بدون موجب. ويرمي من وراء ذلك أن موسى كان غير مؤمن يوم قتل القبطي قبل عشر سنوات، فادعاؤه اليوم أنه داعية لدين، ورسول من رب العالمين تناقض في حاله. والذي يسندنا في هذا الفهم أن موسى عليه السلام كان يستمع إليه دون أن يرد عليه كلامه، لكنه لما وصل إلى هذه النقطة لم يتركه يواصل وقاطعه، وأخذ الكلام وأجاب موضحا ما أخطأ فيه فرعون، وما هو محق فيه. ولكنه لا يبرر ما رتبه عليه، فاستنتاجه غير صحيح.

20 ←21، قال فعلتها إذا...وجعلني من المرسلين.

اعترف موسى ﷺ بفعلته "قتل القبطي" فعلتها في الوقت الذي فعلتها فيه وأنا من الضالين لا من الكافرين. وفرق بين الكفر والضلال، إذ الكفر رفض للألوهية؛ وموسى من ذرية إبراهيم ومن نسل يعقوب، وبنو إسرائيل في مصر احتفظوا

بدينهم وبعقيدتهم الموحدة. أما الضـــلال فهـو الخـــروج عــن الجـادة. يقـول الراغـب: (ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج عمدا كان أو ســهوا، يسـيرا كــان أو كثيـرا، ثـم يقول: وإذا كان الضلال ترك الطريــق المســتقيم عمــدا كــان أو ســهوا، قليـلا كــان أو كثيرا، صح أن يستعمل لفظ الضلال ممن يكون منــه خطــأ مـا، ولــذلك نسـب الضـــلال إلى الأنبياء وإلى الكفار ، وإن كان بين الضلالَين بون بعيد)[1] .

وضع موسى الأمر في نصابه، ورد في حزم على فرعـون أن يكـون قـد تلـوث بـالكفر أبدا. نعم هو وكز القبطــي فقضـــى عليــه. وأخطــأ إذ ضــربه ضـربة لـم يأخـذ فيهـا الاحتياطات أن لا تكون قاتلة. ثم حمّل فرعون المســؤولية فــي هــذه القضــية ، ذلـك أن موسى خاف أن يحكم عليه فرعون بالقتل قصاصـا ، فــي الوقــت الــذي مـا كــان فيـه قاصدا القتل . ولذلك فررت منكم لما خفــت ظلمكــم، وعــدم تحــرّيكم تبعًـا لاسـتهانتكم بدم بني إسرائيل. وهذا الخروج من مصر أعقبــه رضــوان ربــي علــي، فــوهبني مــن عنده فهما دقيقا لحقائق الأمور، فلا أخدع بالظواهر المضــللة. ثـم شـرفني بـأن جعلنـي من المميَّزين من عباده الذين اختارهم لتحمل رسالته.

22- وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل.

ثم أظهر آثار الحكم "النظر النافـذ المتجـاوز للظــواهر" الــذي أوتيــه فقــال: امتنانـك علي بأن ربيت في قصرك مغالطــة. مــا ربيــت فــي قصــرك إلا لأنــك اتخــذت بنــي إسرائيل عبيدا لك، أذللتهم ونفذت فيهم جــائر أحكامــك، حتــى بلــغ بــك الأمــر اتخـاذ القرار بتذبيح الأبناء بمجرد ما يولدون. وتأمينــا علــى حيــاتي ألقتنــي أمــي فــي الـيم، فالتقطني آلك.

23- قال فرعون وما رب العالمين.

وثوق موسى في عــون الله، جعلــت حججــه تنفـذ إلــى كبريــاء فرعــون فتزعزعــه، فتطامن قليلا وسأل موسى ما رب العالمين ؟ لقد ادعى فرعــون ومــن سـبقه ممــن ملـك حكم مصر أنهم يحكمون باعتبار أنهم المظهــر الأكمــل للآلهــة الأخـرى الــذين أوكلــوا لهم حكم مصر النيل. فما عرضه موســى صــدمه فــي عقيدتــه مــن نــاحيتين: الناحيـة الأولى، العقيدة السائدة لدى سكان مصــر فــي ذلــك العهــد أن الآلهــة متعــددون بتعــدد عناصر هذا العالم وموسى يثبت أن الله واحد. والناحيــة الثانيــة أن فرعــون مُسَلــّمٌ لــه من جميع الآلهة أنه يحكم مصر باعتباره إلــه الآلهــة. وموســى يثبــت أن الله واحــد لا شريك، وليس لفرعون من الألوهية شيء.

---

[1] المفردات 510/509

24- قال رب السماوات ...إن كنتم موقنين .

أجاب موسى مدمجا الدليل في الرد. تسألني عن ماهية الله رب العالمين، فأقول لك: هو رب السماوات والأرض وما بينهما. الدليل هو أن الذي أدعوك لعبادته هو أن تتأمل في الإبداع لما تشاهده من نظام في هذا الكون ومن الصنع الحكيم، ولم تشارك لا أنت ولا أحد من ابائك، في قليل أو كثير في هذه المنظومة الكونية العظيمة. وأتبع جوابه : هذا هي الحقيقة المشاهدة أمام أنظاركم ، وهذا هو الدليل الذي لا مطعن فيه. فإن كنتم مستعدين راغبين في الظفر باليقين، فاقبلوا على الإيمان به.

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

الثعبان : الحية الضخمة.

نزع: أخرج.

بيان المعنى الإجمالي :

أراد فرعون أن يثيرهم ويغريهم ويثير تعجبهم من كلام موسى، فسألهم ألم تستمعوا لما كان يقوله؟ اغتنم موسى الفرصة وتوجه إليهم قائلا: هو ربكم ورب آبائكم من قبلكم . وتحصن فرعون برمي موسى بالجنون إذ شكك في ألوهيته وألوهيته آبائه. فرد عليه بأن الله هو المتصرف في الكون فهو المنظم لما تشاهدونه كل يوم من الشروق إلى الغرب وما يحدث بينهما، ففي كل لحظة تدبير لله، إن كان لكم عقل يظهر لكم الحق من الباطل. وغضب فرعون والتجأ إلى قوته الزجرية المادية فتوعد موسى بأنه إن اتخذ إلها غير فرعون يعبده فإنه سيرمي به مع المجرمين في غيابات السجن. بكل هدوء أجابه موسى أترمي بي في السجن ولو عرضت عليك شيئا واضحا تمام الوضوح يقنعك بأني رسول.

لم يعده باتباعه وإنما أذن له في عرض ما عنده، مضيفا أنه يشك في أن يكون موسى من الصادقين في كلامه .

ألقى موسى عصاه فانقلبت بمجرد ما مست الأرض ثعبانا عظيما، وأدخل يده في جيبه وكان لونها كلون جلده سمراء واضحة السمرة، ثم أخرجها فإذا هي بيضاء نقية تدعو الناظرين للتأمل فيها وتملي جمالها.

بيان المعنى العام :

25-قال لمن حوله الا تستمعون.

نعم كان فيما أجاب به موسى ﷺ زعزعة لسلطان فرعون، وتزييف لما يدعيه من كونه رب القبط. فتوجه فرعون أولا لمن كان حوله يثيرهم ضد ما عرضه موسى، ويغريهم برفضه، ويظهر لهم أن ما ادعاه منكرٌ حريٌ بأن يتعجبوا من شناعته. وذلك بسؤالهم سؤال إنكار كيف لم يستمعوا لكلام موسى على معنى أن عليهم أن يثوروا.

26- قال ربكم ورب آبائكم الأولين.

ما أظن إلا أن فرعون ارتبك، فأدخل في الجدل والمحاجة من كان حاضرا في المجلس. واغتنم موسى هذا الضعف فحول المخاطبة من فرعون إلى جميع الحاضرين. فقال: هو ربكم ورب ابائكم من قبلكم. كما أضاف إلى استدلاله الأول على وجود الله بخلق السماوات والأرض، استدلالا ثانيا هو أقرب للحاضرين، فقد يدعون أن السماوات والأرض قديمة، فحولهم إلى النظر في أنفسهم، وفي آبائهم، التي منها ملوك الفراعنة الذين أدخلوا في عقول الناس أنهم الهة. من أوجدهم؟ ومن تصرف فيهم فأماتهم ؟

27- قال إن رسولكم.....لمجنون.

بلغت المحاورة حدا أفحم فرعون وأفرغه من كل معقول، فالتجأ إلى ما التجأت إليه قريش فرماه بالجنون وقال: إن رسولكم الذي أرسل إليكم، منكرٌ للواقع، إذ تجرأ موسى فنفى أن يكون فرعون هو الإله الأعظم، إن ما يقدمه يدل دلالة يقينية على أنه مختل المدارك العقلية ، مصاب بالجنون .

28- قال رب المشرق...إن كنتم تعقلون.

واصل موسى ﷺ الاستدلال على الوحدانية فقال: هو رب المشرق والمغرب وما بينهما. ولا بد من توضيح الدقة في كلام موسى . يقول إن الله هو الذي يصرف أمر السماوات والأرض الذي من آثاره هذا الشروق والغروب، وما بين هذين

الحدثين اللذين يتعاقبان كل يوم في نظام لا يختل، ثم إن التصرف الإلهي لا يقتصر على الشروق والغروب، بل في كل لحظة من اللحظات تبدو للمتأمل القوانين التي وضعها رب العزة في سيرورة الكون المشرق والمغرب، وما بينهما.

ثم رد على رميه بالجنون بقوله: إن كنتم تعقلون. إن كان لكم عقل فإنه ينتهي بكم إلى الإيمان بالله وبقدرته العجيبة وبصنعه المحكم.

29- قال لئن اتخذت إلها...من المسجونين.

ضيق موسى الخناق على فرعون ، وقطع حجته، فمال إلى ما يميل إليه الجبارون المستكبرون، هدد بالبطش المادي فقال لموسى: بكل تأكيد لأجعلنك واحدا من المسجونين. وهو يريد أن يدخل في قلب موسى الرعب، لما يعلمه من وضع المسجونين في حكم الطاغية فرعون، التي منها أن الداخل للسجن يعلم يوم دخوله، ويوم خروجه مجهول. كما لبث يوسف في السجن بضع سنين، ولولا تعبيره لرؤيا الملك ،التي سبقت الألطاف الإلهية أن تكون سببا لخروجه ما خرج منه .

30-قال أولو جئتك بشيء مبين .

تحول المشهد من حجاج عقلي الغلبة فيه للحق، إلى القوة المادية التي ظهرت من فرعون في صورة التهديد بالسجن، فتقدم موسى بسؤال فرعون بقوله: أتودعني السجن وإن كنت أؤيد مقالي بشيء مبين؟ يعني بأمر مادي لا يترك لك مقالا ولا شكا. ويستوي الجميع في مشاهدته . وبذلك يكون ما أظهره يثبت: أني رسول الله.

31- قال فأت به إن كنت من الصادقين.

سجل القرآن أن فرعون تبعا لكبره ورفضه لقبول الحق كيفما كان، أنه لم يلتزم الرضوخ للدليل الذي سيأتي به موسى، بل اقتصر على إذنه أن يقدم دليله، دون التزام منه مسبق. ثم شكك في كلام موسى بقوله: إن كنت من الصادقين.

32—33، فألقى عصاه...بيضاء للناظرين.

إن شأن المرسلين واحد ،هم يعملون على هداية البشر، ولا يدخرون جهدا في تحقيق ذلك ، ويتعلقون بكل أمل ولوكان ضئيلا.

يبدو المشهد والعيون ترقب ما سيقدمه موسى. وإذا به في لحظة يلقي عصاه من يده على الأرض فتنقلب العصا التي كان الجميع يشاهدونها في يد موسى عصا لا تختلف عن غيرها من العصيّ. فما إن مست الرض حتى انقلبت إلى ثعبان عظيم لا يشك أحد في أنه ثعبان. ثم تابع ذلك بأن أدخل يده، التي لا تختلف عن لون

جلده، في جيب قميصه، ثم أخرجها فإذا هي أمـــام جميـــع النـــاظرين بيضـــاء أشـــد مـــا يكون بياضا ونقاء. يعجب بها الناظرون ويرغبون في إشباع بصرهم من جمالها.

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

الحاشر : الجامع.

ميقات يوم معلوم : يوم الزينة، يوم كسر خليج النيل.

نتبع السحرة: نتبعهم في نصرة ديننا وتأليه فرعون.

بيان المعنى الإجمالي :

التفت فرعون لأكابر القوم الذين كانوا حوله فـــي مجلســـه وقـــال لهـــم: إن موســـى عـــالم بالسحر ماهرٌ فيه، وأن ما يهدف إليه هـــو أن يســـتولي علـــى أرضـــكم وخيـــراتكم. فمـــا هو رأيكم؟ قالوا له: أمهلـــه وأخـــاه، بمقـــدار مـــا يتـــوزع الجـــامعون فـــي أرض مصـــر وقراها لجمع السحرة الذين تزخر بهم أرض مصر ويـــأتوك بهـــم. وافـــق فرعـــون علـــى هذا. وبعد مدة قليلة حضر السحرة، وحُـــدِّدَ يـــوم الزينـــة موعـــدا للاجتمـــاع، ونـــودي أن احضروا الاجتماع العام، لنتبع السحرة في نصـــرة ديننـــا. لمـــا جـــاء الســـحرة واجتمعـــوا بفرعون اشترطوا عليه أولا أن لا يكـــون عملهـــم تســـخيرا بـــل بـــأجر إن تغلبـــوا علـــى موسى. فأجابهم لكم ذلك وفوق ذلك سأقربكم مني.

بيان المعنى العام:

34-›35: قال للملأ حوله...فما ذا تأمرون.

قال فرعون إمعانا منه في المكابرة، والتفت إلى أكابر القـــوم الـــذين كـــانوا حولـــه فقـــال: "إن الذي فعل هذا لا يكـــون إلا ســـاحرا متقنـــا لفـــن الســـحر، عليمـــا بخفايـــاه. وصـــادق الحاضرون على ما قدمه كما جـــاء ذلـــك فـــي ســـورة الأعـــراف. آيـــة 109- وحـــذرهم تحذيرا مبطنا كما تقدم أيضا فـــي ســـورة الأعـــراف أن موســـى يرمـــي إلـــى الاســـتيلاء

على أرض مصر ويخرج القبط منها. وأشــركهم فـــي المشــورة ليكونـــوا ملتـــزمين بمـــا يستقر عليه الرأي في أمر موسى.

36←37، قالوا أرجه وأخاه..بكل سحار عليم .

اجتمع رأيهم أن لا يعاجلوه بالعقاب ، وأن يؤجلوه مع أخيه، وأن يبعثوا في مدن مصر وقراها جامعين، يجمعون السحرة، ويأتون بكل سحار خبير، متقن لفن السحر .

38←40، فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ...إن كانوا هم الغالبين.

لم يمض وقت طويل حتى جُمع السحرة من جميع المـــدن والقـــرى، وحـــدد يـــوم الزينـــة ليكون موعد الاجتماع، كما جـــاء فـــي ســـورة الأعـــراف. واســـتحث المنـــادون الشـــعب على الحضور. إننا نرجو أن يتغلب السحرة ويبطلـــوا مـــا جـــاء بـــه موســـى، ونواصـــل اتباع ديننا بانتصار السحرة . وتخرج مصر من أزمـــة الثقـــة التـــي خلخـــل بهـــا موســـى ملك فرعون ، وما غرسه في قلو ب الشعب أنه يتصرف فيهم بإنابة من الآلهة .

41←42، فلما جاء السحرة...لمن المقربين.

لما اجتمع مهرة السحرة عنـــد فرعـــون، وقـــد شـــعروا أن فرعـــون فـــي أشـــد الحاجـــة لتأييدهم للانتصار على موسى وما يدعيه، قالوا لـــه: أتعطينـــا أجرنـــا علـــى مـــا نتعاطـــاه من السحر إن تغلبنا على موسى ؟ وأجاب فرعـــون، وبـــدا الضـــعف عليـــه وأن الســـحرة هم المنقذون له: نعم لكم أجـــركم وافيـــا، وفـــوق ذلـــك فســـأرفع منـــزلتكم لتكونـــوا مـــن المقربين عندي ومن خواصي.

قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

بيان معاني الألفاظ :

بعزة فرعون : مستعينين على الفوز بقدرة فرعون الإله.

تلقف: تبتلع.

يأفكون: يكذبون.

من خلاف: يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى حتى يفقد التوازن .

بيان المعنى الاجمالي :

خاطب موسى السحرة قائلا: ألقوا ما أعددتم. فتقدموا وألقوا حبالهم وعصيهم، واستعانوا ببركة فرعون قائلين بقوة فرعون إنا سنغلب موسى وننتصر عليه. تحركت الحبال والعصي وخيل للناظرين أنها غاية من الحيات تتحرك بقوة، فبلغت بهم الرهبة أشدها. وعندها ألقى موسى عصاه فإذا هي تلتهم تلك الحبال والعصي ولا تبقي لها أثرا. تيقن السحرة أن عصا موسى ليست من السحر في شيء. وأنه حقا مؤيد من الله، فخروا سجدا لله، وقالوا آمنا برب موسى وهارون اللذين دلانا على المعبود الحق. تغيّض فرعون وقال: آمنتم برب موسى وهارون قبل أن تستأذنوني. إن موسى هو أعلم منكم وهو الجدير بأن يعلّمكم، فعن قريب سأنفذ فيكم وعيدي: لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ثم أصلبنكم جميعا لا أستثني أحدا منكم من العذاب. أجابوا: لا يضرنا تهديدك ووعيدك، إنا سائرون لنلقى جزاءنا عند ربنا، ونحن نأمل أن يغفر لنا خطايانا لأنا كنا السابقين للإيمان برب موسى وهارون.

بيان المعنى العام :

43-44، قال لهم موسى ألقوا...إنا لنحن الغالبون.

لما حضروا في الميقات سألوا موسى: أن يختار أن تكــون ضــربة البدايــة لــه أو لهــم؟ وذلك من شدة ثقتهم بأنفسهم كما تقدم فــي ســورة الأعــراف. وأن موســى ﷺ أذن لهــم أن تكون ضربة البداية لهم وقال لهم مستخفا بمــا هيــأوه: اطرحــوا كــل مــا أعــددتموه. كان ما أعدوه حبالا وعصيا، ألقــوا جميعهــا وقرنــوا فعلهــم بقــولهم: نحــن مســتعينون بقوة فرعون، إنا لنحن الغالبون. أي إن الغلبة ســتكون لنــا بعــزة فرعــون وقوتــه تبعــا لاعتقادهم ألوهيته.

45-فألقى موسى عصاه...ما يأفكون.

بعد أن تحركت الحبال والعصي حركــة أوهمــت الحاضــرين أنهــا ثعــابين دبــت فيهــا الحياة فملكتهم الرهبة، ألقى موسى عصاه، فأخــذت تلــتهم فعــلا مــا كــان أمامهــا مــن الثعابين الموهومة، وتعدمها دون أن تبقي لها أثرا.

46-48، فألقي السحرة ساجدين ...رب موسى وهارون.

يعلم السحرة أن السحر تخييل ولا حقيقــة لــه، وأن قــدرتهم تكمــن فــي تحكمهــم فــي تصورات الناس .فلما شاهدوا أن ما أتى به موسى حــق لا تخييــل، علمــوا علــم اليقــين

أنه ليس من السحر في شيء، وأن ما تـم لا يكـون إلا مـن الله، فـأعلنوا إيمـانهم بـرب العالمين رب موسى وهارون ، ووصـلوا رب العـالمين بموسـى وهـارون نظـرا إلـى أن الهداية تحققت عندهم بواسطتهما عليهما السلام . وصـرحوا بهـذا أمـام المـلأ الـذي كان حاضرا .

49- قال آمنتم له ....لأصلبنكم أجمعين .

عندها سُقط في أيدي فرعون، ولا شك أنـه شـعر بـأن ملكـه يهتـز، فـأراد أن يسـلط نقمته على السحرة لا لأنهم غُلِبُـوا، ولكـن لإعلانهـم الإيمـان بـرب العـالمين قبـل أن يستأذنوا منه. وهذا هو شأن الطغاة قبـل فرعـون وبعـده، أنهـم يهتمـون بـالتحكم فـي الأفكار والعقائد أكثر من التحكم في الرقاب والأمـوال. فإيمـانهم بـالله قبـل إذنـه أعظـم كبيرة يؤاخذون عليها ،ويتأهلون للنكال بهم من أجلها أبلـغ تنكيـل. وحتـى يغطـي علـى غطرسته برر ذلك بأن موسى أعظم منهم في علوم السـحر بـل هـو المعلـم لهـذا العلـم وما تغلـبُه عليهم إلا نتيجة ضعفهم العلمـي. ولـذا تهـددهم بأنـه سـيقتلهم شـر قتلـة، سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف يقطـع اليـد اليمنـى والرجـل اليسـرى، ثـم يصـلبهم على جذوع النخل إلى أن يموتوا صـلبا متمكنـا لا يسـتطيعون منـه فكاكـا، ولـذا عبـر بكلمة :في ، كأن الصلب سيقع داخل الجذوع.

50←51، قالوا لا ضير...أن كنا أول المؤمنين.

أجابوا فرعون: لا نهتمُّ بما يصيبنا مـن ضـر سـاعة قليلـة، لنصـير إلـى ربنـا وهـو راض عنا. إنا نؤمل أن الله بفضله وكرمه سـيغفر لنـا مـا تقـدم منـا قبـل اليـوم مـن الخطايا. وأن يثيبنا ثوابا زائدا لأنا كنا أول من آمن مـن القـبط. أي إننـا شـرعنا للنـاس اتباعنا في الإيمان بإله موسى وهارون . وهذا يقابل ما جـاء فـي الآيـة 40 لعلنـا نتبـع السحرة على الكفر بما جاء به موسى.

• وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ

ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

المدائن : جمع مدينة البلد العظيم.

الشرذمة : الطائفة القليلة من الناس.

الغيظ: الغضب الشديد.

حذرون : متيقظون للحوادث.

جنات: جنات النخيل التي كانت على ضفاف النيل .

الكنوز: الأموال المدخرة .

الكريم : النفيس في نوعه.

الفرق: الجزء المفروق من البحر.

الطود : الجبل .

أزلفنا : قربنا.

الآخرين : قوم فرعون

بيان المعنى الإجمالي :

بعد مدة من انتصار موسى على سحرة فرعون وإيمانهم بالله، أوحى الله لموسى أن سر ليلا بعبادي بني إسرائيل. وإن فرعون سيتبعك بجنوده. وخرج موسى بقومه تحت جنح الظلام. وبمجرد ما تفطن فرعون لخروجهم أرسل في مدائن مصر رجالا ينادون: إن هؤلاء الخارجين هم شرذمة حقيرة قليلة العدد، قد أغضبونا أشد الغضب، وإن شعب مصر وحكومته على يقظة تامة وعلى حذر منهم. وتعبأ الشعب إلى أن بلغ فرعون الطريق الذي سلكوه، والمكان الذي وصلوا إليه. فجمع قادة الجيش والجنود وكل من يستطيع حمل السلاح، وخرجوا للقبض على موسى وقومه تاركين وراءهم أموالهم والجنات التي كانوا ينعمون فيها والأراضي التي كانت تتخللها العيون، والمساكن الرفيعة المتميزة. خرجوا على هذا النحو، ومكن الله بني إسرائيل من أمثال ما خلفه فرعون وقومه لما تغلبوا على الكنعانيين في أرض الشام. وسار فرعون وقومه في إثر موسى مشرقين نحو البحر الأحمر. وعلى شاطئ البحر اقترب الجيشان من بعضهما فكان كل واحد منهما يرى الآخر. خاف بنو إسرائيل من قوة جيش فرعون ، وقالوا لموسى: وقعنا في قبضتهم . أجابهم موسى نافيا ظنهم كلا: هذا

غير صحيح. إن لطف ربي يصحبني وسيهديني لطريق النجاة. وعند ذلك أوحى الله إلى موسى: أن اضرب بعصاك البحر. ضرب موسى بعصاه البحر فانفلق البحر وظهرت طرقات يابسة على جوانبها أمثال الجبال العظيمة من المياه. اقترب فرعون وقومه من بني إسرائيل حتى كانوا جميعا يسلكون تلك الطرق. وفي لحظة أطبقت عليهم تلكم الجبال من الماء، بعد أن أنجى الله موسى وجميع الذين كانوا معه. وأغرق الآخرين: فرعون وقومه ولم ينج منهم أحد حيا.

إن هذا الذي قصه القرآن ليتضمن دليلا على قدرة الله وتقديره الغلبة للمؤمنين. ولكن أكثر الذين يتلى عليهم غير مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الذي لا يعجزه إهلاك الكفرة المعاندين، وهو الرحيم بعباده المؤمنين.

بيان المعنى العام :

52- وأوحينا إلى موسى ...إنكم متبعون.

مرت فترة من الزمان بعد ظهور الآيات التي أيد الله بها موسى ﷺ . لم تفصل السورة أحداثها. وأوحى الله بعدها إلى سيدنا موسى أن المطلوب منه أن يخرج ليلا ببني إسرائيل المشرفين بنسبتهم إليه " عبادي " وأعلمه: أن فرعون سيتفطن لخروجهم وسيتبعهم ليحول بينهم وبين مغادرتهم أرض مصر.

53-فأرسل فرعون في المدائن ....وإنا لجميع حذرون.

خرج موسى تحت جنح الظلام يقود قومه، وبعد خروجه تفطن فرعون للأمر. وقرر أن يحول بينهم وبين ذلك. وأراد أن يأخذ عليهم جميع الطرق حتى يردهم من أي طريق سلكوه. فأرسل في جميع المدن المصرية من يطلق صيحة الفزع لتستعد كل مدينة من مدن مصر الاستعداد الكامل، وتخبر فرعون بمكانهم.

وكانوا ينادون بما يهوّن على سكان مملكته أمر تتبعهم والوقوف في وجههم، بأنهم جماعة قليلة العدد ، ويحفّزهم لتنفيذ الأمر بأنهم أغضبوا فرعون ملك مصر أقوى الغضب، وحثهم على العناية بتنفيذ الأمر بأن الأمر لا يخلو من خطر يستوجب الحذر، هذا الحذر الذي اشترك فيه فرعون وأهل مصر كلهم. فيكون من لم يقم بواجبه في كشفهم خارجا عن إجماع الأمة .

57-،58، فأخرجناهم من جنات...و مقام كريم.

لما وردت الأخبار المعينة للطريق الذي سلكوه، أجمع فرعون أمره وحشر قواده وجيشه. وتركوا وراءهم ثرواتهم النفيسة من جنات كانت تجري فيها الأنهار على ضفاف النيل ، ومنابع للمياه تنشر الخصب في الأراضي وما كانوا جمعوه من

أموال مدخرة ومساكن جمعت ضـروبا غير قليلة من الرفاهية تعد نفيسة إذا قورنت بغيرها من المساكن . كانوا يعتقدون أنهم سيقيدون بني إسرائيل بالحبال ويأتون بهم أسرى أشد ما يكون هوانا وذلا.

59-كذلك وأورثناها بني إسرائيل.

تم الأمر على هذا النحو الذي صورته الآيات. وأورث الله بني إسرائيل خيرات مثل ما خلفه المصريون وراءهم :جنات وعيونا في أرض الشام لما غلبوا الكنعانيين.

60-،61، فأتبعوهم ...إنا لمدركون.

لما خرج فرعون وجيشه متعقبين بني إسرائيل، وجدوهم قد اتجهوا نحو الشرق نحو البحر الأحمر.

كان فرعون أسرع من بني إسرائيل فلحق بهم، وأصبح كل منهما يرى الآخر لقرب ما بينهما. وحق ما أخبره الله بأنه متبعون، الذي يدل على أنه سيحميهم منه. وحسب المعطيات الظاهرة أحس بنو إسرائيل بالخطر يتهددهم، البحر أمامهم، والعدو المدجج بالسلاح وراءهم. فقالوا لموسى: يقينا إنا سنقع في قبضتهم.

62-قال كلا إن معي ربي سيهدين.

كان جواب موسى حاسما رادعا لهم عن الشك في النجاة. كلا، لا يدرككم فرعون وجنده، إن لطف ربي يصحبني وهو قد وعدني نصره، وهو لا يخلف وعده. وإنه بناء على ذلك سيهديني للمخرج الذي نسلم به .

63-،66، فأوحينا إلى موسى...ثم أغرقنا الآخرين.

جاء الفرج بعد الشدة: أوحى الله لموسى: اضرب البحر بعصاك. وضرب موسى البحر بعصاه فإذا هو مسالك وطرق يابسة على جانبي كل طريق يرتفع الماء كالجبال العظيمة.

64- ومن عجيب صنع الله أن قرب فرعون وجنده من بني إسرائيل فتبعوهم في المسالك التي جروا فيها في البحر، حتى لم يبق منهم أحد خارج تلك المسالك، كما يدل عليه قوله تعالى " ثَمّ " والآخرين هم فرعون وقومه. وعبر عنهم بالأخرين احتقارا لهم وتوهينا لشأنهم.

تصريح بالنتيجة، وتسجيل لنعمة الله، أنجى الله موسى ومن معه، ولم يتخلف أي واحد منهم، وعاشوا جميعا لحظة النصر وراء رسولهم. وشاهدوا جميعا إغراق الآخرين.

67-،68، إن في ذلك لآية...لهو العزيز الرحيم .

بكل تأكيد فيما عرضناه عليك من أمر موسى ﷺ وكفاحه لغطرسة فرعون ما يقوم دليلا على أن القدرة الإلهية تتصرف في الكون تصرف الحكمة الخارجة عن تصورات البشر، يؤيد أنبياءه ويعلي شأنهم في الوقت الذي تكون فيه جميع المعطيات لا تدل على ذلك. وهذه الآية التي ذُكر بها كحاصل للقصة لا تتعلق بقوم فرعون، ولكنها تشير إلى القوم الذين بعث إليهم النبي ﷺ . كان عليهم أن يعتبروا وينظروا في المآلات، ويقلعوا عن التكذيب ومعاكسة الدعوة الإسلامية . لكن أكثرهم كانوا غير مؤمنين . وكما جاء في أول السورة: الإشفاق على رسول الله من حزنه على رفض الإيمان من قومه، فإن هذه الظاهرة تجعل كثيرا من قومه لا ينفع فيهم ما ذكروا به من أمر موسى وفرعون.

وإن ربك يا محمد هو العزيز الذي لا يعجزه أمر هؤلاء الكفرة، وهو الرحيم الذي هدى من كتبت له السعادة إلى الإيمان.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

التلاوة : القراءة.

نبأ إبراهيم : قصة إبراهيم.

الصنم : ما كان من الأوثان على صورة بني آدم.

نظل : أصل استعمالها في الفعل نهارا، عكس بات، وطفق لليل والنهار.

عدولي: أبغضهم .

الخطيئة : الذنب.

بيان المعنى الاجمالي :

اقرأ على الناس قصة إبراهيم حين قـال لأبيـه وقومـه سـائلا مـا تعبـدون ؟ أخبرونـي عن معبودكم .أجابوه بكل ثقة نعبد أصـنامًا منحوتـة ، فنواصـل عبادتهـا كامـل اليـوم. وإذ حددوا الإله الذي يعبدونه، كـر علـيهم ليبطـل معبـوداتهم، ويبـين لهـم الحقيقـة . فسألهم أيسمعون ابتهالاتكم ودعاءكم لهـم ؟ أينفعـونكم إذا احتجـتم للعـون مـنهم ؟ وهـل يضرونكم إن أنتم أعرضتم عنهم ؟ أحرجهم فلم يجدوا جوابـا سـوى أنهـم قلـدوا اباءهم في عبادتهم. أجابهم إبراهيم: أنظرتم في أمـركم لتتبينـوا حقيقـة مـا تعبـدون أنـتم ومـا عبده اباؤكم من قبلكم عبر الأمـاد الماضـية؟ إنـي أعلـن عـدائي لجميـع آلهـتكم، ولا أخضع إلا لله رب العالمين.

الله رب العالمين هو الذي خلقني، وهو وحده الـذي يهـديني سـواء السـبيل فـي عقلـي وعقيدتي، وفي اختيـاراتي لأكـون موفقـا. وهـو وحـده الـذي يمكننـي مـن الغـذاء والشراب، وهو الذي يشفيني من دائـي إن مرضـت، وهـو الـذي يـتحكم فـي حيـاتي فيميتني متى شاء، ثم يبعثني ليحاسبني علـى مـا قـدمت. وفـي ذلـك اليـوم أنـا آمـل طامع أن يشملني بفضله فيغفر لي تقصيري .

بيان المعنى العام :

69←70، واتل عليهم ...ما تعبدون.

أعقب القرآن قصة موسى بقصة إبراهيم عليهما السـلام. فـأمر الله نبيـه أن يقـرأ علـى قومه قصة إبراهيم، وما تضمنته من إبطال الشرك بإعمال النظر العقلي.

أمر النبي ﷺ بقراءة قصة إبراهيم، حـين قـال لأبيـه وقومـه: مـا تعبـدون ؟أي حـين استفسرهم عن جنس ما يعبدون، ليصـرحوا بتعيينـه حتـى يسـتطيع أن يُقـوِّمَ عقيـدتهم بعد أن تكون محددة بكلامهم .

71- قالوا نعبد أصناما. فنظل لها عاكفين .

صرحوا بأنهم يتقربون إلى الأصـنام بالعبـادة، وإظهـار الطاعـة لهـا وهـم يواظبـون على ذلك كامل أوقات النهار." عاكفين "

72←73قال هل يسمعونكم...أو يضرون.

لما حددوا بتصريحهم علاقتهم بالأصنام، وأنهم يعبـدونها كامـل الوقـت، تهيـأ لإبـراهيم أن يدخل في محاجتهم حسـب أقـوالهم .فكـان السـؤال الأول منـه، إذا كنـتم تعبـدونهم فهل يسمعون ابتهالاتكم ودعاءكم وما يجري على ألسـنتكم مـن التقـديس لهـا؟ ثـم إنكـم

تتضرعون لهم ليساعدوكم بتحقيق رغباتكم، وينفعوكم. فهل يستطيعون أن يقدموا لكم نفعا مرجواً؟ وهل يستطيعون أن يضروكم إذا قصرتم في إرضائهم ؟

74- قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون.

أحرجهم بسؤاله هذا، فلم يجدوا إلا جوابا واحدا. هو اعتمادهم على تقليد من اكتسب صدقه من تقادم الزمن؛ فقالوا: إنا وجدنا آباءنا يعبدونهم على النحو الذي نعبدهم فقلدناهم.

75←77«قال أفرأيتم ...إلا رب العالمين .

تأملوا واستيقظوا فإن كلامكم يدعو إلى العجب ! ما كنتم تعبدونه، وما عبده آباؤكم من قبلكم، وما أسبغتم عليهم من القداسة لقدم عبادتهم، باطلٌ والباطلُ لا ينقلب حقا بالقدم. واعلموا أن موقفي من جميع معبوداتكم وعلاقتي بهم، هي علاقة العداوة. لكني أفرد بالعبادة رب العالمين.

78←82«الذي خلقني فهو يهدين.... يغفر لي خطيئتي يوم الدين.

أخذ إبراهيم يعرفهم بصفات الله المميزة له، وتصرفه في الكون، وحاجة الإنسان له. فابتدأ أولا: بأنه هو الذي خلق الإنسان فأحسن خلقه، وهو الذي هدى الإنسان بواسطة ما أودع فيه من قوانين تحفظ له حياته وتعرفه على الكون، كالبصر والسمع والتقام الثدي ، وجريان الدم في عروقه وكل الأجهزة التي بها كان إنسانا حيا. وهو الذي خصه بالعقل الذي يكشف له الحق ويعرفه بالزيف والباطل. ويحيطه بألطافه الحامية له من الزيغ والضلال.

ثم ثنى بأن عنايته بالإنسان لا تقف عند حدود الخلق الإيجادي وخلق الأجهزة العقلية والجسمية، ولكن تتعدى ذلك إلى مساعدة الإنسان على الحياة في كل لحظة من لحظات حياته، على معنى أنه لولا عناية الله بالإنسان المتواصلة ما استطاع أن يستمر في الوجود ولو لحظة. فغذاؤه وريه يصل إليهما بفضل عناية ربه.

ثم ثلث بعون الله للإنسان إذا ما اختلت صحته، فمرض. من الذي يشفيه من سقامه غير الله؟ إن الدواء لا يحدث أثره إلا إذا أراد الله للمريض الشفاء، ولا ينفع تدخل الطبيب إلا إذا هدى الله الطبيب لتشخيص الداء، وهداه لوصف العقاقير الملائمة لخواص المريض. واستجاب البدن لفعل الأدوية.

ورابعا – سر الوجود المُعمّى عن الإنسان: الحياة والموت. إن الذي بعث فيَّ الروح فحييت، والذي يسلب مني هذه الروح فأموت، ثم يعيدها إلي لأبعث من جديد. هو الله .

- إن علاقتي بربي متواصلة إلـى يـوم أبعـث وأقـف بـين يديـه للحساب فـي يـوم الجزاء. إني أطمع أن يغفـر لـي تقصـيري فـي ذلـك اليـوم ، ولا يؤاخـذني . وهـو موقف يدل على ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان مهما علـت قيمتـه فـي مراتـب القـرب من الله. سواء أكان من الأنبياء والمرسـلين، أم مـن العبّـادِ والصـالحين؛ إنـه لا مطمـع لأحد في النجاة إلا إذا تفضل الله عليـه بـالقبول وغفـر لـه تقصـيره. ومـن ضـروب التقصير غفلة العابد عن المعبود والاشتغال بما سـواه . جعلنـي الله وإيـاكم ممـن يحـل عليه رضوانه يوم يبعثون.

رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحكم : الحكمة والنبوة.

لسان صدق : كلام مرغوب فيه محقق.

ورثة جنة النعيم : المستحقون لها استحقاق الوارث لمخلف الميت.

الخزي : الحياء من الوضع الذي هو فيه، والمهانة .

بيان المعنى الإجمالي :

ابتهل إبراهيم إلى ربه راجيا أن يستجيب له، فدعاه: أن يهب لـه مـن فضـله حكمـة فـي عقله تبين الحقيقة بوضوح فيـدرك أعماقهـا ولا يخفـى عليـه شـيء منهـا. وأن يجمـع بينه وبين الصالحين المرضيّ عـنهم مـن عبـاده. وأن يجعـل أعمالـه وأخلاقـه مثـالا يحتذى وينوه به في الآماد المسـتقبلية. هـذا فـي الـدنيا، وأمـا فـي الآخـرة فـدعا، أن يجعله من الذين يتملكون مقامهم في جنة النعـيم والكرامـة، كمـا يتملـك الـوارث مـال مورثه . وأن يغفر لأبيه الذي كان من القوم الضالين، وكـان دعـاؤه هـذا قبـل أن يتبـرأ منه. وأن لا يكون يوم يبعث الناس مـن قبـورهم إلـى الحسـاب، فـي وضـع يسـتحيى منه.

ثم أخذ القرآن يفصل بعض أهوال هذا اليـوم: يـوم لا ينفـع الإنسـان أخـص مـا كـان يعتز به ويطمئن إلى أنه يستمد منه قوته ، ويكون له مناعـة مـن النوائـب ، وهـو مالـه

وبنوه . ولا ينفع المبعوث في تلك اليوم شيء مما لــه قيمــة إلا إذا أتــى للموقــف وقلبــه سليم من مرض الشرك والنفاق، وكذلك من كبائر الذنوب بالتوبة منها.

بيان المعنى العام :

83—89: رب هب لي حكما...بقلب سليم.

بلغ إبراهيم ﷺ تصوره السامي لرب العالمين ، وتبرأ مــن كــل حــول وقــوة، وأن كــل ما ينعم به هو من فضل ربه عليه ، وإذ قد أتم ما يعتقد أنــه مهمتــه الأولــى توجــه إلــى ربه يدعوه في خشوع وإنابة، وهو الأواه الحليم. ومن رقــة قلــب إبــراهيم وصــفائه أنــه يتوجه بالدعاء كلما ختم أمرا أخلــص فيــه لله ، إذ يــراه الظــرف الــذي يكــون أرجــى للقبول . فهو عندما كان يرفع قواعد البيــت الحــرام ســجل القــرآن دعــاءه: وإذ يرفــع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربّنا تقبل منّــا[1]. وعنــدما أتــم مهمــة بنــاء البيــت وأسكن زوجه وابنه حولهــا : ربّ اجعــل هــذا البلــد آمنــا واجنبنــي وبنــي أن نعبــد الأصنام [2]– وعلى سنته تلك دعا ربه أن يكرمه من فضــله، وأن يهــب لــه مــن عنــده، لا جزاء على ما فعل ولكــن علــى ســبيل التفضــل، أن يهبــه الحكمــة التــي تتجــاوز الظواهر إلى الحقائق، والدنيا إلى الآخــرة ، والعاجــل الفــاني إلــى الــدائم البــاقي. وأن يجمع بينه وبين زمرة الصالحين المهتدين المرضــيْ عــنهم . إذ مــن كمــال الســعادة أن يكون الإنسان مع الجمع الذين يرتاح لهــم ويــأنس لطــريقتهم وأخلاقهــم .وقــد اســتجاب الله دعاءه ؛ قال تعالى:(وإنه في الآخرة لمن الصالحين)[3].

ثم سأل ربه أن يجعل له ذكرا حســنا ســائرا مــدى الــدهر فــي الأمــم والأجيــال. وقــد أجاب الله دعاءه، فجميع أمم المرسلين بعده تــذكره وتعظمــه وتقتــدي بــه. قــال تعــالى: ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا مــن ســفه نفســه[4] وأثنــى عليــه القــرآن فــي آيــات عديدة.

بعد أن أتم دعاءه بما يحقق له طموحاته العالية في الدنيا انتقــل إلــى الــدعاء بمــا يتعلــق بالآخرة. فكان ســؤاله الأول فيهــا أن يجعلــه مــن الــذين يســتحقون الجنــة اســتحقاق الوارث لمخلف مورثه استحقاقا ثابتا.

---

[1] سورة البقرة الآيات 127/129

[2] سورة إبراهيم الآيات 36/41

[3] سورة البقرة 130

[4] سورة البقرة آية 130

ثم أعقبه بالدعاء لأبيه أن يغفـر لــه. واستُشْـكل دعــاء إبــراهيم لأبيــه الكــافر. ويــدفع الإشكال ما جاء في سورة التوبة (وما كــان اســتغفار إبــراهيم لأبيــه إلا عــن موعـدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منــه إن إبــراهيم لأواه حلــيم)[1]. نعــم إن أبــا إبراهيم وعد ابنه أن يؤمن ، ولكنه مات على الكفر، وما طبـع عليــه إبــراهيم مــن رقــة القلب، ولين الجانب بشــهادة القــرآن فيــه، جعلــه يســتغفر لأبيــه بعــد موتــه، وهــذه الآية(86) تتحدث عن ذلك الظــرف. ثــم إن الله نهــى إبــراهيم عــن الاســتغفار لأبيــه فانتهى، وتبرأ منه.

ثم سأل ربه أن لا يخزيه يوم القيامة. والخــزي انكســار فــي الــنفس، قــد يكــون مــن شدة الحياء ومصدره الخزاية . وقد يكون مــن الغيــر ومصــدره الخــزي . والأقــرب أن يكون سؤال إبراهيم أن يحميه من الخزاية بالمعنى الأول .

أتبع القرآن يوم يبعثون، بقوله :(يوم لا ينفــع مــال ولا بنــون إلــى الآيــة 102 فلــو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين). والــذي جــرى عليــه معظــم المفســرين أن الآيــات مــن كلام إبراهيم. والذي رجحه ابن عطية والشيخ ابن عاشــور أن الآيــات كلهــا مــن كــلام الله تعالى. وأن توسلات إبراهيم انتهت عند قوله: ولا تخزني يوم يبعثون.

وصف يوم يبعث الناس للحساب، بأنه يوم لا ينفــع فيــه مــال ولا بنــون إلا مــن أتــى الله بقلب سليم. والمعنى والله أعلــم: لا ينفــع المبعــوثين شــيء لا مــال ولا بنــون لكــن المبعوث الذي جاء ربه بقلب سليم فإنه يحصــل لــه النفــع بــذلك. والقلــب الســليم هــو القلب الذي لم يصب بمرض النفاق والكفر. وأما المعاصي فــإن مــن تــاب منهــا توبــة مقبولة فإنه سليم القلب لا يخزى يوم القيامة. ومن لــم يتــب قبــل خــروج الــروح فــأمره إلى ربه إن شاء غسل له قلبه من آثامه بفضله ، وإن شاء عذبه بعدله ورحمته .

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً

---

[1] سورة التوبة آية 114

فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝

بيان معاني الألفاظ :

أزلف : قرب.

برزت : برزت وظهرت ظهورا شديدا.

الغاوون : جمع غاوٍ، الضالون، والمضلون.

التسوية : المماثلة.

الحميم: القريب، جمع الصداقة والقرب.

الكرة : مرة من الرجوع.

بيان المعنى الإجمالي :

يقرب الله الجنة من المتقين يوم البعث فيرون منازلهم وتحل الطمأنينة قلوبهم . وبالمقابل تكون جهنم بارزة أشد البروز لأهل الضلال والفساد. ويُسأل الغاوون سؤال تبكيت واستهزاء، أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله ؟ إنكم كنتم تعتقدون أنها تنصركم فهل تستطيع أن تنصركم اليوم، بل هل تستطيع أن تنصر نفسها من المهانة والعذاب ؟ ويعقب هذا السؤال بأن يطرح في جهنم في ضربة واحدة الأصنام، والعابدون لهم، ومن كان إبليس يستعين بهم لإغواء الناس وإضلالهم عن الطريق المنجي. ما يجري بينهم من الحديث في جهنم، هو خصام يقول الكفرة والمشركون لآلهتهم التي كانوا يقدسونها: قسما بالله إننا كنا مغرقين في الضلال الواضح. من كمال ضلالنا وغبائنا أنا كنا نجعلكم في مرتبة واحدة مع الله رب العالمين، فكنا نعلق عليكم الآمال في العون والنصرة. إن الذين خدعونا فأهلكونا هم المجرمون. فاليوم لا نجد شفيعا يشفع فينا فتنفعنا شفاعته ،ويخفف عنا ما نلقاه ، ولا نجد صديقا قريبا نبث له شكوانا أو يقدم لنا نصيحة تساعدنا على الخروج من كربنا. وستكون أمنيتهم العودة إلى الدنيا فيؤمنوا ويصلحوا أعمالهم حسبما استفادوا من التجربة . وهي أمان لا تزيدهم إلا مضاعفة حسراتهم.

إن في قصة إبراهيم وما عقبت به من جزاء الصالحين وبيان منازل المكذبين الضالين ،لأدلة تلهم الناظرين اتباع طريق الهداية، ولكن أكثر الناس المخاطبين بالآيات صمموا على الكفر فلا يستفيدون. وإن ربك لهو العزيز الذي سينتقم من

الكفرة، وينصر برحمته الصـــالحين المـــؤمنين. وفيــه بشـــارة بنصـــر الإســـلام ، ودحـــر الكفر . والله غالب على أمره.

بيان المعنى العام :

90- وأزلفت الجنة للمتقين .

مما يتفضل الله به على المتقين الحذرين مـــن المعصـــية ، الـــراغبين فـــي فعـــل الخيـــر ، عند البعث أنه يقرب لهم الجنة فيرون مكانهم فيها فيطمئنون على مصيرهم

91- وبرزت الجحيم للغاوين.

وفي المقابل فإن جهنم يتم إبرازها بقـــوة تأخـــذ حـــواس الغـــاوين الضـــالين والمضـــلّين، ورؤيتهم لجهنم قبل أن يدخلوها تعجيل للعذاب النفسي.

92←93وقيل لهم أين ...أو ينتصرون .

مع كامل الاحتقار يسمعون قولا، لم يســـم قائلـــه، يـــوبخهم :أيـــن هـــي معبـــوداتكم التـــي كنتم تعبدونها من دون الله راجين منها النفع، أملين منهـــا أن تبـــدل ضـــعفكم قـــوة ؟ هـــل هي قادرة على نصركم وإخراجكم من البلاء الذي أنتم فيـــه؟ بـــل هـــل هـــي قـــادرة علـــى أن تنصر نفسها تهكما بها وبعابديها.

94←95، فكبكبوا فيها ...وجنود إبليس أجمعون.

وعند ذكر الأصنام العاجزة المستهزأ بها وبعُبّادها، تكـــب فـــي جهـــنم كبـــا. ويلقـــى بهـــا في جهنم كما تجرف الجرافات المزابل، يُجْمَعُون إلى جنـــود إبلـــيس الـــذين عملـــوا علـــى إضلال الناس ، فلا يبقى منهم أحد خارج جهنم .

96←98، قالوا وهم فيها يختصمون......برب العالمين.

سجل القرآن ما يقولونه وهم في النار، فأبرز الظـــاهرة الأولـــى: أنهـــم يختصـــمون فـــي جهنم، علاقتهم علاقة كراهية وعداء وإلزام.

97←101، تالله إن كنا لفي ضلال...فنكون من المؤمنين.

أقسموا قسما فيه تعجب من حالهم في الدنيا خاطبوا بـــه أصـــنامهم: مـــا كنـــا فـــي الـــدنيا إلا مغرقين في الضلال الواضح، في ذلـــك الظـــرف الـــذي نجعلكـــم ورب العـــالمين فـــي مرتبة واحدة.

ثم التفتوا إلى زعمـــائهم واصـــفين لهـــم بـــالمجرمين، ذاكـــرين أنهـــم قـــد عملـــوا علـــى إضلالهم في الدنيا، وغطوا عليهم طريق الخيـــر، ولبســـوا علـــيهم طريـــق الشـــر وحببـــوه لهم. وأطمعوهم فـــي الفـــوز إذا هـــم اتبعـــوهم. وقـــد أثّـــروا فـــيهم بمختلـــف التـــأثيرات المموهة ، واعتقدوا أنهم سيجدون فيهم الملجأ والعـــون فـــي مصـــيرهم . زفـــرت قلـــوبهم

بحالة الإحباط التي هم عليها فقالوا: ما لنا مــن شــفيع، لــم نجــد أحــدا اليــوم ، يكــون شفيعا لنا فيما ارتكبناه من ضلال وفساد، ولــم نجــد صــديقا قريبــا يواســينا أو يشــاركنا فنبُثُ له شكوانا ليسلينا.

102-فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين .

تبين لهم ضياعهم، وكذب الذين كــانوا يزينــون لهــم طريــق الكفــر والضــلالة. وشــأن الخاسر أن يتمنى أن يأخذ الاحتياطــات ولا يغفــل كمــا غفــل فــي الســابق، فتمنــوا أن يعودوا للحياة الدنيا مرة واحدة ، فيقبلــوا علــى الإيمــان والعمــل الصــالح. ولكــن هــي الندامة والأسى، ثم اليأس تضاعف آلامهم.

103←104، إن في ذلك لآية ....لهو العزيز الرحيم.

إن في قصة إبراهيم عليه السلام ، وما عُقّبتْ به من بيــان منــازل المتقــين، ومنــازل الغــاوين الضالين، ما يوقظ القلوب للتأمل والاعتبار. ولكن أكثــر المبعــوث إلــيهم كــانوا معانــدين رافضين للإيمان. وإن ربك يا محمد هو العزيز الذي لا يغلبــه أحــد فسيحشــر إليــه كــل طاغية من المشركين فردا ذليلا. وإنه هو الــرحيم بعبــاده المــؤمنين. وبعزتــه ورحمتــه سينتصر الإسلام ويهزم الشرك.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (108) وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (109) فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (110) ۞ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ (111) قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (115)

بيان معاني الألفاظ :

الأرذلون : سقط القوم، المحقرون في المجتمع .

الحساب : أصله العد، واستعمل بما يفيد محاسبة الله للبشر.

بيان المعنى الإجمالي :

عطف القرآن قصة نوح على قصة إبراهيم عليهمــا الســلام. وافتتحــت القصــة بتســجيل الظاهرة الكبرى في قوم نوح وما تميــزوا بــه: أنهــم كــذبوا أن يبعــث الله رســولا مــن البشر ، فكل من يدعي الرسالة كاذب عندهم. قــال لهــم أخــوهم نــوح الــذي هــو مــنهم نسبا غير أجنبي عنهم: ما لكم لا تتقــون ربكــم فتعتقــدون العقيــدة الصــحيحة ،وتعملــون

العمل الصالح ! إني رسول مــن الله إلـيكم لا أغيــر شـيئا ممــا أمرنـــي بـــه ، والــذي جماعه تقوى الله، وطاعتي فيما أهديكم إليــه . ولا أطلــب مــنكم أي حــظ لنفســي. إنـــي أنتظر من رب العالمين أن يــوفيني جزائـــي ،فــاتقوا الله وأطيعــون .وتكــررت دعــوتهم لتقوى الله وطاعة نوح فيما يبلغهم عــن ربهــم ، نظــرا إلـــى أن مقامـــه بيــنهم بلــغ مــا يقارب ألف سنة ، فهو يؤكد عليهم بين الحين والآخر أن يتقوا الله ويطيعوا نوحا.

قالوا له : كيف يمكن أن نؤمن بك ونتبــع الـدين الــذي أتيــت بــه، فـــي الوقــت الــذي اجتمع حولك الأراذل وسقط الناس ؟ مع إشارة إلى أنهم كانوا يفعلون الشر.

أجابهم بأنه لا علم له بما يتهمونهم به، وأن الذي يهمـــه فقــط هــو وضــعهم الحــالي مــن الإيمان والاستقامة، وأما ما مضى أو مـــا تتهمــونهم بـــه فالــذي يتــولى حســاب النــاس على أعمالهم هو ربّي، وهو العليم بالظواهر والبــواطن. ولكــن شــعوركم غلــيظ، فــالفقر لا رابطة بينه وبين الرذالة. ولا يمكــن أن أطــرد المــؤمنين بعــد أن فــتح الله صــدورهم للإيمـــان. إن مهمتـــي، هـــي هدايـــة النـــاس للإيمـــان، وإنــذارهم الخســـران إذا هــم أعرضوا، أبذل في سبيل ذلك كل إمكانياتي ، وما يتيسر لـــي مــن الوســائل التـــي تبـــين لهم ذلك.

بيان المعنى العام :

105 - كذبت قوم نوح المرسلين.

بعد أن ذكر القرآن بإبراهيم عليه السلام ، وجهاده لإصلاح قومه ومـــا لاقـــاه مـــنهم، ومـــا عقـــب به القرآن من تفصيل لمآل الصـــالحين، ومـــآل المكــذبين الضـــالين. عطــف علـــى ذلــك قصة نوح عليه السلام لتسلية النبي ﷺ عما يلقاه من عناد المشركين.

افتتحت القصة بتسجيل تكذيب قوم نوح له. في الظــرف الــذي عــرض علــيهم الإيمـــان بما جاء به من عند الله. ومتابعة للآيات نلاحظ:

أولا: أن فعل كذب، فاعله قوم نوح. وكلمة قوم اســتعملت فـــي القــرآن علـــى أنـــه اســم مذكر، وفي هذه الآية جاء الفعل المسند إليها ملحقا بتـــاء التأنيــث الســـاكنة. وخــرج ذلــك بإحدى طريقتين: إما على أن قوم نوح مؤول بأمـــة قــوم نــوح، وإمـــا علـــى اعتبـــار أن قوم يصح اعتباره مــذكرا ومؤنثـــا، ويــدل علـــى التأنيــث أنـــه يصــغر علـــى قويمـــة. والتصغير يرد الكلمات إلى أصولها .

ثانيا: أن مفعول كــذب "المرســلين" جمعـــا، مـــع أن نوحـــا عليه السلام هــو أول رســول، ولــم يبعث معه رسول آخر حتى يجمـــع "المرســلين " وخــرج علـــى أن قومـــه يرفضـــون ولا يقبلون أن يكون بشر رسولا، فهم يكذبون جميع الذين يدعون الرسالة.

106←107، إذ قال لهم أخوهم...إني لكم رسول أمين.

افتتح رسالته بمخاطبتهم بقوله: ألا تتقون. مـا الموجـب الـذي جعلكـم لا تتقـون عقـاب الله باتخاذكم شركاء له. وهو سؤال إنكار عليهم عدم تقـواهم. ثـم حرضـهم علـى اتبـاع رسالته بقوله : إني رسول مـن عنـد الله ، أمـين علـى وحيـه لا أتزيّـد عليـه. وأنـتم تعلمون أمانتي بممارستكم لـي ومعـرفتكم لحيـاتي ومعـاملاتي. وممـا يؤكـد علـيهم قبول قوله أن رابطة النسب بينه وبينهم ، لا يتصـور معهـا أن يخـدعهم فـي عقيـدتهم عبّر القرآن عن هذه الصلة الوشيجة بقوله " أخـاهم". ومـا وقـع لنـوح ﷺ وقـع مثلـه لمحمد ﷺ ، فالكفر ملة واحدة. فقد كان النبي ﷺ معروفـا عنـد قـريش بـالأمين. ولكـنهم لم يستحيُوا ، لما دعاهم إلى الإسلام، من التصريح بتكذيبه.

108←110، فاتقوا الله ....فاتقوا الله وأطيعون.

فإذا كنتم قد جربتموني قبل الرسالة واطمـأننتم لصـدقي ، فـإن الواجـب علـيكم اليـوم أن تتقوا الله وتطيعوني فيما أبلغكم عنه .

إن ما أدعوكم إليه لا أطلـب فيـه مـنكم نفعـا لنفسـي. إنـي أعمـل ليكرمنـي ربـي برضوانه. وأنتظر أن يجزيني عن حرصي علـى هـدايتكم. فـاتقوا الله واطيعـوني فيمـا أدعوكم إليه.

111 - قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون.

قدموا تعليلا لرفضهم قبول دعوته، استنقصوا أتباعـه وقـالوا: إنـا وجـدنا الـذين قبلـوا دعوتك وآمنوا بها هم أراذل القوم ، الذين ليسـت لهـم مكانـة اجتماعيـة. هـم مُحقَّـرون عند الناس، من يلتصق بهم يهون اجتماعيا. وكبْرُهم يـدعوهم إلـى إلصـاق كـل نقيصـة خلقية بهم. وعلى هذا النحو من الكبريـاء واجهـت قـريش النبـي ﷺ لمـا أسـرع إلـى الإيمان به بعض الذين رزقوا روحا صافية، ولم يكـن لهـم حـظ مـن الثـراء، أو كـانوا مستعبدين، كبلال وعمار. وهذا من أمراض الجاهلية الـذين أغفلـوا القـيم الإنسـانية مـن ذكاء وعلم وخبرة وصلاح في العمل، وجعلوا ميزان الاعتبار الثروة والجاه.

112←115، قال وما علمي بما كانوا يعملون...نذير مبين.

كان جواب نوح سريعا معطوفا على كلامهم ، كأنه يقول لهـم ومـا يهمنـي مـن أمـر عملهم قبل أن يؤمنوا . يرد عليهم اقتـراحهم طـردهم بنـاء علـى سـوء أعمـالهم التـي هي تُهم ألصقوها بهم واعتقدوا تلبسهم بها، شـأنهم شـأن المتغطرسـين فـي كـل زمـان أن يصوروا الفقراء صورة منحطة خلقيا. قـال نـوح: ومـا يهمنـي مـا كـانوا يعملـون قبل إيمانهم بما جاءهم من عند الله، إذا كانوا قـد أصـلحوا شـأنهم. وأكبـر إصـلاح هـو

إصلاح العقيدة وعلاقتهم بالله التـــي صـــفت الآن بالتوحيـــد. أمـــا أعمـــالهم الســـابقة فمـــا بعثت لأحاسب الناس على ما كانوا قدموه من أعمال.

أما حسابهم وترتيب الثواب والعقاب، فهو موكـــول لربـــي وحـــده لا يشـــاركه فـــي ذلـــك أحد. وذلك لأن الحساب يقتضي علما بـــالظواهر والبـــواطن، وهـــذا لا يعلمـــه إلا ربـــي. وأضاف لو تشعرون، إشارة إلى غلظ حســـهم وغبـــائهم، فـــإن نســـبة النقـــائص للفقـــراء، وتنزيه أصحاب الثراء والجاه عـــن كـــل نقيصـــة، يعلـــن أن معتقـــد ذلـــك غيـــر شـــاعر بالقيمة الحقيقية للأعمال. إذ القيم لا تتأثر بما للفاعل مـــن ثـــراء او فقـــر، ولكنهـــا ترجـــع إلى ذات العمل وآثاره في الوجود.

وإذ نفى عنهم إدراك القيم الحقيقية ، وأصل التنبيـــه علـــى ضـــعف تفكيـــرهم ، بـــأن مـــا يطلبونه من طرد المؤمنين الفقراء ، هو عكس ما هـــو مهـــتم بـــه ويســـعى إليـــه ويبـــتهج به. ذلك أن نجاح الرسول في مهمته يظهـــر بـــدخول النـــاس فـــي الـــدين الـــذي يـــدعوهم إليه؛ فكيف ينقض ما بناه ووُفق فيـــه؟ فـــلا يتصـــور مـــن الرســـول أن يطـــرد المـــؤمنين لفقرهم ، أو اتباعا لتهم ما وُثّقت ببينة ولا حجة .

اعلموا أني مكلف بأمر واحد لا أتجاوزه، هو إنـــذار البشـــر ســـوء المصـــير إذا هـــم لـــم يؤمنوا ويستقيموا، وأن عليّ أن أبين لهم ذلك بيانـــا يقنـــع كـــل مـــن لـــم يكـــن معانـــدا. وبناء على ذلك فإنه لا يتصور مني أن أطرد من فتح قلبه للإيمان.

قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

الرجم : أصل الرجم الرمي بالحجارة.

افتح ... فتحا: حكما شديدا.

الفلك : السفينة .

المشحون : المملوء بقدر ما يحمل .

بيان المعنى الإجمالي :

هدد قوم نوح رسولهم أنهم سيستعملون معه العنف الذي يثنيـــه عـــن المضـــي فـــي دعـــوة الناس، وأنهم سيرجمونه. أيس نوح من اهتداء قومـــه، فـــدعا ربـــه أن ينجيـــه ومـــن آمـــن

معه ويستأصل المكذبين. استجاب الله دعاءه وأنجاه ومــن آمــن معــه فــي الفلــك الــذي شحن شحنا على قدر طاقة حملــه. وأغــرق الله الآخــرين . إن فــي قصــة نــوح لآيــة تدعو إلى التدبر والإيمان بما جاءك يا محمد مــن الحــق، ولكــن أكثــر الــذين تخــاطبهم غير مؤمنين. وإن ربك هو العزيــز الــذي لا يغلبــه شــيء، الــرحيم بعبــاده يقبــل كــل تائب.

بيان المعنى العام :

116- قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونَنّ من المرجومين.

انقطعت حجج قوم نوح. وعجزوا عن تفنيــد دعوتــه ، فالتجــأوا إلــى مــا يلتجــئ إليــه المستبدون الظلمة ، استعمال القوة الزجرية والعنف البدني .

117←118 قال رب إن قومي كذبون ...ومن معي من المؤمنين.

ضاقت بنوح السبل، إذا كان عنــاد قومــه صــخرة تتكســر عليهــا كــل أدلــة الهدايــة. فالتجأ إلى ربه مستنجدا شاكيا، فقال رب إن قومي صــمموا علــى تكــذيبي ورفــض كــل ما أحدثهم به. فاحكم بيني وبينهم حكمــا شــديدا، تفصــلهم عنــي، باستئصــالهم وتطهيــر الأرض منهم، وتنجيني ومن هو معي من المؤمنين.

119←120، فأنجيناه ومن معه ...لهو العزيز الرحيم .

استجاب الله دعاء نوح. فنجاه ومن آمن بــه، ممــا قــدر لقومــه مــن الاستئصــال، بمــا هداه إليه من صنع الفلك، فركبه مع المؤمنين وشحن شــحنا كــاملا. وهــذا هــو الشــطر الأول من دعاء نوح عليه السلام. وأما الشــطر الثــاني وهــو استئصــال المكــذبين، فقــد تم إغراقهم جميعا، ولم ينج منهم أحد.

إن في قصة نوح وما انتهى إليه أمر قومــه لمــا كــذبوا رســولهم، وعانــدوا، مــا يقــوم دليلا على أن سنة الله ماضــية وأن مصــير المعانــدين واحــد. ومــا كــان أكثــر الــذين توجه إليهم الوحي مؤمنين. وبكل تأكيد فإن ربــك لهــو العزيــز الــذي لا يعجــزه شــيء، الرحيم بعباده فمن اهتدى قبلهُ وغفر له ما فرّط.

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾

وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (136) إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (137) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (138) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (139) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (140)

بيان معاني الألفاظ :

ريع : المكان المرتفع.

الآية : العلامة الدالة على الطريق.

العبث : العمل الذي لا يترتب عليه فائدة.

المصانع : جمع مصنع. ويطلق على كل مصنوع جيد .كالقصور ، وخزانات المياه.

البطش : الأخذ بعنف .

الجبار : من معانيه الشديد في غير الحق.

الوعظ : التخويف من أمر فيه ضر.

بيان المعنى الإجمالي :

من الآية 123 إلى الآية 127 لا يكاد يختلف عما تقدم في قصة نوح عليه السلام . ثم أنكر عليهم إنفاقهم العبثي في البناء العبثي، واتخاذ مبان على المرتفعات من الأرض يأوون إليها للّهو والفساد. وكذلك بناؤهم قصورا ومخازن مياه لا لحاجة، ولكن على سبيل الإسراف، والتفاخر، ناسين حق الله عليهم وما ألزم به بني الإنسان من عمارة الأرض. وهكذا فإنه كلما تعمق الناس في الحضارة وتحولت إلى إسراف سقطت الأخلاق وأسرع الفساد إلى المجتمع. لقد كانت ظاهرة الإسراف واضحة فيهم، فهم أيضا إذا غضبوا أسرفوا في العقوبة لا يرعون كرامة البشر ولا الصلة التي توحد بين أعضاء العائلة الإنسانية. وبعد أن لفت أنظارهم إلى ما ينكره عليهم دعاهم لتقوى الله الذي هو أهل للتقديس والعبادة ، وأن يطيعوا رسولهم الهادي إلى الصراط الذي يرضي ربهم. وكرر عليهم الأمر بالتقوى حسبما توجبه النعم الكثيرة التي أمدكم بها في الحياة ، والتي تجدونها في كل لحظة من لحظات حياتكم. اتقوا الله الذي أعطاكم الأنعام التي تتخذون منها غذاء ولباسا ووسيلة سفر وحمل الأثقال. وأمدكم بالبنين الذي يتواصل بقاؤكم بهم بعد موتكم ، ويحملون ثقافتكم ، ويحفظون

ذكركم ، وهم عمدتكم عند العجز . وأمدكم بجنات فيهــا بهجــة للــنفس وغــذاء وفاكهــة. وأجرى لكم العيون التي بها بقاء حياتكم وحياة أنعــامكم وجنــاتكم. احــذروا أنكــم إذا لــم تعودوا إلى الصراط المستقيم فسيحل بكم عذاب يوم عظــيم ،إمــا فــي الــدنيا وإمــا فــي الآخرة. كان جوابهم فظا غليظا .قالوا لنبيهم إن تــأثيرك بمــا وعظتنــا بــه مســاو لعدمــه لكونك من غير أهل الوعظ. إن ما نحــن عليــه هــو الخلــق القــويم الــذي كــان عليــه أسلافنا، ونحن أوفياء لهم لا نخرج عمــا كــانوا عليــه. وتخويفــك لنــا بالعــذاب ، فإننــا آمنون من العذاب بما لنا من قــوة وتحصــينات ووحــدة . فصــرحوا بمــا يفيــد عــزمهم وإصرارهم على تكذيبه. فعجل الله بهلاكهــم ، وفــي قصــتهم آيــة لأهــل مكــة ، لكــن أكثرهم لا يؤمنون ولا ينتفعون بالأيات. وإن ربــك يــا محمــد عزيــز لا يعتــرض أحــد على ما أراده، وهو الرحيم بعباده.

بيان المعنى العام :

123←127، كذبت عاد المرسلين...إلا على رب العالمين.

هذه الآيات لا تكاد تختلف عن نظم الآيــات فــي قصــة نــوح. موقــف المــدعوين مــن الرسول هود كان التكذيب. عــرض علــيهم هــود أن يتقــوا الله. ذكّــرهم بمــا يعرفونــه عنه من الأمانة والصدق. وضاعف التأكيــد علــى تــذكيرهم بــالتقوى ومــا يتبعهــا مــن الطاعة .إنه يقوم بهدايتهم تنفيذا لأمر ربه، ولا يُحمّلُهُــمْ علــى ذلــك أجــرا. إنــه يرجــو أن يجزيه رب العالمين عما قام به.

128- هذه الآية هي من مضمون الــدعوة التــي بلغهــا هــود لقومــه. افتتحــت بســؤال إنكار، أنكر عليهم بناءهم بكل مكان مرتفع أعلامــا ثابتــة تــدل المســافر فــي الصــحراء على موقعه، وعلى الجهة التي يسلكها لكيلا يتيــه فــي الصــحراء. وهــذا عمــل مــأذون فيه وغير منكر، ولكن الإنكار ورد عليه من ناحيــة القصــد. وهــو أنهــم قصــدوا بتلــك العلامات العبث لا تحقيق الأصل الذي هدي إليــه البشــر مــن عــون المســافرين علــى تبين الاتجاه. وقد يكون من عبثهم أنهم لم يقتصروا على مــا يهــدي النــاس، بــل أكثــروا منها كثرة تدل على سرف وتضييع الأموال والجهود. ولمــا كانــت قصــص القــرآن قــد يقصد من ورائها تربية المبعوث إليهم ، فإن المجهــود الــذي يبــذل فــي البنــاء إن كــان محققا لغاية مدنية فهو عمــل خيــر ومقبــول، وأمــا إذا كــان للعبــث والعبــث وحــده، وإهدار للمال في التفاخر بما لا يعود على صــاحبه أو علــى الأمــة بــالنفع فهــو منهــي عنه .وهذا ما تقتضيه قاعدتان من ضــروريات الــدين: حفــظ المــال، وعــدم الســرف. وقد يكون النهي لأنهم اتخذوا تلــك المبــاني للهــو والفســاد، والعبــث بــالقيم والأخــلاق.

وهذا مما يشاهَدُ نوع شبيه به في الكازينوهات التي كثيرا ما تشيد في أماكن بعيدة مستقلة عن التجمعات البشرية .

129-وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون.

عطف على إنكار ما أقاموه من بناءات عبثية، إنكاره على اتخاذهم مصانع. والمصانع تطلق على الجوابي المحفورة في الأرض لخزن الماء كالصهاريج. وتطلق أيضا على القصور. ويقال فيها ما قيل في سابقتها من أن كفرهم بالله، وإقبالهم الشديد على متع الحياة الدنيا ألهتهم تلك المصانع والقصور عن ذكر الله، وعن تذكر واجبهم في تعمير الكون، وأنهم مستخلفون فيه ومحاسبون على أفعالهم، حتى بلغ بهم الأمر أن أفعالهم أفعال من يظن أنه خالد في الحياة غير محاسب .

130←135، وإذا بطشتم ....عذاب يوم عظيم.

كما أقبل قوم عاد على الدنيا ومباهجها وقصروا همهم على العبث من اللذة والعبث، كانوا من ناحية أخرى، أشداء في عنف. فإذا تسلطوا على معاقب بالغوا في عقوبته بدون رحمة ولا شفقة، لا يقدرون أنه يتألم كما يتألم البشر. هم لا ينظرون إلى حقه الإنساني في الكرامة وعدم تجاوز الحد في إيلامه. وعلى طريقة قوم هود تفتن كثير من الجبارين الظلمة في عصرنا، فاخترعوا أنواعا من التعذيب والعبث بكرامة من يقع تحت سلطانهم الجائر، موقع الانتقام منه.

بعد أن أنكر عليهم خروجهم عن الاعتدال في جميع أحوالهم، أعقبه بأمرهم أن يتقوا الله، ويحصنوا أنفسهم من عقابه. وأن عليهم أن يطيعوا رسوله، إذ بطاعته يظفرون بالمنهج الذي يحولهم إلى الرشد والصلاح.

136-قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين.

كرر الأمر بالتقوى، وفي هذه الآية ربطها بموجبها الذي هو الفضل الإلهي والنعم الوافرة. بينما في الآية السابقة ربطها بحقه سبحانه في الطاعة والتقديس .هو حقيق بالطاعة لما مكنكم من الخيرات والفضل الذي تعلمونه علم الإحساس به في كل لحظة من لحظات حياتكم. ثم فصل بعض ما مكنهم منه ، رزقكم الأنعام التي تعتمدون عليها في الغذاء واللباس وحمل الأثقال والسفر. وكثركم فرزقكم البنين ترون فيهم امتدادكم في الحياة، وقوتكم على الأعداء ،وهم أعوانكم عند الكبر، وحملةُ ثقافتكم إلى الأجيال القادمة.

وأمدكم بجنات فيها بهجة للنفوس، وإنتاج متنوعٌ يجمع بين القوت واللذة. وحصّنَ ثرواتكم تلك، بالعيون الجارية التي هي في قبضته، ولو شاء لجففها فلا تبض بقطرة، وعندها لا تبقى لكم حياة ولا كسب .

و اعلموا أنـــي مهـتم بنصـــحكم، وإزالـــة حجـاب الغفلـــة عـــن بصـــائركم، فـــإنكم إن واصلتكم مسيرتكم على النحو الذي أنتم عليــه، أخـــاف أن يلحقكـــم عـــذاب يـــوم عظـــيم. وتحذيره صالح لأن يكون تحذيرا مـــن عـــذاب يـــوم القيامـــة، كمـــا هـــو صـــالح لعـــذاب يستأصلهم في الدنيا.

136 ←138، قالوا سواء علينا ...وما نحن بمعذبين .

أتم هود موعظته التي حاول بها أن يحرك فطرتهم لقبول مـــا جـــاءهم بـــه عـــن الله. فلمـــا أنهى كلامه أجابوه قائلين: إنه لا فرق بين مـــا قمـــت بـــه مـــن المجهـــود للـــوعظ، وبـــين كونك لست أهلا للوعظ. فإن ما نحن مقتنعون بـــه قبـــل وعظـــك وبعـــد وعظـــك ســـواء. إنك لم تؤثر فينا شيئا.

إن ما نحن عليه ليس أمرا أحدثناه، لكنه خلـــق الأولـــين مـــن آبائنـــا، وإذ كـــان مـــا نحـــن عليه خلقا لأسلافنا، فإن الوفاء منا لهـــؤلاء الأســـلاف يقتضـــي منـــا الثبـــات علـــى مـــا ورثناه عنهم . كما يحتمـــل أن يكـــون الكـــلام مـــرادا بـــه: أن مـــا ينكـــره علـــيهم ومـــا يدعوهم إليه لا يعدو أن يكون خلق أناس قبله بثوه في النـــاس فوعـــاه، ثـــم جـــاء يـــدعي أنه أوحي إليه به من عند الله .

ثم ردوا عليه ما حذرهم منه، مـــن حلـــول عـــذاب يـــوم عظـــيم، فنفـــوا أن يحـــل بهـــم عذاب، وأن لهم من القوة والحصانة ما يحميهم من كل طارئ.

139 ←140، فكذبوه فأهلكناهم...لهو العزيز الرحيم.

كان حاصل مناقشتهم لهود: أن كذبوه ورفضوا الأخـــذ بمـــا دعـــاهم إليـــه، أو أن يأخـــذوا الحيطة من نزول العذاب بهم، وواصلوا مسيرتهم في الحياة علـــى مـــا كـــانوا عليـــه مـــن الكبر والإسراف والعبث، والتجبر وعدم تقوى الله .

وإذ بلغ العناد إلى هـــذا الحـــد، وتجـــرأوا علـــى رســـولهم المعـــروف بالأمانـــة فرمـــوه بالكذب والاختلاق، فأهلكهم الله عقب ردهم العنيف على هود عليه السلام .

إن في قصة هود مع قومه لآية لمن يعتبـــر، ولكـــن أكثـــر مـــن تـــدعوهم للاعتبـــار مـــا كانوا مؤمنين. وبكفـــرهم وعـــدم اتعـــاظهم بمـــا حـــل بمـــن قـــبلهم سيخســـرون العاقبـــة لامحالة.

بالتأكيد إن ربك يا محمد هو العزيز الذي لا يغلبـــه شـــيء فسيقصـــم الطغـــاة والجبـــابرة، وإنه لرحيم يقبل من تاب وثاب إلى مستقر الإيمان .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾

افتتحت قصة الرسول صالح عليه السلام إلى قبيلة ثمود بمثل ما افتتحت به قصة نوح وهود عليهما السلام. وما شرحنا به الآيات التي افتتحت به القصتان مغن عن إعادته. والأنبياء من العرب أربعة هود وشعيب وصالح ومحمد ﷺ وعليهم أجمعين.

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

الطلع : وعاء يطلع من النخل هو أول أطوار تكون الثمر.

هضيم : يطلق بإزاء معان كثيرة ، وأقربها أنه رطب غير يابس .

فرهين : الفراهة ،الحذق والكياسة.

المسحرين : المسحور سحرا تمكن من مداركه .

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن أمرهم بتقوى الله في الآية السابقة أيقظهم إلى أنهم مخطئون إذا كانوا يظنون أنهم خالدون فيما أفاء الله عليهم من النعم والتي أهمها نعمة الأمن. إنكم في أرض خصبة انتشرت فيها الجنات بمتنوع الثمار والفواكه وجرت العيون ترويها، وتمت بهجتها بالخضرة المنتشرة على أديم الأرض، والنخل بثمارها الرطبة. ووفقكم فأكسبكم المهارة التي بها نحتم بيوتا في الجبال تتوفر فيها الراحة. فقيدوا هذه النعم

بشكرها واتبعوني فيما أبلغكم عـن رب العـالمين. وإيـاكم أن تتبعـوا المسـرفين الـذين يدعونكم إلى الإفراط في الشهوات، إنهـم يعملـون علـى أن يعلـو الفسـاد فـي الأرض، ومعاكسة الصلاح.

كان جوابهم: لقد استولى السحر على عقلـك. إنـك إنسـان مثلنـا لانقبـل أن يرفعـك الله علينا ويجعلك رسولا له . وإنا نتحداك أن تـأتي بآيـة خارقـة للعـادة تثبـت صـدقك إن كنت من الصادقين فيما تدعيه. قدم لهم اية دالة علـى أنـه مرسـل مـن عنـد الله: هـي ناقة أعلمهم بأن الله أمرهم أن تختص بيوم معين تشـرب فيـه المـاء ،ويكـون لهـم يـوم يشربون فيه، وأن يراعوا حصانتها فليحذروا الاعتـداء عليهـا، وأنهـم إن أسـاؤوا إليهـا، فإن الله يسلط عليهم عذابا يستحقهم في يـوم عظـيم . ولـم يمـض زمـن طويـل حتـى عقروها ، وشعروا بالندامة ، وأصبحوا خائفين من حلـول العـذاب .وتحقـق مـا أنـذرهم به صالح. وفي قصة صالح اية ينتفع بها المؤمنون، ولكـن أكثـر الـذين تـدعوهم غيـر مؤمنين. والله هو العزيز لا يعطل قضاءه أحد، وهو الرحيم بعباده الصالحين.

بيان المعنى العام :

146 -أتتركون فيما هاهنا آمنين.

وفّر الله النعم لقبيلة ثمود، التي فصل الحديث عـن شـيء منهـا فـي الأبيـات التاليـة. أبطرتهم النعم، فانغمسوا فيما توفر لهم مـن خفـض العـيش، وظنـوا أن مـا جمـع لهـم من الخيرات أمر طبيعـي، أرض طيبـة ومـياه دافقـة، وأمـن مسـتتب. فنسـوا ربهـم وأعرضوا عن عبادة الله ومراعاة حدوده في التعامـل. فأرسـل الله إلـيهم رسـولا سـنهم أخاهم صالحا. فدعاهم إلى تقوى الله أولا كما جـاء فـي الآيـة 142- ثـم سـألهم سـؤال إنكار لما هم عليه، وهو ظنهم أن ما توفر لهم من النعيم هـو نعـيم دائـم وهـم مخلـدون فيه باقون. فذكّرهم أولا بنعمة الأمن العامة في بلادهم. ونعمـة الأمـن مـن أجـلّ الـنعم، وجميع النعم مرتبطة بها.

147 -148، في جنات ...طلعها هضيم .

ثم فصل بعض تلكم النعم التي منها: خصوبة أرضـهم وانتشـار الجنـات فيهـا بمختلـف أنواع الفواكه والثمار. وتوفـر الـري بـالعيون التـي تتخللهـا وتسـقيها بصـفة دائمـة. ومما يزيدها بهجة الغطاء الأخضر لوجههـا بمتنـوع الـزروع. وخـص النخيـل بالـذكر مع أن كلمة الجنات تتناولها تناولا أوليـا اهتمامـا بهـا، ووصـف طلـع النخيـل بكـون هضيما ، ولما كان الهضيم يطلق بإزاء معان كثيـرة، أوصـلها القرطبـي لاثنـي عشـر ،

ولما كان المقام مقام تعداد المـنن ،فالـذي يتـرجح أن ثمـار نخـيلهم تتميـز بالرطوبـة، ويسر الهضم .

149 -وتنحتون من الجبال بيوتا فرهين.

ومن المنن ما ألهمهـم الله مـن بنـاء بيـوت تتـوفر فيهـا الراحـة، ينحتونهـا بحـذق وكياسة، وفن في الجبال.

150 ←152 فاتقوا الله وأطيعون...ولا يصلحون.

وإذ استحضر أمام أبصارهم وحرك بصائرهم لمـا خصـهم الله بـه مـن نعـم وعـددها عليهم، صرح عند ذلك بـأمرهم أن يتقـوا الله وأن يطيعـوه حتـى يضـمنوا بقـاء تلـك النعم. فإن النعمة يقيدها الشـكر ويعرضـها للـزوال كفرهـا وعـدم شـكرها. وإذا كـان صالح يدعوهم إلى الخير، فإن فريقـا آخـر يحرضـهم علـى خـلاف منهجـه. فنـبههم حتى لا ينخدعوا بهـم ، ونهـاهم عـن اتبـاع المسـرفين . والمسـرفون هـم الـذين لا يعرفون الاعتدال، وينشرون التطرف في الإقبال علـى الملـذات ويـدعون إليهـا بقـولهم وبعملهم. إنكم إن وزنـتم آثـار طـريقتهم فـي الحيـاة تجـدونها مقترنـة بالفسـاد فـي الأرض. وفسادهم خالص لا يشوبه صلاح. وشـأن المسـرفين أنهـم لا يهتمـون بالـدين، بل هم يرون فيه لجاما لشهواتهم فيعادونه.

153 ←154- قالوا إنما أنت من المسحرين...إن كنت من الصادقين.

و عظهم صالح بما يرفع الحجب التي كانـت تغطـي علـى إدراكهـم للحقيقـة، وكشـف لهم عن مداخل الفسـاد مـن القـادة المسـرفين. ولكـن جـوابهم كـان رفضـا لهدايتـه، وتكذيبا لدعواه الرسالة مـن الله وقـالوا: لقـد اخـتلط عقلـك بمـا اسـتولى عليـك مـن السحر. إنه مما ينفي ما تدعيه: أنك مرسل من عند الله، هو أنـك بشـر مثلنـا، لـيس لـك أي مزية علينا حتى تكون المرسل إلينا، علـى معنـى أن الرسـول فـي زعمهـم ينبغـي أن يكون من غير صنف البشـر. واطلـب مـن ربـك الـذي أرسـلك أن يؤيـدك بـأمر خارق للعادة يكون شاهدا على صدقك إن كنت فعلا من القوم الصادقين .

155 ←158، قال هذه ناقة...وما كان أكثرهم مؤمنين.

أحضر صالح أمامهم ناقة أشـار إليهـا، عـرفهم أن لهـا شـرب يـوم معلـوم مقـرر، وأنهم يرتوون يوما، ونهاهم أن يعتدوا عليها بـأي نـوع مـن أنـواع الإذايـة، وحـذرهم مغبة ذلك، أنهم إذا اعتدوا عليها يصيبهم عذاب يـوم عظـيم يسـحقهم سـحقا. لـم يمـض أمد طويل حتى سولت لهم أنفسهم الاعتداء علـى الناقـة فعقروهـا، ودخلـوا فـي صـباح اليوم الموالي نادمين ندم خوف لا ندم توبـة. ولـيس الوقـت وقـت ندامـة إذ لا يـنفعهم

الندم في الوقت الذي رأوا فيه مقـدمات العـذاب . وعجـل الله بعـذابهم فلـم يبـق مـنهم أحدا. وتقدم تفصيل قصة صالح في سورة هـود. وختمـت القصــة كمـا ختمـت قصــة موسى وإبراهيم ونوح وهود. في هذه السورة.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (163) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (164) أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ (167) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (169) فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ (171) ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ (173) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (174) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (175)

بيان معاني الألفاظ :

العادي : المتجاوز حد الحق إلى الباطل.

القالين : جمع قال، مبغض.

عجوز : المرأة المسنة.

الغابرين : الباقين بعد ذهاب القوم.

دمرنا : الإهلاك المستأصل .

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت قصة لوط على النحـو الـذي افتتحـت بـه القصـص الأخـرى فـي السـورة. ويلاحظ أمر واحد، هو أن لوطا لم يكن من نسبهم، وكـان نـزيلا بيـنهم تأكـدت الصـلة بينهم وبينه، فعد أخا. أنكر عليهم بعد أن أمـرهم بـالتقوى مـا هـم عليـه مـن الشـذوذ الجنسي بإتيان الذكران، وعدم الالتفـات إلـى مـا خلـق الله لهـم وفطـرهم عليـه مـن التواصل مع النساء الذي به يتكون محضن مـن الـزوجين. إنكـم بهـذا الشـذوذ يحـق عليكم ما يتأهل له العادون المجاوزون الحـق إلـى الباطـل. أجـابوه بـأنهم سـيخرجونه من قريتهم إذا هو واصل النكيـر علـيهم .رد علـيهم فـي ثقـة: إنـه منكـر ومـبغضٌ لعملهم. وإذ تبين له من إصـرارهم أنهـم تـأهلوا لنـزول العـذاب بهـم، سـأل ربـه أن

ينجيه وأهله من العذاب . فاستجاب له ، ونجاه وأهلــه إلا امراتــه العجــوز التــي كانــت تظاهر قومها على فسادهم ، فحل بها مــا حــل بقومهــا. دمــرهم الله جميعــا بالخســف، وبمطر من الحجارة متتابع لا يجدون منــه ملجــأ. إنــه مطــر بــالغ أعلــى درجــة مــن السوء . وختمت القصة بما ختمت به القصص السابقة .

بيان المعنى العام :

160 -←164 كذبت قوم لوط...على رب العالمين.

الآيات الخمس هي نظير ما تقــدم فــي القصــص الســابقة. إلا أن لوطــا ﷺ مــا كــان أخاهم نسبا ، ولكنه نشأ فيهم وجاورهم ، وارتبط بهــم حتــى صــار كأنــه واحــد مــنهم نسبا . فجسمت تلكم الصلات وعبر عنها بالأخ.

165 -←166، أتأتون الذكران...بل أنتم قوم عادون.

خاطب لوط قومه خطاب القريب المهتم بصــلاح حــالهم، وحــثهم علــى تقــوى الله، وأن لا يسترسلوا مع شهواتهم. ثم واجههم بالإنكــار علــيهم فيمــا انتشــر فــيهم مــن الشــذوذ الجنسي. هو ينكــر علــيهم ويعجــب مــنهم قضــاء شــهوتهم الجنســية بالاتصــال بــين الذكران. وشنع عليهم فعالهم تلك بالتصــريح بالصــورة القبيحــة التــي تخــالف الفطــرة، إن الله خلق الجنسين الذكور والإناث، اختص الإنــاث بمــا يحــرك شــهوة الــذكور مــن ناحية، واختص الذكور بما يحرك شــهوة الإنــاث. وجعــل الجــنس البشــري يتواصــل وجوده بالتزاوج بــين الجنســين. فالاتصــال الجنســي يحقّــق أمــرين معــا: الاســتمتاع الفطري، وامتداد الحياة عن طريــق النســل. إن انحــرافهم عــن الفطــرة يمثــل اعتــداء على البشرية ، من عدة نواح:

1 رفض للناموس الذي خلق الله عليه الكون، فقــد فطــر الــذكر علــى أن يتخــذ زوجــا من الإناث ،وفطرت الأنثى على أن تتخذ زوجــا مــن الــذكران ، وبــذلك تتكــون خليــة تستمر بها الحياة وتقضى الشهوة، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم .

2-إن الشذوذ الجنسي ،حرمان للنساء من قضــاء شــهوتهن، واعتــداء علــى حــق مــن حقوقهن مغروس في تركيبهن، فيمثل ذلك الحرمان على نطاق واسع اعتداء عليهن.

3- شــيوع الشــذوذ الجنســي يعطــل التطــور الطبيعــي للتركيبــة البشــرية، التــي قدر لها أن تتكاثر ، وتقوم بمهمة الخلافة . ويختل بذلك الناموس العام.

4- إن العلاقــة الجنســية بــين الــذكرين تســلب مــن المعاشــر الســالب عزتــه وكرامته، وتفقده الشعور بما منحته الفطرة من استقلالية، وتعقد نفسيته.

5- ثبت علميا أن الشذوذ الجنسي من أقوى الأسباب الناشرة لفقد المناعة، الداء الذي يهدد الحياة، وليس له علاج. ومجموع ذلك أشارت إليه الآية "بل أنتم قوم عادون"

167-قالوا لئن لم تنته...من المخرجين.

كان جواب قومه إعلانا لإصـــرارهم علـــى مواصــلة شــذوذهم، تهديــده بإخراجــه مــن مدينتهم لأن نسبه لا يرتبط بهم، إذا هو أصر على الإنكار عليهم.

168←169:قال إني لعملكم من القالين...وأهلي مما يعملون.

أجابهم في شجاعة بأنه مستمر على إنكاره لشذوذهم، بــل إنـــه مــبغضٌ لعملهـــم. وشـــعر بأن العذاب سيحل بهم لإقامتهم على المنكر، فــدعا ربـــه أن ينجيـــه وأهلـــه ممـــا ســـينزل بهم من العذاب، جزاء ما يعملون.

170←171، فنجيناه وأهله...دمرنا الآخرين .

استجاب الله دعاءه، ولم يرفض ابتهالاته، فنجاه مع أهلـــه جمـــيعهم، ولـــم يـــنج عجـــوزا بقيت بعده لحقها العذاب، هي امرأ ته كما تقدم لنا في سورة هود.

وفوق ما ذكرنـــاه مـــن إنجـــاء لـــوط وأهلـــه ، دمـــر الله الآخـــرين تـــدميرا مستأصـــلا، المقيمين على الفاحشة . فخسفت بهم الأرض وابتلعتهم.

173-وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين.

وأنزلنا عليهم من السماء عذابا متداركا كالمطر، لا يستطيعون اتقاءه، فهلكوا به وامحت آثارهم. وقبح قبحا شنيعا عاقبة المنذرين الذين لم يرتدعوا وصمموا على سوء فعالهم.

174←175:إن في ذلك لآية...العزيز الرّحيم .

هو على نحو ما سبق لنا في خواتم القصص السابقة في السورة.

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿189﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿190﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿191﴾

بيان معاني الألفاظ :

أيكة: الشجر الملتف .

أوفوا: ليكن الكيل ممكنا لكل طرف من حقه غير منقوص.

المخسر :المنقص لغيره .

البخس: الذم الذي يتبعه نقص قيمة الشيء.

الكسف : القطعة .

الظلة : سحابة ارتفعت فوقهم جميعا .

بيان المعنى الإجمالي

قصة شعيب هي كالقصص السابقة في السورة .لكن مما يلفت إليه النظر، أن شعيبا لم تكن صلته بأصحاب الأيكة صلة نسب ولا جوار . وسموا بأصحاب الأيكة إشارة إلى الشجر الملتف الذي كان يغطي محل إقامتهم. دعاهم إلى الإيمان بالله وتقواه، ثم حرضهم على ما يصلح اقتصادهم بتوخي العدل في الكيل فلا ينقصوا شيئا ، وكذلك في الوزن فلا يظلموا المتعامل به، وأن لا يوهموا صاحب السلعة ما هو غير حقيقي ليستولوا على ما يعرضه بثمن بخس. وبصفة عامة أن يعملوا على القيام بما يساعد البشرية على حسن الخلافة في الكون وتعمير الأرض، وأن يبتعدوا عن الغش والسرقة وقطع الطرق وبذر الفتن، ونحو ذلك. وأن يستحضروا دوما صلتهم بالله الذي خلقهم وخلق من كان قبلهم.

كان جوابهم: استولى عليك السحر أولا فاختلط عقلك. وثانيا ما أنت إلا بشر لا تختلف عنا. فأنت بدعواك الرسالة من الكاذبين . ونتحداك أن تسقط علينا من السماء قطعة تهلكنا إن كنت صادقا فيما تدعيه أنك مبعوث من عند الله.

كان جوابه عليه السلام: أفوض الأمر لله فهو العليم بكفركم وبأعمالكم الفاسدة. ولما كذبوه أطبق عليه عذاب يوم الظلة العذاب العظيم فلم ينج منهم أحد. وختمت القصة بما ختمت به القصص السابقة في السورة .

بيان المعنى العام :

176-180: ﴿كذب أصحاب ليكة المرسلين...على رب العالمين﴾

افتتحت قصة شعيب ﷺ على النحو الذي عرضت به فواتح القصص السابقة في هذه السورة .واختصت بأمور :

1)أنه لم تلحق علامة التأنيث لفعل كذب، نظرا إلى أن الفاعل هنا "أصحاب" مذكر لفظا ومعنى.

2)أن أصحاب ليكة لم ينسبوا إلى شعيب ، وإنما قـدموا بـأخص صـفاتهم المعرفـة لهـم هو أنهم النازلون بالأيكة المكـان الكثيـر الشـجر . وسـيدنا شـعيب أرسـل إلـى أهـل مدين، فجاء في سورة الأعـراف آيـة 85 وفـي سـورة هـود آيـة 84 وفـي سـورة العنكبوت آية 36 – وإلى مدين أخاهم شـعيبا . ممـا يفيـد أن شـعيبا ﷺ أرسـل إلـى مدين وإلى أصحاب الأيكة . مما يدل على أن شعيبا كـان مـن قـوم مـدين ، ولـم يكـن من قوم أصحاب الأيكة. وأنه أرسل إليهما في آن واحد.

181-+183 أوفوا الكيل...ولا تعثوا في الأرض مفسدين .

بعد أن دعاهم لتقوى الله ليتحولوا عن منهجهم البعيـد عـن الله إلـى اتبـاع مـنهج جديـد في حياتهم يربطهم بالله في مختلف أنواع نشاطهم . تابع هدايتـه لهـم بـأن يقلعـوا عمـا دأبوا عليه من الظلم في طريقة التعامل الاقتصادي ، حتـى يكـون تعـاملهم قائمـا علـى أساس العدل. ومما سجله القرآن من هديه ﷺ :

1)أمرهم بإعطاء المكيال حقه فلا ينقص للمكيل له شيء من حقه. والتنقيص من الكيل إخسار. وللعناية بتمكين كل فرد من حقه، أمر بالوفاء ونهى عن التطفيف والتنقيص. وقد يكون التاجر مشتريا من الفلاح ، فهو مأمور أن لا يظلم البائع الفلاح بأخذ زائد عن حقه، إذ الزيادة بغير حق، كالتنقيص، كلاهما أكل بالباطل لمال الغير. وكلاهما مخرب للاقتصاد .إذ الاقتصاد الخالي من الأمانة، اقتصاد سريعٌ فشلُه.

2)أن يراعوا العدل إذا كانت وسيلة التبـادل الميـزان أيضـا. وجسّـم العـدل بـأن يـتم التقدير بميزان يكشف عن ثقل الموزون بدون زيادة ولا نقصـان. نعـم قـد يكـون البـائع من أهل الفضل فيريد أن يبرئ ذمته يقينا ، فيضـيف شـيئا قلـيلا يحقـق بـه أن زبونـه أخذ حقه كاملا ، ولكن هذا مظهر تورع، وليس بواجب .

3)أن لا يؤثروا في عارض السلعة تأثيرا يُغرُّوه به، حتى يظن أن سلعته بائرة أو رديئة وأن قيمتها أحط . وقد يعمد بعض التجار إلى إيهام البائع أن السوق كاسدة ، والأثمان نازلة، أو أن سلعته ليس لها رواج كما كانت، أو أن يبعثوا وسطاء سوء يغرون البائع ويوهمونه أن الثمن الذي وجده عند العارض الأول ثمن رفيع فليعجل بإتمام الصفقة على أنهم ناصحون له. وصور كثيرة من بخس الناس أشياءهم. كانت السوق تقوم عند القوم على التحايل والكذب وأكل أموال الناس بالباطل. فهداهم شعيب إلى الاستقامة، وأعلمهم أن الربح مع الأمانة أوفر في النهاية من التعامل غير النزيه.

4)ختم نصحه بنصيحة شاملة أن لا يفسدوا في الأرض. الأرض التي استخلفوا فيها لتعميرها، فليبتعدوا عن كل ما يعطل تطوير المجتمع الإنساني نحو الخير في ذاته أو في محيطه، كقطع الطرق أو إفساد المحيط، أو إيقاد الفتن ونحو ذلك.

184 - واتقوا الله الذي خلقكم والجبلة الأولين.

ثم كرر أمرهم بتقوى الله ، وبناه على أنه بوصفه خالقا لهم من عدم، مفيض عليهم كل نوع من أنواع النعم ، حقيق بأن يتقى، وأن يفرد بالعبادة .ومما يؤكد ذلك أنه هو الواحد الذي خلق من كان قبلهم .وفي التذكير بخلقه الأجيال السابقة تنبيه لهم أن مآلهم هو كمآلهم الفناء .والتذكير بالفناء يوقظ النفس ويرفع عنها الغشاوة .

185 ←187 قالوا إنما أنت...إن كنت من الصادقين.

وعظهم فأحسن موعظتهم ، ولفت أنظارهم إلى ما يقيم اقتصادهم وينمي ثرواتهم ، ويحفظ أمنهم ،وأن يقيموا أساس حياتهم على إفراد الله بالعبادة والمحافظة على تقواه. فكان جوابهم وقد تمكن الكفر من عقولهم ومشاعرهم فواجهوه بكل صلافة:

أولا: لقد تمكن السحر منك فلم يبق منك إلا هيكلا مسحورا ذهب عقله، فكل كلامك تخليط .

وثانيا: إنك لا تعدو أن تكون بشرا، وهذا ما نُقرُّ به، فلست ملكا ولا نوعا آخر من المخلوقات، ومن المستحيل أن يكون البشر رسولا من عند الله

وثالثا: إنك من القوم الذين تمكن الكذب منهم. فكل ما أثبتّ أنه من عند الله لا أصل له. واستعمال الظن فيما يدل على اليقين استعمال كثير في الأسلوب العربي .

رابعا: تحدّوْهُ أن ينزل عليهم من السماء قطعة من العذاب، إن كان صادقا في أنه مبعوث من عند الله.

188 -قال ربي أعلم بما تعملون.

وأمام هذا التحدي الوقح أرجع شعيب الأمر إلى ربه ،فهو العليم العلم الكامل بما تعملون من عبادة غير الله ،والظلم، وأكل أموال الناس بالباطل، والفساد في الأرض . وهو العليم بما أنتم أهل له من العذاب، وسيحل بكم ما قدره في علمه.

189 -فكذبوه فأخذهم...عذاب يوم عظيم .

تصريح بالنتيجة التي تحققت في الوجود. كذبوا شعيبا . فأنزل الله عليهم عذابا من السماء ، هي سحابة أمطرتهم صواعق محرقة لم تُبق منهم أحدا ، في يوم معروف في تاريخ الإنسانية هو يوم الظلة .

190 ←191 إن في ذلك لآية ...مؤمنين.

ختمت القصة بما ختمت به القصص السابقة .

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الروح الأمين : جبريل عليه السلام.

اللسان : اللغة.

المبين : الموضح الدلالة على المعاني التي يقصدها المخاطِب .

الأعجمين : جمع أعجم ، الشديد العجمة، الذي لا يحسن الإفصاح عما في نفسه.

بيان المعنى الإجمالي :

تميز القرآن بكونه منزلا من رب العالمين، هو كلامه أنزله بواسطة جبريل الملك القوي الأمين. فسما أصله بكونه تعبيرا عن كلام رب العالمين ، وسما بكون الحامل له أمين الوحي جبريل عليه السلام ، وسما بأن المودع فيه هذا الكلام هو أشرف القلوب وأزكاها ، قلب محمد ﷺ ، وسما باختيار اللغة المعبرة عن مضامينه اللغة العربية التي طوعتها العناية الإلهية ليكون فيها من الخصائص ما استطاعت به استيعاب الوحي القرآني . كما تميز بأنه مبشّر به مذكور في كتب الأنبياء السابقين. دعوا أقوامهم ليُحمّلوا ذريتهم أمانة قبوله ونصره عند ظهوره.

وتشنيعا بهم لتصميمهم على الرفض، ولمواصلة معارضتهم للقرآن أنهم لم يجدوا في شهادة علماء بني إسرائيل أن القرآن صادق موجود في كتبهم وصفه ، لم يجدوا في ذلك آية تحولهم إلى قبول الحق برغم أنهم هم الذين بعثوا للأحبار يستعلمون منهم إن كان القرآن حقا موجودا ما يدل عليه في كتبهم .

ومن صور إصرارهم على العناد أنه لو نزل هذا القرآن على رجل أعجم لا يحسن الإفصاح عما في نفسه ، فقرأ عليهم القرآن ،على علو مكانته في البلاغة إلى حد الإعجاز ، لو قرأ عليهم هذا الأعجم القرآن ما آمنوا بأنه من عند الله .

بيان المعنى العام :

192→194،وإنه لتنزيل رب العالمين...لتكون من المنذرين .

بكل تأكيد يثبت الله أن القرآن منزل من عند ه. وهذه الآية بما تضمنته من معنى مؤكد، ترتبط بفاتحة السورة التي رفعت شأن القرآن وأشارت إليه في مقامه العالي "تلك آيات الكتاب المبين" وإذا كانت القصص التى تتابعت في السورة ختمت بما يشير إلى أن ما قصه القرآن يثبت أنه صادق وحق ،فإن قوله تعالى : وإنه لتنزيل رب العالمين يلتقي ما ذلك الغرض . تمت العناية به حتى في طريقة إبلاغه للنبي ﷺ ، فقد نزل به جبريل أمين الوحي، الملقب بالروح الأمين، لكونه ليس من عالم الماديات ولكنه من عالم الأرواح، ولأن الله اختاره ليكون أمينا على تبليغ وحيه. فمن ملاحظة المعنيين لقب بالروح الأمين. نزل جبريل مصاحبا للقرآن ليحل في قلبك. والقلب هو القوة التي بها يستطيع النبي ﷺ وعي ما يصله، فيتمكن في نفسه تمكنا بلفظه ونظمه لا ينفلت منه شيء. ليتحقق ما أراده الله من تنبيه الناس إلى ما يترصدهم من عقاب إن هم لم يستقيموا، وهو معنى النذارة. واختارك لتقوم بهذه المهمة.

195-بلسان عربي مبين.

إن هذا الوحي القرآن ،الـذي نـزل عليـك بواسـطة جبريـل ،قـدرنا أن يكـون بلغـة عربية مُبينة عن المعاني التى تضمنها الوحي ، أي إن فـي طبيعـة هـذه اللغـة العربيـة من الإمكانات ما يسرها به الله لتكون حمالة للوحي مبينة عنه أفضل إبانة.

196- وإنه لفي زبر الأولين .

ثم عطف على ما أثبته للقرآن من المقام السـامي مـن كونـه تنزيـل رب العـالمين ومـا تعلق بذلك، عطف أمرا آخر هو أن القرآن في كتب الأولـين. ومعنـى كونـه فـي كتـب الأولين يحتمل: أن التنويه به وذكره والبشارة به قد ثبت كـل ذلـك فـي الكتـب المنزلـة على الرسل السابقين. ويحتمل: أن الأصـول التـي تـولي دعـوة النـاس إليهـا مبثوثـة أيضا في كتب الرسل السابقين قبل أن تحرف، أو أن يضـيع منهـا شـيء، ومـا أضـافه القرآن إليها يؤكد ويتمم ولا يناقض. وذهب بعضـهم إلـى عـود الضـمير علـى رسـول الله ﷺ، وأنه مذكور بنعته في الكتب السـابقة. واسـتدل بمقـاطع مـن التـوراة والإنجيـل تفيد ذلك بتأويل. ولكن التناسق في النسـيج القرآنـي يبعـده. لأن الحـديث مـن العطـف الأول " وإنه لتنزيل "تتـابع متعلقـا بـالقرآن، فجعـل معـاده الرسـول ﷺ بـدون قرينـة موجبة لصرفه لذلك فيه بعد.

197-أولم يكن لهم ...بني إسرائيل .

يتواصل بهذه الآية إقناع المبعـوث إلـيهم بكـون القـرآن منـزلا مـن عنـد الله، وأنـه معجزة محمد ﷺ التي وقعت الإشارة إليهـا أولا بقولـه "بلســان عربـي مبـين " ونسـج

الآية يدعو للتأمل فيـه، لتحليـل تركيبـه تحلـيلا يظهـر المعنـى المـراد، إن شـاء الله .فقوله تعالى : أولم يكن لهم آيـة – الهمزة[أ]اسـتفهام إنكـاري – مفهومـه أغفلـوا عـن كونه منزلا مني ، وأنه في كتـب الأولـين .وأمـا الـواو فمرتبتهـا المعنويـة أن تكـون قبل الهمزة ، فتكون الآية دليلا آخر على صـدق القـرآن فتلاحقـت بهـا ثلاثـة أدلـة : إنه لتنزيل – إنه لفي زبر الأولين – معرفـة علمـاء بنـي إسـرائيل بـه . وإذا رتبناهـا ترتيبا معنويا يكون نسجها هكذا: أغفلوا عمـا ذكـر، ولـم يكـن أن يعلمـه علمـاء بنـي إسرائيل(علم علماء بني إسرائيل) آية لهم.

ولمزيد من البيان نقول: إن القرشيين كانوا يثقون في علم أحبار يهود بأسرار الدين. وأنهم بعثوا من يستنبئهم عن صدق القرآن ، وأنهم أثبتوا لهم أنهم يجدون في التوراة ما يؤيد أن القرآن منزل من عند الله . كما سألوهم عن النبي ﷺ، فكانت إجاباتهم لا تنفي صدق الرسالة المحمدية. فيكون على قريش باعتبار أنهم يثقون فيهم أن يؤمنوا ، فذكر القرآن هذا الدليل الثالث يهز التصميم على الكفر لدى القرشيين.

198←199، ولو نزلناه على بعض...ما كانوا به مؤمنين .

هذه الآية تتضمن أمرين:

أحدهما: التشنيع على قادة المشركين وفضح قصدهم من مقاومة الدين.

وثانيهما: إيقاظ الأتباع إلى أن التصميم على الكفـر والعنـاد هـو مـا يـدفع رؤسـاءهم إلى الطعن في الإسلام. فتـذكر الآيـة: أن هـؤلاء المقـاومين للـدعوة مـن المشـركين، مصممون على العناد والرفض، بحيث أننا لو أنزلنـا هـذا القـرآن، علـى الدرجـة التـي هو عليها من البيـان والجمـال، علـى رجـل أعجـم. والأعجـم هـو الـذي لا يحسـن الإفصاح عن مراده وإن كان عربيـا، والأعجمـي هـو مـن كـان مـن غيـر الجـنس العربي ،وإن كان فصيحا بليغا في كلامه. لو أنزلنا هـذا القـرآن علـى رجـل أعجـم لا يؤمنون به ويطعنون في صدقه. وهو مـا ينسـجم مـع قولـه تعـالى: إن الـذين حقـت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية .[1]

كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

---

[1] سورة يونس96/97

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

سلكناه : أدخلناه.

المجرمين : المشركين.

منظرون : مؤخرون.

يستعجلون : يطلبون حلوله عاجلا.

بيان المعنى الإجمالي :

على هذا النحو المشاهد من موقف المشركين من القرآن أدخلناه في قلوبهم وصمموا على رفضه. إنهم لا يؤمنون به رغم شواهد صدقه .إذ قوة عنادهم تجعلهم لا يؤثر فيهم إلا العذاب الأليم الذي يبلغ جميع مناطق إحساسهم ،هذا العذاب الذي يأتيهم فجأة دون أن يشعروا بقربه .وتسجل عليهم اخر أمنية هل يمكن أن يؤخر العذاب؟ ومن شدة غرورهم سألوا أن يعجل عليهم العذاب .عجب من غرورهم أيستعجلون عذابنا، اطمئنانا بما متعناهم به من خيرات سنين معدودة؟ وعندما يحصل ما أوعدناهم ويسلط عليهم العذاب، فهل يفيدهم شيئا الوقت الذي تمتعوا فيه قبل نزوله

بيان المعنى العام :

200 - كذلك سلكناه في قلوب المجرمين.

إنه على هذا النحو المشاهد من موقف المشركين من القرآن المنزل عليك، أدخلنا القرآن في عقول المجرمين (المشركين) فتبينوا صدقه وإعجازه، ومع ذلك فإن المجرمين رفضوا قبوله. وعبر عن المشركين بالمجرمين ،لأنهم بعد نزول القرآن وتكذيبهم له بعد تبينهم أنه صادق حقيقون بأن يوصفوا بالمجرمين .

201←202،لايؤمنون به...وهم لا يشعرون.

لا يؤمنون بالقرآن اعتمادا على الأدلة الواردة في الآيات السابقة ، فإن عقولهم قد تحجرت وحجبت عن التأمل والتفكير ،فلا يفيد فيهم إلا العذاب المادي العذاب الأليم الذي يحل عليهم فيشاهدونه وهو يؤلم جميع مناطق الإحساس . ووضحت الآية 202 طريقة إتيانه بأنه يأتيهم بغتة دون مقدمات يفجأهم ، دون أن يشعروا بقرب قدومه .

203 - فيقولوا هل نحن منظرون.

لا تسجّل لهم إثر بغتتهم بالعذاب إلا كلمة واحدة تصدر منهم، هي كل أمانيهم : هل يمكن أن يؤخر عنا ما حل بنا؟ فتكون هذه الحسرة آخر ما يعصر قلوبهم قبل أن يهلكوا في الدنيا، أو كلمة يرددونها في أول ما يسلط عليهم العذاب يوم القيامة.

204- أفبعذابنا يستعجلون.

لما هددهم في الآية السابقة أن العذاب يأتيهم بغتة دون أن تكون له مقدمات ويسحقهم وترد أمانيهم بتأخيره. عقبه بالتعجيب من غرورهم وتذكيرهم بأنه قد سجل عليهم ما استهانوا به .إنهم من شدة غرورهم طلبوا من رسول الله أن يعجل لهم العذاب الذي هددهم به، يشيرون بذلك إلى أنهم آمنون من أن يلحقهم. فالعجب من شدة غرورهم واستعجالهم بعذابنا .

205←207، أفرأيت إن متعناهم ...ما كانوا يمتعون.

افتتحت الآية بقوله : "أفرأيت" وهي صيغة للتقرير تلفت نظر السامع إلى أن ما يأتي بعدها حق مقرر كأنه مشاهد. وترتبط الآية بسابقتها: أنهم استبطأوا تحقق ما أوعدهم به من العذاب فاستعجلوه ، ظنا منهم أن تأخيره إلى الأجل المقدر ينفي تحققه . فرد عليهم القرآن تصورهم هذا. فيذكر القرآن أنه إن أخرنا عنهم العذاب وخلينا بينهم وبين ما خلقنا من الخيرات التي فيها متعة يستمتعون بها سنين محدودة، ثم سلطنا عليهم العذاب على النحو المذكور في الآية السابقة، فإن ذلك الإمهال، ما كان ليغنيهم شيئا يوم ينزل بهم عذابنا. نقل الشيخ ابن عاشور عن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد ﷺ ، كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ الآيات الثلاث أفرأيت ... . تمتعون ثم يبكي ويقول:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة *** وليلك نوم والردى لك لازم
فلا أنت في الأيقاظ يقظان حازم *** ولا أنت في النوّام ناج فسالم
تُسرّ بما يفنى وتفرح بالمنى *** كما سُرّ باللذات في النوم حالم
وتسعى إلى ما سوف تكره غبّه *** كذلك في الدنيا تعيش البهائم

وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

ذكرى : للتذكر .

ما ينبغي لهم : ما يصح ولا يتأتى لهم .
السمع: توهم استراق السمع من الملأ الأعلى.
معزولون : مبعدون.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه سنتنا أنا لا نستأصل أهل قرية ونهلكهم إلا بعد أن نوقظهم إلى ما ينتظرهم بواسطة من نرسله إليهم من المنذرين، فلا يسلط عليهم العذاب وهم جاهلون جهلا كاملا ما يطلب منهم، وقبل أن ننذرهم ما سيسلط عليهم من العذاب. فنحن نذكرهم وذلك تبعا لما نتصف به من كمال فلا يتصور الظلم منا.

و باطل: الدعوى التي روجها بعض المشركين أن محمدا كاهن، فما نزل بالوحي شيطان الذي هو عماد الكهنة، ولا يتصور أن يكون للشياطين قدرة على ذلك، وإنهم مبعدون عن الاستماع إلى الملأ الأعلى.

بيان المعنى العام :

208←209، وما أهلكنا من قرية ....وما كنا ظالمين .

هذه سنة من سنن الله: هي تحقيق لصفاته الأزلية الأبدية كالعدل والرحمة. جرت سنته في معاملة أهل القرى في تاريخ الإنسانية أنه لا يعذب قوما ، وهم جاهلون غير واعين بأن الكون الذي يعيشون فيه مخلوق لله، وأنهم مخلوقون لله أيضا، وأن عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ،وأن لا يتصرفوا في الحياة إلا تصرف الطاعة لأوامره واجتناب نواهيه. إنه تبعا لذلك كانت سنته أن يبعث لكل أمة رسولا يعرفها بذلك. وأن لا يسلط عليها عذابه إلا بعد أن ينبههم الرسول إلى ما يترصدهم من عذاب إذا هم تمردوا وقطعوا صلتهم بالله وعبدوا غيره.

ذلك التنبيه هو ذكرى لكم يا معشر قريش: إن ما تقدم في هذه السورة من عاقبة المكذبين المتمردين، وما جاء في الآية السابقة، كل ذلك يحرككم لتنفلتوا من الغفلة. فقد نبهناكم بإرسال محمد وجهاده المتواصل لإبلاغكم. ونصرح بأنا لعظمتنا وتنزهنا عن النقائص لا نظلم أحدا فالظلم منفي عنا. فإرسال محمد لكم لا يبقى معه لكم عذر إن لم تؤمنوا به وتتبعوا ما أنزل إليه.

210←212، وما تنزلت به الشياطين...عن السمع لمعزولون .

هذا رد لمزاعم روجها بعض المشركين، إذ زعموا أن الرسول ﷺ يتلقى ما ينشره من الشياطين الذين هم على صلة بالكهان، فمؤدى الكلام أنه كاهن. فنفى القرآن هذا التصور نفيا قاطعا، ثم وجه هذا النفي:

بأن طبيعة الشيطان طبيعة رجس وفســاد، وبنــاء علــى ذلــك فــلا يصـــح أن يتصـــور منهم أن يأتوا بما هــو هدايــة للعــالمين، ولأن الله حفــظ المــلأ الأعلــى مــن تجســس الشياطين عليه، فلا يتأتى منهم بلوغ تلك العوالم.

وإن قدراتهم لا تبلغ أن تسمع شيئا مما يجــري فــي المــلأ الأعلــى، فهــم مبعــدون عــن الاستماع بطبعهم. فدعوى الكهانة مرفوضـــة. وينبــه القــرآن المبعــوث إلــيهم أن علــيهم أن يتأملوا في حقيقــة مــا أنــزل إلــيهم، وأن يرفضــوا أباطيــل الأفــاكين، وأن ينقــذوا أنفسهم، وذلك بالدخول في دين الإسلام.

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

العشيرة :الأدنون من القبيلة

خفض الجناح : التواضع، واللين في المعاملة .

التوكل : تفويض الأمر لمن يكفيه

بيان المعنى الإجمالي :

عقيدة التوحيد هي القاعدة التي يجب أن يقوم عليها تصـــور كــل فــرد، وأن كــل مــن لا يكون على هذه العقيدة هالك لا محالـــة. ولتصـــوير هــذا علــى أبلــغ وجــه خاطــب الله أعرف البشر بالله محمدا، فقال له: لا تسند الألوهيــة لأحــد غيــر الله، فإنــك إن دعــوت إلها غيره تكون عاقبتك مع المعــذبين. والتوجــه بالخطــاب إلــى مــن لا يتصـــور منــه الإشراك، هو تأكيد جرم الإشراك على أبلغ وجه.

ثم أمر نبيه أن يدعو أهله الأقربين ، وقد فعــل، وأنــذرهم كمــا أنــذر غيــرهم ، فالعقيــدة وتطبيق شرع الله فــي الحيــاة لا يســتثنى مــن ذلــك أي أحــد. كمــا أمــره أن يلــين ويتواضــع لمــن هــداهم الله مــنهم للإيمــان. وإن عصــوك وتغلــب علــيهم الشــيطان، فأعلمهم أنك بريء من شركهم وممــا يعملــون. إن المأموريــة المكلــف بهــا ﷺ ضــخمة جدا، فثبت الله نبيه بأنه لا يهمله، وأمره بأن يتوكل عليــه فإنــه يقــدر لــه الغلبــة علــى أعدائه بعزته، وييسر له الأسباب ويسعده برحمته. إنه يــراك راضــيا عنــك حــين تقــوم للعبادة، وإنه يرعاك حين تجتمع مع المؤمنين في صـــلاتك. إنـــه هــو الله الســميع يســمع

صوتك وأنت تعبد وأنت تدعو إلى الله، وأنت تنشر الفضيلة بين الناس. وهو العليم بنياتكم جميعا .

بيان المعنى العام :

213-+214فلا تدع مع الله...عشيرتك الأقربين.

الظاهر أنها إيقاظ لكل من يصح أن يخاطب. أن على كل إنسان أن يفرد الله بالعبادة، ولا يشرك به شيئا ، وأن يخلص لهذا المبدأ انقاذا لنفسه من العذاب. وقدر بعضهم أن النهي موجه إلى النبي ﷺ ، والمراد تفظيع الشرك، وتحقق الخسران لكل من أشرك، فإذا كان النبي ﷺ على ما هو عليه من الرفعة في مقامه، نبه إلى أن المشرك ليس له مآل إلا أن يكون في زمرة المعذبين، فغيره أولى بذلك. وتعين أن المقصود بهذا النص كل مشرك في عصر الرسالة وما بعده.

إنه بعد أن جعل الدعوة إلى التوحيد دعوة عامة شاملة، أمر نبيه محمدا ﷺ أن يكوّن قوة حوله تساعده على نشر الدعوة، خاصة وقد كان النظام القبلي في عهد الرسالة هو النظام الاجتماعي الذي يقوم عليه الترابط. فأمره أن يدعو أقاربه للتمسك بالتوحيد، وأن ينذرهم حلول العذاب عليهم، إذا هم لم يؤمنوا موحدين رافضين للشرك. وفي ذلك تحويل لهم من العصبية القبلية ليسموا إلى أفق الأخوة الإيمانية ، ومن ضيق الانتساب إلى صنم إلهيته المزعومة محصورة في نطاق ضيق، إلى التعلق بالله وحده خالق الكون كله، وإلههم جميعا. وتقوم الدعوة على تخويفهم من سوء المصير إذا هم لم يؤمنوا. إن علاقة القرابة لا تنفع أحدا وإنما الذي ينجيه هو العقيدة الصحيحة والعمل بما تقتضيه، فقد جاء الإسلام ليقيم المساواة بين المؤمنين جميعا.

215-واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين.

الطائر إذا أراد أن يطير مد جناحيه، فإذا أراد أن يحط كسر جناحه، فجسم القرآن لين المعاملة والتواضع المأمور به بخفض الجناح. وهذه وصية عامة من الله لنبيه أن يلين في معاملة المؤمنين ، فإنهم في بداية أمرهم ما تزال التربية الإسلامية لم تتمكن منهم ، وبعضهم ما يزال على جفاء الأعراب وغلظتهم، وقد روى أصحاب الحديث صورا كثيرة من المعاملة الفظة التي كان يلقاها من بعض الأعراب . وفي سورة الحجرات مثال من ذلك. وكما قال ﷺ : أدبني ربي فأحسن تأديبي[1] . وفي الآية تنويه بأهل الإيمان ، إذ هم موصى بهم من الله العزيز الحكيم .

---

[1] ابن السمعاني فيض القدير ج1 ص224- ح 310

216-فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون.

تصريح بالموقف الذي يواجه به من لم يلب الدعوة، فمن عصاه لا يبرر عصيانه الغلظة عليه ، بل يتبرأ من كفره، ويعلمه بأن الرابطة النسبية لا يكون لها مكان في قلبه ﷺ ،إذا فقد الإيمان وحل محله الشرك .ولما نزلت الآية السابقة قام النبي ﷺ بإبلاغ مضمونها بطرق عديدة كما روي في السنة وفي كتب السيرة. ومن جملة ما جاء في خطبته : غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها. إنه إذا فقد الجانب الإيماني ، فإنه يبقى الجانب الإنساني الذي كان النبي ﷺ يرعاه ويربي المؤمنين على رعايته. ووصاياه للجيش، ومعاملاته خير شاهد على ذلك. فالإسلام دين السلام لا دين العنف

217←220،فتوكل على العزيز ..إنه هو السميع العليم.

إيناس لرسول الله ﷺ ،ولطف من الله الذي يرعاه ، وتقوية له على مواصلة الدعوة، يقول الله لنبيه : أنه إذا تبرأ ممن لم يؤمن من عشيرته ، فإنه يجد في الاعتماد على الله وتفويض الأمر إليه ما يكفيه همه ويسعده بالتأييد. ولتثبيت هذا الأمر في نفسه ﷺ ، أنسه بإتباعه بالصفتين القديمتين مؤكدتين، لتحقق ما اشتقا منه: العزة والرحمة. فبعزته يتغلب على ما يمكر به الأعداء ، ويحبط مؤامراتهم ومخططاتهم، وبرحمته يعصمه منهم ويفتح له أبواب النصر. ثم أضاف أنه بمحل العناية من ربه، فهو عندما يقوم في جوف الليل عابدا هو مرعي مرضي عنه، مقبول ما يتقرب به، فأطلق لفظ الرؤية على هذه المعاني الدالة على المكانة الرفيعة الخاصة لرسول الله ﷺ . وبنفس الرضا والقبول يرقبه وهو مع الصحابة يصلون في جوف الليل. فبركة النبي ﷺ انسحبت على من كان يقوم معه في جوف الليل. وهذه الآية استدل بها مقاتل على صلا ة الجماعة وفضلها.

وتختم الآية بما يؤكد ما جاء في الآيات السابقة ، بالتذكير والتثبيت لصفتي السمع والعلم، فهو سبحانه يسمع كل ما يقوم به النبي ﷺ من الدعوة للدين ،ومن لينه في الخطاب، ومن التبرؤ ممن لم يؤمن ،وما يدعو به في جوف الليل مع المؤمنين الصالحين. هو يسمع كل ما يصدر عنهم ، وهو العليم بنياتهم ، وذلك يشير إلى قبول صالح أعمالهم وحسن جزائهم .

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ

فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأفاك : الكذاب.

الأثيم : العاصي الآثم.

الغاوي: المتصف بالغي وهي الضلالة الشديدة.

الهيام : الحيرة.

واد يهيمون : المنخفض يتبعونه عند الجدب.

المنقلب : المصير.

بيان المعنى الإجمالي :

لما زعم بعض المشركين أن بين النبي ﷺ والشياطين صلة، هي هذا القرآن الذي يتلوه. رد الله عليهم بتسفيههم فيما ادعوه. ذلك أنهم حسب طبيعة الشياطين لا يتأتى لهم ذلك، وهم عاجزون عن تلقي التنزيل الإلهي، ومن المؤكد جدا أنهم معزولون مبعدون عن الملأ الأعلى عزلا لا يمكن أن يستمعوا إلى شيء مما يجري فيه. اثبت على التوحيد وابتعد عن الشرك، ولا تدع مع الله إلها آخر من الأصنام أو الملائكة أو البشر، فإن من يشرك عاقبته العذاب.

اهتم يا محمد بعشيرتك وأقاربك، فأنذرهم: إن قرابتهم منك لا تفيدهم شيئا يوم القيامة، وحولهم من النظرة الضيقة لرابطة القبيلة إلى الرابطة الإيمانية السامية. وكن لينا مع المؤمنين متواضعا، خاطبهم بما يجلب قلوبهم ولا ينفرهم، فإن قرروا عصيانك رغم لينك، ووضوح ما تدعوهم إليهم، فقل إني بريء مما تعملونه، لا أتحمل شيئا من جزاء أعمالكم. واستعن بالله واعتمد عليه فإنه سبحانه لا يغلبه عُتُوُّ المشركين ، وهو رحيم بك يقدر لك الخير ويساعدك عليه . إنه يرعاك بصفة دائمة، فهو يراك حين تقوم للعبادة، ويراك حين تجتمع مع صحابتك في قيام الليل. إنه هو السميع الذي لا تغيب عليه همسة ولا أي حركة. وهو العليم بما تكنه الصدور ويجري في القلوب.

ثم أكد تسفيه ما زعموه من صلة بينه وبين الشياطين ، ذلك أن من طبيعة الشياطين أنهم لا يقربون إلا ممن كان على شاكلتهم ، فهم يتنزلون على كل كذاب، يسعى

لينغمس التابعون له في الإثم والفساد .يوهمــون أتبــاعهم أنهــم يتلقــون الســمع وأكثــرهم كاذبون لا يسمعون شيئا .

رمى بعض المشركين النبي ﷺ بأنــه شــاعر، نظــرا إلــى أن القــرآن يسـتولي علــى السامعين كما يستولي عليهم جيد الشــعر فــي زعمهــم. رد الله علــيهم بــأن الشــعراء لا يلوذ بهم ويقترب منهم ويســمع إلــى أقــوالهم ويروجهــا إلا المضــلون المفســدون. هــم كالإبل الحائرة في الأودية تبحث عن الكلأ فتلــتهم مــا تجــده مــن جيــده ورديئــه، وأن أقوالهم تناقض أفعالهم. وللتحقيق فــإن مــا تقــدم وسْــم الشــعراء بــه لــيس مــن لــوازم الشعر، ولكنهم من لوازم الشعراء المضللون من الكفــرة ؛ أمــا المؤمنــون الــذين عملــوا الأعمال الصالحة فهم نمط آخر، هــم قــد اســتقر الإيمــان فــي قلــوبهم وجــرى تــلاوة القرآن والذكر لله على ألســنتهم، هــم انتصــروا لله ولرســوله وللمــؤمنين ، وســيجزيهم الله أحسن الجزاء وهم ألسنة الحق، ودفاعهم عن الإسلام نوع من الجهاد.

ليحذر الذين ظلموا من عاقبة ظلمهم، ســواء أكــان ظلمهــم بالشــرك، أم بالتعــدي علــى حقوق الآخرين في أعراضهم وأموالهم وسعادتهم. ليحــذروا العاقبــة الســيئة التــي تفــوق كل تصور ، وإنما يعلمون حقيقتها يوم تحل بهم فلا يجدون لها مردا.

بيان المعنى العام :

221-223: هل أنبئكم على من تنزل...وأكثرهم كاذبون.

هذه الآيات متصلة بقوله تعالى: وما تنزلـت بــه الشــياطين -210- التــي كــذب الله فيها دعواهم، ونزه رسوله أن يكون متلقيــا للقــرآن مــن الشــياطين. وهــذه الآيــة تعلــن جهلهم حتى بطبيعة من هو مهيأ للاتصــال بالشــياطين. فافتتحــت الآيــة بســؤال: "بهل" التي يطلب بها التحقيق في الأمر الــذي وقــع فيــه اشــتباه وخلــط .هــل أنبــئكم ،هــل أخبركم ، على من هو مهيأ لتتنزل عليــه الشــياطين؟ ذلــك أن تنــزل الشــياطين يقتضــي أن يكون بين المنزّل والمنزّل عليه تقارب، حتى يســتطيع تقبــل مــا يلقيــه إليــه. ولــذلك فإن الكهانة لها قوم مخصوصون، ولا يجلــس مجلــس الكــاهن إلا مــن لــه اســتعدادات للاتصال بالشياطين. وهو وضع نفسي يقرب به أحدهما من الآخر.

و بعد أن أثار السامعين بالسؤال ليســتعدوا لمعرفــة مــا جهلــوه، بســط القــرآن علــيهم مواصفات القابل للتلقي. الصفة الأولى: أن الكذب قد صــار طبعــا لــه، علــى مــا يفيــده كذّاب صيغة مبالغة في الموصوف بالكذب. الصــفة الثانيــة: أثــيم. وهــي أيضــا صــيغة مبالغة : أنه منغمس في الإثم ، لأن مــدعي الاتصــال بالشــياطين (الكــاهن) يضــم إلــى كثرة الكذب الذي هو من أكبر الكبائر ، عمله علــى تضــليل النــاس بتمويهاتــه . الصــفة

الثالثة: تخييلهم للناس أنهم يتلقون السمع من عوالم غير مادية . ومن يشاهد مجالس الكهنة يدرك قدراتهم على اللعب بأبصار الحاضرين وتخييلهم أن لهم صلات ما ورائية بطرق أحكموها . الصفة الرابعة : أن أكثرهم غير صادقين فيما ينبئون به . ومن دقة القرآن أن جعل زيف ما يخبرون به هو الأكثر، لأنهم بتضليلاتهم ومهاراتهم، قد يكون بعض ما يخبرون به مستندا إلى قواهم النفسية النافذة إلى الذين يجلسون إليهم، فيستكشفون من الخبايا ما هو صادق، وبه يغرسون في نفوس الناس الثقة بهم . فكشف القرآن بدقته عن ذلك لما قال: وأكثرهم كاذبون. كما أنهم لشرهم قد يكون لبعضهم صلة بالشياطين، فيخبرونهم عن وقائع بعيدة، يكشف الغيب بعد عن صدقهم فيها.

وإن هذه الملامح التي عرضها القرآن لمن تتنزّل عليهم الشياطين، أبعد ما يكون عن النبي ﷺ الذي ما عرف إلا بالصدق والأمانة، وأنه القائد إلى الخير والمنقذ للبشر من الضلالة.

224- والشعراء يتبعهم الغاوون.

كما قال المشركون عن النبي ﷺ :إنه كاهن، يتلقى الأخبار عن الشياطين، ورد القرآن عليهم وجهّلهم ؛ فكذلك قال بعضهم: إنه شاعر، وقد نفى القرآن عن النبي صلى الله عليه كونه شاعرا، في قوله تعالى: **وما علمناه الشعر وما ينبغي له**[1]- **وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون**[2] وفي هذه الآية ردٌ عليهم، وإبراز لجهلهم بطبيعة الشعراء .ذلك أن من طبيعة الشعراء أنه يلوذ بهم ويتبعهم الضالون المحبون لشعر الهجاء ، وصحابة رسول الله ﷺ أئمة الهداية ، مستقيمون كأفضل ما تكون الاستقامة أبعد الناس عن الهجو، وتناول أعراض الناس أو الاعتداء على كراماتهم. وكان نفر من شعراء قريش يهجون النبي ﷺ ، ويجلس إليهم ويستمع لما يقولونه ، بعضُ الأعراب خارج مكة، أدمجت الآية من يتبع الشعراء بحالهم تشويها للشعراء والمستمعين.

225-← 226-ألم تر أنهم في كل ...ما لا يفعلون.

ألم تعلم- المقصود التقرير بأنه عالم، لتصوير ما سيأتي على أنه أمر معلوم، لا يقصد المتكلم الإخبار به، وإنما التذكير بما هو معلوم للسامع. والخطاب لكل من يتأتى منه العلم. ما هو هذا الأمر المعلوم ؟ أن مثل الشعراء كمثل الإبل الراعية

---

[1] سورة يس اية69

[2] سورة الحاقة اية 41

فقدت المرعى الطيب في الربـــى، فأخـــذت تبحـــث عـــن أي شـــيء يؤكـــل فـــي بطـــون الأودية. فالصورة متحركة إبل تبحث هنا وهنـــاك عمـــا تقتاتـــه، فـــي بطـــون الأوديـــة وقد عـــم القحـــل الروابـــي. فالشـــعراء تهـــيج فـــي بـــواطنهم داعيـــة القـــول لا يهمهـــم الموضوع، ولا القيم الخلقية ، هم كالإبل الهائمـــة فـــي بطـــون الأوديـــة لا يتـــأتى لهـــا إلا المرعى الخبيث .وهي صورة كثير من أفـــانين الشـــعر التـــي يتســـابق فيهـــا الجـــاهليون ويجيدون ، كالهجاء والنسيب والتشبيب بالنســـاء ومـــدح الخـــاملين، طمعـــا فـــي نـــوالهم وهجْو النبلاء إذا لم يعطوهم .والتقلب بين مدح الشـــخص ثـــم هجائـــه ، ويأخـــذها عـــنهم الغاوون يروونها وينشرونها .

و في عرض القرآن لصورة الشعر الذي هو على هذا النحـــو تنفيـــر منـــه، وحـــط لقيمـــة أهله، ونفي على أبلغ وجه أن يكون في القـــرآن أي شـــبه بالشـــعر، وأن يكـــون للرســـول ﷺ وأصحابه سبب وصلة به. وينضـــاف إلـــى ذلـــك عـــدم التـــزامهم بالصـــدق. تخـــالف أقوالهم أفعالهم، حتى جرى بيـــنهم أن أحســـن الشـــعر أكذبـــه. والشـــهامة العربيـــة تـــأبى الكذب حتى في الجاهلية.

227- إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات... ينقلبون .

هذا من الدقة القرآنية، التي يقارنها التفرقة بـــين جانـــب الخيـــر وجانـــب الشـــر، حتـــى لا يؤثر ما يكون بينهما تماس قد يختـــلط بـــه الأمـــر. فبعـــد التشـــويه بالشـــعراء الـــذين لا يسلم منهم عرض ولا قيمة خلقية، ممـــا يمكـــن أن يفهـــم مـــن الصـــورة المنفـــرة بالإبـــل الهائمة، والتناقض بين القول والعمـــل، تعمـــيم ذلـــك الفهـــم علـــى كـــل شـــاعر، اســـتثنى القرآن الشعراء الذين استقر الإيمان في قلـــوبهم بمـــا يتبعـــه مـــن اســـتقامة وعـــدم إذايـــة واشمئزاز من الاعتداء على الآخرين، وتعلقهم بقـــيم الخيـــر والجمـــال، واقتـــرن الإيمـــان في كيانهم بالتطبيق العملي لما تلقّوه من هداية حببـــت إلـــيهم كـــل مـــا جـــاءهم مـــن الله، وجرى على ألسنتهم ذكر الله، والقول الطيـــب، وتـــلاوة القـــرآن . ثـــم إنهـــم انتصـــروا لله ولرســـوله وللمـــؤمنين ، بعـــد مـــا آذاهـــم المشـــركون ، فـــردوا علـــيهم هجـــاءهم وأفحموهم، وأقرهم النبي ﷺ ، بل إنه نـــوه بهـــم . وعـــن الزهـــري أن كعـــب بـــن مالـــك قال: يا رسول الله، ما تقول في الشعر ؟قال: إن المـــؤمن يجاهـــد بســـيفه ولســـانه، والـــذي نفسي بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل . وأجاز النبـــي ﷺ كعـــب بـــن زهيـــر وخلـــع عليـــه بردته ، وما زال الخلفاء يتوارثونها شـــارة مـــن شـــارات الخلافـــة حتـــى اســـتقرت عنـــد ملوك بني عثمان ، وهي محفوظة اليـــوم فـــي متحـــف توبكـــابي بالقســـطنطينية . وأمـــر حسان بن ثابت رضي الله عنه بهجاء المشركين، وقال له: قل ومعك روح القدس.

آذنت السورة بالانتهاء ، وقــرب مســك الختــام ،وقــد صــوّرتّ الملحمــة بــين الخيــر والشر وبين الكفر والإيمان، وبين الرســل الأكــرمين، والمرســل إلــيهم، مــن المعانــدين الرافضين ومن الصالحين المتقين. فأعلنــت فــي خاتمتهــا، أن الــذين ظلمــوا بالشــرك، والشرك ظلم عظــيم، وبالاعتــداء علــى الأخــرين فــي أعراضــهم وأمــوالهم، وهتــك حقوقهم؛ أن الذين كان الظلم صــفتهم ســيعلمون علــم اليقــين عاقبــة ظلمهــم، ســيعلمون المصير الذي يصيرون إليه، وأي مصير؟ إنه لهولــه ولتنوعــه تركــت الآيــة للتــالي أن يذهب به التصور كل مذهب. ليحذر الإنســان الظلــم، وليعيــد فــي نفســه هــذا الوعيــد وليعمل على الاستقامة والتوبة قبل فوات الأوان. أســأل الله لــي ولكــم العافيــة. وحســن الختام والعاقبة.

أتممت كتابــة مــا فــتح الله علــي فــي هــذه الســورة يــوم الأحــد11 محــرم 1424-
2012/11/25

سورة النّمل

هذا هو أشهر أسمائها، وتسمى أيضا بسورة الهدهد. لأنهما لم يذكرا في سورة غيرها. كما سميت بسورة سليمان، لأن تفصيل الحديث عن سليمان مما اختصت به. وهي سورة مكية. رتبتها حسب ترتيب المصحف السادسة والعشرون. وهي الثامنة والأربعون حسب ترتيب النزول. نزلت بعد الشعراء وقبل سورة القصص.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ (1) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (2) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (4) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ (5) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6)

بيان معاني الألفاظ :

زينا: فقدوا الميزان المميز بين القبيح والحسن، فاختاروا القبيح.

العمه : الحيرة والتردد في الضلالة.

الأخسر : الأشد خسارة .

تلقى: تعطى وتتقبّل.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت السورة بالحروف المقطعة التي تشير إلى أن من مثلها جاء نسج القرآن المعجز. واستحضر فأشار إلى آيات القرآن المتلو المحفوظ في الصدور، الذي توالت دراسته على مر الدهور. وهو الكتاب المحفوظ بالكتابة كما حفظ في الذاكرة الإسلامية. الذي بلغ من البيان والوضوح أعلى درجاته عقيدة وتشريعا. به يتم الهدى إلى الحق، وتتقدم البشرى بالنجاة والفوز للمؤمنين.

وليس الإيمان كلمة تقال ولا دعـوى مبثوثـة مـن قاعـدتها. ولكـن الإيمـان يترسـخ بإقامـة الصـلاة، وإيتـاء الصـدقات والعطـف علـى المحتـاجين والأرامـل والأيتـام، وبرسوخ اليقين الأيقن بيوم الآخـرة ، يـوم يقـوم النـاس لـرب العـالمين ، فيحاسـبون على ما قدموا من أعمال.

بكل تأكيد إن وضع الذين لا يؤمنون بيوم القيامـة وينكـرون اليـوم الآخـر، هـو وضـع المنغمسين في الشهوات الفاقدين لميـزان القـيم . إنهـم يـرون الخبيـث حسـنا، والقبـيح زينا، فهم في حيرة سادرون . حـرمهم الله ألطافـه وتـركهم لنفوسـهم الضـالة تقـودهم من ضلال إلى ضلال.

أولئك قد اختصوا بسوء العذاب المصـحوب بالمهانـة فـي الـدنيا، كمـا اختصـوا فـي الآخرة بأنهم أشد النـاس خسـارة. لا يجـدون مـن أعمـالهم التـي أحبطهـا الكفـر أي ثواب، وتبدو لهم سيئات ما عملوا.

ثم نوه القرآن بالمتلقي له، الـذي اختـاره الله ليعطيـه كتابـه، وقبـل تحمـل المسـؤولية الثقيلة للمهمة بكل جد. وأدمج فـي ذلـك أن المعطـي المنـزل مـن عنـده القـرآن هـو الحكيم الذي وسعت حكمته كل شيء، الحكمـة التـي يجـد التـالي والمتأمـل فـي كتابـه هداية لها، ومرانا على إدراك الأشياء على نسقها. وهو العليم العلم الشامل .

بيان المعنى العام :

1- طسم تلك آيات ...وكتاب مبين.

افتتحت سورة النمل بالحروف المقطعة التي تقدم تفصيل القـول فيهـا فـي فاتحـة سـورة البقرة. واسم الإشارة "تلك" صادق على آيـات القـرآن، وعلـى كتـاب مبـين. وعطـف أحدهما على الآخر مع أن مدلولهما واحـد، للتنويـه بـه مـن حيـث الاشـتقاق، حتـى يكون المشتق منه مستحضرا. فقوله تلك آيـات القـرآن فيـه ملحـظ أنـه مقـروء متلـو وأن المنزل إليهم يتدارسونه، ويعيدون النظر فيه ليتكشـف لهـم مـن أسـراره مـا يبقـي به حجة على كونه من عند الله سائرا مع الزمن. وهـو كتـاب لأنـه حفـظ بالكتابـة كمـا حفظ بالقراءة. وهذا ما اختص به القـرآن مـن بـين الكتـب السـماوية. إذ بقيـة الكتـب مقروءة، لم تدون كتابة إلا بعد أمد طويـل مـن إنزالهـا. بينمـا القـرآن حفـظ بالكتابـة وفي الصدور معا. وهو مبين أي واضح في الدلالـة علـى مضـامينه، فمـن اتصـل بـه ترتسم في ذهنه العقيدة والعبادة والعمل بصفة واضحة وبدون شبهة أو غموض.

2-هدى وبشرى للمؤمنين.

إنه بواسطة القرآن حصلت الهداية، والبشارة للمؤمنين. وإن الهادي والمبشر في الحقيقة هو الله، وقد كانت وسيلة ذلك القرآن، فجعلت الهداية والبشارة لنفس القرآن الكريم تجسيما لما احتوى عليه من التأثير.

3-الذين يقيمون الصلاة... وهم بالآخرة هم يوقنون.

ولما كان التأثير لا تظهر آثاره كاملة إلا في الذين هيأوا نفوسهم لقبوله والاهتداء به ، وفتح آمالهم على بشارته . وذلك:

أ: بإقامة الصلاة الركن الأول الذي يجعل المؤمن على صلة متجددة بربه .

ب : و إيتاء الزكاة المطهرة للنفس من الشح، والشعور بالتضامن بين الأغنياء والفقراء وذوي اليسار والمحاويج .فالزكاة في الآية هي الصدقة، وليست الفريضة التي تم تشريعها وتقديرها في المدينة

جـ: وبلوغ اليقين عندهم بأنهم مبعوثون يوم القيامة للحساب والجزاء، بلوغه أعلى درجات اليقين، مما يجعلهم مستحضرين دوما وقوفهم بين يدي رب العالمين يوم القيامة.

4-إن الذين لا يؤمنون بالآخرة...يعمهون.

تعرضت هذه الآية للذين كفروا بيوم القيامة ولم يؤمنوا بالآخرة ، فأثبتت مؤكدة أنهم بإعراضهم عن التدبر فيما أنزلناه من الهدى والبينات، وانغماسهم في الشهوات واللذات، قد فقدوا الميزان الذي يزنون به أعمالهم ، ويميزون به بين الخير والشر، فاختلت عندهم القيم، ولذلك حرمناهم ألطافنا التي تساعدهم على النظر الصادق، والتقويم الراشد، وأصبحوا يرون في الشر خيرا، وفي الظلم عدلا، وفي القبيح من أعمالهم زينة وجمالا. إنه بمقدار ما تفتح الاستقامة ثباتا على الطريق الصالح، بمقدار ما يغشي الكفر والفسق على النفس، حتى تظلم ويركبها قتام يحجب عنها النور وتنقلب حقائق الأشياء، تتملكها الحيرة بين ما يبقى في النفوس من أصل الفطرة، وبين ما ركب عليها من إلف الخروج عنها. فهم يعمهون متحيرون ،إذ عمل الشر والرذيلة ،وإن كان يستجيب للشهوة إلا أنه يتبعه الحيرة وفقدان الطمأنينة.

5-أولئك لهم سوء العذاب... الأخسرون .

لقد تميزوا ، وما أسوأ ما تميزوا به، تميزوا باختصاصهم بالعذاب السيء المصحوب بالإهانة .ولمّا عطف عليه عذاب الآخرة تمحض إلى عذاب الدنيا ،وهذا ماتم بالنسبة للمشركين من أهل مكة، الذين عاصروا النبي ﷺ ، فإن من لم يؤمن

منهم شاهد الهزائم المتتابعــة ، وعلــو رايــة الإســلام علــى كامــل الجزيــرة العربيــة. وتميزوا بأنهم يوم القيامة يكونون في القسم الأشد خســارة المنكــوب، الــذي ضــاع منــه كل شيء. فأعماله التي ظاهرها الصلاح محبطة، وأعماله السيئة حاضرة.

6- وإنك لتلقى القرآن...حكيم عليم.

بكل تأكيد إنك تعطى القرآن وتتقبله من عند حكـيم عظـيم الحكمــة، علـيم واســع العلــم. إنه بعد أن نوهت فاتحة الســورة بــالقرآن وبمــا صــحبه مــن خيــر، وبالصــفات التــي يتحلى بها المؤمنون به، عطف في هــذه الآيــة التصــريح بالعنايــة للــذي أنــزل عليــه. فبينت أنه بالمنزلة الرفيعة، إذ آياتــه تأتيــه مباشــرة مــن عنــد الحكــيم الــذي عظمــت حكمته، فظهرت آثارها أولا في اختيارك لتلقــي الــوحي، وفيمــا يــوحى بــه إليــك مــن الحقائق التي لا زيف فيها الشاملة للدنيا والآخرة. الواســع علمــه لمــا مضــى ولمــا هــو حاضر ولما يأتي في المستقبل. ومن ذلك علمه بمــا طــواه التــاريخ مــن قصــص الأمــم الماضية، مما فصله القــرآن مــدمجا فيــه الحِكَــم والعبــر. إن تلــك الأخبــار وإن كــان بعض أهل الكتاب يروون شــيئا منهــا، إلا أن للخيــال مــدخلا كبيــرا فــي مروياتهم . وبهذا الملحظ كانت هذه الآية وسيلة لحســن الــتخلص ممــا ذكــر قبلهــا، إلــى عــرض قصة موسى عليه السلام وما تلاها من القصص.

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿7﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿8﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿9﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿10﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿11﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿12﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿13﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿14﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأهل : الزوج .

الإيناس : الشعور بأمر خفي.
الشهاب : الجمر المشتعل .
قبس: ما يؤخذ من النار المشتعلة أو من الشعلة ليكون وسيلة لإيقاد غيرها.
الاصطلاء : التدفؤ بالنار.
بورك : قدس وضوعف خيره ونمي.
الاهتزاز: الاضطراب.
الجان : ذكر الحيات وهو نشيط جدا.
تولى مدبرا : رجع إلى الخلف.
لم يعقب : ولم يتردد في توليه.
لا تخف: اطرد عنك الخوف.
مبصرة : واضحة لا خفاء فيها.
الجحود : الإنكار باللسان .
استيقنتها : أيقنت بها.
العلو : الكبر

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر ذلك الوقت الذي قال فيه موسى لأهلـه، إنـي أحسسـت بمنظـر نـار تتوقـد، إنـي ذاهب قبلها، لآتيكم منها إما بخبر عن الطريق الذي يبلغنـا مقصـدنا الـذي عُمّـي علينـا. أو أقتبس جمرة فنوقد بها النار لنتـدفأ مـن بـرد الصـحراء . فلمـا بلـغ المكـان الـذي أبصر فيه النار ، سمع نداء: أن كثرت خيرات وفضـل مـن أوقـع بصـرك علـى النـار ، كما كثرت خيرات من هو حول النار مـن الملائكـة. والتنزيـه الكامـل لله رب العـالمين .ثم صرح له الباري سبحانه بقولـه : إنـي أنـا الـذي أخاطبـك، أنـا الله رب العـالمين ورب كل ما حواه الكون. ثم أمـره أن يرمـي بعصـاه علـى الأرض، فانقلبـت بمجـرد ما مسـت الأرض، ثعبانـا ذكـرا نشـيط الحركـة. أحـس موسـى ﷺ بـالخوف مـن المشهد، وولى إلى الخلف دون تردد. وعنـدها خاطبـه ربـه بقولـه: يـا موسـى أقبـل واطرد الخوف عن نفسك، إني لا يخاف عندي المرسـلون فهـم فـي أمـن. لكـن الـذي حصل منه ظلم وأسرع إلى التوبة من المعصية وبـدّل السـيئة بمـا يناقضـها ممـا هـو حسن الحقيقة والآثار ، فـإني غفـور لـذنوب التـائبين ، رحـيم أبـدل سـيئاتهم حسـنات وأزيل الخوف من قلوبهم. أدخل يدك في جيب قميصـك، ثـم أخرجْهـا فسـتجدها بيضـاء نقية جميلة. أؤيدك بتسع آيات ، فاذهـب داعيـا فرعـون وقومـه إلـى الإيمـان ، إنهـم فاسقون خارجون عن الحدود التي حددتها.

عرض موسى عليه السلام دعوته على فرعون وقومه، وأظهر لهم ما أيده به ربه من المعجزات الواضحة أشد ما يكون الوضوح، ابتداء بانقلاب العصا حية وبياض يده من غير سوء. كان ردهم: هذا الذي قدّمته سحر واضح لا شك فيه. وصرحوا نكرانهم هذا بألسنتهم، وكانوا متيقنين في باطنهم أنها آيات من الله وليست سحرا. ولكن إلفهم للظلم والاعتداء على الحق من جهة سهل لهم هذا الموقف ، وما انغرس في نفوسهم من الكبر والتعالي على الحق من ناحية ثانية .

وتصور العاقبة بأنها عاقبة ظاهرة يشاهدها كل ناظر ، تناقلتها الأجيال وزادها القران رسوخا وصحة. هي عاقبة كل المفسدين يأخذهم الله بالعذاب الماحق.

بيان المعنى العام :

7- إذ قال موسى لأهله...لعلكم تصطلون .

عرض لمشاهد من قصة موسى ﷺ . تبدأ من خروج موسى من مدين مع زوجه، وهما يقطعان الصحراء فأظلم عليهما الليل، وأحسا بالبرد. انفرد موسى بإحساس: أنه يرى نارا عن بعد، أخبر أهله بما أحس ثم أعلمها بأنه ماض صوب المكان الذي لمع فيه الضوء، سأحمل لك من ذلك المكان خبرا يساعدنا على الطريق الذي يبلغنا وجهتنا إن كان الذي حوله من العارفين بمسالك الصحراء، وإن وجدت جماعة أوقدوا النار للدفء آتيكم منهم بجمرة نوقد بها حطبا نتدفأ به.

8-فلما جاءها نودي...وسبحان الله رب العالمين.

يُقدّر أنه بعد إعلام أهله بعزمه على المضي نحو مصدر النار، مشى إلى أن بلغ المكان المقصود. فلما جاء النار التي أنس، تحول المشهد تحولا فريدا في التاريخ . سمع صوتا يناديه: أن بورك من في النار ومن حولها. وهذه القصة سبقت في سورة طه وفصّلتْ الكلام الذي توجه به الله إلى موسى وهو أوسع من هذا . ولكن ما ذكر في هذه الآية لم يسجل سابقا. وهذه طريقة القرآن في سرد القصص، فهو يخص كل عرض بخصائص لا ينافي ما تقدم ولكنه يكمله. ومن إعجاز القرآن أن القصة واحدة، ويختلف عرضها في تكامل يناسب البساط المذكورة فيه. ومعنى بورك تقدس عن كل نقص، وكثرت خيراته، وتواصل فضله وعطاؤه. إذا كان المقصود بيورك الذات العلية . وأما إذا كان المقصود موسى ﷺ فالمعنى أن الله باركك ياموسى بتكثير خيراتك ،وفيه نوع من تحية التكريم .وحضر في هذا المكان الذي تخيره الله لمخاطبة موسى ﷺ، جمع من الملائكة كانوا حول مصدر النور فشملهم ما خوطب به موسى من التحية.

إن اللغة مهما بلغت من القوة على قبول التجريد تبقى محدودة، ولا بد من لواحق تساعد المتلقي على الإدراك المجرد. فنبّه القرآن التالي لهذه الأيات، أن عليه أن يستحضر دوما تنزيه الله تعالى، التنزيه الكامل عن كل ظلال تحدث في النفس، فيها تجسيم، فلذلك ختمت الآية بقوله وسبحان الله رب العالمين. فهو المنزه عن كل تصور تجسيمي يحده في مكان أو يسبغ عليه شيئا من المفاهيم المادية. فليس هو حالا في ذلك المكان الذي خاطب فيه موسى ولا هو متكلم بلسان، ولا يتصل به شيء من الأصوات التي فهم منها موسى ما أراد الله أن يبلّغه. وما أدق التعبير الشامل: كل ما جرى ببالك فالله مخالف لذلك.

9-ياموسى إنني أنا الله العزيز الحكيم .

سجل القرآن أن الله خاطب موسى مناديا له بقوله: إني أنا الله أخاطبك، وتفهّمُ بدون واسطة ما ألقيه لك، وأنا العزيز الذي لا يغلب ويخضع كل شيء لإرادتي ، الحكيم الذي لا يغيب عني أي جانب من الجوانب في علمي، المنزه عن التأثر بما يلابس أحكامي وفعلي . فكن واثقا بعوني ولا تخش أي بأس .

10- وألق عصاك... لا يخاف لدي المرسلون.

أمره برمي عصاه على الأرض. أطاع ورماها، فإذا بها بمجرد ما لامست الأرض تنقلب حية ذكرا نشيطة مضطربة شديدة الاضطراب، يخشى من يراها انقضاضها عليه. دخل الخوف في كيان موسى من المشهد الذي رآه ، فرجع إلى الوراء هاربا غير متردد.

ويأتيه النداء من ربه وهو على هذه الحالة من الفزع والخوف: ياموسى اطرد عنك الخوف واثبت .فإني مؤمّنٌ رسلي ،لا يخاف في حضرتي منْ شرّفتهم بالرسالة. فزاده طمأنينة بأن الله اختاره ليكون رسولا، يبلغ هدايته إلى الناس. وما وقع لموسى فيه حكمة من تدريبه على رباطة الجأش، وإجراء تجربة عملية يحتفظ بها في ذاكرته تؤيده في المواقف الحرجة .

11- إلا من ظلم...فإني غفور رحيم .

للمفسرين موقفان من تحديد نوع الاستثناء. إلا من ظلم ثم بدل...

الموقف الأول: أنه استثناء متصل، ويكون مؤدى الآية أن الخوف منتف لا يلحق الرسل عند ربهم، فلاهم يخافون موقفا حرجا ولا يخافون عقابا يوم القيامة، أمّنهم الله بعزته وحكمته. ويكون الرسول الذي سبق منه ظلم بتجاوز بعض الحدود التي حددها الله، قبل أن يشرفه الله بالرسالة، ثم إنه بعد ذلك تطهر وبدل العمل السيء

الذي صدر منه بالعمل الحسن؛ الذي أول مراتبه التوبة والرجوع إلى الله ،وخاف العقاب، فإن الله يمحو ذنبه ويقبل توبته ولا يؤاخذه بها. فإني أنا الغفور الرحيم. وهذا ناظر إلى قتل موسى ﷺ للقبطي وتوبته وسؤاله الغفران. فالآية خاصة بموسى ﷺ.

ملحظ: قال ابن عطية :أجمع العلماء أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الذنوب الكبائر ، ومن الصغائر التي هي رذائل . واختلف فيما عدا هذا. ونقل عن ابن جريج قوله :لا يخيف الله تعالى الأنبياء إلا بذنب يصيبه أحدهم ، فإن أصابه أخافه حتى يأخذه منه .وأشار الزمخشري إلى أن الصغائر التي فرطت منهم قد تسمى ظلما، كالذي فرط من آدم ويونس وسليمان، وإخوة يوسف ، ومن موسى بوكزه القبطي وقال موسى: رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له.

الموقف الثاني: أن الاستثناء منقطع. ويكون مؤدى الآية :لكن من ظلم أيا كان رسولا أو غيره ، ثم تاب من بعد ظلمه وبدل مكان سيء عمله عملا صالحا فإن الله يتوب عليه ، لأنه هو الغفور الرحيم .

12-وأدخل يدك...كانوا قوما فاسقين.

ثم أضاف سبحانه ما يزيد رسوله موسى ﷺ طمأنينة ، فأمره أن يدخل يده في جيبه ، ثم يسحبها لتبدو له بيضاء نقية جميلة .وقال له: أؤيدك بتسع آيات. فاذهب إلى فرعون وقومه وادعهم إلى الإيمان وتغيير سلوكهم ليتحولوا من الفسق الذي هم عليه إلى الصلاح. والآيات التسع هي: -1- انقلاب العصا حية -2-اليد -3-الطوفان -4-الجراد -5-القمل -6-الضفادع -7- الدم -8-القحط -9- انفلاق البحر، وفي عد انفلاق البحر نظر لأنه ليس آية تلزم فرعون بالإيمان برسالته، ولكن هي آية لمن يعتبر .

13←14، فلما جاءتهم آيتنا...كيف كان عاقبة المفسدين.

طوى القرآن التفاصيل التالية للمشهد السابق، وعجل بالنتيجة التي تهدد مشركي مكة بنفس مصير فرعون وقومه .فلما جاءتهم الآيات الدالة على صدقه، النافية لكل ريبة ،البالغة من الوضوح أعلى حد، كأن الآيات لوضوحها أصبحت تُبصِرُ وترى. وأشارت الآية إشارة مختصرة إلى المشاهد المفصلة في مواطن أخرى باتهامه بالسحر، وما تبع ذلك. ثم صرحت الآية التالية بأن موقفهم من الآيات التي تأيد بها موسى ﷺ ، أن أنكروا بألسنتهم كونها مقنعة ، وإن كانوا في بواطنهم لا يجدون لها مدفعا . إن هذا الوضع المتناقض، اقتناع في باطن النفس ، وإعلان للرفض

باللسان، ينبئ عن ظلم للحقيقة تولـد مـن داء الكبـر . ترفعـوا أن يطيعـوا موسـى وأن يعترفوا له بالرسالة . وفي لمحـة خاطفـة تحـرك الآيـة مشـاعر التـالين إلـى سـوء عاقبتهم، افتضحوا بهـا وصـارت معروضـة أمـام جميـع النـاظرين، مـا إن يحـرك الناظر نظره حتى يبدو له المشهد كما قصـه القـرآن ، جثـث جـيش كامـل ورئيسـهم، طافية متراكمة على سطح الماء، تدفعها أمواج البحر .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفضل : الزيادة في الخير والنفع.

حشرت جنوده : أحضرت مسخرة.

يوزعون: ينتظم جمعهم فلا يسبق بعضهم بعضا. وطائعون مطبقون لما يطلب منهم.

حطم: كسر وأباد.

أوزع: أغرى بالعمل، وفقني

بيان المعنى الإجمالي :

سيدنا داود وسليمان نبيان كريمان نوه القرآن بما آتاهمـا الله مـن علـم مؤصـل غزيـر . رفعا ابتهالاتهما لله اعترافا بفضله وثناء على نعمـه وحمـدا لـه، لمـا فضـلهما بـه مـن العلم على كثير مـن عبـاده المـؤمنين. تـوفي داود وورث سـليمان مقامـه فـي النبـوة والملك ، جمع شعبه وخطب فيهم مبرزا ما فضّـل بـه علـى جمـيعهم ليحقـق طـاعتهم له، وعدم انتقاضهم علـى السـلطة، وأعلمهـم أن الله علمـه مـا تـدل عليـه أصـوات الطيور وآتاه من كل ما يُمكّنهُ من تسـيير أمـور الدولـة. ثـم تصـور السـورة تحـرك

سليمان بجيوشه. جمعت الجيوش من الجن ومن البشر ومـن الطيـر .كـل ينفـذ مـا هـو مختص به .واقتصرت الآية على الأنواع الثلاثة اكتفـاء بـذكرها عـن تفصـيل الأنـواع الأخرى كالخيل والإبل. وعني سليمان بنظامها فكانت لـه وزعـة ، يقومـون علـى ذلـك .يتفقدون من تخلف مثلا ،أو خـرج عـن الصـف ليـردوه إلـى الوضـع السـليم. سـار موكبه حتى بلغ وادي النمل، والنمل فيه نشـيط متحـرك فـي كـل مكـان. تنبهـت نملـة أهلها بأن خطرا داهمـا سيقضـي علـيهم فليتحصـنوا بمسـاكنهم. إن سـليمان بجيوشـه الجرارة سيمر وسيحطمكم بخيله ورجلـه دون أن يشـعروا أنهـم قضـوا علـيكم. تبسـم سليمان ابتسامة عريضة وهو منشرح من قولها، أن عرفتـه باسـمه ونوهـت بعدلـه فهـو إن أضرّبهمّ فليس بقصد الإذاية . وتجمعت في نفسـه مشـاهد الـنعم الكثيـرة التـي أنعـم الله بها عليه فتوجه داعيا: رب ألهمني دوام شـكر نعمتـك التـي تفضـلت بهـا علـي ، وعلى والديّ ، وألهمني أن أثابر على القيـام بالأعمـال الصـالحة التـي ترضـى عنهـا لحسن مقصدها ، وأدائها على الوجه الأكمل . وأدخلنـي فـي رحمتـك الواسـعة دخـولا يضمني إلى عبادك الصالحين وحسن أولئك رفيقا.

بيان المعنى العام :

15-ولقد آتينا داود ...من عباده المؤمنين.

سيدنا داود وابنه سليمان نبيان من أنبياء بنـي إسـرائيل، ذكرهمـا الله فـي كتابـه، ونـوه بهما .وفيما عرضه من قصتهما عبر للمـؤمنين. ودعـوة لاتبـاع منهجهمـا مـن عبـاده العلماء الصالحين. حقق القرآن أن الله تفضل عليهمـا ففـتح قلوبهمـا علـى علـم واسـع غزير . أعطاهما هذا الفضل منّة منه دون كبير عنـاء ، كمـا امـتن علـى سـيدنا محمـد بقوله :وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضـل الله عليـك عظيمـا-[1] وظهـرت آثـار هـذا الفيض من العلم بمعرفة أكمل لنعم الله عليهمـا ، فكـان أول مـا سـجله القـرآن عنهمـا هو قولهما : (الحمد لله الذي فضلنا على كثيـر مـن عبـاده المـؤمنين) وهـذا الابتهـال نستروح منه أمورا. أن العالم كلما صـفا عقلـه بمـا أوتيـه مـن علـم يقـوى اعترافـه بفضل الله عليه الذي فتح عقله للفهـم، وثبّـت المعلومـات فـي ملكاتـه، وأطلعـه علـى شيء من أسرار خلقه. كما أن العلم المقتـرن بالإيمـان يسـمو بـه مقـام صـاحبه ممـا يحتم احترامه، ولا يمنعه التواضع من أن يـذكر مرتبتـه فـي العلـم ليتميـز العـالم مـن الجاهل الدّعيّ. وأن على العالم أن لا يركبه الغرور فـيظن أن حظـه مـن العلـم يتفـوق

[1] سورة النساء آية 113

به على جميع الناس، فهذان النبيان اللـذان آتاهمـا الله علمـا ونـوه بهمـا، اعترفـا بـأن تفضيلهما كان على كثير من عباده المؤمنين لا على جميعهم .

16- وورث سليمان...الفضل المبين.

طوي ذكر قصة داود ، واقتصر على مـا جـاء فـي الآيـة السـابقة. وواصـل القـرآن الحديث عن سليمان، فأول ما ذكره أن ورث مـا كـان لأبيـه مـن الحُكْـم والحكمـة، ولا مدخل للآية في الدلالة على ميراث ما كان لـداود مـن مـال، حسـبما يقتضـيه السـباق والسياق. وسجل القرآن من حسن تدبيره للملك أنه لـم يتعـزل عـن شـعبه، بـل جمعهـم وخطب فيهم معرفا بمزاياه وقدراته التي يستطيع بهـا تسـيير أمـور الدولـة فقـال: أيهـا الناس. مكنني الله من علم ما تـدل عليـه أصـوات الطيـور. إن فكـه لرمـوز أصـوات الطيور يفهم منه أنه عارف برموز أصـوات غيرهـا مـن الحيوانـات التـي هـي أشـد قربا من الإنسان. وفي ذلك إشارة أيضا إلـى أن ملكاتـه تتجـاوز مـا عنـد الآخـرين. وإذا كان يتبين أحاسيس الطيور بما يصدر من ألسـنتها مـن الأصـوات، ومـا تتواصـل به بقية الحيوانات فيما بينها، فإن ذلك مما يقنع شعبه بأنـه يطلـع، بمـا علمـه الله، علـى كثير مما يجري في مجالسهم. فليعملـوا علـى الوفـاء للأمـة، وليبتعـدوا عـن النفـاق. وعطف على علمه الواسع أن الله آتاه مـن كـل شـيء. والعمـوم عرفـي، لـيس معنـاه أنه أوتي كل ما في الدنيا ، ولكنه يفيد أنه أوتـي مـا يسـاعده علـى حسـن تسـيير أمـر الدولة، وحفظ مصالحها ، وتنميتها. وخَتم ما سجل مـن خطبتـه باعترافـه: إن هـذا هـو الفضل الكبير. يقر علنًا بنعمة الله عليه ،وأن مـا أوتيـه كلـه مـن فضـله الـذي لا تحـد آفاقه، البينة آثاره، التي تقتضي من المنعم عليه الشكر عليها.

17-وحشر لسليمان...فهم يوزعون.

جمعت لسليمان الجيوش الجرارة بجميع أصنافها. فريـقٌ مـن الجـن المـوكلين بإنجـاز ما لا يستطيعه غيرهم، وهو من اختصاصهم، كتوجيـه القـوى الخفيـة، والتـأثير بطـرق غير مادية. وصنف من البشر بجميـع الاختصاصـات مـن حـرس، وسـاقة، وخيالـة، المدربين على الحرب وغير ذلك. وصـنف مـن الطيـر التـي كانـت تظللـه إذا سـار وتأتمر بأمره فتبلغه وتبلغ عنه. وفيما ذكر اكتفاء عـن ذكـر غيرهـا. ثـم وصـفت هـذه الجيوش بأنها منظمة لها قيمون يقفـون علـى انتظامهـا وعـدم توزعهـا بسـبق بعضـها عن بعض ،مأمونة من الفوضى، فهـو حشـد عسـكري مـنظم بدقـة ، وكـل بـه مـن القومة ما يحفظ له الاستمرار على نظامه.

18-19،حتى إذا أتوا ....برحمتك في عبادك الصالحين.

تحرك الجيش. وساروا إلــى أن وصــلوا إلــى وادي النمــل، ووادي النمــل إمــا مكــان مسمى بهذا الاسم لكثرة النمل فيه، وإما مكــان انتشــر فيــه النمــل وكثــر دون أن يكــون علَمًا عليه. وتنفرد نملــة لعلهــا كانــت رئيســة النمــل بـإدراك قــرب الخطــر الــداهم، ومملكة النمل كمملكة النحل تسير على نظام دقيق يقــوم كــل قســم بالوظــائف الموكلــة إليه ، مما يضمن للمملكة البقاء والتكاثر. وترسل إشــارتها بلغتهــا إلــى النمــل المنهمــك في أداء مهماته، تعلمه أن علــيهم أن يســرعوا بــالعودة إلــى مكــامنهم الحصــينة حــذرا من أن يحطمهم سليمان وجنوده ، دون أن يشعروا بالنمــل الصــغير المنبــث علــى وجــه الأرض .هي تشير إلى أنها مدركة صلاح القائــد وجيشــه ، وأنهــم لا يقصــدون الإذايــة لمملكة النمل حبا في الإذاية والتنكيل . تفطــن ســليمان لمــا دار بــين النملــة وأتباعهــا، ورضي قولها فتبسم تبسما عريضا. واستحضــر ســيل الــنعم المتواليــة التــي خصــه الله بها، حتى إن نملة عرفت اسمه، ووثقــت فــي عدلــه علــى أنــه يرعــى حتــى الأشــياء التافهة ولا يقسو عليها. وأنه تفرد بالتقاط ما تحــدثت بــه النملــة. وهــذه واقعــة أخبــر بها القرآن نؤمن بها كما وردت فــي الــنص القرآنــي ، ونبتعــد عــن الإضــافات التــي ليس عليها دليل من القرآن. ونقول إنها مــن الأمــور الخارقــة للعــادة التــي يســرها الله لسليمان وليس فيها شيء يناقض العقل ، ولكنها خوارق للعادة.

ثم توجه سليمان مبتهلا إلى ربــه داعيــا : رب ألهمنــي وأعنــي علــى أن أقــوم بشــكر نعمك التي خصصتني بها وأنعمت بها علــي وعلــى والــدي . وهــذا مــن بــر الوالــدين الذي لا ينقطع برهما بموتهمــا، كمــا قــال تعــالى: "وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا"[1] وشكر النعمة يتبعه دوامها. فقــد ورد فــي الحكمــة: النعمــة وحشــية، قيــدوها بالشكر فإنها إذا شُكرت قرّت. وإذا كُفــرت فــرّت. وأردف بســؤاله أن يواصــل توفيقــه للقيام بالأعمال الصالحة في طريقة أدائها، وفــي النيــة المصــاحبة والباعثــة عليهــا. وأن يجعله أحد عباده الصالحين المرضي عنهم، وأن يدخله فــي زمــرتهم. وهــم مــنْ يطيــب المقام معهم ويتم بهم الأنس.

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي

[1] سورة الإسراء آية 24

وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

التفقد :تطلب ما غاب عنك.

الهدهد: طائر من خواصه أنه يكتشف الماء عن بعد. ويحس به في باطن الأرض.

سلطان مبين : حجة ظاهرة.

الإحاطة : استيعاب العلم بالشيء.

النبأ : الخبر المهم.

أوتيت من كل شيء: نالت من كل شيء يحقق عظمة الملك .

الخبء: الشيء المستور .

بيان المعنى الإجمالي :

منْ حزم سليمان أنه كان يتفقد جيشه حتى لا يتفشى الخلل التابع للغفلة. وعند تتبعه لجيش الطير لفت نظره تغيب الهدهد عن مكانه. وقف سليمان، وسأل المكلفين بنظام الجيش: ما الذي حجب عني رؤية الهدهد في مكانه الذي يجب أن يكون فيه؟ أم إنه غاب بدون استئذان؟ إني لا أعفو عن الخلل الذي أحدثه إن صدر منه عن قصد ، فإما أن أعاقبه عقوبة شديدة تناسب ما صدر عنه ، أو لأذبحنه إن كان تغيبه يزعزع نظام الدولة . وإما أن يقدم لي عذرا مبنيا على حجة واضحة.

لمْ يطلْ الوقت حتى حضر الهدهد وخاطب سليمان قائلا: حصلت على علم مستوعب ليس عندك. وجئت إليك من سبأ بخبر صادق لا ريبة فيه. من غريب ما اطلعت عليه أني وجدت امرأة تتولى الملك. وأنها قد جمعت التوفيق في تسيير أمر مملكتها، وكثرة الخيرات، والنفائس التي يعنى الملوك بتوفيرها. وأنها تعتلي على عرش عظيم بلغ من النفاسة والمهابة مستوى عاليًا.

ومع مظاهر العظمة اللافتة للأنظار، وجدتها وقومها يعبدون الشمس ويسجدون لها من دون الله.

عجبا من سجودهم للشمس ، هلا توجهوا إلى الله، الله الذي بيده ملك السموات والأرض ، يتصرف في كوامنهما فيخرجها للناس ينتفعون بها ، هو العليم بما تخفيه الصدور وما تعلنه الألسنة والفعال . لا يشاركه أحد فيما هو من خصائص الألوهيةَ. وهو رب العرش العظيم.

بيان المعنى العام :

20-وتفقد الطير فقال ...كان من الغائبين.

الحديث عن سليمان يتضمن مشاهد فيها عبر. فبعد مشهد مروره على وادي النمل، عرض القرآن تفقد سليمان لجنده وتبينه أن الهدهد ما كان حاضرا في المكان المحدد له. يبدأ المشهد بتفقد سليمان قسم الطيور في جيشه، وإدراكه للخلل الناشئ عن مغيب الهدهد. ويلقي السؤال على الموكّلين بالطير. يطلب منهم أن يعلموه بالسبب الذي جعله لا يرى الهدهد. أهو غائب بدون استئذان.
وفي تفقد سليمان للطير تفقدا فاحصا، وإدراكه أن الهدهد غائب ، ثم سؤاله عنه، عبرة لمن يتولى أمر الدولة : أن عليه أن يتابع ما عظم وما صغر من شؤونها، وأن يكون حزمه حاضرا في النفوس حتى لا يتراخى أحد في القيام بواجبه .كما أن من حكمته أن طرح الفروض التي يمكن أن تكشف عن سبب مغيبه والجزاء المترتب عنها. وبهذا يكون الانضباط في الجيش مركوزا تبعا لاطمئنانهم على العدل ، وأن العقاب ليس للتشفي ، ولكن لتسلّم مؤسسات الدولة من التسيب .

21- لأعذبنه ...ليأتيني بسلطان مبين .

صرح سليمان بأن موقفه من الهدهد المتهم، أحد موقفين: إما أن يعاقبه، وإما أن يقدم عذرا مقبولا.
الفرض الأول :أنه إذا كان مغيبه عن تهاون وانحلال فسيعاقبه بعذاب شديد يكون عبرة لغيره حتى لا تبقى ثغرة انتبه إليها القائد ، ورتب ما يسدها، ولكن التابع أخل بواجبه فيها عن تهاون . وأما إذا أخل بواجبه قصدا ليختل أمر الجيش فسيعاقبه على الخيانة العظمى بقتله. الفرض الثاني :أنه إن كان مغيبه بعذر فليقدم عذره ، ويكون واضحا بينا ليست فيه شائبة تتصل من المسؤولية. سلطان مبين حجة قوية بينة.

22- فمكث غير بعيد ...بنبأ يقين.

لم يطلُل الأمر كثيرا حتى حضر الهدهد بين يدي سليمان، وخاطبه بقوله: قد حصل لي علم مستوعبٌ دقيق لم يحصل لك، تحصلت عليه من مملكة سبأ التي كنت فيها

وشاهدت ما سأرويه لك. وقبل أن ننتقل إلى الآية التالية لا غنى لنا عن ملاحظة أن الهدهد خاطب سليمان: بأنه يفوقه في الإحاطة بأخبار مملكة سبأ، وأنه يعرف عنها ما يجهله. لم يغضب سليمان ، ولم يعدَّ ذلك جراءة عليه ، وذلك اتباعا للحق أن العالم في كل ناحية هو أرقى من الذي يجهلها.

23- إني وجدت امرأة ...عرش عظيم.

أخذ الهدهد يعرض على سليمان الجوانب الغريبة التي اكتشفها عند مغيبه:

أولا: وجدت امرأة تملك، وتدير شؤون المملكة. وغرابته أنه ما كان معهودا في بني إسرائيل تولي المرأة منصب الملك.

ثانيا: أنه قد اجتمع لها في مملكتها أمور عديدة، مكنتها من تسيير أمور الدولة على أفضل وجه مما يرجع إلى مزاياها الشخصية، ومن ظهورها بمظاهر الاستقرار والأبهة. وكثير من النفائس التي منها عرشها.

ثالثا: عرشها العظيم. والعروش تتنافس الملوك في إسباغ صفات الجلال عليها، لتكون أعون على غرس المهابة في الداخلين عليهم. وقد يكون في وصف الهدهد عرشها بقوله: عظيم، إيماء إلى أن عرشها أعظم من عرش سليمان.

24-وجدتها وقومها...فهم لا يهتدون.

ثم واصل أنه بجانب النواحي الإيجابية ، ناحية سلبية تدعو للإنكار والعجب . ذلك أن الملكة وشعبها كانوا يعبدون الشمس.

اتبع هذا الجزء من كلام الهدهد بـ : وزين الشيطان أعمالهم .... فهل هو من كلام الهدهد؟ أي إن الهدهد أظهر تعجبه من سخافتهم في التصور الاعتقادي بعد أن نوه بمستواهم الحضاري . وإلى هذا ذهب جمع من الناظرين في كلام الله ، ورأى آخرون أن هذا الكلام من كلام الله سبحانه ، ذيل به ما سجل عن الهدهد تعريضا بالمشركين .

ومعنى وزين لهم الشيطان أعمالهم : أن الشيطان لعب بعقولهم فأضلهم ضلالا أصبحوا معه يرون القبيح جميلا ، والسيء حسنا. وانتهى به الأمر إلى أن منعهم من اتباع سبيل الهدى: الدين الحق ، واعتقاد التوحيد. فضلوا وانفصلوا عن الطريق الذي يضمن لهم النجاة في الآخرة من العذاب.

25-ألا يسجدوا لله...ما يخفون وما يعلنون.

زين الشيطان أعمالهم بأن صدهم عن السبيل لئلا يسجدوا لله. ويمكن فهم الآية على أنه تحريض على توجيههم بالعبادة لله على معنى: هلا.

وهو سبحانه الحقيق بأن يتوجه له الناس بالسجود .فهو الذي يخرج الكوامن وييسر لها طرق ظهورها سواء أكانت في السماء أو في الأرض ، كإخراج النبات إثر ما ينزله من المطر ، وإعطاء الأرزاق للناس. وهو العليم العلم الكامل، يستوي علمه بما يخفيه الإنسان ويكتمه، وما يعلنه ويذيعه.

26-الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

خاتمة تتوج ما تقدمها مما أجري على الذات الإلهية من الصفات. بما يفيد أن تلك الصفات اختص بها الله الذي لا شريك له، ولا يمكن أن ينسب لغيره أي شيء منها. رب العرش الذي هو أعظم من السماوات والأرض.

عند تلاوة القارئ لقوله تعالى :وهو رب العرش العظيم : يسن السجود سجود التلاوة .

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الملأ : أشراف الناس الذين يمثلون الجميع.

أفتوني : قدموا رأيكم لحل المشكل المعروض.

الأمر : الحال المهم.

قاطعة أمرا: منفذة أمرا مع عدم التردد.

تشهدون: تكونون حاضرين معي لأستشيركم.

بأس : شدة على الأعداء وثبات.

بيان المعنى الإجمالي :

سمع سليمان عليه السلام ما أجاب به الهدهد ولم يتخذ قرارا في شأنه لا بالعفو ولا بالعقاب. ونبهه إلى أنه سينظر في أمره إن كان صادقا أو كاذبا. وكتب كتابا وأمره أن يحمله إلى ملكة سبأ ، ويلقيه اليهم . وأن يرقب أرجاعهم .

نفذ الهدهد أمر سليمان. قرأت بلقيس الكتاب. فجمعت أكابر قومها من الذين كانت تجمعهم للتشاور في الأمور المهمة للدولة، وعرضت عليهم ما جاء في الكتاب وقالت لهم: صاحب الكتاب هو سليمان. افتتح خطابه ببسم الله الرحمن الرحيم. إنه يطلب من مملكة سبأ أن يطيعوه وأن لا يظهروا علوا عليه ولا استكبارا، وأن يأتوه مسلمين وجوههم لله موحدين له. ثم ذكرتهم بأنها تواصل نفس الطريقة في تسيير دواليب الدولة: أنها لا تبت في أمر مهم إلا بعد أن تأخذ رأيهم. أكدوا لها بأن الدولة قوية في تجهيزاتها الحربية، وتدريباتها. وخبرتُها بفنون القتال متميزة. ونفسية الجيوش عالية، وشجاعتهم موفورة، وأنهم مستعدون استعدادا كافيا؛ وبعد هذا فالتدبير السياسي، أنت أدرى به، ونحن نحقق ما تريته. أجابتهم بأن شأن الملوك أنهم كلما دخلوا بلدا قلبوا الأوضاع فيه وأفسدوه. وأنهم يرفعون السفلة ويبعدون أصحاب الرأي والتدبير ويهينونهم. وما أظن أنهم تغيروا عن سنتهم هذه. وأن الأمر ما يزال غامضا. ولذا فإني اخترت أن أوجه إليهم بهدية ملكية، وأنظر ما سيكون موقفهم بعد ذلك.

بيان المعنى العام :

27- قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين.

لم يعاجله لا بالتكريم، ولا بالعقاب . وصرح أن الأمر مشكل يقتضي التريث، وعلق قراره على التأكد من صدقه أو من كذبه. إن هذا المشهد فيه عبرة لمن يتولى أمور الدولة ؛ أن العدل يلزم الحاكم بأخذ كل الاحتياطات لحفظ الحقوق . فالمتهم بريء حتى تحقق إدانته ، وهو في المشهد مقامه في جيوش سليمان لا يؤبه له، ومع هذا توقف سليمان ولم يعاجله .هو قد تغيب بدون إذن ،وقدم اعتذارا فيه مصلحة للدولة . فعلى رئيس الدولة أن يواصل البحث للتأكد من الحقيقة. ثم الحكم حسبما يتبين، من إدانته أو براءته.

28- اذهب بكتابي...ماذا يرجعون.

نظر سليمان في الأمر، واهتدى إلى الحل التالي: يكتب كتابا لملكة سبأ، وهذا شأن رؤساء الدول يتم الاتصال بينهم بواسطة الرسائل. أنجز الكتابَ واختار أن يكلف الهدهد بإبلاغه إليها. فأمره أن يحمل الكتاب إلى ملكة سبأ وقومها. ثم بين له طريقة

تنفيذ المهمة: يلقي إليهم الكتاب بطريقة يأمن معها وقوعه في أيديهم .يتأخر عن المكان الذي ألقى فيه الكتاب . ينتظر ويتابع بانتباه رد فعلهم، أيقبلون عرض سليمان أم يرفضونه؟ وأخذ الفقهاء من هذا اتصال رؤساء الدول المؤمنة برؤساء الدول غير المؤمنة. ومما يؤكد جوازه ، الرسائل التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر .

29←31-قالت يا أيها الملأ إني ألقي كتاب...وأتوني مسلمين.

حسب طبيعة الأحداث يفهم من النص، أن الهدهد قام بالمهمة كما حددها سليمان عليه السلام.

جمعت الملكة أشراف قومها، وأعلمتهم أنها تلقت كتابا، وعبرت لهم عن المستوى الحضاري الذي كان عليه الكتاب، إذ جمعت تلك الخصائص بقولها "كريم " في لغته، وفي شكله، وفي خطه، وفي أناقته.

بعد أن نوهت بمظهر الكتاب أخبرتهم بمضمونه:

أولا: أن الذي أرسل الكتاب هو سليمان. وأنه لما كان القصص القرآني لا يتعرض للتفاصيل الثانوية، لم تتعرض الآية إلى أنها عرفتهم من هو سليمان، ولا مقامه الخطير، ولا سلطانه الواسع. والمظنون أنها عرفتهم بذلك ،لأن ذكره باسمه فقط لا يكون له كبير فائدة إذا لم يقترن بتفصيل ذلك . خاصة وأن الملأ إنما حضر في جلسة عامة للتشاور في أمر له خطره. ومن أول المعطيات معرفة مرسل الكتاب.

ومن الأدب الذي نستفيده من الآية تعريف المخاطب باسمه لمن يتوجه إليه بالخطاب، كالرسائل ، والاتصال الهاتفي ، والاستئذان . فيبدأ كلامه : أنا فلان .وقد افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم رسائله: من محمد رسول الله.

ثانيا: الأمر الغريب الثاني في أمة تعبد الشمس، أن تفتتح الرسالة ب " بسم الله الرحمن الرحيم " وهي إشارة إلى أن صاحبها يربط أموره المهمة بالله الرحمن الرحيم. وكما اختصر القرآن ما اتصل بقولها: إنه من سليمان، فجرى على نفس النسق في تعريفها بعقيدته وما ترمز إليه فاتحة كتابه.

وهذا الأدب النبوي في افتتاح الرسائل لم يحفظه بنو إسرائيل ،فما عرف عنهم أنهم التزموا هذا الأدب في رسائلهم . وادخره الله لهذه الأمة. روى أبو داود في مراسيله: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية صار يكتب البسملة في أول كتبه .

ثالثا: يدعونا لأمرين :

1) طاعته والدخول تحت سلطانه، ذلك أن سليمان بعد أن يسر له الله تكوين جيش قوي، دربه أحسن تدريب، وجهزه أكمل تجهيز، وسخر له من الجن والطير ما لم يسخره لأحد. لمع في فكره أنه إذا ضم ملك اليمن لملكه فتح أبواب التجارة نحو الشرق؛ وتبادل خيرات اليمن مع ما ينتجه فيه قوة لمملكته. وقد تحير المفسرون في موقع "أن لا تعلوا علي" وافترضوا افتراضات لا يخلو أي منها من تمحل. والذي ترجح عندي أن ظاهرة الاختصار في سرد قصة بلقيس واضحة كما تبين مما قدمناه. فأنا أقدر أن بلقيس قالت لهم: يقول لكم سليمان في كتابه : أن لا تعلوا علي ، وادخلوا تحت سلطاني ، ولا تستكبروا .

2) أقبلوا عليّ وقد تحولتم عن عبادة الشمس إلى إسلام الوجه لله، فيكون قد دعاها وقومها إلى التوحيد ونبذ الشرك.

ويكون سليمان تصرّف تصرّف الملوك الذين يعملون على رفاهية من هم إلى نظرهم، وتوسيع سلطانه. ثم تصرّف تصرّف الأنبياء بدعوتهم إلى عبادة الله وحده. وهذا شأن الأنبياء أنهم يدعون أقوامهم إلى التمسك بالشريعة التي كلفوا بها، ويدعون من يتصل بهم إلى نبذ الشرك وإفراد الله بالعبادة.

بعد أن بينت مضمون الرسالة، خاطبت خطاب التكريم الحاضرين: يا أيها الملأ، أيها الأشراف، على النحو الذي خاطبتُهم به في أول الأمر: بعد أن استمعتم إلى تفاصيل المعضلة، قدموا لي رأيكم في الطريقة التي ترونها أفضل وأسلم عاقبة في هذا الأمر المهم. فأنتم تعلمون أني ملتزمة بأن لا أقرر قرارا فاصلا حتى تكونوا حاضرين، وقد بسطت المشكلة عليكم لأستشيركم، وأحترم ما تشيرون به.

32-قالوا نحن أولو ا قوّة...ما ذا تأمرين.

كان جواب الملأ معبرا عن اعتدادهم بالمستوى الحربي لبلادهم. ذكروا أن السلاح ووسائل القتال متوفرة لديهم، والجيوش كثيرة العدد، حسنة التدريب، يحذقون أساليب الحرب. ومن ناحية أخرى هم شجعان يثبّتون ولا يفرون من ساحات القتال. أولوا بأس.

وبعد أن عبروا عن ثقتهم في قوتهم وأنهم لا يخشون الحرب ، فوّضوا الجانب الثاني وهو جانب السياسة ، والتصرف في المهمات العظمى إلى الملكة بلقيس. وصرحوا بأن هذا الجانب هو إليك بما لك من أصالة رأي، وحسن تدبير ، ونظر بعيد. فتدبري الأمر وانظري في جميع جوانبه . ونحن على أتم الاستعداد لتنفيذ ما تريته.

34-قالت إن الملوك ...وكذلك يفعلون.

سجل القرآن الكلمة التي عقبت بها على رأي كبار قومهـا الـذين حصـروا تقـديرهم فـي اعتزازهم بقوتهم المادية، وأن الأمر إليهـا فـي النظـر السياسـي فقـدمت رأيهـا، الـذي كان على شقين:

أولهما: أن الأمر جد والخطر كبير. وشرحت ذلـك بـأن سـليمان الـذي بعـث برسـالته ملك، وأنها علمت من تتبعها للتاريخ ولطبـائع الملـك، أن الملـوك إذا أدخلـوا بلـدا فـي طاعتهم، فإن أول ما يقومون به ، هو تغيير النظام الـذي كانـت تسـير عليـه الدولـة ، فإن تغلبوا بالحرب أسروا وسلبوا ، واسـتباحوا المغلـوبين للجـيش أيامـا مكافـأة علـى انتصارهم .وعملوا على إزالة معالم الاعتزاز ليكـون إخضـاع الأمـة المغلوبـة نهائيـا، وأقصوا الطبقة التي كانـت تسـير الـبلاد عـن مـواطن التـأثير ، فـلا يتمكنـون مـن الانتقاض إذا سنحت الفرص . وإذا كان ذلـك بالطريقـة السـلمية فـإنهم يغيـرون نظـام الحكم، ويقصون أهل الرأي فيهم، ويستبدلونهم بالسـفلة الـذين يسـاعدونهم علـى معرفـة عورات البلد، ويمتصون الخيرات. ولا ينتهـي أمـرهم إلا بفسـاد البلـد الـذي يدخلونـه. ثم أضافت: هذا ما شهد به التاريخ، وهو ممتـد إلـى المسـتقبل، فـلا تجـدونهم سـائرين إلا على هذا النحو من الفساد.

35-وإني مرسلة إليهم ...بم يرجع المرسلون.

ثانيهما: أن أمر سليمان ما يزال غامضا، وعرضت: أن من الحكمة أن نختبره بإرسال هدية لها قيمتها. فإن كان من الملوك الذين يهمهم ما يجمعونه لأنفسهم من أموال، فإنه يقنع بها، ونبتعد عن الحرب التي لا تأتي بخير. ونأمن شره في الحاضر والمستقبل ، لأن المهتمين بالأموال أبعد ما يكون عن الشجاعة ومواقف الشرف والبطولة. وإن كان لا يهتم بالمال وهو صاحب همة عالية، دبرنا ما نواجهه به في المستقبل بعد أن يتضح الأمر. فإنا ننتظر ونترقب ما يحمله لنا الرسول من أخبار.

اختصر القرآن ما تلا عرض رأيها. والمقـام يقتضـي أن المـلأ وافقهـا، وأنهـا أعـدت هدية ثمينة رفيعة المقدار والمحتويات، وبعثت بها إلى سليمان مع رسولها.

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَـٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن

تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

قبل : طاقة.

الصاغر : الذليل.

عفريت : أصله اسم لعتاة الجان ويطلق على الشديد الذي لا ينال.

بيان المعنى الاجمالي :

قدمت رسل بلقيس حاملين للهدية التي أرادت أن تختبر بها سليمان . أنكر عليهم أن يكون الرد على رسالته بهذا المستوى الهابط، وقياسه بهدية مالية هي لا قيمة لها عنده مهما جمعت من النفائس. فإن ما مكنه الله من المال أوفر وأنفس مما عندهم. ثم صرح لهم بموقفه الحازم: إنه سيأتيهم بجيشه الكاسح، وسيحتل أرضهم بجنود لا طاقة لهم بها، ولا يستطيعون الوقوف أمامهم. وليخرجنهم من مدينتهم أسرى أذلاء. أبلغ الوفد ما سمعوا من سليمان وما شاهدوه من قوة عظيمة ومنظمة جدا. ثم علم سليمان أن بلقيس قد أخذت الطريق لتقديم طاعتها ودخولها تحت سلطانه. وتوجه إلى من حوله من الخبراء والعلماء قائلا لهم: من منكم يستطيع أن يأتيني بعرشها العظيم قبل أن تصل إلينا، لتكون دهشتها أعظم وتدخل المهابة في قلبها. تقدم عفريت مارد من الجن وقال له: إني قادر على أن أحضره لك قبل أن تقوم من مجلسك هذا. ثم قام عالم من الدارسين للكتب، فقال: إني قادر على أن آتيك به قبل أن تحول نظرك عما كنت تنظر إليه. وتم له ما أراد، وانتصب العرش أمام ناظره. فعبر عما امتلأت به نفسه قائلا مستحضرا النعم التي تتباعت عليه : هذا الذي تحقق هو من فضل ربي عليّ ليس لي في ذلك يدٌ ، وإنما هو عونه وهدايته . ثم أطلق قاعدة إيمانية خلقية : أن من عبر عما امتلأ به قلبه من الشكر ، فإن عاقبة الشكر هي له. يعطيه الله بها أجرا ،ويضاعف له الخيرات. ومن كفر فضل ربه وجحده فإن الله غني عن شكره ، وهو مع ذلك كريم لا يحرم الكافرين رزقهم الذي قدره لهم في الدنيا.

بيان المعنى العام :

36- فلما جاء سليمان...بهديتكم تفرحون.

كلفت بلقيس وفدا من قومها ليحملوا هديتها إلى سليمان ،وقد يكون أنها أرادت إضافة إلى تبليغ الهدية ، أن يعرفوها بالوضع العام لمملكة سليمان مما يعمق معرفتها به. وسار الوفد وقدم الهدية النفيسة لسليمان . والدخول في تفاصيل الهدية لا يستند إلى دليل. فلنقتصر على ما اقتصر عليه القرآن، ولا نضيف إلا ما طواه القرآن مما هو معلوم، ليكون ما نضيفه محققا لوضوح النص.

كما ذكرنا سابقا: رزق الله سليمان آفاقا عقلية واسعة وحكمة نافذة، وهمة عالية، وأنه كان يهدف إلى أمرين مهمين: ضم مملكة اليمن إلى مملكته، وتحويل أهلها من الشرك وعبادة الشمس إلى التوحيد وإسلام الوجه لله. ولذا فإنه بمجرد ما سمع من الوفد الذي وجهته إليه بلقيس، الجواب الذي كلفته به، وأنه لا يعدو شيئا من المال هو حقير في نظره مهما بلغ .وشتان ما كان يهدف إليه من كتابه وبين عرض الوفد. بادر بالإنكار ، وأنه يرفض رفضا قاطعا أن يظن به أنه راغب في المال ، وعلل ذلك بقوله :إنكم تجهلون أن ما رزقني الله من الأموال والنفائس أعظم وأفضل وأجود مما آتاكم . أنا في غنى عن هديتكم، ووضعي غير وضعكم فأنا لا أعير لهديتكم اهتماما، بل أنتم تتطلعون لورود الهدايا إليكم وتفرحون بها.

37-ارجع إليهم ...وهم صاغرون.

ثم خاطب الوفد بعد أن عرفهم منكرا على مُرْسِلَتِهِمْ جهلها بعظيم ثروته وعالي همته بقوله : ارجع للذين أرسلوك ، وأخبرهم أني بكل تأكيد سأزحف عليهم بجنود يهزمونهم شر هزيمة ،ولا يستطيعون أن يقفوا أمامهم ، ويعجزون عن مقاومتهم، ويخرجونهم من معاقلهم ويأسرونهم مضروبين بالذل والصغار.

38-قال يا أيها الملأ... مسلمين.

مشاهد مقدّرة طواها القرآن حسب طريقته في عدم تتبع الجزئيات التي ليس فيها كبير عبرة . ويكون التقدير والله أعلم : أن الرسل رجعوا إلى بلدهم تصحبهم الهدية التي حملوها لسليمان ، وقصُّوا على بلقيس وقومها عظمة ملك سليمان ،وما سُخّر له من القوى . وأنها اختارت أن لا تدخل معه في حرب والقوى غير متكافئة. ولذا قررت أن تقدم عليه كما طلب في رسالته: وائتوني مسلمين. وأن الخبر وصل إلى سليمان بما يعلمه أنها تجهزت للقدوم عليه. وبهذا فإن سليمان عليه السلام انتصر انتصارا قيما وحقق ما خطط له من أول الأمر. ولذلك خاطب أهل مشورته،

فناداهم: أيها الملأ ! إن بلقيس قادمة علينا ، وأريد أن أفاجئها بما لا تتوقعه ، فيكون عامل الرهبة والحيرة مسلطا عليها في أول لقاء بيننا .و كما أخبرني الهدهد فإنها تعتز بعرشها الذي جمع من مظاهر العظمة ما ميزه عن غيره من العروش ، وأريد أن تحضروه لدي قبل قدومها ، فأيكم يستطيع ذلك ؟

39-قال عفريت من الجن .....لقوي أمين.

تقدم عفريت من الجن معروف باقتداره، يتقى لشره وخبثه وشطارته ،فقال : إني مستعد على أن اتيك سريعا بالعرش الذي طلبت إحضاره ، وإن إمكاناتي لا يعجزها هذا الأمر، إني قوي على حمله وتجاوز المسافات به حتى يكون بين يديك، وإني أمين على ما حواه العرش من أشياء ثمينة . وإذا أذنت يكون حاضرا أمامك قبل أن ينتهي مجلسك هذا.

40-قال الذي عنده علم...فإن ربي غني كريم.

تقدم إثْرَهُ الذي درس الكتب، وتمرس بالحكمة، وأجاد تطبيق القوانين العلمية لينتفع بها في الحياة. وخاطب سليمان بقوله: إني قادر على إحضار عرشها قبل أن يرتد إليك طرفك. أي توجه نظرك إلى المرئي ثم تحوله عنه .على معنى أن الإنسان يمد بصره إلى موقع ثم يتحول نظره من ذلك الموقع إلى موقع اخر .فهذه اللحظة كافية لمن استمد علمه من الكتب أن يحضر العرش.

يعلق الشيخ ابن عاشور رحمة الله عليه: وهذه المناظرة بين العفريت من الجن، والذي عنده علم من الكتاب، ترمز إلى أنه يتأتى بالحكمة والعلم ما لا يتأتى بالقوة. وأن الحكمة مكتسبة لقوله:" عنده علم من الكتاب " وأن قوة العناصر طبيعة فيها، وأن الاكتساب بالعلم طريق لاستخدام القوى التي لا تستطيع استخدام بعضها بعضا (يقصد أنها لا تحصل نتائجها من ذاتها) فذكر في هذه القصة مثلا لتغلب العلم على القوة.

تبارى العفريت الجني والعالم الدارس للكتب في السرعة التي يستطيع كل واحد منهما إحضار عرش بلقيس قبل دخولها على سليمان . وتم لسليمان ما أراد ، وإذا العرش العظيم الذي كان يتصوره من الوصف ،يراه مستقرا عنده في لحظة.

إنه وإن كان ما تحقق أمرا عجبا، والمفاجأة ضخمة بالمقاييس العادية، من شأنها أن تستولي على النفس وتشغلها، على الأقل لحظات، عما يحيط بالإنسان الذي تم له ما أراد. ولكننا نعيش في هذا المشهد مع نبي، قلبه معلق بالله، لا يقطع عنه أي شيء خيط النور الذي يصله بربه بل يزداد إشعاعا وقوة. فصرح بما امتلأت به نفسه

بهجة وسرورا [هذا من فضل ربي]. وتصور في مضمون الإشارة ما شئت ، من حضور العرش ، إلى ما حوله من العلماء والجن ، إلى سبقهم للطاعة ، إلى استجابة ملكة سبأ وسيرها إليه طائعة ، إلى الإيمان الذي دخل فيه قومها . ثم أردف بقاعدة إيمانية، وحكمة خلقية: إن من يشكر الله فإنه هو المنتفع بشكره، ينشرح قلبه بذلك، ويلقى جزاء شكره ثوابا يوم القيامة، وزيادة للخيرات في الدنيا. فنوافل الشكر تعود إليه في الدنيا والآخرة. وفي المقابل فإن من يجحد فضل الله ، فإن موقفه الجاحد لا يضر الله شيئا ، فإنه سبحانه غني عن شكره ، ثبت له الكمال المطلق . وإنه سبحانه لكريم لا يسرع بتسليط العقوبة والحرمان على الجاحدين لفضله ، بل يمهلهم ويوالي نولهم من خيراته ، وإن كان لا يمنحهم البركة التي بها يكون العمل غير منقطع.

قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ

نكروا : غيروا عرشها.

ممرد : مملس .

القوارير :ج قارورة أصله إناء من زجاج ، والمراد به هنا الزجاج.

بيان المعنى الإجمالي ،

طلب سليمان من الصناع أن يجروا تغييرات على العرش تجعل الناظر إليه غير متيقن بأنه عرش بلقيس .ولما قدمت بلقيس على سليمان عرض عليها الموكلون بقبولها العرش وسألوها: أهكذا عرشك ؟ كان جوابها يدل على فطنتها وحذرها فلم تقل : إنه هو، ولم تقل إنه يختلف عنه ، وأجابت إجابة موهمة : كأنه عرشي على التشبيه لا على التحقيق . ولما بلغ سليمان جوابها ومخائل فطنتها ذكر نفسه والملأ من حوله بتصريحه بما يلي: إن الله تفضل علينا فآتانا العلم قبل قومها ، وهدانا

للإسلام . وأما بلقيس فإنها رغم رجاحة عقلها حال بينها وبين الإسلام عقيدتها في الشمس التي كانت تعبدها من دون الله ، وأنها تأثرت بالمحيط الكافر الذي كانت تعيش فيه .

لما أوصلها المرافقون إلى الصرح الذي كان يجلس في صدره سليمان ، أذن لها بالدخول عليه ، واندهشت إذ ظنت أنه يفصلها عن سليمان ماء دافق يتموج ، فرفعت ثيابها وكشفت عن ساقيها حتى تصل إلى سليمان دون أن تبتل أطراف ثيابها، ويتقاطر منها الماء، مما لا يتناسب مع مقامها كملكة .وناداها سليمان : تقدمي، فإن الصرح قد تمت هندسة بنائه على أن أرضيته زجاج مصقول ، يجري الماء من تحته . انبهرت بما رأت، وتوجهت إلى الله معترفة بما كانت عليه من الضلال ، وأنها ظلمت نفسها بعبادة الشمس ، وأنها عزمت على اتباع سليمان في عقيدته وشرعه ، معترفة بأنك أنت الله رب العالمين .

بيان المعنى العام :

41-قال نكروا لها عرشها...من الذين لا يهتدون.

بعد أن أحضروا له عرشها، طلب من الماهرين من الصناع الذين تحت إمرته أن يعملوا على تغيير معالم عرشها بصفة تجعل الناظر فيه يشك في أنه عرش بلقيس بعدما أدخل عليه من التغيير الجوهري. وتوجهوا إليها بالسؤال: أهو عرشها الذي تركته في قاعة عرشها ببلدها ؟ أراد أن يختبر بذلك دقة ملاحظتها فتهتدي إلى أنه عرشها، أم إن التغيير من ناحية وبعد المسافة بين المكان الذي تركت فيه عرشها وموقعها الآن في قصر سليمان من ناحية أخرى يضللها ويرمي بها في حيرة.

42-فلما جاءت قالوا...وكنا مسلمين.

تم لسليمان ما أراد ، وبمجرد ما قدمت على سليمان وُجّه لها سؤال : أهكذا عرشك؟ وذلك لأنها كانت تعتز بعرشها حسبما تقدم لنا. وقد أبقته في بيت حكمها، والعرش الماثل أمامها شبيه تمام الشبه به، وإن كان المهرة من الصناع قد أدخلوا فيه تغييرات. ولدقة ملاحظتها المساوية لدقة كلامها وحضور بديهتها، أجابت جوابا مبهما فقالت: كأنه عرشي، فلم تنف كونه عرشها ولم تثبت. وأجابت جوابا فيه غموض وتحوُّطٌ.

طوي ماتم بعد دقيق جوابها. والذي يظهر أن سليمان لم يكن حاضرا عند اختبار عقلها. وأن السؤال كان من بعض الملأ. وذلك أن لقياها بسليمان كانت بعد أن أذن لها بدخول الصرح الذي يجلس سليمان في صدارته. وأن سليمان أبلغوه ما أجابت

به. فتوجه إلى الله معترفا بفضله عليه: أن مكنه من دقيق المعرفة بالله وبالعمق في إدراك أسرار الموجودات ما لم تبلغه، وأنه أعلمه بإسلامها قبل قدومها. وأنه أكرمه الكرامة الكبرى بجعله مسلما وجهه له.

43-وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين.

إنها على جودة ذهنها ما كانت موحدة ، صدها عن التوجه لله، الشمس التي كانت تعبدها وتعتقد فيها خصائص الألوهية. حال بينها وبين الإيمان بالله نشأتها في قوم كافرين . وعلى هذا الفهم ترتبط الآية بالشكر الذي رفعه سليمان لله: **رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي** .فنشأته في بيئة صالحة هو أحد موجبات الشكر لهذا الفضل العظيم. وهو ما حرمته بلقيس.

44-قيل لها ادخلي الصرح...لله رب العالمين.

بعد أن أكبرتْ ما شاهدته من الإتيان بعرشها، وتغييره في وقت قصير تغييرا يعمي حقيقته إلا لمن كان فطنا، قادها الموكلون بها إلى سليمان، الذي كان جالسا في صدر الصرح يكسوه النور وتجلله المهابة. بلغت الصرح و كانت مرفوعة الرأس منتصبة القامة تغطي ثيابها رجليها و تجر وراءها ما ينسحب منها على الأرض مما يعبر عن كبرياء و شموخ. إنه حسبما هو معروض من الآثار القديمة كان لباس الطبقة المترفة يتدلى إلى الأرض، و ينسحب وراءهن مما يزيد في مظهر الأناقة و العظمة (train traine*) فتوقفت لأنها وجدت أنه يفصلها عن عرش سليمان ماء دافق يتموج، فانحنت لترفع ثيابها و كشف ساقيها، فتحقق لسليمان ما دبره بحكمته مقدما، مما يكسر عزتها فناداها تقدمي، إن هندسة الصرح تمت على جعل أرضيته صفحة من زجاج صقيل يجري تحته الماء .

اندهشت بلقيس مما شاهدت . وتبعا لرجاحة عقلها صرحت بصوت مسموع: رب إني ظلمت نفسي إذ تركتها في ظلام الشرك سادرة، ولم أخلصها من المادة إلى السمو إليك. وإني أسلمت وجهي مخلصة لك. أتقرب إليك وأطبق شرعك، وألتزم الدين مع سليمان حسب ما يهديني إليه.

وبلغ القرآن من القصة ختامها بهذا المشهد، لتكون عبرة لقريش المستكبرين، لينظروا كيف إن امرأة ذكية بيدها مقاليد ملك أمة قوية، لما بهرها الحق الذي شاهدته من سليمان أسرعت إلى الاعتراف بالخطأ، والدخول في الإسلام والالتزام بأحكامه.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ إِنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

بالسيئة: الحالة السيئة نزول العذاب .

اطيرنا: تطيرنا وتشاءمنا .

الرهط : الجماعة من الثلاثة إلى العشرة.

التبييت : مباغتة العدو ليلا.

مهلك : إهلاك.

ولي صالح : أقرب الناس إليه الذي يقوم بأخذ ثأره.

التدمير: الإهلاك الشديد.

خاوية : خالية.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد أرسلنا إلى ثمود صالحا رسولا منهم عرفوه، وخبروا أخلاقه واستقامته، دعاهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة. وهو المبدأ الذي قامت عليه جميع الديانات المنزلة. انقسم قومه إلى فريق مؤمن به، وفريق كافر يخاصم صالحا ويخاصم المؤمنين. واصل الفريق الكافر استخفافهم بما أوعدهم به صالح ، وقالوا :ليعجل تسلط العذاب علينا .حاول صالح أن يرجعهم إلى الرشد. وقال لهم: يا قوم، إنه من

المعقول أن تطلبوا أن يعجل لكم بـالخير والسـلامة لا بالسـوء. أحرضـكم علـى طلـب المغفرة من الله، فإنه رحيم يقبل توبة التائبين ويعفو عما وقعوا فيه من الخطيئة.
زادهم هذا اللين تمردا ووقاحة فقالوا له : تشاءمنا بـك وبمـن آمـن معـك .أعـادهم إلـى التصور الصحيح قائلا : إن المؤثر في الكـون هـو الله، فهـو الـذي يريـد بكـم الخيـر وينفذه ،أو يريد بكم الشر وينفذه . الحقيقة أنكم تُخْتَبَرُون بما يحـل بكـم مـن ربكـم، إنـه المتفرد بالتأثير . سجل القرآن أنه كان في مدينة صـالح تسـع مجموعـات تعاونـت فيمـا بينها على الفساد فلا ترى منهم صـلاحا. أهمهـم صـوت الحـق الصـادر مـن صـالح، فدبروا فيما بينهم أن يكيدوا لـه مكيـدة تنهـي أمـره. اجتمعـوا وقـالوا : ليحلـف كـل واحدمنا على تنفيذ ما يأتي : أن نجتمع ليلا ونباغت صـالحا وأهلـه فنقـتلهم جميعـا ،ثـم نقسم لمن يطالب بدمه : مـا حضـرنا فـي أي زمـان ولا فـي أي مكـان قتـل أهلـه ، ونؤكد مقسمين أيضا : إنا لصادقون . أعدوا خطتهم بكامـل المكـر، وغفلـوا عـن تقـدير الله وتصرف قدرته. وخسروا. فإن الله قدّر أن يبيـدهم ويـدمرهم تـدميرا هـم وقـومهم. وفعلا كانت غاية مكرهم أن أصبحت بيوتهم خاليـة مـن سـكانها الـذين أبيـدوا جميعـا. إن ما انتهـى إليـه أمـرهم فيـه دليـل علـى قـدرة الله وحكمتـه ، لا ينتفـع بـذلك إلا العالمون. وأنجى الله المؤمنين المتقـين. فالإيمـان والتقـوى متـى اجتمعـا كانـا حصـنا لصاحبهما.

بيان المعنى العام :

45- ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم...فريقان يختصمون.

تتوالى القصص التي على القرآن بعرضها ، تسـلية للنبـي ﷺ عمـا يلقـاه مـن مشـركي مكة من الصد عن الإسلام . وهذه قصة صالح عليـه السـلام مـع قومـه ثمـود تجـري في نفس السياق، والمناسبة بـين القصـتين، هـو الموقـع الجغرافـي لـديارهم إذ كانـت على تخوم مملكة سليمان.
بكل تأكيد، أرسلنا إلى ثمود رسولا مـنهم غيـر غريـب عـنهم، خبـروه قبـل الرسـالة وعرفوا مزاياه الخلقية واستقامته، هو أخوهم صالح. كانـت دعوتـه تشـترك مـع دعـوة محمد في إنقـاذ المبعـوث إلـيهم مـن الشـرك، دعـاهم إلـى توحيـد الله وأن يفـردوه بالعبادة. حصلت المفاجأة، إذ من المتوقـع أن تكـون الـدعوة إلـى توحيـد الله، وجمعُهـم على عقيدة واحدة، ممكنا لاجتماع كلمتهم وذهاب الخـلاف مـنهم. ولكـنهم انقسـموا إلـى فريقين، فريق استكبروا ورفضوا، وفريق قبلـوا مـا جـاءهم بـه مـن الـدين. وتصـلب

المشركون في شركهم، واقتنع المؤمنون بما جاءهم مـن الحـق. فكانـت الخصـومة بـين الفريقين خصومة ظاهرة قوية .

46-قال يا قوم لم تستعجلون...لعلكم ترحمون.

استكبر المشركون وتحدوا صالحا أن يحل بهـم مـا أوعـدهم بـه مـن العـذاب. علـى معنى أنهم استبطأوا نزول العذاب فجعلوا ذلك أمـارة علـى كذبـه ، وأنـه لا ينـزل بهـم أي مكروه لعدم إيمانهم بما جاء به ، اعتمادا على عدم حلوله .

تلطّف بهم وذكرهم بصلته بهم فناداهم: "يـا قـوم " تـأملوا، وحكّمـوا عقـولكم وابتعـدوا عن التطرف. إن طلبكم أن يحل بكـم العـذاب عـاجلا غيـر معقـول، بـل المعقـول أن تطلبوا دوام السلامة. إن اختياركم التصـلب فـي الكفـر ومطالبـة الله بتعجيـل عـذابكم ، خير منه أن تؤمنوا بـالله وتطلبـوا منـه أن يكتـب لكـم السـلامة مـن العـذاب. إنـي أحرضكم لتقلعوا عن الشرك، وأن تطلبـوا مـن الله المغفـرة عـن شـرككم وتجـاوزاتكم السابقة، فإنه بذلك تتعرضون إلـى الرحمـة الإلهيـة التـي بهـا ترتفـع المؤاخـذة عـن المذنب إذا تاب وأناب.

47- قالوا اطيرنا بك...أنتم قوم تفتنون.

بعد هذا الجواب الحاني اللطيف من صالح، دفعـتهم غلظـتهم إلـى أن يواجهـوا صـالحا بقولهم: إنك طالع شؤم من اليوم الذي بعثت فينا، لا يأتينـا منـك ولا مـن الـذين اتبعـوك إلا الشر.

وجد صالح في جوابهم نتائج كفرهم، فبـادر إلـى دعـوتهم إلـى مـا يصـحح عقيـدتهم. فقال لهم: إن المتصرف في الكون تصرفا يجري فيه مـا قـدره مـن خيـر أو شـر هـو الله. ولكنكم قوم فُتِنْتُمْ عن إدراك الحقيقة وتعلقـتم بخيـالات لا دليـل لكـم عليهـا. إن مـا يصيبكم من خير أو شر هو اختبـار لكـم مـن الله، وابـتلاء لكـم ليتميـز المـؤمن مـن الكافر، والمطموس على عقله بالأوهام، ممن تعلق بالله وربـط مـا يحـدث بقـدره، وهـو راض به.

48- وكان في المدينة.. ولا يصلحون.

بذل صالح كل ما آتاه الله من الحكمـة ، ومـن اللـين ، ومـن ترتيـب الأدلـة وعطـف مخاطبيه من الميل مع الهوى ، إلى النظـر العقلـي الرصـين . والباطـل مهـزوم أمـام قوة الحق. ولكن الهوى عندما يتغلب علـى المـدارك يعمـي البصـائر، ثـم يبعـث فـي أصحابه اندفاعا للشر ليهزموا الخير ويكون سلوكهم متجهـا دائمـا نحـو الشـر والفسـاد، ومعاداة الخيرين الأبرار. وهؤلاء هم شـيعة الشـيطان ،تجـد مـنهم فـي كـل مجتمـع.

وكان منهم في مدينة صالح، تسع مجموعات تألفت علـى الشـر وعلـى الفسـاد. واعتنـى القرآن بتشخيص فسادهم بقولـه يفسـدون فـي الأرض ولا يصـلحون: تمحضـوا للفسـاد وبلغوا الذروة في ذلك فلا تجد منهم أي صلاح .

49- قالوا تقاسموا بالله...وإنا لصادقون.

اجتمعوا لتدبير مؤامرة تقضي على النبي صـالح، وانتهـوا إلـى مـا يلـي: ليقسـم كـل واحد منا بالله، أن نباغته ليلا تحت جـنح الظـلام، فنقتلـه دون أن يـتفطن لفعلتنـا أحـد. وبهذا نستريح منه . وحتى يذهب دمه هدرا، وننجو من الثـأر الـذي يقـوم بالمطالبـة بـه وليه، فمن تمام المؤامرة، أن نقسم بالله ما شـهدنا هـلاك أهلـه ولا كنـا حاضـرين فـي زمان القتل ولا في مكانه. ونضيف تأكيدا وإنا لصادقون في قسمنا لننفي كل ريبة .

50- ومكروا مكرا...وهم لا يشعرون.

يعلق القرآن على ما أعدوه وما ائتمروا به فيقول : إنهم لقصور تفكيرهم ، والفساد الذي تأصل فيهم، ظنوا أنهم قد رتبوا مؤامرة خفية ، وتوقعوا كل الاحتمالات، من الإجهاز على صالح ، إلى طريقة التبري من دمه .وفي مقابل هذا المكر رتب الباري ما يحبط مخططاتهم ، وينجي نبيه ويسحقهم .وهم لا يشعرون بما أعده الله لهم.

51- فانظر كيف كان عاقبة مكرهم...وقومهم أجمعين.

تبدأ الآية باستحضار ما فاجأهم به مما يحقـق المكـر المحـبط لمكـرهم ،كأنـه منظـور إليه . فلفت القرآن نظر محمـد صـلى الله عليـه وسـلم ليتبـين مـآل مخططـاتهم ومـا انتهى إليه مكرهم. فما هو هذا المكر الشديد؟ سـلطنا علـيهم مـن العـذاب مـا دمـرهم تدميرا واستأصلهم، فلم يبـق فـرد مـن أفـراد الـرهط، ولا مـن قـومهم. كمـا دبـروا للاعتداء على صـالح وقومـه، كـذلك كـان إحبـاط مكـرهم باستئصـالهم مـع قـومهم أجمعين، فلم ينج منهم أحد.

52- فتلك بيوتهم ...لقوم يعلمون.

الإهلاك الماحق ترك ديارهم بلاقع خاويـة لا يسـكنها أحـد . صـورتها حاضـرة فـي نفوس المخاطبين لأنهم كانوا يمرون على ديار ثمـود فـي سـفرهم إلـى الشـام، فلـذلك أشار إليها القرآن بقوله: تلك بيـوتهم . وأضـافت الآيـة إضـافتين وإن كانـت اسـتوفت التصوير الذي آلت إليه منازلهم .

الإضافة الأولى: أن خراب بيوتهم كان بسـبب ظلمهـم. والظلـم يشـمل مـا تجـاوز بـه قوم صالح ، من الشرك ، ومن تكـذيب صـالح ، ومـن إعـداد المـؤامرة لقتلـه وقتـل أهله، ومن التصميم على التنصل من المسؤولية بعـد تنفيـذ القتـل . وفـي ذلـك تحـذير

من عاقبة الظلم بأوسع معانيه. روي أن ابـن عبـاس رضـي الله عنـه قـال: أجـد فـي كتاب الله أن الظلم يخرب البيوت وتلا " فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا "

الإضافة الثانية: إن ما عرضته قصـة ثمـود فيـه دليـل علـى أن الله ناصـرٌ أوليـاءه، ولكن لا ينتفع بذلك إلا من كان عالما موقنا بقـدرة الله وعدلـه وحكمتـه فـي تصـرفاته. مما يدل على أن من لم يستقر في عقله سلطان الله العادل، فإنه لا يتعظ ولا ينتفع.

53-وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون .

في هذه الآية تصريح بنجـاة المـؤمنين، وأن هـذه النجـاة كانـت بعنايـة الله، ذلـك أن العذاب الساحق قد يعم الطـالح والصـالح، وفيـه إشـارة إلـى أن الإيمـان، إذا صـحبته التقوى، يكون حرزا لصاحبه من أن يمسه العذاب العام.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۞ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۞ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۞ ﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفاحشة : الفعلة القبيحة (اللواط)

وأنتم تبصرون : معلنين.

تجهلون: تأتون فعل الجاهلية.

يتطهرون: يتنزهون على طريقة الاستهزاء بهم.

الغابرين : المهلكين الباقين مع من قدر استئصالهم.

بيان المعنى الإجمالي :

واذكر ما ختم به أمر قوم لـوط، لمـا أنـذرهم رسـولهم لـوط عليـه السـلام، منكـرا عليهم إتيانهم للفعلة القبيحة المنكرة، وفسـادهم إلـى درجـة أنهـم أصـبحوا يتجـاهرون بها بدون حياء. قال لهم: عجبا لكم كيـف ترغبـون فـي قضـاء شـهوتكم الجنسـية مـن الذكور أمثالكم وتُعرضون عن النساء مع مـا أودع الله فـيهن مـن خصـائص بهـا يـتم التكامل بين الجنسين، من رقة ومن لطف وجمال. حقا إنكـم قـوم انغـرس الفسـاد فـيكم وانحرفتم انحرافا بالغا.

كان موقف قومه من موعظته تصـلبهم علـى الفسـاد، وهـددوه بإخراجـه ومـن آمـن معه، وسخروا منهم بأنهم قوم بالغوا في الطهارة.

إنه لما بلغ بهم التصلب في الفساد إلى هذا الحد ، قدر الله إنجاءه من كيدهم ، ومن العذاب الذي سيتأصلهم .وأن امرأته التي كانت مقرة لهم على فسادهم سينالها ما ينالهم من العذاب .ونزل عليهم من السماء عذابا منتنا بعا كالمطر .فما أسوأ ما انتقم الله به منهم

بيان المعنى العام :

54→55- ولوطا إذ قال لقومه...بل أنتم قوم تجهلون.

واذكر تاليا عليهم قصة لوط عليه السلام ، في ذلك الظرف الذي قال فيه لقومه منبها لهم منكرا عليهم أمرين قبيحين جمعا بينهما لتجذر الفساد في نفوسهم : أنكر عليهم شيوع الفعلة البالغة أقذر حد في الفساد والقبح : العلاقة الجنسية بين الذكور، وزادها قبحا أنهم يعلنون بذلك ولا يتسترون .مما يدل على انقلاب القيم عندهم بحصول الرضا العام عن الشذوذ الجنسي. تشتهون الرجال دون النساء . وأضاف إلى الإنكار الأول توبيخهم على جهلهم بالعواقب، فنبههم إلى أن الشهوة العارمة غطت على ما في فعلهم من القبح ومناقضته للفطرة، وشدة الفساد.

اهتز سلم القيم اهتزازا كبيرا، إن لم نقل إنه تحطم، على أيدي الطغاة الذين مسكوا بزمام القيادة حسب أهوائهم، فالعدل هو ما يمكن لسلطانهم والتسلط على من لم يبلغ قوتهم فأرضخوه ليكون تابعا لهم. والميزان مختل ترجح فيه كفة ما ينفذون به مصالحهم. وخير مثال على ذلك في عصرنا حق النقض في مجلس الأمن ، والطريقة التي تم بها استخدامه وتعطيل العدل ونصر الظلم .خدروا البشر بشعارات تستقطب الرضا العام، وغالطوا الناس على أنها مثال للقيم التي جاهدت البشرية في تاريخها الطويل لتبلغها، وما قاربت بلوغها إلا اليوم. ومن ذلك ميثاق حقوق الإنسان الذي جندوا له وسائل الإعلام، ورسخوه بالمؤتمرات والقرارات المفصلة لمضامينه. والتوقيع عليه من الحكومات الفاعلة والمضللة، والحكومات المغلوبة على أمرها. وبلغ التضليل أن مكنوا الشذاذ جنسيا من إعلان شذوذهم ، والدفاع عن فسادهم واعتبروه حقا من حقوق الإنسان .

56- فما كان جواب قومه...أناس يتطهرون.

تبع إنكار لوط وتقريعه قومه على ما انغمسوا فيه من الشذوذ الجنسي ، أنهم تصلبوا في الثبات على إشباع شهواتهم على ما اختاروه لأنفسهم .ورأوا أن هذا التذكير والإنكار من لوط ، صوت يفسد عليهم متعتهم ، فأجمعوا أمرهم على إخراج لوط ونفيه خارج قريتهم . تآمروا بهذا، وأضافوا إلى ذلك أن سخروا من تمسك لوط بقيمه على أنه وأتباعه أناس يتطهرون من الشذوذ. قالوا هذا استهزاء بهم.

الفهـــــرس